الصحيح والضعيف والمسكوت عنه

تاريخ الطبري

تتمة تاريخ الخلافة في عهد العباسيين

١٩٣ هـ - ٢٤٧ هـ

للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري

(٢٢٤ - ٣١٠ هـ)

حققه وخرج رواياته وعلق عليه وميز صحيحه

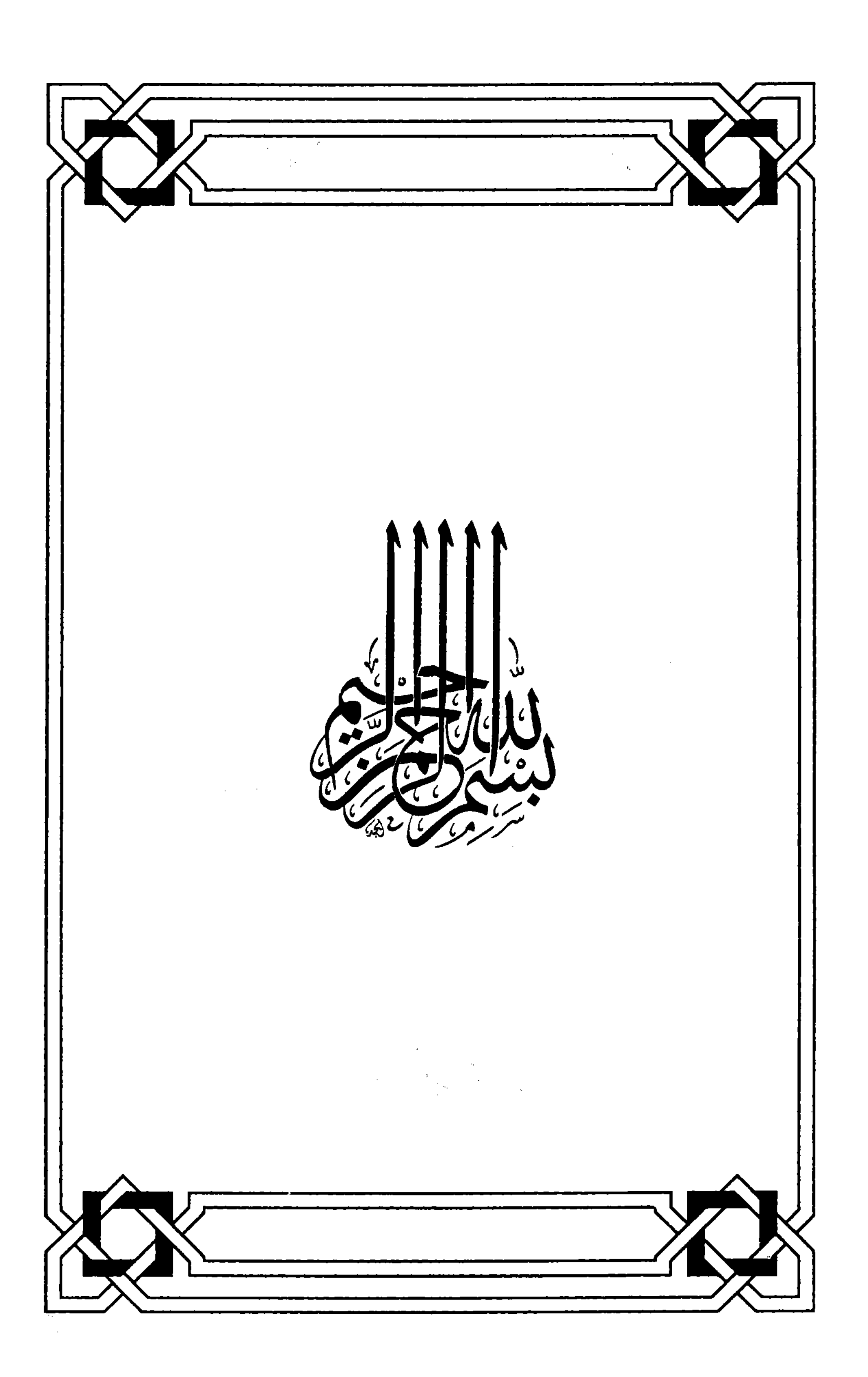
محمد بن طاهر البرزنجي

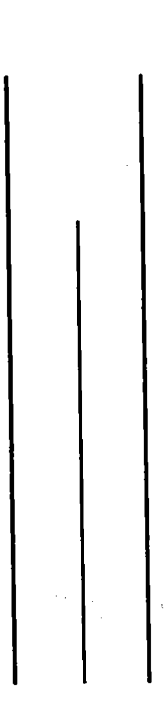
بإشراف ومراجعة المحقق

محمد صبحي حسن حلاق

المجلد الثاني عشر




بسم الله الرحمن الرحيم



الصحيح والضعيف والمسكوت عنه

تاريخ الطبري

تتمة تاريخ الخلافة في عهد العباسيين



الطبعة الأولى

1428 هـ ـ 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من ٢

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : صحيح و ضعيف تاريخ الطبري 13/1

التأليف : الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 6299

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : مطابع المستقبل

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـــينا ـ بناء الجـــا

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 43502

بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديـة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 3/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وبعد:

فهذه مرحلة أخرىٰ من مراحل تحقيقنا وتخريجنا لأخبار الطبري وتعليقنا عليه. يبدأ من حوادث سنة ١٩٣هـ، ونرجوا أن ينتهي بأحداث سنة ٣٠٢هـ بإذنه تعالىٰ.

للمرة الأولىٰ لم نفصل بين (الصحيح) من جهة و(الضعيف والمسكوت عنه) من جهة وإنما أبقينا جميع الأقسام مع بعضها وللأسباب التالية:

أولاً: بالإضافة إلى اختفاء الإسناد بصورة تكاد تكون تامة عند خليفة بن خياط والبسوي (وهما مؤرخان متقدمان ثقتان محايدان) فإن تسجيلهما للأحداث كذلك قلّ إلى درجة كبيرة حتىٰ أن القارىء يستغرب حينما يجد البسوي يقتصر في ذكره لأحداث سنة معينة على ذكر الحجّ فقط مع بعض ـ الوفيات، وكذلك الحال بالنسبة لخليفة عندما لا يتجاوز خبره عن وقائع سنة بِكاملها مثلاً سطراً أو سطرين ولعلّه اختصر حوادث سنين عدة في صفحة واحدة.

وبما أن كتاب تأريخ خليفة والمعرفة والتأريخ للبسوي هما المصدران الرئيسان لمقارنتنا مع مرويات الطبري فإننا والحال هذه اضطررنا لعدم الفصل بين الصحيح والمسكوت عنه والضعيف حتىٰ لا نترك فجوة أو فراغاً واسعاً في كتابة التأريخ وأحداثه ـ هذا مع الأسباب الأخرىٰ ـ .

ثانياً: وفيما يتعلق بتأريخ الطبري نفسه فإنه قد اختزل الحديث عن وقائع بعض السنين حتى بلغت في بعضها صفحة واحدة أو أقل ناهيك عن ندرة استعماله للإسناد إلا في مواضع كذكره لسير الخلفاء وحتى في هذه المواضع تراه يُسْنِدُ الخبر عن مجاهيل أو شعراء عرفوا بالمجون وغير ذلك.

ثالثاً: يلاحظ القارىء الكريم أن حدثاً هاماً وقع في هذه المرحلة الجديدة وأعني دخول مسألة فرض عقيدة فرقة مبتدعة (وأعني المعتزلة) على جمهور العلماء والناس لفترة عقدٍ من الزمان أو أكثر مما أحدث بلبلة وشرخاً في صف المجتمع الإسلامي آنذاك وبدأت معها حملات المغرضين والمرجفين من أهل البدع وأصبح المجال فسيحاً أمام أهل الأهواء والوضاعين لنشر الأخبار الكاذبة والاتهامات الباطلة لعلماء ورموز الأمة يومها ، مما دفعنا إلى اليقين بأننا بحاجة إلى قواعد أخرىٰ بالإضافة إلى قواعدنا التي استخدمناها في تمييز الصحيح من الضعيف وإضافة مصادر أخرى إلى مصادرنا السابقة فنحن بحاجة إلىٰ كتب العقيدة والفرق والملل والنحل والمذاهب لنتعرف من خلالها على آراء علماء تلك الحقبة بالإضافة إلىٰ كتب الأدب المستوثقة من نسبتها إلىٰ مؤلفيها وأخيراً كتب الفقه المختلفة حتى لا ندخل في باب اتهام بعض العلماء زوراً وبهتاناً ـ وسَنَضْرِب هنا مثلاً لكي نبين الخلط الذي وقع فيه الطبري ولم يتداركه من بعده عدد لا بأس به من الحفاظ وسجّلوا في كتبهم رواية الطبري دون الانتباه إلى ذلك :

فقد ذكر الطبري خبراً طويلاً عن بداية المحنة بمقولة خلق القرآن وذلك في نهاية عهد المأمون وجاء في موضع من الخبر (٨/ ٦٣٧) ـ المقطع الثاني من الصفحة ـ السطر (١٣و١٦) أن نائب المأمون في بغداد (إسحاق بن إبراهيم) استدعىٰ عدداً من العلماء وقرأ عليهم كتاب المأمون وسألهم واحداً واحداً ليقروا بما جاء في طلب المأمون بضرورة القول بخلق القرآن ومن بين هؤلاء (ابن علية الأكبر والنضر بن شميل) ويؤرخ الطبري لهذا الخبر بسنة (٢١٨هـ) بينما ذكرت كتب التراجم والرجال أن النضر بن شميل توفي سنة (٢٠٤) للهجرة أي (١٤) عاماً قبل هذا الحدث [وانظر لوفاته تقريب التهذيب / تر ٨٠٣٥]. وأما فيما يتعلق بابن علية الكبير فإن كان يعني به الإمام الجليل إسماعيل ابن علية (وهو المقصود على الأغلب) فإنه قد توفي أيام الأمين سنة ١٩٣هـ أي قبل هذه المحنة بربع قرنٍ من الزمان ولم ينتبه الحافظ ابن كثير رحمه الله في سرده لهذا الخبر إلى هذاالتناقض سبحان من لا ينسى ولا يسهو ولا يخطىء وهو علام الغيوب.

وهذا مثال ثانٍ يتعلق بمسألة استخدام الشعر في توثيق الخبر التأريخي فكثيراً

ما يذكر الطبري واقعة تأريخية ثم يذكر قصيدة لشاعر قالها في تلك المناسبة ـ وحينما يرجع الباحثون إلى التدقيق في المسألة (أو كما يصطلح أهل الحديث ـ عندما يبحثون عن العلل الخفية] يرون أن هذا الشاعر قد توفي بسنين أو حتى بعقود من السنين قبل تلك الحادثة أي أنه لم يشهدها فكيف نظم تلك الأبيات؟! وإليك المثل:

أخرج الطبري ضمن ذكره لأحداث ووقائع سنة (٢٠١) للهجرة خبراً مَفَادُه أن والي خراسان (في عهد المأمون) افتتح جبال طبرستان وأماكن أخرىٰ فنظم الشاعر سلاّم الخاسر بيتين من الشعر بتلك المناسبة [تأريخ الطبري ٨/ ٥٥٦] ولمّا رجع الأئمة المؤرخون الحفاظ إلى ترجمة هذا الشاعر علموا أنه توفي سنة (١٨٦هـ) بينما كان فتح تلك الأماكن سنة (٢٠١هـ) أي أنه توفي بعقد ونصف عقد من الزمان قبل هذه الواقعة وهذا يعني أن تلك الأبيات لم تنظّم في تلك المناسبة ولا تصح كدليل لتوثيق ذلك الخبر وهذا المثال وغيره من الأمثلة يستدعي منهجاً علمياً دقيقاً وشاملاً لكتب الأدب وبمعايير نزيهة للتأكد من قائلي ذلك الكم الهائل من القصائد الشعرية التي حوتها كتب التاريخ والتأكد من قائليها.

وخلاصة القول فإننا ارتأينا أن نغيّر ملامح منهجنا عند تحقيقنا لأخبار الأعوام (١٩٣هـ وحتى ٣٠٢هـ) فلا نفصل بين الأقسام الثلاثة ـ ونحن على يقين بأن ذلك ممكن ولكن اعتماداً على منهج أوسع وأشمل ولعل في القواعد التي ذكرها الدكتور الفاضل إبراهيم الشهرزوي في منهج إعادة كتابه التأريخ الإسلامي حَلّ لجزء كبير من هذه المعضلة فكتابه وإن كان بعنوان [مناهج المحدثين في نقد الرواية التأريخية] فإن فحوى الكتاب أوسع من ذلك فقد جمع الدكتور إبراهيم جميع ما كتبه الناقدون المتأخرون والمعاصرون في مناهج إعادة كتابة التأريخ وأضاف إليها قواعد جديدة قيمة ولعلَّ ما كتبه أوسع ما كتب في الباب ولو طبقنا ما كتبه الرجل وبالاستعانة بقواعد أخرىٰ ولأعوام عدة لحصلنا على موسوعة قيّمة للتأريخ الإسلامي الصحيح والله أعلم بالصواب.

للأسباب الآنفة الذكر فقد أضفنا مصادر أخرى لم نكن نستخدمها للمقارنة منْ قبلُ إلا نادراً وهي:

١ ـ كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري وهو أحمد بن داود ـ العلامة

النحوي المتوفي سنة ٢٨٢هـ وهو أخباري ثقة [سير أعلام /١٣/ ٤٢٢/ تر ٢٠٨].

٢ ـ كتاب المعارف للعلامة الكبير والكاتب ابن قتيبة الدينوري المتوفي سنة ٢٧٦هـ وقد قال الخطيب في ترجمته: كان ثقة فاضلاً [تأريخ بغداد ١٠/ ١٧٠] وابن قتيبة كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس [سير أعلام /١٣/ ٢٦٩/ تر ١٣٨].

٣ ـ كتاب الوزراء والكتاب: لمحمد بن عبدوس الجهشياري الذي قال فيه ابن النديم كان أخبارياً مترسلاً وقال ابن تغري بردى ، كان فاضلاً ورئيساً وله مشاركة في فنون [النجوم الزاهرة ٣/ ٢٧٩] والجهشياري من الكتاب المشهورين والمعتمدين في بلاط الخليفة العباسي توفي حوالي ٣٣٠هـ.

بالإضافة إلى المصادر السابقة التي اعتمدناها للمقارنة والتحقيق كتأريخ بغداد للخطيب وتأريخ دمشق لابن عساكر والمنتظم لابن الجوزي وأخبار القضاة للقاضي وكيع وفي مواضع قليلة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان وغيره من المصادر التي ذكرناها في حينها:

وإذا اتفق مؤرخان ثقتان أو أكثر من المؤرخين المتقدمين علىٰ أصل خبر أو حادثة أو وفاة أو حج وما إلىٰ ذلك فهو تابع لقسم الصحيح.

والله تعالىٰ أعلم

خلافـــة الأميـــن

وفي هذه السنة بويع لمحمد الأمين بن هارون بالخلافة في عسكر الرّشيد ، وعبد الله بن هارون المأمون يومئذٍ بمَرْو ، وكان ـ فيما ذكر ـ قد كتب حَمّويْه مولى المهديّ صاحب البريد بطوُسَ إلى أبي مسلم سلام ، مولاه وخليفته ببغداد على البريد والأخبار ، يعلمه وفاة الرشيد. فدخل على محمد فعزّاه وهنأه بالخلافة ، وكان أوّل الناس فعل ذلك ، ثم قدم عليه رجاء الخادم يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جماديٰ الآخرة ، كان صالح بن الرشيد أرسله إليه بالخبر بذلك ـ وقيل: [أتاه الخبر بذلك] ـ ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة ، فأظهرَه يوم الجمعة ، وستر خبره بقيّة يومه وليلته ، وخاض الناس في أمره.

ولما قدم كتاب صالح على محمد الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد ـ وكان نازلاً في قصره بالخلد ـ تحوَّل إلى قصر أبي جعفر بالمدينة ، وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة ، فحضروا وصلىٰ بهم ، فلما قضى صلاته صعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ونعَى الرشيدَ إلى الناس ، وعزّى نفسه والناس ، ووعدهم خيراً ، وبسط الآمال ، وآمن الأسود والأبيض ، وبايعه جِلّة أهل بيته وخاصّته ومواليه وقوّاده ، ثم دخل. ووكّل ببيعته على مَنْ بقي منهم عمّ أبيه سليمان بن أبي جعفر ، فبايعهم ، وأمر السنديّ بمبايعة جميع الناس من القوّاد وسائر الجند ، وأمر للجند ممّن بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً ، وبخواصّ مَنْ كانت له خاصة بهذه الشهور[١].

---

(١) أما خليفة فقد ذكر أصل الخبر (بيعة المأمون) في تاريخه (٣٠٥) وأما الدينوري (أبو حنيفة) فقد أيّد خبر الطبري من أن الخبر وصل إلىٰ الأمين يوم الخميس وبويع علناً يوم الجمعة فقال: فأتت الخلافة محمداً الأمين ببغداد يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة ونعاه للناس يوم=

[ذكر الخبر عن بدء الخلاف بين الأمين والمأمون]

وفي هذه السنة كان بدء اختلاف الحال بين الأمين محمد وأخيه المأمون ، وعزم كلّ واحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذ عليهما العمل به ، في الكتاب الذي ذكرنا أنه كان كتبه عليهما وبينهما[(١)].

* ذكر الخبر عن السبب الذي كان أوجب اختلاف حالهما فيما ذكرت:

قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبلُ أنّ الرشيد جدّد حين شخص إلى خُراسان البيعةَ للمأمون على القوّاد الذين معه ، وأشهد مَنْ معه من القوّاد وسائر الناس وغيرهم أنّ جميع مَنْ معه من الجند مضمومون إلى المأمون ، وأنّ جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون. فلما بلغ محمدَ بن هارون أنّ أباه قد اشتدّت علّتُه ، وأنه لمآبِه ، بعث مَنْ يأتيه بخبره في كلّ يوم ، وأرسل بكْر بن المعتمِر ، وكتب معه كتباً ، وجعلها في قوائم صناديق منقورة وألبسَها جلود البقر ، وقال: لا يظهرنّ أميرُ المؤمنين ولا أحدٌ ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهتَ فيه ، ولا ما معك ، ولو قُتِلتَ حتى يموت أميرُ المؤمنين ، فإذا مات فادفعْ إلى كلّ رجل منهم كتابه[(٢)].

فلمّا قدِم بكر بن المعتمر طوسَ ، بلغ هارونَ قدومُه ، فدعا به ، فسأله: ما أقدمك؟ قال: بعثني محمد لأعلم له علم خبرك وآتيه به ، قال: فهل معك كتاب؟ قال: لا ، فأمر بما معه ففتِّش فلم يصيبوا معه شيئاً ، فهدّده بالضّرب فلم يقرّ بشيء ، فأمر به فحُبس وقيّد. فلما كان في الليلة التي مات فيها هارون أمر

= الجمعة ودعاهم إلى تجديد البيعة فبايعوا [الأخبار الطوال / ٣٩٢].
وقال ابن قتيبة الدينوري مؤيداً لبعض ما ذكره الطبري وبويع الأمين محمد بن هارون بـ (طوس) وولي أمر البيعة (صالح بن هارون) وقدم عليه بها (رجاء) الخادم للنصف من جمادى الآخرة فخطب الناس [المعارف / ١٩٥].

(١) لم يبيّن خليفة بن خياط ولا البسوي ـ تأريخ بدء الخلاف بين الأمين والمأمون إلاّ أن سياق الأحداث يؤكد ذلك وهو ظاهر من كلام الدينوري عندما ساق الأحداث متسلسلة مباشرة بعد بيعة الأمين [الأخبار الطوال / ٣٩٣] ونظر البداية والنهاية (٨ / ١٣٣).

(٢) انظر البداية والنهاية (٨ / ١٣٣).

الفضل بن الربيع أن يصير إلى محبس بكر بن المعتمر فيقرّره ، فإن أقر وإلا ضرب عنقه ، فصار إليه ، فقرّره فلم يقرّ بشيء ، ثم غُشِيَ على هارون ، فصاح النساء ، فأمسك الفضل عن قتله ، وصار إلىٰ هارون ليحضره ، ثم أفاق هارون وهو ضعيف ، قد شغل عن بَكْر وعن غيره لحسّ الموت ، ثم غُشِيَ عليه غشيةً ظنّوا أنها هي ، وارتفعت الضجة ، فبعث بكر بن المعتمر برقعة منه إلى الفضْل ابن الربيع مع عبد الله بن أبي نُعيم ، يسأله ألا يعجلوا بأمر ، ويعلمه أنّ معه أشياء يحتاجون إلى علمها ـ وكان بكرٌ محبوساً عند حسين الخادم ـ فلما تُوفِّيَ هارون في الوقت الذي تُوفِّيَ فيه ، دعا الفضلُ بن الربيع ببكْر من ساعته ، فسأله عما عنده ، فأنكر أنْ يكون عنده شيء ، وخشِيَ على نفسه من أن يكون هارون حيّاً ، حتى صحّ عنده موتُ هارون ، وأدخله عليه ، فأخبره أنّ عنده كتباً من أمير المؤمنين محمد ، وأنه لا يجوز له إخراجِها ، وهو علىٰ حالة في قيوده وحبسه ، فامتنع حسين الخادم من إطلاقه حتىٰ أطلَقه الفضل ، فأتاهم بالكتب التي عنده ، وكانت في قوائم المطابخ المجلّدة بجلود البقر ، فدفع إلى كلّ إنسانٍ منهم كتابه. وكان في تلك الكتب كتاب من محمد بن هارون إلى حسين الخادم بخطِّه ، يأمره بتخلية بَكْر بن المعتمر وإطلاقه ، فدفعه إليه ، وكتاب إلى عبد الله المأمون ، فاحتبس كتاب المأمون عنده ليبعثه إلى المأمون بمَرْو ، وأرسلوا إلى صالح بن الرّشيد ـ وكان مع أبيه بطوس ، وذلك أنه كان أكبرَ من يحضر هارون من ولده ـ فأتاهم في تلك الساعة ، فسألهم عن أبيه هارون ، فأعلموه ، فجزع جزعاً شديداً ، ثم دفعوا إليه كتاب أخيه محمد الذي جاء به بكرْ. وكان الذين حضروا وفاة هارون هُم الذين ولُوا أمرَه وغَسْله وتجهيزه ، وصلى عليه ابنه صالح[1].

وكانت نسخة كتاب محمد إلى أخيه عبد الله المأمون:

---

(١) لم نجد ذكراً لتفاصيل الرسائل المتبادلة بين الأمين والمأمون عند مؤرخ من المؤرخين المتقدمين الثقات كالبسوي وخليفة والبلاذري أو الدينوري كما ذكرها الطبري في هذه الصفحات.
وإنما ذكر أبو حنيفة الدينوري شيئاً يسيراً عن فحوى هذه الرسائل وأحياناً أوجز الرسائل المتبادلة بعبارات قليلة [انظر الأخبار الطوال / ٣٩٤] وأشار الجهشياري في كتابه الوزراء إلىٰ الكتب التي كانت بين الأمين والمأمون [الوزراء والكتاب / ٢٩١].

إذا ورد عليك كتابُ أخيك ـ أعاذه الله من فقدك ـ عند حلول ما لا مردَّله ولا مدفَع مما قد أخلف وتناسخ [في] الأمم الخالية والقرون الماضية [فعزِّ نفسك] بما عزَاك الله به. واعلم أنّ الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأجزل الحظَيْن فقبضه الله طاهراً زاكياً، قد شكر سعيَه، وغفر ذنبه إن شاء الله. فقمْ في أمْرك قيام ذي الحزم والعزْم، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين. وإيّاك أنْ يغلب عليك الجزَع، فإنه يُحبِط الأجرْ، ويُعقب الوزر. وصلوات الله على أمير المؤمنين حيّاً وميتاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون! وخُذ البَيْعة عمّن قِبَلك من قوّادك وجندك وخاصّتك وعامّتك لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نَسْخها له وإثباتها، فإنّك مقلّد من ذاك ما قلدك الله وخليفته. وأعلِمْ مَنْ قِبَلك رأيي في صلاحِهم وسدّ خَلّتِهم والتوسِعة عليهم، فمن أنكرته عند بيعته أو اتَّهمته على طاعته، فابعث إليّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالته، فإن النار أولى به. واكتب إلى عمّال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين، وأعلمهم أنّ الله لم يرضَ الدّنيا له ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته، مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله. ومُرهم أن يأخذوا البيعَة على أجنادهم وخواصّهم وعوامّهم على مثل ما أمرتُك به من أخذها على مَن قِبَلك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم، والقوّة على عدّوهم. [وأعلمهم] أنّي متفقد حالاتهم ولامٌّ شعثهم، وموسِّع عليهم، ولا تني في تقوية أجنادي وأنصاري، ولتكنْ كتبك إليهم كتباً عامة، لتُقرأ عليهم، فإنّ في ذلك ما يسكنهم ويبسط أملَهم. واعمل بما تأمر به لمن حَضَرك، أو نأى عنك من أجنادك، على حسب ما ترى وتشاهد، فإنّ أخاك يعرف حسنَ اختيارك، وصحّة رأيك، وبعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشدّ بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء.

وكتب بكر بن المعْتَمر بين يديّ وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة[1].

---

(١) نفس التعليقة السابقة.

وإلى أخيه صالح:

بسم الله الرحمن الرحيم. إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبَق في علم الله ونفذ من قضائه في خُلفائه وأوليائه، وجرتْ به سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، فقل: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، فاحمَدوا الله ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائِه، صلواتُ الله عليهم، وإنا إليه راجعون. وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبينا محمد ﷺ، وقد كان لهم عصمةً وكهفاً، وبهم رؤوفاً رحيماً، فشمّر في أمرك، وإياك أن تلقى بيديْك، فإنّ أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقّد مواقع فقدانك، فحقق ظنه ونسأل الله التوفيق. وخذ البيعة على من قِبَلَك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصّته وعامّته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليُمْن في الأخذ بعهده، والمضيّ على مناهجه. وأعْلِم مَنْ قِبَلك من الخاصّة والعامة رأيي في استصلاحهم، وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم، وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم، فإن شغَب شاغب، أو نَعَر ناعر، فاسطُ به سطوة تجعله نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. واضمُم إلى الميمون ابن الميمون الفضْل بن الربيع ولَد أمير المؤمنين وخدمه وأهله، ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه من جنده ورابطته، وصيِّر إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه، فإنه ثقة على ما يلي، مقبول عند العامة، واضمُم إليه جميعَ جند الشُّرَط من الرّوابط وغيرهم إلى مَنْ معه من جنده، ومُرْه بالجِدِّ والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله، ليله ونهاره، فإنّ أهل العداوة والنّفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة. وأقِرّ حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصورَ أمير المؤمنين، فإنه ممّن لا يُعرف إلا بالطاعة، ولا يدين إلا بها بمعاقد من الله مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء. ومر الخدم بإحضار روابطهم ممّن يسُدّ بهم وبأجنادهم مواضع الخَلَل من عسكرك، فإنهم حدّ من حدودك، وصيّر مقدّمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد، وساقتك إلى يحيىٰ بن معاذ، فيمن معه من الجنود، ومُرْهما بمناوبتك في كلّ ليلة،

والزم الطريق الأعظم ، ولا تَعدُوَنّ المراحل ، فإن ذلك أرفق بك . ومر أسدَ بن يزيد أن يتخيَّرَ رجلاً من أهل بيته أو قوّاده ، فيصير إلى مقدمته ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يحضرك في عسكرك بعضُ من سَمّيتُ ، فاخترّ لمواضعهم مَنْ تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوامّ ، فإنّ ذلك لن يُعوِزَك من قوّادك ، وأنصارك إن شاء الله . وإيّاك أن تنفذ رأياً أو تُبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع ، وأقرر جميعَ الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ، ولا تخرجنّ أحداً منهم من ضِمْن ما يلي إلى أن تُقدم عليّ .

وقد أوصيتُ بكر بن المعتمر بما سيبلِّغكه ، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترىٰ ، وإن أمرتَ لأهل العسكر بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولِّيَ لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه ، بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإنّ الفضل بن الربيع لم يزل يتقلّد مثل ذلك لمهمّات الأمور . وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صَبِيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد ، ولا يكون لك عَرْجة ولا مُهلة بموضعك الذي أنت فيه حتىٰ توجّه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يستدفع الله عنك ، ويسأله لك حسن التأييد برحمته .

وكتب بكر بن المعتمر بين يديّ وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة[1] .

وخرج رجاء الخادم بالخاتم والقضيب والبُردة ، وبنعْي هارون حين دفن حتىٰ قدم بغداد ليلة الخميس ـ وقيل يوم الأربعاء ـ فكان من الخبر ما قد ذكرت قبل[2] .

وقيل : إنّ نعي الرشيد لما ورد بغداد صعد إسحاق بن عيسى بن عليّ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أعظم الناس رزيئةً ، وأحسن الناس بقيّة

---

(١) نفس التعليقة السابقة .

(٢) انظر تعليقنا (٨/ ٣٦٥ / ١) .

رزؤنا ، فإنه لم يُرزأ أحدٌ كرزئنا ، فمن له مثل عوضنا! ثم نعاه إلى الناس ، وحضّ الناس على الطاعة.

* * *

وذكر الحسن الحاجب أنّ الفضل بن سهل أخبره ، قال: استقبل الرشيدَ وجوه أهل خُراسان ، وفيهم الحسين بن مصعب. قال: ولقيني فقال لي: الرشيد ميّتٌ أحد هذين اليومين ، وأمرُ محمد بن الرشيد ضعيف ، والأمر أمر صاحبك ، مُدّ يدك. فمدَّ يده فبايع للمأمون بالخلافة. قال: ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بن هشام ، فقال: هذا ابن أخي ، وهو لك ثقة خذ بيعته.

وكان المأمون قد رحل من مَرْو إلى قصر خالد بن حماد على فرسخ من مَرْو يريد سمَرقند ، وأمر العبّاس بن المسيّب بإخراج الناس واللحوق بالعسكر ، فمرّ به إسحاق الخادم ومعه نعيّ الرشيد ، فغمّ العباس قدومه ، فوصل إلى المأمون فأخبره ، فرجع المأمون إلى مَرْو ، ودخل دار الإمارة ، دار أبي مسلم ، ونعىٰ الرّشيدَ علىٰ المنبر ، وشقّ ثوبه ونزل ، وأمر للناس بمال ، وبايع لمحمد ولنفسه وأعطىٰ الجند رزق اثني عشر شهراً(١).

قال: ولما قرأ الذين وردت عليهم كتبُ محمد بطوُس من القوّاد والجند وأولاد هارون ، تشاوروا في اللحاق بمحمد ، فقال الفضل بن الربيع: لا أدَعُ مُلْكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمرِه ، وأمرَ الناس بالرّحيل ، ففعلوا ذلك محبّةً منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون ، فانتهىٰ الخبر بذلك من أمرهم إلىٰ المأمون بمَرْو ، فجمع مَنْ معه من قواد أبيه ، فكان معه منهم عبد الله بن مالك ، ويَحيىٰ بن معاذ ، وشبيب بن حميد بن قحطبة ، والعلاء مولى هارون ، والعباس بن المسيَب بن زهير وهو على شرطته ، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته ، وكان معه من أهل بيته عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، وذو الرياستين ، وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصِّهم به ، فشاورهم وأخبرهم الخبر ، فأشاروا عليه أن

---

(١) انظر تعليقنا في نهاية الخبر (٨ / ٣٧٢).

يلحقهم في ألفيْ فارس جَريدة ، فيردّهم ، وسُمِّيَ لذلك قوم ، فدخل عليه ذو الرياستين ، فقال له : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلتَ هؤلاء هديّة إلى محمّد ، ولكنّ الرأي أن تكتب إليهم كتاباً ، وتوجّه إليهم رسولاً ، فتذكّرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذّرهم الحنث ، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين . قال : قلت له : إن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرىء ما عند القوم ، وتوجّهُ سهل بن صاعد ـ وكان على قهرمته ـ فإنه يأمُلك ، ويرجو أن ينال أمله ، فلن يألوَكَ نصحاً ، وتوجّه نَوفلاً الخادم مولىٰ موسىٰ أمير المؤمنين ـ وكان عاقلاً ـ . فكتب كتاباً ، ووجههما فلحقاهم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل[١] .

فذكر الحسن بن أبي سعيد عن سهل بن صاعد ، أنه قال [له] : فأوصلت إلى الفضل بن الربيع كتابَه ، فقال لي : إنما أنا واحد منهم ، قال لي سهل : وشدّ عليّ عبدُ الرحمن بن جبلة بالرّمح ، فأمرّه على جنبي ، ثم قال [لي] : قل لصاحبك : والله لو كنتَ حاضراً لوضعت الرّمح في فيك ، هذا جوابي .

قال : ونال من المأمون ، فرجعت بالخبر[٢] .

قال الفضل بن سهل : فقلت للمأمون : أعداء قد استرحتَ منهم ، ولكن افهم عني ما أقول لك ، إنّ هذه الدولة لم تكن قطّ أعزّ منها أيام أبي جعفر ، فخرج عليه المقنّع وهو يدَّعي الربوبيّة ، وقال بعضهم : طلب بدم أبي مسلم ، فتضعضع العسكر بخروجه بخُراسان ، فكفاه الله المؤنة . ثم خرج بعده يوسف البَرْم وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفىٰ الله المؤنة ، ثم خرج أستاذسيس يدعو إلى الكفر ، فسار المهديّ من الرّيّ إلى نيسابور فكُفِيَ المؤنة ، ولكن ما اصنع! أكثرُ عليك! أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قال : رأيتُهم اضطربوا اضطراباً شديداً ، قلت : وكيف بك وأنت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم! كيف يكون اضطراب أهل بغداد! اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ـ ووضعت يدي علىٰ صدري ـ قال : قد فعلتُ ، وجعلتُ الأمر إليك فقمْ به . قال : قلت : والله لأصدُقَنّك ، إن عبد الله بن مالك ويحيىٰ بن معاذ ومَنْ سمّينا من

---

(١) انظر تعليقنا في نهاية الخبر (٨ / ٣٧٢) .
(٢) انظر تعليقنا في نهاية الخبر (٨ / ٣٧٢) .

أمراء الرؤساء ، إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفَع مني لك برياستهم المشهورة ، ولِمَا عندهم من القوة على الحرب ، فمن قام بالأمر كنتُ خادماً له حتى تصير إلى محبتك ، وترىٰ رأيك فيّ. فلقيتُهم في منازلهم ، وذكّرتهم البَيْعَة التي في أعناقهم وما يجب عليهم من الوفاء. قال: فكأني جئتُهم بجيفة على طَبق ، فقال بعضهم: هذا لا يحل ، اخرج ، وقال بعضهم: مَن الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه! فجئت فأخبرته ، قال: قم بالأمر ، قال: قلت: قد قرأتَ القرآن ، وسمعتَ الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالرّأي أن تبعث إلى مَنْ بالحضرة من الفقهاء ، فتدعوَهم إلى الحقّ والعمل به وإحياء السنة ، وتقعد على اللّبود ، وتردّ المظالم. ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء ، وأكرمنا القوّاد والملوك وأبناء الملوك ، فكنا نقول للتميمي: نُقيمك مقام موسى بن كعب ، وللرَّبعيّ: نقيمك مقام أبي داود خالد ابن إبراهيم ، ولليمانيّ: نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم ، فكنا ندعو كلّ قبيلة إلى نقباء رؤوسهم ، واستملنا الرؤوس ، وقلنا لهم مثل ذلك ، وحططْنا عن خُراسان ربع الخرَاج ، فحسن موقع ذلك منهم ، وَسُرّوا به ، وقالوا: ابن أختنا. وابن عمّ النبي ﷺ[1].

قال علي بن إسحاق: لما أفضت الخلافة إلى محمد ، وهدأ الناس ببغداد ، أصبح صبيحة السّبت بعد بيعته بيوم ، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب ، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد:

بَنَى أَمينُ اللهِ مَيدانا وصَيّرَ السّاحَةَ بُستانَا
وكانت الغزلانُ فيهِ بَانَا يُهدَى إِلَيْهِ فيهِ غِزلانا[2]

---

(١) هذا الخبر الطويل (٨ / ٣٧٠ ـ ٣٧٢) أخرجه الطبري من طريق الحسن الحاجب (لا نعرف حاله) عن الفضل بن سهل والفضل هذا انفرد برواية هذه الأخبار وهذه المحاورات بينه وبين المأمون ولم نجد من أخرج هذه العبارات والردود الطويلة سوىٰ الطبري فالله أعلم.
أما اختلاف سيرة المأمون عن الأمين في رعاية أمور الناس وردّ المظالم الوارد في آخر الخبر (٨ / ٣٧٢ / ١١) فقد تحدّث عنه الجهشياري كذلك ولكن بصورة أوجز بعيداً عن المبالغة والتنميق والتزيين الوارد في آخر خبر الطبري فقد قال الجهشياري: وسارت الركبان في الآفاق بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس فيه وانحرفوا عنه وسكنوا إلى المأمون ومالوا [الوزراء والكتاب / ٢٩٢].

(٢) علي بن إسحاق راوي الخبر لم نتبيّن من هو؟ ولم يبيّن الطبري كنيته ولا نسبه ولا لقبه ولم =

وفي هذه السنة شخصت أمّ جعفر من الرّقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغير ذلك في شعبان، فتلقاها ابنُها محمد الأمين بالأنبار في جميع مَنْ كان ببغداد من الوُجوه، وأقام المأمون على ما كان يتولّى من عمل خُراسان ونواحيها إلى الرّيّ، وكاتب الأمين، وأهدي إليه هدايا كثيرة، وتواترت كتبُ المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طُرَف خُراسان من المتاع والآنية والمِسك والدوابِ والسلاحِ[١].

وفي هذه السنة دخل هَرْثمة حائط سَمَرْقند، ولجأ رافع إلىٰ المدينة الداخلة، وراسل رافع التُّرك فوافوْه، فصار هرثمة بين رافع والترك، ثم انصرف الترك، فضعف رافع[٢].

وقتِل في هذه السنة نِقْفور ملك الروم في حرْب بُرْجان، وكان ملكه ـ فيما قيل ـ سبع سنين، وملك بعده إستبراق بن نِقْفور وهو مجروح، فبقيّ شهرين ومات. وملك ميخائيل بن جورجس خَتَنه على أخته[٣].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ، وكان والي مكة[٤].

وأقرّ محمد بن هارون أخاه القاسم بن هارون في هذه السنة على ما كان أبوه هارون ولاّه من عمل الجزيرة، واستعمل عليها خُزيمة بن خازم، وأقرّ القاسم علىٰ قِنَّسرين والعواصم[٥].

= نجد تأييداً للخبر عند خليفة ولا البسوي ولا الدينوريان ولا أي مصدر متقدم موثوق آخر والله أعلم.

(١) لم أجد لهذا الخبر ذكراً عند المؤرخين المتقدمين الثقات وانظر الخبر في البداية والنهاية (٨ / ١٣٤).

(٢) انظر الخبر في البداية والنهاية (٨ / ١٣٤).

(٣) انظر الخبر في البداية والنهاية (٨ / ١٣٤).

(٤) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣٠٨).

(٥) انظر الخبر في البداية والنهاية (٨ / ١٣٤).

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مخالفة أهل حِمْص عاملهم إسحاق بن سليمان ، وكان محمّد ولاه إياها ، فلمّا خالفوه انتقل إلى سلمْيَة ، فصرفه محمد عنهم ، وولّي مكانه عبد الله بن سعيد الحرَشيّ ومعه عافية بن سليمان ، فحبس عدّةً من وجوههم ، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار ، وسألوه الأمان فأجابهم ، وسكنوا ثم هاجوا ، فضرب أيضاً أعناق عدّة منهم(١) .

وفيها عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاّه من عمل الشأم وقِنسرين والعواصم والثغور ، وولّى مكانه خزيمة بن خازم ، وأمره بالمقام بمدينة السلام(٢) .

وفي هذه السنة أمر محمد بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة(٣) .

[ذكر تفاقم الخلاف بين الأمين والمأمون]

وفيها مكَر كلّ واحد منهما بصاحبه : محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وظهر بينهما الفساد(٤) .

---

(١) انظر المنتظم (١٠ / ٣).
(٢) انظر البداية والنهاية (٨ / ١٣٤).
(٣) انظر تعليقنا الآتي.
(٤) وقال ابن قتيبة الدينوري وهو مؤرخ متقدم ثقة : وأغرىٰ الفضل بينه (أي الأمين) والمأمون فنصب محمد ابنه (موسىٰ بن محمد) لولاية العهد بعده ، وأخذ له البيعة ولقّبه الناطق بالحق سنة أربع وتسعين ومائة [المعارف / ١٩٥] أي أن الدينوري يتفق مع الطبري على هذا التأريخ وانظر الآتي (٨ / ٣٧٥ / ٢٢) قال الجهشياري الأخباري المتقدم المعاصر للطبري ولما استوسق الأمر لمحمد زيّن له الفضل بن الربيع خلع المأمون ، وكان يخافه إن أفضىٰ الأمر إليه ، وعاون الفضل على ذلك عليّ بن عيسى بن ماهان فكتب إلى جميع العمّال بالدعاء لموسى بن محمد بعد الخليفة ، وخلع المأمون ، وبلغ المأمون ذلك وما أحدثه لموسىٰ ابنه بعده من أمر الخطبة [الوزراء والكتاب / ٢٩٠].
وانظر [المعارف / ١٩٥] وانظر البداية والنهاية [٨ / ١٣٤]. .

*** ذكر الخبر عن سبب ذلك:**

ذُكر أن الفضل بن الربيع فكّر بعد مقدَمه العراق على محمد منصرفاً عن طُوس، وناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، وعلم أنّ الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حيّ لم يُبْق عليه، وكان في ظَفَره به عطبُه، فسعى في إغراء محمد به، وحثّه على خلعه، وصرْف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسىٰ، ولم يكن ذلك من رأى محمّد ولا عزمه، بل كان عزمه ـ فيما ذكر عنه ـ الوفاء لأخويه: عبد الله والقاسم، بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل به يصغّر في عينه شأن المأمون، ويزّين له خلعه، حتى قال له: ماتنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك! فإنّ البيعة كانت لك متقدّمة قبلهما، وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد، وأدخَل في ذلك من رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسنديّ وغيرَهما ممن بحضرته، فأزال محمداً عن رأيه.

فأول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبّر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمّال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسىٰ بالإمرة بعد الدّعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد، فذكر الفضل بن إسحاق بن سليمان أنّ المأمون لما بلغه ما أمر به محمد من الدّعاء لابنه موسى وعزله القاسم عمّا كان الرشيد ضمّ إليه من الأعمال وإقدامِه إيّاه مدينة السلام، علم أنه يدبِّر عليه في خلعه، فقطع البريدَ عن محمد، وأسقط اسمه من الطَرز [والضَّرب].

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيّار لما انتهىٰ إليه من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم، بعث في طلب الأمان لنفسه، فسارع إلى ذلك هَرثمة وخرج رافع فلحق بالمأمون، وهرثمة بعدُ مقيم بسمَرْقند فأكرم المأمون رافعاً. وكان مع هَرْثَمة في حصار رافع طاهر بن الحسين، فلمّا دخل رافع في الأمان، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلْخ بعسكره والنهر جامد، فتلقّاه الناس، وولاّه المأمون الحرس. فأنكر ذلك كله محمد، فبدأ بالتدّبير على المأمون، فكان من التدبير أنه كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك ـ وهو عامِل المأمون على الرّيّ ـ وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الريّ ـ مريداً بذلك امتحانه ـ فبعث إليه ما أمره به، وكتم المأمون وذا

الرياستين. فبلغ ذلك من أمره المأمون، فوجّه الحسن بن عليّ المأمونيّ وأردفه بالرستميّ على البريد، وعزل العباس بن عبد الله بن مالك، فذُكِر عن الرستميّ أنه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الريّ.

ووجّه محمد إلى المأمون ثلاثة أنفس رسلاً: أحدهم العباس بن موسى بن عيسىٰ، والآخر صالح صاحب المصلّى، والثالث محمد بن عيسى بن نهيك، وكتب معهم كتاباً إلى صاحب الرّيّ، أن استقبِلْهم بالعُدّة والسلاح الظاهر. وكتب إلى والٍ بقُومِس ونَيْسابور وسَرَخْس بمثل ذلك، ففعلوا. ثم وردت الرّسل مَرْو، وقد أعدَّ لهم من السلاح وضروب العُدد والعتاد، ثم صاروا إلى المأمون، فأبلغوه رسالة محمد بمسألته تقديمَ موسىٰ علىٰ نفسه، ويذكر له أنه سمّاه الناطق بالحق، وكان الذي أشار عليه بذلك عليّ بن عيسى بن ماهان، وكان يخبره أن أهل خُراسان يطيعونه، فردّ المأمون ذلك وأباه[1].

قال: فقال لي ذو الرئاستين: قال العباس بن موسى بن عيسىٰ بن موسى: وما عليك أيها الأمير من ذلك، فهذا جدّي عيسى بن موسى قد خُلِع فما ضرّه ذلك، قال: فصحْت به: اسكت، فإن جدّك كان في أيديهم أسيراً، وهذا بين أخواله وشيعته. قال: فانصرفوا، وأنزل كل واحد منهم منزلاً. قال ذو الرياستين: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسىٰ، فخلوت به فقلت: أيذهب عليك في فهمك وسنِّك أن تأخذ بحظك من الإمام ـ وسُمِّي المأمون في ذلك اليوم بالإمام ولم يسمَّ بالخلافة وكان سبب ما سمي به الإمام ما جاء من خلعْ محمد له، وقد كان محمد قال للذين أرسلهم: قد تسمّىٰ المأمون بالإمام، فقال لي العباس: قد سميتموه الإمام! قال: قلت له: قد يكون إمام المسجد والقبيلة،

---

(١) ذكر الطبري هنا أن الأمين أرسل وفداً إلى أخيه المأمون مكون من ثلاثة أنفس كما قال الطبري وأيده أبو حنيفة الدينوري (الأخباري المتقدم الثقة) فقال: ثم كتب (أي الأمين) إليه (أي إلى المأمون) يُعلمه أن الذي قلّده الله من أمر الخلافة والسياسة قد أثقله.. الخبر وفيه: ثم وجّه الكتاب مع العباس بن موسىٰ ومحمد بن عيسىٰ وصالح صاحب المصلىٰ.. إلخ. وفيه أن المأمون أكرم الوفد وأحسن صِلاتهم إلاّ أنه لم يُجِبْهم إلى ما أوصاهم به الأمين ـ وردّ طلبه ـ وَلا نستيطع أن نجزم بصحة التفاصيل الواردة في هذه الرسائل المتبادلة كما ذكرها الطبري أو أبو حنيفة الدينوري إلاّ أن الأمر المؤكد أن ما كان يخشاه الرشيد قد وقع وبدأ الأخوان يكيد أحدهما للآخر، وكان حول كل منهما بطانة سوء تزيّن الغدر والخيانة فحصل ما سنذكره لاحقاً.

فإن وفيتم لم يضرّكم ، وإن غدرتم فهو ذاك . قال : ثمّ قلتُ للعباس : لك عندي ولاية الموسم ، ولا ولاية أشرف منها ، ولك من مواضع الأعمال بمصْر ما شئت .

قال : فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة ، فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار ، ويشير علينا بالرأي .

قال : فأخبرني عليّ بن يحيىٰ السَّرَخسيّ ، قال : مرّ بي العباس بن موسى ذاهباً إلىٰ مَرْو ـ وقد كنت وصفت له سيرة المأمون وحسن تدبير ذي الرياستين واحتماله الموضع ، فلم يقبل ذلك مني ـ فلما رجع مرّ بي ، فقلت له : كيف رأيت؟ قال : ذو الرياستين أكثر مما وصفت ، فقلت : صافحتَ الإمام؟ قال : نعم ، قلت : امسح يدك على رأسي . قال : ومضى القوم إلى محمّد فأخبروه بامتناعه ، قال : فألحَّ الفضل بن الربيع وعليّ بن عيسى على محمد في البيعْة لابنه وخلْع المأمون ، وأعطىٰ الفضل الأموالَ حتى بايع لابنه موسى ، وسمّاه الناطق بالحق ، وأحضنه عليّ بن عيسىٰ وولاّه العراق . قال : وكان أوّل من أخذ له البيعة بشر بن السّمَيدع الأزديّ ، وكان والياً على بلد ، ثم أخذها صاحب مكة وصاحب المدينة على خواصّ من الناس قليل ، دون العامة[١] .

قال : ونهىٰ الفضل بن الربيع عن ذكر عبد الله والقاسم والدّعاء لهما علىٰ شيء من المنابر ، ودسّ لذكر عبد الله والوقيعة فيه ، ووجّه إلىٰ مكّة كتاباً مع رسولٍ من حَجَبة البيت يقال له محمد بن عبد الله بن عثمان بن طلحة في أخذ الكتابين اللذين كان هارون كتبهما ، وجعلهما في الكعبة لعبد الله على محمد ، فقدم بهما عليه ، وتكلم في ذلك بقية الحَجَبة ، فلم يحفل بهم ، وخافوا علىٰ أنفسهم ، فلما صار بالكتابين إلى محمد قبضهما منه ، وأجازه بجائزة عظيمة ، ومزّقهما وأبطلهما[٢] .

---

(١) هذه التفاصيل استغرقت صفحتين تقريباً (٣٧٦ ـ ٣٧٧) ولعلها حصلت إلا أننا لم نجد ما يؤيدها عند خليفة أو البسوي أو البلاذري أو الجهشياري أو الدينوريان سوى عبارات يسيرة ذكرناه آنفاً .

(٢) أيدّ الجهشياري بعض ما ذكره الطبري هنا إذ قال :
ثم ألحّ الفضل بن الربيع على محمد في خلع المأمون وقوّى عزمه فيه ، وأعانه عليه عليّ بن عيسىٰ فبايع لابنه موسىٰ بالعدة بعده ، وسماه ـ الناطق بالحق ـ وخلع المأمون والقاسم =

وكان محمد ـ فيما ذكر ـ كتب إلى المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه ، يسأله أن يتجافَى له عن كُور من كُور خراسان ـ سمّاها ـ وأن يوجّه العمال إليها من قِبَل محمد ، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبله يوليّه البريد عليه ليكتب إليه بخبره ، فلمّا ورد إلىٰ المأمون الكتاب بذلك ، كبُر ذلك عليه واشتدّ ، فبعث إلى الفضل بن سهل وإلى أخيه الحسن ، فشاورهما في ذلك ، فقال الفضل : الأمر مُخْطِر ، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ، ولهم تأنيس بالمشاورة ، وفي قطع الأمر دونهم وَحْشة ، وظهوره قلّة ثقة ، فرأيُ الأمير في ذلك . وقال الحسن : كان يقال : شاور في طلب الرأي مَنْ تثق بنصيحته ، وتألّف العدّو فيما لا اكتتام له بمشاورته ، فأحضر المأمون الخاصّة من الرؤساء والأعلام ، وقرأ عليهم الكتاب ، فقالوا جميعاً له ، أيّها الأمير ، تشاور في مخطر ، فاجعل لبديهتنا حظّاً من الرويّة ، فقال المأمون : ذلك هو الحزم ، وأجّلهم ثلاثاً ، فلما اجتمعوا بعد ذلك ، قال أحدهم : أيُّها الأمير ، قد حُملِتَ علىٰ كَرْهيْن ، ولستُ أرىٰ خطأ مدافعةً بمكروه أوّلهما مخافة مكروهِ آخرهما . وقال آخر : كان يقال أيّها الأمير ، أسعدك الله ، إذا كان الأمر مُخْطِراً ، فإعطاؤك مَنْ نازعك طرفاً من بُغيته أمثل من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته .

وقال آخر : إنه كان يقال : إذا كان علمُ الأمور مغيّباً عنك ، فخذ ما أمكنك من هُدْنة يومك ، فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعاً بفساد غدِك . وقال آخر : لئن خيفت للبذل عاقبَة ، إن أشدّ منها لَمَا يَبعْث الإباء من الفرقة . وقال آخر : لا أرىٰ مفارقة منزلة سلامةٍ ، فلعلّي أعطي معها العافية . فقال الحسن : فقد وجب حقُّكم باجتهادكم ، وإن كنتُ من الرأي علىٰ مخالفتكم ، فقال له المأمون : فناظرْهم ، قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن عليهم ، فقال : هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلىٰ طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا : نعم ، ويُحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منْعه . قال : فهل تثقون بكفه بعد إعطائه إيّاها ، فلا يتجاوز بالطلب إلى

= وكتب الفضل بن الربيع عنه بذلك ، وبالنهي عن الدعاء لهما على المنابر ، وأحضر عبد الله بن محمد أحد الحجبة وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما في بيت الله الحرام بالبيعة ففعل ذلك وسرقهما وصار بهما إليه ، فدفعهما الفضل إلى محمد فمزقهما [الوزراء والكتاب / ٢٩٢] .

غيرها؟ قالوا: لا، ولعل سلامة تقع من دون ما يُخاف ويُتوقع. قال: فإن تجاوز بعدها بالمسألة، أفما تروْنه قد توهّن بما بذل منها في نفسه! قالوا: ندفع ما يعرِض له في عاقبة بمدافعة محذور في عاجلة! قال: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا: استصلحْ عاقبةَ أمرِك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنَة يومك بإخطار أدخلتَه على نفسك في غدك. قال المأمون للفضل: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قال: أيّها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ليستظهر بها عليك غداً على مخالفتك وهل يصير الحازم إلى فضلة مَنْ عاجل الدّعة بخطَر يتعرّض له في عاقبةٍ، بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم. فقال المأمون: بل بإيثار العاجلة صارَ من صار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا أو أمر آخرة.

قال القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي، والله يؤيد الأمير بالتوفيق. فقال: اكتب يا فضلُ إليه، فكتب:

قد بلغني كتاب أمير المؤْمنين يسألني التجافيَ عن مواضعَ سمّاها مما أثبته الرّشيد في العَقْد، وجعل أمره إليّ، وما أمرٌ رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثَره، غير أنّ الذي جعل إليّ الطرْف الذي أنابه، لا ظنين في النّظر لعامته، ولا جاهل بما أسند إليّ من أمره، ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنتُ على الحال التي أنا عليها من إشراف عدوٍّ مخوف الشوكة، وعامّة لا تتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتُها إلاّ بالأموال وطَرَف من الإفضال ـ لكان في نظر أمير المؤمنين لعامّته وما يحبّ من لمِّ أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته، وأن يستصلحه ببَذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحقّ، ووكّد به مأخوذ العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو عَلم من الحال ما علمتُ لم يُطلع بمسألة ما كتب بمسألته إليّ. ثم أنا علىٰ ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجّه حارسَة إلى الحدّ، فلا يجوز رسول من العِراق حتىٰ يوجّهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يؤثر أثراً، ولا يستتبع بالرّغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً. فحصر أهل خراسان من أن يُستمالوا برغبة، أو أن تُودع صدورهم رهبة، أو يحمَلوا علىٰ منزل خلاف أو

مفارقة. ثم وضع علىٰ مراصد الطرق ثقاتٍ من الحرّاس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظِّنة في أمره ممن أتىٰ بجواز في مخرجه إلى دار مآبه، أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه، ومُنع الأشتاتات من جواز السُّبل والقَطْع بالمتاجر والوُغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة، وفُتِّشَت الكُتُب[1].

وكان ـ فيما ذكر ـ أوّل مَنْ أقبل من قِبَل محمد مناظراً في منعه ما كان سأل جماعة، وإنما وُجِّهوا ليعْلَمَ أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا أو يحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتجّ بها، أو ذريعة إلىٰ ما التمس [منها]. فلما صاروا إلىٰ حدّ الريّ، وجدوا تدبيراً مؤبّداً، وعَقْداً مستحصَداً متأكداً، وأخذتهم الأحراس من جوانبهم، فحفظوا في حال ظعنهم وإقامتهم من أن يخبِروا أو يستخبَروا، وكُتب بخبرهم من مكانهم. فجاء الإذن في حملهم فحملوا محروسين، لا خبرَ يصل إليهم، ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم، وقد كانوا مُعَدِّين لبثّ الخبر في العامة وإظهار الحجةِ بالمفارقة والدعاء لأهل القوّة إلى المخالفة، يبذلون الأموال، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل، فوجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً، حتىٰ صاروا إلى باب المأمون.

وكان الكتاب النافذ معهم إلى المأمون:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرّشيد وإن كان أفردك بالطَّرْف، وضمّ ما ضمّ إليك من كُور الجبل، تأييداً لأمرك، وتحصيناً لطرْفك، فإنّ ذلك لا يُوجب لك فضلة المال عن كفايتك. وقد كان هذا الطَّرْف وخراجه كافياً لحدثه، ثم تتجاوز

---

(١) هذا الخبر الطويل الذي استغرق الصفحات (٣٧٧ ـ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) جمع فيه الطبري أموراً عدة خلاصتها أن الأمين طلب من المأمون التخلي عن بعض الولايات التي يديرها وأن المأمون استشار الفضل بن سهل وغيره وكان ردّه رفض طلب أخيه الأمين.
وقد لخّص الجهشياري الكاتب في البلاط العباسي هذا الخبر بقوله: ولما استقرّ أمر محمد الأمين وحصل ما ورد به عليه الفضل بن الربيع من العسكر بما فيه كتب إلى المأمون يسأله التجافي له عن بعض الأعمال بخراسان وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قبله، ليكاتبه بأخباره فشق ذلك على المأمون ودعا الفضل بن سهل فشاوره فقال له إن لك من شيعتك وأهل ولايتك بطانة وفي مشاورتهم تأنيس لهم وفي قطع الأمر دونهم وحشة وظهور قلة ثقة بهم فشاورهم فأحضرهم فأشاروا عليه جميعاً بإجابته إلى ما سأل فقال الحسن بن سهل هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب ما ليس بحق. . الخبر [الوزراء والكتاب/ ٢٨٩].

بعد الكفاية إلى ما يفضل من ردّه ، وقد ضمّ لك إلىٰ الطرْف كوراً من أمّهات كوَر الأموال لا حاجة لك فيها ، فالحقّ فيها أن تكون مردودةً في أهلها ، ومواضع حقها . فكتبت إليك أسألك ردّ تلك الكوَر إلى ما كانت عليه من حالها ، لتَكون فضول ردّها مصروفة إلى مواضعها ، وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدّي إلينا علْم ما نُعنَى به من خبر طرْفك ، فكتبتَ تلطّ دون ذلك بما إن تمّ أمرُك عليه صيَّرنا الحقُّ إلى مطالبتك ، فاثن عن همك اثن عن مطالبتك ، إن شاء الله .

فلمّا قرأ المأمون الكتاب كتب مجيباً له :

أما بعد ، فقد بلغني كتابُ أمير المؤمنين ، ولمْ يكتب فيما جهل فاكشفَ له عن وجهه ، ولمْ يسأل ما يوجبه حقّ فيلزمني الحجة بترك إجابته ، وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النّصفة عن أهلها ، فمتىٰ تجاوز متجاوز ـ وهي موجودة الوسع ـ ولم يكن تجاوزُها إلاّ عن نقضها واحتمال ما في تركها ، فلا تبعثني يا بن أبي على مخالفتك وأنا مذعِنٌ بطاعتك ، ولا علي قطيعتك . وأنا على إيثار ما تحب من صلتك ، وارْضَ بما حكم به الحقّ في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام .

ثم أحضر الرّسل ، فقال : إنّ أمير المؤمنين كتب في أمرٍ كتبتُ له في جوابِه ، فأبلغوه الكتاب ، وأعلموه أني لا أزال على طاعته ، حتى يضطرني بترك الحقّ الواجب إلى مخالفته فذهبوا يقولون ، فقال : قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم ، وأحسنوا تأدية ما سمعتم ، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما عسى أن تقولوه لنا . فانصرف الرسل ولم يُثبتوا لأنفسهم حجة ، ولم يحملوا خبراً يؤدونه إلى صاحبهم ، ورأوا جدّاً غير مشوب بهزل ، في منع ما لَهُمْ من حقهم الواقع ـ بزعمهم .

فلما وصل كتاب المأمون إلى محمد وصل منه ما فظع به ، وتخمط غيظاً بما تردد منه [في سمعه] ، وأمر عند ذلك بما ذكرناه من الإمساك عن الدّعاء له على المنابر ، وكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكَّن لك من ظلها ، متعرّضاً لحِراق نار لا قِبلَ لك بها ، ولَحظّك عن الطاعة كان أودع لك ، وإن كان قد تقدّم مني متقدّم ، فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيّتك ، وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ، ويثبت لك من حال

الهُدْنة ، فأعلمني رأيَك أعمل عليه . إن شاء الله[١] .

وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل ، أنّ المأمون قال لذي الرياستين: إن ولدي وأهلي ومالي الذي أفرده الرّشيد لي بحضرة محمد ـ وهو مائة ألف ألف ـ وأنا إليها محتاج ، وهي قِبَله فما ترى في ذلك؟ وراجعه في ذلك مراراً. فقال له ذو الرياستين: أيّها الأمير ، بك حاجة إلى فضلة مالك ، وأن يكون أهلك في دارك وجنابك ، وإن أنت كتبتَ فيه كتاب عزمة فمنعك صار إلى خلع عهده ، فإن فعل حَملَك ولو بالكُرْه على محاربته ، وأنا أكره أن تكون المستفتِح باب الفُرْقة ما ارتجه الله دونك ، ولكن تكتب كتاب طالب لحقّك ، وتوجيه أهلك على ما لا يوجب عليه المنع نُكثاً لعهدك ، فإن أطاع فنعمة وعافية ، وإن أبَىٰ لم تكن بعثت على نفسك حرباً [أو مشاقة]. فاكتب إليه ، فكتب عنه:

أما بعد ، فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظرُ من لا يقتصر عنه على إعطاء النّصَفة من نفسه حتى يتجاوزَها إليهم ببرّه وصلته ، وإذا كان ذلك رأيه في عامته ، فأحْرِ بأن يكون على مجاوزة ذلك بصنوه وقسيم نسبه ، فقد تعلم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها من ثغور حللتُ بين لهواتها ، وأجناد لا تزال موقنة بنشر غيِّها وبنكث آرائها، وقلة الخَرْج قِبَلي، والأهل والولد قِبَل أمير المؤمنين، وما للأهل ـ وإن كانوا في كفاية من برّ أمير المؤمنين ، فكان لهم والداً ـ بُدّ من الإشراف والنزوع إلى كنفي ، ومالي بالمال من القوّة والظهير على لمّ الشعث بحضرتي ، وقد وجهْتُ لحمل العيال وحمل ذلك المال ، فرأى أمير المؤمنين في إجازة فلان إلىٰ الرّقة في حمْل ذلك المال ، والأمر بمعونته عليه ، غير محرِج له فيه إلى ضيقة تقع بمخالفته ، أو حامل له على رأي يكون على غير موافقة . والسلام .

---

(١) هذا خبر طويل آخر خلاصته أن الأمين أرسل جماعة يتحسسون الأمر ويبثون في العامة ما رآه الأمين من الحكم في المسألة فلما وصلوا إلى حدود منطقة الري الإدراية وجدوا الأمر غير هيّن وأن المأمون متأهب لكل طارىء بنشر العيون والحرس وأن المأمون حصل على رسالة الأمين إليه وردّه بما لا يرضيه فأغضب الأمين فأمر بالإمساك عن ذكر اسم المأمون على المنابر وما إلى ذلك وهذه رواية أخرى يوردها الطبري للمقارنة بين مختلف الروايات والمصادر ومن عادته أن يسهب في ذكر أوجه عدة للخبر كي تتكون صورة واضحة للحدث لدى القارئ بينما الأخباريون أو المؤرخون الآخرون يذكرون مختصراً للواقع دون ذكر هذه التشعبات والتفاصيل والاختلافات والله أعلم.

فكتب إليه محمد:

أما بعد، فقد بلغني كتابُك بما ذكرتَ ممّا عليه رأيُ أمير المؤمنين في عامّته فضلاً عما يجب من حقّ لذي حُرمته وخلِيط نفسه، ومحلِّك بين لهوات ثغور، وحاجتِك لمحلك بينها إلى فَضْلة من المال لتأييد أمرك، والمال الذي سُمِّيَ لك من مال الله، وتوجيهك مَنْ وجّهت في حمله وحمل أهلك من قِبَل أمير المؤمنين. ولعمْرِي ما ينكر أمير المؤمنين رأياً هو عليه مما ذكرت لعامته، يوجب عليه من حقوق أقربيه وعامته. وبه إلى ذلك المال الذي ذكرتَ حاجة في تحصين أمور المسلمين، فكان أوْلى به إجراؤه منه على فرائضه، وردُّه على مواضع حقه، وليس بخارج من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيّتك. وأما ما ذكرت من حمْل أهلك، فإنّ رأيَ أمير المؤمنين تولّي أمرهم، وإن كنتَ بالمكان الذي أنت به من حقّ القرابة. ولم أر من حملهم على سفرهم مثل الذي رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتت، وإنّ أرَ ذلك من قِبَلي أوجّهْهم إليك مع الثقة من رسلي إن شاء الله. والسلام.

قال: ولما ورد الكتاب على المأمون، قال: لاطٌّ دون حقنا يريد أن نتوهَن مما يمنع من قوّتنا، ثم يتمكن للوهنة من الفُرْصة في مخالفتنا. فقال له ذو الرياستين: أوَليس من المعلوم دفعُ الرشيد ذلك المال إلى الأمين لجمعه، وقبضُ الأمين إياه على أعين الملأِ من عامته، على أنه يحرسه قِنْيةً، فهو لا ينزع إليها، فلا تأخذ عليه مضايقَها، وأمْلِ له ما لم تضطرك جريرتُه إلى مكاشفته بها، والرأي لزوم عُروة الثقة، وحسمُ الفرقة، [فإن أمسك فبنعمة] وإن تطلّع إليها فقد تعرّض لله بالمخالفة، وتعرّضتَ منه بالإمساك للتأييد والمعونة[1].

---

(١) هذا الخبر الطويل لم يذكره البسوي ولا خليفة وإنما ذكر الجهشياري مقدمته دون ذكر الرسائل المتبادلة فقال:

ـ ثم تقدّم المأمون إلى الفضل بن سهل أن يكتب إلى محمد بالبعثة إليه بحُرَمه وولده، وكان له ببغداد ابنان من أمّ عيسى بنت موسى الهادي نزولاً معها في قصر المأمون، وبمائة ألف دينار، كان الرشيد أوصى له بها من بيت المال، فأجابه بأنه قد صَرف المال في أمور المسلمين، فيما هو أولى مما أوصى به الرشيد، وأن حُرَمه وولده يجرُون عنده مجرى حُرَمه وولده، وأنه لا يرى تعريضهم لما عرضهم له من مشقة السفر، وغَرَر الطريق، وأنه إذا رأى لذلك وجهاً أذِن له فيه، فاستحكمت وحشة المأمون، وعلم مذهب محمد فيه، وأخذ في أهبة التحرّز. منه [الوزراء والكتاب / ٢٩٠].

قال: وعلم المأمون والفضل أنه سيحدث بعد كتابه من الحدث ما يحتاج إلى لَمِّه، ومن الخبر ما يحتاج أن يباشره بالثقة من أصحابه، وأنه لا يُحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النّباهة والأقدار من الشِّيعة وأهل السابقة، فرأىٰ أن يختار رجلاً يكتب معه إلىٰ أعيان أهل العسْكر من بغداد، فإن أحدث محمد خلعاً للمأمون صار إلى دفعها، وتلطف لعلْم حالات أهلها، وإن لم يفعل من ذلك شيئاً خَنَس في خُفته، وأمسك عن إيصالها، وتقدم إليه في التعجيل.

ولما قدم أوصل الكتب، وكان كتابه مع الرسول الذي وجهه لعلم الخبر:

أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين كأعضاء البدن، يحدث العلّة في بعضها، فيكون كرْه ذلك مؤلماً لجميعها، وكذلك الحدَث في المسلمين، يكون في بعضهم فيصلُ كرْه ذلك إلى سائرهم، للذي يجمعهم من شريعة دينهم، ويلزمهم من حرمة أخوّتهم، ثم ذلك من الأئمة أعظم للمكان الذي به الأئمة من سائر أممهم، وقد كان من الخبر ما لا أحسِبه إلاّ سيعرب عن محنته، ويُسفِر عمّا استتر من وجهه، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما مع أمر الله إلا كان أوّل معونة المسلمين وموالاتهم في ذات الله، وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع، وبحيث إن قلت أذن لقولك، وإن لم تجد للقول مساغاً فأمسكت عن مخوف أقتدي فيه بك، ولن يضيع علىٰ الله ثواب الإحسان مع ما يجب علينا بالإحسان من حقك، ولحظٌّ حاز لك النصيبين أو أحدهما أمثلُ من الإشراف لأحد الحظّينْ، مع التعرّض لعدمهما، فاكتب إليّ برأيك، وأعلم ذلك لرسول ليؤديه إليّ عنك. إن شاء الله.

وكتب إلى رجال النباهة من أهل العسكر بمثل ذلك.

قال: فوافق قدوم الرسول بغداد ما أمر به من الكفّ عن الدعاء للمأمون في الخطبة يوم الجمعة، وكان بمكان الثقة من كلّ من كتب إليه معه، فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرب للرسول عمّا في نفسه، ومنهم من أجاب عن كتابه، فكتب أحدهم:

أما بعد فقد بلغني كتابُك وللحقّ برهان يدلّ على نفسه تَثبت به الحجّة على كلّ من صار إلى مفارقته، وكفَى غبناً بإضاعة حظّ من حظ العاقبة، لمأمولٍ من حظّ عاجلة، وأبيَن من الغَبْن إضاعة حظّ عاقبة مع التعرّض للنكبة والوقائع، ولي من

العلم بمواضع حظّي ما أرجو أن يحسن معه النظر مني لنفسي ، ويضع عني مؤنة استزادتي . إن شاء الله .

قال : وكتب الرّسول المتوجّه إلى بغداد إلى المأمون وذي الرياستين :

أمابعد ، فإني وافيتُ البلدة ، وقد أعلن خليطك بتنكّره ، وقدّم علماً من اعتراضه ومفارقته [وأمسك عمّا كان يجب ذكره وتوفيته] بحضرته ، ودفعت كتبك فوجدت أكثر الناس ولاة السريرة ونفاة العلانية ، ووجدت المشرفين بالرعية لا يحوطون إلاّ عنها ولا يبالون ما احتملوا فيها ، والمنازع مختلج الرّأي ، لا يجد دافعاً منه عن همّه ، ولا راغباً في عامه ، والمحلون بأنفسهم يحلون تمام الحدث ، ليسلموا مِنْ منهزم حدثهم ، والقوم على جدّ ، ولا تجعلوا للتواني [في أمركم نصيباً] إن شاء الله والسلام .

قال : ولما قدم على محمد من معسكر المأمون سعيد بن مالك بن قادم وعبد الله بن حميد بن قحطبة والعباس بن الليث مولىٰ أمير المؤمنين ومنصور بن أبي مطر وكثير بن قادرة ، ألطفهم وقرّبهم ، وأمر لمن كان قبض منهم السّتَة الأشهر برزق اثني عشر شهراً ، وزادهم في الخاصة والعامة ، ولمن لم يقبضها بثمانية عشر شهراً .

قال : ولما عزم محمد على خلع المأمون دعا يحيىٰ بن سُليم فشاوره في ذلك ، فقال يحيىٰ : يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك مع ما قَدْ وكّد الرشيد من بَيْعَته ، وتوثّق بها من عهده ، والأخذ للإيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه! فقال له محمد : إنّ رأيَ الرشيد كان فلتةً شبّهها عليه جعفر بن يحيىٰ بسحره ، واستماله برُقاه وعُقَده ، فغرس لنا غرْسا مكروهاً لا ينفعنا مانحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثِه والراحة منه . فقال : أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعهَ ، فلا يُجاهره مجاهرةً فيستنكرها الناس ، ويستشنعها العامة ، ولكن تستدعي الجندَ بعد الجند والقائد بعد القائد ، وتؤنسه بالألطاف والهدايا ، وتفرّق ثقاته ومَنْ معه ، وترغّبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطماع ، فإذا أوهنتَ قوّته ، واستفرغتَ رجاله ، أمرتَه بالقدوم عليك ، فإن قدم صار إلى الذي تريد منه ، وإن أبى كنت قد تناوَلته وقد كلّ حده وهيض جناحُه ، وضعف ركنُه وانقطع عزّه . فقال محمد : ما قَطع أمراً كصريمة ، أنت مِهذار خطيب ، ولستَ بذي رأي ، فزُلْ

عن هذا الرأي إلى الشيّخ الموفّق والوزير الناصح ، قمْ فالحق بمدادك وأقلامك ، [قال يحيىٰ : فقلت : غضب] يشوبه صدق ونصيحة ، أشرت إلى رأي يخلطه غش وجهل . قال : فوالله ما ذهبت الأيامُ حتى ذكر كلامه ، وقرّعه بخطئه وخرقه(١) .

قال سهل بن هارون : وقد كان الفضل بن سهيل دسّ قوماً اختارهم ممّن يثق به من القوّاد والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبار يوماً يوماً ، فلما همّ محمد بخلع المأمون ، بعث الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء الرّجال يشاوره فيما يرىٰ من ذلك ، فعظّم الرجلُ عليه أمر نقض العهد للمأمون ، وقبَّح الغدر به ، فقال له الفضل : صدقت ، ولكن عبد الله قد أحدث الحدث الذي وجب به نقض ما أخذ الرّشيد له . قال : أفتثبتُ الحجة عند العوامّ بمعلوم حَدثِه كما تثبت الحجّة بما جدد من عهده! قال : لا ، قال : أفحدثٌ هذا منكم يوجب عند العامة نقضَ عهدكم ما لم يكن حدثه معلوماً يجب به فَسْخ عهده! قال : نعم ، قال الرجل ـ ورفع صوته : بالله ما رأيتُ كاليوم رأي رجل يرتاد به النظر ، يشاور في رفع ملك في يده بالحجة ثم يصير إلى مطالبته بالعناد والمغالبة! قال : فأطرق الفضل مليّاً ، ثم قال : صدقتَني الرأي ، واحتملت ثِقل الإمانة ، ولكن أخبرني إن نحن أغمضنا من قالة العامّة ووجدنا مساعدين من شيعتنا وأجنادنا ، فما القول؟ قال : أصلحك الله ، وهل أجنادك إلاّ من عامّتك في أخذ بيعتهم وتمكن برهان الحق في قلوبهم! أفليسوا وإن أعطوْك ظاهر طاعة هم مع ما تأكد من وثائق العهد في معارفهم ، قال : فإن أعطونا بذلك الطاعة قال : لا طاعة دون أن تكون على تثبت من البصائر . قال : نرغّبهم بتشريف حظوظهم ، قال : إذاً يصيروا إلى التقبّل ، ثم إلى خذلانك عند حاجتك إلى مناصحتهم . قال : فما ظنك بأجناد عبدالله؟ قال : قوم

(١) لهذا الخبر (٨ / ٣٨٤ ـ ٣٨٥) ما يؤيده عند الجهشياري ولكنه قال يحيىٰ بن سليمان بدلاً من سليم : إذ قال الجهشياري :
وكان محمد لما أجمع على خلع المأمون شاور يحيىٰ بن سليمان في ذلك ، فقال له : وكيف بذلك يا أمير المؤمنين مع ما وكّده الرشيد من بيعته ، وتوثق في عهده عند خاصته وعامته؟ فقال له محمد : إن ذلك كان فلتة وخطأً من رأي الرشيد ، شَبه عليه فيه جعفر بن يحيىٰ بسحره ، فغرس لنا غرس مكروه ، لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه ، وأنت رجل مِهْذار ، ولست بذي رأي مصيب ، والرأي إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح ، قُم فالحق بمدادك وأقلامك ، يعني محمد بهذا القول الفضلَ بن الربيع . [الوزراء والكتاب / ٢٩٢] .

على بصيرة من أمرِهم لتقدّم بيعتهم وما يتعاهدون من حظّهم، قال: فما ظنُّك بعامتهم؟ قال: قوم كانوا في بلوى عظيمة من تحيف ولاتهم في أموالهم، ثم في أنفسهم صاروا به إلى الأمنية من المال والرفاهة في المعيشة، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم، ويتذكرون بليةً لا يأمنون العودة إليها. قال: فهل من سبيل إلى استفساد عظماء البلاد عليه، لتكون محاربتنا إياه بالمكيدة من ناحيته، لا بالزخرف نحوه لمناجزته! قال: أما الضعفاء فقد صاروا له إلباً لما نالوا به من الأمان والنَّصفة، وأما ذوو القوة فلم يجدوا مطعناً ولا موضع حجة. والضعفاء السواد الأكثر. قال: ما أَراك أبقيت لنا موضع رأي في اعتزالك إلى أجنادنا، ولا تمكّن النظر في ناحيته باحتيالنا، ثم أشدّ من ذلك ما قلتَ به وَهنة أجنادنا وقوة أجناده في مخالفته. وما تسخو نفس أمير المؤمنين بترك ما لا يعرف من حقه، ولا نفسي بالهدنة مع تقدمٍ جرى في أمره، وربما أقبلت الأمور مشرفةً بالمخافة، ثم تكشف عن الفُلْج والدرك في العاقبة. ثم تفرقا.

قال: وكان الفضل بن الربيع أخذ بالمراصد لئلا تجاوز الكتب الحد، فكتب الرسول مع امرأة، وجعل الكتاب وديعةً في عُودٍ منقور من أعواد الأكاف، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر، وكانت المرأة تمضي على المسالح كالمجتازة من القرية إلى القرية، لا تُهاج ولا تفتّش. وجاء الخبر إلىٰ المأمون موافقاً لسائر ما ورد عليه من الكتب، قد شهد بعضها ببعض، فقال لذي الرياستين: هذه أمور قد كان الرأي أخبر عن عيبها، ثم هذه طوالع تخبر عن أواخرها، وكفانا أن نكون مع الحقّ، ولعل كرهاً يسوق خيراً.

قال: وكان أوّل ما دبره الفضل بن سهل بعد ترك الدعاء للمأمون وصحة الخبر به، أن جَمع الأجناد التي كان أعدّها بجنبات الريّ مع أجناد قد كان مكنها فيها، وأجناد للقيام بأمرهم، وكانت البلاد أجدبت بحضرتهم، فأعدَّ لهم من الحمولة ما يحمل إليهم من كل فجّ وسبيل، حتىٰ ما فقدوا شيئاً احتاجوا إليه، وأقاموا بالحدّ لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء في عامدٍ ولا مجتاز. ثم أشخص طاهر ابن الحسين فيمَنْ ضمّ إليه من قواده وأجناده، فسار طاهر مغذّاً لا يلوي على شيء، حتىٰ ورد الرّي، فنزلها ووكَّل بأطرافها، ووضع مسالحة، وبثّ عيونه وطلائعه، فقال بعض شعراء خراسان:

رمَـى أَهـلَ العـراقِ ومَـنْ عليهـا ... إِمـامُ العَـدْل والملـكُ الـرشيـدُ
بـأَحْـزَمِ مَـنْ مَشَـىٰ رَأْيـاً وحَـزْمـاً ... وَكَيْـداً نـافـذاً فيمـا يَكِيـدُ
بِـدَاهِيَـةٍ نَـآدٍ خنفقيـقٍ ... يَشيـبُ لهـوْلِ صَـوْلَتِهـا الـوَليـدُ

وذُكر أن محمداً وجّه عِصمة بن حماد بن سالم إلى هَمَذَان في ألف رجل، وولاَه حرب كُورَ الجبل، وأمره بالمقام بهمَذان، وأن يوّجه مقدمته إلى ساوةَ، واستخلف أخاه عبد الرحمن بن حماد على الحرَس، وجعل الفضلُ بن الربيع وعليّ بن عيسى يلهّبان محمداً، ويبعثانه علىٰ خلع المأمون والبَيْعَة لابنه موسىٰ.

* * *

وفي هذه السنة عَقَدَ محمد بن هارون في شهر ربيع الأول لابنه موسىٰ علىٰ جميع ما استخلفه عليه، وجعل صاحب أمره كلّه عليّ بن عيسى بن ماهان، وعلىٰ شرَطه محمد بن عيسى بن نهيك، وعلىٰ حرسه عثمان بن عيسى بن نهيك، وعلى خراجه عبد الله بن عبيدة وعلىٰ ديوان رسائله عليّ بن صالح صاحب المصلىٰ.

وفي هذه السنة وثب الروم على ميخائيل صاحب الروّم فهرب وترهب، وكان ملكه سنتين فيما قيل[١].

وفيها ملك على الروم ليون القائد[٢].

وفيها صرف محمد بن هارون إسحاق بن سليمان عن حِمْص، وولاَها عبد الله بن سعيد الحرَشيّ، ومعه عافية بن سليمان، فقتل عدّة من وجوههم، وحبس عدة، وحرق مدينتهم من نواحيها بالنار، فسألوه الأمان، فأجابهم فسكنوا ثم هاجوا، فضرب أعناق عِدّة منهم[٣].

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٣٥].
(٢) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٣٥].
(٣) انظر المنتظم (١٠ / ٣).

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر محمد بن هارون بإسقاط ما كان ضرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان في سنة أربع وتسعين ومائة ، لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمّد ، وكان يقال لتلك الدنانير والدراهم الرّباعية ، وكان لا تجوز حيناً[(١)].

* * *

[النهي عن الدعاء للمأمون على المنابر]

وفيها نهىٰ الأمين عن الدعاء علىٰ المنابر في عمله كلّه للمأمون والقاسم ، وأمر بالدعاء له عليها ثم من بعده لابنه موسىٰ ، وذلك في صفر من هذه السنة ، وابنه موسىٰ يومئذ طفل صغير ، فسمّاه الناطق بالحق ، وكان ما فعل من ذلك عن رأي الفضل بن الربيع ، فقال في ذلك بعض الشعراء :

أَضاعَ الخلافةَ غِشُّ الوزيرِ ... وَفِسْقُ الأَمِيرِ ، وجَهْلُ المشيرْ
فَفَضْلٌ وزيرٌ ، وبَكْرٌ مشِيرٌ ... يُريدانِ ما فيه حتفُ الأَميرْ

فبلغ ذلك المأمون ، فتسمىٰ بإمام الهدىٰ ، وكوتب بذلك[(٢)].

عقد الإمرة لعليّ بن عيسىٰ

وفيها عقد محمد لعليّ بن عيسى بن ماهان يوم الأربعاء لليلة خَلَتْ من شهر ربيع الآخر على كُور الجبل كلها: نهاوند وهَمذان وقمّ وأصْفهان ، حربها

---

(١) انظر المنتظم (١٠ / ١١).

(٢) في هذا المتن بعض إعادة لما سبق وأما تسمية ابنه موسىٰ بالناطق بالحق فقد سبق ضمن أحداث سنة ١٩٤هـ وأما عن المأمون ، فقد قال خليفة وفيها (أي ١٩٥هـ) دعي للمأمون بالخلافة بخراسان (تأريخ خليفة ٣٠٩).
وقال الجهشياري: فكتب (أي الأمين) إلى جميع العمال بالدعاء لموسى بن محمد بعد الخليفة وخلع المأمون وبلغ المأمون بذلك [الوزراء والكتاب / ٢٩٠]. وانظر المعارف (٣٨٤) والمنتظم (١٠ / ١١).

وخراجها ، وضمّ إليه جماعة من القوّاد وأمر له ـ فيما ذكر ـ بمائتي ألف دينار ، ولولده بخمسين ألف دينار ، وأعطىٰ الجند مالاً عظيماً ، وأمر له من السيوف المحلاّة بألفي سيف وستة آلاف ثوب للخِلَع ، وأحضر محمد أهل بيته ومواليه وقوّاده المقصورة بالشّماسية يوم الجمعة لثمانٍ خلوْن من جمادىٰ الآخرة ، فصلىٰ محمد الجمعة ، ودخل وجلس لهم ابنه موسى في المحراب ، ومعه الفضل ابن الربيع وجميع مَنْ أحضر ، فقرأ عليهم كتاباً من الأمين يعلمهم رأيه فيهم وحقه عليهم ، وما سبق لهم من البيعة متقدّماً مفرداً بها ، ولزوم ذلك لهم ، وما أحدث عبد الله من التسمّي بالإمامة ، والدّعاء إلى نفسه ، وقطْع ذكره في دور الضرب والطُّرز ، وأنّ ما أحدث من ذلك ليس له ، ولا ما يدَّعِي من الشروط التي شُرطت له بجائزة له. وحثهم علىٰ طاعته ، والتمسك ببيعته. وقام سعيد بن الفضل الخطيب بعد قراءة الكتاب ، فعارض ما في الكتاب بتصديقه والقول بمثله ، ثم تكلم الفضل بن الربيع وهو جالس ، فبالغ في القول وأكثر ، وذكر أنه لاحقّ لأحدٍ في الإمامة والخلافة إلا لأمير المؤمنين محمد الأمين ، وأنّ الله لم يجعل لعبد الله ولا لغيره في ذلك حظّاً له ولا نصيباً. فلم يتكلّم أحد من أهل بيت محمد ولا غيرهم بشيء إلاّ محمد بن عيسىٰ بن نهيك ونفر من وجوه الحرَس. وقال الفضل بن الربيع في كلامه: إنّ الأمير موسىٰ ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشِرَ أهل خُراسان من صُلْب ماله بثلاثة آلاف ألف درهم تقسم بينكم. ثم انصرف الناس ، وأقبل عليّ بن عيسىٰ على محمد يخبره أنّ أهل خُراسان كتبوا إليه يذكرون أنه إن خرج هو أطاعوه وانقادوا معه[1].

---

(١) هذا الخبر (٣٨٩ ـ ٣٩٠) ذكر الجهشياري أصله فقط فقال وجهّز محمد علي بن عيسىٰ في سنة خمس وتسعين ومائه [الوزراء والكتاب / ٢٩٣].
وكذلك ذكره أبو حنيفة الدينوري مع زيادة تفصيل عمّا ذكره الجهشياري فقال وهو يتحدث عن الأمين:
ثم قال لعليّ بن عيسىٰ: إني قد رأيتُ أن تسير بالجيوش إلى خراسان ، فتَلِيَ أمرها من تحت يَدَيْ موسىٰ بن أمير المؤمنين ، فانتخبْ من الجنود والجيوش على عينك.
ثم أمر بديوان الجُنْد ، فَدُفِعَ إليه ، فانتخب ستين ألف رجل من أبطال الجنود وفُرْسانهم ، ووَضَعَ لهم العَطاء ، وفرّق فيهم السّلاح ، وأمره بالمسير. [الأخبار الطوال / ٢٩٦].
وانظر الخبر الآتي.

[شخوص عليّ بن عيسىٰ إلىٰ حرب المأمون][(١)]

وفيها شخص عليّ بن عيسىٰ إلىٰ الرّيَ إلىٰ حرب المأمون.

* ذكر الخبر عن شخوصه إليها وما كان من أمره في شخوصه ذلك: ذكر الفضل بن إسحاق، أن عليّ بن عيسىٰ شخص من مدينة السلام عشيّة الجمعة لخمس عشرة خلت من جمادىٰ الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة، شخص عشيّة تلك فيما بين صلاة الجمعة إلى صلاة العصر إلى معسكره بنهر بين، فأقام فيه في زُهاء أربعين ألفاً، وحمل معه قيد فضة ليقيّد به المأمون بزعمه، وشخص معه محمد الأمين إلىٰ النهروان يوم الأحد لستٍّ بقين من جمادى الآخرة، فعرض بها الذين ضُمّوا إلى عليّ بن عيسى، ثم أقام بقية يومه ذلك بالنَّهروان، ثم انصرف إلى مدينة السلام. وأقام عليّ بن عيسى بالنهروان ثلاثة أيام، ثم شخص إلى ما وُجِّه له مسرعاً حتىٰ نزل همَذَان، فولّى عليها عبد الله بن حميد بن قَحطبة. وقد كان محمد كتب إلى عصمة بن حَمّاد بالانصراف في خاصة أصحابه وضمّ بقية العسكر وما فيه من الأموال وغير ذلك إلىٰ عليّ بن عيسىٰ، وكتب إلى أبي دلف القاسم بن عيسىٰ بالانضمام إليه فيمن معه من أصحابه، [ووجّه] معه هلال بن عبد الله الحضرمّي، وأمر له بالفَرْض، ثم عقد لعبد الرحمن بن جبلة الأبناويّ علىٰ الدّينَور، وأمره بالسير في بقية أصحابه، ووجّه معه ألفي درهم حملت إليه قبل ذلك، ثم شخص عليّ بن عيسىٰ من هَمَذان يريد الرّيّ قبل ورود عبد الرحمن عليه، فسار حتىٰ بلغ الرّيّ على تعبئة، فلقيه طاهر بن الحسين وهو في أقل من أربعة آلاف ـ وقيل كان في ثلاثة آلاف وثمانمائة ـ وخرج من عسكر طاهر ثلاثة أنفس إلى عليّ بن عيسى يتقرّبون إليه بذلك، فسألهم: مَنْ هم؟ ومِن أيّ البلدان هم؟ فأخبره أحدهم أنه كان من جند عيسىٰ أبيه الذي قتله رافع. قال: فأنت من جندي! فأمر به فضُرب مائتي سوط، واستخفّ بالرجلين. وانتهىٰ الخبر إلى

---

(١) وكذلك أرّخ خليفة لهذا الشخوص فقال ضمن حديثه عن وقائع سنة (١٩٥هـ) وفيها وجّه المخلوع علي بن عيسىٰ بن ماهان إلى خراسان (تأريخ خليفة / ٣٠٩).
وانظر تعليقنا في آخر الخبر (٨ / ٣٩٤ / ٣٧).
(٨ / ٣٩٤) هذا الخبر الطويل فيه بعض نكارة ولبعضه الآخر ما يشهد له.

أصحاب طاهر ، فازدادوا جِدّاً في محاربته ونفوراً منه .

فذكر أحمد بن هشام أنه لم يكن وَرَد عليهم الكتاب من المأمون، بأن تسمى بالخلافة، إذ التقيا ـ وكان أحمد على شُرْطة طاهر ـ فقلت لطاهر : قد ورد عليّ بن عيسىٰ فيمن ترىٰ، فإن ظهرنا له، فقال : أنا عامل أمير المؤمنين وأقرْرنا له بذلك ، لم يكن لنا أن نحاربه. فقال لي طاهر: لم يجئني في هذا شيء، فقلت: دَعْني وما أريد، قال: شأنك، قال: فصعدت المنبر، فخلعت محمداً، ودعوت للمأمون بالخلافة، وسرنا من يومنا أو من غدٍ يوم السبت، وكان ذلك في شعبان سنة خمس وتسعين ومائة، فنزلنا قسْطَانَة، وهي أوّل مرحلة من الرّيّ إلىٰ العراق. وانتهى عليّ بن عيسىٰ إلَى برّية يقال لها مشكوية، وبيننا وبينه سبعة فراسخ، وجعلنا مقدمتنا على فرسخين من جنده. وكان عليّ بن عيسىٰ ظنّ أن طاهراً إذا رآه يسلم إليه العمل، فلما رأىٰ الجِدّ منه، قال: هذا موضع مفازة، وليس [موضع مقام]. فأخذ يساره إلى رُستاق يقال له رستاق بني الرازيّ، وكان معنا الأتراك، فنزلنا علىٰ نهر، ونزل قريباً منا، وكان بيننا وبينه دكادك وجبال، فلمّا كان في آخر الليل جاءني رجل فأخبرني أن عليّ بن عيسىٰ دخل الرّيّ ـ وقد كان كاتَبهم فأجابوه ـ فخرجتُ معه إلى الطريق، فقلت له: هذا طريقهم، وما هنا أثر حافر، وما يدلّ على أنه سار. وجئت إلى طاهر فأنبهته، فقلت له: تصلي؟ قال: نعم، فدعا بماء فتهيأ، فقلت له: الخبر كيت وكيت. وأصبحنا، فقال لي: تركب. فوقفنا على الطريق، فقال لي: هل لك أن تجوز هذه الدكادك؟ فأشرفنا على عسكر عليّ بن عيسىٰ وهم يلبسون السلاح ، فقال: ارجع ، أخطأنا ، فرجعنا فقال لي: أخرج أصحابنا.

قال: فدعوت المأمونيّ والحسن بن يونس المحاربيّ والرستميّ ، فخرجوا جميعاً ، فكان علي الميمنة المأمونيّ ، وعلىٰ الميسرة الرستمّي ومحمد بن مصعب. قال: وأقبل عليّ في جيشه ، فامتلأت الصحراء بياضاً وصُفرة من السلاح والمذهب ، وجعل على ميمنته الحسين بن عليّ ومعه أبو دُلف القاسم بن عيسىٰ بن إدريس ، وعلىٰ ميسرته آخر ، وكرُّوا ، فهزمونا حتىٰ دخلوا العسكر ، فخرج إليهم الساعة السَّوْعاء فهزموهم .

قال: وقال طاهر لما رأىٰ عليّ بن عيسىٰ: هذا ما لا قِبَل لنا به ، ولكن نجعلها

خارجيَّة ، فقصد قصد القلب ، فجمع سبعمائة رجل من الخوارزميّة ، فيهم ميكائيل وسبسل وداود سياه.

قال أحمد بن هشام: قلنا لطاهر: نذكّر عليّ بن عيسى البيعة التي كانت ، والبيعة التي أخذها هو للمأمون خاصّة علىٰ معاشر أهل خُراسان ، فقال: نعم ، قال: فعلّقناهما علىٰ رُمْحين ، وقمت بين الصفين ، فقلت: الأمان! لا ترمونا ولا نرميكم ، فقال عليّ بن عيسىٰ: ذلك لك ، فقلت: يا عليّ بن عيسىٰ ، ألا تتقي الله!! أليس هذه نسخة البيعة التي أخذَتَها أنت خاصّة!! اتقّ الله فقد بلغتَ باب قبرِك ، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: أحمد بن هشام ـ وقد كان عليّ بن عيسىٰ ضربه أربعمائة سوط ـ فصاح عليّ بن عيسىٰ: يا أهلَ خُراسان ، مَنْ جاء به فله ألف درهم. قال: وكان معنا قوم بخاريّة ، فرموْه ، وقالوا: نقتلك ونأخذ مالَك: وخرج من عسكره العباس بن اللّيْث مولىٰ المهديّ ، وخرج رجل يقال له حاتم الطائيّ ، فشدّ عليه طاهر ، وشدّ يدْيه على مقبض السيف ، فضربه فصرعه [فقتله] ، وشدّ داود سياه علىٰ عليّ بن عيسىٰ فصرَعه ، وهو لا يعرفه. وكان عليّ بن عيسى علىٰ بِرذَون أرْحَل ، حمله عليه محمد ـ وذلك يُكرَه في الحرب ويدلّ علىٰ الهزيمة ـ قال: فقال داود: «ناري أسنان كتبتم». قال: فقال طاهر الصغير ـ وهو طاهر بن التاجيّ: عليّ بن عيسىٰ أنت؟ قال: نعم ، أنا عليّ بن عيسىٰ ، وظن أنه يُهاب فلا يقدَم عليه أحد ، فشدّ عليه فذبحه بالسيف. ونازعهم محمد بن مقاتل بن صالح الرّاس ، فنتف محمد خُصلة من لحيته ، فذهب بها إلىٰ طاهر وبشّره ، وكانت ضربةُ طاهر هي الفتح ، فسمّىٰ يومئذ ذا اليمينين بذلك السبب لأنه أخذ السيف بيديه [جميعاً]. وتناول أصحابُه النشاب ليرمونا ، فلم أعلم بقتل عليّ حتىٰ قيل: قتِل والله الأمير. فتبعناهم فرسخيْن ، وواقفونا اثني عشرة مرّة ، كلّ ذلك نهزمهم ، فلحقني طاهر بن التاجيّ ، ومعه رأس عليّ ابن عيسىٰ ، وكان آلى أن ينصب رأس أحمد عند المنبر الذي خَلَع عليه محمد ، وقد كان عليّ أمر أن يهيأ له الغداء ، بالرّيّ. قال: فانصرفتُ فوجدت عيْبَةَ عليّ فيها درّاعة وجبّة وغُلالة ، فلبستها ، وصلّيت ركعتين شكراً لله تبارك وتعالىٰ. ووجدنا في عسكره سبعمائة كيس ، في كل كيس ألف درهم ، ووجدنا عدّة بغال عليها صناديق في أيدي أولئك البخارية الذين شتموه ، وظنّوا أنه مال ، فكسروا

الصناديق ، فإذا فيها خمر سواديّ ، وأقبلوا يفرّقون القنانيّ ، وقالوا: عملنا الجدّ حتى نشرَب .

قال أحمد بن هشام: وجئت إلى مضرب طاهر ، وقد اغتمّ لتأخري عنه ، فقال: لي البُشرىٰ!! هذه خصلة من لحية عليّ ، فقلت له: البشرىٰ!! هذا رأس عليّ. قال: فأعتق طاهر مَنْ كان بحضرَته من غلمانه شكراً لله ، ثم جاءوا بعليّ وقد شدّ الأعوان يديه إلى رجليه ، فحمِل على خشبة كما يحمل الحمار الميّت وأمر به فلفَّ في لِبْد وألقي في بئر. قال: وكتب إلى ذي الرياستين بالخبر(١).

---

(١) هذا الخبر الطويل الذي استغرق الصفحات (٣٩٠ ـ ٣٩٤) الذي ذكره الطبري فنسب بعضه إلى الفضل بن إسحاق وبعضه الآخر إلى أحمد بن هشام (شاهد عيان) لم يذكره غير الطبري بهذا التفصيل وإنما ذكر بعض المؤرخين طرفاً منه أو أكثر: فذكر ابن قتيبة الدينوري أن المأمون أمر علي بن عيسى بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون في سنة خمس وتسعين ومائة، فوجه «المأمونُ» «هرثمةَ» من «مرو»، وعلى مقدمته «طاهر بن الحسين»، فالتقى «علي ابن عيسى» و«طاهر» بـ «الري»، فاقتتلوا، فقتل «علي بن عيسى»، وجماعة من ولده، في شهر رمضان سنة خمس وتسعين ومائة، وظفر «طاهر» بجميع ما كان من الأموال، والعدة، والكراع [المعارف/ ٣٨٥]. وكذلك ذكر أبو حنيفة الدينوري أن علي بن عيسى بن ماهان سار حتى صار إلى حلوان ثم إلى همدان في طريقه إلى الري وأن الجيشين التقيا وتقاتلا قتالاً شديداً وانتهت المعركة بمقتل علي بن عيسى ثم إن أصحاب طاهر غنموا ما كان في معكسر علي بن عيسى من السلام والأموال (الأخبار الطوال/ ٣٩٨).
أما الجهشياري فقد اختصر الخبر قائلاً: وجهز محمد (أي الأمين) علي بن عيسى في سنة خمس وتسعين ومائة فكان من أمره ما كان فلما ورد خبر مقتله [الوزراء/ ٢٩٢].
وكذلك ذكر ابن عساكر الخبر مختصراً بإسناده عن إسماعيل بن علي الخطبي: أن المأمون وجه طاهر بن حسين في الجيش لتلقي علي بن عيسى ومحاربته فوصل علي بن عيسى بمن معه من الجيش إلى الري ووافاه طاهر بن الحسين بمن معه فالتقوا بأكناف الري فقتل علي بن عيسى وانفض عسكره ذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شوال سنة خمس وتسعين ومائة فقوي أمر المأمون عند ذلك بخراسان وسلم عليه بالخلافة وضعف أمر محمد [تأريخ دمشق/ ٢٢٩/ تر ٧١٠٠] وكذلك ذكر خليفة بن خياط الخبر مختصراً فقال: وفيها (أي ١٩٥ هـ) وجه المخلوع علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان ووجه أمير المؤمنين المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب فالتقوا بالرّي في شعبان فقتل علي بن عيسى [تأريخ خليفة/ ٣٠٩] أما ما ذكره الطبري في خبره [٨/ ٣٩٤] من أنهم وجدوا عدة صناديق فيها خمر سوادي فلم تذكره المصادر المتقدمة الأنفة الذكر ولا يصح ورحم الله الطبري كم كان متساهلاً في رواية التاريخ .

قال: فسارت الخريطة وبين مَرْو وذلك الموضع نحو من خمسين ومائتي فرسخ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، ووردت عليهم يوم الأحد[1].

قال ذو الرياستين: كنا قد وجّهنا هَرْثمة، واحتشدنا في السلاح مدداً، وسار في ذلك اليوم، وشيّعه المأمون فقلت للمأمون: لا تبرح، حتى يسلّم عليك بالخلافة فقد وجبت لك، ولا نأمن أن يقال: يصلح بين الأخوين، فإذا سلّم عليك بالخلافة لم يمكن أن ترجع. فتقدمت أنا وهرثمة والحسن بن سهل، فسلمنا عليه بالخلافة، وتبادر شيعة المأمون، فرجعت وأنا كالّ تَعِب لم أنمْ ثلاثة أيام في جهاز هرثمة، فقال لي الخادم: هذا عبد الرحمن بن مدرك ـ وكان يلي البريد، ونحن نتوقع الخريطة لنا أو علينا ـ فدخل وسكت، قلت: ويلك! ما وراءك؟ قال: الفتح، فإذا كتاب طاهر إليّ: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل مَنْ يشنؤك فداءك، كتبت إليك ورأس عليّ بن عيسىٰ بين يديّ، وخاتمه في أصبعي، والحمد لله رب العالمين. فوثبت إلى دار أمير المؤمنين، فلحقني الغلام بالسوّاد، فدخلت على المأمون فبشّرته، وقرأت عليه الكتاب، فأمر بإحضار أهل بيته والقوّاد ووجوه الناس، فدخلوا فسلّموا عليه بالخلافة، ثم ورد

---

(١) ذكر الجهشياري بعض ما ذكره الطبري في هذين الخبرين (٣٨ و٣٩) فقال: ولما قتل طاهر ابن الحسين عليّ بن عيسىٰ، دعا بكاتبه ليكتب إلى الفضل بن سهل يخبره، فلم يكن في الكاتب فضل، لإفراط الجزع، وشدَّة الزمَع بما شاهد، فكتب طاهر إلى الفضل بيده، وكانت عادته أن يخاطبه بالإمرة، فأسقط ذلك وكتب: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنؤك فداءك، كتبت إليك ورأس عليّ بن عيسىٰ بين يدي، وخاتمه في أصبعي، وعسكره تحت يدي، والحمد لله رب العالمين. فلما وصل الكتاب إلى الفضل أنكره، حتى وقف علىٰ ما تضمن، فقال: حُقّ له، ونهض فدخل على المأمون، فسلم عليه بأمير المؤمنين.

وقيل: إن الخريطة سارت، وبين الموضع وبين مرو نحو من مئتين وخمسين فرسخاً، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، فوردت يوم الأحد. [الوزراء والكتاب / ٢٩٤].

والأخباريون والمؤرخون المتقدمون كالطبري والجهشياري وخليفة على أنه نودي بالخليفة (أي المأمون) منذ سنة ١٩٥ هـ وخاصة بعد هزيمة عليّ بن عيسىٰ وقال خليفة: وفيها (أي ١٩٥ هـ) دعي للمأمون بالخلافة بخراسان (تأريخ خليفة / ٣٠٩).

رأس عليّ يوم الثلاثاء ، فطِيف به في خراسان[١] .

وذكر الحسن بن أبي سعيد ، قال : عقدنا لطاهر سنة أربع وتسعين ومائة فاتصل عقده إلى الساعة .

وذكر محمد بن يحيىٰ بن عبد الملك النيّسابوريّ ، قال : لما جاء نعيّ عليّ ابن عيسى وقتله إلى محمد بن زُبيدة ـ وكان في وقته ذلك على الشطّ يصيد السمك ـ فقال للذي أخبره : ويلك! دعني ، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتيْن وأنا ما اصطدت شيئاً بعد . قال : وكان بعض أهل الحسد يقول : ظنّ طاهر أنّ عليّاً يعلو عليه ، وقال : متى يقوم طاهر لحرب عليّ مع كثرة جيشه وطاعة أهل خراسان له! فلما قتِل عليّ تضاءل ، وقال : والله لو لقيه طاهر وحدَه لقاتله في جيشه حتى يغلب أو يقتَل دونه .

وقال رجل من أصحاب عليّ له بأس ونجدة في قتل عليّ ولقاء طاهر :

لقِينا الليثَ مُفتَرِساً لدَيه ... وكُنّا ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ
نَخوضُ الموتَ والغمَراتِ قِدْماً ... إذا ما كَرَّ ليس به خفاءُ
فضعضعَ ركبَنا لمَّا التقَينا ... وراحَ الموتُ وانكَشفَ الغِطاءُ
وأَرَدىٰ كَبْشَنا والرأسَ مِنّا ... كأَنَّ بِكَفِّهِ كانَ القضاءُ

ولما انتهى الخبر بقتل عليّ بن عيسىٰ إلى محمد والفضل ، بعث إلى نوفل خادم المأمون ـ وكان وكيل المأمون ببغداد وخازنه ، وقيّمه في أهله وولده وضياعه وأمواله ـ عن لسان محمد ، فأخذ منه الألف ألف درهم التي كان الرّشيد وصل بها المأمون ، وقبض ضياعه وغلاّته بالسواد ، وولّى عُمّالاً من قبَله ، ووجّه عبد الرحمن الأبناوي بالقوّة والعُدّة فنزل هَمَذان[٢] .

وذكر بعض من سمع عبد الله بن خازم عند ذلك يقول : يريد محمد إزالة

---

(١) نفس التعليقة السابقة .

(٢) ذكر الجهشياري ما يؤيد أصل متن الطبري هنا من أن الأمين صادر أموال المأمون بعد علمه بمقتل قائده عليّ بن عيسىٰ دون ذكرٍ لتفاصيل أخرى تتعلق بالمبالغ المصادرة إذ قال الجهشياري وجَهّز محمد عليّ بن عيسىٰ في سنة خمس وتسعين ومائة ، فكان من أمره ما كان ، فلما ورد خبر قتله ، أشار الفضل بن الربيع علي محمد بقبض ضياع المأمون وماله ببغداد والسواد ، فأذن له في ذلك ، ففعل . [الوزراء / ٢٩٣] .

الجبال وفلّ العساكر بتدبيره والمنكوس من تظهيره ، هيهات! هو والله كما قال الأوّل :

* قد ضَيَّعَ اللهُ ذوداً أنت راعيها*

ولمّا بايع محمد لابنه موسىٰ ووجّه عليّ بن عيسى ، قال الشاعر من أهل بغداد في ذلك لمّا رأىٰ تشاغُلَ محمد بلهوه وبطالته وتخليته عن تدبير عليّ والفضل بن الربيع :

أَضاعَ الخِلافَةَ غِشُّ الوَزِيرِ ... وَفِسْقُ الإِمَامِ وَجَهْلُ المُشيرْ؟
ففضلٌ وَزيرٌ ، وَبَكرٌ مشيرٌ ... يُريدانِ ما فيه حتْفُ الأَمِيرُ
وما ذاك إلاَّ طَريقُ غُرُورٍ ... وشَرُّ المَسالِكِ طُرْقُ الغُرور
لَواطُ الخليفةِ أعجوبةٌ ... وأَعجَبُ منه خَلاقُ الوزيرْ
فهذا يَدُوسُ وهذا يُدَاسُ ... كذاكَ لَعَمْري اختلافُ الأُمورْ
فلو يَسْتَعينان هذا بذاك ... لكانا بعُرْضَةِ أَمرٍ سَتِيرْ
ولكنَّ ذا لَجَّ في كَوْثَرٍ ... ولَمْ يَشْفِ هذا دُعاسُ الحميرْ
فَشُنِّعَ فِعْلاهما منهمَا ... وصارَا خِلافاً كَبَوْلِ البعيرْ
وأَعجَبُ مِنْ ذا وَذا أَنَّنا ... نبايعُ للطِّفلِ فينا الصغيرْ
ومَن لَيْس يُحسِنُ غُسْلَ استِهِ ... ولم يَخلُ من بَوْلِهِ حِجْر ظيرْ
وما ذاك إلا بفضلٍ وَبَكرٍ ... يُريدَانِ نَقضَ الكِتابِ المنيرْ
وهذانِ لولا انقلابُ الزَّمانِ ... أَفي العيرِ هذانِ أَم في النفيرْ
ولكنَّها فِتنٌ كالجبالِ ... تَرفَّعَ فيها الوضيعُ الحقِيرْ
فَصَبراً ففي الصبر خير كثيرٌ ... وإن كان قد ضاق صدْر الصَّبُورْ
فياربِّ فاقبِضهُمَا عاجلاً ... إليك وأَوردْهم عذابَ السعيرْ
وَنَكِّل بفَضلٍ وأَشياعِهِ ... وَصَلِّبْهُمُ حولَ هذِي الجُسُورْ[1]

* * *

(١) هذه قصيدة لشاعر مجهول (كما عند الطبري) فيها من القذف الباطل والفحش والبذاءة ما فيها ولا يصحّ ما ورد فيها من القذف الباطل.
ولا نقول إلا كما قال الأستاذ المحقق أبو الفضل (إبراهيم) ولقد عجبت لأبي جعفر حيث ذكرها مع ورعه!!!!

وذكر أن محمداً لما بعث إلى المأمون في البيعة لابنه موسى ، ووجه الرّسل إليه في ذلك ، كتب المأمون جواب كتابه :

أما بعد ، فقد انتهى إليَّ كتاب أمير المؤمنين منكراً لإبائي منزلة تَهَضَّمني بها ، وأرادني على خلاف ما يعلم من الحقّ فيها ، ولعمري أن لو ردَّ أمير المؤمنين الأمر إلى النّصَفة فلم يطالب إلاَّ بها ، ولم يوجب نكرة على تركها ، لانبسطت بالحجة مطالعُ مقالته ، ولكنتُ محجوجاً بمفارقة ما يجب من طاعته ، فأما وأنا مذعِنٌ بها وهو على ترك إعمالها ، فأولى به أن يُديرَ الحقّ في أمره ، ثم يأخذ به ، ويعطي من نفسه ، فإن صرتُ إلى الحقّ فرّغتُ عن قلبه ، وإن أبَيتُ الحقّ قام الحقّ بمعذرته . وأمّا ما وعد من برّ بطاعته ، وأوعَدَ من الوطأة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارق الحق في فعله فأبقى للمستبين موضع ثِقة بقوله! والسلام .

قال : وكتب إلى عليّ بن عيسى لما بلغه ما عزم عليه :

أما بعد ، فإنك في ظلّ دعوة لم تزل أنت وسلَفُك بمكان ذب عن حريمها وعلى العناية بحفظها ورعاية لحقها ، توجبون ذلك لأئمتكم ، وتَعتصمون بحبل جماعتكم ، وتعطونَ بالطّاعة من أنفسكم ، وتكونون يداً على أهل مخالفتكم ، وحزباً وأعواناً لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتتصرّفونَ فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة ورجاء ، لا ترون شيئاً أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لأُلفتكم ، ولا أحرى لبواركم مما دعا إلى شتات كلمتكم ، ترون مَنْ رغب عن ذلك جائراً عن القَصْد وعن أمّه على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفاً من سيوف نِقَم الله ، فكم من أولئك قد صاروا وديعة مَسْبَعة ، وجَزَراً جامدة ، قد سَفَت الرياحُ في وجهه ، وتداعتِ السباعُ إلىٰ مَصْرعه ، غير ممهد ولا موسّد قد صار إلى أمّة ، وغير عاجل حظه ، ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك ، بحيث أنزلتم أنفسكم ، من الثقة بكم في أمورها ، والتقدمة في آثارها ، وأنت مستشعر دون كثير من ثقاتها وخاصّتها ، حتى بلغ الله بك في نفسك أنْ كنت قريع أهل دعوتِك ، والعلم القائم بمعظم أمر أئمتك ، إن قلت : ادنوا دنوْا وإن أشرتَ : أقبِلوا أقبَلوا وإن أمسكت وقفُوا وأقرّوا ، وثاماً لك واستنصاحاً ، وتزدادُ نعمة مع الزّيادة في نفسك ، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حللتَ

المحلّ الذي قرُبتَ به من يومك ، وانقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك ، لا يُنتظر بعدها إلاّ ما يكون ختام عَملك من خير فيُرضَىٰ ما تقدّم من صالح فعلك ، أو خلاف فيضلّ له متقدّمُ سعيِك ، وقد ترى يا أبا يحيىٰ حالاً عليها جلوتَ أهل نعمتك ، والولاة القائمة بحقّ إمامتك ، من طعن في عُقدة كنتَ القائم بشدّها ، وختر بعهود توليتَ معاقد أخذها ، يُبدا فيها بالأخصّين ، حتى أفضى الأمر إلى العامّة من المسلمين ، بالأيمان المحرّجة والمواثيق المؤكدة . وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة ، وتفريق أمر أمة وشتّ أمر جماعة ، وتتعرض به لتبديل نعمة وزوال ماوطئت الأسلافُ من الأئمة ، ومتى زالتْ نعمة من ولاة أمركم وَصَل زوالها إليكم في خواصّ أنفسكم ، ولن يغيِّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . وليس الساعي في نشرها بِسَاعٍ فيها على نفسه دون السعْي على حَمَلتها ، القائمين بحُرْمتها ، قد عرضوهم أنَّ يكونوا جَزَراً لأعدائهم ، وطُعْمة قوم تتظفر مخالبهم في دمائهم . ومكانك المكان الذي إن قلتَ رُجع إلى قولك ، وإن أشرتَ لم تُتّهم في نصيحتك ، ولك مع إيثار الحقّ الحظوة عند أهل الحقّ . ولا سواءٌ من حَظِيَ بعاجل مع فراق الحقّ فأوبقَ نفسه في عاقبته ، ومَنْ أعان الحقّ فأدرك به صلاح العاقبة ، مع وفور الحظّ في عاجِلته ، وليس لك ما تُسْتَدْعى ولا عليه ما تُستعْطَف ، ولكنه حقّ من حقّ أحسابك يجب ثوابه على ربّك ، ثم على مَنْ قمت بالحقّ فيه من أهل إمامتك ، فإن أعجزَك قول أو فعل فصر إلى الدّار التي تأمن فيها على نفسك . وتحكم فيها برأيك ، وتنحاز إلى مَنْ يحسن تقبلاً لصالح فعلك ، ويكون مرجعَك إلى عقدك وأموالك ، ولك بذلك الله ، وكفى بالله وكيلاً . وإن تعذّر ذلك بقيّةً على نفسك ، فإمساكاً بيدك ، وقولاً بحقّ ، ما لم تخف وقوعه بكُرْهك ، فلعلَ مقتدياً بك ، ومغتبطاً بنهيك ، ثم أعْلمْني رأيك أعرفه إن شاء الله .

قال : فأتى عليّ بالكتاب إلى محمد ، فشبّ أهل النكث من الكُفاة من تلهيبة ، وأوقدوا نيرانه ، وأعان على ذلك حُميّا قُدرته ، وتساقط طبيعتِه ، وردّ الرأي إلى الفضل بن الربيع لقيامِه كان بمكانفته .

وكانت كتُبُ ذي الرياستين ترد إلى الدّسيس الذي كان يشاوره في أمره : إن أبىٰ القوم إلا عزمة الخلاف ، فألطف لأن يجعلوا أمرَه لعليّ بن عيسىٰ . وإنّما

خصّ ذو الرياستين عليّاً بذلك لسوء أثرِه في أهل خُراسان ، واجتماع رأيهم على ما كرهه ، وإنّ العامة قائلة بحربه. فشاور الفضل الدّسيس الذي كان يشاوره ، فقال: عليّ بن عيسى إن فعل فلم ترمهم بمثله ، في بعد صوبه وسخاوة نفسه ، ومكانه في بلاد خُراسان في طول ولايته عليهم وكثرة صنائعه فيهم ، ثم هو شيخُ الدعوة وبقية أهل المشايعة ، فأجمعوا على توجيه عليّ ، فكان من توجيهه ما كان. وكان يجتمع للمأمون بتوجيه عليّ؛ جندان: أجنادُه الذين يحاربه بهم ، والعامة من أهل خُراسان حرْب عليه لسوء أثره فيهم ، وذلك رأي يكثر الأخطار به إلاّ في صدور رجال ضعاف الرّأي لحال عليّ في نفسه ، وما تقدّم له ولسَلَفِه ، فكان ما كان من أمره ومقتله.

وذكر سهل أن عمرو بن حفص مولى محمد قال: دخلت على محمد في جوف الليل ـ وكنت من خاصّته أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحدٌ من مواليه وحشمه ـ فوجدت الشمع بين يديه ، وهو يفكّر ، فسلّمت عليه فلم يردّ عليّ ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره ، فلم أزَلْ واقفاً على رأسه حتى مضى أكثرُ الليل ، ثم رفع رأسه إليّ ، فقال: أحضرني عبد الله بن خازم ، فمضيت إلى عبد الله ، فأحضرته ، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل ، فسمعت عبدَ الله وهو يقول: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أوّل الخلفاء نكثَ عهدَه ، ونقض ميثاقَه ، واستخفّ بيمينه ، وردّ رأي الخليفة قبله! فقال: اسكت ، لله أبوك! فعبد الملك كان أفضلَ منك رأياً ، وأكمل نظراً ، حيث يقول: لا يجتمع فحلان في هَجمة. قال عمرو بن حفص: وسمعت محمداً يقول للفضل بن الربيع: ويلك يا فضل! لا حياة مع بقاء عبد الله وتعرّضه ، ولا بدَّ من خَلْعه ، والفضل يعينه على ذلك ، ويعده أن يفعل ، وهو يقول: فمتى ذلك! إذا غلب على خراسان وما يليها[١].

وذكر بعضُ خدم محمد أن محمداً لما همّ بخلع المأمون والبَيْعة لابنه ، جمع وجوه القوّاد ، فكان يعرِض عليهم واحداً واحداً ، فيأبَوْنه ، وربما ساعده قومٌ حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم ، فشاوره في ذلك ، فقال: يا أمير المؤمنين ، لم

(١) انظر تعليقنا الآتي.

ينصحْك مَن كذبك ولم يغشّك مَنْ صدّقك ، لا تجرّىء القوادَ على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإنّ الغادر مخذول ، والناكث مفلول . وأقبل عليّ بن عيسىٰ بن ماهان ، فتبسم محمد ، ثم قال : لكن شيخ هذه الدعوة ، وناب هذه الدولة لا يخالف على إمامه ، ولا يوهِن طاعتَه ، ثم رفعه إلى موضع لم أره رفعه إليه فيما مضىٰ ، فيقال : إنه أوّل القوّاد أجاب إلى خلْع عبد الله ، وتابع محمداً على رأيه(١) .

قال أبو جعفر : ولما عزم محمد على خَلْع عبد الله ، قال له الفضل بن الربيع : ألا تُعذِر إليه يا أميرَ المؤمنين فإنه أخوك ، ولعله يسلم هذا الأمر في عافية ، فتكون قد كُفِيت مؤونته ، وسلِمْت من محاربته ومعاندته! قال : فأفعل ماذا؟ قال : تكتب إليه كتاباً ، تستطيب به نفسَه ، وتسكِّن وحشته ، وتسأله الصَّفْح لك عمّا في يده ، فإنّ ذلك أبلغُ في التدبير ، وأحسن في القالَة من مكاثرته بالجنود ، ومعالجته بالكيد . فقال له : أعمل في ذلك برأيك . فلما حضر إسماعيل بن صُبَيح للكتاب إلىٰ عبد الله قال : يا أميرَ المؤمنين ، إن مسألتك الصَّفْح عما في يديه توليد للظنّ ، وتقوية للتهمة ، ومدعاة للحَذر ، ولكن اكتب إليه فأعِلْمه حاجتَك إليه ، وما تحبّ من قربه والاستعانة برأيه ، وسلْه القدوم إليك ، فإن ذلك أبلغُ وأحرىَ أن يبلغ فيما يوجب طاعتَه وإجابته . فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين ، قال : فليكتب بما رأىٰ(٢) . قال : فكتب إليه :

---

(١) فحوىٰ هذا الخبر ذكره الطبري كما ترى من طريقين ولهما ما يؤيدهما من خبر أبي حنيفة الدينوري إذ قال متحدثاً عن موقف الأمين من جواب أخيه المأمون :
فلما قرأه جَمَع القُوَّاد إليه ، فقال لهم :
إني قد رأيتُ صَرْفَ أخي عبد الله عن خراسان ، وتصييره معي ليُعاونني فلا غِنَى بي عنه ، فما ترون؟
فأُسكت القوم .
فتكلّم خازم بن خُزيمة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تحمل قُوَّادك وجنودك على الغَدْر فيغدروا بك ، ولا يرون منك نقْض العهد فينقضوا عهدك .
قال محمد : ولكن شيخ هذه الدولة عليّ بن عيسىٰ بن مَاهَامان لا يَرَى ما رأيتَ ، بل يَرَى أن يكون عبد الله معي ليؤازرني ويحمل عنّي ثقل ما أنا فيه بصدده . [الأخبار الطوال / ٣٩٦] .

(٢) هذا الخبر الذي يبدأ من قوله : قال أبو جعفر إلى قوله : فليكتب بما رأىٰ له ما يؤيده عند الجهشياري إذ قال : =

من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلىٰ عبد الله بن هارون أمير المؤمنين. أما بعد، فإن أميرَ المؤمنين روّى في أمرك، والموضع الذي أنت فيه من ثغره، وما يؤمّل في قربك من المعاونة والمكانفة على ما حمَّله الله، وقلّده من أمور عباده وبلاده، وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرّشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فرجا أمير المؤمنين ألاّ يدخل عليه وكْفٌ في دينه، ولا نَكْث في يمينه، إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله. وعلم أمير المؤمنين أنّ مكانك بالقرب منه أسدّ للثغور، وأصلح للجنود، وآكد للفيء، وأردّ على العامة من مقامك ببلاد خُراسان منقطعاً عن أهل بيتك، متغيباً عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرِك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولِّيَ موسى بن أمير المؤمنين فيما يقلده من خلافتِك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك. فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونِه، بأبسط أملٍ وأفسح رجاء وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة، فإنك أوْلى مَن استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه من صلاح أهل ملّته وذمته. والسلام.

ودفع الكتاب إلى العبّاس بن موسى بن عيسىٰ بن محمد بن عليّ، وإلى عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسىٰ بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلّى، وأمرهم أن يتوجّهوا به إلى عبد الله المأمون، وألا يدَعوا وجهاً من اللين والرّفق إلا بلغوه، وسهلوا الأمر عليه فيه، وحمّل بعضهم الأموالَ والألطاف والهدايا، وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة. فتوجهوا بكتابه، فلما

= ولما عزم محمدٌ على مكاتبة المأمون بأن ينزل له عن بعض أعماله، تقدم إلى إسماعيل بن صبيح أن يكتب إليه في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين إن مسألتك له الصفح عن بعض مافي يديه توكيد للظن، وتقوية للتهمة، ومدعاة للحذر، ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه، وشوقك إلى قربه، وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته، وتسأله القدوم عليك، فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه، فقال: اكتب بذلك، فكتَب به، فلم يلتفت إليه المأمون، ولا أجابه عنه. [الوزراء والكتاب / ٢٩٣].

ويؤيده كذلك ما ورد في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري كما سنذكر في تعليقنا على الخبر التالي.

وصلوا إلى عبد الله ، أذن لهم ، فدفعوا إليه كتاب محمد ، وما كان بعث به معهم من الأموال والألطاف والهدايا[١] .

ثم تكلم العباس بن موسىٰ بن عيسىٰ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الأمير ، إن أخاك قد تحمّل من الخلافةِ ثقلاً عظيماً ، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً ، وقد صدقت نيّته في الخير ، فأعوزه الوزراء والأعوان والكُفاة في

(١) وقال أبو حنيفة الدينوري :
ثم إن محمداً الأمين دعا إسماعيل بن صَبِيح كاتب السِّرّ ، فقال :
ـ ما الذي ترى يا ابن صَبيح؟
قال : أرىٰ دَوْلَة مباركة ، وخلافة مستقيمة ، وأمْراً مُقْبِلاً ، فتمّم الله ذلك لأمير المؤمنين بأفضله وأجزله .
قال له محمد : إني لم أبغِكَ قاصّاً ، إنما أردت منك الرَّأي .
قال إسماعيل : إنْ رَأى أمير المؤمنين أن يوضّح لي الأمر لأشير عليه بمبلغ رأيي ونُصْحِي فَعَل .
قال : إني قد رأيتُ أن أعزل أخي عبد الله من خراسان ، وأستعمل عليها موسىٰ بن أمير المؤمنين .
قال إسماعيل : أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تنقض ما أسّسه الرشيد ، ومهّده ، وشيّد أركانه .
قال محمد : إن الرشيد مُوِّهَ عليه في أمر عبد الله بالزَّخْرَفَة ، وَيْحك يا ابن صَبِيح ، إن عبد الملك بن مروان كان أحزم رأياً منك ، حيث قال : «لا يجتمع فَحْلان في هَجْمَة إلا قَتَلَ أحدهما صاحبه» .
قال إسماعيل : أما إذ كان هذا رأيك ، فلا تُجاهره ، بل اكتب إليه ، وأعلمه حاجتك إليه بالحضرة ، ليُعينك على ما قلّدَك الله من أمر عباده وبلاده ، فإذا قدم عليك ، وفرّقت بينه وبين جنوده كسرتَ حَدّه ، وظفرت به ، وصار رَهْناً في يديك ، فَأْتِ في أمره ما أردتَ .
قال محمد : أَجَدْتَ يا ابن صَبِيح ، وأصبت ، هذا لَعَمْرِي الرَّأْي .
ثم كتب إليه يُعلمه أن الذي قلّدَه الله من أمر الخلافة والسياسة قد أثقله ، ويسأله أن يقدم عليه ليُعِينه على أموره ، ويُشير عليه بما فيه مصلحته ، فإن ذلك أَعْوَدُ على أمير المؤمنين من مقامه بخراسان ، وأَعمرُ للبلاد ، وأدَرّ للفَيْء ، وأكبَتُ للعدوّ ، وآمَنُ للبَيْضَة .
ثم وجّه الكتاب مع العباس بن موسىٰ ، ومحمد بن عيسىٰ ، وصالح صاحب المصلّى .
فساروا نحو خراسان ، فاستقبلهم طاهر بن الحسين مُقْبِلاً من عند المأمون على وِلاية الرّيّ ، حتى انتهوا إلى المأمون وهو بمدينة مَرْو ، فدخلوا عليه ، وأوْصَلوا الكتاب إليه ، وتكلّموا . [الأخبار الطوال / ٣٩٤] .

العدل ، وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته ، وأنت أخوه وشقيقه ، وقد فزع إليك في أموره ، وأمّلك للموازنة والمكانفة ، ولسنا نستبطئك في برّه اتّهاماً لنصرك له ، ولا نحضّك على طاعة تخوّفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنسٌ عظيم ، وصلاح لدولته وسلطانه ، فأجب أيّها الأمير دعوةَ أخيك وآثرْ طاعَته ، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاءَ الحقّ ، وصلة الرَّحِم ، وصلاحَ الدولة ، وعزّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخِيَرَةَ والصلاح في عواقب رأيه .

وتكلَّم عيسىٰ بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال : إنّ الإكثار على الأمير ـ أيده الله ـ في القول خرقٌ ، والاقتصاد في تعريفه ما يجب من حقّ أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير أكرمه الله عن أمير المؤمنين ، ولم يستغنِ عن قربه ، ومَنْ شهد غيره من أهل بيته فلا يجد عنده غناءً ، ولا يجد منه خلفاً ولا عوضاً ، والأمير أولى مَن بَرّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أميرُ المؤمنين ، بما هو أرضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبّته ، فإنّ القدوم عليه فضل وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وكْفٌ في الدّين ، وضرر ومكروه على المسلمين .

وتكلم محمد بن عيسىٰ بن نَهيك ، فقال : أيها الأمير ، إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحقّ أمير المؤمنين ، ولا تَشحذ نيتّك بالأساطير والخطب فيما يلزمُك من النَّظر والعناية بأمور المسلمين . وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكفاة والنَّصحاء بحضرته ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تُجب أميرَ المؤمنين فيما دعاك فنعمة عظيمة تَتلافى بها رعيَّتَك وأهل بيتك ، وإن تقعد يغن الله أميرَ المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرّ بك والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

وتكلم صاحب المصلىٰ ، فقال : أيّها الأمير ، إن الخلافة ثقيلة والأعوان قليل ، ومَنْ يكيد هذه الدولة وينطوي على غشها والمعاندة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه ، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليّ عهده ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك

عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة ، وأنس وسكون لأهل الملّة والذمة ، وفّق الله الأميرَ في أموره ، وقضى له بالذي هو أحبّ إليه وأنفع له!

فحمِد الله المأمون وأثنى عليه ، ثم قال: قد عرّفتموني من حق أمير المؤمنين أكرَمه الله مالاً أنكره ، ودعوتموني من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لِطاعة أمير المؤمنين مقدِم ، وعلى المسارعة إلى ما سرّه ووافقه حريص ، وفي الرويّة تبيانُ الرّأي ، وفي إعمال الرأي نُصح الاعتزام ، والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبّطاً ومدافعةً، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعَجَلة، وأنا في ثَغْر من ثغور المسلمين كلبٌ عدوّه، شديدٌ شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعيّة ، وإن أقمت لم آمن فوت ما أحبّ من معونة أمير المؤمنين وموازرته ، وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظر في أمرِي ، ونصح الرأي فيما أعتزم عليه من مسيرِي إن شاء الله. ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان إليهم[1].

فذكر سفيان بن محمد أنّ المأمون لمّا قرأ الكتاب أسقِط في يده ، وتعاظَمه ما ورد عليه منه ، ولم يَدْرِ ما يردُّ عليه ، فدعا الفضلَ بن سهل ، فأقرأه الكتاب ، وقال: ما عندك في هذا الأمر؟ قال: أرى أن تتمسَّك بموضعك ، ولا تجعل عليك سبيلاً ، وأنت تجد من ذلك بدّاً. قال: وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد ، وعُظْم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه ، مع ما قد فرّق في أهل بغداد من صِلاته وفوائده! وإنما الناس مائلون مع الدّراهم ، منقادون لها ، لا ينظرون إذا وجدوها حفظَ بيعة ، ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة. فقال له الفضل: إذا وقعت التهمة حقَّ الاحتراس ، وأنا لغدر محمد متخوّف ، ومن شَرَهِهِ إلى ما في يديك مشفِق ، ولأن تكون في جندك وعزِّك مقيماً بين ظهرانيْ أهل ولايتك أحْرَى ، فإن دهمك منه أمر جرّدت له وناجزته وكايدته ، فإمّا أعطاك الله الظفَر عليه بوفائِك ونيَّتك ، أو كانت الأخرىٰ فمتّ محافظاً مكرّماً ، غير ملقٍ بيديك ، ولا ممكن عدوّك من الاحتكام في نفسك ودمك. قال: إن هذا الأمر لو كان أتاني وأنا في قوّة من

---

(١) انظر الخبر الآتي و تعليقنا عليه والخبر (٨/ ٤٠٥ / ٤٩).

أمري ، وصلاح من الأمور ، كان خطبه يسيراً ، والاحتيال في دفعه ممكناً ، ولكنّه أتاني بعد إفساد خُراسان واضطراب عامرها وغامرها ، ومفارقة جَبْغويه الطاعة ، والتواء خاقان صاحب التّبت ، وتهيؤ ملك كابل للغارة على ما يليه من بلاد خُراسان ، وامتناع ملك إبرازبنده بالضريبة التي كان يؤديها ، ومالي بواحدة من هذه الأمور يدٌ ، وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدومي إلا لشرّ يريده ، وما أرىٰ إلا تخلية ما أنا فيه ، واللحاق بخاقان ملك الترك ، والاستجارة به وببلاده ، فبالحرَي أن آمن على نفسي ، وأمتنع ممن أراد قَهْرِي والغدر بي.

فقال له الفضل: أيها الأمير ، إنّ عاقبة الغدر شديدة ، وتَبِعة الظلم والبغي غير مأمون شرّها ، وربّ مستذَل قد عاد عزيزاً ، ومقهور قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس النصر بالقلة والكثرة ، وحَرَجُ الموت أيسر من حرج الذلّ والضيم ، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه وتصير إلى طاعة محمد متجرّداً من قوّادك وجندك كالرأس المختزَل عن بدنه ، يُجري عليك حكمه ، فتدخل في جملة أهل مملكته من غير أن تبلي عذراً في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب إلى جبغويه وخاقان ، فولِّهما بِلادهما ، وعِدْهما التقويةَ لهما في محاربة الملوك ، وابعْث إلى ملك كابلٍ بعضَ هدايا خُراسان وطُرَفها ، وسلْه الموادعة تجده على ذلك حريصاً ، وسلِّم الملك إبرازبنده ضريبتَه في هذه السنة ، وصيّرها صِلةً منك وصلتَه بها ، ثم أجمع إليك أطرافك ، واضمُم إليك من شذّ من جندك ، ثم اضرب الخيل بالخيل ، والرجال بالرجال ، فإن ظفرتَ وإلا كنت على ما تريد من اللحاق بخاقان قادراً. فعرف عبدُ الله صدق ما قال ، فقال: أعمل في هذا الأمر وغيره من أموري بما ترىٰ ، وأنفَذ الكتب إلى أولئك العصاة ، فرضوا وأذعنوا ، وكتب إلى مَنْ كان شاذاً عن مَرْو من القواد والجنود ، فأقدمهم عليه ، وكتب إلى طاهر بن الحسين وهو يومئذ عامل عبد الله على الرّيّ ، فأمره أن يضبط ناحيتَه ، وأن يجمع إليه أطرافه ، ويكون على حذَرٍ وعدّة من جيش إن طرقه ، أو عدوٍّ إن هجم عليه. واستعدّ للعرب ، وتهيّأ لدفع محمد عن بلاد خراسان[1].

ويقال: إن عبد الله بعث إلى الفضل بن سهل فاستشاره في أمر محمد ،

---

(١) انظر تعليقنا بعد الآتي (٨/ ٤٠٥/ ٤٩).

فقال: أيها الأمير، أنظرني في يومي هذا أغدُ عليك برأي، فبات يدبّر الرأي ليلتَه، فلما أصبح غداً عليه، فأعلمه أنه نظر في النّجوم فرأى أنه سيغلبه، وأنّ العاقبة له. فأقام عبد الله بموضعه، ووطّن نفسه على محاربة محمد ومناجزته[١] فلمّا فرغ عبد الله مما أراد إحكامَه من أمر خراسان، كتب إلى محمد:

لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هارون، أما بعد، فقد وصل إليّ كتاب أمير المؤمنين، وإنما أنا عامل من عمَالِه وعون من أعوانه، أمرني الرّشيد صلوات الله عليه بلزوم هذا الثَّغْر، ومكايدة من كايد أهله من عدوّ أمير المؤمنين، ولعمري إن مقامي به، أردّ على أمير المؤمنين وأعظم غناءً عن المسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين، وإن كنتُ مغتبطاً بقربه، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أن يقرّني على عملي، ويعفيَني من الشخوص إليه، فعل إن شاء الله. والسلام.

ثم دعا العباس بن موسى وعيسىٰ بن جعفر ومحمداً وصالحاً، فدفع الكتاب إليهم، وأحسن إليهم في جوائزهم، وحمل إلى محمد ما تهيّأ له من ألطاف خراسان، وسألهم أن يحسِّنوا أمره عنده، وأن يقوموا بعذره[٢].

---

(١) لعل الفضل بن سهل كان صاحب نظر في النجوم لا ندري ولا نستطيع أن نثبت ذلك إلا أن الذي تأكد لدى من له أدنى خبرة بالأخبار وكتب التراجم أن المأمون كان من رواة الحديث ملماً بالعلوم الإسلامية محباً للعلماء ولم يكن يخفى عليه حرمة التصديق بالمنجمين ويبدو أن الطبري لم يكن واثقاً من صحة الخبر فقال في بدايته: ويقال: بصيغة التمريض وبلا إسناد.

(٢) هذا الخبر والأخبار (٤٦) و(٤٧) لها ما يؤيدها عند أبي حنيفة الدينوري إذ ذكر الخبر مختصراً دون ذكر خطبة كل واحد منهم وإنما قال: فذكروا حاجة أمير المؤمنين إليه وما يرجو في قربه من بسط المملكة والقوة على العدو فأبلغوا في مقالتهم وأمر المأمون بإنزالهم وإكرامهم.
ولما جَنَّ عليه الليل بعث إلى الفضل بن سهل، وكان أخصّ وزرائه عنده، وأوثقهم في نفسه، وقد كان جَرّبَ منه وَثاقَةَ رَأْيِ وَفَضل حَزْم، فلما أتاه خَلاَ به، وأقرأه كتاب محمد، وأخبره بما تكلْم به الوفد من أمر التَّحْضِيض على المسير إلى أخيه ومعاونته على أمره.
قال الفضل: ما يريد بك خيراً، وما أَرَضى لك إلا الامتناع عليه.
قال المأمون: فكيف يمكنني الامتناع عليه، والرجال والأموال معه، والناس مع المال؟
قال الفضل: أَجِّلْني ليلتي هذه لآتيَك غداً بما أرىٰ إلى آخر الخبر.
وأن المأمون أحسن صلاتهم وجوائزهم وكتب معهم رسالة إلى أخيه الأمين ونصها:
«أمّا بعد، فإن الإمام الرشيد وَلاّنِي هذه الأرض على حين كَلَبٍ من عدوّها، ووَهْيٍ من =

قال سفيان بن محمد: لما قرأ محمد كتاب عبد الله، عرف أنّ المأمون لا يتابعه على القدوم عليه، فوجّه عصمة بن حماد بن سالم صاحب حَرَسه، وأمره أن يقيم مسلحةً فيما بين هَمَذان والرّيّ، وأن يمنع التجار من حَمْل شيء إلى خراسان من المِيرة، وأن يفتِّش المارّة، فلا يكون معهم كتب بأخباره وما يريد، وذلك سنة أربع وتسعين ومائة. ثم عزم على محاربته، فدعا عليّ ابن عيسى بن ماهان، فعقد له على خمسين ألف فارس ورجل من أهل بغداد، ودفع إليه دفاتر الجند، وأمره أن ينتقيَ ويتخيَّر من أراد على عينه، ويخصّ من أحبَّ ويرفع من أراد إلى الثمانين، وأمكنه من السلاح وبيوت الأموال، ثم وُجِّهوا إلى المأمون.

فذكر يزيد بن الحارث، قال: لما أراد عليّ الشخوص إلى خُراسان ركب إلى باب أم جعفر، فودّعها، فقالت: يا عليّ، إنّ أمير المؤمنين وإن كان ولدِي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حَذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة، لما يحدُث عليه من مكروه وأذًى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه، وغاره على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فأعرف لعبد الله حقَّ والده وإخوته، ولا تجبِّهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهقه بقيْد ولا غُلّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً، ولا تعنِّف عليه في السير، ولا تساوه في المسير، ولا تركب قَبْله، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سَفه عليك فلا ترادّه. ثم دفعتْ إليه قيْداً من فضة، وقالت: إن صار في يدك فقيِّده بهذا القيد. فقال لها: سأقبل أمرَكِ، وأعمل في ذلك بطاعتك[1].

= سَدّها، وضَعْفٍ من جنودها، ومتى أخللتُ بها، أو زُلْتُ عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها، وغَلَبَة أعدائها عليها، بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيثُ هو، فرأي أمير المؤمنين في أن لا ينقض ما أبْرَمَه الإمام الرشيد».
وسار القوم بالكتاب حتىٰ وافُوا به الأمين، وأوْصَلُوا الكتاب إليه. [الأخبار الطوال / ٣٩٥].

(١) لهذا الخبر ما يؤيده عند أبي حنيفة الدينوري إذ قال:
وقد كانت زُبَيدة تقدّمت إلى علي بن عيسىٰ، وكان إياها مودّعا، فقالت له:
ـ إن محمداً، وإن كان ابني وثمرة فؤادي، فإن لعبد الله من قلبي نصيباً وافراً من المحبّة، =

وأظهر محمد خلع المأمون ، وبايع لابنيه ـ في جميع الآفاق إلاّ خُراسان ـ موسى وعبد الله، وأعطى عند بيعتهما بني هاشم والقوّاد والجند الأموال والجوائز، وسمّىٰ موسىٰ النّاطق بالحق ، وسمّىٰ عبد الله القائم بالحقّ. ثم خرج عليّ بن عيسىٰ لسبع ليال خلون من شعبان سنة خمس وتسعين ومائة من بغداد حتى عسكر بالنَّهروان ، وخرج معه يشيّعه محمد ، وركب القوّاد والجنود ، وحُشرت الأسواق ، وأشخص معه الصنّاع والفعَلة ، فيقال: إنّ عسكره كان فرسخاً بفسطاطيه وأهبَتَه وأثقاله ، فذكر بعضُ أهل بغداد أنهم لم يروا عسكراً كان أكثرَ رجالاً ، وأفرَه كُراعاً ، وأظهر سلاحاً ، وأتمَّ عُدّة ، وأكمل هيئة ، من عسكره.

وذكر عمرو بن سعيد أن محمداً لما جاز باب خُراسان نزل عليّ فترجَّل ، وأقبل يوُصيه ، فقال: امنع جندَك من العبث بالرعيّة والغارة على أهل القُرى وقَطْع الشجر وانتهاك النساء ، وولّ الري يحيى بن عليّ ، واضمم إليه جنداً كثيفاً ، ومرْه ليدفع إلى جنده أرزاقهَم مما يجبى من خراجها ، وولّ كل كورة ترَحلُ عنها رجلاً من أصحابك ، ومَنْ خرج إليك من جند أهل خُراسان ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخاً بأخيه ، وضَعْ عن أهل خراسان رُبْع الخراج ، ولا تؤمِّن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برُمح ، ولا تأذن لعبد الله في المُقام أكثر من ثلاثة من اليوم الذي تظهر فيه عليه ، فإذا أَشخصتَه فليكن مع أوثقِ أصحابك عندك ، فإن غرّة الشيطان فناصَبك فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كوُر خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك. أفهِمْت كّل ما أوصيك به؟ قال: نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين! قال: سِرْ على بركة الله وعونه!.

= وأنا التي ربيّته ، وأنا أحنو عليه ، فإياك أن يبدأه منك مكروه ، أو تسير أمامه ، بل سر إذا سرت معه من ورائه ، وإن دعاك فلبّه ، ولا تركب حتى يركب قبلك ، وخذ بركابه إذا ركب ، وأظهر له الإجلال والإكرام».
ثم دفعت إليه قيداً من فضّه وقالت:
إن استعصى عليك في الشخوص فقيّده بهذا القيد».
وإن محمداً انصرف عنه بعد أن أوعز إليه ، وأوصاه بكل ما أراد [الأخبار الطوال / ٣٩٦].

وذُكر أنّ منجِّمَه أتاه فقال: أصلح الله الأمير! لو انتظرت بمسيرك صلاح القمَر ، فإنَّ النحوس عليه عالية ، والسعود عنه ساقطة منصرفة! فقال لغلام له: يا سعيد ، قل لصاحب المقدّمة يضرب بطبله ويقدّم علَمه ، فإنا لا ندري ما فساد القمر من صلاحه ، غير أنه مَنْ نازلنا نازلناه ، ومن وادَعنا وادَعناه وكَفَفْنا عنه ، ومَنْ حاربنا وقاتلنا لم يكن لنا إلاّ إرْواء السيف من دمه. إنا لا نعتدّ بفساد القمر ، فإنا وطَّنّا أنفسنا على صِدْق اللقاء ومناجزة الأعداء[١].

قال أبو جعفر: وذكر بعضُهم أنه قال: كنتُ فيمن خرج في عسكر عليّ بن عيسى بن هامان ، فلما جاز حُلوان لقَيْته القوافل من خُراسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، يستطلع عِلْم أهل خُراسان ، فيقال له: إنَّ طاهراً مقيم بالرّيّ يعرض أصحابه ، ويرمّ آلته ، فيضحك ثم يقول: وما طاهر! فوالله ما هو إلا شوْكة من أغصاني ، أو شرارة من ناري ، وما مِثْل طاهر يتولّى على الجيوش ، ويلقَى الحروب ، ثم التفت إلى أصحابه فقال: والله ما بينكم وبين أن ينقصِف انقصاف الشّجر من الريح العاصف ، إلاّ أن يبلغه عبورنا عَقَبة هَمَذان ، فإنّ السّخال لا تقوى على النطاح ، والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسْد ، فإن يُقمْ طاهر بموضعه يكنْ أول معرَّض لظباة السيوف وأسنّة الرماح[٢].

وذكر يزيد بن الحارث أن عليّ بن عيسىٰ لما صار إلى عَقَبة همَذان استقبل قافلة قدمتْ من خُراسان ، فسألهم عن الخبر ، فقالوا: إن طاهراً مقيم بالريّ ، وقد استعدّ للقتال ، واتَّخذ آلة الحرب ، وإن المدد يترى عليه من خُراسان وما يليها من الكُور ، وإنه في كلّ يوم يعظم أمرُه ، ويكثر أصحابه ، وإنهم يروْن أنه صاحب جيش خراسان. قال عليّ: فهل شخص من أهل خراسان أحدُ يعتدّ به؟ قالوا: لا ، غير أن الأمور بها مضطربة ، والناس رَعِبون ، فأمر بطيّ المنازل

---

(١) هذا خبر غير صحيح ولم يكن للخلفاء يومها منجمون قريبو عهد بالقرن الأول والمجتمع يعجّ بالعلماء وبعض الخلفاء هم من العلماء.
أو رواة الحديث كالمنصور والمهدي والمأمون، والطبري ذكر الخبر مسبوقاً بعبارة (وذُكر أن) أي بالبناء للمجهول وفي الخبر ما يكذبه فكيف يتّخذُ منجماً ولا يصدقه؟ والخبر لا يصح والله أعلم.
(٢) انظر تعليقنا (٨/ ٤١١/ ٥٤).

والمسير ، وقال لأصحابه : إنّ نهاية القوم الرّيّ ، فلو قد صيّرْناها خلف ظهورنا فَتّ ذلك في أعضادهم ، وانتشر نظامهم ، وتفرّقت جماعتهم . ثم أنفذ الكتبَ إلى ملوك الديْلم وجبال طَبرِستان وما والاها من الملوك ، يَعِدُهم الصِّلات والجوائز . وأهدى إليهم التِّيجان والأسورة والسيوفَ المحلاّة بالذهب ، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ، ويمنعوا مَن أراد الوصول إلى طاهر من المدد ، فأجابوه إلى ذلك ، وسار حتى صار في أول بلاد الرّيّ ، وأتاه صاحب مقدّمته ، فقال : لو كنتَ ـ أبقى الله الأمير ـ أذكيت العيون ، وبعثت الطلائع . وارتدْتَ موضعاً تعسكر فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلَغ في الرأي ، وآنس للجند ، قال : لا ، ليس مثل طاهر يُستعدّ له بالمكايد والتحفظ ، إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين : إما أن يتحصّن بالرّيّ فيبيّته أهلها فيكفوننا مؤنته ، أو يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعساكرنا منه . وأتاه يحيىٰ بن عليّ ، فقال : اجمع متفرّقَ العسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرِّح الخيل إلاّ ومعها كنْف من القوم ، فإنْ العساكر لا تساس بالتّواني ، والحروب لا تُدبّر بالاغترار ، والثقة أن تحترز ، ولا تقلْ : إن المحارب لي طاهر ، فالشرارة الخفيّة ربما صارت ضُراماً ، والثلمة من السيل ربما اغتر بها وتُهُوّن فصارت بحراً عظيماً ، وقد قربت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأيهُ الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا . قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي تَرى ، وإنما تَتَحفّظ الرجال إذا لقيتْ أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوىء لها أكفاءها [ونظراءها][1] .

وذكر عبد الله بن مجالد ، قال : أقبَل عليّ بن عيسى حتىٰ نزل من الرّيّ علىٰ عشرة فراسخ ، وبها طاهر قد سدّ أبوابها ، ووضع المسالح على طُرُقها ، واستعدّ لمحاربته ، فشاور طاهرٌ أصحابه ، فأشاروا عليه أن يقيمَ بمدينة الريّ ، ويدافع القتال ما قَدَر عليه إلىٰ أن يأتيَه من خُراسان المدد من الخيل ، وقائد يتولىٰ الأمر دونه ، وقالوا : إن مقامك بمدينة الري أرفقُ باصحابك ، وأقدر لهم علىٰ المِيرة ، وأكنّ من البَرْد ، وأحْرَىٰ إن دَهَمك قتال أن يعتصموا بالبيوت ، وتقوى على المماطلة والمطاولة ، إلىٰ أن يأتيَك مدد ، أو تردَ عليك قُوّة من خلفك . فقال طاهر : إنّ الرأي ليس ما رأيتم ، إنّ أهل الريّ لعليّ هائبون ، ومن معرّته وسطوته

(١) انظر تعليقنا (٨/ ٤١١/ ٥٤).

متّقون ، ومعه مَنْ قد بلغكم من أعراب البوادي وصعاليك الجبال ولفيف القرى ، ولست آمن إن هجم علينا مدينة الرّيّ أن يدعوَ أهلَها خوفُهم إلى الوثوبِ بنا ، ويعينوه على قتالنا ، مع أنه لم يكن قوم قط روعبوا في ديارهم ، وتورّد عليهم عسكرهم إلا وَهنوا وذلوا ، وذهب عزمهم ، وأجترأ عليهم عدوّهم. وما الرأي إلاّ أن نصيّر مدينة الرّيّ قَفا ظهورنا ، فإن أعطانا الله الظَّفَر ، وإلا عوّلنا عليها فقاتلنا في سككها ، وتحصنّا في مَنعتها إلى أن يأتينا مدد أو قوة من خراسان. قالوا: الرأي ما رأيتَ. فنادى طاهر في أصحابه فخرجوا. فعسكروا على خمسة فراسخ من الرّيّ بقرية يقال لها كلواص ، وأتاه محمد بن العلاء فقال: أيها الأمير ، إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلأتْ قلوبهم خوفاً ورُعباً منه ، فلو أقمتَ بمكانك ، ودافعت القتال إلىٰ أن يشامّهم أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجهَ المأخذ في قتالهم! فقال: لا ، إني لا أوتَىٰ من قلّة تجربة وحَزْم ، إنَّ أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادُهم كثير عددهم ، فإن دافعت القتالَ ، وأخَّرْتُ المناجزة لم آمن أن يطلعوا علىٰ قلّتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا مَنْ معي برغبة أو رَهبْة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهلُ الحفاظ والصبر ، ولكن ألفّ الرجال بالرجال ، والحِم الخيل بالخيل ، وأعتمد علىٰ الطاعة والوفاء ، وأصبر صبر محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن يرزق الله الظّفَر والفلج فذلك الذي نريد ونرجو ، وإن تكن الأخرى ، فلست بأول مَنْ قاتل فقتِل ، وما عند الله أجزل وأفضل.

وقال عليّ لأصحابه: بادروا القوم ، فإنْ عددهم قليل ، ولو زحفتم إليهم لم يكن لهم صبر علىٰ حرارة السيوف وطعن الرماح. وعبَأ جنده ميمنة وميسرة وقلباً ، وصيرَّ عشر رايات ، في كل راية ألف رجل ، وقدم الرّاياتِ رايةً رايةً ، فصيّر بين كلّ راية وراية غَلْوة ، وأمرَ أمراءها: إذا قاتلت الأولىٰ فصبرت وحمت وطال بها القتال أن تُقدِّم التي تليها وتؤخِّر التي قاتلت حتىٰ ترجع إليها أنفسُها ، وتستريح وتنشط للمحاربة والمعاودة ، وصيَّر أصحابَ الدروع والجواشن والخوذ أمام الرايات ، ووقف في القلب في أصحابه من أهل البأس والحفاظ والنجدة منهم.

وكتَّبَ طاهر بن الحسين كتائبَه وكردَس كراديسه ، وسوّى صفوفه ، وجعل

يمرّ بقائد قائد ، وجماعة جماعة ، فيقول: يا أولياء الله وأهل الوفاء والشّكر ، إنكم لستم كهؤلاء الذين تروْن من أهل النكْث والغدر ، إن هؤلاء ضيّعوا ما حفظتم وصغّروا ما عظّمتم ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون الباطل ويقاتلون علىٰ الغدر والجهل ، أصحاب سلْب ونهب ، فلو قد غضضتم الأبصار ، وأثبتم الأقدام! قدأنجز الله وعدَه ، وفتح عليكم أبواب عزِّه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النَّار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فإنما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين. وقلق قلقاً شديداً ، وأقبل يقول: يا أهلَ الوفاء والصدق ، الصبرَ الصبرَ الحفاظَ الحفاظَ! وتزاحف الناس بعضهم إلى بعض ، ووثب أهل الريّ ، فغلّقوا أبواب المدينة ، ونادى طاهر: يا أولياء الله ، اشتغلوا بمن أمامكم عمَّن خلفكم ، فإنه لا ينجيكم إلاَّ الجدّ والصدق. وتلاحموا واقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، وعلتْ ميمنة عليّ على ميسرة طاهر ففضّتها فضّاً منكراً ، وميسرتُه على ميمنته فأزالتها عن موضعها. وقال طاهر: اجعلوا بأسكم وجدّكم علىٰ كراديس القلب ، فإنكم لو فضضتم منها رايةً واحدة رجعت أوائلُها علىٰ أواخرها. فصبر أصحابه صبراً صادقاً ، ثم حملوا علىٰ أوائل رايات القلب فهزموهم ، وأكثروا فيهم القتل ، ورجعت الرّايات بعضها علىٰ بعض ، وانتقضت ميمنة عليّ. ورأى أصحابُ ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه ، فرجعوا علىٰ من كان في وجوههم ، فهزموهم ، وانتهت الهزيمة إلى عليّ فجعل ينادي أصحابه: أينَ أصحاب الأسورة والأكاليل! يا معشرَ الأبناء ، إليّ الكرّة بعد الفرّة ، معاودة الحرب من الصبر فيها ، ورماه رجلٌ من أصحاب طاهر بسهم فقتَله ، ووضعوا فيهم السيوف يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى حال الليل بينهم وبين الطلب ، وغنموا غنيمة كثيرة ، ونادى طاهر في أصحاب عليّ: مَن وضع سلاحه فهو آمن ، فطرحوا أسلحتهم ، ونزلوا عن دوابّهم ، ورجع طاهر إلى مدينة الرّيّ ، وبعث بالأسرىٰ والرؤوس إلى المأمون[1].

---

(١) هذه الأخبار (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤) الواردة في وصف مسير عليّ بن عيسىٰ إلى الريّ والتقاءه بجيش طاهر بالقرب منها واقتتالهم الشديد ثم هزيمة جيش عليّ بن عيسىٰ بعد مقتله ذكرها الطبري في حينها مجملاً. =

= ثم فصّل هنا تفصيلاً ولبعض متونها مايؤيدها عند أبي حنيفة الدينوري إذ قال:
وسار عليّ بن عيسىٰ بن ماهان حتىٰ صار إلى حلوان، فاستقبله عِيرٌ مقبلة من الريّ، فسألهم عن خبر طاهر، فأخبروه أنه يستعدّ للحرب، فقال: وما طاهر؟ ومن طاهر؟ ليس بينه وبين إِخلاء الريّ إلا أن يبلغه أني جاوزت عتبة هَمَذان.
ثم سار حتىٰ خلّف عتبة همذان وراءه، فاستقبله عِيرُ أخرى، فسألهم عن الخبر.
فقالوا: إن طاهراً قد وضع العطاء لأصحابه، وفرّق فيهم السلاح، واستعد للحرب.
فقال: في كم هو؟
فقالوا: في زهاء عشرة آلاف رجل.
فأقبل الحسن بن علي بن عيسىٰ علىٰ أبيه فقال:
ـ يا أبت، إن طاهراً لو أراد الهرب لم يقم بالريّ يوماً واحداً.
فقال: يا بُنيّ، إنما تستعدّ الرجال لأقرانها، وإن طاهراً ليس عندي من الرجال الذي يستعدّون لمثلي، ويستعد له مثلي.
وذكروا أن مشايخ بغداد قالوا: لم نر جيشاً كان أظهر سلاحاً، ولا أكمل عُدّة، ولا أفرهَ خيلا، ولا أنبلَ رجالاً من جيش عليّ بن عيسى يوم خرج، إنما كانوا نُخبا.
وإن طاهر بن الحسين جمع إليه رؤساء أصحابه فاستشارهم في أمره، فأشاروا عليه، أن يتحصّن بمدينة الريّ، ويحارب القوم من فوق السور إلى أن يأتيَه مَدَد من المأمون.
فقال لهم: وَيْحكم، إني أبصرَ بالحرب منكم، إني متى تحصّنت استضعفت نفسي، ومال أهل المدينة إليه لقوته، وصاروا أشد عليّ من عدوي، لخوفهم من علي بن عيسىٰ، ولعله أن يستميل بعض من معي بالأطماع، والرأيُ أن أَلُفّ الخيل بالخيل، والرجال بالرجال، والنصر من عند الله.
ثم نادى في جنوده بالخروج عن المدينة، وأن يعسكروا بموضع يقال له «القَلُوصَة».
فلما خرجوا عمد أهل الريّ إلى أبواب مدينتهم، فأغلقوها.
فقال طاهر لأصحابه: يا قوم، اشتغلوا بمن أمامكم، ولا تلتفتوا إلى من وراءكم واعلموا أنه لا وزر لكم ولا ملجأ إلا سيوفكم ورماحكم، فاجعلوها حصونكم.
وأقبل عليّ بن عيسىٰ نحو القلوصة، فتواقف العسكران للحرب، والتقوا، فصدقهم أصحاب طاهر الحملة.
فانتقضت تعبيّة عليّ بن عيسى، وكانت منهم جولة شديدة، فناداهم عليّ بن عيسىٰ، وقال:
ـ أيها الناس، ثُوبوا واحملو معي.
فرماه رجلِ من أصحاب طاهر، فأثبته، وبعد أن دنا منه، وتمكّن رماه بنشّابة وقعت في صدره، فنفَذت الدِّرع والسلاح حتى أفضت إلى جوفه، وخرّ مغشياً عليه ميتاً.

وذكر أن عبد الله بن عليّ بن عيسىٰ طرَح نفسه في ذلك اليوم بينِ القتلى ، وقد كانت به جراحات كثيرة ، فلم يزل بين القتلى متشبِّهاً بهم يومه وليلته ، حتى أمن الطلب ، ثم قام فانضمّ إلى جماعة من فَلّ العسكر ، ومضىٰ إلى بغداد ، وكان من أكابر ولده .

وذكر سفيان بن محمد أنّ عليّاً لمّا توجّه إلى خراسان بعث المأمون إلىٰ من كان معه من القوّاد يعرض عليهم قتاله رجلاً رجلاً ، فكلَهم يصرح بالهيبة ، ويعتلّ بالعلل ، ليجدوا إلىٰ الإعفاء من لقائه ومحاربته سبيلاً .

وذكر بعض أهل خراسان أنّ المأمون لما أتاه كتاب طاهر ، بخبر عليّ وما أوقع الله به ، قعد للناس ، فكانوا يدخلون فيهنّئونه ويدعون له بالعزّ والنصر . وإنه في ذلك اليوم أعلن خلع محمد ، ودعِي له بالخلافة في جميع كُور خراسان وما يليها ، وسُرّ أهل خراسان ، وخطب بها الخطباء ، وأنشدت الشعراء ، وفي ذلك يقول شاعر من أهل خراسان :

أَصبحتِ الأمّة في غِبْطَةٍ ... من أَمرِ دنياها ومن دِينِها
إذ حفظتْ عهدَ إمامِ الهدى ... خيرِ بني حوّاء مأمونِها
علىٰ شَفاً كانت فلمّا وَفَتْ ... تخلصَتْ من سُوءِ تحيِينها
قامتْ بحق الله إذ زُبِرَتْ ... في وُلْدِهِ كتْبُ دَواوِينِها
ألا تراها كيف بعَد الرَّدى ... وفقها اللهُ لِتَزيينها!

= واستوت الهزيمة بأصحابه .
فما زال أصحاب طاهر يقتلونهم ، وهم مولّون حتى حال الليل بينهم ، وغنموا ما كان في معسكرهم من السلاح والأموال .
[الأخبار الطوال / ٣٩٧ ، ٣٩٨].
وقال أبو حنيفة الدينوري في موضع آخر وهو يصف توديع الأمين لجيشه الذاهب إلى خراسان!
فخرج بالجيوش ، وركب معه محمد ، فجعل يُوصيه ، ويقول: أكرمْ مَن هناك من قواد خراسان ، وضَع عن أهل خراسان نصف الخراج ، ولا تُبق على أحد يشهِر عليك سيفاً ، أو يرمي عسكرك بسهم ، ولا تدع عبد الله يقيم إلا ثلاثاً من يوم تصل إليه ، حتىٰ تُشخصه إلىٰ ما قبَلي) [الأخبار الطوال / ٣٩٨].

وهي أبيات كثيرة[١]:

وذكر عليّ بن صالح الحربيّ أن عليّ بن عيسىٰ لما قُتل ، أرجف الناس ببغداد إرجافاً شديداً ، وندم محمد علىٰ ما كان من نَكْثه وغدره. ومشىٰ القوّاد بعضهم إلىٰ بعض. وذلك يوم الخميس للنصف من شوال سنة خمس وتسعين ومائة ، فقالوا: إن عليّاً قد قتِل ، ولسنا نشكّ أن محمداً يحتاج إلىٰ الرجال واصطناع أصحاب الصنائع ، وإنما يحرّك الرجال أنفسها ، ويرفعها بأسُها وإقدامُها ، فليأمر كلُّ رجل منكم جندَه بالشَغْب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلّنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ، ويصلح جندنا. فاتفق علىٰ ذلك رأيهُم وأصبحوا ، فتوافَوْا إلى باب الجسْر وكبّروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز. وبلغ الخبر عبدَ الله بن خازم ، فركب إليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قُوّاد الأعراب ، فترامَوْا بالنُّشاب والحجارة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وسمع محمد التكبير والضجيج ، فأرسل بعض مواليه أن يأتيَه بالخبر ، فرجع إليه فأعلمه أنّ الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم. قال: فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق؟ قال: لا ، قال: ما أهونَ ما طلبوا! ارجع إلى عبد الله بن خازم فمرْه فلينصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، ورفع مَنْ كان دون الثمانين إلىٰ الثمانين. وأمر للقوّاد والخواصَ بالصّلاة والجوائز.

توجيه الأمين عبد الرحمن بن جبلة لحرب طاهر

وفي هذه السنة وجّه محمد المخلوع عبدَ الرحمن بن جبلة الأبناويّ إلى همَذان لحرب طاهر.

* ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عبد الله بن صالح أنّ محمداً لما انتهىٰ إليه قتلُ عليّ بن عيسى بن ماهان ، واستباحه طاهر عسكره ، وجّه عبد الرحمن الأبناويّ في عشرين ألف رجل من الأبناء ، وحمل معه الأموال ، وقوّاه بالسلاح والخيل ، وأجازه بجوائز ، وولاّه

(١) عن الوقت الذي دعي للمأمون بالخلافة انظر تعليقنا على الخبر (٨/ ٣٩٤/ ٣٩) وقد قال خليفة ومنها أي (١٩٥ هـ) دعي للمأمون بالخلافة بخراسان (تاريخ خليفة/ ٣٠٩).

حُلوان إلى ما غلب عليه من أرض خُراسان ، وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنَّجدة والغنَاء وأمره بالإكماش في السيّر ، وتقليل اللُّبث والتضجّع ، حتى ينزل مدينة هَمَذان ، فيسبق طاهراً إليها ، ويخندق عليه وعلى أصحابه ، ويجمع إليه آلة الحرب ، ويغادي طاهراً وأصحابه إلى القتال. وبسط يده وأنفذ أمره في كلّ ما يريد العمل به ، وتقدّم إليه في التحفّظ والاحتراس ، وترك ما عمل به عليّ من الاغترار والتضجّع ، فتوجّه عبد الرحمن حتى نزل مدينة هَمَذان ، فضبط طرقها ، وحصّن سورها وأبوابها ، وسدّ ثَلْمها ، وحشر إليها الأسواق والصنّاع ، وجمع فيها الآلات والميَر ، واستعدّ للقاء طاهر ومحاربته. وكان يحيى بن عليّ لما قُتِل أبوه هرب في جماعة من أصحابه ، فأقام بين الريّ وهمَذان ، فكان لا يمرّ به أحدٌ من فَلِّ أبيه إلا احتبسه ، وكان يرى أن محمداً سيولّيه مكان أبيه ، ويوجّه إليه الخيل والرجال ، فأراد أن يجمع الفَلّ إلى أن يوافيَه القوة والمدد ، وكتب إلى محمد يستمدّه ويستنجده ، فكتب إليه محمد يعلمه توجيه عبد الرحمن الأبناويّ ، ويأمره بالمقام موضعه ، وتلقّى طاهر فيمن معه ، وإن احتاج إلى قوة ورجال كتب إلى عبد الرحمن فقوّاه وأعانه.

فلما بلغ طاهراً الخبرُ توجّه نحو عبد الرحمن وأصحابه ، فلما قُرب من يحيىٰ ، قال يحيىٰ لأصحابه: إن طاهراً قد قرُب منّا ومعه مَنْ تعرفون من رجال خُراسان وفرسانها ، وهو صاحبكم بالأمس ، ولا آمن إن لقيتُه بمن معي من هذا الفَلّ أن يصدَعنا صدعاً يدخل وهَنُه على من خَلْفنا ، وأن يعتلّ عبد الرحمن بذلك ، ويقلّدني به العار والوَهَن والعجز عند أمير المؤمنين ، وأن أستنجد به وأقمت على انتظار مدده ، لم آمن أن يمسك عنا ضنّاً برجاله وإبقاءً عليهم ، وشُحّاً بهم على القتل ، ولكن نتزاحف إلى مدينة هَمَذان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن ، فإن استعنّا به قرب منّا عونُه ، وإن احتاج إلينا أعنّاه وكنّا بفنائه ، وقاتلنا معه. قالوا: الرأي ما رأيتَ ، فانصرف يحيىٰ ، فلمّا قرب من مدينة هَمَذاَن خذله أصحابُه ، وتفرّق أكثر من كان اجتمع إليه ، وقصد طاهرٌ لمدينة همَذان ، فأشرف عليها ، ونادىٰ عبد الرحمن في أصحابه ، فخرج على تعبية ، فصادف طاهراً فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، وكثر القتلىٰ والجرحىٰ فيهم ، ثم إنّ عبد الرحمن انهزم ، فدخل مدينة هَمَذان ، فأقام بها أياماً

حتىٰ قويَ أصحابُه ، واندمل جراحهم ، ثم أمر بالاستعداد ، وزحف إلىٰ طاهر ، فلمّا رأى طاهر أعلامه وأوائل أصحابه قد طلعوا ، قال لأصحابه : إنّ عبد الرحمن يريد أن يتراءى لكم ، فإن قربتم منه قاتلكم ، فإن هزمتموه بادر إلىٰ المدينة فدخلها ، وقاتلكم علىٰ خندقها ، وامتنع بأبوابها وسورها ، وإن هزمكم اتّسع لهم المجال عليكم ، وأمكنتهُ سعة المعترك من قتالكم ، وقتل من انهزم وولّى منكم ، ولكن قِفُوا من خندقنا وعسكرنا قريباً ، فإن تقارب ما قاتلناه ، وإن بعُد من خندقهم قَرُبنا منه . فوقف طاهر مكانَه ، وظنّ عبد الرحمن أنّ الهيبة بطّأت به من لقائه والنهود إليه ، فبادر قتاله فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبر طاهر ، وأكثر القتل في أصحاب عبد الرحمن ، وجعل عبد الرحمن يقول لأصحابه : يا معشرَ الأبناء ، يا أبناء الملوك وألفاف السيوف ، إنهم العجم ، وليسوا بأصحاب مطاوَلة ولا صبر ، فاصبروا لهم فداكم أبي وأمي! وجعل يمرّ على راية راية ، فيقول : اصبروا ، إنما صبرنا ساعة ، هذا أول الصّبر والظَّفَر . وقاتل بيديه قتالاً شديداً ، وحمل حمَلات منكرة ما منها حملة إلا وهو يكثْر في أصحاب طاهر القتل ، فلا يزول أحدٌ ولا يتزحزح . ثم إنّ رجلاً من أصحاب طاهر حمل على أصحاب علم عبد الرحمن فقتله، وذحمهم أصحاب طاهر ذحمةً شديدة ، فولَّوْهم أكتافهم ، فوضعوا فيهم السيوف ، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم إلىٰ باب مدينة هَمَذان ، فأقام طاهر علىٰ باب المدينة محاصراً لهم وله ، فكان عبد الرحمن يخرج في كلّ يوم فيقاتل على أبواب المدينة ، ويرمي أصحابه بالحجارة من فوق السور ، واشتدّ بهم الحصار ، وتأذّى بهم أهلُ المدينة ، وتبرّموا بالقتال والحرب ، وقطع طاهرٌ عنهم المادّة من كلّ وجه . فلما رأىٰ عبد الرحمن ، ورأىٰ أصحابه قد هلكوا وجَهدوا ، وتخوف أن يثب به أهلُ هَمَذان أرسل إلى طاهر فسأله الأمان له ولمن معه ، فآمنه طاهر ووفى له ، واعتزل عبد الرحمن فيمن كان استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن عليّ[١] .

(١) هذا الخبر الطويل الذي أورده الطبري استغرق الصفحات [٤١٢ ـ من قوله توجيه الأمين عبد الرحمن بن جبلة لحرب طاهر ـ إلى قوله في بداية الصفحة ٤١٥ ـ استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن علي ـ السطر الثاني] وله ما يؤيده عند الدينوري ولكن باختصار =

[تسمية طاهر بن الحسين ذا اليمينين]

وفي هذه السنة سُمّيَ طاهر بن الحسين ذا اليمينين.

* ذكر الخبر عن ذلك:

قد مضىٰ الخبرُ عن السبب الذي من أجله سُمِّيَ بذلك، ونذْكرُ الذي سمّاه بذلك.

ذُكر أن طاهراً لما هزم جيش عليّ بن عيسى بن ماهان، وقتلَ عليّ بن عيسىٰ، كتب إلى الفضل بن سهل: أطال الله بقاءك، وكَبَتَ أعداءك، وجعل مَن يشنؤك فداك! كتبتُ إليك ورأس عليّ بن عيسىٰ في حجْري، وخاتمه في يدي، والحمد لله ربّ العالمين. فنهض الفضل فسلّم على المأمون بأمير المؤمنين، فأمدّ المأمون طاهر بن الحسين بالرجال والقوّاد، وسمّاه ذا اليمينين، وصاحِب حبل الدين، ورفع من كان معه في دون الثمانين إلى الثمانين[1].

[ظهور السفيانيّ بالشام]

وفي هذه السنة ظهر بالشام السفيانيّ عليّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن

= شديد عمّا ههنا فقد تحدث أبو حنيفة الدينوري عن مقتل عليّ بن عيسى ثم وصول الخبر إلى محمد الأمين ببغداد ثم تابع فقال:

وبلغ ذلك محمداً، فعقد لعبد الرحمن الأبناوِيّ في ثلاثين ألف رجل من الأبناء، وتقدّم إليهم، ألا يغتّروا كاغترار عليّ بن عيسىٰ، ولا يتهاونوا كتهاونه.

فسار عبد الرحمن حتى وافىٰ همذان.

وبلغ ذلك طاهراً، فتقدّم، وسار نحوه، فالتقوا جميعاً، فاقتتلوا شيئاً من قتال، فلم يكن لأصحاب عبد الرحمن ثَباتٌ، فانهزم، واتّبعه أصحابه، فدخلوا مدينة همذان، فتحصّنوا فيها شهراً حتىٰ نفَذ ما كان معهم من الزاد.

قال: فطلب عبد الرحمن الأبناوي الأمان له ولجميع أصحابه، فأعطاه طاهر ذلك. ففتح أبواب المدينة، ودخل الفريقان بعضهم في بعض. [الأخبار الطوال ٣٩٨].

وانظر الخبر عن مقتل الأبناوي في (٨/ ٤١٦) و(٨/ ٤١٧).

(١) لقد ذكر الطبري أصل الخبر ضمن رواية مطولة ذكرها من طريق أحمد بن هشام كما سبق (٨/ ٣٩٣) وأعاده هنا بلا إسناد (ذكر) وفي الموضع الأول ذكر أن طاهر بن ناجي وهو الصغير هو المسمّىٰ بذي اليمينين بينما يذكر هنا (الموضع الثاني) أنه طاهر بن الحسين.

معاوية ، فدعا إلى نفسه ، وذلك في ذي الحجة منها ـ فطرد عنها سليمان بن أبي جعفر بعد حصره إياه بدمشق ـ وكان عامل محمد عليها ـ فلم يفلت منه إلا بعد اليأس ، فوجّه إليه محمد المخلوع الحسين بن عليّ بن عيسىٰ بن ماهان ، فلم ينفذ إليه ، ولكنه لما صار إلى الرّقة أقام بها[١] .

[طرد طاهر عمال الأمين عن قزوين وكور الجبال]

وفي هذه السنة طرد طاهر عمّال محمد عن قزوين وسائر كور الجبال .

* وذكر الخبر عن سبب ذلك :

ذكر عليّ بن عبد الله بن صالح أنّ طاهراً لما توجّه إلى عبد الرحمن الأبناويّ بهمذَان ، تخوّف أن يثب به كثير بن قادرة ـ وهو بقَزوين عامل من عمال محمد ـ في جيش كثيف إن هو خلفه وراءَ ظهره ، فلمّا قرب طاهر من هَمَذان أمر أصحابه بالنزول فنزلوا . ثم ركب من ألف فارس وألف راجل ، ثم قصد قصْد كثير بن قادره ، فلمّا قرب منه هرب كثير وأصحابه . وأخْلَىٰ قزوين ، وجعل طاهر فيها جنداً كثيفاً ، وولاّها رجلاً من أصحابه ، وأمر أن يحارب مَنْ أراد دخولها من أصحاب عبد الرحمن الأبناويّ وغيرهم .

[ذكر قتل عبد الرحمن بن جبلة الأبناويّ]

وفي هذه السنة قتِل عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي بأسداباذ[٢] .

* ذكر الخبر عن مقتله :

ذكر عبد الرحمن بن صالح أن محمداً المخلوع لمّا وجّه عبد الرحمن الأبناويّ إلى هَمَذان ، أتبعه بابني الحَرَشيّ : عبد الله وأحمد ، في خيل عظيمة في أهل بغداد ، وأمرَهما أن ينزلا قصر اللصوص ، وأن يسمعا ويطيعا لعبد الرحمن ،

---

(١) انظر الخبر في البداية والنهاية (٨ / ١٣٦) وللخبر تتمة .

(٢) وقال خليفة ضمن حديثه عن وقائع سنة (١٩٥هـ) : وفيها قتل طاهر : عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي [تأريخ خليفة / ٣٠٩] وانظر تعليقنا في آخر الخبر [٨ / ٤١٥ / ٥٩] .

ويكونا مدداً له إن احتاج إلى عونهما. فلما خرج عبد الرحمن إلى طاهر في الأمان أقام عبد الرحمن يُرِي طاهراً وأصحابه أنه له مسالم، راضٍ بعهودهم وأيمانهم، ثم اغترّهم وهم آمنون. فركب في أصحابه، فلم يشعر طاهر وأصحابه حتى هَجَمَوا عليهم، فوضعوا فيهم السيوف، فثبت لهم رجّالة أصحاب طاهر بالسيوف والتراس والنشاب، وجَثَوْا على الرّكب، فقاتلوه كأشدّ ما يكون من القتال، ودافعهم الرّجال إلى أن أخذت الفرسان عُدّتها وأهبتها، وصدقوهم القتال، فاقتتلوا قتالاً منكراً، حتى تقطعت السيوف، وتقصّفت الرماح. ثم إن أصحاب عبد الرحمن هَربوا، وترجّل هو في ناس من أصحابه، فقاتل حتىٰ قتل، فجعل أصحابه يقولون له: قد أمكنك الهَرب فاهرُب، فإنّ القوم قد كلوا من القتال، وأتعبتهم الحرب، وليس بهم حَراك ولا قوّة على الطلب، فيقول: لا أرجعُ أبداً، ولا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزماً. وقُتل من أصحابه مقتلة عظيمة، واستبيح عسكره، وانتهى من أفلت من أصحابه إلى عسكر عبد الله وأحمد ابني الحَرَشيّ، فدخلهم الوهن والفشَل، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً فولّوْا منهزمين لا يلوون على شيء من غير أن يلقاهم أحد، حتى صاروا إلى بغداد، وأقبل طاهر وقد خلت له البلاد، يحوز بلدةً بلدةً، وكورةً كورةً، حتى نزل بقرية من قرىٰ حلوان يقال لها شلاشان، فخندق بها، وحصّن عسكره، وجمع إليه أصحابَه. وقال رجل من الأبناء يرثي عبد الرحمن الأبناويّ:

أَلا إنما تبكي العُيونُ لفارسٍ ... نَفَى العار عنه بالمناصِل والقَنَا
تجَلَّى غُبارُ الموتِ عن صَحْنِ وجهه ... وقد أَحرزَ العَلْيَا من المجد واقتنىٰ
فتىً لا يُبالي إن دَنَا من مرُوءةٍ ... أَصابَ مصُونَ النفس أو ضَيّعَ الغِنىٰ
يُقيمُ لأَطرافِ الذَّوابِل سُوقَها ... ولا يَرهَبُ الموتَ المُتاح إذ أَدنا[1]

(١) هذا الخبر من قوله ذكر قتل عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي في ٨ / ٤١٦ وإلى نهاية الأبيات الشعرية في ٨ / ٤١٧) أورده الطبري عن عبد الرحمن بن صالح وله ما يؤيده عند الدينوري إذ قال بعد أن تحدث عن نزول الأبناوي على أمان طاهر:

وسار طاهر حتى هبط العقبة، فعسكر بناحية (أَسَدَاباذ) ففكر عبد الرحمن، وقال:

كيف أعتذر إلى أمير المؤمنين؟

فَعَبَّأَ أصحابَه.

فلما طلع الفجر زحف بأصحابه إلى طاهر، وهو غارّ، فوضع فيهم السيوف، فوقفت طائفة=

وكان العاملُ في هذه السنة على مكة والمدينة من قبَل محمد بن هارون داود بن عيسىٰ بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، وهو الذي حجّ بالناس في هذه السنة وسنتين قبلها وذلك سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وأربع وتسعين ومائة[١] .

وعلى الكوفة العباس بن موسىٰ الهادي من قبَل محمد.

وعلى البَصرة منصور بن المهديّ من قبَل محمد.

وبخُراسان المأمون ، وببغداد أخوه محمد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث.

[ذكر توجيه الأمين الجيوش لحرب طاهر بن الحسين]

فمما كان من ذلك حبس محمد بن هارون أسد بن يزيد بن مزيد ، وتوجيهه أحمد بن مزيد وعبد الله بن حُميد بن قَحْطبة إلى حُلوان لحرب طاهر[٢] .

* ذكر الخبر عن سبب حبسه وتوجيهه من ذكرت :

ذُكر عن عبد الرحمن بن وثاب أنّ أسد بن يزيد بن مَزيد حدّثه، أنّ الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن الأبناويّ. قال: فأتيتُه ، فلمّا دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتدّ

= من أصحاب طاهر رجّالة ، يذبّون عن أصحابهم حتى ركبوا ، واستعدوا ، ثم حملوا على عبد الرحمن وأصحابه ، فأكثروا فيهم القتل.

فلما رأى ذلك عبد الرحمن ترجّل في حُماة أصحابه ، فقاتلوا حتى قُتل عبد الرحمن ، وقُتلوا معه. [الأخبار الطوال / ٣٩٩] ولقد ذكر ابن قتيبة الدينوري هذا الخبر مختصراً جداً أصل الخبر :

فوجّه (محمدٌ) (عبدَ الرحمن بن جَبلة الأنباري). فالتقى هو و (طاهر) بـ (همذان) فقتله (طاهر) ودخل (همذان) [المعارف / ١٩٥].

(١) أما الحج فكذلك قال البسوي في المعرفة (١ / ٥٥) وقال خليفة : وأقام الحج داود بن عيسىٰ ابن موسىٰ (تأريخ خليفة / ٣٠٩).

(٢) انظر الخبر في المنتظم (١٠ / ٢٣) وانظر تعليقنا الآتي.

غضبُه ، وهو يقول : ينام نومَ الظَّربان ، [وينتبه انتباه الذئب ، همُّه بطنه ، يخاتل الرّعاء والكلاب ترصده]. لا يفكر في زوال نعمة ، ولا يروّى في إمضاء رأي ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قَدَحُه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام توضع في هلاكه ، قد شمّر عبد الله له عن ساقه ، وفوّق له اصوبَ أسهمه ، يرميه على بعد الدّار بالحتْف النافذ ، والموت القاصد ، قد عبّى له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلاء في أسنّة الرماح وشفار السيوف. ثم استرجع ، وتمثل بشعر البَعيث :

ومَجْدولَةٍ جدْلَ العِنانِ خَريدَةٍ ... لها شَعَرٌ جَعْدٌ ووَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغر نَقِيُّ اللوْنِ عَذبٌ مَذاقهُ ... تُضِيءُ لها الظلمَاء ساعَةَ تَبْسِمُ
وثديانِ كالحُقَّيْن ، والبَطْنُ ضامِرٌ ... خَميصٌ ، وجَهَمٌ نارُهُ تَتَضَرَّمُ
لَهَوْتُ بها لَيْلَ التِّمام ابنَ خالِدٍ ... وأَنتَ بِمَرْوَ الرُّوذ غَيْظاً تجرَّمُ
أَظَلُّ أُناغِيَها وتحتَ ابنِ خالدٍ ... أميَّةَ نَهْدُ المَرْكَلَينِ عَثْمثَمُ
طوَاهُ طِرادُ الخَيْل في كلِّ غارَة ... لها عارض فيه الأَسِنَّةُ تُرْزِمُ
يُقارِعُ أتراكَ ابن خاقانَ ليلةً ... إلى أَن يُرَى الإصباحُ لا يَتَلعْثَمُ
فيُصْبح منْ طُولِ الطّرادِ ، وَجِسْمُهُ ... نحِيلٌ وَأُضحِى في النَّعيم أُصَمصِمُ
أُباكِرُهَا صَهْباءَ كالمسكِ ريحُها ... لها أَرَجٌ في دَنِّها حين تَرشُمُ
فَشَتَّانَ ما بَيني وبَينَ ابن خالد ... أَميَّةَ في الرِّزقِ الذي اللهُ قاسِمُ

ثم التفت إليّ فقال : يا أبا الحارث ، أنا وإياك نجري إلى غاية ، إن قصّرنا عنها ذُمِمْنَا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوي قوينا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمَة الوكْعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، وقد أمكن مسامعه من أهل اللهو والجسارة ، فهم يعدُونه الظَّفَر ، ويمنّونه عقب الأيام ، والهلاك أسرع إليه من السيل إلىٰ قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ، ونعطب بعطبه ، وأنت فارس العرب وابن فارسها ، قد فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطمَعَه فيما قبَلك أمران ، أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك ، والثاني يُمْن نقيبتك وشدّة بأسك ، وقد أمرني إزاحة علّتك وبسط يدك فيما أحببت ، غير أن الاقتصاد رأسُ النصيحة ومفتاح اليُمنْ والبركة ، فأنجز حوائجك ، وعجِّل المبادرة إلى عدّوك ، فإني

أرجو أن يُولِيك الله شرفَ هذا الفتح ، ويلمّ بك شعث هذه الخلافة والدولة. فقلت: أنا لطاعة أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ وطاعتك مقدِم ، ولكلّ ما أدخل الوَهن والذّلّ على عدوّه وعدوّك حريص ، غير أن المحارب لا يَعمل بالغرور ، ولا يفتتح أمره بالتقصير والخلل ، وإنما مِلاك المحارب الجنود ، وملاك الجنود المال ، وقد ملأ أمير المؤمنين أعزه الله أيدي مَنْ شهد العسكر من جنوده ، وتابع لهم الأرزاق الدارَة والصِّلات والفوائد الجزيلة ، فإن سرتُ بأصحابي وقلوبهم متطلعة إلى مَنْ خلفهم من إخوانهم لم أنتفع بهم في لقاء مَنْ أمامي ، وقد فضل أهل السِّلم على أهل الحرب ، وجاز بأهل الدّعَة منازل أهل النَّصب والمشقة ، والذي أسال أن يؤمرَ لأصحابي برزق سنة ، ويحمل معهم أرزاق سنة ، ويخصّ مَن لا خاصّة له منهم من أهل الغناء والبلاء ، وأبدِل مَن فيهم من الزَّمْنى والضّعفاء ، وأحمل ألف رجل ممّن معي على الخيل ، ولا أُسأل عن محاسبَة ما افتتحت من المدن والكور. فقال: قد اشتططتَ ، ولا بدّ من مناظرة أمير المؤمنين. ثم ركب وركبت معه ، فدخل قبلي على محمد ، وأذن لي فدخلتُ ، فما كان بيني وبينه إلا كلمتان حتى غضِب وأمر بحبسي[1].

---

(١) هذا الخبر الطويل (٤١٨ ـ ٤١٩ ـ ٤٢٠) الذي يتحدث عن حوار دار بين الفضل بن الربيع وأسد بن يزيد ذكره الطبري بلا إسناد (ذكر) بالبناء للمجهول وقد ذكره الجهشياري كذلك دون إسناد ولكن مختصراً كثيراً عمّا ها هنا:

قال الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب:

ثم أمر محمد الفضل بعد قتل عليّ بن عيسىٰ بتجهيز عبد الرحمن الأَبْناوي ، فجهزه وشخَص ، وكان من أمره وقتله ما كان.

ثم دعا الفضل بن الربيع بأسد بن يزيد بن مزيد ، قال: فدخلت عليه وهو في صحن داره ، وهو يقول: ينام نوم الظَّربان ، وينتبه انتباه الذئب ، هُمُّه بطنه ، لا يُنْكر زوال نعمه ، ولا يُرَوّى في إمضاء رأي ، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والأيام تُوضِع في هلاكه. ثم أقبل عليّ ، فقال لي: إنما نحن وأنت يا أبا الحارث شِعب منْ أصل ، إن قوي قوينا ، وإن ضعف ضَعفنا ، وإن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمَة الوكْعاء ، يشاور النساء ، ويخلد إلى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عُقَب الأيام ، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قِيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه ، ونعطب بعطبه ، وقد فزعت إليك في لقاء هذا الرجل لأمرين ، أحدهما: صدق طاعتك ، وفضل نصيحتك ، والثاني: يمن نقيبتك ، وشدة بأسك ، والاقتصاد رأس النصيحة. فاشتط عليه أسدٌ فيما التمسه من الأموال ، =

وذُكر عن بعض خاصة محمد أنّ أسداً قال لمحمد: ادفع إليّ ولديْ عبد الله المأمون حتى يكونا أسيرين في يدِي، فإن أعطاني الطاعة، وألقى إليّ بيده، وإلاّ عملت فيهما بحكمي، وأنفذت فيهما أمري. فقال: أنت أعرابيٌّ مجنون، أدعوك إلى ولاء أعنّة العرب والعجم، وأطعمك خراج كُور الجبال إلى خُراسان، وارفع منزلتَك عن نظرائك من أبناء القوّاد والملوك، وتدعونني إلىٰ قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! إنّ: هذا للْخُرق والتخليط. وكان ببغداد ابنان لعبد الله المأمون، وهما مع أمّهما أم عيسى ابنة موسىٰ الهادي، نزولاً في قصر المأمون ببغداد، فلمّا ظفر المأمون ببغداد خرجَا إليه مع أمّهما إلى خُراسان، فلم يزالا بها حتى قدموا بغداد، وهما أكبر ولده.

وذكر زياد بن عليّ، قال: لما غضِب محمد علىٰ أسد بن يزيد، وأمر بحبسه، قال: هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه، فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدّم من طاعتهم ونصيحتهم؟ قالوا: نعم، فيهم أحمد بن مزيد، وهو أحسنُهم طريقة، وأصّحهم نيّة في الطاعة، وله مع هذا بأس ونجدة وبَصَر بسياسة الجنود ولقاء الحروب، فأنفذ إليه محمد بَريداً يأمره بالقدوم عليه، فذكر بكر بن أحمد، قال: كان أحمد متوجّهاً إلى قرية تدعى إسحاقيّة، ومعه نفر من أهل بيته ومواليه وحشمه، فلما جاوز نهر أبان سمع صوت بريد في جوف الليل، فقال: إن هذا لعجيب، بريد في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الموضع! إن هذا الأمرَ لعجيب. ثم لم يلبث البريد أن وقف، ونادىٰ الملاّحَ: هل معك أحمد بن مزيد؟ قال: نعم، فنزل فدفع إليه كتاب محمد، فقرأه ثم قال: إني قد بلغت ضيعتي، وإنما بيني وبينها ميل، فدعني أقعْها وقعة فآمر فيها بما أريد ثم أغدو معك، فقال: لا، إنّ أمير المؤمنين أمرني ألاّ أنظرك ولا أرفّهك، وأنْ أشخصك أيّ ساعة صادفتك فيها، من ليل أو نهار. فانصرف معه حتى أتى الكوفة، فأقام بها يوماً حتى تجمَّل وأخذ أهبة السفر، ثم مضى إلى محمد.

فذكر عن أحمد، قال: لما دخلت بغداد، بدأت بالفضل بن الربيع، فقلت:

= والعتاد، والرجال، والسلاح، فصار به إلى محمد، وعرّفه ذلك، فغضب، وأمر بحبسه. [الوزراء والكتاب / ٢٩٤].

أسلّم عليه ، وأستعين بمنزلته ومحضره عند محمد ، فلما أذن لي دخلت عليه ، وإذا عنده عبد الله بن حُميد بن قحطبة ، وهو يريده على الشخوص إلى طاهر ، وعبد الله يشتطّ عليه في طلب المال والإكثار من الرجال ، فلمّا رآني رحّب بي وأخذ بيدي ، ورفعني حتى صيّرني معه على صدر المجلس ، وأقبل على عبد الله يداعبه ويمازحه ، فتبسّم في وجهه ، ثم قال:

إِنَّا وجَدْنا لكم إذ رَثَّ حبْلكم ... مِنْ آلِ شيْبانَ أُمَّا دُونكمْ وَأَبا

الأكثرون إِذَا عُدَّ الحَصى عَدَداً ... والأَقرَبونَ إِلينا منكم نَسَبا

فقال عبد الله : إنّهم لكذلك ، وإن منهم لسَدّ الخَلل ونكاء العدوّ ، ودفع معرّة أهل المعصية عن أهل الطاعة. ثم أقبل على الفضل ، فقال: إنّ أمير المؤمنين أجرى ذكرك ، فوصفتُك له بحسن الطاعة وفضل النصيحة والشدّة على أهل المعصية ، والتقدّم بالرأي ، فأحبَّ اصطناعك والتنويهَ باسمك ، وأن يرفعك إلى منزلةٍ لم يبلغها أحد من أهل بيتك. والتفت إلى خادمه ، فقال: يا سرّاج ، مُرْ دوابّي ، فلم ألبث أن أسرجَ له ، فمضىٰ ومضيت معه ، حتى دخلنا على محمد وهو في صحن داره ، له ساج ، فلم يزل يأمرني بالدنوّ حتى كدت ألاصقه ، فقال: إنه قدكثر عليّ تخليط ابن أخيك وتنكّره ، وطال خلافه عليّ حتى أوحشني ذلك منه ، وولَّد في قلبي التهمة له ، وصيّرني لسوء المذهب وخبث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحبّ أن أكون أتناوله به ، وقد وُصفتَ لي بخير ، ونُسبت إلى جميلٍ ، فأحببت أن أرفع قدرَك ، وأعلي منزلتك ، وأقدّمك على أهل بيتك ، وأن أولّيَك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة ، وأعرّضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم ، فانظر كيف تكون ، وصحّح نيّتَك ، وأعن أميرَ المؤمنين على اصطناعك ، وسُره في عدوّه ينعم سرورك وتشريفك. فقلت: سأبذل في طاعة أمير المؤمنين أعزّه الله مهجتِي ، وأبلغ في جهاد عدوّه أفضل ما أمّله عندي ، ورجاه من غنائي وكفايتي ، إن شاء الله. فقال: يا فضل ، قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: ادفع إليه دفاترَ أصحاب أسد ، واضممّ إليه مَنْ شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب ، وقال: أكمش على أمرك ، وعجّل المسير إليه. فخرجت فانتخبت الرجال واعترضت الدفَاتر ، فبلغت عدّة من صحّحتُ اسمه عشرين ألف رجل. ثم توجّهت بهم إلى حُلوان.

وذكر أن أحمد بن مزيد لمّا أراد الشخوص دخل على محمد ، فقال: أوصِني أكرم الله أمير المؤمنين! فقال: أوصيك بخصال عِدّة: إياك والبغْيَ ، فإنه عِقال النصر ، ولا تقدّم رِجْلا إلا باستخارة ، ولا تُشهِر سيفاً إلا بعد إعذار ، ومهما قَدَرت باللين فلا تتعدّه إلى الخُرْق والشِّرَّة ، وأحسِنْ صحابة مَنْ معك من الجند ، وطالعني بأخبارك في كلّ يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي ، ولا تستقْها فيما تتخوّف رجوعه عليَّ ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً ، وقريناً بَرّاً ، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله إن استنصرك ، ولا تبطىء عنه إذا استصرخَك ، ولتكن أيديكما واحدةً ، وكلمتكما متفقة. ثم قال: سلْ حوائجك ، وعجّل السراح إلى عدوّك. فدعا له أحمد ، وقال: يا أميرَ المؤمنين ، كَثِّرْ لي الدعاء ولاتقبل فيّ قول باغٍ ، ولا ترفضني قبل المعرفة بموضع قدمي لك ، [ولا تنقض عليّ ما استجمع من رأي ، ومنّ عليّ بالصفح عن ابن أخي ، قال: ذلك لك] ثم بعث إلى أسد فحلّ قيودَه وخلّى سبيله ، فقال أبو الأسد الشيبانيّ في ذلك [يمدح أحمد ويذكر حاله ومنزلته]:

لِيَهْنِ أَبا العباسِ رَأيُ إمامِهِ ... وما عِندَهُ منهُ القَضا بمَزِيدِ
دَعاهُ أميرُ المؤمنينَ إلى التي ... يُقَصِّرُ عنها ظِلُّ كلِّ عَميدِ
فَبادَرَها بالرَّأيِ والحَزمِ والحجىٰ ... وَرأيُ أَبي العباس رأيُ سَديدِ
نَهَضْتَ بما أَعيا الرِّجالُ بحملِهِ ... وَأَنتَ بِسَعدٍ حاضِرٍ وسَعِيدِ
رَدَدتَ بها للرَّائدينَ أَعَزهُمْ ... ومثلكَ وَالى طَارِفاً بتليد
كَفَى أَسَداً ضِيقَ الكبولِ وكرْبَها ... وكانَ عليهِ عاطفاً كيَزيدِ
وحَصَّلَهُ فيها كلَيثٍ غضَنْفرٍ ... أبي أَشْبُلٍ عبْلِ الذِّراع مَدِيدِ

وذكر يزيد بن الحارث أنّ محمّداً وجّه أحمد بن مزيد في عشرين ألف رجل من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قَحْطبة في عشرين ألف رجل من الأبناء ، وأمرهما أن ينزلا حُلْوان ، ويدفعا طاهراً وأصحابه عنها ، وإن أقام طاهر بشلاشان أن يتوجّها إليه في أصحابهما حتى يدفعاه ، وينصبا له الحرْب ، وتقدّم إليهما في اجتماع الكلمة والتوادِّ والتحابّ على الطاعة ، فتوجّها حتى نزلا قريباً من حُلوان بموضعٍ يقال له خانقين ، وأقام طاهر بموضعه ، وخندق عليه وعلىٰ أصحابه ، ودس الجواسيس والعيون إلى عسكريهما ، فكانوا يأتونهم بالأراجيف ،

ويخبرونهم أنّ محمداً قد وضع العطاء لأصحابه ، وقد أمر لهم من الأرزاق بكذا وكذا ، ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف والشَّغْب بينهم حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضُهم بعضاً ، فأخلوْا خانقين ، ورجعوا عنها من غير أن يلقوْا طاهراً ، ويكون بينهم وبينه قتال . وتقدّم طاهر حتى نزل حُلوان ، فلما دخل طاهر حُلوان لم يلبث إلاّ يسيراً حتىٰ أتاه هَرْثمة بن أعيَنَ بكتاب المأمون والفضل بن سهل ، يأمرانِه بتسليم ما حوى من المدن والكُور إليه ، والتوجّه إلىٰ الأهواز ، فسلم ذلك إليه ، وأقام هرثمة بحُلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها ، وتوجّه طاهر إلى الأهواز(١) .

[ذكر رفع منزلة الفضل بن سهل عند المأمون]

وفي هذه السنة رفع المأمون منزلة الفضل بن سهل وقدّره .

ذكر الخبر عمّا كان من المأمون إليه في ذلك :

ذُكر أن المأمون لمّا انتهىٰ إليه الخبر عن قتل طاهر عليَّ بن عيسىٰ واستيلائه على عسكره وتسميته إيّاه أمير المؤمنين ، وسلّم الفضل بن سهل عليه بذلك ، وصحّ عنده الخبر عن قتل طاهر عبد الرحمن بن جَبلة الأبناويّ وغلبته على عسكره ، دعا الفضل بن سهل ، فعقد له في رجَبَ من هذه السنة على المشرق من جبل هَمَذان إلى جبل سقينان والتبّت طولاً ، ومن بحر فارس والهند إلى بحر الدّيْلم وجُرجان عرضاً ، وجعل عُمالته ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواء علىٰ سنان ذي شُعبتين ، وأعطاه علَماً ، وسمّاه ذا الرياستين ، فذكر بعضهم أنه رأى سيفه عند الحسن بن سهل مكتوباً عليه بالفِضّة من جانب : رياسة الحرب ، ومن الجانب الآخر : رياسة التدبير . فحمل اللواء عليّ بن هشام ، وحمل العَلَم

---

(١) لهذا الخبر (من قوله وذكر يزيد بن الحارث إلى نهاية السطر الأخير من صفحة (٤٢٣) .
ما يؤيد بعضه ـ فقد قال أبو حنيفة الدينوري :
فزحف طاهر نحو حلوان ، فانهزما حتى لحقا ببغداد ، وأقام طاهر بحلوان حتى وافاه هَرْثَمَة ابن أَعْين من عند المأمون ، في ثلاثين ألف رجل من جنود خراسان ، فأخذ طاهر من حلوان نحو البصرة والأهواز [الأخبار الطوال / ٣٩٩] .

نُعيم بن حازم ، وولّى الحسن بن سهل ديوان الخراج[١] .

* * *

[ذكر خبر ولاية عبد الملك بن صالح على الشام]

وفي هذه السنة ولّي محمد بن هارون عبد الملك بن صالح بن عليّ على الشام وأمره بالخروج إليها ، وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة[٢] .

* ذكر الخبر عن سبب توليته ذلك :

ذكر داود بن سليمان أنّ طاهراً لما قويَ واستعلىٰ أمرُه ، وهَزَمَ مَن هزم من قوّاد محمد وجيوشه ، دخل عبد الملك بن صالح علىٰ محمد ـ وكان عبد الملك محبوساً في حبس الرشيد ، فلما تُوُفِّيَ الرشيد ، وأفضىٰ الأمر إلى محمد أمربتخلية سبيله ، وذلك في ذي القعدة سنة ست وتسعين ومائة ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به علىٰ نفسه طاعته ونصيحته ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي أرىٰ الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلتَ سماحتك ، فإن أتممت علىٰ أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتَهم وأغضبتَهم ، وليس تُملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوت الأموال علىٰ الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعِبتْهم الهزائم ، ونهكتْهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوّهم ، ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم ، فإن سيّرتهم إلى طاهر غلب بقليل مَنْ معه كثيرَهم ، وهزم بقوّة نيّتِه ضَعْف نصائحهم ونيّاتهم ، وأهلُ الشام

---

(١) لبعض هذا الخبر ما يؤيده فقد قال الجهشياري : ولَقّب المأمون الفضل بن سهل (ذا الرّياستين) . ومعنى ذلك رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على سنانٍ ذي شُعْبتين ، وأعطاه مع العقد عَلَما قد كُتِب عليه لقبه ، فحمل العَقْد عليّ بن هشام ، وحمل العَلَم نُعَيْمْ بن حازم .
وكان الفضل يُؤَمّر مع الوزارة ، وهو أوّل وزير لُقّب ، وأوّل وزير اجتمع له اللَّقَب والتأمير [الوزراء والكتاب / ٣٠٦] .

(٢) انظر تعليقنا على الخبر (٨ / ٤٢٧ / ٦٦) الآتي .

قوم قد ضرّستهم الحروب ، وأدّبتهم الشدائد ، وجلُّهم منقاد إليّ ، مسارع إلىٰ طاعتي ، فإن وجّهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً تَعظم نكايتهم في عدوّه ، ويؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته. فقال محمد: فإني موليك أمرَهم ، ومقوّيك بما سألت من مال وعُدّة ، فعجّل الشخوص إلىٰ ما هُنالك ، فاعمل عملاً يَظهر أثرُه ، وُيُحمَد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاّه الشام والجزيرة ، واستحثّه بالخروج استحثاثاً شديداً ، ووجّه معه كنَفاً من الجند والأبناء.

وفي هذه السنة سار عبد الملك بن صالح إلىٰ الشام ، فلما بلغ الرقة أقام بها. وأنفذ رسله وكتبه إلى رؤساء أجناد أهل الشام بجمع الرّجال بها ، وإمداد محمد بهم لحرب طاهر.

* ذكر الخبر عن ذلك:

قد تقدّم ذكرىٰ سببَ توجيه محمد إياه لذلك ، فذكر داود بن سليمان أنه لما قدم عبد الملك الرّقة، أنفذ رسلَه، وكتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة، فلم يبقَ أحد ممّن يرجَىٰ ويذكر بأسه وغناءه إلا وعده وبسط له في أمله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحدٌ إلا أجازه وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهلُ الشام: الزواقيل والأعراب من كلّ فَجّ ، واجتمعوا عنده حتىٰ كثروا. ثم إن بعضَ جند أهل خُراسان نظر إلى دابّةٍ كانت أخذِت منه في وقعة سليمان بن أبي جعفر تحت بعض الزواقيل ، فتعلّق بها، فجرىٰ الأمر بينهما إلىٰ أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزّواقيل والجند ، فتلاحموا ، وأعان كلّ فريق منهم صاحبَه ، وتلاطموا وتضاربوا بالأيدي ، ومشىٰ بعض الأبناء إلى بعض ، فاجتمعوا إلىٰ محمد بن أبي خالد ، فقالوا: أنت شيخنا وفارسنا ، وقد ركب الزواقيلَ منّا ما قد بلغك ، فاجمع أمرنا وإلا استذلُّونا ، وطمعوا فينا ، وركبوا بمثل هذا في كلّ يوم. فقال: ما كنت لأدخل في شَغْب ، ولا أشاهدكم علىٰ مثل الحالة. فاستعدّ الأبناء وتهيؤوا ، وأتوا الزواقيل وهم غارُّون ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم ، وتنادىٰ الزواقيل ، فركبوا خيولَهم ، ولبسوا أسلحتهم ، ونشبت الحرب بينهم. وبلغ ذلك عبد الملك بن صالح ، فوجّه إليهم رسولاً يأمرهم بالكفّ ووضع السلاح ، فرموْه بالحجارة ، واقتتلوا يومهم ذلك قتالاً شديداً ،

وأكثرت الأبناء القتل في الزواقيل: فأخبِر عبد الملك بكثرةِ مَنْ قتل ـ وكان مريضاً مدنَفاً ـ فضرب بيده علىٰ يد، ثم قال واذلاّه! تستضام العرب في دارها ومحلّها وبلادها! فغضب من كان أمسك عن الشرّ من الأبناء، وتفاقم الأمر فيما بينهم، وقام بأمر الأبناء الحسين بن عليّ بن عيسىٰ بن ماهان، واصبح الزّواقيل، فاجتمعوا بالرَّقة، واجتمع الأبناء وأهل خُراسان بالرافقة، وقام رجل من أهل حمْص، فقال: يا أهلَ حمْص، الهرب أهْوَنُ من العطب، والموتُ أهونُ من الذّل، إنكم بعُدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلّة والعزّة بعد الذلة! ألا وفي الشرّ وقعتم، وإلىٰ حَوْمة الموت أنختم. إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم. النفير النفير، قبل أن ينقطع السبيل، وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب، ويعسر المذهب، ويبعد العمل، ويقترب الأجل!.

وقام رجل من كلب في غَرْز ناقته، ثم قال:

شُؤبُوبُ حَرْبٍ خابَ من يَصْلاها قَدْ شَرَّعَتْ فُرْسانُها قَناها
فأَوْرَدَ اللهُ لظَىً لظاها إن غُمِرَت كلبٌ بها لحَاها

ثم قال: يا معشَر كلْب، إنها الرّاية السوداء، والله ما ولّت ولا عدَلَت ولا ذلّ ناصرها، ولا ضعف وليُّها، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوف أهل خُراسان في رقابكم، وآثار أسنَّتهم في صدوركم. اعتزلوا الشرّ قبل أن يعظم، وتخَطَوْه قبل أن يضطرم. شأمَكم شأمكم، داركم داركم! الموت الفلسطينيّ خير من العيش الجزَريّ. ألا وإني راجع، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي.

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام، وأقبلت الزّواقيل حتىٰ أضرموا ما كان التّجار جمعوا من الأعلاف بالنار، وأقام الحسين بن عليّ بن عيسىٰ بن ماهان مع جَماعة أهل خراسان والأبناء على باب الرافقة تخوّفاً لطوق بن مالك. فأتى طوقاً رجلٌ من بني تَغْلِب، فقال: ألا ترى ما لقيت العرب من هؤلاء! انهض فإنّ مثلك لا يقعد عن هذا الأمر، قد مدّ أهلُ الجزيرة أعينَهم إليك، وأمّلُوا عونَك ونصرَك. فقال: والله ما أنا من قيسها ولا يمنِها، ولا كنت في أوّل هذا الأمر لأشهدَ آخره، وإني لأشدّ إبقاء علىٰ قومي، وأنظرُ لعشيرتي منْ أن أعرِّضهم للهلاك بسبب هؤلاء السفهاء من الجند وجهال قيس، وما أرى السّلامة إلا في الاعتزال.

وأقبل نصر بن شبث في الزّواقيل على فرس كُمَيت أغرّ ، عليه درّاعة سوداء قد ربطها خَلْف ظهره ، وفي يده رُمح وترْس ، وهو يقول :

فُرْسانَ قَيْسٍ أصْمُدُنّ للموت   لا تُرْهِبُني عَن لِقاءِ الفَوتْ
* دَعى التَّمَنِّي بِعَسَىٰ وَلَيْتْ *

ثم حمل هو وأصحابُه ، فقاتل قتالاً شديداً ، فصبر لهم الجند ، وكثر القتل في الزّواقيل ، وحملت الأبناء حملاتٍ ، في كلِّها يقتلون ويجرحون ، وكان أكثر القتل والبلاء في تلك الدفعة لكثير بن قادرة وأبي الفيل وداود بن موسىٰ ابن عيسى الخُراساني ، وانهزمت الزواقيل ، وكان على حاميتهم يومئذ نصر ابن شبث وعمرو السلميّ والعباس بن زفر(١) .

وتوفِّيَ في هذه السنة عبد الملك بن صالح .

[ذكر خلع الأمين والمبايعة للمأمون](٢)

وفي هذه السنة خُلع محمد بن هارون ، وأخِذت عليه البيعة لأخيه عبد الله المأمون ببغداد .

وفيها حُبس محمد بن هارون في قصر أبي جعفر مع أم جعفر بنت جعفر ابن أبي جعفر .

* ذكر الخبر عن سبب خلعه :

ذُكر عن داود بن سليمان أنّ عبد الملك بن صالح لما تُوُفِّيَ بالرّقة ، نادى الحسين بن عليّ بن عيسىٰ بن ماهان في الجند ، فصيّر الرّجَالة في السفن

---

(١) هذا الخبر الطويل الذي استغرق الصفحات (٤٢٤ ـ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ـ ٤٢٧ لم يذكر البسوي ولا خليفة ولا الجهشياري ولا الدينوريان وانظر الخبر مختصراً في البداية والنهاية [٨ / ١٤٢].

(٢) وقال خليفة ضمن حديثه عن وقائع سنة (١٩٦هـ) وفيها وثب الحسين بن علي بن عيسىٰ بن ماهان ببغداد فخلع محمداً المخلوع ودعا الناس إلى بيعة المأمون وأخذ محمداً المخلوع يوم الثلاثاء في رجب فحبسه ووثب الجند على حسين بن علي فقتلوه وأخرجوا المخلوع من الحبس [تأريخ خليفة / ٣٠٩] وانظر تعليقنا في نهاية الخبر (٨ / ٤٣٢).

والفرسان علىٰ الظهر ووصلهم ، وقوّى ضعفاءهم ، ثم حملهم حتى أخرجهم من بلاد الجزيرة ، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة.

وذكر أحمد بن عبد الله ، أنه كان فيمن شهد مع عبد الملك الجزيرة لمّا انصرف بهم الحسين بن عليّ ، وذلك في رجب من سنة ست وتسعين ومائة. وذكر أنه تلقاه الأبناء وأهل بغداد بالتكرمة والتعظيم ، وضربوا له القِباب ، واستقبله القوّاد والرؤساء والأشراف ، ودخل منزله في أفضل كرامة وأحسن هيئة ، فلما كان في جوف الليل بعث إليه محمد يأمره بالركوب إليه ، فقال للرسول: والله ما أنا بمغَن ولا بمسامر ولا مضحك ، ولا وِليتُ له عملاً ، ولا جرى له على يدي مال ، فلأيّ شيء يريدني في هذه الساعة! انصرف ، فإذا أصبحتُ غدوتُ إليه إن شاء الله.

فانصرف الرسول ، وأصبح الحسين فوافى بابَ الجسر ، واجتمع إليه النّاس ، فأمر بإغلاق الباب الذي يخرج منه إلى قصر عبد الله بن عليّ وباب سوق يحيىٰ ، وقال: يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تجاور بالبطر ، ونِعَمه لا تستصحَب بالتجبر والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يوتغ أديانكم ، وينكث بيعتكم ، ويفرّق جمعكم ، وينقل عزّكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزّواقيل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدّة وراجعه من أمره قوة ، ليرجعنَّ وبال ذلك عليكم ، وليعرَفنّ ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثَره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزَّكم ، فوالله لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خُذِل ، ولا يمنعه مانع إلا قُتِل ، وما عند الله لأحد هوادة ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنْث بأيمانه. ثم أمر الناس بعبُور الجسر فعبروا ، حتى صاروا إلى سكة باب خُراسان ، واجتمعت الحربية وأهل الأرْباض ممّا يلي باب الشام ، [وباب الأنبار وشطّ الصراة مما يلي باب الكوفة]. وتسرّعت خيول من خيول محمد من الأعراب وغيرهم إلى الحسين بن عليّ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً مليّاً من النهار ، وأمر الحسين مَنْ كان معه من قوّاده وخاصة أصحابه بالنزول فنزلوا إليهم بالسّيوف والرماح ، وصدَقوهم القتال ، وكشفوهم حتى تفرّقوا عن باب الخلد.

قال: فخلع الحسين بن عليّ محمداً يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلَت من

رجب سنة ست وتسعين ومائة ، وأخذ البيْعة لعبد الله المأمون من غد يوم الإثنين إلى الليل ، وغدا إلى محمد يوم الثلاثاء ، فوثب بعد الوقعة التي كانت بين الحسين وبين أصحاب محمد العباس بن موسىٰ بن عيسى الهاشميّ على محمّد ، ودخل عليه فأخرجه من قصر الخُلْد إلى قصر أبي جعفر ، فحبسه هناك إلى صلاة الظهر ، ثم وثب العباس بن موسىٰ بن عيسىٰ علىٰ أمّ جعفر فأمرها بالخروج من قصرها إلى مدينة أبي جعفر ، فأبت ، فدعا لها بكرسيّ ، وأمرها بالجلوس فيه ، فقنعها بالسوْط وساءها ، وأغلظ لها القول ، فجلست فيه ، ثم أمر بها فأدخلت المدينة مع ابنها وولدها. فلما أصبح الناس من الغد طلبوا من الحسين بن عليّ الأرزاق وماجَ الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشام ، فقال: أيها الناس ، والله ما أدري بأي سبب يتأمّر الحسين بن عليّ علينا ، ويتولىٰ هذا الأمر دوننا! ما هو بأكبرنا سنّاً ، ولا أكرمنا حسباً ، ولا أعظمنا منزلة ، وإن فينا مَنْ لا يرضىٰ بالدنيّة ، ولا يقاد بالمخادعة ، وإني أوّلكم نقضَ عهده ، وأظهر التغيير عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأيي فليعتزل معي.

وقام أسد الحربيّ ، فقال: يا معشر الحربيّة ، هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نمتم وطال نومكم ، وتأخرّتم فقدِّم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خَلْع محمد وأسره ، فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه.

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فَرَس ، فصاح بالناس: اسكتوا ، فسكتوا ، فقال: أيّها الناس ، هل تعتدون على محمد بقطعٍ منه لأرزاقكم؟ قالوا: لا ، قال: فهل قصّر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا: ما علمنا ، قال: فهل عزل أحداً من قوّادكم؟ قالوا: معاذ الله أن يكون فعل ذلك! قال: فما بالكم خذلتموه وأعنتُم عدوّه علىٰ اضطهاده وأسره! أما والله ما قَتَلَ قومٌ خليفتَهم قطّ إلا سلّط الله عليهم السيف القاتل ، والحتف الجارف ، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه ، وقاتلوا مَنْ أراد خلعه والفتك به. ونهضت الحربيَة ، ونهض معهم عامّة أهل الأرباض في المشهّرات والعُدّة الحسنة. فقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابَه قتالاً شديداً منذ ارتفاع النهار إلىٰ انكسار الشمس ، وأكثروا في أصحابه الجِراح ، وأسِر الحسين بن عليّ ، ودخل أسد الحربيّ علىٰ محمد ، فكسر قيودَه وأقعده في مجلس الخلافة ، فنظر محمد إلىٰ قوم ليس عليهم لباس الحرب

والجند ، ولا عليهم سلاح ، فأمرهم فأخذوا من السلاح الذي في الخزائن حاجتَهم ووعدهم ومنّاهم ، وانتهب الغوغاء بذلك السبب سلاحاً كثيراً ومتاعاً من خَزّ وغير ذلك ، وأتِيَ بالحسينِ بن عليّ ، فلامه محمد علىٰ خلافه وقال له: ألم أقدّم أباك علىٰ الناس ، وأُوَلِّهِ أعنّة الخيل وأملأ يده من الأموال ، وأشرّف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلَكم على غيركم من القوّاد! قال: بلى ، قال: فما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالي! قال: الثقة بعفو أميرِ المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله. قال: فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، وولاَك الطلب بثأرِك ، ومن قتِل من أهل بيتك. ثم دعا له بخِلعة فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حُلوان ، وولاّه ما وراء بابه.

وذُكر عن عثمان بن سعيد الطائي ، قال: كانت لي من الحسين بن عليّ ناحية خاصّة ، فلما رضي عنه محمد ، وردّ إليه قيادتَه ومنزلتَه ، عبرت إليه مع المهنئين ، فوجدته واقفاً بباب الجسر ، فهنّأته ودعوت له ، ثم قلت له: إنكَ قد أصبحتَ سيدّ العسكرين ، وثقة أميرّ المؤمنين ، فأشكر العفو والإقالة ، ثم داعبتُه ومازحته ، ثم أنشأت أقول:

هـمُ قتَلـوه حيـن تَـمَّ تمـامُـه ... وصـار مُعَـزّاً بـالنَّـدَى والتَّمَجُّـدِ
أَغَـرُّ كـأَنَّ البـدرَ سُنَّـةُ وَجْهِـه ... إذا جاءَ يمشي في الحديد المُسرّد
إذا جَشَـأَت نفـسُ الجَبـانِ وَهَلَّلـتْ ... مَضَـى قُـدُمـاً بـالمَشـرَفـيّ المُهَنَّـدِ
حليمٌ لدَى النادِي جَهُولٌ لَدى الوغَىٰ ... عَكـورٌ علـى الأَعـدَاء قليـلُ التَّـزَيـدِ
فثـأْرَكَ أَدرِكْـهُ مِـنَ القَـوم إنَّهـمْ ... رَمـوكَ علـى عَمْـدٍ بِشَنعضـا مُـزَنّـدِ

فضحك ، ثم قال: ما أحرصتني علىٰ ذاك إن ساعدني عُمْر ، وأيِّدت بفتح ونَصْر. ثم وقف على باب الجسر ، وهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادىٰ محمد في الناس ، فركبوا في طلبه ، فأدركوه بمسجد كوثر ، فلما بصر بالخيل نزل وقيّد فرَسه ، وصلى ركعتين وتحرّم ، ثم لقيهم فحمل عليهم حملات في محلِّها يهزمهم ويقتل فيهم. ثم إنّ فرسه عثر به وسقط ، وابتدره الناس طعناً وضربا وًأخذوا رأسه ، وفي ذلك يقول عليّ بن جبلة ـ وقيل الخرَيميّ:

أَلا قـاتَـلَ اللهُ الأُلَـى كفـروا بـه ... وفـازوا بـرأس الْهَـرْثَمِـيِّ حُسَيْـنِ

لقــد أَورَدُوا منــهُ قنــاةً صليبــةً بشَطّــبٍ يَمــانــيَّ ورمــحٍ رُدَيْنِــي
رَجا فــي خِلافِ الحقِّ عِزّاً وإِمْرَةً فــأَلبســهُ التــأْمِيــلُ خُــفَّ حُنَيــن

وقيل: إن محمداً لما صفح عن الحسين استوزره ودفع إليه خاتمه.

وقتل الحسين بن عليّ بن عيسىٰ بن ماهان للنصف من رجب من هذه السنة في مسجد كوثر، وهو على فرسخ من بغداد في طريق النّهرين.

وجدّد البيعة لمحمد يوم الجمعة لست عشرة خلت من رجب من هذه السنة، وكان حبس الحسين محمداً في قصر أبي جعفر يومين.

وفي الليّلة التي قتِل فيها حسين بن عليّ هرب الفضل بن الربيع(١).

وفي هذه السنة توجّه طاهر بن الحسين حين قدم عليه هَرْثمة من حُلوان إلى الأهواز، فقتَل عامل محمد عليها، وكان عامله عليها محمد بن يزيد المهلبيّ بعد تقديم طاهر جيوشاً أمامه إليها قبل انفصاله إليه لحربه.

---

(١) هذا الخبر الطويل استغرق الصفحات (٤٢٨ ـ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ـ ٤٣١ ـ ٤٣٢) ولبعضه ما يؤيده فقد ذكره غير واحدٍ مختصراً فقد قال ابن قتيبة الدينوري:
(ووثب الحسين بن علي بن عيسى) في جماعة بـ (بغداد)، فدخل على (محمد) وهو في (الخُلد) وأخذه وحبسه في بُرج من أبراج مدينة (أبي جعفر)، فتقوّضت عساكر (محمد) من جميع الوجوه، وتغيّب (الفضلُ بن الربيع) يومئذ فلم يُرَ له أثر. حتىٰ دخل (المأمون) (بغداد) فأرسل (الحُسين بن عليّ) إلى (هَرثمة) و(طاهِر) يحثُّهما على الدخول إلىٰ (بغداد) ووثب: (أسدٌ الحربيّ) وجماعة، فاستخرجوا (محمداً) وولده، واعتذروا إليه. وأخذوا (الحُسين بن علي) فأَتوه به، فعفا عنه بعد أن اعترف بذنبه وتاب منه. وأقرّ أنه مَخدوع مَغرور، فأطلقه. فلما خرج من عنده وعبَر الجسر، نادى: يا مأمون! يا منصور! وتوجه نحو (هرثمة) وتوجهوا في طلبه فأدركوه بقرب نهر (تِير)، فقتلوه وأتوا (محمداً) برأسه. [المعارف / ١٩٦ ـ ١٩٧].
وكذلك أخرجه ابن عساكر مختصراً جداً في [ترجمة الأمين / تأريخ دمشق/ تر ٧١٠٠].
وأما هرب الفضل بن الربيع واختفاؤه بعد مقتل الحسين بن علي فكذلك ذكره الجهشياري إذ قال في كتابه [الوزراء والكتاب:].
ولما رأى الفضل بن الربيع قوة أمر المأمون، واتصال ضعف محمد وتخليطه، وانفلال الناس عنه، وتَمَزق الأموال التي كانت في يده استتر في رجب من سنة ست وتسعين ومائة. [الوزراء والكتاب / ٣٠٢].

ذكر الخبر عن مقتل محمد بن يزيد المهلبيّ ودخول طاهر إلى الأهواز(١)

ذُكر عن يزيد بن الحارث ، قال: لما نزل طاهر شلاشان ، وجّه الحسين ابن عمر الرستميّ إلى الأهواز ، وأمره أن يسير سيراً مقتصداً ، ولا يسير إلاّ بطلائع ، ولا ينزل إلا في موضع حَصِين يأمن فيه على أصحابه. فلما توجّه أتت طاهراً عيونه ، فأخبروه أن محمد بن يزيد المهلبيّ ـ وكان عاملاً لمحمد على الأهواز ـ قد توجّه في جمع عظيم يريد نزول جندي سابور ـ وهو حدّ ما بين الأهواز والجبل ـ ليحمي الأهواز ، ويمنع من أراد دخولها من أصحاب طاهر ، وإنه في عدّة وقوّة ، فدعا طاهر عدّةً من أصحابه ، منهم محمد بن طالوت ومحمد بن العلاء والعباس بن بخاراخذاه والحارث بن هشام وداود بن موسىٰ وهادي بن حفص ، وأمرهم أن يكمّشوا السَّير حتىٰ يتّصل أوّلهم بآخر أصحاب الحسين بن عمر الرّستميّ ، فإن احتاج إلى إمداد أمدّوه ، أو لقيه جيش كانوا ظهراً له. فوجّه تلك الجيوش ، فلم يلقهم أحدٌ حتىٰ شارفوا الأهواز.

وبلغ محمد بن يزيد خبرُهم ، فعرض أصحابَه ، وقوّى ضعفاءهم ، وحمل الرجّالة علىٰ البغال ، وأقبل حتىٰ نزل سوق عسكر مُكرَم ، وصيّر العمران والماء وراء ظهره ، وتخوّف طاهر أن يعجل إلىٰ أصحابه ، فأمدّهم بقريش بن شبل ، وتوجّه هو بنفسه حتىٰ كان قريباً منهم ، ووجّه الحسن بن عليّ المأموني ، وأمره بمضامّة قريش بن شبل والحسين بن عمر الرستميّ ، وسارت تلك العساكر حتىٰ قاربوا محمد بن يزيد بعسكر مُكرم ، فجمع أصحابه فقال: ما ترون؟ أطاول القوم القتال وأماطلهم اللقاء ، أم أناجزهم كانت لي أم عليّ؟ فوالله ما أرىٰ أن أرجع إلىٰ أمير المؤمنين أبداً ، ولا أنصرف عن الأهواز ، فقالوا له: الرأي أن ترجع إلى الأهواز ، فتتحصن بها وتغادي طاهراً القتال وتبعث إلىٰ البصرة فتفرض بها الفروض ، وتستجيش من قدرت عليه وتابعك من قومك. فقبل ماأشاروا عليه ، وتابعه قومه ، فرجع حتىٰ صار بسوق الأهواز. وأمر طاهر قريش بن شبل أن

---

(١) وذكر خليفة هذا الخبر فقال ضمن حديثه عن وقائع سنة (١٩٦هـ) وفيها قتل محمد بن يزيد بن حاتم بالأهواز [تأريخ خليفة / ٣٠٩] وانظر تعليقنا الأتي (٨ / ٤٣٤ / ٧٠).

يتبعه ، وأن يعاجله قبل أن يتحصّن بسوق الأهواز ، وأمر الحسن بن عليّ المأمونيّ والحسين بن عمر الرستميّ أن يسيرا بعقبه ، فإن احتاج إلى معونتهما أعاناه. ومضىٰ قريش بن شبل يقفو محمد بن يزيد ، كلّما ارتحل محمد بن يزيد من قرية نزلها قريش ، حتى صاروا إلى سوق الأهواز.

وسبق محمد بن يزيد إلىٰ المدينة فدخلها ، واستند إلىٰ العمران ، فصيّره وراء ظهره ، وعبّىٰ أصحابه ، وعزم على مواقعتهم ، ودعا بالأموال فصبّت بين يديه ، وقال لأصحابه: مَنْ أحبّ منكم الجائزة والمنزلة فليعرفني أثره. وأقبل قريش بن شبل حتى صار قريباً منه ، وقال لأصحابه: الزموا مواضعكم ومصافّكم ، وليكن أكثر ما قاتلتموهم وأنتم مريحون فقاتلوهم بنشاط وقوّة ، فلم يبق أحدٌ من أصحابه إلاّ جمع بين يديه ما قدر عليه من الحجارة ، فلم يعبر إليهم محمد بن يزيد ، حتى أوهنوهم بالحجارة ، وجرحوهم جراحاتٍ كثيرة بالنُّشاب ، وعبرت طائفة من أصحاب محمد بن يزيد ، فأمر قريش أصحابَه أن ينزلوا إليهم فنزلوا إليهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى رجعوا ، وترادّ الناس بعضهم إلى بعض. والتفت محمد بن يزيد إلى نفر كانوا معه من مواليه ، فقال: ما رأيكم؟ قالوا: في ماذا؟ قال: إني أرىٰ من معي قد انهزم ، ولست آمنُ من خذلانهم ، ولا آملُ رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي ، حتىٰ يقضي الله ما أحبّ ، فمن أراد منكم الانصراف فلينصرف ، فوالله لأن تبقوا أحبّ إليّ من أن تعطبوا وتهلكوا. فقالوا: والله ما أنصفناكَ ، إذاً تكون أعتقتَنا من الرّق ورفعتنا من الضّعة ، ثم أغنيتنا بعد القِلّة ، ثم نخذلك على هذه الحال ، بل نتقدّم أمامك ونموت تحت ركابك ، فلعن الله الدنيا والعيش بعدك. ثم نزلوا فعرقبوا دوابّهم ، وحملوا علىٰ أصحاب قريش حملةً منكرَة ، فأكثروا فيهم القتل ، وشدخوهم بالحجارة وغير ذلك ، وانتهى بعض أصحاب طاهر إلى محمد بن يزيد ، فطعنه بالرمح فصرعه ، وتبادروا إليه بالضّرب والطعن حتىٰ قتلوه ، فقال بعض أهل البصرة يرثيه ، ويذكر مقتله:

مَن ذاقَ طعم الرُّقادِ مِن فَرَحٍ ... فإنني قد أَضَرَّ بي سَهَرِي
ولّى فتَى الرُّشدِ فافتَقَدتُ به ... قلبي وسمعي وغرّني بصري
كانَ غِياثاً لدَى المُحولِ فقد ... ولّى غمامُ الرَّبيعِ والمطَر

وَفي العُيَيْنِيُّ للإِمامِ ولَمْ يُرهِبْهُ وقْعُ المُشَطَّبِ الذَّكَرِ
سَاوَرَ رَيبُ المَنونِ دَاهِيَةً لولا خُضَوعُ العِبادِ للقَدَرِ
فامضِ حميداً فكلُّ ذي أَجلٍ يَسْعَىٰ إلىٰ ما سَعَيتَ بالأَثرِ

وقال بعض المهالبة ، وجرح في تلك الوقعة جراحات كثيرة وقطعت يده :

فما لمتُ نفسي غيرَ أَنِّي لم أُطِقْ حرَاكاَ وأَني كنتُ بالضَّرْب مُثخنَا
ولو سَلِمَتْ كفَّاي قاتلتُ دونه وضارَبتُ عنه الطاهِرِيَّ المُلَعَّنا
فتًى لا يَرَى أَنْ يَخذِلَ السيفَ في الوغىٰ إِذَا ادَّرَعَ الهيجاءَ في النقع واكتَنَىٰ

وذكر عن الهيثم بن عديّ ، قال : لما دخل ابن أبي عيينة علىٰ طاهر فأنشده قوله :

مَنْ آنسَتْه البلادُ لم يَرِمِ منها ومَن أَوحشَتْهُ لم يُقِم .

حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله :

ما ساءَ ظَنِّي إلا لواحدةٍ في الصَّدرِ محصَورةٍ عنِ الكلِمِ

فتبسمّ طاهر ، ثم قال : أما والله لقد ساءني من ذلك ما ساءك ، وآلمني ما آلمك ، ولقد كنت كارهاً لما كان ، غير أن الحتف واقع ، والمنايا نازلة ، ولا بدّ من قَطْع الأواصر والتنكّر للأقارب في تأكيد الخلافة ، والقيام بحقّ الطاعة ، فظننا أنه يريد محمد بن يزيد بن حاتم(١) . .

وذكر عمر بن أسد ، قال : أقام طاهر بالأهواز بعد قتله محمد بن يزيد ابن حاتم ، وأنفذ عمّاله في كُورها ، وولّي على اليمامة والبحرين وعُمان مما يلي الأهواز ، ومما يلي عمل البصرة ، ثم أخذ علىٰ طريق البرّ متوجّهاً إلى واسط ، وبها يومئذ السنديّ بن يحيى بن الحَرشيّ والهيثم خليفة خزيمة بن خازم ، فجعلت المسالح والعمال تتقوّض ، مسلحة مسلحة ، وعاملاً عاملاً ، كلّما قرب طاهر منهم تركوا أعمالهم وهربوا عنها ، حتى قرب من واسط ، فنادى

---

(١) أما ابن قتيبة الدينوري فقد ذكر أصل الخبر قائلاً : ولما أتىٰ طاهر الأهواز وجد عليها والياً من المهالبة لمحمد فقتله واستولى علىٰ الأهواز ثم سار إلى واسط وهرثمة إلى حلوان [المعارف / ١٩٦] وانظر الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (٣٩٩) . فقد ذكر مسير طاهر إلى الأهواز وانظر خليفة (٣٠٩) .

السنديّ بن يحيىٰ والهيثم بن شعبة في أصحابهما ، فجمعاهم إليهما ، وهمّا بالقتال ، وأمر الهيثم بن شعبة صاحب مراكبه أن يسرج له دوابه ، فقرّب إليه فرساً ، فأقبل يقسم طرفه بينها ، واستقبلته عدّة ، فرأى المراكبيّ التغيّر والفزع في وجهه فقال: إنْ أردت الهرب فعليك بها ، فإنها أبسط في الركض ، وأقوىٰ علىٰ السفر. فضحك ثم قال: قرّب فرس الهرب ، فإنّه طاهر ، ولا عار علينا في الهرب منه ، فتركا واسطاً ، وهربا عنها. ودخل طاهر واسطاً ، وتخوّف إن سبق الهيثم والسنديّ إلى فم الصِّلح فيتحصنا بها. فوجه محمد بن طالوت، وأمره أن يبادرهما إلى فم الصلح ويمنعهما من دخولها إن أرادا ذلك ، ووجّه قائداً من قوّاده يقال له أحمد بن المهلب نحو الكوفة. وعليها يومئذ العباس بن موسىٰ الهادي ، فلمّا بلغ العباس خبر أحمد بن المهلب خلع محمداً ، وكتب بطاعته إلى طاهر وببيعته للمأمون ، ونزلت خيل طاهر فم النيل ، وغلب على ما بين واسط والكوفة ، وكتب المنصور بن المهديّ ـ وكان عاملاً لمحمد على البصرة ـ إلى طاهر بطاعته ، ورحل طاهر حتى نزل طرنايا ، فأقام بها يومين فلم يرها موضعاً للعسكر ، فأمر بجسر فعقد وخندق له ، وأنفذ كتبه بالتولية إلى العمال.

وكانت بيعة المنصور بن المهديّ بالبصرة وبيعة العباس بن موسىٰ الهادي بالكوفة؛ وبيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل للمأمون ، وخلعهم محمداً في رجب من سنة ست وتسعين ومائة[(١)].

وقيل: إنّ الذي كان على الكوفة حين نزل طاهر من قبَل محمد الفضل بن العباس بن موسى بن عيسى.

ولما كتب من ذكرت إلى طاهر ببيعتهم للمأمون وخلعهم محمداً ، أقرّهم طاهر على أعمالهم ، وولّى داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي مكة والمدينة ، ويزيد بن جرير البَجَليّ اليَمن ، ووجّه الحارث بن هشام وداود ابن موسى إلى قصر ابن هبيرة.

* * *

(١) لم يذكر خليفة عن هذه المسائل إلا شيئاً واحداً وهو قوله: وخلع منصور بن المهدي محمداً المخلوع ودعا إلىٰ المأمون [تاريخ خليفة/ ٣٠٩] أما البسوي فعلىٰ الدنيا السلام.

[ذكر خبر استيلاء طاهر على المدائن ونزوله بصرصر]

وفي هذه السنة أخذ طاهر بن الحسين من أصحاب محمد المدائن؛ ثم صار منها إلى صَرْصر ، فعقد جسراً ، ومضى إلى صَرْصر.

ذكر الخبر عن سبب دخوله المدائن ومصيره إلى صرصر:

ذُكر أنّ طاهراً لما وجّه إلى قصر ابن هبيرة الحارث بن هشام وداود بن موسى ، بلغ محمداً خبرُ عامله بالكوفة وخلعه إياه وبيعته للمأمون ، وجّه محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربريّ ، وأمرهما أن يبيتا الحارث وداود بالقَصْر ، فقيل لهما: إن سلكتما الطريق الأعظم لم يخفَ ذلك عليهما؛ ولكن اختصر الطريق إلى فم الجامع ، فإنه موضع سوق ومعكسر ، فانزلاه وبيتاهما إن أردتما ذلك ، وقد قربتما منهما ، فوجّها الرّجال من الياسرّية إلى فم الجامع.

وبلغ الحارث وداود الخبر ، فركبا في خيل مجرّد ، وتهيآ للرّجالة ، فعبرا من مخاضة في سُوراء إليهم؛ وقد نزلوا إلى جَنْبها ، فأوقعا بهم وقعة شديدة. ووجه طاهر محمد بن زياد ونصير بن الخطاب مدداً للحارث وداود ، فاجتمعت العساكر بالجامع ، وساروا حتّى لقوا محمد بن سليمان ومحمد بن حمّاد فيما بين نهر دُرْقيط والجامع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانهزم أهلُ بغداد ، وهرب محمد بن سليمان حتى صار إلى قرية شاهى ، وعبر الفرات ، وأخذ على طريق البرّية إلى الأنبار ، ورجع محمد بن حماد إلى بغداد ، وقال أبو يعقوب الخرَيميّ في ذلك:

هُمَا عَدَوا بالنّكث كي يَصدعَا به صفَا الحقِّ فانفَضّا بجمعٍ مُبَدَّدِ
وأَفلتَنَا ابن البَربريِّ مُضَمَّرٌ مِنَ الخيل يَسمُو للجيادِ ويَهتَدِي[1]

وذكر يزيد بن الحارث ، أنّ محمد بن حماد البربريّ لما دخل بغداد ، وجّه محمدٌ المخلوع الفضلَ بن موسى بن عيسى الهاشميّ إلى الكوفة ، وولاّه عليها ، وضمّ إليه أبا السلاسل وإياس الحرابيّ وجمهوراً النجاريّ؛ وأمره بسرعة السير؛ فتوجّه الفضل؛ فلمّا عبر نهر عيسى عثر به فرسُه ، فتحوّل منه إلى غيره وتطيّر ،

---

(١) انظر تعليقنا الآتي.

وقال: اللهمّ إني أسألك بركة هذا الوجه. وبلغ طاهراً الخبرُ، فوجّه محمد بن العلاء، وكتب إلى الحارث بن هشام وداود بن موسى بالطاعة له، فلقي محمد بن العلاء الفضل بقرية الأعراب، فبعث إليه الفضل: إني سامع مطيع لطاهر؛ وإنما كان مخرجي بالكيد مني لمحمد؛ فخلّ لي الطريق حتى أصير إليه، فقال له محمد: لستُ أعرف ما تقول ولا أقبله ولا أنكره؛ فإن أردت الأمير طاهراً فارجع وراءك؛ فخذ أسهلَ الطريق وأقصدها، فرجع وقال محمد لأصحابه: كونوا على حذر؛ فإني لست آمن مكرَ هذا؛ فلم يلبث أن كبّر وهو يرى أن محمد ابن العلاء قد أمِنَه، فوجده على عدّة وأهبة؛ واقتتلوا كأشدّ ما يكون من القتال، وكبا بالفضل فرسُه؛ فقاتل عنه أبو السلاسل حتى ركب، وقال: أذكر هذا الموقف لأمير المؤمنين. وحمل أصحابُ محمد بن العلاء على أصحاب الفضل فهزموه، ولم يزالوا يقتلونهم إلى كوثى، وأسِر في تلك الوقعة إسماعيل بن محمد القرشي وجمهور النجاريّ، وتوجّه طاهر إلى المدائن، وفيها جند كثير من خيول محمد؛ عليهم البرمكيّ قد تحصن بها، والمدد يأتيه في كلّ يوم، والصِّلات والخلع من قبَل محمد. فلما قرب طاهر من المدائن - وكان منها على رأس فرسخين - نزل فصلى ركعتين، وسبّح فأكثر التسبيح، فقال: اللهمّ إنا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن. ووجّه الحسن بن علي المأمونيّ وقريش بن شبل، ووجّه الهادي بن حفص على مقدّمته وسار. فلما سمع أصحابُ البرمكيّ صوتَ طبوله، أسرجوا الدوابّ، وأخذوا في تعبيتهم، وجعل مَنْ في أوائل الناس ينضمّ إلى أواخرهم، وأخذ البرمكيّ في تسوية الصفوف؛ فكلّما سوّى صفاً انتقض واضطرب عليه أمرهم، فقال: اللهمّ إنا نعوذ بك من الخذلان؛ ثم التفت إلى صاحب ساقته، فقال: خلّ سبيل الناس؛ فإنّي أرى جنداً لا خير عندهم؛ فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد، فنزل طاهر المدائن، وقدّم منها قريش بن شبل والعباس بن بخاراخذاه إلى الدّرْزيجان، وأحمد بن سعيد الحَرشيّ ونصر بن منصور بن نصر بن مالك معسكران بنهر ديائي، فمنعا أصحاب البرمكيّ من الجواز إلى بغداد، وتقدم طاهر حتى صار إلى الدرزيجان حيال أحمد ونصر بن منصور، فسيّر إليهما الرجال، فلم يجر بينهما كثيرُ قتال

حتى انهزموا، وأخذ طاهر ذات اليسار إلى نهر صرصر، فعقد بها جسراً ونزلها[١].

* * *

[ذكر خبر خلع داود بن عيسى الأمين]

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى عاملُ مكة والمدينة محمداً ـ وهو عامله يومئذ عليهما ـ وبايع للمأمون، وأخذ البيعة بهما على الناس له؛ وكتب بذلك إلى طاهر والمأمون؛ ثم خرج بنفسه إلى المأمون.

ذكر الخبر عن ذلك وكيف جرى الأمر فيه:

ذُكر أنّ الأمين لما أفضت الخلافة إليه، بعث إلى مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وعزل عامل الرّشيد على مكة؛ وكان عاملُه عليها محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزوميّ، وكان إليه الصلاة بها وأحداثها والقضاء بين أهلها؛ فعُزل محمد عن ذلك كلِّه بداود بن عيسى؛ سوى القضاء فإنه أقرّه على القضاء. فأقام داود والياً على مكة والمدينة لمحمد، وأقام للناس أيضاً الحجّ سنة ثلاث وأربع وخمس وتسعين ومائة، فلمّا دخلت سنة ست وتسعين ومائة، بلغه خلع عبد الله المأمون أخاه، وما كان فعل طاهر بقوّاد محمد، وقد كان محمد كتب إلى داود بن عيسى يأمره بخلع عبد الله المأمون والبيعة لابنه موسى، وبعث محمد إلى الكتابين اللذيْن كان الرّشيد كتبهما وعلّقهما في الكعبة فأخذهما، فلما فعل ذلك جمع داود حَجَبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومَنْ كان شهد على ما في الكتابيْن من الشهود ـ وكان داود أحدَهم ـ فقال داود: قد علمتم ما أَخَذَ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق

(١) لم يذكر البسوي ولا خليفة عن كيفية تقدم طاهر بن الحسين نحو المدائن ثم بغداد سوى قول خليفة وفيها قدم طاهر بن الحسين بغداد وبايعه الحربية [تاريخ خليفة/ ٣٠٩] وكما سنذكر بعد قليل أما البسوي فلا وأما أبو حنيفة الدنيوري فقد اختصر كل ذلك قائلاً:
وتقدم هرثمة إلى بغداد، فلم تقم لمحمد قائمة حتى قُتل، وكان من أمره ما كان.
وأن طاهر بن الحسين صعد من البصرة، وتقدّم هرثمة حتى أحدقا ببغداد وأحاطا بمحمد الأمين، ونصبا المنْجنِيق على داره حتى ضاق محمد بذلك ذرعا. [الأخبار الطوال/ ٣٩٩]
أي أنه لم يأت على ذكر المدائن وصرصر.

عند بيت الله الحرام حين بايعنا لابنيْه؛ لنكوننّ مع المظلوم منهما على الظالم، ومع المبغيّ عليه على الباغي، ومع المغدور به على الغادر؛ فقد رأينا ورأيتم أنّ محمداً قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن، وخلَعهما وبايع لابنه الطفل؛ رضيع صغير لم يفطم، واستخرج الشرْطين من الكعبة عاصياً ظالماً، فحرّقهما بالنار. وقد رأيت خلعه، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة؛ إذ كان مظلوماً مبغيًّا عليه. فقال له أهل مكة: رأينا تبعٌ لرأيك، ونحن خالعوه معك؛ فوعدهم صلاة الظهيرة؛ وأرسل في فجاج مكة صائحاً يصيح: الصلاة جامعة! فلمّا جاء وقت صلاة الظهر - وذلك يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة خلت من رجب سنة ست وتسعين ومائة - خرج داود بن عيسى، فصلّى بالناس صلاة الظهر، وقد وضع له المنبر بين الرّكن والمقام، فصعد فجلس عليه، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر؛ وكان داود خطيباً فصيحاً جهير الصوت؛ فلما اجتمع الناس قام خطيباً، فقال:

الحمد لله مالك الملك؛ يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين، وختم به النبيين، وجعله رحمةً للعالمين، صلى الله عليه في الأولين والآخرين. أما بعد يا أهلَ مكة؛ فأنتم الأصل والفرع، والعشيرة والأسرة، والشركاء في النعمة، إلى بلدكم نفذ وفدُ الله، وإلى قبلتكم يأتمّ المسلمون، وقد علمتمّ ما أخذ عليكم الرّشيد هارون رحمة الله عليه وصلاتُه حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصُرنَّ المظلوم منهما على الظالم، والمبغيَّ عليه على الباغي، والمغدورَ به على الغادر؛ ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر، وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام؛ وقد حلّ لنا ولكم خلعُه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغيّ عليه المغدور به. ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قَلنسوتي هذه من رأسي - وخلع قلنسوته عن رأسه فرمى بها إلى بعض الخدم تحته، وكانت من برود حبرة مسلسلة حمراء، وأتى بقلنسوة سوداء

هاشمية فلبسها ـ ثم قال: قد بايعتُ لعبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم.

فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر ، رجل فرجل ، فبايع لعبد الله المأمون بالخلافة ، وخلَع محمداً ، ثم نزل عن المنبر ، وحانت صلاة العصر ، فصلىّ بالناس ، ثم جلس في ناحية المسجد ، وجعل الناس يبايعونه جماعةً بعد جماعةً؛ يقرأ عليهم كتاب البَيْعة ، ويصافحونه على كفه ، ففعل ذلك أياماً.

وكتب إلى ابنه سليمان بن داود بن عيسى وهو خليفته على المدينة ، يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثل ما فعل هو بأهل مكة؛ من خلْع محمد والبيعة لعبد الله المأمون. فلما رجع جواب البيعة من المدينة إلى داود وهو بمكة ، رحل من فوره بنفسه وجماعة من ولده يريد المأمون بمَرْو على طريق البصرة ، ثم على فارس ، ثم على كرْمان؛ حتى صار إلى المأمون بمرو ، فأعلمه ببيعته وخلعه محمداً ومسارعة أهل مكة وأهل المدينة إلى ذلك ؛ فسر بذلك المأمون ، وتيمن ببركة مكة والمدينة؛ إذ كانوا أوّل من بايعه ، وكتب إليهم كتاباً ليناً لطيفاً يعدهم فيه الخير ، ويبسط أملهم. وأمر أن يُكتب لداود عهد على مكة والمدينة وأعمالها من الصلاة والمعاون والجباية ، وزيد له ولاية عك ، وعقد له على ذلك ثلاثة ألوية ، وكتب له إلى الريّ بمعونة خمسمائة ألف درهم ، وخرج داود بن عيسى مسرعاً مُغذًّاً مبادراً لإدراك الحجّ ، ومعه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وقد عقد المأمون للعباس بن موسى بن عيسى على ولاية الموسم ، فسار هو وعمّه داود حتّى نزلا بغداد على طاهر بن الحسين ، فأكرمهما وقرّبهما ، وأحسن معونتهما ، ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْريّ ، وقد عقد له طاهر على ولاية اليمن ، وبعث معه خيلاً كثيفة ، وضمن لهم يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْريّ أن يستميل قومَه وعشيرته من ملوك أهل اليمن وأشرافهم؛ ليخلعوا محمداً ويبايعوا عبد الله المأمون.

فساروا جميعاً حتى دخلوا مكة. وحضر الحجّ ، فحجّ بأهل الموسم العباس ابن موسى بن عيسى؛ فلما صدروا عن الحجّ انصرف العباس حتى أتى طاهر ابن الحسين ـ وهو على حصار محمد ـ وأقام داود بن عيسى على عمله بمكة

والمدينة ؛ ومضى يزيد بن جرير إلى اليمن ، فدعا أهلها إلى خَلْع محمد وبيعة عبد الله المأمون ، وقرأ عليهم كتاباً من طاهر بن الحسين يعدُهم العدل والإنصاف ، ويرغّبهم في طاعة المأمون ، ويعلّمهم ما بسط المأمون من العَدل في رعيّته ؛ فأجاب أهل اليمن إلى بيعة المأمون ، واستبشروا بذلك ، وبايعوا للمأمون ، وخلعوا محمداً ، فسار فيهم يزيد بن جرير بن يزيد بأحسن سيرة ، وأظهر عدلا وإنصافاً ، وكتب بإجابتهم وبيعتهم إلى المأمون وإلى طاهر بن الحسين.

* * *

وفي هذه السنة عقد محمد في رجب وشعبان منها نحواً من أربعمائة لواء لقوّاد شتى ، وأمّر على جميعهم عليّ بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين ، فساروا فالتقوا بجَلُلْتَا في رمضان على أميال من النّهروان ، فهزمهم هرثمة ، وأسر عليّ بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وبعث به هرثمة إلى المأمون ، وزحف هرثمة فنزل النهروان[1].

[ذكر خبر شغب الجند على طاهر بن الحسين]

وفي هذه السنة استأمن إلى محمد من طاهر جماعة كثيرة ، وشغب الجند على طاهر ، ففرّق محمد فيمن صار إليه من أصحاب طاهر مالاً عظيماً ، وقوّد رجالاً ، وغلّف لحاهم بالغالية ، فسمُّوا بذلك قواد الغالية.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل إليه الأمر فيه:

ذكر عن يزيد بن الحارث ، قال: أقام طاهر على نهر صَرصْر لما صار إليها ، وشمّر في محاربة محمد وأهل بغداد ، فكان لا يأتيه جيش إلا هزمه ، فاشتدّ على أصحابه ما كان محمد يعطي من الأموال والكُسا ، فخرج من عسكره نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خُراسان ومن التف إليهم ، فسُرّ بهم محمد ، ووعدهم ومناهم ، وأثبت أسماءهم في الثمانين. قال: فمكثوا بذلك أشهراً ، وقوّد جماعة

---

(١) انظر الخبر في البداية والنهاية [٨/ ١٤٢] وقد أشار ابن قتيبة الدينوري إشارة بسيطة إلىٰ النهروان فقال: وصار هرثمة إلىٰ النهروان ثم زحف إلىٰ نهر تيري [المعارف/ ٣٨٦].

من الحربية وغيرهم ممن تعرض لذلك وطلبه ، وعقد لهم ، ووجّههم إلى دسكرة الملك والنهروان ، ووجّه إليهم حبيب بن جهم النمري الأعرابيّ في أصحابه؛ فلم يكن بينهم كثير قتال ، وندب محمد قواداً من قواد بغداد ، فوجّههم إلى الياسريّة والكوثريّة والسفينتين ، وحمل إليهم الأطعمة ، وقواهم بالأرزاق ، وصيّرهم ردءاً لمن خلفهم ، وفرّق الجواسيس في أصحاب طاهر ، ودسَّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع والترغيب فشغبوا على طاهر واستأمن كثير منهم إلى محمد ، ومع كل عشرة أنفس منهم طبل ، فأرعدوا وأبرقوا وأجلبوا ، ودنَوْا حتى أشرفوا على نهر صرصر ، فعبَّى طاهر أصحابه كراديس ، ثم جعل يمرّ على كل كرِدوس منهم ، فيقول: لا يغرنكم كثرة مَنْ ترون ، ولا يمنعكم استئمان من استأمن منهم ، فإنّ النصر مع الصدق والثبات ، والفتح مع الصبر ، وربّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ثم أمرهم بالتقدم ، فتقدّموا واضطربوا بالسيوف ملياً. ثم إن الله ضرب أكتاف أهل بغداد فولَّوْا منهزمين ، وأخلوا موضع عسكرهم ، فانتهب أصحاب طاهر كلّ ما كان فيه من سلاح ومال. وبلغ الخبرُ محمداً ، فأمر بالعطاء فوُضع ، وأخرج خزائنه وذخائره ، وفرّق الصلات وجمع أهل الأرباض ، واعترض الناس على عينه ، فكان لا يرى أحداً وسيما حسن الرّواء إلا خلع عليه وقوّده ، وكان لا يقوّد أحداً إلا غلّفت لحيته بالغالية؛ وهم الذين يسمون قواد الغالية. قال: وفرّق في قواده المحدثين لكل رجل منهم خمسمائة درهم وقارورة غالية ، ولم يعط جند القواد وأصحابهم شيئاً. وأتت عيون طاهر وجواسيسه طاهراً بذلك ؛ فراسلهم وكاتبهم ، ووعدهم واستمالهم ، وأغرى أصاغرهم بأكابرهم ، فشغبوا على محمد يوم الأربعاء لست خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة ، فقال رجل من أبناء أهل بغداد في ذلك:

قُلْ لِلأَمينِ اللهِ في نَفسِهِ	ما شتت الجندَ سِوَى الغاليهْ
وطاهرٌ نفسي تقِى طاهراً	برسلِه والعُدَّةِ الكافيَهْ
أَضحى زمامُ المُلكِ في كفّهِ	مُقاتلا للفِئةِ الباغيةْ
يا ناكثاً أَسلَمَهُ نكثُه	عُيوبُهُ مِنْ خُبثِهِ فاشِيَهْ
قد جَاءك الليثُ بشَدّاته	مُستكلباً في أُسْدٍ ضارِيَه

فـاهــرُبْ ولا مَهْــرَبَ مــن مِثْلِــهِ إلاَّ إلــــى النــــارِ أَو الهــــاويـــــة

قال: ولمّا شغب الجند، وصعب الأمر على محمد شاور قواده، فقيل له: تدارك القوم، فتَلاف أمرك؛ فإنّ بهم قوام ملكك؛ وهم بعد الله أزالوه عنك أيام الحسين، وهم ردّوه عليك، وهم من قد عرفْتَ نجدتَهم وبأسهم. فلجّ في أمرهم وأمر بقتالهم، فوجّه إليهم التنوخيّ وغيره من المستأمنة والأجناد الذين كانوا معه، فعاجل القوم القتال وراسلهم طاهر وراسلوه؛ فأخذ رهائنهم على بذْل الطاعة له، وكتب إليهم، فأعطاهم الأمان، وبذلَ لهم الأموال، ثم قدم فصار إلى البستان الذي على باب الأنبار يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة، فنزل البستان بقواده وأجناده وأصحابه، ونزل مَنْ لحق بطاهر من المستأمنة من قواد محمد وجنده في البستان وفي الأرباض، وألحقهم جميعاً بالثمانين في الأرزاق، وأضعف للقواد وأبناء القوّاد الخواص، وأجرى عليهم وعلى كثير من رجالهم الأموال، ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وفُتِن الناس، ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار، فعزّ الفاجر، وذلّ المؤمن، واختلّ الصالح، وساءت حالُ الناس إلا من كان في عسكر طاهر لتفقده أمرَهم، وأخذه على أيدي سفهائهم وفساقهم؛ واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال وراوَحه، حتى تواكل الفريقان، وخربت الدار[1].

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ من قبل طاهر، ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أوّل موسم دُعيَ له فيه بالخلافة بمكة والمدينة[2].

---

(١) هذا الخبر الطويل [٤٤١ ـ ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ـ ٤٤٤] عن شغب الجند على طاهر بن الحسين لم يذكره البسوي ولا خليفة ولا الدينوريان ولا الجهشياري ولم نجد ما يؤيد هذه التفاصيل عن مسير طاهرٍ هذا سوىٰ عبارة واحدة ذكرها الجهشياري وهو يصف مسير طاهر الطويل فقال: (ونزل طاهر باب الأنبار) [المعارف/ ٣٨٦] وقال خليفة وفيها قدم طاهر بن الحسين بغداد (٣٠٩).

(٢) وانظر تاريخ خليفة (٣٠٩) والمعرفة والتاريخ للبسوي (١/ ٥٥).

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة لحق القاسم بن هارون الرشيد ومنصور بن المهديّ بالمأمون من العراق، فوجّه المأمون القاسم إلى جرجان.

* * *

[ذكر خبر حصار الأمين ببغداد]

وفيها حاصر طاهر وهَرْثمة وزهير بن المسيّب محمد بن هارون ببغداد[١].

ذكر الخبر عما آل إليه أمر حصارهم في هذه السنة، وكيف كان الحصار فيها:

ذكر محمد بن يزيد التميمي وغيره أن زهير بن المسيب الضبي نزل قصر رقة كلواذى، ونصب المجانيق والعرّادات واحتفر الخنادق، وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمى بالعرّادات مَنْ أقبل وأدبر، ويعشر أموال التجار ويجبي السفن، وبلغ من الناس كل مبلغ؛ وبلغ أمرُه طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه ما نزلَ بهم من زهير بن المسيب، وبلغ ذلك هرثمة، فأمده بالجند، وقد كاد يؤخذ، فأمسك عنه الناس، فقال الشاعر من أهل الجانب الشرقي - لم يعرف اسمه - في زهير وقتله الناس بالمجانيق:

لا تَقْرَبِ المَنجنيقَ والحجَرا ... فقد رأيتَ القتيلَ إذ قُبِرَا
باكَرَ كيْ لا يفوتَه خبرٌ ... راحَ قتيلاً وخَلَّفَ الخبرَا
ماذا به كان من نشاطٍ ومنْ ... صحّةِ جسمٍ به إذا ابتكرَا
أرادَ ألاَّ يقالَ كان له ... أمرٌ فلم يَدْرِ مَن به أَمرَا
يا صاحبَ المِنجنيق ما فَعَلتْ ... كفَّاكَ، لمْ تُبقيَا ولم تَذَرَا
كانَ هَوَاهُ سوَى الَّذي قُدِرَا ... هَيْهَاتَ لَنْ يَغلِبَ الهَوى القدَرَا

ونزل هرثمة نهر بين، وجعل عليه حائطاً وخندقاً، وأعدّ المجانيق والعرّادات، وأنزل عبيد الله بن الوضّاح الشمّاسيّة، ونزل طاهر البُستان بباب

---

(١) وأيد خليفة ذلك (تاريخ خليفة/ ٣١٠) وأبو حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال/ ٣٩٩.

الأنبار ، فذُكر عن الحسين الخليع أنه قال : لماتولّى طاهر البُستان بباب الأنبار ، دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد ، وتفرّق ما كان في يده من الأموال ، وضاق ذَرْعاً ، وتحرّق صدراً ، فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة ، وضرب آنية الذّهب والفضّة دنانير ودراهم ، وحملها إليه لأصحابه وفي نفقاته ، وأمر حينئذ برمي الحرّبية بالنفط والنيران والمجانيق والعرّادات ، يقتل بها المقبل والمدبر ، ففي ذلك يقول عمرو بن عبد الملك العِتْري الوراق :

يــــا رمــــاةَ المنجنيــــق ... كُلُّكــــمْ غيــــرُ شَفيــــقِ
مــــا تبــــالــــونَ صَــــدِيقــــاً ... كــــانَ أَو غيــــرَ صــــدِيــــقِ
ويَلَكــــم تَــــدْرونَ مــــا تــــرْ ... مــــونَ مُــــرَّارَ الطَّــــريــــقِ
رُبَّ خَــــوْدٍ ذَاتِ دَل ... وهْــــيَ كــــالغصــــنِ الــــوريــــقِ
أُخــــرِجَــــت مِــــنْ جَــــوْف دُنيَــــا ... هَــــا وَمِــــنْ عَيْــــشٍ أَنيــــقِ
لــــم تَجــــدْ مِــــن ذَاكَ بُــــدا ... أُبْــــرِزت يــــومَ الحــــريــــقِ[1]

وذكر عن محمد بن منصور الباوَرْديّ ، قال : لما اشتدّت شوكة طاهر علي محمد ، وهزمت عساكره ، وتفرق قواده كان فيمن استأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم ، فلحق به ، فولاّ ناحية البغيّين والأسواق هنالك وشاطىء دَجْلة ؛ وما اتّصل به أمامه إلى جسور دجلة ، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كلِّ ما غلب عليه من الدّور والدّروب ، وأمدّه بالنفقات والفَعلة والسلاح ، وأمر الحربيّة بلزومه على النوائب ، ووكّل بطريق دار الرقيق وباب الشام واحداً بعد واحد ؛ وأمر بمثل الذي أمر به سعيد بن مالك ؛ وكثُر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد ؛ ففي ذلك يقول العِتْري :

مَــنْ ذا أصــابــكِ يــا بغــدادُ بــالعَيــنِ ... أَلَــمْ تَكُــونــي زمــانــاً قُــرَّةَ العيــنِ!

---

(١) لم يذكر هذه التفاصيل والتي ستأتي لغاية الصفحة (٤٧٢) سوىٰ الطبري من المؤرخين المتقدمين الثقات المعروفين بحيادهم وعدم انحيازهم إلى فرقة معينة أو طائفة أو مذهب من مذاهب المبتدعة. وإنما ذكر خليفة والدينوري أصل الخبر ولبعض هذه التفاصيل وما بعدها انظر المنتظم لابن الجوزي (١٠/٣٦) وما بعدها وقد ذكرها ابن كثير مختصراً [البداية والنهاية ٨/ ١٤٣ ـ ١٤٤] والمقطع الأخير رواه الحسين الخليع الشاعر كما ذكره الطبري [٨/٤٤٦] فكيف يعتمد علىٰ خبره؟!! وهو ماجن خليع؟!

أَلَم يَكُنْ فِيكِ قومٌ كان مسكنهمْ ... وكان قربهُمُ زيناً من الزَّيْن!
صَاحَ الغرابُ بهمْ بالْبيْن فَافترَقُوا ... مَاذا لقيتُ بهم من لَوْعَةِ البَيْن!
أَستودِعُ الله قوماً مَا ذكرتهمُ ... إلاّ تحدَّرَ ماءُ العينِ منْ عَيْنِي
كانوا فَفَرَّقهم دَهْرٌ وصَدَّعَهم ... والدَّهْرُ يَصْدَعُ ما بينَ الفريقين

قال: ووكّل محمد عليّاً فراهرمد؛ فيمن ضم إليه من المقاتلة، بقصر صالح وقصر سليمان بن أبي جعفر إلى قُصور دجلة وما والاها، فألحّ في إحْرَاق الدُّور والدُّرُوب وهدْمها بالمجانيق والعرّادات على يَدَيْ رجلٍ كان يعرف بالسَّمَرْقنديّ؛ فكان يرمي بالمَنجنيق، وفعل طاهر مثل ذلك؛ وأرسل إلى أهل الأرْباض من طريق الأنْبَار وباب الكوفة وما يليها؛ وكلما أجابه أهلُ ناحية خندق عليهم، ووضع مسالحِه وأعلامه، ومَنْ أبى إجابته والدخول في طاعته ناصبه وقاتله، وأحرق منزله؛ فكان كذلك يغدو ويروح بقوّداه وفرسانه ورجّالته؛ حتى أوحشت بغداد، وخاف الناس أن تبقى خراباً؛ وفي ذلك يقول الحسين الخليع:

أَتُسْرِعُ الرِّحْلَةَ إغْذَاذا ... عَنْ جَانِبَيْ بغداذ أَمْ ماذَا!
أَلَمْ تَرَ الفتنةَ قد أَلَّفَتْ ... إلى أُولي الفتنةِ شُذاذا
وانتقضتْ بغدادُ عُمْرَانها ... عن رأي لا ذاك ولا هذا
هَدْماً وَحَرْقاً قد أُبِيدَ أهلُها ... عقوبةً لاذَت بمَنْ لاذا
ما أَحسنَ الحالات إن لم تَعُدْ ... بغداذ في القلَّة بَغْداذا

قال: وسمّى طاهر الأرباضَ التي خالفه أهلها ومدينةَ أبي جعفر الشرقية، وأسواقَ الكرخ والخلد وما والاها دارَ النكث، وقبض ضياع ممَنْ لم ينحز إليه من بني هاشم والقوّاد والموالى وغلاتهم، حيث كانت من عمله، فذلُّوا وانكسروا وانقادوا، وذلّت الأجناد وتواكلت عن القتال؛ إلا باعة الطريق والعُراة وأهل السجون والأوباش والرّعاع والطرّارين وأهل السوق. وكان حاتم بن الصقر قد أباحهم النَّهب، وخرج الْهِرْش والأفارقة، فكان طاهر يقاتلهم لا يفترُ عن ذلك ولا يمَلُّه، ولا يني فيه فقال الخزيمي يذكر بغداد، ويصف ما كان فيها:

قالوا: ولم يلعبِ الزمانُ ببغـ ... ـداد وتَعثُرْ بها عواثرُها
إذ هي مثلُ العروس باطنها ... مشوّقٌ للفتى وظاهِرُها
جنَّة خُلْدٍ ودارُ مَغبَطَةٍ ... قلَّ من النائبات وَاترُها

دَرَّتْ خُلُوفُ الدّنيا لساكنها   وقلَّ مَعسورُها وعاسِرُها
وانفرَجَتْ بالنعيمِ وانتجعَتْ   فيها بلذاتها حواضِرُها
فالقومُ منها في روضةٍ أُنُفٍ   أَشرَقَ غِبَّ القِطارِ زاهرُها
مَن غرَّهُ العيشُ في بُلهْنِيةٍ   لو أنَّ دُنيا يدُومُ عامرُها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها   فيها وقرَّت بها منابرُها
أهلُ العلا والندى وأندِيةُ الـ   ـفخرِ إذا عُدِّدَت مَفاخرُها
أَفراخُ نُعْمَى في إرْثِ مَمْلَكَةٍ   شَدَّ عُراها لها أَكابِرُها
فلمْ يَزلْ والزَّمان ذُو غِيَرٍ   يَقدَحُ في مُلكِهَا أصاغِرُها
حتى تَساقتْ كأساً مُثَمِّلةً   من فتنة لا يقال عاثِرُها
وافترقتْ بعدَ ألفَةٍ شِيَعاً   مقطوعةً بينَها أَواصِرُها
يا هل رأَيتَ الأَملاكَ ما صنعت   إذ لم يَرُعْها بالنصح زاجِرُها
أَوْرَدَ أَملاكُنا نفوسَهُمُ   هُوَّةَ غَي أَعْيَتْ مَصادِرُها
ما ضرها لو وَفَتْ بمَوْثِقِهَا   واستحكمت في التُّقَى بصائرها
ولم تسافِك دماءَ شيعتها   وتبتعِث فتيةً تكابرها
وأَقنعتها الدنيا التي جُمعَت   لها ورُغْبُ النفوسِ ضائرُها
ما زال حوض الأَملاك يحفره   مسجُورها بالهوى وساجِرُها
تبغي فضولَ الدنيا مكاثَرَةً   حتى أُبيحَت كُرْهاً ذَخائِرُها
تَبيعُ ما جمَّع الأُبُوَّةُ لِلْـ   ـأبناءِ لا أَربحَت متاجِرُها
يا هل رأيت الجنَان زاهرةً   يرُوقُ عينَ البصيرِ زاهرُها
وهل رأيتَ القُصورَ شارعةً   تُكِنُّ مثلَ الدُّمى مقاصرُها
وهل رأيت القُرى التي غرسَ الـ   ـأَملاكُ مخضَرَّةً دَساكِرُها
محفوفةً بالكرومِ والنخلِ والرَّ   يحانِ ما يستغِلُّ طائرُها
فإنها أصبحت خلايا من الـ   ـإنسانِ قد أُدْمِيَتْ محاجرها
قَفراً خَلاءً تعوِي الكلابُ بها   يُنكِرُ منها الرسومَ زائرُها
وأَصبحَ البؤسُ ما يفارُقها   إلفاً لها والسُّرورُ هاجرُها
بِزَندوَرْدٍ واليَاسِرِيَّةِ والشَّطـ   ـين حيث انتهت معابرها
ويا ترلحى والخيزُرَانية الـ   ـعليا التي أَشرفت قناطرُها
وقَصرِ عَبدوَيْه عبرةٌ وهُدًى   لكلِّ نفسٍ زَكَت سَرائِرُها

فأَين حُرّاسُها وحارسُها ... وأَين مجبورُها وجابرها!
وأَين خِصْيانها وحِشْوَتُهَا ... وأَين سكَّانُها وعامرُها
أَين الجَرادِيَّةُ الصقالبُ والـ ... ـأحبُشُ تعدوُ هُدْلاً مَشافرُها
ينصدعُ الجندُ عن مواكبها ... تعْدُو بها سُرَّباً ضَوامِرُها
بالسِّندِ والهند والصقالِبِ وَالـ ... ـتَّوبَةِ شِيبَتْ بها بَرابرُها
طيراً أَبابيلَ أرسلَت عَبَثاً ... يقدُمُ سُودانَها أَحامِرُها
أَين الظِّباءُ الأَبكارُ في روضة الـ ... ـملكِ تَهادَى بها غَرائِرُها!
أَين غَضاراتُها وَلَذَّتها ... وأَين مَحبُورُها وَحابِرُها!
بالمسك والعنبرِ اليمانِ والـ ... ـيلنجُوج مَشبُوبَةٌ مَجامِرُها
يَرفُلْن في الخَزِّ والمجَاسِدِ وَالـ ... ـمَوْشيِّ محطومَةً مَزامِرُها
فأَينَ رقاصها وَزامِرُها ... يُجْبَنَ حيثُ انتهت حناجرُها
تكادُ أَسماعُهم تُسَكُّ إذا ... عَارضَ عِيدانَها مَزاهرُها
أَمسَت كَجَوف الحِمار خَاليَةً ... يَسعَرُها بالجحيم ساعرُها
كأنَّما أَصبحتْ بساحتهمْ ... عادٌ ومسَّتْهُمُ صراصرُها
لا تعلمُ النفسُ ما يُبايِتُها ... من حَادِث الدّهر أَو يُباكرُها
تُضحى وتُمسى دَريَّةً غَرَضاً ... حيث استقرّت بها شراشرها
لأَسْهُمِ الدّهرِ وهو يَرشُقَها ... مُحِنطُها مَرَّةً وَباقِرُها
يَا بُؤسَ بَغَدادَ دَار مَملكَةٍ ... دارتْ على أَهلها دوائرُها
أَمهلها الله ثم عاقَبها ... لمّا أَحاطت بها كبائرُها
بالخسف والقَذف والحريق وبالـ ... ـحربِ التي أَصبحت تساورُها
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا ... د فهل ذو الجلال غافرها!
حلَّت ببَغدادَ وهيَ آمنةٌ ... داهيةٌ لم تكن تحاذِرُها
طالَعَها السوءُ من مَطَالِعِهِ ... وأَدركت أَهلَها جرائرُها
رَقَّ بها الدينُ واسْتُخفَّ بذى الـ ... ـفضل وَعزَّ النُّسَّاكَ فاجرُها
وخَطَّمَ العبدُ أنفَ سَيِّدِهِ ... بالرّغم وَاستُعبِدَت حرائرها
وصار رَبّ الجيران فَاسقَهُم ... وابتزَّ أَمرَ الدُّروب ذاعُرها
من يَرَ بغدادَ والجنودُ بها ... قد ربَّقَتْ حَوْلَها عَساكُرها
كلُّ طَحونٍ شهباءَ بَاسِلَةٍ ... تسْقِطُ أَحْبالها زَماجِرُها

تُلقى بغيٍّ الرّدَى أَوانِسَها ... يُرْهِقها للّقاءِ طَاهِرُها

والشيخ يَعدُو حَزماً كتائبه ... يُقدِمُ أَعجازَها يعاوِرُها

وَلِزُهيرٍ بالفِرْك مأسَدَةٌ ... مرقومةُ صلبَةٌ مَكاسِرُها

كتائبُ الموتِ تحتَ أَلويَةٍ ... أَبْرَحَ منصورُها وَناصِرُها

يعلم أن الأقدار واقعةٌ ... وَقعاً على ما أَحَبَّ قادرُها

فتلكَ بغدادُ ما يُبَنَّى من الذ ... لَّةِ في دُورِها عَصافِرُها

محفوفةً بِالرَّدَى مُنَطقَةً ... بِالصُّغر مَحْصُورَةً جَبابرُها

ما بين شطِّ الفراتِ منه إلى ... دِجْلَةَ حيث انتهت معابِرُها

بارك هادِي الشَّقْراءِ نافِرُه ... تُرْكضُ من حولِها أَشَاقِرُها

يُحْرِقها ذا وذاكَ يهدمها ... ويَشتِفي بالنهابِ شاطرُها

والكَرْخُ أَسواقِها مُعَطَّلةٌ ... يَستنّ عَيَّارُها وعائرُها

أَخرجت الحربُ من سواقِطها ... آسادَ غِيلٍ غُلْباً تُساوِرُها

من البواري تِراسُها ومن الـ ... ـخُوصِ إذا استلأَمَت مَغافرها

تَغدوُ إلى الحرب في جَواشنِها الـ ... ـصّوف إذا ما عُدَّت أَساوِرُها

كَتَائبُ الهِرْشِ تحت رايَتِهِ ... ساعَدَ طَرّارَها مُقامِرُها

لا الرزقَ تبغي ولا العطاء ولا ... يَحشُرُها للِّقاء حاشِرُها

في كلّ دَرْبٍ وكلِّ ناحيةٍ ... خطَّارَةٌ يَستَهِلُّ خاطِرُها

بمثلِ هَامِ الرجال من فلَق الصَّـ ... ـخر يَزُودُ المِقلاعَ بَائرُها

كأنما فوقَ هَامِها فِرَقٌ ... من القطا الكُدْرِ هاج نافِرُها

والقومُ من تحتها لهم زَجَلٌ ... وهي ترامى بها خَواطِرُها

بلْ هل رأيتَ السيوفَ مُصلتَةٌ ... أشهَرَها في الأسواقِ شاهِرُها

والخيلَ تستَنُّ في أَزِقَّتها ... بالتُّركِ مسنونةً خَناجِرُها

وَالنِّفطَ والنَّارَ في طَرائِقِها ... وهابِيا للدخَانِ عامِرُها

والنَّهبُ تَعدُو به الرِّجالُ وقَدْ ... أَبدَتْ خَلاخيلها حَرائِرُها

مُعصَوصباتٍ وسطَ الأَزِقَّةِ قَدْ ... أَبرَزها للعيون ساترها

كلُّ رَقودِ الضُّحَى مخبَّأَةٍ ... لم تَبدُ في أَهلِها محاجِرُها

بَيْضَةُ خِدرٍ مكنونةٌ بَرزَت ... للناس منشورةً غَدائرُها

تَعثرُ في ثوبها وَتُعْجِلُها ... كَبَّةُ خَيلٍ رِيعَتْ حَوافرُها

تسـأَلُ أيـن الطـريـقُ وَالهـةً والنَّـارُ مـن خَلْفهـا تُبـادرُهـا
لـم تَجتَـلِ الشَّمْـسُ حُسـنَ بَهجَتِهـا حتـى اجتلتهـا حـربٌ تباشـرُهـا
يـا هَـلْ رأَيـتَ الثَّكلـى مُـوَلـولَـةً في الطُّرْق تسعى والجَهدُ بَاهرُها!
فـي إثـر نَعـش عليـهِ واحـدُهـا فـي صَـدْرِهِ طعنـةٌ يُسـاورُهـا
فَـرغـاءُ ينقـى الشنـار مـربَـدُهـا يَهـزّهـا بَـالسنـان شـاجـرُهـا
تنظـرُ فـي وجهـهِ وتهتـف بـالثـ ـكـلِ وجَـارِي الـدمـوع حـادِرُهـا
غَـرغَـر بـالنَّفـس ثـم أَسلمهـا مَطلـولَـةً لا يُخـاف ثـائـرهـا
وقـد رأَيت الفتيـان فـي عَـرصَـةِ الـ ـمَعـرَك مَعفُـورَة منـاخـرهـا
كـلُّ فتًـى مَـانـعٌ حَقيقَتَـهُ تَشقَـى بـهِ فـي الـوَغـى مسَـاعـرهـا
بـاتَـتْ عليـهِ الكِـلابُ تَنْهَشُـهُ مخضُـوبـةٌ مِـنْ دم أَظَـافِـرُهـا
أمَـا رَأَيـتَ الخُيـولَ جـائلَـةً بـالقَـوْم مَنكُـوبَـةً دَوَائـرُهـا
تعثـرُ بـالأَوجُـهِ الحِسَـانِ مـنَ الـ ـقَتلـى وغُلَّـتْ دمـاً أَشـاعِـرُهُـا
يطـأنَ أكبـادَ فتيـةٍ نُجُـدٍ يَفْلِـقُ هـامـاتِهـمْ حـوافـرُهـا
أمَـا رأَيـت النسـاءَ تحـتَ المجـا نيـق تعـادَى شُعْثـاً ضفـائـرُهـا
عقـائـلِ القـومِ والعجـائـزَ والـ ـعُنَّـسَ لـم تحتبَـرْ معـاصِـرُهـا
يحْمِلـن قـوتـاً مـنَ الطِّحِيـنِ علـى الْـ ـأَكتَـافِ مَعْصُـوبَـةً مهـاجِـرُهـا
وذاتُ عيـش ضنـكٍ ومُقعِسَـةٌ تشـدخُهـا صَخـرةٌ تعـاوِرُهـا
تسـأَلُ عـنْ أهلهـا وقـد سُلِبـتْ وابْتُـزَّ عـنْ رأسهـا غفـائـرُهـا
يـاليـتَ شِعْـرى والـدَّهْـرُ ذُو دُولٍ يُـرجَـى وأُخـرَى تُخْشَـى بَـوادرُهـا
هـل تَـرْجعـنْ أرضنـا كمـا غنِيَـتْ وقـد تنـاهـتْ بنـا مصـايِـرُهـا
مـنْ مُبلـغٌ ذا الـريـاستيْـنِ رسـا لاتٍ تَـأَتَّـى للنُّصْـح شـاعِـرُهـا
بـأَنَّ خيْـرَ الـوُلاةِ قـدْ علـمَ النَّـ ـاسُ إذا عُـدِّدت مـآثِـرُهـا
خليفـةُ اللهِ فـي بـريّتِـهِ الـ ـمـأمُـونُ مُنْتَـاشُهـا وجـابـرُهـا
سَمَـتْ إليـه آمـالُ أُمّتـهِ منقـادَةٌ بَـرُّهـا وفـاجـرُهـا
شـامُـوا حيـا العـدْلِ مـن مخـايلِـهِ وأَصْحَـرَتْ بـالتُّقـى بَصَـائـرهـا
وأحمـدُوا منـك سيـرة جلـتِ الـ ـشَّـكَّ وأُخـرى صَحَّـتْ معـاذِرُهـا
واستجمعـتْ طـاعـة بـرفقـكَ للمَـأْ مـونِ نجـديُّهـا وغـائـرهـا
وأنـتَ سمـعٌ فـي العـالميـنَ لـه ومُقلـةٌ مـا يكـلّ نـاظـرُهـا

فاشكر لذي الْعَرْشِ فضلَ نعمتِهِ أَوجبَ فضلَ المزيدِ شاكرها
واحذَرْ فداءً لك الرّعيةُ والـ ـأَجنادُ مأمورها وآمرها
لا تردن غمْرةً بنفسكَ لا يَصْدُرُ عنها بالرأي صادرُها
عليك ضحْضاحها فلا تلج الغمـ ـرةَ ملتجّةً زواخِرُها
والقصْدَ إنَّ الطريقَ ذو شعبٍ أَشأَمها وَعْثُها وَجائرُها
أَصْبَحْتَ في أمةٍ أوائلها قد فارقت هَدْيَها أواخُرها
وأنتَ سُرْسُورُها وسَائِسُها فَهَلْ على الحق أَنت قاسرها!
أَدِّبْ رجالاً رأَيتَ سِيرتهُمْ خالفَ حُكْمَ الكِتَابِ سائرها
وامدُدْ إلى الناس كفَّ مَرحَمَةٍ تُسَدُّ منهم بها مفاقرها
أَمكنكَ الْعَدْلُ إذ هَمَمْتَ به ووافقَتْ مَدَّه مقادرُها
وأَبصرَ الناسُ قصدَ وجههمُ ومُلِّكَتْ أُمَّةً أخايرُها
تُشْرَعُ أعناقها إليكَ إذ الـ سَّاداتُ يوماً جَمَّتْ عَشائِرُها
كم عندنا من نصيحَة لك في اللـ ـهِ وقُرْبَى عَزَّتْ زوافرها
وحرمةٍ قرَّبتْ أَواصِرُها منك ، وأُخْرى هل أنت ذاكرُها!
سعي رجالٍ في العلم مطلبُهُمْ رائحُها باكرٌ وباكرها
دونكَ غراءَ كالوَذيلَةِ لا تُفقَدُ في بلدةٍ سوائرها
لا طمعاً قُلتُها ولا بَطرّاً لكلِّ نفس هوًى يُؤامرها
سيرَها الله بالنصيحَةِ والـ ـخَشيَةِ فاستدمجَت مرائرها
جاءتك تحكي لك الأمور كما ينشر بزَّ التِّجارِ ناشرها
حمَّلتُها صاحباً أخا ثقةٍ يظلُّ عُجباً بها يحاضرها[1].

(١) هذه الأبيات الشعرية التي تزيد علىٰ (١٣٠) بيتاً تصور الحالة المأساوية التي آلت إليها بغداد وقد استخدم الطبري الشعر كتوثيق للوقائع والحوادث ولم يكن حينها صحف أو جرائد أو مجلات وغيرها من وسائل الإعلام فكانت القصائد وسيلة سهلة إلى حدّ ما لتصوير الوقائع بصورة مشوقة ونشرها بين الناس وإن كان عدد من الأخباريين قد جمعوا كثيراً من الأبيات الشعرية منسوبة إلىٰ منظميها دون تثبت من ذلك وجمعها المؤرخون وأودعوها في كتبهم والتأكد من نسبتها إلى قائليها بحاجة إلى موازين علمية دقيقة.
ولقد ذكر ابن كثير طرفا من هذه الأبيات ثم علق عليها قائلاً: ولقد أكثر الشعراء من ذلك (أي من وصف أحوال بغداد في تلك المحنة) وقد أورد أبو جعفر بن جرير (أي الطبري) من ذلك =

وفي هذه السنة استأمن الموكّلون بقصر صالح من قبلَ محمد.

* * *

[ذكر خبر وقعة قصر صالح]

وفيها كانت الوقعة التي كانت على أصحاب طاهر بقصر صالح.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذكر محمد بن الحسين بن مصعب، أنّ طاهراً لم يزل مصابراً محمداً وجندَه على ما وصفت من أمرِه؛ حتى ملَّ أهلُ بغداد من قتاله، وأن عليَّ فراهمرد الموكّل بقصريْ صالح وسليمان بن أبي جعفر من قبل محمد، كتب إلى طاهر يسأله الأمان، ويضمن له أن يدفع ما في يده من تلك الأموال ومن الناحية إلى الجسور وما فيها من المجانيق والعرّادات إليه؛ وأنه قَبل ذلك منه، وأجابه إلى ما سأل، ووجّه إليه أبا العباس يوسف بن يعقوب البَاذغيسيّ صاحب شُرَطه فيمن ضُمّ إليه من قوّاده وذوي البأس من فُرسانه ليلاً، فسلم إليه كلّ ما كان محمد وكّله به من ذلك ليلة السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ومائة. واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب شُرْطة محمد؛ وكان يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش؛ وكان محمد بن عيسى غير مداهِنٍ في أمر محمد؛ وكان مهيباً في الحرْب، فلمّا استأمن هذان إلى طاهر، أشفى محمد على الهلاك، ودخله من ذلك ما أقامه وأقعده حتى استسلم؛ وصار على باب أم جعفر يتوقّع ما يكون؛ وأقبلت الغُواة من العيّارين وباعة الطرق والأجناد؛ فاقتتلوا داخل قصر صالح وخارجه إلى ارتفاع النهار.

قال: فقتل في داخل القصر أبو العباس يوسف بن يعقوب الباذغيسي ومن كان معه من القواد والرؤساء المعدودين، وقاتل فراهمرد وأصحابه خارجاً من القصر حتى فلَّ وانحاز إلى طاهر؛ ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشدَّ على طاهر وأصحابه منها، ولا أكثر قتيلاً وجريحاً معقوراً من أصحاب طاهر من تلك الوقعة؛

= طرفاً صالحاً وأورد من ذلك قصيدة طويلة جداً لبعض أهل ذلك الزمان فيها بسط ما وقع وهي هول من الأهوال [البداية والنهاية ٨/ ١٤٣].

فأكثرت الشعراء فيها القول من الشعر، وذكر ما كان فيها من شدة الحرب. وقال فيها الغوغاء والرعاء، وكان مما قيل في ذلك قول الخليع:

أميـــن الله ثـــق بـــالله تعـط الصَّبـر والنُّصـرة
كــل الأمــر إلـى الله كــلاك اللـه ذو القـدرة
لنــا النَّصــر بعـون اللـه والكـرَّة لا الفـرَّة
وللمـــرَّاق أعـــداء ك يـوم السـوء والـدَّبـره
وكــأس تلفــظ المـوت كــريــهٍ طعمهـا مـرَّه
سقينـا وسقينـاهـم ولكـن بهـم الحِـرَّه
كــذاك الحـرب أحيـانـاً علينـا ولنـا مـرَّه

فذكر عن بعض الأبناء أن طاهراًبثَّ رسله، وكتب إلى القوّاد والهاشميين وغيرهم بعد أن حاز ضياعهم وغلاتهم يدعوهم إلى الأمان والدخول في خلع محمد والبيعة للمأمون؛ فلحق به جماعة، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي وإخوته، وولد الحسن بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان ومحمد بن أبي العاص، وكاتبه قوم من القوّاد والهاشميين في السرّ، وصارت قلوبهم وأهواؤهم معه.

قال: ولما كانت وقعة قصر صالح أقبل محمد على اللهو والشرب، ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهرش؛ فوضعا مما يليهما من الدروب والأبواب وكلاهما بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكرخ. وفرض دجلة وباب المحول والكناسة؛ فكان لصوصها وفساقها يسلبون من قدروا عليه من الرِّجال والنساء والضعفاء من أهل الملة والذمة؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب.

قال: ولما طال ذلك بالناس، وضاقت بغداد بأهلها، خرج عنها من كانت به قوة بعد الغرم الفادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم؛ فأخذ طاهر أصحابه بخلاف ذلك، واشتد فيه، وغلظ على أهل الريب. وأمر محمد بن أبي خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتجويزهم وتسهيل أمرهم؛ فكان الرجل والمرأة إذا تخلص من أيدي أصحاب الهرش، وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الروع وأمن، وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ؛ حتى قيل: إن مثل

أصحاب طاهر ومثل أصحاب الهرش وذويه ومثل الناس إذا تخلصوا، مثل السور الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. فلما طال على الناس ما بلوا به ساءت حالهم، وضاقوا به ذرعاً؛ وفي ذلك يقول بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغدادَ لمَّا ... فَقَدتُ غَضَارة العيشِ الأنيقِ
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سَعَةٍ تبدَّلنا بضيقِ
أصابتها من الحُسَّادِ عينٌ ... فأفنَت أهلها بالمنجنيقِ
فقوم أُحْرِقُوا بالنار قسراً ... ونائحةٌ تنوحُ على غريقِ
وصائحةٌ تنادي واصباحاً ... وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفرُّ من الحريق إلى انتهابٍ ... ووالِدها يفرُّ إلى الحريقِ
وسالبةُ الغزالةِ مقلتَيْهَا ... مضاحكُها كلأْلَأةِ البرُوقِ
حيارى كالهدايا مُفْكِراتٌ ... عليهنَّ القلائدُ في الحُلوقِ
ينادين الشفيق ولا شفيقٌ ... وقد فُقِدَ الشقيق من الشقيقِ
وقومٌ أخرجُوا من ظلِّ دُنيا ... متاعُهُمُ يُباعُ بكلِّ سوقِ
ومغتربٌ قريب الدارِ مُلقىً ... بلا رأس بقارعة الطريقِ
توسَّط مِنْ قتالهمُ جميعاً ... فما يدرون مِنْ أيِّ الفريقِ
فلا ولد يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديقِ
ومهما أنس من شيءٍ تولَّى ... فإنِّي ذاكرٌ دار الرَّقيقِ

وذكر أن قائداً من قواد أهل خراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس، خرج يوماً إلى القتال، فنظر إلى قوم عراة، لا سلاح معهم، فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا من أرى؛ استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم؛ فقيل له: نعم هؤلاء الذين ترى هم الآفة؛ فقال: أف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم، وأنتم في السلاح الظاهر، والعدة والقوة؛ ولكم ما لكم من الشجاعة والنجدة! وماعسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عدة لهم ولا جنة تقيهمَّ فأوتر قوسه وتقدم، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده بارية مقيَّرة، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر

منه العيَّار، فوقع في باريّته أو قريباً منه؛ فيأخذه فيجعله في موضع من باريته، قد هيأه لذلك، وجعله شبيهاً بالجعبة. وجعل كلما وقع سهم أخذه، وصاح: دانق، أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه؛ ولم يزل تلك حالة الخراساني وحال العيَّار حتى أنفذ الخراساني سهامه، ثم حمل على العيَّار ليضربه بسيفه؛ فأخرج من مخلاته حجراً؛ فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ به عينه، ثم ثناه بآخر؛ فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه؛ وكرّ راجعاً وهو يقول: ليس هؤلاء بإنس؛ قال: فحدثت أن طاهراً حدث بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج إلى الحرب؛ فقال بعض شعراء بغداد في ذلك:

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطانها ولا لنزار
معشراً في جواشن الصوف يغدو ن إلى الحرب كالأسود الضَّواري
وعليهم مغافر الخوص تجزيـ هم عن البيض. والتِّراس البواري
ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ طال عاذوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشد على ألـ فين عريان ماله من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـ نة: خذها من الفتى العيَّار
كم شريف قد أخملته وكم قد رفعت من مُقامرٍ طرَّار

* * *

[ذكر خبر منع طاهر الملاحين من إدخال شيء إلى بغداد]

[قال محمد بن جرير: وفي هذه السنة منع طاهر الملاحين وغيرهم من إدخال شيء إلى بغداد إلا إلى من كان من عسكره منهم، ووضع الرصيد عليهم بسبب ذلك].

ذكر الخبر عما كان منه ومن أصحاب محمد المخلوع في ذلك

وعن السبب الذي من أجله فعل ذلك طاهر:

أماالسبب في ذلك فإنه ـ فيما ذكر ـ كان أنّ طاهراً لما قتل من قتل في قصر صالح من أصحابه، ونالهم فيه من الجراح ما نالهم، مضه ذلك وشق عليه؛ لأنه

لم يكن له وقعة إلا كانت له لا عليه؛ فلما شق عليه أمر بالهدم والإحراق عند ذلك، فهدم دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة، إلى الصراة وأرجاء ابي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة؛ وجعل يبايت أصحاب محمد ويدالجهم، ويحوى في كل يوم ناحية، ويخندق عليها المراصد من المقاتلة؛ وجعل أصحاب محمد ينقصون، ويزيدون؛ حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون؛ فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، ويكونون أضرَّ على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً؛ فقال شاعر منهم ـ وذكر أنه عمرو بن عبد الملك الورّاق العتري ـ في ذلك:

لنـا كـلَّ يـوم ثُلمـةٌ لا نَسُـدُّهـا ... يـزيـدونَ فيمـا يَطلبـونَ ونَنقُـصُ
إذَا هَـدمـوا داراً أَخـذنـا سُقـوفَهـا ... ونحـن لأُخـرى غيـرِهـا نَتَـربَّـصُ
وإن حَرصوا يوماً على الشَّرِّ جُهْدَهمْ ... فغوغاؤنا منهمْ على الشرّ أَحرَصُ
فقـد ضيَّقـوا مـن أَرضنـا كـلَّ واسـع ... وصـار لهـم أَهـلٌ بهـا، وتَعـرَّصـوا
يُثيـرونَ بـالطبـلِ القنيـصَ فـإن بـداً ... لهم وجهُ صيدٍ من قريب تقنّصوا
لقـد أَفسـدوا شَـرْقَ البـلادِ وغَـربَهـا ... علينا فما ندري إِلى أَين نشخُص!
إذا حضـروا قـالـوا بمـا يَعـرفـونـه ... وإن يَـرَوْا شيئـاً قبيحـاً تَخَـرَّصـوا
ومـا قتـلَ الأَبطـالَ مثـلُ مجـرّبٍ ... رسـولِ المنـايـا ليلَـهُ يتلصّـصُ
ترى البطلَ المشهورَ في كلّ بلدة ... إذا مـا رأَى العـريـانَ يـومـاً يُبَصبِصُ
إذا مـــا رآه الشَّمَّـــري مُقَـــزِّلاً ... علـى عقبَيـهِ للمخـافـةِ يَنكـصُ
يبيعُـك رأسـاً للصبـيّ بـِدِرهـمٍ ... فإِن قال إني مُرْخِصٌ فهو مرخِصُ
فكـم قـاتـلٍ منـا لآخـرَ منهـمُ ... بمقتلـه عنـه الـذُّنـوبُ تُمحَّـصُ
تـراه إذا نـادى الأَمـانَ مبـارزاً ... ويَغمِـزنـا طَـوراً وطـوراً يخصِّـص
وقـد رخَّصَـت قـراؤنـا فـي قتـالِهـمْ ... ومـا قتـلَ المقتـولَ إلاَّ المـرخّـصُ

وقال أيضاً في ذلك:

النَّـاسُ فـي الهـدمِ وفـي الانتقـالْ ... قـد عَـرَّض النَّـاسُ بقيـلٍ وقـالْ
يـا أَيُّهـا السـائـلَ عـن شـأْنهـمْ ... عينـك تكفيـكَ مكـان السُّـؤَالْ
قـد كـان للـرحمـن تكبيـرُهُـمْ ... فـاليـوم تكبيـرهـمْ للقتـالْ
اطـرحْ بعينيـك إلـى جمعهـمْ ... وانتظـر الـرَّوْحَ وعُـدَّ الليـالْ

لـــم يبــق فـــي بغـــدادَ إلاَّ امـــرؤٌ حـــالَفَـــهُ الفقـــر كثيـــرُ العيـــالْ
لا أمّ تحمِـــي عـــن حمـــاهـــا ولا خـــالٌ لـــه يحمـــي ولاَ غيـــرُ خـــالْ
ليـــس لـــه مـــالٌ ســـوى مِطْـــرَدٍ مِطـــردُهُ فـــي كفِّـــه رأسُ مـــالْ
هـــانَ علـــى الله فـــأَجْـــرَى علـــى كفَّيـــه للشِّقـــوةِ قتـــلَ الـــرجـــالْ
إن صـــارَ ذا الأمـــر إلـــى واحـــدٍ صـــارَ إلـــى القتـــلِ علـــى كـــلّ حـــالْ
مـــا بـــالنـــا نُقتَـــلُ مـــن أَجْلِهـــمْ سُبْحَـــانَـــكَ اللهـــمّ يـــا ذَا الجـــلالْ!

وقال أيضاً:

ولســـتُ بتـــاركٍ بغـــدادَ يـــومـــاً تَـــرَحَّـــلَ مَـــن تـــرحَّـــل أَوْ أَقَـــامَـــا
إذا مـــا العيـــش ســـاعـــدنـــا فلسنـــا نبـــالـــي بعـــد مـــن كـــان الإمـــامـــا

قال عمرو بن عبد الملك العتري: لما رأى طاهر أنهم لا يحفلون بالقتل والهدم والحرق أمر عند ذلك بمنع التجار أن يجوزوا بشيء من الدقيق وغيره من المنافع من ناحيته إلى مدينة أبي جعفر والشرقية والكرخ، وأمر بصرف سفن البصرة وواسط بطرنايا إلى الفرات؛ ومنه إلى المحول الكبير وإلى الصراة، ومنها إلى خندق باب الأنبار؛ بما كان زهير بن المسيب يبذرقه إلى بغداد، وأخذ من كل سفينة فيها حمولة ما بين الألف درهم إلى الألفين والثلاثة، وأكثر وأقل، وفعل عمال طاهر وأصحابه ببغداد في جميع طرقها مثل ذلك وأشد، فغلت الأسعار، وصار الناس في أشد الحصار، فيئسوا أو كثير منهم من الفرج والروح، واغتبط من كان خرج منها، وأسف على مقامه من أقام.

وفي هذه السنة استأمن ابن عائشة إلى طاهر، وكان قد قاتل مع محمد حيناً بالياسرية.

* * *

[ذكر خبر وقعة الكناسة]

وفيها جعل طاهر قواداً من قواده بنواحي بغداد، فجعل العلاء بن الوضاح الأزدي في أصحابه ومن ضم إليه بالوضاحية على المحول الكبير، وجعل نعيم بن الوضاح أخاه فيمن كان معه من الأتراك وغيرهم مما يلي ربض أبي أيوب على شاطىء الصراة، ثم غادى القتال وراوح أشهراً، وصبر الفريقان جميعاً؛ فكانت

لهما فيها وقعة بالكناسة؛ باشرها طاهر بنفسه، قتل فيها بشر كثير من أصحاب محمد، فقال عمرو بن عبد الملك:

وَقْعَةُ يومِ الأَحَدِ صارت حَدِيثَ الأَبَدِ
كَمْ جسدٍ أبصرتَهُ مُلقًى وكَمْ مِن جَسَدِ
وناظرٍ كانت له مَنِيَّةٌ بالمَرْصَدِ
أَتاهُ سَهْمٌ عائرٌ فشكَّ جَوفَ الكَبِدِ
وصائحٍ يا والدي وصائحٍ يا ولدي!
وكم غريقٍ سابحٍ كان متينَ الجَلَدِ!
لم يَفتقِدْه أَحدٌ غيرُ بناتِ البلدِ
وكم فقيدٍ بَئِسٍ عزَّ على المفتقِدِ
كَانَ مِنَ النَّظارةِ الـ أولى شديد الحَرَدِ
لو أَنه عايَن ما عاينَه لم يَعُدِ
لم يبقَ من كهلٍ لهُمْ فَاتَ وَلا مِنْ أَمْرَدِ
وطاهرٌ ملتهِمٌ مثلَ التهامِ الأَسدِ
خيَّمَ لا يَبْرَح في الـ عرصَةِ مثلَ اللُّبَدِ
تقذِفُ عيناه لَدَى الـ حربِ بنارِ الوَقَدِ
فقائلٌ قد قَتَلوا أَلفاً ولمَّا يزدِ
وقائلٌ أكثر بل ما لهُمُ من عددِ
وهاربٌ نحوهُمُ يرهَبُ من خوفِ غدِ
هيهات لا تبصرُ ممّـ ـنْ قَدْ مَضى من أَحَدِ
لا يرجع الماضي إلى الْـ ـبَاقِي طَوالَ الأَبدِ
قلتُ لمطعونٍ وفيـ ـهِ رُوحُهُ لَمْ تبدِ
مَنْ أَنتَ يا وَيْلكَ يا مِسكينُ من مُحَمَّدِ
فقالَ لا من نَسبٍ دانٍ ولا مِنْ بَلدٍ
لم أَره قطّ ولم أَجِدْ لهُ من صَفدِ
وقال لا لِلغيِّ قَا تلتُ ولا للرَّشَدِ
إلاَّ لشيءٍ عاجلٍ يصيرُ مِنهُ فِي يدِي

وذكر عن عمرو بن عبد الملك أن محمداً أمر زريحاً غلامه بتتبع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم، وأمر الهرش بطاعته، فكان يهجم على الناس في منازلهم، ويبيتهم ليلاً، ويأخذ بالظنة، فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة، وأهلك خلقاً، فهرب الناس بعلة الحج، وفر الأغنياء، فقال القراطيسي في ذلك:

أَظهروا الحجّ وما ينوونَهُ ... بل من الهِرش يُريدون الهربْ
كم أُناسٍ أصبحوا في غبطة ... وكلَ الهرشُ عليهم بالعطب
كلُّ من راد زُريحٌ بيتَهُ ... لقِيَ الذُّلَّ وَوَافاهُ الحرَبْ

* * *

[ذكر خبر وقعة درب الحجارة]

وفيها كانت وقعة درب الحجارة.

ذكر الخبر عنها.

ذكر أن هذه الوقعة كانت بحضرة درب الحجارة؛ وكانت لأصحاب محمد على أصحاب طاهر، قتل فيها خلق كثير، فقال في ذلك عمرو بن عبد الملك العتريّ:

وَقعَةُ السبتِ يومَ درب الحِجَارَهْ ... قطعَت قِطعةً من النَّظَّارة
ذاك من بعد ما تَفَانَوا ولكن ... أهلكَتهمْ غوغاؤنا بالحجَارهْ
قَدِم الشُّورَجِينَ للقتل عمداً ... قال إني لَكُمْ أُرِيد الإمَارَة
فتلقَاه كلُّ لِصٍّ مُريبٍ ... عَمَر السجنَ دهرَه بالشَّطَارَهْ
ما عليه شيءٌ يواريه مِنْهُ ... أيرُه قائمٌ كمثلِ المنارَهْ
فتَوَلوْا عنهم وَكَانُوا قديماً ... يُحسِنونَ الضِّرابَ في كلِّ غارَهْ
هؤلاء مثلُ هؤلاكَ لدينا ... ليس يَرعوْن حق جارٍ وجَارَهْ
كلّ منْ كانَ خاملاً صار رأساً ... من نعيم في عيشه وغضارهْ
حاملٌ في يمينِهِ كلَّ يوم ... مِطرَداً فوقَ رأسه طَيَّارهْ
أَخرجتْهُ من بيتها أمُّ سوءٍ ... طَلَبَ النَّهبَ أُمّه العَيَّارَهْ
يشتم الناس ما يبالي بإفصا ... ح لذي الشتم لا يشير إشارهْ
ليس هذا زمان حرٍّ كريم ... ذا زمان الأنذال أهل الزعارهْ

كــان فيمــا مضــى القتــالُ قِتــالا فهُــوَ اليــومَ يــا علــيُّ تِجــارَهْ

وقال أيضاً:

بــارِيَّــةٌ قَيَّــرْتَ ظَــاهِــرَهــا محمَّـــدٌ فيهـــا وَمَنصُـــورُ
العِــزُّ والأَمــنُ أَحــادِيثهــمْ وَقَــوْلُهــمُ قــد أخِــذَ السُّــورُ
وأَيُّ نفــعٍ لــكَ فــي ســورهــمْ وأَنــتَ مَقتــولٌ وَمَــأْسُــور؟
قــد قُتِلَــتْ فُــرْسَــانكُــمْ عَنــوَةً وَهُــدِمَــتْ مــن دُورِكُــمْ دُورُ
هــاتــوا لكــمْ مــن قــائــدٍ وَاحــدٍ مهــذَّبٍ فــي وَجهــه نُــورُ
يــا أَيُّهــا السَّــائــل عَــنْ شــأْننــا محمَّــدٌ فــي القَصْــرِ مَحْصــورُ

* * *

[ذكر خبر وقعة باب الشماسية]

وفيها أيضاً كانت وقعة بباب الشماسية، أسر فيها هرثمة.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان وإلى ما آل الأمر فيه:

ذكر عن علي بن يزيد أنه قال: كان ينزل هرثمة نهر بين، وعليه حائط وخندق، وقد أعد المجانيق والعرادات، وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية، وكان يخرج أحياناً، فيقف بباب خراسان مشفقاً من أهل العسكر، كارهاً للحرب، فيدعو الناس إلى ما هو عليه فيشتمه، ويستخف به؛ فيقف ساعة ثم ينصرف. وكان حاتم بن الصقر من قواد محمد؛ وكان قد واعد أصحابه الغزاة والعيارين أن يوافوا عبيد الله بن الوضاح ليلاً، فمضوا إلى عبيد الله مفاجأة وهو لا يعلم؛ فأوقعوا به وقعة أزالوه عن موضعه، وولى منهزماً، فأصابوا له خيلاً وسلاحاً ومتاعاً كثيراً، وغلب على الشماسية حاتم بن الصقر. وبلغ الخبر هرثمة، فأقبل في أصحابه لنصرته، وليرد العسكر عنه إلى موضعه؛ فوافاه أصحاب محمد، ونشب الحرب بينهم، وأسر رجل من الغزاة هرثمة ولم يعرفه، فحمل بعض أصحاب هرثمة على الرجل، فقطع يده وخلّصه، فمرّ منهزماً، وبلغ خبره أهل عسكره، فتقوض بما فيه، وخرج أهله هاربين على وجوههم نحو حلوان، وحجز أصحاب محمد الليل عن الطلب؛ وما كانوا فيه من النهب والأسر. فحدثت أن عسكر هرثمة لم يتراجع أهله يومين، وقويت الغزاة بما سار في أيديهم.

وقيل في تلك الوقعة أشعار كثيرة، فمن ذلك قول عمرو الورّاق:

عُـرْيـانُ ليـس بـذِي قَميـصِ　　يَغـدُو علـى طَلـبِ القَميـصِ
يَغْـدُو عَلـى ذِي جـوشَـنِ　　يعمـي العيـونَ مـن البَصيـصِ
فـي كفِّـه طَـرَّادَةٌ　　حمـراءُ تلمـعُ كـالفُصـوصِ
حَـرِصـاً عَلـى طَلَـب القِتَـا　　لِ أَشَـدّ مـن حِـرْص الحـريـصِ
سلِـسَ القِيـادِ كـأنَّمـا　　يَغـدُو عَلـى أكـلِ الخبيـص
لَيْثـاً مُغِيـراً لَـم يَـزَلْ　　رَأسـاً يعـدّ مـن اللصُـوصِ
أَجْـرى وأَثبَـتَ مَقْـدَمـاً　　فـي الحـرْبِ مـن أَسـد رَهيـصِ
يـدْنـو علـى سَنَـنِ الهَـوَا　　نِ وَعِيصُـهُ مـن شَـرِّ عيـصِ
يَنجُـو إذا كـانَ النَّجـا　　ءُ علـى أَخَـفَّ مـن القَلُـوصِ
مـا للكَمِـيِّ إذا لِمَقْـ　　ـتَلـهِ تَعَـرّضَ مـن محيـصِ
كَـم مـن شُجـاعٍ فـارسٍ　　قـد بَـاعَ بـالثَّمَـن الـرَّخيـصِ
يـدعُـو: أَلا مَـنْ يَشتـرِي　　رأسَ الكمـي بكَـفِّ شيـصِ!

وقال بعض أصحاب هرثمة:

يَفنَـى الـزَّمـانُ ومـا يَفنَـى قتـالهُـمُ　　والـدُّور تُهـدَمُ والأمـوالُ تَنتَقِـصُ
والنـاس لا يستطيعـون الـذي طلبـوا　　لا يدفعون الردى عنهم وإن حَرِصُوا
يـأتـوننـا بحـديـثٍ لا ضيـاءَ لَـهُ　　فـي كـلّ يـوم لأَولادِ الـزِّنـا قصصُ

قال: ولما بلغ طاهراً ما صنع الغزاة وحاتم بن الصقر بعبيد الله بن الوضاح وهرثمة اشتد ذلك عليه، وبلغ منه؛ وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية، ووجه أصحابه وعبّأهم، وخرج معهم إلى الجسر، فعبروا إليهم وقاتلوهم أشد القتال، وأمدهم بأصحابه ساعة بعد ساعة حتى ردوا أصحاب محمد وأزالوهم عن الشماسية، ورد المهاجر عبيد الله بن الوضاح وهرثمة.

قال: وكان محمد أعطى بنقض قصوره ومجالسه الخيزرانية بعد ظفر الغزاة ألفي ألف درهم، فحرقها أصحاب طاهر كلها، وكانت السقوف مذهّبة، وقتلوا من الغزاة والمنتهبين بشراً كثيراً، وفي ذلك يقول عمرو الوراق:

ثَقَـلان وطـاهـر بـن الحسيـن　　صبَّحـونـا صبيحـةَ الإثنيـنِ
جمعـوا جمعَهـم بليـل ونـادَوا　　اطلبـوا اليـومَ ثـأركـم بـالحسيـن

ضربوا طبلَهُمْ فثارَ إليهم ... كلّ صُلب القَناة والسَّاعِدَيْنِ
يا قَتِيلا بالقاعِ مُلقًى على الشطِّ ... هواه بِطَيِّئ الجَبَلَيْنِ
ما الَّذِي في يَدَيْكَ أَنت إذا ما أصْـ ... ـطلحَ النَّاسُ أَنتَ بالخَلَّتَيْنِ
أَوَزيرٌ أَم قائدٌ، بَلْ بعيدٌ ... أَنْتَ من ذَينِ مَوضع الفَرقَدَينِ
كم بصيرٍ غَدَا بعينَيْنِ كي يُبْـ ... ـصِرَ ما حالهم فعادَ بعينِ
ليس يُخْطونَ ما يريدون ما يَعْـ ... ـمِد راميهمُ سِوَى الناظِرَينِ
سائِلِي عنهمُ همُ شرُّ مَنْ أَبْـ ... ـصَرتُ في النَّاس ليس غيرٌ كذينِ
شرّ باقٍ وشرّ ماض منَ النا ... س مَضَى أَو رأَيتُ في الثَّقَلَيْنِ

قال: وبلغ ذلك من فعل طاهر محمداً، فاشتد عليه غمه وأحزنه؛ فذكر كاتب لكوثر أن محمداً قال ـ أو قيل على لسانه هذه الأبيات:

مُنيتُ بِأَشْجع الثَّقَلَيْنِ قَلباً ... إذا ما طالَ لَيْسَ كما يطولُ
له مَعْ كلِّ ذِي بَدَنٍ رقيبٌ ... يشاهِدُه ويعلمُ ما يَقُولُ
فليس بمُغْفلٍ أَمراً عناداً ... إذا ما الأَمر ضَيَّعه الغَفُولُ

وفي هذه السنة ضعف أمر محمد، وأيقن بالهلاك، وهرب عبد الله بن خازم بن خزيمة من بغداد إلى المدائن؛ فذكر عن الحسين بن الضحاك أن عبد الله بن خازم بن خزيمة ظهرت له التهمة من محمد والتحامل عليه من السفلة والغوغاء، فهمَّ على نفسه وماله، فلحق بالمدائن ليلاً في السفن بعياله وولده، فأقام بها ولم يحضر شيئاً من القتال.

وذكر غيره أن طاهراً كاتبه وحذره قبض ضياعه واستئصاله، فحذره ونجا من تلك الفتنة وسلم؛ فقال بعض قرائبه في ذلك:

وما جَبنَ ابن خازمَ من رَعاعٍ ... وَأوباشِ الطَّغامِ من الأَنامِ
ولكنْ خاف صَولةَ ضَيغَميٍ ... هَصُورِ الشَّدِّ مشهور العُرامِ

فذاع أمره في الناس، ومشى تجار الكرخ بعضهم إلى بعض، فقالوا: ينبغي لنا أن نكشف أمرنا لطاهر ونظهر له براءتنا من المعونة عليه، فاجتمعوا وكتبوا كتاباً أعلموه فيه أنهم أهل السمع والطاعة والحب له؛ لما يبلغهم من إيثاره طاعة الله والعمل بالحق، والأخذ على يد المريب، وأنهم غير مستحلي النظر إلى الحرب؛ فضلاً عن القتال، وأن الذي يكون حزبه من جانبهم ليس منهم، قد ضاقت بهم

طرق المسلمينَ حتى إن الرجال [الذين بلوا من حربه من جانبهم ليس منهم]، ولا لهم بالكرخ دور ولا عقار؛ وإنما هم بين طرار وسواط ونطاف، وأهل السجون. وإنما مأواهم الحمامات والمساجد، والتجار منهم إنما هم باعة الطريق يتجرون في محقرات [البيوع، قد ضاقت بهم طرق المسلمين، حتى إن الرجل ليستقبل] المرأة في زحمة الناس فيلتثان قبل التخلص؛ وحتى إن الشيخ ليسقط لوجهه ضعفاً؛ وحتى إن الحامل الكيس في حجزته وكفه ليطر منه، وما لنا بهم يدان ولا طاقة؛ ولا تملك لأنفسنا معهم شيئاً؛ وأن بعضهم يرفع الحجر عن الطريق لما جاء فيه من الحديث عن النبي ﷺ؛ فكيف لو اقتدرنا على من في إقامته عن الطريق، وتخليده السجن، وتنفيته عن البلاد وحسم الشر والشغب ونفي الزعارة والطر والسرق، وصلاح الدين والدنيا، وحاش لله أن يحاربك منا أحد!

فذكر أنهم كتبوا بهذا قصة، واتعد قوم على الانسلال إليه بها، فقال لهم أهل الرأي منهم والحزم: لا تظنوا أن طاهراً غبي عن هذا أو قصَّر عن إذكاء العيون فيكم وعليكم؛ حتى كأنه شاهدكم؛ والرأي ألا تشهروا أنفسكم بهذا؛ فإنا لا نأمن إن رآكم أحد من السفلة أن يكون به هلاككم وذهاب أموالكم؛ والخوف من تعرضكم لهؤلاء السفلة أعظم من طلبكم براءة الساحة عند طاهر خوفاً، بل لو كنتم من أهل الآثام والذنوب لكنتم إلى صفحه وتغمده وعفوه أقرب، فتوكلوا على الله تبارك وتعالى وأمسكوا. فأجابوهم وأمسكوا. وقال ابن أبي طالب المكفوف:

دَعُوا أَهلَ الطَّريقِ فَعَنْ قليلٍ ... تَنالهمُ مخاليبُ الهَصُورِ
فتهتِكُ حُجْبَ أَفئدةٍ شِدادٍ ... وشيكاً ما تصيرُ إلى القُبُورِ
فإنَّ الله مُهلِكُهُمُ جميعاً ... بأَسبابِ التمني والفُجُورِ

وذكر أن الهرش خرج ومعه الغوغاء والغزاة ولفيفهم حتى صار إلى جزيرة العباس، وخرجت عصابة من أصحاب طاهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت ناحية لم يقاتل فيها، فصار ذلك على الوجه بعد ذلك اليوم موضعاً للقتال؛ حتى كان الفتح منه؛ وكان أول يوم قاتلوا فيه استعلى أصحاب محمد على أصحاب طاهر حتى بلغوا بهم دار أبي يزيد الشروي. وخاف أهل الأرباض في تلك النواحي مما يلي طريق باب الأنبار؛ فذكر أن طاهراً لما رأى ذلك وجه إليهم قائداً من أصحابه،

وكان مشتغلاً بوجوه كثيرة يقاتل منها أصحاب محمد، فأوقع بهم فيها وقعة صعبة، وغرق في الصراة بشر كثير، وقتل آخرون، فقال في هزيمة طاهر في أول [يوم] عمرو الوراق:

نَادَى مُنَادِي طَاهِرٍ عِنْدَنَا ... يا قومُ كُفُّوا واجْلِسُوا في ٱلْبُيُوتْ
فَسَوْفَ يَأْتِيكمْ غَدٌ فاحْذَرُوا ... [ليثاً هريتَ الشدق فيه عُيُوثْ]
فثارتِ الغوغاءُ في وَجْهِهِ ... بَعْدَ انتِصَافِ اللَّيْلِ قَبْلَ الْقُنُوتْ
في يومِ سبتٍ تَرَكُوا جَمْعَهُ ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سُموداً خُفُوتْ

وقال في الوقعة التي كانت على أصحاب محمد:

كم قتيلٍ قد رأَينا ... ما سأَلْنَاهُ لأَيشِ
دَارِعاً يَلْقَاهُ عُرْيَا ... نٌ بجهلٍ وبطيشِ
إن تلقَّاهُ بِرُمْحٍ ... يتلقَّاهُ بِفَيْشِ
حَبشيًّا يَقتُلُ النَّا ... سَ على قِطْعَةِ خَيْشِ
مُرتَدٍ بالشَّمْس راضٍ ... بالمُنَى مِن كلِّ عيشِ
يَحْمِلُ الْحَمْلَةَ لا يقْـ ... ـتُلُ إلاَّ رَأسَ جَيْشِ
كعلي أَفَراهَمَرْدٍ ... أَو عَلاءٍ أَو قُرَيْشُ
احْذَرِ الرّميةَ ياطا ... هرُ من كفِّ الحُبيشِي

وقال أيضاً عمرو الوراق في ذلك:

ذَهَبَتْ بَهْجَةُ بَغْدَا ... دَ وَكَانَتْ ذَاتَ بَهْجَهْ
فَلَها في كلِّ يَوْمٍ ... رجَّةٌ مِنْ بَعْدِ رجّهْ
ضَجَّتِ الأَرضُ إلى الله ... مِنَ المُنْكَرِ ضَجَّهْ
أَيّها المقتولُ ما أنـ ... ـتَ عَلى دِينِ المحجَّهْ
لَيْتَ شِعْرِى ما الَّذِي نِلْـ ... ـتَ ووَقدْ أَدْلجتَ دَلجهْ
أَإلى الفردوس وُجِّهـ ... ـتَ أَم النَّارِ تُوجَّهْ
حجـ ... أرداك أم أر ... ديت قسراً بالأَزِجّهْ
إن تكُنْ قَاتَلْتَ بِرًّا ... فعلَيْنَا أَلفُ حَجَّهْ

وذكر عن علي بن يزيد أن بعض الخدم حدثه أن محمداً أمر ببيع ما بقي في الخزائن التي كانت أنهبت، فكتم ولاتها ما فيها لتسرق، فتضايق على محمد

أمره، وفقد ما كان عنده، وطلب الناس الأرزاق، فقال يوماً وقد ضجر مما يرد عليه: وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً، وأراح الناس منهم؛ فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا؛ أما هؤلاء فيريدون مالي؛ وأما أولئك فيريدون نفسي. وذكرت أبياتاً قيل إنه قالها:

تَفَرَّقُوا وَدَعُونِي ... يَا مَعْشَرَ الأَعْوَانِ
فكُلُّكُمْ ذُو وُجوهٍ ... كَخلقة الإِنسان
وما أَرى غيرَ إفكٍ ... وتُرَّهاتِ الأَماني
ولستُ أَملك شيئاً ... فسائِلوا خُزّانى
فالويلُ لي ما دهاني ... من ساكنِ البُستانِ

قال: وضعف أمر محمد، وانتشر جنده وارتاع في عسكره، وأحس من طاهر بالعلو عليه وبالظفر به[١].

* * *

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بتوجيه طاهر إياه على الموسم بأمر المأمون بذلك[٢].

وكان على مكة في هذه السنة داود بن عيسى.

---

(١) هذه الوقائع والأخبار والمعارك المتعددة والأبيات الشعرية ذكرها الطبري بتفاصيلها ولم نجد لها ذكراً عند البسوي أو خليفة أو البلاذري أو الدينوريان أو غيرهم من المؤرخين المتقدمين الثقات والمعروفين بحيادهم العلمي والعقائدي، وانظر المنتظم (١٠/ ٦٣) وما بعدها والبداية والنهاية (٨/ ١٤٣ _ ١٤٤) ولقد لخص الحافظ ابن كثير هذه الحوادث التي وقعت (كما ذكر الطبري) سنة (١٩٧هـ) قائلاً: وانقضت هذه السنة بكمالها والناس ببغداد في قلاقل وزلازل وهيشات وقتال وحصار وحرق وغرق وسرق فإنا لله وإنا إليه راجعون [البداية والنهاية ٨/ ١٤٤].

(٢) وكذلك قال خليفة (٣٠٩)والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٥٥).

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة
ذكر الخبر عماكان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر استيلاء طاهر على بغداد][١]

فمن ذلك ما كان من خلاف خزيمة بن خازم محمد بن هارون ومفارقته إياه واستئمانه إلى طاهر بن الحسين ودخول هرثمة الجانب الشرقي.

ذكر الخبر عن سبب فراقه إياه وكيف كان الأمر في مصيره والدخول في طاعة طاهر:

ذكر أن السبب في ذلك كان أن طاهراً كتب إلى خزيمة يذكر له أن الأمر إن يقطع بينه وبين محمد ولم يكن له أثر في نصرته، لم يقصر في أمره. فلما وصل كتابه إليه شاور ثقات أصحابه وأهل بيته، فقالوا له: نرى والله أن هذا الرجل أخذ بقفا صاحبنا، فاحتل لنفسك ولنا؛ فكتب إلى طاهر بطاعته، وأخبره أنه لو كان هو النازل في الجانب الشرقي مكان هرثمة لكان يحمل نفسه له على كل هول، وأعلمه قلة ثقته بهرثمة، ويناشده ألا يحمله على مكروه من أمره إلا أن يضمن له القيام دونه، وإدخال هرثمة إليه ليقطع الجسور، ويُتْبعَ هو أمراً يؤثر رأيه ورضاه؛ وأنه إن لم يضمن له ذلك؛ فليس يسعه تعريضه للسفلة والغوغاء والرعاع والتلف. فكتب طاهر إلى هرثمة يلومه ويعجزه، ويقول: جمعت الأجناد، وأتلفت الأموال، وأقطعتها دون أمير المؤمنين ودوني، وفي مثل حاجتي إلى الكلف والنفقات؛ وقد وقفت على قوم هينة شوكتهم، يسير أمرهم، وقوف المحجم الهائب؛ إن في ذلك جرماً؛ فاستعد للدخول؛ فقد أحكمت الأمر على دفع العسكر وقطع الجسور؛ وأرجو ألا يختلف عليك في ذلك اثنان إن شاء الله.

قال: وكتب إليه هرثمة: أنا عارف ببركة رأيك، ويمن مشورتك، فمر بما

---

(١) جميع الأخباريين والمؤرخين المتقدمين والمتأخرين على أن طاهراً استولى على بغداد سنة (١٩٨هـ) وبعد حصار شديد وقتال متقطع وانظر تعليقنا على الأخبار الآتية.

أحببت؛ فلن أخالفك؛ قال: فكتب طاهر بذلك إلى خزيمة.

وقد ذكر أن طاهراً لما كاتب خزيمة كتب أيضاً إلى محمد بن علي بن عيسى بن ماهان بمثل ذلك. قيل: فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر دجلة فقطعاه، وركزا أعلامهما عليه، وخلعا محمداً، ودعوا لعبد الله المأمون؛ وسكن أهل عسكر المهدي ولزموا منازلهم وأسواقهم في يومهم ذلك؛ ولم يدخل هرثمة حتى مضى إليه نفر يسير غيرهما من القواد، فحلفوا له أنه لا يرى منهم مكروهاً، فقبل ذلك منهم، فقال حسين الخليع في قطع خزيمة الجسر:

عَلَيْنَا جَميعاً من خُزَيمةَ مِنَّةٌ ... بها أَخمدَ الرحمنُ ثائرةَ الحرْبِ
تولَّى أُمورَ المسلمين بنفسِهِ ... فذَبَّ وحامى عنهمُ أَشرفَ الذَّبِّ
ولولا أَبو العباس ما انفكَّ دَهرُنا ... يبيتُ على عتبٍ ويَغدُو على عَتْبِ
خزيمةُ لم يُنكَرْ له مثلُ هَذِه ... إذا اضطَرَبَتْ شرْقُ البلاد مع الغرْب
أَناخَ بجِسْرَيْ دجلة القَطعَ والقنا ... شوارعُ والأرواحُ في راحةِ العضْبِ
وَأَمَّ المَنَايَا بالْمَنَايا مُخيلةً ... تَفجَّعُ عن خَطْبٍ وتضحكُ عن خطْبِ
فكانت كنارٍ مَا كَرَتهَا سَحَابَةٌ ... فأَطفأَت اللَّهَبَ المُلفَّف باللهْبِ
وما قتلُ نفسٍ فِي نفوسٍ كثيرةٍ ... إذا صارَت الدُّنيا إلى الأَمن والخصب
بلاءُ أَبي العباسِ غيرُ مكفَّر ... إذا فَزِعَ الْكَرْبُ المقيمُ إلى الكربِ[١]

فذكر عن يحيى بن سلمة الكاتب أن طاهراً غدا يوم الخميس على المدينة الشرقية وأرباضها، والكرخ وأسواقها، وهدم قنطرتي الصراة العتيقة والحديثة واشتد عندهما القتال، واشتد طاهر على أصحابه، وباشر القتال بنفسه، وقاتل من كان معه بدار الرقيق فهزمهم حتى ألحقهم بالكرخ، وقاتل طاهر بباب الكرخ وقصر الوضَّاح، فهزمهم أصحاب محمد ورُدُّوا على وجوههم، ومر طاهر لا يلوي على أحد حتى دخل قسراً بالسيف. وأمر مناديه فنادى بالأمان لمن لزم منزله، ووضع بقصر الوضَّاح وسوق الكرخ والأطراف قواداً وجنداً في كل موضع

(١) انظر المنتظم (١٠/ ٤٥).

على قدر حاجته منهم؛ وقصد إلى مدينة أبي جعفر، فأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر إلى باب خراسان وباب الشأم وباب الكوفة وباب البصرة وشاطى الصراة إلى مصبها في دجلة بالخيول والعدة والسلاح، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، فنصب المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ورمى، وخرج محمد بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرق عنه عامّة جنده وخصيانه وجواريه في السكك والطرق، لا يلوي منهم أحد على أحد، وتفرق الغوغاء والسفلة، وفي ذلك يقول عمرو الوراق[١]:

يا طاهر الظَّهر الذي ... مثالُهُ لم يُوجَدِ
يا سيّدَ بن السيدِ بـ ... ـن السَّيّد بنِ السيدِ
رجَعَتْ إلى أعمالها الأُ ... ولى غُزاةُ محمّدِ
منْ بينِ نَطَّافٍ وسوّ ... اطٍ وبَيْنَ مُقَرِّدِ
وَمُجَرِّدٍ يأْوِي إلى ... عَيَّارةٍ ومُجَرَّدِ
ومُقَيَّدٍ نَقَبَ السّجو ... ن فعادَ غيرَ مقيَّدِ
ومسوَّدٍ بالنَّهب سا ... دَ وكان غيرَ مسوَّدِ
ذَلُّوا لعِزِّك واستكا ... نوا بعدَ طُولِ تمرّدِ

وذكر عن علي بن يزيد. أنه قال: كنت يوماً عند عمرو الوراق أنا وجماعة، فجاء رجل، فحدثنا بوقعة طاهر بباب الكرخ وانهزام الناس عنه، فقال عمرو: ناولني قدحاً، وقال في ذلك:

خُذهَا فلِلخَمْرةِ أَسماءُ ... لها دواءٌ ولَهَا دَاءُ
يُصلِحها الماءُ إذا صُفِّقتْ ... يوماً وَقَدْ يُفسِدُها الماءُ
وقائلٍ كانت لهم وَقعَةٌ ... في يومِنا هذا وأَشياءُ
قلتُ له: أَنت امرؤ جاهلٌ ... فيكَ عن الخَيْرَاتِ إبطاءُ
اشْرَبْ ودَعْنَا مِن أَحاديثِهِمْ ... يَصْطَلِحُ النَّاس إذا شاءوا

قال: ودخل علينا آخر، فقال: قاتل فلان الغزاة، وأقدم فلان، وانتهب فلان، قال: فقال أيضاً:

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٤) وانظر تعليقنا (٨/ ٤٩٩).

أَيُّ دهْــرٍ نحــنُ فيــهِ مَــاتَ فِيــهِ الكُبَــراءُ
هــذهِ السِّفْلَــةُ والغَــوْ غــاءُ فينــا أُمنــاءُ
مــا لنــا شــيءٌ مــن الأَشْ يــاءِ إلاَّ مــا يشــاءُ
ضجَّــت الأَرض وقــد ضجَّـ ــت إلــى الله السَّمــاءُ
رُفِــع الــدِّيــنُ وقــدهــا نــت علــى الله الــدِّمــاءُ
يــا أَبــا مُــوســى لــك الخيـ راتُ قَــدْ حَــانَ اللِّقَــاءُ
هــاكَهــا صِــرْفــاً عُقــاراً قــد أتــاك النُّــدمــاء

وقال أيضاً عمرو الوراق في ذلك:

إذا مــا شِئــتَ أن تُغْضِــ ـبَ جنــديًّــا وتستــامِــرْ
فقــل: يــا معشــر الأَجنــا دِ قــد جــاءَكُــمُ طــاهِــرْ

* * *

قال وتحصن محمد بالمدينة هو ومن يقاتل معه، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما.

فذكر عن الحسين بن أبي سعيد أن طارقاً الخادم ـ وكان من خاصة محمد، وكان المأمون بعد مقدمه أخبره أن محمداً سأله يوماً من الأيام وهو محصور، أو قال في آخر يوم من أيامه، أن يطعمه شيئاً ـ قال: فدخلت المطبخ فلم أجد شيئاً، فجئت إلى جمرة العطارة ـ وكانت جارية الجوهر ـ فقلت لها: إن أمير المؤمنين جائع، فهل عندك شيء، فإني لم أجد في المطبخ شيئاً؟ فقالت لجارية لها يقال لها بنان: أي شيء عندك؟ فجاءت بدجاجة ورغيف، فأتيته بهما فأكل، وطلب ماء يشربه فلم يوجد في خزانة الشراب، فأمسى وقد كان عزم على لقاء هرثمة؛ فما شرب ماء حتى أتى عليه.

وذكر عن محمد بن راشد أن إبراهيم بن المهديّ أخبره أنه كان نازلاً مع محمد المخلوع في مدينة المنصور في قصره بباب الذهب، لما حصره طاهر. قال: فخرج ذات ليلة من القصر يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر القرار ـ في قرن الصراة، أسفل من قصر الخلد ـ في جوف الليل، ثم أرسل إليَّ فصرت إليه، فقال: يا إبراهيم، أما ترى طيب هذه الليلة، وحسن القمر في

السماء، وضوءه في الماء! ونحن حينئذ في شاطئ دجلة، فهل لك في الشرب! فقلت: شأنك، جعلني الله فداك! فدعا برطل نبيذ فشربه، ثم أمر فسقيت مثله. قال: فابتدأت أغنية من غير أن يسألني؛ لعلمي بسوء خلقه، فغنيت ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك؛ فدعا بجارية متقدمة عنده يقال لها ضعف، فتطيرت من اسمها؛ ونحن في تلك الحال التي هو عليها، فلما صارت بين يديه، قال: تغني، فغنت بشعر النابغة الجعدي:

كُليبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصرا ... وأَيسر ذَنباً منك ضُرِّجَ بالدَّم

قال: فاشتد ما غنت به عليه، وتطيَّر منه، وقال لها: غني غير هذا، فتغنت:

أَبكى فِراقُهُمُ عَيْني وأَرَّقها ... إنَّ التفرُّقَ للأَحباب بَكَّاءُ

ما زالَ يَعْدُو عليهمْ ريبُ دهرهِمُ ... حتى تَفَانَوْا وريْبُ الدَّهرِ عَدَّاءُ

فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء شيئاً غير هذا! قالت: يا سيدي، ما تغنيت إلا بما ظننت أنك تحبه؛ وما أردت ما تكرهه؛ وما هو إلا شيء جاءني. ثم أخذت في غناء آخر:

أَما وَرَبِّ السُّكُون والحَرَكِ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ

ما اختلفَ الليلُ والنَّهار ولا ... دارت نُجوم السّماء في الفَلكِ

إلا لنقل النَّعيم من مَلِك ... عانٍ بحُبِّ الدُّنيا إلى مَلِكِ

ومُلْكُ ذي العرشِ دائمٌ أَبداً ... ليس بفانٍ ولا بمشتَرِكِ

فقال لها: قومي غضب الله عليك! قال: فقامت وكان له قدح بلور حسن الصنعة، وكان محمد يسمية زبّ رُباح، وكان موضوعاً بين يديه فقامت الجارية منصرفة فتعثرت بالقدح فكسرته ـ قال إبراهيم: والعجب أنا لم نجلس مع هذه الجارية قط إلا رأينا ما نكره في مجلسنا ذلك ـ فقال لي: ويحك يا إبراهيم! ما ترى ما جاءت به هذه الجارية؛ ثم ما كان من أمر القدح! والله ما أظن أمري إلا وقد قرب، فقلت: يطيل الله عمرك، ويعز ملكك ويديم لك، ويكبت عدوك. فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة (قضى الأمر الذي فيه تستفتيان) فقال: يا إبراهيم، أما سمعت ما سمعت! قلت: لا والله ما سمعت شيئاً ـ وقد كنت سمعت ـ قال: تسمع حساً! قال: فدنوت من الشط فلم أر شيئاً، ثم عاودنا

الحديث، فعاد الصوت: (قضى الأمر الذي فيه تستفتيان)، فوثب من مجلسه ذلك مغتماً، ثم ركب فرجع إلى موضعه بالمدينة، فما كان بعد هذا إلا ليلة أو ليلتان حتى حدث ما حدث من قتله، وذلك يوم الأحد لست ـ أو لأربع ـ خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة[١].

وذكر عن أبي الحسن المدائني؛ قال: لما كان ليلة الجمعة لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، دخل محمد بن هارون مدينة السلام هارباً من القصر الذي كان يقال له الخلد، مما كان يصل إليه من حجارة المنجنيق وأمر بمجالسه وبسطه أن تحرق فأحرقت، ثم صار إلى المدينة؛ وذلك لأربع عشرة شهراً، منذ ثارت الحرب مع طاهر إلا اثني عشر يوماً.

* * *

[ذكر الخبر عن قتل الأمين]

وفي هذه السنة قتل محمد بن هارون[٢].

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكر عن محمد بن عيسى الجلودي أنه قال: لما صار محمد إلى المدينة، وقرَّ فيها، وعلم قواده أنه ليس لهم ولا له فيها عدة للحصار، وخافوا أن يظفر بهم؛ دخل على محمد حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي وقواده، فقالوا: قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى؛ وقد رأينا رأياً نعرضه عليك؛ فانظر فيه

(١) لقد اتهم عدد من المؤرخين الأمين باللهو واللعب والعبث كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمة الأمين إلا أن الناس قد وجدوا في هذه الأحداث مجالاً خصباً لنسج روايات حول عبث الأمين ولهوه ولو فكر العاقل أدنى تفكير لتبين له زيف هذه الروايات فكيف يستطيع الأمين أن يجلس هذه المجالس وبغداد تضرب بالمنجنيق والعرادات والمعارك والنهب والسلب والحرق والقتل على قدم وساق أما قتله يوم الأحد من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة فسيذكره الطبري لاحقاً. وهذا الخبر الطويل (٤٧٦ـ٤٧٧) أخرجه ابن عساكر مع بعض الاختلاف من طريق محمد بن راشد الخناق عن إبراهيم (تأريخ دمشق تر ٧١٠٠).

(٢) قال خليفة وفيها (أي ١٩٨هـ) قتل المخلوع ليلة الأحد لليلتين بقيتا من المحرم (تأريخ خليفة / ٣١٠) وانظر تعليقنا في نهاية الحدث (٨/ ٤٩٩).

واعتزم عليه؛ فإنا نرجو أن يكون صواباً، ويجعل الله فيه الخيرة إن شاء الله. قال: ما هو؟ قالوا: قد تفرق عنك الناس، وأحاط بك عدوك من كل جانب، وقد بقي من خيلك معك ألف فرس من خيارها وجيادها؛ فنرى أن نختار من قد عرفناه بمحبتك من الأبناء سبعمائة رجل، فنحملهم على هذه الخيل ونخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب فإن الليل لأهله؛ ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله؛ فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشأم فتفرض الفروض، وتجبى الخراج، وتصير في مملكة واسعة، وملك جديد، فيسارع إليك الناس، وينقطع عن طلبك الجنود، وإلى ذلك ما قد أحدث الله عز وجلّ في مَكَر الليل والنهار أموراً. فقال لهم: نعم ما رأيتم؛ واعتزم على ذلك.

وخرج الخبر إلى طاهر؛ فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى السنديّ بن شاهك: والله لئن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم. فدخلوا على محمد، فقالوا: قد بلغنا الذي عزمت عليه؛ فنحن نذكرك الله في نفسك! إن هؤلاء صعاليك، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار، وضاق عليهم المذهب، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها؛ ولسنا نأمن إذا برزوا بك، وحصلت في أيديهم أن يأخذوك أسيراً، ويأخذوا رأسك فيتقربوا بك، ويجعلوك سبب أمانهم؛ وضربوا له فيه الأمثال.

قال محمد بن عيسى الجلودي: وكان أبي وأصحابه قعوداً في رواق البيت الذي محمد وسليمان وأصحابه فيه. قال: فلما سمعوا كلامهم، ورأوا أنه قد قبله مخافة أن يكون الأمر على ما قالوا له؛ هموا أن يدخلوا عليهم فيقتلوا سليمان وأصحابه؛ ثم بدا لهم وقالوا: حرب من داخل، وحرب من خارج. فكفوا وأمسكوا.

قال محمد بن عيسى: فلما نكت ذلك في قلب محمد، ووقع في نفسه ما وقع منه، أضرب عما كان عزم عليه، ورجع إلى قبول ما كانوا بذلوا له من الأمان والخروج؛ فأجاب سليمان والسندي ومحمد بن عيسى إلى ما سألوه من ذلك، فقالوا؛ إنما غايتك اليوم السلامة واللهو، وأخوك يتركك حيث أحببت، ويفردك

في موضع، ويجعل لك كل ما يصلحك وكل ما تحب وتهوى؛ وليس عليك منه بأس ولا مكروه. فركن إلى ذلك، وأجابهم إلى الخروج إلى هرثمة.

قال محمد بن عيسى: وكان أبي وأصحابه يكرهون الخروج إلى هرثمة: لأنهم كانوا من أصحابه، وقد عرفوا مذاهبه، وخافوا أن يجفوهم ولا يخصهم، ولا يجعل لهم مراتب، فدخلوا على محمد فقالوا له: إذ أبيت أن تقبل منا ما أشرنا عليك ـ وهو الصواب ـ وقبلت من هؤلاء المداهنين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة. قال محمد بن عيسى: فقال لهم: ويحكم! أنا أكره طاهراً؛ وذلك أني رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء، عريض الأساس وثيق، لم أر حائطاً يشبهه في الطول والعرض والوثاقة، وعليَّ سوادي ومنطقتي وسيفي وقلنسوتي وخفي؛ وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضرب أصله حتى سقط الحائط وسقطت، وندرت قلنسوتي من رأسي، وأنا أتطير من طاهر، وأستوحش منه، وأكره الخروج إليه لذلك؛ وهرثمة مولانا وبمنزلة الوالد، وأنا به أشد أنساً وأشد ثقة.

وذكر عن محمد بن إسماعيل، عن حفص بن أرميائيل، أن محمداً لما أراد أن يعبر من الدار بالقرار إلى منزل كان في بستان موسى ـ وكان له جسر في ذلك الموضع ـ أمر أن يفرش في ذلك المجلس ويطيَّب. قال: فمكثت ليلتي أنا وأعواني نتخذ الروائح والطيب ونكثب التفاح والرمان والأترج، ونضعه في البيوت؛ فسهرت ليلتي أنا وأعواني؛ ولما صليت الصبح دفعت إلي عجوز قطعة بخور من عنبر، فيها مائة مثقال كالبطيخة، وقلت لها: إني سهرت ونعست نعاساً شديداً؛ ولا بد لي من نومة، فإذا نظرت إلى أمير المؤمنين قد أقبل على الجسر، فضعي هذا العنبر على الكانون. وأعطيتها كانوناً من فضة صغيراً عليه جمر، وأمرتها أن تنفخ حتى تحرقها كلها، ودخلت حراقة فنمت، فما شعرت إلا وبالعجوز قد جاءت فزعة حتى أيقظتني، فقالت لي: قم يا حفص؛ فقد وقعت في بلاء، قلت: وما هو؟ قالت: نظرت إلى رجل مقبل على الجسر منفرد، شبيه الجسم بجسم أمير المؤمنين، وبين يديه جماعة وخلفه جماعة؛ فلم أشك أنه هو؛ فأحرقت العنبرة، فلما جاء، فإذا هو عبد الله بن موسى، وهذا أمير المؤمنين قد

أقبل. قال: فشتمتها وعنفتها. قال: وأعطيتها أخرى مثل تلك لتحرقها بين يديه، ففعلت؛ وكان هذا من أوائل الإدبار.

وذكر علي بن يزيد، قال: لما طال الحصار على محمد، فارقه سليمان بن أبي جعفر وإبراهيم بن المهدي ومحمد بن عيسى بن نهيك، ولحقوا جميعاً بعسكر المهدي، ومكث محمد محصوراً في المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت. وناظر محمد أصحابه ومن بقي معه في طلب الأمان؛ وسألهم عن الجهة في النجاة من طاهر؛ فقال له السندي: والله يا سيدي؛ لئن ظفر بنا المأمون لعلى رغم منا وتعس جدودنا؛ وما أرى فرجاً إلا هرثمة. قال له: وكيف بهرثمة؛ وقد أحاط الموت بي من كل جانب! وأشار عليه آخرون بالخروج إلى طاهر وقالوا: لو حلفت له بما يتوثق به منك أنك مفوِّض إليه ملكك؛ فلعله كان سيركن إليك. فقال لهم: أخطأتم وجه الرأي، وأخطأت في مشاورتكم؛ هل كان عبد الله أخي لو جهد نفسه وولي الأمور برأيه بالغاً عشر ما بلغه له طاهر! وقد محصته وبحثت عن رأيه، فما رأيته يميل إلى غدر به؛ ولا طمع فيما سواه؛ ولو أجاب إلى طاعتي، وانصرف إليَّ ثم ناصبني أهل الأرض ما اهتممت بأمر؛ ولوددت أنه أجاب إلى ذلك، فمنحته خزائني وفوضت إليه أمري، ورضيت أن أعيش في كنفه؛ ولكني لا أطمع في ذلك منه. فقال له السندي: صدقت يا أمير المؤمنين؛ فبادر بنا إلى هرثمة؛ فإنه يرى ألا سبيل عليك إذا خرجت إليه من الملك؛ وقد ضمن إليَّ أنه مقاتل دونك إن همَّ عبد الله بقتلك؛ فاخرج ليلاً في ساعة قد نوِّم الناس فيها؛ فإني أرجو أن يغبى على الناس أمرنا.

وقال أبو الحسن المدائني: لما همّ محمد بالخروج إلى هرثمة، وأجابه إلى ما أراد، اشتد ذلك على طاهر، وأبى أن يرفه عنه ويدعه يخرج، وقال: هو في حيزي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أخرجته بالحصار والحرب؛ حتى صار إلى طلب الأمان؛ ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دوني؛ فيكون الفتح له.

ولما رأى هرثمة والقوّاد ذلك، اجتمعوا في منزل خزيمة بن خازم؛ فصار إليهم طاهر وخاصة قواده، وحضرهم سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندي بن شاهك، وأداروا الرأي بينهم، ودبروا الأمر، وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه إن لم يجب إلى ما سأل لم يؤمن أن يكون الأمر في

أمره مثله في أيام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان؛ فقالوا له: يخرج ببدنه إلى هرثمة ـ إذ كان يأمن به ويثق بناحيته، وكان مستوحشاً منك، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة ـ وذلك الخلافة ـ ولا تفسد هذا الأمر واغتنمه إذ يسره الله. فأجاب إلى ذلك ورضي به. ثم قيل: إن الهرش لما علم بالخبر، أراد التقرب إلى طاهر، فخبره أن الذي جرى بينهم وبينه مكر، وأن الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع محمد إلى هرثمة. فقبل طاهر ذلك منه، وظن أنه كما كتب به إليه، فاغتاظ وكمن حول قصر أم جعفر وقصور الخلد كمناء بالسلاح ومعهم العتل والفؤوس، وذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وفي الشهر السرياني خمسة وعشرون من أيلول.

فذكر الحسن بن أبي سعيد، قال: أخبرني طارق الخادم، قال: لما هم محمد بالخروج إلى هرثمة عطش قبل خروجه، فطلبت له في خزانة شرابه ماء فلم أجده. قال: وأمسى فبادر يريد هرثمة للوعد الذي كان بينه وبينه؛ ولبس ثياب الخلافة؛ دراعة وطيلساناً والقلنسوة الطويلة، وبين يديه شمعة فلما انتهينا إلى دار الحرس من باب البصرة، قال: اسقني من جباب الحرس، فناولته كوزاً من ماء، فعافه لزهوكته فلم يشرب منه؛ وصار إلى هرثمة. فوثب به طاهر، وأكمن له نفسه في الخلد؛ فلما صار إلى الحراقة؛ خرج طاهر وأصحابه فرموا الحراقة بالسهام والحجارة، فمالوا ناحية الماء، وانكفأت الحراقة؛ فغرق محمد وهرثمة ومن كان فيها، فسبح محمد حتى عبر وصار إلى بستان موسى، وظن أن غرقه إنما كان حيلة من هرثمة، فعبر دجلة حتى صار إلى قرب الصراة، وكان على المسلحة إبراهيم بن جعفر البلخي ومحمد بن حميد هو ابن أخي شكلة أم إبراهيم بن المهدي ـ وكان طاهر ولاه وكان إذا ولى رجلاً من أصحابه خراسانياً ضم إليه قوماً ـ فعرفه محمد بن حميد وهو المعروف بالطاهري؛ وكان طاهر يقدمه في الولايات، فصاح بأصحابه فنزلوا، فأخذوا، فبادر محمداً لمَّاً، فأخذ بساقيه فجذبه، وحمل على برذون، وألقى عليه إزار من أزر الجند غير مفتول، وصار به إلى منزل إبراهيم بن جعفر البلخي، وكان ينزل بباب الكوفة، وأردف رجلاً خلفه يمسكه لئلا يسقط، كما يفعل بالأسير.

فذكر عن الحسن بن أبي سعيد، أن خطَّاب بن زياد حدثه أن محمداً وهرثمة

لما غرقا، بادر طاهر إلى بستان مؤنسة، بإزاء باب الأنبار، موضع معسكره لئلا يتهم بغرق هرثمة. قال: فلما انتهى طاهر ـ ونحن معه في الموكب والحسن بن علي المأموني والحسن الكبير الخادم للرشيدـ إلى باب الشأم، لحقنا محمد بن حميد، فترجل ودنا من طاهر، فأخبره أنه قد أسر محمداً، ووجه به إلى باب الكوفة إلى منزل إبراهيم البلخي. قال: فالتفت إلينا طاهر، فأخبرنا الخبر، وقال: ما تقولون؟ فقال له المأموني: (مكن)، أي لا تفعل فعل حسين بن علي. قال: فدعا طاهر بمولى له يقال له قريش الدنداني، فأمره بقتل محمد. قال: واتبعه طاهر يريد باب الكوفة إلى الموضع.

وأما المدائني فإنه ذكر عن محمد بن عيسى الجُلودي، قال: لما تهيأ للخروج ـوكان بعد عشاء الآخرة من ليلة الأحدـ خرج إلى صحن القصر، فقعد على كرسي، وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود؛ فدخلنا عليه، فقمنا بين يديه بالأعمدة قال: فجاء كتلة الخادم، فقال: يا سيدي، أبو حاتم يقرئك السلام، ويقول: يا سيدي وافيت للميعاد لحملك، ولكني أرى ألا تخرج الليلة، فإني رأيت في دجلة على الشط أمراً قد رابني، وأخاف أن أغلب فتؤخذ من يدي أو تذهب نفسك، ولكن أقِم بمكانك حتى أرجع ثم استعد ثم آتيك القابلة فأخرجك؛ فإن حوربت حاربت دونك ومعي عدتي. قال: فقال له محمد: ارجع إليه، فقل له: لا تبرح؛ فإني خارج إليك الساعة لا محالة، ولست أقيم إلى غد. قال: وقلق وقال: قد تفرق عني الناس ومن على بابي من الموالي والحرس، ولا آمن إن أصبحت وانتهى الخبر بتفريقهم إلى طاهر أن يدخل علي فيأخذني ودعا بفرس له أدهم محذوف أغر محجل كان يسميه الزهري ثم دعا بابنيه فضمهما إليه، وشمهما وقبلهما، وقال: أستودعكما الله؛ ودمعت عيناه، وجعل يمسح دموعه بكمِّه، ثم قام فوثب على الفرس، وخرجنا بين يديه إلى باب القصر؛ حتى ركبنا دوابنا؛ وبين يديه شمعة واحدة. فلما صرنا إلى الطاقات مما يلي باب خراسان، قال لي أبي: يا محمد، أبسط يدك عليه؛ فإني أخاف أن يضربه إنسان بالسيف؛ فإن ضرب كان الضرب بك دونه. قال: فألقيت عنان فرسي بين معرفته، وبسطت يدي عليه حتى انتهينا إلى باب خراسان، فأمرنا به ففتح، ثم خرجنا إلى المشرعة، فإذا حراقة هرثمة، فرقى إليها، فجعل الفرس يتلكأ وينفر، وضربه بالسوط وحمله

عليها، حتى ركبها في دجلة، فنزل في الحراقة، وأخذنا الفرس، ورجعنا إلى المدينة، فدخلناها وأمرنا بالباب فأغلق؛ وسمعنا الواعية، فصعدنا على القبة التي على الباب؛ فوقفنا فيها نسمع الصوت.

فذكر عن أحمد بن سلام صاحب المظالم أنه قال: كنت فيمن ركب مع هرثمة من القواد في الحراقة، فلما نزلها محمد قمنا على أرجلنا إعظاماً وجثى هرثمة على ركبتيه، وقال له: يا سيدي، ما أقدر على القيام لمكان النِّقرس الذي بي، ثم احتضنه وصيره في حجره، ثم جعل يقبل يديه ورجليه وعينيه، ويقول: يا سيدي ومولاي وابن سيدي ومولاي. قال: وجعل يتصفح وجوهنا، قال: ونظر إلى عبيد الله بن الوضاح، فقال له: أيهم أنت؟ قال أنا عبيد الله بن الوضاح، قال: نعم فجزاك الله خيراً، فما أشكرني لما كان منك من أمر الثلج! ولو قد لقيت أخي أبقاه الله لم أدع أن أشكرك عنده، وسألته مكافأتك عني. قال: فبينا نحن كذلك ـ وقد أمر هرثمة بالحراقة أن تدفع ـ إذ شد علينا أصحاب طاهر في الزواريق والشذوات وعطعطوا وتعلقوا بالسكان، فبعض يقطع السكان، وبعض ينقب الحراقة، وبعض يرمي بالآجر والنشاب. قال: فنقبت الحراقة، فدخلها الماء فغرقت، وسقط هرثمة إلى الماء، فأخرجه ملاح؛ وخرج كل واحد منا على حيله؛ ورأيت محمداً حين صار إلى تلك الحال قد شق عليه ثيابه، ورمى بنفسه إلى الماء. قال: فخرجت إلى الشط: فعلقني رجل من أصحاب طاهر؛ فمضى بي إلى رجل قاعد على كرسي من حديد على شط دجلة في ظهر قصر أم جعفر، بين يديه نار توقد، فقال بالفارسية: هذا رجل خرج من الماء ممن غرق من أهل الحراقة، فقال لي: من أنت؟ قلت: من أصحاب هرثمة؛ أنا أحمد بن سلام صاحب شرطة مولى أمير المؤمنين، قال: كذبت فاصدقني، قال: قلت. قد صدقتك، قال: فما فعل المخلوع قلت: قد رأيته حين شق عليه ثيابه، وقذف بنفسه في الماء قال: قدموا دابتي؛ فقدموا دابته، فركب وأمر بي أن أجنب. قال: فجعل في عنقي حبل وجنبت؛ وأخذ في درب الرشدية، فلما انتهى إلى مسجد أسد بن المرزبان، انبهرت من العدو فلم أقدر أن أعدو، فقال الذي يجنبني: قد قام هذا الرجل؛ وليس يعدو،. قال: انزل فحزَّ رأسه، فقلت له: جعلت فداك! لم تقتلني وأنا رجل علي من الله نعمة، ولم أقدر على العدو، وأنا أفدي نفسي بعشرة آلاف

درهم. قال: فلما سمع ذكر العشرة آلاف درهم، قلت: تحبسني عندك حتى تصبح وتدفع إلي رسولاً حتى أرسله إلى وكيلي في منزلي في عسكر المهدي، فإن لم يأتك بالعشرة آلاف فاضرب عنقي. قال: قد أنصفت، فأمر بحملي، فحملت ردفا لبعض أصحابه، فمضى بي إلى دار صاحبه، دار أبي صالح الكاتب؛ فأدخلني الدار، وأمر غلمانه أن يحتفظوا بي، وتقدم إليهم، وأوعز وتفهم مني خبر محمد ووقوعه في الماء، ومضى إلى طاهر ليخبره خبره؛ فإذا هو إبراهيم البلخي. قال: فصيرني غلمانه في بيت من بيوت الدار فيه بوار ووسادتان أو ثلاث ـ وفي رواية حصر مدرَّجة ـ قال: فقعدت في البيت وصيروا فيه سراجاً، وتوثقوا من باب الدار، وقعدوا يتحدثون. قال: فلما ذهب من الليل ساعة؛ إذا نحن بحركة الخيل فدقوا الباب؟، ففتح لهم، فدخلوا وهم يقولون: (يسر زبيدة) قال: فأدخل علي رجل عريان عليه سراويل وعمامة متلثم بها، وعلى كتفيه خرقة خلقة، فصيروه معي، وتقدموا إلى من في الدار في حفظه، وخلفوا معهم قوماً آخرين أيضاً منهم.

قال: فلما استقر في البيت حسر العمامة على وجهه؛ فإذا هو محمد، فاستعبرت واسترجعت فيما بيني وبين نفسي، قال: وجعل ينظر إلي، ثم قال: أيهم أنت؟ قال: قلت: أنا مولاك يا سيدي، قال: وأي الموالي؟ قلت: أحمد بن سلام صاحب المظالم، فقال: وأعرفك بغير هذا، كنت تأتيني بالرقة؟ قال: قلت: نعم، قال: كنت تأتيني وتلطفني كثيراً، لست مولاي بل أنت أخي ومني. ثم قال: يا أحمد، قلت: لبيك يا سيدي؛ قال: ادن مني وضمني إليك، فإني أجد وحشة شديدة. قال: فضممته إليَّ، فإذا قلبه يخفق خفقا شديداً كاد أن يفرج عن صدره فيخرج. قال: فلم أزل أضمه إلي وأسكنه. قال: ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخي؟ قال: قلت: هو حي، قال: قبح الله صاحب بريدهم ما أكذبه! كان يقول: قد مات، شبه المعتذر من محاربته؛ قال: قلت: بل قبح الله وزراءك! قال: لا تقل لوزرائي إلا خيراً، فما لهم ذنب؛ ولست بأول من طلب أمراً فلم يقدر عليه. قال: ثم قال: يا أحمد، ما تراهم يصنعون بي؟ أتراهم يقتلون أو يفون لي بأيمانهم؟ قال: قلت: بل يفون لك يا سيدي. قال: وجعل يضم على نفسه الخرقة التي على كتفيه، ويضمها ويمسكها بعضده يمنة ويسرة. قال: فنزعت مبطنة كانت علي ثم قلت: يا سيدي، ألق هذه عليك. قال: ويحكَ دعني، هذا من الله عز وجل لي في هذا الموضع خير.

قال فبينا نحن كذلك، إذ دق باب الدار، ففتح، فدخل علينا رجل عليه سلاحه، فتطلع في وجهه مستثبتاً له، فلما أثبته معرفة، انصرف وغلق الباب؛ وإذا هو محمد بن حميد الطاهري، قال: فعلمت أن الرجل مقتول قال: وكان بقي علي من صلاتي الوتر، فخفت أن أقتل معه ولم أوتر، قال فقمت أوتر، فقال لي: يا أحمد لا تتباعد مني، وصل إلى جانبي، أجد وحشة شديدة. قال: فاقتربت منه؛ فلما انتصف الليل أو قارب، سمعت حركة الخيل. ودق الباب، ففتح فدخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف مسللة، فلما رآهم قام قائماً، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهبت والله نفسي في سبيل الله! أما من حيلة! أما من مغيث! أما من أحد من الأبناء قال: وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه، فأحجموا عن الدخول، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم، ويدفع بعضهم بعضاً. قال: فقمت فصرت خلف الحصر المدرجة في زاوية البيت، وقام محمد، فأخذ بيده وسادة وجعل يقول: ويحكم! إني ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون؛ وأنا أخو المأمون، الله الله في دمي! قال: فدخل عليه رجل منهم يقال له خمارويه ـ غلام لقريش الدنداني مولى طاهر ـ فضربه بالسيف ضربة وقعت على مقدم رأسه؛ وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده فصاح خمارويه: قتلني قتلني بالفارسية قال: فدخل منهم جماعة؛ فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته، وركبوه فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه فمضوا به إلى طاهر، وتركوا جثته. قال: ولما كان في وقت السحر جاءوا إلى جثته فأدرجوها في جل، وحملوها قال: فأصبحت فقيل لي: هات العشرة آلاف درهم وإلا ضربنا عنقك. قال: فبعثت إلى وكيلي فأتاني، فأمرته فأتاني بها، فدفعتها إليه. قال: وكان دخول محمد المدينة يوم الخميس وخرج إلى دجلة يوم الأحد.

وذكر عن أحمد بن سلام في هذه القصة أنه قال: قلت لمحمد لما دخل على البيت وسكن: لا جزى الله وزراءك خيراً، فإنهم أوردوك هذا المورد! فقال لي: يا أخي؛ ليس بموضع عتاب. ثم قال: أخبرني عن المأمون أخي، أحيٌّ هو؟ قلت: نعم؛ هذا القتال عمن إذاً هو إلا عنه! قال: فقال لي: أخبرني يحيى أخو عامر بن إسماعيل بن عامر ـ وكان يلي الخبر في عسكر هرثمة ـ أن المأمون مات،

فقلت له كذب. قال: ثم قلت له: هذا الإزار الذي عليك إزار غليظ فالبس إزاري وقميصي هذا فإنه لين، فقال لي: من كانت حاله مثل حالي فهذا له كثير. قال: فلقنته ذكر الله والاستغفار، فجعل يستغفر. قال: وبينا نحن كذلك، إذ هدة تكاد الأرض ترجف منها، وإذا أصحاب طاهر قد دخلو الدار وأرادوا البيت، وكان في الباب ضيق فدافعهم محمد بمجنة كانت معه في البيت؛ فما وصلوا إليه حتى عرقبوه، ثم هجموا عليه، فحزوا رأسه. واستقبلوا به طاهراً، وحملوا جثته إلى بستان مؤنسة إلى معسكره؛ إذ أقبل عبد السلام بن العلاء صاحب حرس هرثمة فأذن له - وكان عبر إليه على الجسر الذي كان بالشماسية - فقال له: أخوك يقرئك السلام، فما خبرك؟ قال: يا غلام؛ هات الطس، فجاءوا به وفيه رأس محمد، فقال: هذا خبري فاعلمه. فلما أصبح نصب رأس محمد على باب الأنبار، وخرج من أهل بغداد للنظر إليه ما لايحصى عددهم، وأقبل طاهر يقول: رأس المخلوع محمد.

وذكر محمد بن عيسى أنه رأى المخلوع على ثوبه قملة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: شيء يكون في ثياب الناس، فقال: أعوذ بالله من زوال النعمة! فقتل من يومه[(١)].

---

(١) لقد ذكر الطبري روايات عدة عن كيفية مقتل الأمين وذكر جوانب من حوار الأمين هنا أو هناك متنقلاً بين قصور بغداد وبيوتها أو في أزقة المدينة. وبدء تضييق الحصار على الأمين شيئاً فشيئاً وكثير من الحوار الذي دار في كل مرة لم يحضره إلا الأمين وشخص آخر كما يذكر الطبري والله عليم بنجواهم ولا بد من طريق موصول على الأقل للتأكيد من كل ذلك الحوار ولم يأت الطبري بجل هذه التفاصيل والأخبار إلا من طرق معضلة أو بغير إسناد (ذكر) سوى مقطعين صغيرين كما سنذكر في نهاية تعليقنا هذا إن شاء الله إذ ذكرهما عن المدائني ولحديث المدائني عن الأحداث أهمية كبرى إذ أنه إخباري صدوق عاصر تلك الأحداث. وبالنسبة لبقية أجزاء الخبر فلم نجد أحداً من المؤرخين المتقدمين الثقات من يؤيد تفاصيلها وإنما ذكروا أجزاءً من الخبر أو خلاصته مختصرة جداً وبعيداً عن هذه المبالغات والتفاصيل الدقيقة التي تذهب بذهن القاريء بعيداً عن أصل الخبر وماهية الواقعة التأريخية وإليك نصوص هؤلاء الأخباريين والمؤرخين المتقدمين.

قال ابن قتيبة الدينوري: ولم يزل الأمر على محمد مختلاً حتى لجأ إلى مدينة (أبي جعفر) وبعث إلى هرثمة: إني أخرج إليك الليلة، فلما خرج محمد صار في أيدي أصحاب طاهر فأتوا به طاهرا فقتله من ليلته فلما أصبح نصب رأسه على الباب الجديد ثم أنزله وبعث به إلى=

= خراسان مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب. ودفنت جثته في بستان مؤنسة سنة ثمان وتسعين ومائة (المعارف / ٣٨٦).

وأما أبو حنيفة الدينوري فقد ذكر فيما سبق بداية حصار طاهر وهرثمة لبغداد وأنهما نصبا المنجنيق على داره حتى ضاق الأمين بذلك ذرعاً، ثم قال أبو حنيفة الدينوري: وكان هرثمة ابن أعين يحب صلاح حال محمد، والإبقاء على حشاشة نفسه، فأرسل إليه محمد يسأله القيام بأمره، وإصلاح ما بينه وبين المأمون على أن يخلع نفسه عن الخلافة ويسلم الأمر لأخيه.

فكتب إليه هرثمة: (قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل تفاقم الأمر فأما الآن فقد بلغ السيل الزبى، وشغل الحليُ أهله أن يعار، ومع ذلك فإني مجتهد في إصلاح أمرك، فصر إليَّ ليلا، لأكتب بصورة أمرك إلى أمير المؤمنين، وآخذ لك عهداً وثيقاً ولست آلوا جهداً ولا اجتهاداً في كل ما عاد بصلاح حالك، وقربك إلى أمير المؤمنين).

فلما سمع ذلك محمد استشار نصحاءه ووزراءه، فأشاروا بذلك عليه، وطمعوا في بقاء مهجته.

فلما جنَّه الليل ركب في جماعة من خاصته وثقاته وجواريه، يريد العبور إلى هرثمة فأحس طاهر بن الحسين بالمراسلة التي جرت بينهما والموافقة التي اتفقا عليها.

فلما أقبل محمد، وركب بمن معه الماء شد عليه طاهر، فأخذه ومن معه، ثم دعا به في منزله، فاحتز رأسه، وأنفذه من ساعته إلى المأمون.

وأقبل المأمون حتى دخل مدينة السلام، وصفت له المملكة واستوسقت له الأمور.

وكان قتل محمد الأمين ليلة الأحد لخمس خلون من المحرم، سنة ثمان وتسعين ومائة، وقتل وله ثمان وعشرون سنة، وكانت ولايته أربع سنين وثمانية أشهر (الأخبار الطوال/ ٤٠٠).

وأما خليفة بن خياط فقد قال: وفيها (أي ١٩٨هـ) قتل المخلوع ليلة الأحد لليلتين بقيتا من المحرم وولي قتله قريش الدنداني ونصب رأسه طاهر بن الحسين ساعة من نهار وبعث برأسه إلى المأمون (تأريخ خليفة / ٣١٠).

وأما المقطعين الذين أشرنا إليهما في بداية تعليقنا فقد رواه الطبري من مرويات المدائني وهو أخباري صدوق عاصر هذه الأحداث المقطع الأول من قوله وقال أبو الحسن المدائني لما هم محمد بالخروج إلى هرثمة. . إلى قوله خمسة وعشرون من أيلول (٤٨١/ ٤٨٢) والمقطع الثاني من قوله في (٨/ ٤٨٣) وأما المدائني فإنه ذكر عن محمد بن عيسى الجلودي إلى قوله في (٨/ ٤٨٤).

وذكر عن الحسن بن أبي سعيد أن الجندين: جند طاهر وجند أهل بغداد، ندموا على قتل محمد لما كانوا يأخذون من الأموال.

وذكر عنه أنه ذكر أن الخزانةالتي كان فيها رأس محمد ورأس عيسى بن ماهان ورأس أبي السرايا كانت إليه. قال: فنظرت في رأس محمد؛ فإذا فيه ضربة في وجهه، وشعر رأسه ولحيته صحيح لم يتحات منه شيء، ولونه على حاله. قال: وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البردة والقضيب والمصلى ـ وهو من سعف مبطن ـ مع محمد بن الحسن بن مصعب ابن عمه، فأمر له بألف ألف درهم، فرأيت ذا الرياستين، وقد أدخل رأس محمد على ترس بيده إلى المأمون، فلما رآه سجد[1].

قال الحسن: فأخبرني ابن أبي حمزة، قال: حدثني علي بن حمزة العلوي، قال: قدم جماعة من آل أبي طالب على طاهر وهو بالبستان حين قتل محمد بن زبيدة ونحن بالحضرة، فوصلهم ووصلنا، وكتب إلى المأمون بالإذن لنا أو لبعضنا، فخرجنا إلى مرو، وانصرفنا إلى المدينة، فهنؤونا بالنعمة، ولقينا من بها من أهلها وسائر أهلها وسائر أهل المدينة، فوصفنا لهم قتل محمد، وأن طاهر بن الحسين دعا مولى يقال له قريش الدنداني، وأمره بقتله. قال: فقال لنا شيخ منهم: كيف قلت! فأخبرته، فقال الشيخ: سبحان الله! كنا نروي هذا أن قريشاً يقتله؛ فذهبنا إلى القبيلة فوافق الاسم الاسم[2].

وذكر عن محمد بن أبي الوزير أن علي بن محمد بن خالد بن برمك أخبره أن إبراهيم بن المهدي لما بلغه قتل محمد، استرجع وبكى طويلاً ثم قال:

عُوجا بِمغْنَى طلَلٍ داثِرِ ... بالخُلْدِ ذاتِ الصَّخْرِ والآجُرِ
والمرمَر المسنونِ يُطلَى به ... والبابِ بابِ الذَّهبِ النَّاضرِ
عوجا بها فاستَيقِنا عندها ... على يقينٍ قُدْرَةَ القادرِ
وأَبلِغَا عنِّي مقالاً إلى الـ ... ـمَوْلى على المأْمورِ والآمرِ

= فوقفنا فيها. نسمع الصوت) والمدائني الأخباري الصدوق عاصر تلك الأحداث والله أعلم

(١) قال الجهشياري: وذكر علي بن أبي سعيد أنه رأى رأس محمد وقد أدخله ذو الرياستين على ترس بيده إلى المأمون فلما رآه سجد (الوزراء والكتاب / ٣٠٤).

(٢) سبق أن ذكرنا قول خليفة في تأريخه (٣١٠) وولي قتله قريش الدنداني والله أعلم.

قـولا لـه: يـا بـنَ ولـيِّ الهـدَى طَهِّـر بـلادَ اللهِ مـن طـاهِـرِ
لـم يكفـه أَنْ حَـزَّ أوداجـه ذَبْـحَ الهـدَايـا بمُـدَى الجـازِرِ
حتَّـى أَتـى يَسْحَـبُ أَوصـالـه فـي شَطَـنٍ يُفنِـى مَـدَى السـائـرِ
قـد بَـرَّدَ المـوتُ علـى جَنْبِـه وطـرفُـه منكسِـرُ النـاظـر

قال: وبلغ ذلك المأمون فاشتد عليه.

وذكر عن المدائني أن طاهراً كتب إلى المأمون بالفتح:

أما بعد، فالحمد لله المتعالي ذي العزة والجلال، والملك والسلطان، الذي إذا أراد أمراً فإنمايقول له كن فيكون، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

كان فيما قدر اللهفأحكم،ودبر فأبرم، انتكاث المخلوع ببيعته، وانتقاضه بعهده، وارتكاسه في فتنته، وقضاؤه عليه القتل بما كسبت يداه وما الله بظلام للعبيد. وقد كتبت إلى أمير المؤمنين ـ أطال اللهبقاءه ـ في إحاطة جند الله بالمدينة والخلد، وأخذهم بأفواهها وطرقهاومسالكها في دجلة نواحي أزقة مدينة السلام وانتظام المسالح حواليها وحد ري السفن والزواريق بالعرادات والمقاتلة، إلى ما واجه الخلد وباب خراسان، تحفظاً بالمخلوع، وتخوفاً من أن يروغ مراغاً، ويسلك مسلكاً يَجِدْ بِهِ السبيل إلى إثارة فتنة، وإحياء ثائرة أو يهايج قتالاً بعد أن حصره الله عز وجل وخذله، ومتابعة الرسل بما يعرض عليه هرثمة بن أعين مولى أمير المؤمنين، ويسألني من تخلية الطريق له في الخروج إليه واجتماعي وهرثمة بن أعين؛ لنتناظر في ذلك، وكراهتي ما أحدث وراءه من أمره بعد إرهاق الله إياه، وقطعه رجاءه من كل حيلة ومتعلق،وانقطاع المنافع عنه، وحيل بينه وبين الماء؛ فضلا عن غيره؛ حتى همّ به خدمه وأشياعه من أهل المدينة ومن نجا معه إليها، وتحزَّبوا على الوثوب به للدفع عن أنفسهم والنجاة بها، وغير ذلك مما فسرت لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أرجو أن يكون قد أتاه.

وإني أخبر أمير المؤمنين أني روّيت فيما دبر هرثمة بن أعين مولى أمير المؤمنين في المخلوع، وما عرض عليه وأجابه إليه، فوجدت الفتنة في تخلُّصه من موضعه الذي قد أنزله الله فيه بالذلة والصغار وصيره فيه إلى الضيق والحصار تزداد، ولا يزيد أهل التربص في الأطراف إلا طمعاً وانتشاراً،وأعلمت ذلك هرثمة بن أعين، وكراهتي ما أطمعه فيه وأجابه إليه؛ فذكر أنه لا يرى الرجوع عما

أعطاه، فصادرته ـ بعد يأس من انصرافه ـ عن رأيه، على أن يقدم المخلوع رداء رسول الله ﷺ وسيفه وقضيبه قبل خروجه؛ ثم أخلي له طريق الخروج إليه؛ كراهة أن يكون بيني وبينه اختلاف نصير منه إلى أمر يطمع الأعداء فينا، أو فراق القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك، وعلى أن نجتمع لميعادنا عشية السبت.

فتوجهت في خاصة ثقاتي الذين اعتمدت عليهم، وأثق بهم، بربط الجأش، وصدق البأس، وصحة المناصحة؛ حتى طالعت جميع أمر كل من كنت وكّلت بالمدينة والخلد براً وبحراً، والتقدمة إليهم في التحفظ والتيقظ والحراسة والحذر، ثم انكفأت إلى باب خراسان، وكنت أعددت حراقات وسفناً؛ سوى العدة التي كانت لأركبها بنفسي لوقت ميعادي بيني وبين هرثمة، فنزلتها في عدة ممن كان ركب معي من خاصة ثقاتي وشاكريتي، وصيرت عدة منهم فرساناً ورجالة بين باب خراسان والمشرعة وعلى الشط.

وأقبل هرثمة بن أعين حتى صار بقرب باب خراسان معدّاً مستعدّاً؛ وقد خاتلني بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرج إليه إذا وافى المشرعة، ليحمله قبل أن أعلم، أو يبعث إليّ بالرداء والسيف والقضيب؛ على ما كان فارقني عليه من ذلك. فلما وافى خروج المخلوع على من وكلت بباب خراسان، نهضوا عند طلوعه عليهم ليعرفوا الطابع لأمري كان أتاهم، وتقدمي إليهم ألا يدعو أحداً يجوزهم إلا بأمري. فبادرهم نحو المشرعة، وقرب هرثمة إليه الحراقة، فسبق الناكث أصحابي إليها، وتأخر كوثر، فظفر به قريش مولاي، ومعه الرداء والقضيب والسيف، فأخذه وما معه، فنفر أصحاب المخلوع عند ما رأوا من إرادة أصحابي منع مخلوعهم من الخروج، فبادر بعضهم حراقة هرثمة، فتكفأت بهم حتى أغرقت في الماء ورسبت، فانصرف بعضهم إلى المدينة، ورمى المخلوع عند ذلك بنفسه من الحراقة في دجلة متخلِّصاً إلى الشط، نادماً على ما كان من خروجه، ناقضاً للعهد، داعياً بشعاره، فابتدره عدة من أوليائي الذين كنت وكلتهم بما بين مشرعة باب خراسان وركن الصراة، فأخذوه عنوة قهراً بلا عهد ولا عقد؛ فدعا بشعاره، وعاد في نكثه، فعرض عليهم مائة حبة، ذكر أن قيمة كل حبة مائة ألف درهم، فأبوا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله، وصيانة لدينهم، وإيثاراً للحق

الواجب عليهم، فتعلقوا به، قد أسلمه الله وأفرده؛ كلٌّ يرغبه، ويريد أن يفوز بالحظوة عندي دون صاحبه؛ حتى اضطربوا فيما بينهم، وتناولوه بأسيافهم منازعة فيه، وتشاحّا عليه، إلى أن أتيح له مغيظ لله ودينه ورسوله وخليفته، فأتى عليه وأتاني الخبر بذلك فأمرت بحمل رأسه إلي، فلما أتيت به تقدمت إلى من كنت وكلت بالمدينة والخلد وما حواليها وسائر من في المسالح، في لزوم مواضعهم، والاحتفاظ بما يليهم، إلى أن يأتيهم أمري. ثم انصرفت فأعظم الله لأمير المؤمنين الصنع والفتح عليه وعلى الإسلام به وفيه.

فلما أصبحت هاج الناس واختلفوا في المخلوع، فمصدق بقتله، ومكذب وشاك وموقن، فرأيت أن أطرح عنهم الشبهة في أمره، فمضيت برأسه، لينظروا إليه فيصح بعينهم، وينقطع بذلك بعل قلوبهم، ودخل التياث المستشرفين للفساد والمستوفزين للفتنة، وغدوت نحو المدينة فاستسلم من فيها، وأعطى أهلها الطاعة، واستقام لأمير المؤمنين شرقي ما يلي مدينة السلام وغربيه وأرباعه وأرباضه ونواحيه، وقد وضعت الحرب أوزارها وتلافى بالسلام والإسلام أهله؛ وبعد الله الدغل عنهم، وأصارهم ببركة أمير المؤمنين إلى الأمن والسكون والدعة والاستقامة والاغتباط؛ والصنع من الله جل وعز والخيرة، والحمد لله على ذلك.

فكتبت إلى أمير المؤمنين حفظه الله، وليس قبلي داع إلى فتنة؛ ولا متحرك ولا ساع في فساد، ولا أحد إلا سامع مطيع باخع حاضر؛ قد أذاقه الله حلاوة أمير المؤمنين ودعة ولايته؛ فهو يتقلب في ظلها، يغدو في متجره ويروح في معايشه؛ والله ولي ما صنع من ذلك، والمتمم له، والمانّ بالزيادة فيه برحمته.

وأنا أسأل الله أن تهنئ أمير المؤمنين نعمته، ويتابع له فيها مزيده ويوزعه عليها شكره؛ وأن يجعل منته لديه متوالية دائماً متواصلة؛ حتى يجمع الله له خير الدنيا والآخرة، ولأوليائه وأنصار حقه ولجماعة المسلمين ببركته وبركة ولايته ويمن خلافته، إنه وليّ ذلك منهم وفيّه، إنه سميع لطيف لما يشاء.

وكتب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة.

وذكر عن محمد المخلوع أنه قبل مقتله، وبعد ما صار في المدينة، ورأى الأمر قد تولى عنه، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر، قعد في الجناح الذي كان عمله على باب الذهب ـ وكان تقدم في بنائه قبل ذلك ـ وأمر بإحضار كل من كان

معه في المدينة من القواد والجند، فجمعوا في الرحبة، فأشرف عليهم، وقال:

الحمد لله الذي يرفع ويضع، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط؛ وإليه المصير. أحمده على نوائب الزمان، وخذلان الأعوان، وتشتت الرجال، وذهاب الأموال، وحلول النوائب، وتوفد المصائب؛ حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء، ويرفدني أحسن العزاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه، وشهدت له ملائكته، وأن محمداً عبده الأمين، ورسوله إلى المسلمين، ﷺ، آمين رب العالمين.

أما بعد يا معشر الأبناء، وأهل السبق إلى الهدى، فقد علمتم غفلتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزير عليَّ ومشير، فمادت به الأيام بما لزمني به من الندامة في الخاصة والعامة، إلى أن نبهتموني فانتبهت، واستعنتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم، فبذلت لكم ما حواه ملكي، ونالته مقدرتي، مما جمعته وورثته عن آبائي، فقوَّدت من لم يجز، واستكفيت من لم يكف، واجتهدت ـ علم الله ـ في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم ـ علم الله ـ في مساءتي في كل ما قدرتم عليه؛ من ذلك توجيهي إليكم علي بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم فكان منكم ما يطول ذكره؛ فغفرت الذنب، وأحسنت واحتلمت، وعزيت نفسي عند معرفتي بشرود الظفر، وحرصي على مقامكم مسلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم، ومن على يدي أبيه كان فخركم، وبه تمت طاعتكم: عبد الله بن حميد بن قحطبة، فصرتم من التألب عليه إلى ما لا طاقة له به، ولا صبر عليه. يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً، إليَّ عامدين وعلى سيدكم متوثبين مع سعيد الفرد، سامعين له مطيعين. ثم وثبتم مع الحسين عليّ، فخلعتموني وشتمتموني، وانتهبتموني وحبستموني، وقيدتموني؛ وأشياء منعتموني من ذكرها؛ حقد قلوبكم وتلكؤ طاعتكم أكبر وأكثر. فالحمد لله حمد من أسلم لأمره، ورضى بقدره؛ والسلام.

وقيل: لما قتل محمد، وارتفعت الثائرة، وأعطى الأمان الأبيض والأسود، وهدأ الناس، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة، فصلى بالناس، وخطبهم خطبة بليغة، نزع فيها من قوارع القرآن؛ فكان مما حفظ من ذلك أن قال:

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

في آي من القرآن أتبع بعضهابعضاً، وحض على الطاعة ولزوم الجماعة ورغبهم في التمسك بحبل الطاعة. وانصرف إلى معسكره.

وذكر أنه لما صعد المنبر يوم الجمعة، وحضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة، قال:

الحمد لله مالك الملك، يؤتيه من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين؛ إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا، بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عماداً لدينه وقواماً لعباده، وضبط الأطراف وسد الثغور، وإعداد العدة، وجمع الفيء، وإنفاذ الحكم، ونشر العدل، وإحياء السنة، بعد إذبال البطالات، والتلذذ بموبق الشهوات. والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها، محتلب درة نعمتها، ألف لزهرة روضتها كلف برونق بهجتها. وقد رأيتم من وفاء موعود الله عز وجل لمن بغي عليه، وما أحل به من بأسه ونقمته، لمّا نكب عن عهده، وارتكب معصيته، وخالف أمره، وغيره ناهيه، وعظته مردية، فتمسكوا بوثائق عصم الطاعة، واسلكوا مناحي سبيل الجماعة، واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية، الذين قدحوا زناد الفتنة، وصدعوا شعب الألفة، فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة[١].

* * *

ولما فتح طاهر بغداد كتب إلى أبي إسحاق المعتصم ـ وقد ذكر بعضهم أنه إنما كتب بذلك إلى إبراهيم بن المهدي، وقال الناس: كتبه إلى أبي إسحاق المعتصم: أما بعد، فإنه عزيز علي أن أكتب إلى رجل من أهل بيت الخلافة بغير التأمير، ولكنه بلغني أنك تميل بالرأي وتصغي بالهوى؛ إلى الناكث المخلوع،

(١) هذه الرسائل المتبادلة انفرد الطبري بذكر تفاصيلها كعادته ولم يذكر غيره إلا نتفاً أو أشار إلى بعض فحواه والله أعلم.

وإن كان كذلك فكثير ما كتبت به إليك، وإن كان غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات:

رُكوبكَ الأَمرَ ما لم تُبْلَ فرْصتُهُ جهلٌ وَرَأيُكَ بالتَّغريرِ تَغريرُ
أَقبحْ بِدُنيَا ينالُ المُخطئونَ بها حَظَّ المُصِيبينَ والمَغْرورُ مغْرورُ

* * *

[وثوب الجند بطاهر بن الحسين بعد مقتل الأمين]

وفي هذه السنة وثب الجند بعد مقتل محمد بطاهر، فهرب منهم وتغيب أياماً حتى أصلح أمرهم.

ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به وإلى ما آل أمره وأمرهم:

ذكر عن سعيد بن حميد؛ أنه ذكر أن أباه حدثه؛ أن أصحاب طاهر بعد مقتل محمد بخمسة أيام، وثبوا به؛ ولم يكن في يديه مال، فضاق به أمره، وظن أن ذلك عن مواطأة من أهل الأرباض إياهم، وأنهم معهم عليه، ولم يكن تحرك في ذلك من أهل الأرباض أحد، فاشتدت شوكة أصحابه وخشي على نفسه، فهرب من البستان، وانتهبوا بعض متاعه، ومضى إلى عقرقوف. وكان قد أمر بحفظ أبواب المدينة وباب القصر على أم جعفر، وموسى وعبد الله ابني محمد، ثم أمر بتحويل زبيدة وموسى وعبد الله ابني محمد معها من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد، فحوَّلوا ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، ثم مضى بهم من ليلتهم حراقة إلى همينيا على الغربي من الزاب الأعلى، ثم أمر بحمل موسى وعبد الله إلى عمهما بخراسان على طريق الأهواز وفارس.

قال: ولما وثب الجند بطاهر، وطلبوا الأرزاق، أحرقوا باب الأنبار الذي على الخندق وباب البستان، وشهروا السلاح، وكانوا كذلك يومهم ومن الغد، ونادوا موسى: يا منصور. وصوب الناس إخراج طاهر وموسى وعبد الله؛ وقد كان طاهر انحاز ومن معه من القوّاد، وتعبأ لقتالهم ومحاربتهم، فلما بلغ ذلك القوّاد والوجوه صاروا إليه واعتذروا، وأحالوا على السفهاء والأحداث، وسألوه الصفح عنهم وقبول عذرهم والرضا عنهم، وضمنوا له ألا يعودوا لمكروه له ما أقام معهم. فقال لهم طاهر: والله ما خرجت عنكم إلا لوضع سيفي فيكم، وأقسم بالله

لئن عدتم لمثلها لأعودن إلى رأيي فيكم، ولأخرجن إلى مكروهكم؛ فكسرهم بذلك، وأمر لهم برزق أربعة أشهر؛ فقال في ذلك بعض الأبناء:

آلَى الأميرُ - وقولُه وَفِعَالُهُ حَقٌّ بجَمْعِ معَاشِرِ الزُّعَّارِ
إن هاج هَائِجُهُمْ وشَغَّبَ شَاغِبٌ من كلِّ ناحيةٍ من الأقطارِ
أَلاَّ يناظِرَ مَعْشَراً من جمْعِهِمْ إمهالَ ذي عَدْلٍ وذِي إنظارِ
حتى يُنيخَ عليهمُ بعَظيمَةٍ تدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ الآثار

فذكر عن المدائني أن الجند لما شغبوا، وانحاز طاهر، ركب إليه سعيد بن مالك بن قادم ومحمد بن خالد وهبيرة بن خازم؛ في مشيخة من أهل الأرباض، فحلفوا بالمغلظة من الأيمان، أنه لم يتحرك في هذه الأيام أحدٌ من أبناء الأرباض ولا كان ذلك عن رأيهم ولا أرادوه، وضمن له صلاح نواحيهم من الأرباض، وقيام كل إنسان منهم في ناحيته بكل ما يجب عليه؛ حتى لا يأتيه من ناحيته أمر يكرهه. وأتاه عميرة - أبو شيخ بن عميرة الأسدي - وعليّ بن يزيد؛ في مشيخة من الأبناء، فلقوه بمثل ما لقيه به ابن أبي خالد وسعيد بن مالك وهبيرة، وأعلموه حسن رأي من خلفهم من الأبناء ولين طاعتهم له، وأنهم لم يدخلوا في شيء مما صنع أصحابه في البستان. فطابت نفسه إلا أنه قال لهم: إن القوم يطلبون أرزاقهم، وليس عندي مال. فضمن لهم سعيد بن مالك عشرين ألف دينار، وحملها إليه، فطابت بها نفسه، وانصرف إلى معسكره بالبستان. وقال طاهر لسعيد: إني أقبلها منك على أن تكون عليَّ ديناً، فقال له: بل هي إنما صلة وقليل لغلامك وفيما أوجب الله من حقك فقبلها منه، وأمر للجند برزق أربعة أشهر، فرضوا وسكنوا.

قال المدائني: وكان مع محمد رجل يقال له السمرقندي، وكان يرمي عن مجانيق كانت في سفن من باطن دجلة؛ وربما كان يشتد أمر أهل الأرباض على من بإزائهم من أصحاب محمد في الخنادق، فكان يبعث إليه، فيجيء به فيرميهم - وكان رامياً لم يكن حجره يخطئ - ولم يقتل الناس يومئذ بالحجارة كما قيل، فلما قتل محمد قطع الجسر، وأحرقت المجانيق التي كانت في دجلة يرمى عنها، فأشفق على نفسه، وتخوف من بعض من وتره أن يطلبه، فاستخفى، وطلبه الناس، فتكارى بغلاً، وخرج إلى ناحية خراسان هارباً، فمضى حتى إذا كان في

بعض الطريق استقبله رجل فعرفه؛ فلما جازه قال الرجل للمكاري: ويحك! أين تذهب مع هذا الرجل! والله لئن ظفر بك معه لتقتلن، وأهون ما هو مصيبك أن تحبس، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قد والله عرفت اسمه، وسمعت به قتله الله! فانطلق المكاري إلى أصحابه ـ أو مسلحة انتهى إليها ـ فأخبرهم خبره، وكانوا من أصحاب كندغوش من أصحاب هرثمة فأخذوه وبعثوا به إلى هرثمة، وبعث به هرثمة إلى خزيمة بن خازم بمدينة السلام، فدفعه خزيمة إلى بعض من وتره فأخرجه إلى شاطى دجلة من الجانب الشرقي فصلب حياً، فذكروا أنه لما أرادوا شده على خشبته، اجتمع خلق كثير، فجعل يقول قبل أن يشدوه: أنتم بالأمس تقولون: لا قطع الله يا سمرقندي يدك، واليوم قد هيأتم حجارتكم ونشابكم لترموني! فلما رفعت الخشبة أقبل الناس عليه رمياً بالحجارة والنشاب وطعناً بالرماح حتى قتلوه، وجعلوه يرمونه بعد موته، ثم أحرقوه من غد، وجاءوا بنار ليحرقوه بها، وأشعلوها فلم تشتعل، وألقوا عليه قصباً وحطباً، فأشعلوها فيه، فاحترق بعضه، وتمزقت الكلاب بعضه؛ وذلك يوم السبت لليلتين خلتا من صفر.

* * *

ذكر الخبر عن صفة محمد ابن هارون وكنيته وقدر ما ولي ومبلغ عمره

قال هشام بن محمد وغيره: ولي محمد بن هارون وهو أبو موسى يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقتل ليلة الأحد لست بقين من صفر سنة سبع وتسعين ومائة. وأمه زبيدة ابنة جعفر الأكبر بن أبي جعفر؛ فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام. وقد قيل: كانت كنيته أبا عبد الله[1].

وأما محمد بن موسى الخوارزمي فإنه ذكر عنه أنه قال: أتت الخلافة محمد بن

(١) هذه رواية في مدة خلافته ووقت وفاته ذكرها الطبري ثم ذكر بعدها رواية عن محمد بن موسى الخوارزمي أكثر تفصيلاً من هذا وانظر تعليقنا التالي.

هارون للنصف من جمادى الأخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وحج بالناس في هذه السنة التي ولي فيها داود بن عيسى بن موسى، وهو على مكة وأبو البختري على ولايته، وبعد ولايته بعشرة أشهر وخمسة أيام وجَّه عصمة ابن أبي عصمة إلى ساوة، وعقد ولايته لابنه موسى بولاية العهد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول؛ وكان على شُرَطِه علي بن عيسى بن ماهان.

وحج بالناس سنة أربع وتسعين ومائة علي بن الرشيد،وعلى المدينة إسماعيل بن العباس بن محمد، وعلى مكة داود بن عيسى، وكان بين أن عقد لابنه إلى التقاء علي بن عيسى بن ماهان وطاهر بن الحسين وقتل علي بن عيسى ابن ماهان سنة خمس وتسعين ومائة سنة وثلاثة أشهر وتسعة وعشرون يوماً. قال: وقتل المخلوع ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم، قال: فكانت ولايته مع الفتنة أربع سنين وسبعة أشهر وثلاثة أيام.

ولما قتل محمد ووصل خبره إلى المأمون في خريطة من طاهر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة أظهر المأمون الخبر، وأذن للقواد فدخلوا عليه. وقام الفضل بن سهل فقرأ الكتاب بالخبر، فَهُنِّئَ بالظفر، ودعوا الله له. وورد الكتاب من المأمون بعد قتل محمد على طاهر وهرثمة بخلع القاسم بن هارون، فأظهرا ذلك، ووجها كتبهما به، وقرى الكتاب بخلعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائة، وكان عمر محمد كله ـ فيما بلغني ـ ثمانياً وعشرين سنة[١].

---

(١) كعادتنا في تحقيقنا لروايات الطبري فإننا نقارنها في هذه المسائل بما كتب خليفة بن خياط وهو مؤرخ متقدم ثقة محايد كتب التأريخ على النظام الحولي وسبق الطبري في ذلك وإذا كان الطبري قد فاق على خليفة بذكر التفاصيل والدقائق فإن خليفة قد فاق عليه بتجنب المبالغات والزيادات والروايات الموضوعة والأخبار الكاذبة.

قال خليفة: ولد المخلوع ببغداد سنة سبعين ومائة وقتل ببغداد في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وهو ابن ثمان وعشرين وكانت ولايته إلى أن خلع ودعي بالخلافة للمأمون بخراسان وخلع بالعراق والحجاز بعد ذلك سنتين فكانت ولايته إلى أن قتل أربع سنين وثمانية أشهر واستقامت لأمير المؤمنين عبد الله المأمون (تأريخ خليفة / ٣١٠).

وأخرج الحافظ ابن عساكر بسنده المتصل عن إسماعيل بن علي الحظي. . فكانت خلافة محمد الأمين منذ ورد الخبر عليه وهو ببغداد بوفاة هارون الرشيد، وسلم عليه بالخلافة إلى=

وكان سبطاً أنزع أبيض صغير العينين أقنى، جميلاً، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين. وكان مولده بالرصافة.

* * *

وذكر أن طاهراً قال حين قتله:

قَتَلتُ الخليفةَ في دارهِ وأَنهبْتُ بالسَّيْف أَموالَهُ

وقال أيضاً:

= يوم قتل ببغداد على يدي طاهر بن الحسين أربع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً، ومنذ يوم توفي الرشيد إلى يوم وصل الخبر إلى الأمين اثنا عشر يوماً، فصفا الأمر لمحمد الأمين سنتين وأشهراً، وكانت الفتنة والحرب بينه وبين المأمون سنتين وخمسة أشهر أول ذلك عند تسيير محمد الجيوش مع علي بن عيسى بن ماهان من بغداد إلى خراسان لحرب المأمون عند فساد الأمر بينه وبينه، وخلعه إياه من العهد الذي كان له بعد وتوجيه المأمون بطاهر بن الحسين في الجيش لتلقي علي بن عيسى ومحاربته فوصل علي بن عيسى بمن معه من الجيش إلى الري، ووافاه طاهر بن الحسين بمن معه فالتقوا بأكناف الري، فقتل علي بن عيسى وانفض عسكره ذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شوال سنة خمس وتسعين ومائة، فقوي أمر المأمون عند ذلك بخراسان وسلم عليه بالخلافة، وضعف أمر محمد ولم يزل في سفال وإدبار، وجيوش المأمون تدق أصحابه في البلاد وتنفيهم عنها، وتغلّب المأمون عليها، ويدعى له بها إلى أنصار طاهر بن الحسين صاحب جيش المأمون وهرثمة بن أعين إلى مدينة السلام، فحصرا محمداً فكان طاهر من الجانب الغربي، وهرثمة من الجانب الشرقي إلى أن قتل محمد ببغداد على يدي هرثمة ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان بين ورود طاهر إلى أكناف بغداد وشغب أهل الحربية على محمد وإدخالهم طاهر إلى بغداد وإحاطته بمحمد وحصره إياه في مدينة أبي جعفر إلى يوم قتله أربعة عشر شهراً وسبعة عشر يوماً تأريخ [دمشق / تر ٧١٠٠].

وانظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٤) فقد قال قتل (أي الأمين) ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم يعني سنة ثمان وتسعين ومائة وقال أيضاً وكانت ولايته أربع سبعين وسبعة أشهر وثمانية أيام.

وأخرج ابن عساكر بسنده المتصل إلى أبي حفص الفلاس قال: (.. فملك محمد أربع سنين وسبعة أشهر وعشرين ليلة ثم قتله طاهر ببغداد ليلة الأحد لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة (تأريخ دمشق/ تر ٧١٠٠).

مَلَكتُ النَّاسَ قَسْراً واقتدارَا وَقتَّلتُ الجبابرةَ الكِبَارا
ووجَّهتُ الخلافة نحو مَروٍ إلى المأْمون تَبْتَدِرُ ابتدارَا

* * *

ذكر ما قيل في محمد بن هارون ومرثيته

فما قيل في هجائه:

لِمْ نُبكِّيك لِماذا؟ للطَّربْ! يا أبا موسى وَتَرْوِيج اللَّعِبْ
وَلِتَرْكِ الخمْسِ في أوقاتِهَا حَرَصاً مِنكَ على ماءِ العِنَبْ
وَشَنيفٍ أنَا لا أَبكي لَهُ وعَلى كوثرَ لا أَخشى الْعَطَبْ
لَمْ تَكُنْ تَعرفُ ما حدّ الرِّضا لا ولا تَعْرفُ ما حَدُّ الغَضَبْ
لم تكن تَصلُحُ للمُلكِ ولَمْ تُعطكَ الطاعةَ بالمُلك الْعَرَبْ
أيُّها الباكِي عَلَيْهِ لا بكتْ عينُ مَنْ أَبكاكَ إلاَّ لِلعَجبْ
لِمْ نُبكِّيكَ لِما عَرَّضتَنا للمجانيق وَطَوْراً للسَّلَبْ
ولقومٍ صَيَّرونَا أَعبُداً لهمُ يَنزُو على الرأس الذَّنَب
فِي عذابٍ وحصارٍ مُجهدٍ سَدَّد الطُّرقَ فَلاَ وَجْهَ طَلَبْ
زَعمُوا أَنَّكَ حيٌّ حاشِرٌ كُلُّ مَنْ قَالَ بهذَا قَدْ كَذَبْ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ في وَحْدَةٍ مِنْ جميعٍ ذاهبٌ حيثُ ذَهَبْ
أَوجَبَ اللهُ عَلَيْنَا قَتلَهُ فإذا ما أَوْجَبَ الأَمرَ وَجَبْ
كانَ واللهعَلينا فتنةً غَضِبَ الله عَلَيْهِ وَكَتَبْ

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد، ويهجو طاهراً ويعرض به:

مَنْ ذا أصابكِ يا بَغدادُ بالعينِ أَلَمْ تكُوني زَماناً قرّة العينِ!
ألم يكن فِيكِ أقوامٌ لهم شرف بالصالحات وبالمعروف يلقوني
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهمْ وكان قربهُمُ زيناً من الزَّيْنِ
صاحَ الزمانُ بهمْ بالبيْن فانقرضُوا ماذَا الَّذِي فَجعَتْني لوعةُ الْبَينِ
أَستوْدِعُ اللهَ قوماً ما ذكرتهُمُ إلا تحَدَّرَ ماءُ العيْن مِنْ عَيْنِي
كانُوا ففرَّقَهم دهرٌ وصدَّعهمْ والدَّهرُ يصدعُ ما بينَ الفريقينِ
كم كانَ لِي مسعدٌ منهم على زمني كمْ كان منهم على المعَروف من عونِ

لله درُّ زمــانٍ كـــان يجمعنُــــا أينَ الزمانُ الَّذي ولَّى ومِنْ أينِ!
يـا مَـنْ يُخَـرّبُ بغـداداً ليعْمـرَهـا أهلكـتَ نفسـكَ مـا بيـن الطـريقيْـن
كـانـت قلـوبُ جميـعِ النـاس واحِـدَةً عيْناً، وليس لكون العيْن كالدَّينِ
لمَّـا أَشَتَّهُـمُ فـرَّقَتهُـمُ فـرقـاً والنَّـاس طُـراً جميعـاً بيـنَ قلبيْـن

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه، أن لبانة ابنة علي ابن المهدي قالت:

أَبكيــكَ لا للنَّعيــم والأنْــس بـلِ للمعَـالـي والـرُّمـح والتُّـرس
أبكِـي علـى هـالـكٍ فجعْـتُ بـهِ أَرْملَنــي قبــلَ ليْلــة العُــرس

وقد قيل إن هذا الشعر لابنة عيسى بن جعفر، وكانت مملكة بمحمد.

وقال الحسين بن الضحاك الأشقر، مولى باهلة، يرثي محمداً، وكان من ندمائه، وكان لا يصدق بقتله، ويطمع في رجوعه:

يــا خيــرَ أسـرتِـهِ وإنْ زعمُـوا إنِّــي عليْــكَ لمُثْبَــتٌ أسِــفُ
اللهُ يعلــمُ أنَّ لــي كبــداً حَــرَّى عليــك ومُقلَــةً تكِــفُ
ولئــنْ شَجِيـتُ بمـا رُزئْـتُ بـه إنِّـي لأضمِـرُ فـوق مـا أصِـفُ
هــلاَّ بَقيــتَ لسَــدِّ فـاقتنـا أبـداً، وكــان لغيــركَ التلَــفُ!
فلقــد خلَفْــتَ خـلائفـاً سلَفُـوا ولَســوفَ يُعْـوزُ بعَـدكَ الخلَـفُ
لا بــاتَ رهطُــكَ بَعــدَ هفـوتِهـمْ إنِّـي لِــرهطـكَ بعـدهـا شَنِـفُ
هَتكــوا بِحُــرمتــكَ التــي هُتكـتْ حـرمَ الـرَّسـولِ ودونَهـا السُّجـفُ
وثبــتْ أقــاربـكَ التـي خـذلَـت وجميعهــا بــالــذُّلِّ معتــرفُ
لــم يفعلــوا بـالشَّـطِّ إذ حضـرُوا مــا تفعــلُ الغيــرانــةُ الأنــفُ
تــرَكــوا حَــريــمَ أبيهــمُ نفـلاً والمحصنــاتُ صــوارخٌ هتــفُ
أبــدتْ مُخلخلهــا علــى دَهــش أبكــارهــنَّ وَرنَّــتِ النَّصــفُ
سلبــتْ معــاجــرهــنَّ واجتليـتْ ذاتُ النقــابِ ونــوزعَ الشَّنــفُ
فكــأنهــنَّ خــلالَ منتهــبٍ درٌّ تكشَّــفَ دونــهُ الصــدفُ
ملــكٌ تخــوَّنَ ملكــهُ قــدرٌ فـوهَـى وصـرفُ الـدَّهـر مختلـفُ
هيهــاتَ بعــدَك أن يــدُومَ لنــا عــزٌّ وأن يَبقــى لنــا شــرفُ
لا هيَّبُــوا صُحُفــاً مُشــرَّفــةً للغــادريــنَ وتحتْهــا الجـدَفُ

أفبعـــدَ عهـــدِ اللهِ تقتلـــهُ والقتـــلُ بعـــد أمـــانِـهِ سـرفُ
فَسَتَعْـــرِفـــون غـــداً بعـــاقبـــةٍ عـــزَّ الإلـــه فـــأَوردوا وَقِفُـــوا
يـــا مـــن يخـــون نـــومـــه أرق هـــدت الشجـــون وقلبـــه لهـــف
قـــد كنـــتَ لـــي أمـــلاً غنِيـــتُ بـــه فمضَـــى وحـــلّ محلّـــهُ الأَسَـــفُ
مـــرِجَ النظـــامُ وعـــادَ منكَـــرُنـــا عُـــرْفـــاً وأنكِـــر بَعـــدَكَ العُـــرُفُ
فـــالشمـــلُ مُنتشـــرٌ لفَقـــدكَ والـــدّ نْيـــا سُـــدًى والبـــالُ مُنكسِـــفُ

وقال أيضاً يرثيه:

إذا ذُكِـــرَ الأميـــنُ نعَـــى الأمينـــا وإن رقَـــدَ الخلِـــيُّ حمَـــى الجُفـــونَـــا
ومـــا بـــرحـــت منـــازلُ بيـــن بُصـــرَى وكلـــواذى تهيّـــجُ لـــي شُجُـــونَـــا
عـــراصُ المُلـــك خـــاويـــةٌ تهـــادَى بهـــا الأَرواحُ تَنسُجُهـــا فُنُـــونـــا
تخـــوَّن عـــزَّ ســـاكِنِهـــا زمـــانٌ تلَعَّـــبَ بـــالقُـــرونِ الأوَّلينَـــا
فشتَّـــتَ شَمْلَهُـــمْ بعـــدَ اجتمـــاعٍ وكُنـــتُ بِحُسْـــنِ ألفتِهِـــمْ ضَنينـــا
فلـــم أَرَ بعـــدَهـــمْ حُسْنـــاً ســـواهُـــمْ ولـــمْ تَـــرَهُـــمْ عُيُـــونُ النَّـــاظِـــرينَـــا
فَـــوَ أسفـــا وإن شَمَـــتَ الأعـــادِي وآهِ عَلَـــى أميـــر المُـــؤمنينـــا
أضـــلَّ العُـــرْفَ بعـــدَكَ مُتبِعُـــوهُ وَرُفِّـــهَ عَـــنْ مَطَـــايَـــا الـــرَّاغِبينَـــا
وكـــنَّ إلـــى جَنـــابِـــكَ كـــلَّ يـــومٍ يَـــرُحْـــنَ علـــى السُّعـــودِ ويغتَـــدِينـــا
هُـــوَ الجبَـــلُ الَّـــذي هَـــوَتِ المعـــالـــي لِهَـــدَّتِـــه وَرِيـــعَ الصَّـــالحُـــونَـــا
ستنـــدُبُ بعـــدَكَ الـــدنيـــا جـــواراً وتنـــدُبُ بعْـــدكَ الـــديـــنَ المصُـــونَـــا
فَقَـــدْ ذهَبَـــتْ بشَـــاشَـــةُ كـــلّ شـــيءٍ وعـــادَ الـــدِّيـــنُ مطـــرُوحـــاً مَهينَـــا
تعقَّـــد عِـــزُّ متصـــلٍ بكِسْـــرى ومِلَّتِـــهِ وَذَلَّ المسلمـــونَـــا

وقال أيضاً يرثيه:

أسفـــاً عليـــكَ ســـلاكَ أقـــربُ قـــربَـــةً مِنِّـــي وأحـــزَانـــي عليـــكَ تـــزيـــدُ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهداهد يرثي محمداً:

يا غَرْبُ جودي قد بُتَّ من وذَمِهْ فَقَـــدْ فَقَـــدْنَـــا العـــزِيـــزَ مـــن دِيَمِـــهْ
أَلـــوَت بِـــدُنْيـــاك كـــفُّ نـــائبـــةٍ وصِـــرْتَ مُغضًـــى لنـــا علـــى نِقمـــهْ
أَصْبَـــحَ للمـــوتِ عنـــدنـــا علَـــمٌ يَضْحَـــكُ سِـــنُّ المَنُـــونِ مـــن عَلَمِـــهْ

مـا استنـزَلَـت دَرَّةُ المنـونِ علـى أكـرمِ مـن حـلَّ فـي ثـرَى رَحِمـةْ
خليفـةُ الله فـي بـريَّتِـه تَقصُـر أيـدي المُلـوكِ عـن شِيمـه
يفتـرّ عَـنْ وجهـِه سَنَـا قمـرٍ ينشـقّ عـن نُـورِهِ دُجَـى ظُلمِـهْ
زُلـزلَـتِ الأرضُ مِـنْ جَـوَانِبهـا إذْا أولِـغَ السَّيْـف مـن نجِيـع دَمِـهْ
مَـن سكَتَـتْ نفسـهُ لمصـرعـِه مـن عُمُـم النَّـاس أو ذوي رحمـهْ
رأيتُـهُ مثـلَ مـا رآهُ بـهِ حَتـى تـذوقَ الأمَـرَّ مِـنْ سقَمِـهْ
كَـمْ قَـدْ رأينـا عـزيـزَ مملكَـةٍ يُنقَـلُ عـن أهلِـهِ وعَـنْ خَـدَمِـه
يـا مَلِكـاً لَيْـسَ بَعْـدَهُ مِلـكٌ لخـاتَـمِ الأنبيـاءِ فـي أمَمِـهْ
جـادَ وحيَّـا الـذي أقمـتَ بـه سَـحٌّ غـزيـرُ الـوكيـفِ مـن دِيَمِـهْ
لـو أحجَـمَ المـوتُ عـن أخـي ثقَـة أسْـوِىَ فـي العِـزِّ مستَـوَى قَـدَمِـهْ
أو مِلـكٍ لا تُـرَامُ سطـوَتُـهُ إلاَّ مُـرامَ الشَّتيـمِ فـي أجمِـهْ
خلَّـدَكَ العـزُّ مـا سَـرَى سَـدَفٌ أو قـامَ طِفـلُ العشـيِّ فـي قـدَمِـهْ
أصبـحَ مُلـكٌ إذا اتَّـزرْتَ بـه يقـرَعُ سِـنّ الشُّقـاةِ مـن نـدمـه
أثـر ذو العـرش فـي عِـدَاكَ كمـا أثَّـر فـي عـادِهِ وفـي إرَمِـه
لا يُبْعِـدِ الله سُـورَةً تليـتْ لخيـر داع دعـاه فـي حـرمِـه
مـا كنـت إلا كحُلـم ذي حُلـمٍ أولَـج بـابَ السُّـرورِ فـي حُلمِـه
حتَّـى إذا أطلَقَتْـهُ رَقـدَتـه عـادَ إلـى مـا اعتـراهُ مـن عَـدَمِـه

وقال أيضاً يرثيه:

أقـولُ وَقَـدْ دنـوتُ مـنَ الفـرارِ سُقيـتَ الغيـثَ يـا قصـرَ القـرارِ
رمتـكَ يـدُ الـزمـانِ بسهـم عيـن فصـرتَ ملـوَّحـاً بـدخـانِ نـارِ
أبـنْ لـي عَـنْ جميعـكَ أيـنَ حلُّـوا وأيـنَ مـزارُهـم بعـدَ المـزارِ
وأيـنَ محمـدٌ وابنـاهُ مـا لـي أرَى أطـلالهُـمْ سـودَ الـديـارِ!
كـأن لـم يـؤنَسُـوا بـأَنيـس مُلـكٍ يصـونُ علـى المُلُـوك بخيْـر جـارِ
إمـامٌ كـان فـي الحِـدثـانِ عـونـاً لَنَـا والغيـثَ يَمْنَـحُ بـالقِطَـارِ
لَقَـدْ تَـرَكَ الـزَّمَـانُ بنـي أبِيـهِ وقـد غمـرتهـمُ سُـودُ البِحَـارِ
أضـاعُـوا شمسهـمْ فجـرت بنَحْـسٍ فصـارُوا فـي الظَّـلاَم بـلا نهـارِ
وأجْلَـوْا عنهـمُ قمـراً مُنيـراً وداستهـمْ خُيُـولُ بنـي الشِّـرار

ولـو كـانُـوا لهـم كفـواً ومثـلاً   إذاً مـا تُـوِّجُـوا تِيجـانَ عـارِ
ألا بـانَ الإِمـامُ ووارثـاهُ   لَقَـدْ ضَـرَمـا الحشَـا منَّـا بنـار
وقـالـوا الخُلـدُ بيـعَ فقلـتُ ذلاً   يَصيـرُ ببـائعيـهِ إلـى صَغَـارِ
كـذاكَ المُلـكُ يُتبـع أوّليـهِ   إذا قُطِـعَ القـرَارُ مـنَ القـرَارِ

وقال مقدِّس بن صيفي يرثيه:

خليلـي مـا أتتـكَ بـه الخطـوبُ   فقـد أعطتـكَ طـاعتـهُ النحيـبُ
تـدلَّـتْ مِـنْ شمـاريـخِ المنـايَـا   مَنَـايـا مـا تقـومُ لهـا القلـوبُ
خـلالَ مقـابـرِ البستـانِ قبـرٌ   يجـاورُ قبـرهُ أسـدٌ غـريـبُ
لقـد عَظمَـتْ مُصيبتُـه عَلـىمَـنْ   لـه فـي كـلِّ مَكْـرُمَـةٍ نصيـبُ
علـى أمثـالـهِ العبـراتُ تـذرَى   وتهتـكُ فـي مـآتِمـهِ الجيـوبُ
ومـا ادَّخـرَتْ زبيـدةُ عنـهُ دمعـاً   تخـصُّ بـه النَّسيبـةُ والنَّسيـبُ
دعُـوا مُـوسـى ابنَـه لِبكَـاءِ دَهـرٍ   علـى مُـوسـى ابنِـهِ دَخَـلَ الخـريـب
رأيـتُ مشـاهـدَ الخلفـاءِ منـهُ   خـلاءً مـا بسـاحتِهـا مجيـبُ
ليهنِـكَ أنَّنـي كهـلٌ عليـه   أذوبُ وفـي الحشـا كبـدٌ تـذوبُ
أصيـبَ بـه البعيـدُ فخـرَّ حُـزْنـاً   وعـايـن يـومَـهُ فيـهِ المـريـبُ
أنـادى مِـنْ بطـونِ الأرضِ شخصـاً   يحـرِّكُـهُ النِّـدَاءُ فمـا يُجيـبُ
لئـن نعـتِ الحُـرُوبُ إليـه نفسـاً   لقَـدْ فُجِعَـتْ بمصـرعِـهِ الحـروبُ

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر:

لخيْـرِ إمـامٍ قـامَ مـن خيْـرِ عُنصـرِ   وأفضَـل سـامٍ فـوقَ أعـوادِ منْبـرِ
لـوارثِ علـمِ الأوليـنَ وفهمِهِـم   وللملِـكِ المـأمـونِ مـن أمِّ جعفـرِ
كتبْـتُ وعينِـي مُستَهِـلٌّ دمـوعُهـا   إليك ابنَ عمِّي من جُفوني ومَحجري
وقـد مسَّنـي ضـرٌ وذلٌّ كـآبـةٍ   وأرَّقَ عينـي يـا بـنَ عمِّـي تفكـري
وهِمـتُ لمـا لاقيْـتُ بعـدَ مُصـابِـه   فـأمـري عظيـمٌ منكـرٌ جـدَّ منكـر
سـأشكـو الـذي لا قيتُـهُ بعـدَ فقـدِهِ   إليْـكَ شكـاةَ المستهـامِ المقَهَّـر
وأرجُـو لمـا مـرَّ بـي مُـذْ فَقَـدْتـه   فـأنـت لبثِّـي خيـرُ ربٍّ مغيـر
أتـى طـاهـرٌ لا طهَّـرَ اللهُ طـاهـراً   فمـا طـاهـرٌ فيمـا أتـى بمطَهَّـرِ
فأخرجني مكشوفَةَ الوجهِ حاسراً   وأنهَـبَ أمـوالـي وأحـرقَ آدرِي

يعــزُّ علــى هــارونَ مــا قَــدْ لقيتُــهُ ... وما مَرَّ بي من ناقِص الخلقِ أعور
فــإن كَــانَ مــا أسـدَى بـأمـرٍ أمـرتَـه ... صَبـرتُ لأمـرٍ مِـنْ قَـدِيـر مقـدِّر
تَـذَكَّـر أميـرَ المـؤمنيـنَ قـرابتـي ... فـديتـك مـن ذي حـرمـةٍ متـذكِّـر

وقال أيضاً يرثيه:

سُبحـانَ ربـك رب العـزَّة الصمـدِ ... مـاذا أصبنَـا بِـهِ فـي صُبْحَـةِ الأَحَـدِ
وَمَـا أُصيـبَ بـه الإسـلامُ قـاطبـةً ... مـن التَّضعضُـع فـي ركنَيْـهِ والأَوَدِ
مَنْ لم يُصَبْ بأمير المؤمنين وَلَمْ ... يُصبِـحْ بمهلُكـةٍ والهَـمُّ فـي صُعُـد
فَقَـدْ أصِبـتُ بـه حتـى تبيـنَّ فـي ... عَقلِـي ودينِـي وفـي دنيـايَ والْجَسَـدِ
يـا ليلـةً يشتكـي الإسـلامُ مُـدَّتَهـا ... والعــالَمـون جميعــاً آخـر الأبـدِ
غـدرت بـالملـك الميمـون طـائـرهُ ... وبـالإمـام وبـالضِّـرغـامـةِ الأسـدِ
سـارتِ إلَيْـهِ المنـايـا وهْـي تَـرْهبُـه ... فــواجهتْــهُ بــأوغــادٍ ذوي عــددِ
بشُــورجيــنَ وأغتــام يقــودُهُــمُ ... قريش بالبيضِ في قُمْصٍ من الزَّرَدِ
فصــادَفُــوه وحيــداً لا مُعيــنَ لَــهُ ... عليهـمُ غـائـبَ الأنصـار بـالمـدِ
فجـرَّعـوه المنَـايَـا غيـرَ ممتنِـعٍ ... فـرداً فيـا لـكَ مـن مستسلـم فـردِ
يلقَـى الـوجـوهَ بـوجـهٍ غيـر مبتـذلٍ ... أبهَـى وأنقَـى مـن القـوهيـةِ الجدُدِ
واحسـرتَـا وقـريـشٌ قـد أحـاطَ بـه ... والسيفُ مُـرتعِـدٌ فـي كـفِّ مـرتعِـد
فمـا تَحَـرَّكَ بَـلْ مـا زالَ منتصِبـاً ... منكَّسَ الرَّأس لم يُبْدِي ولمْ يُعِدِ
حتى إذا السيف وافى وسطَ مفرقِهِ ... أذرتْــهُ عنــهُ يــداه فعــلَ متَّئِــد
وقــام فــاعتلقــتْ كَفَّــاُه لبَّتَــه ... كضيغــمٍ شــرسٍ مستبســلٍ لبــدِ
فـاحتـزَّهُ ثـم أهـويِ فـاستقـلَّ بـه ... للأرضِ من كفِّ ليثٍ محرجٍ حردِ
فكـادَ يقتلُـهُ لَـوْ لـمْ يكـاثِـرهُ ... وقــام منفلتــاً منْــه ولــمْ يكَــدِ
هـذا حـديـثُ أميـر المـؤمنيـنَ ومـا ... نقصـتُ مـن أمـرهِ حـرفـاً ولَـمْ أزدِ
لازلـتُ أنـدُبـه حتَّـى الممـاتِ وإن ... أخنَى عليه الَّذي أخنَى على لبدِ[1].

---

(١) هذه القصائد في مراثي الأمين استغرقت الصفحات (٥٠١ ـ ٥٠٢ ـ ٥٠٣ ـ ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) ذكر المسعودي بعضها في تأريخه وكذلك ابن الأثير في الكامل، وقال الحافظ ابن كثير وقد ذكر ابن جرير مراثي كثيرة للناس في الأمين وذكر من أشعار الذين هجوه طرفاً (البداية والنهاية ٨/ ١٤٦).

وذكر عن الموصلي أنه قال: لما بعث طاهر برأس محمدإلى المأمون بكى ذو الرياستين، وقال: سلَّ علينا سيوف الناس وألسنتهم؛ أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به عقيراً! وقال له المأمون: قد مضى ما مضى فاحتل في الاعتذار منه؛ فكتب الناس فأطالوا، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه:

أما بعد؛ فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين؛ يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍۖ﴾ [هود: ٤٦]، فلا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله. وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع، وردّاه رداء نكثه، وأحْصد لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له وعده، وما ينتظر من صادق وعده حين ردّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها[١].

* * *

(١) هذا الخبر الذي ذكره الطبري عن الموصلي ويعني به إسحاق أو أبوه إبراهيم ذكره الجهشياري بروايتين إذ قال في الأولى دون إسناد: ولما قتل طاهر محمداً المخلوع، أنفذ رأسه إلى المأمون؛ فقال الفضل بن سهل: ما فعل بنا طاهر؟ سَلَّ علينا سيوف النّاس وألسنتهم، أمرناه أن يبعث به أسيراً، فبعث به عَقِيراً! (الوزراء والكتاب/ ٣٠٤).
وأخرج الجهشياري قال: وذكر عليّ بن أبي سعيد أنه رأى رأس محمد وقد أدخله ذو الرياستين على تُرْس بيده إلى المأمون، فلما رآه سجد، ثم أمره المأمون أن ينشى كتاباً عن طاهر بخبره، ليقرأه على الناس؛ فكتب عدة كتب لم يرضها واستطالها، فكتب أحمد بن يوسف في ذلك كتاباً نُسْخَتُه: «أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرّق حكم الكتاب والسُّنة بينه وبينه في الولاية والحُرْمة، لمفارقته عِصْمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقُولُ الله عزّ وجلّ فيما اقتصّ علينا من نَبَأ نوح: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍۖ﴾، ولا صِلَة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع، ورَدَّأَهُ رِدْءَ نَكْثه، وأحصَدَ لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده؛ فالحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه، الكائد له مَنْ خَتَرَ عَهْدَه، ونقض عَقْدَه، حتى ردّ اللهُ به الألفة بعد فرقتها، وأحيا به الأعلام بعد دُرُوسها، وجمع به الأمة بعد فرقتها، والسلام» (الوزراء والكتاب/ ٣٠٤).

ذكر الخبر عن بعض سيَر المخلوع محمد بن هارون

ذُكر عن حُميد بن سعيد ، قال: لما ملك محمد ، وكاتَبه المأمون ، وأعطاه بيعتَه ، طلب الخِصيان واتباعهم ، وغالَى بهم ، وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقِوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه؛ وفرض لهم فرضاً سماهم الجراديّة ، وفرضاً من الحبشان سمّاهم الغُرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمِي بهنّ؛ ففي ذلك يقول بعضهم:

ألا يَـا مُـزمِـنَ المثـوى بطـوسِ ... عَـزيبـاً مـا يُفـادَى بـالنُّفُـوسِ
لقـد أبقيـتَ للخصيـان بعـلا ... تحَمَّـلَ منهـمُ شـؤمَ البَسُـوسِ
فـأَمّـا نـوفـلٌ فـالشـأْنُ فِيـهِ ... وفـي بـدرٍ ، فيـالـك مـن جَليس!
ومـا العُصمِـيُّ بَشَّـارٌ لـديْـهِ ... إذا ذُكِـروا بـذي سهـمٍ خَسيـسِ
ومـا حَسَـنُ الصغيـرُ أَخـسُّ حـالاً ... لـديـه عنـد مخْتـرق الكـؤوسِ
لهـمْ مـن عُمْـره شَطـرٌ وَشَطْـرٌ ... يُعـاقِـرُ فيـه شَـربَ الخَنْـدريـسِ
وَمَـا للغـانيـات لَـدَيْـهِ حـظٌّ ... سِـوَى التَّقْطِيـبِ بـالـوَجـهِ العَبـوسِ
إذَا كـانَ الـرئيـسُ كَـذَا سَقِيمـاً ... فكيـفَ صَـلاحُنـا بعـدَ الـرئيـس!
فلـو علـمَ المقيـمُ بـدارِ طُـوسٍ ... لَعـزَّ علـى المقيـم بـدارِ طُـوسِ[1]

قال حميد: ولما ملك محمد وجّه جميع البلدان في طلب الملهِين وضمِّهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فُرْه الدوابّ ، وأخذ الوحوش والسباع والطيْر وغير ذلك؛ واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقوّاده ، واستخفّ بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه

---

(١) هذا الخبر وخاصة العبارة الأولى منه: طلب الخصيان واتباعهم وغالى بهم. . الخ تناقلته بعض كتب التأريخ المتتالية وأصل الخبر هاهنا في تأريخ الطبري ذكره دون بيان الواسطة بينه وبين حميد بن سعيد والذي بدوره ذكره من كلامه ولم نجد لحميد هذا ترجمة في كتب التراجم ومصادرها ـ والخبر لا يصح بل هو من نبع الخيال ـ وحتى الروايات الضعيفة الأخرى التي سيذكرها الطبري بعد قليل تكذب عبارات هذا الخبر ومنها (رفض النساء الحرائر والإماء) وإلا كيف كان له من الأولاد مما سيذكر الطبري وكيف كان محاطاً بكل تلك الجواري كما تزعم الروايات الموضوعة الأخرى؟

ومحدّثيه ، وحُمِل إليه ما كان في الرّقّة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخُلْد والخَيْزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلّى ورقة كَلْواذى وباب الأنبار وبناورى والهوب؛ وأمر بعمل خمس حَرّاقات في دِجلة على خِلْقة الأسد والفيل والعُقاب والحيّة والفرس ، وأنفق في عملها مالاً عظيماً ، فقال أبو نواس يمدحه :

سَخَّـــرَ اللهُ لِـــلأَميـــن مَطَـــايَـــا ... لــم تُسَخَّــرَ لِصَـاحِـبِ المِحْـرابِ
فـــإذا مـــا ركـــابُـــه سِـــرْن بـــرّاً ... ســارَ فــي المــاءِ راكبــاً ليـث غـابِ
أَســـداً بـــاسطـــاً ذِرَاعيْـــهِ يَهـــوى ... أَهْــرَتَ الشِّــدْقِ كــالــحَ الأَنيَــابِ
لا يعـــانيـــهِ بـــاللِّجـــامِ ولا السَّـــو ... طِ ولا غمـزِ رجلـه فـي الـرّكـابِ
عجـب النـاسُ إذا رأوكَ علـى صُـو ... رةِ ليـــثٍ تمـــرّ مـــرَّ السَّحَـــابِ
سبَّحـــوا إذا رَأوك سِـــرْت عليـــه ... كيــف لــو أَبصرُوك فَــوْقَ العُقــابِ
ذاتِ زَور ومِنْســـــر وجَنـــــاحـ ... ـيـنِ تَشُــقّ العُبــابَ بَعــدَ العُبَــابِ
تسبـق الطيـرَ فـي السَّمـاءِ إذا مـا اسـ ... تَعجَلُـــوهـــا بجَيئَـــةٍ وذهـــابِ
بَـــارَك الله لـــــلأَميـــرِ وأَبْقَـــا ... هُ وأَبْقَـــى لَـــهُ ردَاءَ الشبـــاب
مِلِـــكٌ تَقصُـــرُ المـــدَائـــحُ عنـــهُ ... هـــاشمـــيٌّ مـــوفَّـــقٌ للصـــوابِ[1]

وذُكر عن الحسين بن الضحّاك ، قال: ابتنى الأمير سفينةً عظيمة ، أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، واتّخذ أخرى على خلقة شيء يكون في البحر يقال له الدُّلْفِين ، فقال في ذلك أبو نواس الحسن بن هانئ:

قـد ركـبَ الـدُّلفيـنَ بَـدرُ الـدجـى ... مقتحمـاً فـي المـاءِ قَـدْ لَجَّجـا
فـأَشْـرَقَـتْ دِجلَـةُ فـي حُسْنِـهِ ... وأَشْـــرَقَ الشَّطَّـــان واستَبْهجـــا

(١) لو كان هذا صحيحاً لأفرج طاهر بن الحسين عن كل تلك الوحوش والسباع والطير وغير ذلك بعد مقتل الأمين أو أنها انطلقت خارج أقفاصها أثناء الهرج والمرج حين الحصار وقذف بغداد بالمنجنيق وفلتان الأمور ولتناقلته الألسن والأقلام ولكن لم يحصل ولو كان حقاً أحاط نفسه بالخصيان وغيرهم وترك أهل بيته وقواده ، لما دَافع عنه الناس ذلك الدفاع الشديد ولفتحت بغداد بسهولة ولسلّمه حراسه وحاشيته كما فعلوا قبل ما يقرب من قرن من الزمان بالوليد الأموي الفاسق الذي تولى بعد هشام بن عبد الملك ، والحمد لله الذي أظهر لنا هشاشة المتن ناهيك عن إسناده المهلهل الذي انعدم السلسلة إلا من واحد هو حميد بن سعيد ولم نجد له ذكراً في كتب التراجم .

لــم تَــرَ عينــي مثلَــهُ مَــرْكَبــاً أَحســـنَ إن سَـــارَ وإن أَجنحـــا
إذا استَحثثْـــــهُ مجـــــادِيفُـــــهُ أَعنَــقَ فَــوْقَ المــاءِ أَو هَمْلَجــا
خـــصَّ بـــه اللهُ الأَميـــن الَّـــذِي أَضحـى بتـاج الملـك قـد تُـوِّجـا[١]

وذكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما المغنّى الكُوفيّ أنه قال: كان العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر من رجالات بني هاشم جَلَداً وعقلاً وصنيعاً؛ وكان يتّخذ الخَدَم، وكان له خادم من آثر خَدَمِه عنده يقال له منصور، فوجَد الخادم عليه، فهرب إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظِي عنده حُظوةً عجيبة. قال: فركب الخادم يوماً في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيّافة، فمرّ بباب العباس بن عبد الله؛ يريد بذلك أن يُرِيَ خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها. وبلغ ذلك الخبر العباس، فخرج محضراً في قميص حاسراً، في يده عمود عليه كِيُمخت، فلحقه في سويقة أبي الورد، فعلِق بلجامه، ونازعه أولئك الخدم، فجعل لا يضرب أحداً منهم إلا أوهنه، حتى تفرّقوا عنه، وجاء به يقوده حتى أدخله داره. وبلغ الخبر محمداً، فبعث إلى داره جماعةً، فوقفوا حيالها، وصفّ العباس غلمانه ومواليه على سور داره، ومعهم التِّرسة والسهام، فقام أحمد بن إسحاق: فخفنا والله النار أن تحرق منازلنا؛ وذلك أنهم أرادوا أن يحرِقوا دار العباس. قال: وجاء رشيد الهارونيّ، فاستأذن عليه فدخل إليه، فقال: ما تصنع! أتدري ما أنت فيه وما قد جاءك! لو أذِن لهم لاقتلعوا دارك بالأسنّة، ألستَ في الطاعة! قال: بلى، قال: فقم فاركب. قال: فخرج في سَواده، فلما صار على باب داره، قال: يا غلام؛ هلمّ دابتي فقال رشيد: لا ولا كرامة! ولكن تمضي راجلاً. قال: فمضى، فلما صار إلى الشارع نظر؛ فإذا العالمون قد

(١) وهذا مثال ثالث للأخبار الموضوعة فالحسين بن ضحاك شاعر ماجن خليع سمّي الخليع لكثرة مجونه وخلاعته (وفيات الأعيان/ ٢/ ١٦٢) ولو كان صادقاً في قوله أن الأمين ابتنى سفناً على شكل الدلفين أو كما قال سلفه من قبل (حميد بن سعيد) على شكل الأسد أو الفيل والعقاب والحية والفرس فأين كانت كل تلك السفن والحراقات يوم لم يجد إلا حراقة واحدة جهزه له خصومه لما أراد العبور إلى هرثمة وسقط في الماء فأين كان أسطوله النهري ذلك؟ إلا أنه خيال الوضاعين والماجنين من أمثال الحسين بن الضحاك الخليع.

جاءوا ، وجاءه الجُلوديّ والإفريقيّ وأبو البطّ وأصحاب الهِرْش. قال: فجعل ينظر إليهم ، وأنا أراه راجلاً ورشيد راكب. قال: وبلغ أمّ جعفر الخبرُ ، فدخلت على محمد ، وجعلت تطلب إلى محمد ، فقال لها: نُفيتُ من قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم أقتله! وجعلتْ تلحّ عليه ، فقال لها: والله إني لأظنني سأسطو بك. قال: فكشفت شعرَها ، وقالت: ومن يدخل عليّ وأنا حاسر! قال: فبينا محمد كذلك ـ ولم يأت العباس بعدُ ـ إذ قدم صاعد الخادم عليه بقتل عليّ بن عيسى بن ماهان ، فاشتغل بذلك ، وأقام العباس في الدّهليز عشرة أيام ، ونسيه ثم ذكره ، فقال: يُحبَس في حُجْرة من حُجَر داره ، ويدخل عليه ثلاثة رجال من مواليه من مشايخهم يَخْدُمونه ، ويُجعل له وظيفة في كلّ يوم ثلاثة ألوان. قال: فلم يزل على هذه الحال حتى خرج حسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان، ودعا إلى المأمون، وحبس محمد. قال فمرَّ إسحاق بن عيسى بن علي ومحمد بن محمد المعبديّ بالعباس بن عبد الله وهو في منظرة ، فقالا له: ما قعودك؟ اخرج إلى هذا الرجل ـ يعنيان حسين بن عليّ ـ قال: فخرج فأتى حسيناً ، ثم وقف عند باب الجسر؛ فما ترك لأم جعفر شيئاً من الشتم إلا قاله ، وإسحاق بن موسى يأخذ البيعة للمأمون. قال: ثم لم يكن إلا يسيراً حتى قتِل الحسين ، وهرب العباس إلى نهر بين إلى هَرْثمة ، ومضى ابنه الفضل بن العباس إلى محمد ، فسعى إليه بما كان لأبيه ، ووجّه محمد إلى منزله ، فأخذ منه أربعة آلاف ألف درهم وثلثمائة ألف دينار ، وكانت في قماقم في بئر ، وأُنْسوا قمقميْن من تلك القماقم ، فقال: ما بقي من ميراث أبي سوى هذين القمقمين ، وفيهما سبعون ألف دينار. فلما انقضت الفتنة وقُتِل محمد رجع إلى منزله فأخذ القمقمين وجعلهما. . . . وحجّ في تلك السنة ، وهي سنة ثمان وتسعين ومائة[1].

قال أحمد بن إسحاق: وكان العباس بن عبد الله يحدّث بعد ذلك؛ فيقول: قال لي سليمان بن جعفر ونحن في دار المأمون: أمَا قتلت ابنك بعدُ؟ فقلت:

---

(١) أحمد بن إسحاق بن برصوما لم نجد له ترجمة في كتب التراجم وإن كان لقب المغني مقصوداً به هو (أحمد) فكيف يكون عدلاً ثقة لنعتمد على خبره ، ولم نجد للخبر تأييداً من مصدر آخر ثقة والله أعلم.

يا عمّ ، جعلت فداك! ومن يقتل ابنه! فقال لي: اقتله؛ فهو الذي سعى بك وبمالك فأفقرك.

وذُكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما ، قال: لمّا حُصِر محمد وضغطه الأمر ، قال: ويحكم! ما أحد يستراح إليه! فقيل له: بلى ، رجل من العرب من أهل الكوفة ، يقال له وضّاح بن حبيب بن بديل التميميّ؛ وهو بقيّة من بقايا العرب ، وذو رأي أصيل ، قال: فأرسلوا إليه ، قال: فقدم علينا ، فلمّا صار إليه قال له: إني قد خُبّرت بمذهبك ورأيك ، فأَشِر علينا في أمرنا ، قال له: يا أميرَ المؤمنين ، قد بطل الرأي اليوم وذهب؛ ولكن استعمل الأراجيف؛ فإنها من آلة الحرب؛ فنصب رجلاً كان ينزل دُجيلاً يقال له بكير بن المعتمر؛ فكان إذا نزلت بمحمد نازلة وحادثة هزيمة قال له: هات؛ فقد جاءنا نازلة ، فيضع له الأخبار ، فإذا مشى الناس تبيّنوا بُطلانها. قال أحمد بن إسحاق: كأني أنظر إلى بكير بن المعتمر شيخ عظيم الخلْق[1].

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان الكاتب ، قال: حدّثنا إبراهيم بن الجرّاح ، قال: حدّثني كوثر ، قال: أمر محمد بن زُبيدة يوماً أن يفرَش له على دُكان في الخُلْد ، فبسط له عليه بساط زَرَعيّ ، وطُرِحت عليه نمارق وفُرش مثله ، وهُيّى له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم ، وأمر قيّمةَ جواريه أن تهيئ له مائة جارية صانعة ، فتُصْعَد إليه عشراً عشراً ، بأيديهنّ العيدان يغنّين بصوت واحد؛ فأصعدت إليه عشراً ، فلما استوين على الدكان اندفعن فغنّين:

هُـم قَتَلُـوهُ كَـي يَكُـونُـوا مَكَـانَـهُ ... كَمَـا غـدَرَتْ يـومـاً بِكِسْرَى مـرازِبُـهْ

قال: فتأفّف من هذا ، ولعنها ولعن الجواري ، فأمر بهنّ فأنزلن ، ثم لبث هنيهة وأمرها أن تُصعد عشراً ، فلما استوين على الدكان اندفعن فغنّين:

مَـنْ كـانَ مَسْـروراً بمقتـلِ مـالـكٍ ... فَلْيَـأْتِ نِسْـوتَنـا بِـوَجْـهِ نَهـار
يجِـدِ النِّسَـاءَ حَـوَاسِـراً يَنْـدُبْنَـهُ ... يَلطُمْـن قَبْـلَ تبلّـج الأَسْحَـارِ

قال: فضجر وفعل مثل فَعْلته الأولى ، وأطرق طويلاً ، ثم قال: أصعِدِي عشراً ، فأصعدتهنّ ، فلمّا وقفن على الدّكان ، اندفعن يغنين بصوت واحد:

(١) انظر الخبر السابق وتعليقنا عليه.

كُلَيبٌ لَعَمْري كَانَ أَكثر نَاصِراً وأَيْسرَ ذَنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

قال: فقام من مجلسه، وأمر بهدم ذلك المكان تَطَيُّراً مما كان[1].

وذُكر عن محمد بن عبد الرحمن الكنْديّ، قال: حدّثني محمد بن دينار، قال: كان محمد المخلوع قاعداً يوماً، وقد اشتدّ عليه الحصار، فاشتدّ اغتمامه، وضاق صدره؛ فدعا بندمائه والشراب ليتسلَّى به، فَأُتِيَ به، وكانت له جارية يتحظّاها من جواريه، فأمرها أن تُغَنِّي، وتناول كأساً ليشربه؛ فحبس الله لسانها عن كل شيء، فغنّت:

كُلَيبٌ لَعَمْري كَانَ أَكثر نَاصِراً وأَيْسرَ ذَنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

أرماها بالكأس الذي في يده، وأمر بها فطُرحت للأسد، ثم تناول كأساً أخرى، ودعا بأخرى فغنَّت:

هُمُ قَتَلُوهُ كَيْ يكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا غَدَرَتْ يَوْماً بِكِسْرَى مَرازِبُهْ

فرمى وجهها بالكأس، ثم تناول كأساً أخرى ليشربها، وقال لأخرى: غَنّي، فغنت:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيم أَخِي

قال: فرمى وجهها بالكأس، ورمى الصينيّة برجله، وعاد إلى ما كان فيه من همّه، وقُتِل بعد ذلك بأيام يسيرة.

وذُكر عن أبي سعيد أنه قال: ماتت فَطِيم ـ وهي أمّ موسى بن محمد بن هارون المخلوع ـ فجزع عليها جزعاً شديداً، وبلغ أمّ جعفر، فقالت: احملوني إلى أمير المؤمنين، قال: فحمِلت إليه، فاستقبلها، فقال: يا سيّدتي، ماتت فَطِيم، فقالت:

نَفْسي فداؤك لا يذهبْ بك اللَّهَفُ ففي بقائِكَ مِمَّن قَدْ مضى خَلَفَ
عُوّضْتَ مُوسى فهانتْ كلُّ مَرْزِئةٍ ما بَعْدَ مُوسى على مفقودةٍ أَسَفُ

وقالت: أعظم الله أجرك، ووفّر صبرك، وجعل العزاء عنها ذخرك!

---

(١) راوي الخبر (كوثر) خادم الأمين مجهول الحال وأما انشغال المأمون باللهو والعبث فقد اتهمه بعض المؤرخين المتقدمين بذلك وإن كان فيه كثير مبالغة ولكن هذه الرواية بالذات غير صحيحة والله اعلم.

وذكر عن إبراهيم بن إسماعيل بن هانئ ، ابن أخي أبي نواس ، قال: حدثني أبي قال: هجا عمُّك أبو نواس مُضَر في قصيدته التي يقول فيها:

أَمّا قريشٌ فَلاَ افتخارَ لَهَا ... إلاَّ التِّجاراتُ مِنْ مَكَاسِبِها
وأَنَّها إِن ذكرتَ مكْرُمةً ... جاءَت قريشٌ تسعى بغالِبِها
إِنَّ قريشاً إذا هي انتَسبت ... كان لها الشَّطرُ من مناسبها

قال: يريد أن أكرمها يُغالب. قال: فبلغ ذلك الرّشيدَ في حياته ، فأمر بحبسه؛ فلم يزل محبوساً حتى ولي محمد ، فقال يمدحه ، وكان انقطاعه إليه أيام إمارته ، فقال:

تَذكَّرْ أَمينَ اللهِ والعهدُ يُذكَرُ ... مُقامِي وإِنشادِيكَ والنَّاسُ حُضَّرُ
ونثرى عليك الدُّرَّ يا درّ هاشمٍ ... فيامَنْ رَأى دُرَّاً على الدرّ يُنثر!
أَبُوك الَّذي لم يملكِ الأَرضَ مثلُه ... وعمُّك مُوسى عَدْلُهُ المتخَيَّرُ
وجدّك مهديُّ الهُدَى وشقيقهُ ... أَبو أُمّك الأَدنى أَبو الفضل جعفر
وما مثلُ منصوريْك: منصورِ هاشمٍ ... ومنصور قحطانٍ إذا عُدَّ مفخَر
فَمنْ ذَا الَّذِي يرمي بسهمَيْك في العلا ... وعَبْد منافٍ والدَاكَ وحِمْيرُ

قال: فتغنّت بهذه الأبيات جارية بين يدي محمد ، فقال لها: لمن الأبيات؟ فقيل له: لأبي نواس ، فقال: وما فعل؟ فقيل له: محبوس ، فقال: ليس عليه بأس. قال: فبعث إليه إسحاق بن فِراشة وسعيد بن جابر أخا محمد من الرضاعة ، فقالا: إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال: ليس عليه بأس ، فقال أبياتاً ، وبعث بها إليه ، وهي هذه الأبيات:

أَرقتُ وطَارَ عَنْ عَيْنِي النُّعَاسُ ... وَنَامَ السَّامِرُون وَلَمْ يُؤَاسُوا
أَمينَ الله قد مُلِّكتَ مُلكاً ... عَلَيكَ مِن التُّقَى فِيهِ لِبَاسُ
ووجهك يَستهلُّ نَدىً فَيحيا ... به في كلّ ناحيةٍ أُناسُ
كأَنَّ الخلقَ في تمثالِ رُوحٍ ... لَهُ جَسدٌ وأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ
أَمينَ الله إِنَّ السِّجْنَ بأْسٌ ... وقَدْ أَرْسَلتَ: ليس عليك باسُ

فلما أنشده قال: صدَق ، عليّ به ، فجيء به في الليل ، فكسرتْ قيوده ، وأخرِج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول:

مَرحباً مَرحباً بخير إِمامٍ ... صِيغَ من جَوْهَرِ الخلافةِ نَحْتَا

يـا أَمينَ الإلـه يكلـؤك اللـ ـه مُقيماً وظاعناً حيث سِرْتا
إنَّما الأَرض كلُّها لَك دارٌ فَلَكَ الله صاحبٌ حَيْثُ كُنْتَا

قال: فخلع عليه، وخلَّى سبيله، وجعله في ندمائه(١).

وذُكر عن عبد الله بن عمرو التميميّ، قال: حدّثني أحمد بن إبراهيم الفارسيّ، قال: شرب أبو نواس الخمر، فرُفع ذلك إلى محمد في أيامه، فأمر بحبسه، فحبسه الفضل بن الربيع ثلاثة أشهر، ثم ذكره محمد، فدعا به وعنده بنو هشام وغيرهم، ودعا له بالسيف والنَّطَع يهدّده بالقتل، فأنشده أبو نواس هذه الأبيات:

تَذَكَّرْ أَمينَ اللهِ والْعَهْدُ يُذْكَرُ

الشعر الذي ذكرناه قبل، وزاد فيه:

تَحَسنتِ الدُّنْيا بِحُسْنِ خليفةٍ هُو الْبَدْرُ إلاَّ أَنَّهُ الدَّهرَ مُقمِرُ
إمامٌ يسُوسُ الناسَ سَبْعِين حِجَّةً عليه لَهُ منها لباسٌ ومئزر
يُشيرِ إليه الجودُ من وَجَناتِهِ وَيَنْظُرُ من أعطافِه حِينَ يَنْظُرُ
أَيا خيرَ مأمولٍ يرجَّى، أَنا امرؤٌ رهِينٌ أَسِيرٌ في سُجُونك مُقفِرُ
مَضَى أَشهرٌ لي مُذْ حبسْتُ ثلاثةٌ كأَنيَ قد أَذنبتُ ما ليس يُغْفَرُ
فإن كنتُ لم أُذْنِبْ ففيمَ تَعَقُّبي! وإن كُنتُ ذا ذنبٍ فعفوُك أَكثرُ

قال: فقال له محمد: فإن شربتَها! قال: دمي لك حلال يا أمير المؤمنين، فأطلقه. قال: فكان أبو نواس يشمّها ولا يشربها وهو قوله:

لا أَذُوقُ المُدامَ إِلاَّ شميما(٢)

وذكر عن مسعود بن عيسى العبديّ، قال: أخبرني يحيى بن المسافر القَرْقِسائيّ، قال: أخبرني دُحَيْم غلام أبي نواس؛ أن أبا نواس عتب عليه محمد في شرب الخمر، فطبق به ـ وكان للفضل بن الربيع خالٌ يستعرض أهل

(١) هذا الخبر الطويل (٥١٤ ـ ٥١٥ ـ ٥١٦) ذكره ابن عساكر مع بعض الاختلاف والتقديم والتأخير والاختصار [انظر تأريخ دمشق / مجلد ٥٦/ ٢٢٥/ تر ٧١٠٠].

(٢) انظر تأريخ دمشق [مجلد ٥٦/ ٢٢٦/ تر ٧١٠٠].

السجون ويتعاهدُهم ويتفقدّهم ـ ودخل في حبس الزنادقة ، فرأى فيه أبا نواس ـ ولم يكن يعرفه ـ فقال له: يا شابّ ، أنت مع الزنادقة! قال: معاذ الله ، قال: فلعلك ممّن يعبد الكبش ، قال: أنا آكل الكَبْشَ بصوفه ، قال: فلعلك ممّن يعبد الشمس؟ قال: إني لأتجنب القعود فيها بغضاً لها ، قال: فبأيّ جرم حبِست؟ قال: حبست بتهمة أنا منها بريئ ، قال: ليس إلا هذا؟ قال: والله لقد صدقتُك. قال: فجاء إلى الفضل ، فقال له: يا هذا ، لاتحسنون جوار نعم الله عزّ وجلّ! أيُحْبَسُ الناس بالتّهمة! قال: وما ذاك؟ فأخبره بما ادّعى من جُرمه ، فتبسّم الفضل ، ودخل على محمد ، فأخبره بذلك ، فدعا به ، وتقدّم إليه أن يجتنب الخمر والسكر ، قال: نعم ، قيل له: فبعهد الله! قال: نعم ، قال: فأخرِج ، فبعث إليه فتيان من قريش فقال لهم: إني لا أشرب ، قالوا: وإن لم تشرب فآنِسْنا بحديثك ، فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم ، قالوا: ألم ترتح لها؟ قال: لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول:

أَيُّهـا الـرَّائِحَـانِ بـاللـومِ لُـومَـا ... لا أَذُوق المُـدامَ إلا شمِيمـا
نَـالَنِـي بـالمَـلام فيهـا إمـامٌ ... لا أُرَى فـي خـلافِـهِ مستقيمـا
فَـاْصِـرفَـاهَـا إِلـى سِـوَايَ فـإِنـي ... لَسْتُ إلاَّ علـى الحـديـث نَـدِيمَـا
إِنَّ حظِّـي منهـا إذا هـيَ دارَت ... أَن أَرَاهَـا وأَن أَشَـمَّ النَّسيمـا
فكـأَنِّـي وَمَـا أحَسِّـنُ مِنْهـا ... قَعَـدِيٌّ يُـزَيِّـنُ التَّحكيمـا
كَـلَّ عـن حَمْلـةِ السِّلاح إلـى الحَرْ ... بِ فـأَوصـى المطيـقَ أَلا يُقِيمـا[1]

وذُكِرَ عن أبي الورد السُّبْعيّ أنه قال: كنت عند الفَضْل بن سهل بخُراسان ، فذكر الأمين ، فقال: كيف لا يُسْتَحلّ قتال محمد وشاعره يقول في مجلسه:

أَلا سَقِّنِي خَمْراً وقلْ لي هِيَ الْخَمْرُ ... وَلا تَسْقِنـي سـرّاً إذا أَمكَـنَ الجهْـرُ

قال: فبلغت القصّةُ محمداً ، فأمر الفضل بن الربيع فأخذ أبا نواس فحبسه[2].

وذكر كامل بن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته ، قال: كان أبو نواس قال أبياتاً بلغت الأمين في آخرها:

وقـد زَادَنـي تِيهـاً علـى النَّـاسِ أَنَّنـي ... أَرانـيَ أَغنَـاهُـمْ إذا كنـتُ ذَا عُسـرِ

---

(١) انظر الوزراء والكتاب للجهشياري (٢٩٦).
(٢) انظر الوزراء والكتاب (٢٩٥).

وَلَوْ لم أَنلْ فَخراً لكانت صيانَتي فمِي عن جميع الناس حَسْبي من الفخر
ولا يَطمَعَنْ في ذَاكَ منِّيَ طامِعٌ ولا صَاحِبُ التَّاج المحجَّبُ في القصرِ

قال: فبعث إليه الأمين ـ وعنده سليمان بن أبي جعفر ـ فلما دخل عليه، قال: يا عاضّ بَظْر أمّه العاهرة! يا بن اللخناء ـ وشتمه أقبح الشتم ـ أنت تكسب بشعرك أوساخ أيدي اللئام، ثم تقول:

ولا صاحبُ التاج المحجب في القصر

أما والله لا نلتَ مني شيئاً أبداً. فقال له سليمان بن أبي جعفر، والله يا أمير المؤمنين، وهو من كبار الثنويّة، فقال محمد: هل يشهد عليه بذلك شاهد؟ فاستشهد سليمان جماعة، فشهد بعضهم أنه شرب في يوم مطير، ووضع قَدَحه تحت السماء، فوقع فيه القطر، وقال: يزعمون أنه ينزل مع كلّ قطرة مَلك، فكم ترى أني أشرب الساعة من الملائكة! ثم شرب ما في القَدَح، فأمر محمد بحبسه، فقال أبو نواس في ذلك:

يَا رَبّ إنَّ القَوْمَ قد ظَلَمُونِي وبِلاَ اقتِرافِ تَعَطُّلٍ حَبَسُونِي
وإلى الجُحودِ بما عَرفتَ خلاَفَهُ منّي إليه بكيدهمْ نَسَبُونِي
ما كان إلا الجرْيُ في مَيْدانِهِمْ في كلِّ جَرْيٍ والمخافةُ ديني
لا العذرُ يُقبل لي فَيَفرقَ شَاهِدِي منهم ولا يرضَوْن حَلفَ يَمينِي
ولكان كوثرُ كان أَوْلى مَحْبساً في دار مَنْقَصَةٍ ومنزل هُونِ
أَمّا الأَمينُ فلست أَرجو دفعَهُ عنِّي، فمن لِي اليومَ بالمأْمون!

قال: وبلغت المأمونَ أبياته، فقال: والله لئن لحقته لأَغنِيَنَّه غنى لا يؤمّله، قال: فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام[1].

قال: ولما طال حبسُ أبي نواس، قال في حبسه ـ فيما ذكر ـ عن دِعامة:

إِحمدوا اللهَ جميعاً يا جَميعَ المُسْلِمينا
ثم قولوا لا تَمَلُّوا رَبَّنَا أَبقِ الأَمينَا
صيَّر الخِصيَانَ حتَّى صيَّر التَّعْنِينَ دِينَا
فاقتَدَى النَّاس جميعاً بأَميرِ المؤمنينا

---

(١) انظر الوزراء والكتاب للجهشياري (٢٩٦).

قال: وبلغت هذه الأبيات أيضاً المأمون وهو بخراسان، فقال: إنِّي لأتوكَّفُه أن يهرب إليّ.

وذكر يعقوب بن إسحاق، عمن حدّثه، عن كوثر خادم المخلوع، أنّ محمداً أرِقَ ذات ليلة، وهو في حَرْبه مع طاهر، فطلب مَنْ يسامره فلم يقرب إليه أحد من حاشيته، فدعا حاجبيه، فقال: ويلك! قد خطرت بقلبي خطرات فأحضِرْني شاعراً ظريفاً أقطع به بقيّة ليلتي، فخرج الحاجب، فاعتمد أقرب مَنْ بحضرته، فوجد أبا نواس، فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له: لعلك أردتَ غيري! قال: لم أرد أحداً سواك. فأتاه به، فقال: مَنْ أنت؟ قال: خادمك الحسن بن هانئ، وطليقك بالأمس، قال: لاَ تُرَعْ؛ إنه عرضتْ بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر، فإن فعلتَ ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلب، فقال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: قولهم: عفا الله عمّا سلف، وبئس والله ما جرَى فرسِي، واكسري عوداً على أنفِك، وتمنّعي أشهى لك. قال: فقال أبو نواس. حكمي أربع وصائف مقدودات، فأمر بإحضارهنّ، فقال:

فقَدتِ طُولَ اعتلالِكْ ... وما أرى في مِطالِكْ
لقدْ أردتِ جفائي ... وقد أردتُ وصالَكْ
ماذا أردت بهذا! ... تمنّعي أَشْهَى لكْ

وأخذ بيد وصيفة فعزلها، ثم قال:

قد صحّت الأَيمانُ من حَلْفِكِ ... وصِحْتُ حتى متُّ مِنْ خلفِكِ
باللهِ يا ستِّي احنثي مَرَّةً ... ثم اكسِري عُوداً على أنفِكِ

ثم عزل الثانية، ثم قال:

فديْتُكِ مَاذا الصَّلَفْ ... وشتْمُكِ أَهلَ الشرَفْ!
صِلِي عاشقاً مدنفاً ... قَد اعتِب ممّا اقترفْ
ولا تَذكُرِي ما مضَى ... عَفَا اللهُ عما سَلَفْ

ثم عزل الثالثة، وقال:

وَبَاعِثَاتٍ إِليَّ في الغلَسِ ... أَنِ ائتِنَا واحترسْ من العَسَسِ
حتى إذا نُوِّم العُداةُ ولمْ ... أَخشَ رقيباً ولا سَنَا قبَسِ
ركبتُ مُهرِي وقد طرِبتُ إِلى ... حُورٍ حِسانٍ نَوَاعِمٍ لعُسِ

فجئتُ والصبْح قد نهضت له … فَبئسَ واللهِ ما جَرَى فَرَسِي

فقال: خذهنّ لا بارك الله لك فيهنّ!

وذكر عن الموصليّ، عن حسين خادم الرّشيد، قال: لما صارت الخلافة إلى محمد هيئ له منزلٌ من منازله على الشطّ، بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه، فقال: يا سيّدي؛ لم يكن لأبيك فرش يباهي به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا؛ فأحببت أن أفرشه لك، قال: فأحببت أن يفرش لي في أوّل خلافتي المردراج، وقال: مزّقوه، قال: فرأيت والله الخدم والفراشين قد صيّرُوه ممزقاً وفرّقوه.

وذكر عن محمد بن الحسن، قال: حدثني أحمد بن محمد البرمكيّ أن إبراهيم بن المهديّ غنّى محمد بن زبيدة:

هَجَرْتُك حَتى قِيلَ لا يَعْرِفُ القِلى … وزُرْتكِ حَتّى قِيلَ لَيْسَ له صَبرُ

فطرب محمد، وقال: أوقروا زورقه ذهباً.

وذُكر عن عليّ بن محمد بن إسماعيل، عن مخارق، قال: إني لعند محمد بن زُبيدة يوماً ماطراً، وهو مصطبح، وأنا جالس بالقرب منه، وأنا أغنّي وليس معه أحد، وعليه جبّة وَشْي؛ لا والله ما رأيت أحسن منها. فأقبلت أنظر إليها، فقال: كأنك استحسنتَها يا مخارق! قلت: نعم سيدي؛ عليك لأنّ وجهك حسن فيها، فأنا أنظر إليه وأعوّذك. قال: يا غلام، فأجابه الخادم، قال: فدعا بجُبّة غير تلك، فلبسها وخلع التي عليه عليّ، ومكثت هنيهة ثم نظرت إليه، فعاودني بمثل ذلك الكلام، وعاودته، فدعا بأخرى حتى فعل ذلك بثلاث جِباب ظاهرتُ بينها. قال: فلما رآها عليَّ ندم وتغيّر وجهه، وقال: يا غلام، اذهب إلى الطباخين فقل لهم: يطبخوا لنا مصليّة، ويجيدوا صنعتها، وأتني بها الساعة، فما هو إلاأن ذهب الغلام حتى جاء الخِوان، وهو لطيف صغير، في وسطه غضّارة ضَخْمة ورغيفان، فوضعت بين يديه، فكسر لقمة فأهوى بها إلى الصحيفةَ، ثم قال: كُلْ يا مخارق، قلت: يا سيّدي، أعفِني من الأكل، قال: لست أعفيك فكلْ، فكسرت لقمة، ثم تناولت شيئاً، فلما وضعته في فمي، قال: لعنك الله! ما أشرهك! نغّصتها عليّ وأفسدتَها، وأدخلت يدك فيها، ثم رفع الغضّارة بيده، فإذا هي في حجْري، وقال: قم لعنك الله! فقمت، وذاك

الودك والمرَق يسيل من الجباب ، فخلعتها وأرسلت بها إلى منزلي ، ودعوت القصّارين والوشائين فجهدت جهدي أن تعود كما كانت فما عادت .

وذُكر عن البحتريّ أبي عبادة ، عن عبيد الله بن أبي غَسّان ، قال : كنت عند محمد في يوم شاتٍ شديد البرْد ؛ وهو في مجلس له مفرد مفروش بفرش ؛ قلّما رأيت أرفع قيمة مثله ولا أحسن ، وأنا في ذلك اليوم طاوٍ ثلاثة أيام ولياليهنّ إلاّ من النبيذ ؛ والله لا أستطيع أن أتكلّم ولا أعقل ، فنهض نهضة البول ، فقلت لخادم من خدم الخاصّة : ويلك! قد والله متّ ، فهل من حيلة إلى شيء تلقيه في جوفي يبرد عنّي ما أنا فيه! فقال : دعني حتى أحتال لك وأنظر ما أقول ، وصدّق مقالتي ، فلما رجع محمد وجلس نظر الخادم إليّ نظرة ، فتبسّم ، فرآه محمد ، فقال : ممَّ تبسَّمت؟ قال : لا شيء يا سيدي ، فغضب . قال البحتريّ : فقال : شيء في عبيد الله بن أبي غسان ؛ لا يستطيع أن يشمّ رائحة البطيخ ولا يأكله ، ويجزع منه جزعاً شديداً . فقال : يا عبيد الله هذا فيك؟ قال : قلت : إي والله يا سيّدي ، ابتليت به ، قال : ويحك! مع طيب البطّيخ وطيب ريحه! قال : فقلت : أنا كذا ، قال : فتعجّب ثم قال : عليّ ببِطيخ ، فأتِيَ منه بعدّة ، فلما رأيته أظهرت القشعريرة منه ، وتنحّيت . قال : خذوه ، وضعوا البِطّيخ بين يديه ، قال : فأقبلت أريه الجزع والاضطراب من ذلك ، وهو يضحك ، ثم قال : كُلْ واحدة ، قال : فقلتُ : يا سيّدي ، تقتلني وترمي بكلّ شيء في جوفي وتهيّج عليّ العلل ، الله الله فيّ! قال : كلْ بِطيخة ولك فرش هذا البيت ؛ عليّ عهد الله بذلك وميثاقه ، قلت : ما أصنع بفرش بيت ، وأنا أموت إن أكلت! قال : فتأبّيت ، وألحّ عليّ ، وجاء الخادم بالسكاكين فقطعوا بطيخة ، فجعلوا يحشونها في فمي ، وأنا أصرخُ وأضطرب ؛ وأنا مع ذلك أبلع ، وأنا أريه أني بِكرْه أفعل ذلك وألطم رأسي ، وأصيح وهو يضحك ، فلما فرغت تحوّل إلى بيت آخر ، ودعا الفرّاشين ، فحملوا فرش ذلك البيت إلى منزلي ، ثم عاودني في فرش ذلك البيت في بطيخة أخرى ، ثم فعل كفعله الأول ، وأعطاني فرش البيت ؛ حتى أعطاني فرش ثلاثة أبيات ؛ وأطعمني ثلاث بطّيخات ، قال : وحسنت والله حالي ، واشتدّ ظهري .

قال : وكان منصور بن المهديّ يريه أنه ينصح له ، فجاء وقد قام محمد يتوضأ ، وعلمت أن محمداً سيعقبني بشرّ ندامة على ما خرج من يديه ؛ فأقبل عليّ

منصور ومحمد غائب عن المجلس ، وقد بلغه الخبر ، فقال: يا بن الفاعلة ، تخدع أمير المؤمنين ، فتأخذ متاعه! والله لقد هممتُ أفعل وأفعل ، فقلت: يا سيّدي ، قد كان ذاك؛ وكان السبب فيه كذا وكذ ، فإن أحببتَ أن تقتلني فتأثَم فشأنك ، وإن تفضّلت فأهلٌ لذلك أنت ، ولستُ أعود. قال: فإني أتفضّل عليك. قال: وجاء محمد ، فقال: افرشوا لنا على تلك البرْكة ، ففرشوا له عليها ، فجلس وجلسنا وهي مملوءة ماء ، فقال: يا عمّ ، اشتهيتُ أن أصنع شيئاً؛ أرمي بعبيد الله إلى البرْكة وتضحك منه. قال: يا سيّدي إن فعلتَ هذا قتلتَه لشدة برد الماء وبرد يومنا هذا ، ولكني أدلك على شيء خيرتُ به ، طيّب ، قال: ما هو؟ قال: تأمر به يُشدّ في تخت ، ويُطرح على باب المتوضأ ، ولا يأتي بابَ المتوضّأ أحد إلا بال على رأسه. فقال: طيّب والله؛ ثم أتَى بتخت فأمر فشُددت فيه ، ثم أمر فحمِلت وألقِيتُ على باب المتوضأ ، وجاء الخدم فأرخوا الرِّباط عني ، وأقبلوا يرونه أنهم يبولون عليّ وأنا أصرخ ، فمكث بذلك ما شاء الله وهو يضحك. ثم أمر بي فحُلِلتُ ورأيته أني تنظّفت وأبدلت ثيابي وجاوزت عليه(١).

وذكر عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع عن أبيه ـ وكان حاجبَ المخلوع ـ قال: كنتُ قائماً على رأسه ، فأتَى بغدَاء فتغدّى وحده ، وأكل أكلاً عجيباً ، وكان يوماً يعدّ للخلفاء قبله على هيئة ما كان يُهيَّأ لكلّ واحد منهم يأكل من كلّ طعام ، ثم يؤتَى بطعامه. قال: فأكل حتى فرغ ثم رفع رأسه إلى أبي العنبر ـ خادم كان لأمه ـ فقال: اذهب إلى المطبخ ، فقل لهم يهيئون لي بزْماورْد ، ويتركونه طوالاً لا يقطّعونه ، ويكون حشوه شحوم الدّجاج والسمن والبَقْل والبيض والجبن والزيتون والجوز ، ويكثرون منه ويعجلونه؛ فما مكث إلا يسيراً حتى جاءوا به في خوان مربّع ، وقد جعل عليه البزْماورد الطوال ، على هيئة القبة العبدصمديّة ، حتى صيّر أعلاها بزماوردة واحدة ، فوُضع بين يديه ، فتناول واحدةً فأكلها ، ثم لم يزل كذلك حتى لم يُبقِ على الخوان شيئاً.

وذكر عن عليّ بن محمد أنّ جابر بن مصعب حدّثه ، قال: حدثني مخارق ، قال: مرّت بي ليلة ما مرّت بي مثلها قطّ ، إني لفي منزلي بعد ليلٍ؛ إذ أتاني رسول

---

(١) لهذا الخبر الطويل مع الأبيات الشعرية (٥١٨ ـ ٥١٩) انظر الوزراء والكتاب (٢٩٦).

محمد ـ وهو خليفة ـ فركض بي ركضاً ، فانتهى بي إلى داره ، فأدخِلت فإذا إبراهيم بن المهديّ قد أرسل إليه كما أرسل إليّ ، فوافينا جميعاً ، فانتهى إلى باب مُفضٍ إلى صحن ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من شمع محمد العظام ، وكأنّ ذلك الصحن في نهار ، وإذا محمد في كُرّج ، وإذا الدار مملوءة وصائف وخدماً ، وإذا اللعّابون يلعبون ، ومحمد وسطهم في الكرّج يرقص فيه ، فجاءنا رسول يقول: قال لكما: قُوما في هذا الموضع على هذا الباب مما يلي الصحن ، ثم ارفعا أصواتكما معبّراً ومقصّراً عن السورناي ، واتبعاه في لحنه قال: وإذا السورناي والجواري واللعابون في شيء واحد:

هذي دنانير تنساني وأذكرها

تتبع الزَّمار. قال: فوالله ما زلتُ وإبراهيم قائمين نقولها ، نشقّ بها حلوقنا حتى انفلق الصبح ، ومحمد في الكرّج ما يسأمه ولا يملّه حتى أصبح يدنو منا ، أحياناً نراه ، وأحياناً يحول بيننا وبينه الجواري والخدم[(١)].

وذكر الحسين بن فراس مولى بني هاشم ، قال: غزا الناس في زمان محمد على أن يردّ عليهم الخُمس ، فرُدّ عليهم ، فأصاب الرجل ستة دنانير ، وكان ذلك مالاً عظيماً.

* * *

وذكر عن ابن الأعرابيّ ، قال: كنت حاضر الفضل بن الربيع ، وأتِيَ بالحسن بن هانئ ، فقال: رُفع إلى أمير المؤمنين أنك زنديق ، فجعل يبرأ من ذلك ويحلف ، وجعل الفضل يكرّر عليه ، وسأله أن يكلّم الخليفة فيه ، ففعل وأطلقه ، فخرج وهو يقول:

أَهلـــي أَتيتكُـــمُ مـــنَ القبْـــرِ والنـــاسُ محْتَبســـون للحَشـــرِ
لـــولا أَبـــو العبـــاسِ مـــا نظـــرَتْ عينـــي إِلـــى ولـــدٍ ولا وفـــرِ
فـــالله أَلبسنـــي بِـــه نعمـــاً شَغَلَـــتْ حسـابَتهـا يـدَيْ شكـرِي

(١) هذا الخبر المنكر (٥٢٣/ ٥٢٤، ١٠٧) رواه الطبري منقطعاً عن علي بن محمد بن إسماعيل عن جابر بن مصعب عن مخارق (راوي الخبر) ولم نجد لمخارق ولا لتلميذه جابر ترجمة والخبر لا يصح.

لقِيتهـا مـن مُفهّـمٍ فهـمِ فمـددتهـا بـأنـامـلٍ عشْـرِ

وذكر عن الرياشيّ أن أبا حبيب الموشيّ حدّثه ، قال: كنت مع مؤنس بن عمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ، فقال لي مؤنس: لو دخلنا على أبي نواس! فدخلنا عليه السجن ، فقال لمؤنس: يا أبا عمران ، أين تريد؟ قال: أردت أبا العباس الفضل بن الربيع ، قال: فتبلّغه رقعة أعطيكها؟ قال: نعم ، قال: فأعطاه رقعة فيها:

مـا مـن يـدٍ فـي النـاسِ واحـدَةٍ إلا أَبـو العبـاسِ مـولاهـا
نـامَ الثقـاتُ علـى مضـاجعِهـمْ وسـرى إلـى نفسـي فـأحيَـاهـا
قـد كنـتُ خفتُـكَ ثـم أَمّنِنـي مـن أَن أَخـافـكَ خـوفُـكَ الله
فَعفـوتَ عنِّـي عفـوَ مُقتـدِرٍ وجبَـت لـه نقَـمٌ فـأَلغَـاهـا

قال: فكانت هذه الأبيات سببَ خروجه من الحبس[١].

وذُكر عن محمد بن خلاد الشروِيّ ، قال: حدثني أبي قال: سمع محمد شعر أبي نواس وقوله:

ألا سَقِّنِي خَمْراً وقل لي هل الخَمْرُ

وقوله:

اسقنيهـا يـا ذُفـافـهْ مُـزَّة الطَّعْـم سُـلافـهْ
ذَلَّ عنـدِي مَـنْ قـلاهـا لِـرَجـاءٍ أَو مخـافَـهْ
مثـلَ مـا ذَلَّـتْ وضـاعَـتْ بعـد هـارونَ الخِـلافـهْ

قال: ثم أنشد له:

فجـاءَ بهـا زَيتيَّـةً ذَهَبيَّـةً فلم تستطِع دُونَ السُّجُودِ لها صبرا

قال: فحبسه محمد على هذا ، وقال: إيه! أنت كافر ، وأنت زنديق. فكتب فِي ذلك إلى الفضل بن الربيع:

أَنـت يـا بـنَ الـرَّبيـع علَّمتَنـي الخيـر وعـوَّدتَنيـهِ والخيَـرُ عـادَهْ

---

(١) مخارق راوي الخبر ترجم له ابن عساكر (٥٧/ ١٣٢) وهو من المغنّين ومتى كان المغنى عدلاً عند أئمة الجرح والتعديل حتى يؤخذ بخبره؟!! وأخباره عند الشعوبي أبي الفرج صاحب كتاب (الأغاني/ ١٨/ ٣٣٦).

فـــارعَـــوَى بـــاطِلـــي وأَقصَـــرَ جَهْـ لـــي وأَظهـــرتُ رهبَـــةً وَزَهـــادَهْ
لو تَرَاني شبَّهْتَ بي الحسَنَ البَصـ ريَّ فـــي حـــالِ نُسْكِـــهِ وقتَـــادَهْ
بـــرُكُـــوعٍ أَزينُـــهُ بسُجُـــودٍ واصفِـــرارٍ مثـــلِ اصفـــرار الجـــرادهْ
فـــادعُ بـــي لا عَـــدِمـــتَ تقـــويـــمَ مثلـــي فتـــأَمّـــل بعينـــكَ السَّجّـــاده
لـــو رآهـــا بعْـــضُ المُـــرَائيـــنَ يـــومـــاً لاشتَـــرَاهـــا يُعِـــدُّهـــا للشَّهـــادِهْ[1]

* * *

(١) ذكر الجهشياري هذه الأشعار عنواناً لتوبته (انظر الوزراء والكتاب/ ٢٩٧).

خلافـة المأمون عبد الله بن هـارون

وفي هذه السنة وضعت الحرب ـ بين محمد وعبد الله ابني هارون الرّشيد ـ أوزارها، واستوسَق الناس بالمشرق والعراق والحجاز لعبد الله المأمون بالطاعة[١].

وفيها خرج الحسن الهِرْش في ذي الحجة منها يدعو إلى الرضيّ من آل محمد ـ بزعمه ـ في سفْلة الناس، وجماعة كثيرة من الأعراب؛ حتى أتى النّيل، فجبى الأموالَ، وأغار على التجّار، وانتهب القرى، واستاق المواشي.

وفيها ولّى المأمون كلّ ما كان طاهر بن الحسين افتتحه من كُور الجبال وفارس والأهواز والبَصْرة والكوفة والحجاز واليمن الحسنَ بن سهل أخا الفضل ابن سهل؛ وذلك بعد مقتل محمد المخلوع ودخول الناس في طاعة المأمون.

وفيها كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين، وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلّها إلى خلفاء الحسن بن سهل، وأن يشخص عن ذلك كلّه إلى الرقّة، وجعل إليه حرب نصر بن شبت، وولاّه الموصل والجزيرة والشام والمغرب[٢].

وفيها قدم عليّ بن أبي سعيد العراق خليفةً للحسن بن سهل على خراجها، فدافع طاهر عليّاً بتسليم الخراج إليه؛ حتى وفّى الجند أرزاقهم، فلما وفّاهم سلّم إليه العمل.

---

(١) هذا خبر صحيح وقد أيده خليفة بن خياط بقوله واستقامت لأمير المؤمنين عبد الله المأمون بن أمير المؤمنين (تأريخ خليفة/ ٣١٠).

(٢) قال الجهشياري: وكتب ـ أي المأمون ـ إلى طاهر وهرثمة بتسليم ما في أيديهما من العمل إلى علي بن أبي سعيد ابن خالة الفضل بن سهل (الوزراء والكتاب/ ٣٠٥) وانظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٦).

وفيها كتب المأمون إلى هَرْثمة يأمره بالشُّخوص إلى خُراسان.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ[١].

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث المشهورة

فمن ذلك قدومُ الحسن بن سهل فيها بغدادَ من عند المأمون، وإليه الحرب والخراج، فلمّا قدمها فرّق عماله في الكُور والبلدان[٢].

وفيها شخص طاهر إلى الرّقة في جُمادى الأولى، ومعه عيسى بن محمد بن أبي خالد. وفيها شخص أيضاً هَرْثمة إلى خُراسان.

وفيها خرج أزهر بن زهير بن المسيب إلى الهِرْش، فقتله في المحرم.

وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلوْن من جُمادى الآخرة يدعو إلى الرضى من آل محمد والعمل بالكتاب والسنّة، وهو الذي يقال له ابن طباطبا، وكان القيّمَ بأمره في الحرب وتدبيرها وقيادة جيوشه أبو السرايا، واسمه السريّ بن منصور، وكان يذكر أنه من ولد هانى بن قبيصة بن هانى بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهل بن شيبان[٣].

* * *

ذكر الخبر عن سبب خروج محمد بن إبراهيم بن طباطبا

اختُلف في ذلك، فقال بعضهم: كان سببُ خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عمّا كان إليه من أعمال البلدان التي فتحها وتوجيهه إلى ذلك الحسن بن

(١) وكذلك قال خليفة (٣١٠) والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٥٦).
(٢) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٠).
(٣) انظر تعليقنا (٨/ ٥٣٣/ ١١٦).

سهل؛ فلمّا فعل ذلك تحدّث الناس بالعراق بينهم أن الفَضْل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قوّاده من الخاصّة والعامة ، وأنه يُبرم الأمور على هُواه ، ويستبد بالرأي دونه ، فغضب لذلك بالعراق مَنْ كان بها من بني هاشم وجوه الناس ، وأنفوا من غلبَة الفضل بن سهل على المأمون ، واجترؤوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار؛ فكان أوّل مَنْ خرج بالكوفة ابن طباطبا الذي ذكرت.

وقيل كان سبب خروجه أن أبا السّرايا كان من رجال هَرْثمة ، فمطله بأرزاقه وأخّره بها ، فغضب أبو السرايا من ذلك ، ومضى إلى الكوفة فبايع محمد بن إبراهيم وأخذ بالكوفة ، واستوسق له أهلها بالطاعة ، وأقام محمد بن إبراهيم بالكوفة ، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم[1].

ذكر الوقعة بين أهل الكوفة وزهير بن المسيّب

وفيها وجّه الحسن بن سهل زُهير بن المسيّب في أصحابه إلى الكوفة ـ وكان عامل الكوفة يومئذ حين دخلها ابن طباطبا سليمان بن أبي جعفر المنصور من قبَل الحسن بن سهل ، وكان خليفة سليمان بن أبي جعفر بها خالد بن محجّل الضبّيّ ـ فلما بلغ الخبر الحسن بن سهل عنّف سليمان وضعّفه ، ووجّه زهير بن المسيّب في عشرة آلاف فارس وراجل؛ فلما توجّه إليهم وبلغهم خبرُ شخوصه إليهم تهيَّئوا للخروج إليه؛ فلم تكن لهم قوّة على الخروج ، فأقاموا حتى إذا بلغ زهير قرية شاهى خرجوا فأقاموا حتى إذا بلغوا القنطرة أتاهم زُهير ، فنزل عشية الثلاثاء صعْنبا ، ثم واقعهم من الغد فهزموه واستباحوا عسكره ، وأخذوا ما كان معه من مال وسلاح ودوابّ وغير ذلك يوم الأربعاء.

فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة بين أهل الكوفة وزهير بن المسيّب ـ وذلك يوم الخميس لليلة خلت من رجب سنة تسع وتسعين ومائة ـ

---

(١) هذان سببان ذكرهما الطبري لتمرد أبي السرايا وخروجه على الخلافة وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري فحوى السبب الثاني فقال: وكان أبو السرايا مع هرثمة من أصحابه فمنعوه أرزاقه فغضب وخرج حتى أتى الأنبار.. الخ (المعارف ١٩٦).

مات محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة؛ فذُكر أن أبا السرايا سمّه ، وكان السبب في ذلك ـ فيما ذُكر ـ أنّ ابن طباطبا لما أحرزَ ما في عسكر زهير من المال والسلاح والدوابّ وغير ذلك منعه أبا السرايا ، وحظره عليه؛ وكان النّاس له مطيعين ، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمّه؛ فلما مات ابن طباطبا أقام أبو السّرايا مكانَه غلاما أمردَ حدَثاً يقال له محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فكان أبو السرايا هو الذي ينفِّذ الأمور ، ويولّى مَنْ رأى ، ويعزل من أحبّ؛ وإليه الأمور كلها ، ورجع زهير من يومه الذي هُزم فيه إلى قصر ابن هبيرة ، فأقام به. وكان الحسن بن سهل قد وجّه عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروَرُّوذي إلى النِّيل حين وُجِّه زهير إلى الكوفة ، فخرج بعدما هُزِم زهير عبدوس يريد الكوفة بأمر الحسن بن سهل؛ حتى بلغ الجامع هو وأصحابه ، وزهير مقيم بالقصر ، فتوجّه أبو السرايا إلى عبدوس ، فواقعه بالجامع ، يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من رجب فقتله ، وأسرَ هارون بن محمد بن أبي خالد ، واستباح عسكره. وكان عبدوس ـ فيما ذكر ـ في أربعة آلاف فارس ، فلم يفلت منهم أحد ، كانوا بين قتيل وأسير ، وانتشر الطالبيُّون في البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ، ونقش عليها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ، ولما بلغ زهيراً قتلُ أبي السرايا عبدوساً وهو بالقصر ، انحاز بمن معه إلى نهر الملك.

ثم إن أبا السرايا أقبل حتى نزل قصر ابن هبيرة بأصحابه ، وكانت طلائعه تأتي كُوثَى ونهر الملك ، فوجّه أبو السرايا جيوشاً إلى البصرة وواسط فدخلوهما ، وكان بواسط ونواحيها عبد الله بن سعيد الحَرَشيّ والياً عليها من قبَل الحسن بن سهل ، فواقعه جيش أبي السرايا قريباً من واسط فهزموه ، فانصرف راجعاً إلى بغداد ، وقد قتل من أصحابه جماعة وأسر جماعة. فلما رأى الحسن بن سهل أنّ أبا السرايا ومَنْ معه لا يلْقوْن له عسكراً إلا هزموه ، ولا يتوجّهون إلى بلدة إلا دخلوها؛ ولم يجد فيمن معه من القوّاد مَنْ يكفيه حربه ، اضطر إلى هرثمة ـ وكان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل العراقَ والياً عليها من قبَل المأمون. سلّم ما كان بيده من الأعمال ، وتوجه نحو خُراسان مغاضباً للحسن ، فسار حتى بلغ حُلوان ـ فبعث إليه السنديّ وصالحاً صاحب المصلّى يسأله الانصراف إلى بغداد

لحرب أبي السرايا ، فامتنع وأبى . وانصرف الرسول إلى الحسن بإبائه ؛ فأعاد إليه السنديّ بكتب لطيفة ، فأجاب ، وانصرف إلى بغداد ، فقدمها في شعبان ؛ فتهيّأ للخروج إلى الكوفة . وأمر الحسن بن سهل عليّ بن أبي سعيد أن يخرج إلى ناحية المدائن وواسط والبصرة ، فتهيّئوا لذلك . وبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة ، فوجّه إلى المدائن ، فدخلها أصحابه في رمضان ، وتقدّم هو بنفسه وبمن معه حتى نزل نهر صَرْصَر مما يلي طريق الكوفة في شهر رمضان . وكان هرثمة لمّا احتبس قدومه على الحسن ببغداد أمر المنصور بن المهديّ أن يخرج فيعسكر بالياسريّة إلى قدوم هرثمة ، فخرج فعسكر ، فلما قدم هَرْثمة خرج فعسكر بالسفينتين بين يدي منصور ، ثم مضى حتى عسكر بنهر صَرْصر بإزاء أبي السرايا ، والنهر بينهما ؛ وكان عليّ بن أبي سعيد معسكراً بكلْوَاذى ، فشخص يوم الثلاثاء بعد الفطْر بيوم ، ووجّه مقدمته إلى المدائن ، فقاتل بها أصحاب أبي السرايا غداة الخميس إلى اللّيل قتالاً شديداً. فلمّا كان الغد غدا وأصحابه على القتال فانكشف أصحاب أبي السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن . وبلغ الخبر أبي السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن ؛ فلمّا كان ليلة السبت لخمس خَلَوْن من شوّال رجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة ؛ فنزل به ، وأصبح هرثمة فجدَّ في طلبه ، فوجد جماعة كثيرة من أصحابه فقتلهم ، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل ، ثم صار هرثمة إلى قصر ابن هبيرة ، فكانت بينه وبين أبي السرايا وقعة قتل فيها من أصحاب أبي السرايا خلْق كثير ، فانحاز أبو السّرايا إلى الكوفة ، فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبيين على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة ، فانتهبوها وخرّبوها وأخرجوهم من الكوفة ، وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً ، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس فأخذوها . وكان هَرْثمة ـ فيما ذكر ـ يخبر الناس أنه يريد الحجّ ، فكان قد حبس من يريد الحجّ من خُراسان والجبال والجزيرة وحاجّ بغداد وغيرهم ؛ فلم يدَع أحداً يخرج ، رجاء أن يأخذ الكوفة ، ووجّه أبو السرايا إلى مكة والمدينة مَنْ يأخذهما ، ويقيم الحجّ للناس.

وكان الوالي على مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وكان الذي وجّهه أبو السرايا إلى مكة حسين بن

حسن الأفطس بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب والذي وجّهه إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، فدخلها ولم يقاتله بها أحد ، ومضى حسين بن حسن يريد مكة فلمّا قرب منها وقف هُنيهة لمن فيها. وكان داود بن عيسى لمّا بلغه توجيه أبي السرايا حسين بن حسن إلى مكة لإقامة الحجّ للناس جمع موالي بني العبّاس وعبيد حوائطهم ، وكان مسرور الكبير الخادم قد حجّ في تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه ، فتعبّأ لحرب مَنْ يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيّين ، فقال لداود بن عيسى: أقم لي شخصَك أو شخص بعض ولدك ، وأنا أكفيك قتالَهم ، فقال له داود: لا أستحلُّ القتال في الحرم؛ والله لئن دخلوا من هذا الفجّ لأخرجنّ من هذا الفجّ الآخر ، فقال له مسرور: تُسَلِّم ملكك وسلطانك إلى عدوّك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مالك! قال له داود: أيّ مُلْك لي! والله لقد أقمتُ معهم حتى شيّخْت فما ولّوْني ولاية حتى كبرتْ سني ، وفنيَ عمري ، فولّوني من الحجاز ما فيه القوت؛ إنما هذا الملك لك وأشباهك؛ فقاتل إن شئت أو دَعْ فانحاز داود من مكة إلى ناحية المُشاش ، وقد شدّ أثقالَه على الإبل ، فوجّه بها في طريق العراق ، وافتعل كتاباً من المأمون بتولية ابنه محمد بن داود على صلاة الموسم ، فقال له: اخرج فصلّ بالناس الظهر والعصر بمنىً ، والمغرب والعشاء ، وبتْ بمنىً ، وصلّ بالناس الصبح ، ثم اركب دوابّك فانزل طريق عرَفَة ، وخُذْ على يسارك في شعب عمرو؛ حتى تأخذ طريق المشاش ، حتى تلحقني ببستان ابن عامر. ففعل ذلك ، وافترق الجمع الذي كان داود بن عيسى معهم بمكَّة من موالي بني العباس وعبيد الحوائط ، وفتّ ذلك في عضد مسرور الخادم ، وخشي إن قاتلهم أن يميل أكثر الناس معهم؛ فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق ، وبقي الناس بعرفة؛ فلمّا زالت الشمس وحضرت الصّلاة ، تدافعها قوم من أهل مكة ، فقال أحمد بن محمد بن الوليد الردميّ ـ وهو المؤذن وقاضي الجماعة والإمام بأهل المسجد الحرام: إذ لم تحضر الولاة ـ لقاضي مكة محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ: تقدم فاخطب بالناس ، وصلّ بهم الصلاتين؛ فإنك قاضي البلد. قال: فلمن أخطبُ وقد هرب الإمام؛ وأطلّ هؤلاء القوم على الدخول! قال: لا تدْعُ لأحد ، قال له محمد: بل أنت فتقدّمْ واخطب ، وصلّ بالناس ، فأبى؛ حتى قدّموا رجلا من عُرْض أهل مكة ، فصلى بالناس الظهر

والعصر بلا خطبة ، ثم مضوا فوقفوا جميعاً بالموقف من عرَفَة حتى غربت الشمس ، فدفع الناس لأنفسهم من عرفة بغير إمام ، حتى أتوْا مزدلفة ، فصلّى بهم المغرب والعشاء رجلٌ أيضاً من عُرْض الناس وحسين بن حسن يتوقف بسرف يرهب أن يدخل مكة ، فيُدفع عنها ويقاتَل دونها ، حتى خرج إليه قوم من أهل مكة ممّن يميل إلى الطالبيّين ، ويتخوّف من العباسيين ، فأخبروه أن مكة ومنىً وعرَفة قد خلتْ ممن فيها من السلطان ، وأنهم قد خرجوا متوجّهين إلى العراق. فدخل حسين بن حسن مكة قبل المغرب من يوم عرفة ، وجميع من معه لا يبلغون عشرة ، فطافوا بالبيت وسعوْا بين الصفا والمروة ، ومضوا إلى عرفة في الليل ، فوقفوا بها ساعة من الليل ، ثم رجع إلى مُزدلفة فصلى بالناس الفجْر ، ووقف على قُزَح ، ودفع بالناس منه.

وأقام بمنى أيامَ الحجّ ، فلم يزل مقيماً حتى انقضت سنة تسع وتسعين ومائة ، وأقام محمد بن سليمان بن داود الطالبيّ بالمدينة السنة أيضاً، فانصرف الحاج ومَنْ كان شهد مكة والموسم، على أن أهل الموسم قد أفاضوا من عرَفَة بغير إمام.

وقد كان هرثمة لما تخوّف أن يفوته الحجّ ـ وقد نزل قرية شاهى ـ واقع أبا السرايا وأصحابه في المكان الذي واقعه فيه زهير ، فكانت الهزيمة على هرثمة في أول النهار ، فلما كان آخر النهار كانت الهزيمةُ على أصحاب أبي السرايا ، فلما رأى هرثمة أنه لم يصر إلى ما أراد ، أقام بقرية شاهى ، وردّ الحاج وغيرهم ، وبعث إلى المنصور بن المهديّ فأتاه بقرية شاهى ، وصار يكاتب رؤساء أهل الكوفة ، وقد كان عليّ بن أبي سعيد لما أخذ المدائن توجّه إلى واسط فأخذها ، ثم إنه توجّه إلى البصرة فلم يقدر على أخذها حتى انقضت سنة تسع وتسعين ومائة[١].

---

(١) هذا الخبر الطويل في وصف خروج ابن طباطبا وأبي السرايا والمعارك الطويلة التي دارت في حينها وقد ذكر الطبري كل هذه التفاصيل بلا إسناد أما بالنسبة لأصل الخبر فابن قتيبة الدينوري وهو مؤرخ متقدم قد ذكر خلاصة الخبر في كتابه المعارف فقال:
وظهر «ابنُ طباطبا العَلوي» بالكوفة ، وانضم إليه «أبو السَّرايا» فغلب على «الكوفة» ، ووثب العلويون بـ«مكة» ، و«المدينة» ، و«اليمن» ، فغلبوا عليها. فوجّه «طاهر» «زُهيرَ بن المُسيِّب» إلى أهل «الكوفة» ، فقاتلهم ، فهزمه أهل «الكوفة» واستباحوا عسكره ، ورجع =

= إلى «بغداد». وسار «طاهر» إلى «الرَّقة» فالتقى هو و «نَصر بن شِبث»، فقاتله «نصر» وأَثخن في أصحابه، ولم تزل الحرب بينه وبينه إلى أن ورد «المأمون» «بغداد» فقدم عليه. ووجَّه «الحسنُ بن سهل» «عَبدوسَ بن محمد بن أبي خالد» إلى «أبي السَّرايا» فالتقوا، فقتل «عَبدوس» وأصحابه، وأَقبل أهل «الكوفة» حتى ساروا إلى نهر «صَرصر» وأخذوا «واسط» و«البصرة». فبعث «الحسنُ بن سهل» «السنديَّ بن شاهك» إلى «هَرثمة» وهو بـ «حُلوان»، فردّه، وبعث به فسار إلى نهر «صَرصر» فكشفهم، وأتبعهم، فأدركهم بالقرب من قصر «ابن هُبيرة» فواقعهم، فقَتل منهم خلقاً كثيراً، وانهزموا حتى دخلوا «الكوفة». ومات «ابن طباطبا» فَنصب «أبو السرايا» مكانه فتىً من العلويين، يقال له: محمد بن محمد (المعارف/ ١٩٧).

وأما خليفة فقد قال: وفيها خرج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وهو الذي يقال له ابن طباطبا بالكوفة يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة، فوافاه أبو السرايا واسمه السري بن منصور الشيباني - في ذلك اليوم فهرب والي الكوفة وصارت في أيديهم بغير قتال، ثم مات محمد بن إبراهيم في أول شعبان في تلك السنة فبويع محمد بن زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب (تأريخ خليفة ٣١٠).

وفيما يتعلق بالمدينة وأحداثها في تلك السنة فقد قال خليفة: - وفيها وثب محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي (بالبصرة) فصارت إليه بغير قتال ووثب محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن حسن بن علي بالمدينة فصارت إليه بغير قتال (تأريخ خليفة/ ٣١١) والبصرة تصحيف هنا والصواب مكة كما ذكر الطبري والله أعلم وأما البسوي فقد تحدث فقط عن أحداث مكة في موسم تلك السنة دون أحداث العراق.

وكان داود بن عيسى عامل مكة، واستعمل ابنه مُحمَد بن داود على الحج سنة تسع وتسعين ومائة، فلما كان يوم سابع من ذي الحجة خطب الناس بمكة، وأخبرهم مناسكهم، ثم خرج يوم التروية إلى منى، وأمسى بالحج حتى صلى بالناس بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولم يصل بهم الصبح، وخرج من آخر الليل حتى لقيه بطرف الحرم، ثم توجهوا في طريق العراق هاربين، ودخل الحُسين بن الحسن مكة يوم عرفة عند صلاة العصر وخطب الناس بمكة يوم عرفة، وانتظر الناس بعرفة حتى كادت العصر أنْ تفوت، ثم صلى الناس بعرفة بغير إمام، ثم خرجوا إلى الموقف ودفعوا بغير إمام حتى أتى حُسين بن حسن عرفة إلى آخر الليل فوقف بها، ثم جاء المزدلفة من ليلته، وصلى بالناس بالمُزدلفة فوقف بهم بقُزح، ثم جمع ثم دفع بهم حتى رمى الجمرة وأفاض يوم النحر (المعرفة والبسوي/ ١/ ٥٩) ونعود مرة أخرى إلى خليفة إذ تحدث عن أحداث مكة في الموسم من سنة (١٩٩ هـ) فقال وبعث المأمون سليمان بن داود بن عيسى بن موسى لإقامة الحج فوثب ابن الأفطس =

ثم دخلت سنة مائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

ذكر الخبر عن هرب أبي السرايا وما آل إليه أمره

فمما كان فيها من ذلك هرب أبي السرايا من الكوفة ودخول هرثمة إليها.

ذُكِر أن أبا السرايا هرب هو ومن معه من الطالبيّين من الكوفة ليلةَ الأحد لأربع عشرة ليلة بقيتْ من المحرم من سنة مائتين، حتى أتى القادسيّة. ودخل منصور ابن المهديّ وهرثمة الكوفة صبيحةَ تلك الليلة، وأمنوا أهلَها، ولم يعرضوا لأحد منهم، فأقاموا بها يومهم إلى العصر، ثم رجعوا إلى معسكرهم، وخلّفوا بها رجلاً منهم يقال له غسان بن أبي الفرج أبو إبراهيم بن غسان صاحب حرس صاحب خراسان، فنزل في الدار التي كان فيها محمد بن محمد وأبو السرايا.

= واسمه: محمد بن علي بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب بمكة فبيَّض فتنحى سليمان ولم يمض إلى عرفة ووقف الناس بغير إمام وأتى الحسين بن حسن عرفات ليلة النحر وقد صدر الناس عنها فوقف بالناس غداة جمع (تأريخ خليفة/ ٣١١).

وأما عن المعارك التي قادها أبو السرايا ضد جيوش الخلافة فقد قال خليفة:

وفيها بعث الحسن بن سهل زهير بن المسيب إلى الكوفة، فلقيه أبو السرايا فهزم زهيراً وحوى سفنه وأثقاله، فوجه الحسن بن سهل أيضاً عبدوس بن محمد بن أبي خالد، فلقيه أبو السرايا بالجامع فقتل عبدوساً وعامة أصحابه وحوى عسكره، ووجَّهَ الحسن بن سهل أبا البط أحمد بن عمرو الذهلي، فوجَّه محمد بن محمد بن زيد محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن حسين، فالتقوا بساباط من أرض السواد فهزم أبو البط، وأتى إبراهيم بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي اليمن، ونفى عنها إسحاق بن موسى بن عيسى (تأريخ خليفة/ ٣١١).

ثم تحدث خليفة عن تعيين هرثمة بن أعين القائد العباسي المعروف لقتال أبي السرايا في هذه السنة بعد هزيمة القواد القواد السابقين فقال: وفيها خرج هرثمة بن أعين في شهر رمضان لمحاربة أبي السرايا وأصحابه (تأريخ خليفة/ ٣١١).

ثم إنّ أبا السرايا خرج من القادسيّة هو ومَنْ معه حتى أتوْا ناحية واسط ، وكان بواسط عليّ بن أبي سعيد ، وكانت البصرة بيد العلويّين بعد ، فجاء أبو السرايا حتى عبر دجْلة أسفل من واسط ، فأتى عبْدَسِي؛ فوجد فيها مالاً كان حُمِل من الأهواز ، فأخذه ثم مضى حتى أتى السوس ، فنزلها ومَن معه ، وأقام بها أربعة أيام ، وجعل يعطى الفارس ألفاً والراجل خمسمائة ، فلما كان اليوم الرابع أتاهم الحسن بن علي الباذغيسيّ المعروف بالمأمونيّ. فأرسل إليهم: اذهبوا حيث شئتم ، فإنه لا حاجةَ لي في قتالكم ، وإذا خرجتم من عملي فلست أتبعكم. فأبى أبو السرايا إلا القتال ، فقاتلهم ، فهزمهم الحسن ، واستباح عسكرهم ، وجُرح أبو السرايا جراحة شديدة ، فهرب ، واجتمع هو ومحمد بن محمد وأبو الشوْك ، وقد تفرّق أصحابهم ، فأخذوا ناحية طريق الجزيرة يريدون منزل أبي السرايا برأس العين؛ فلما انتهوا إلى جلولاء عُثِر بهم ، فأتاهم حماد الكُنْدُغُوش فأخذهم ، فجاء بهم إلى الحسن بن سهل ، وكان مقيماً بالنهْروان حين طردته الحربية ، فقدم بأبي السرايا ، فضرب عنقه يوم الخميس لعشر خلوْن من ربيع الأول. وذكروا أنّ الذي تولّى ضرب عنقه هارون بن محمد بن أبي خالد ، وكان أسيراً في أيدي أبي السرايا. وذكروا أنه لم يروا أحداً عند القتل أشدّ جزعاً من أبي السرايا ، كان يضطرب بيديه ورجليه ، ويصيح أشدّ ما يكون من الصياح؛ حتى جُعل في رأسه حبل ، وهو في ذلك يضطرب ويلتوي ويصيح؛ حتى ضربت عنقه. ثم بعث برأسه فطِيف به في عسكر الحسن بن سهل ، وبعث بجسده إلى بغداد ، فصُلِب نصفين على الجسر ، في كلّ جانب نصف ، وكان بين خروجه بالكوفة وقتله عشرة أشهر[١].

---

(١) هذا الخبر عن هزيمة أبي السرايا ودخول هرثمة الكوفة ثم تتبع أبي السرايا من قبل قواد المأمون استغرق الصفحتين [٥٣٤-٥٣٥] ، وقد لخّصه خليفة في تأريخه قائلاً:
سنة مائتين: فيها هزم هرثمة أبا السرايا ومعه محمد بن محمد ، ودخلا الكوفة يوم الأحد للنصف من محرم ، فهرب أبو السرايا ومحمد بن محمد ، فأخذهما حماد الأندغوش بناحية السوس ، فبعث بهما إلى الحسن بن سهل ، فقتل أبا السرايا وصلبه على خشبتين (تأريخ خليفة/ ٣١١).
وكذلك لخّصه ابن قتيبة الدينوري قائلاً:
ولم يزل «هَرثمة» يحاربهم ، وقد أثخنوا في أصحابه حتى ضعفوا وكاتبوه ، وهرب =

وكان عليّ بن أبي سعيد حين عبر أبو السرايا توجّه إليه ، فلمّا فاته توجه إلى البصرة فافتتحها. والذي كان بالبصرة من الطالبيّين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ومعه جماعة من أهل بيته ، وهو الذي يقال له زيد النار ـ وإنما سمي زيد النار لكثرة ما حرّق من الدور بالبصرة من دور بني العباس وأتباعهم؛ وكان إذا أُتِيَ برجل من المسوّدة كانت عقوبته عنده أن يحرقه بالنار ـ وانتهبوا بالبصرة أموالاً ، فأخذه عليّ بن أبي سعيد أسيراً. وقيل إنه طلب الأمان فأمنه. وبعث عليّ بن أبي سعيد ممن كان معه من القواد عيسى بن يزيد الجُلوديّ وورقاء بن جَميل وحمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان وهارون بن المسيّب إلى مكة والمدينة واليمن ، وأمرهم بمحاربة مَّنْ بها من الطالبيين. وقال التميميّ في قتل الحسن بن سهل أبا السرايا:

أَلم تـرَ ضَـرْبـةَ الحَسَـنِ بـن سهْـلٍ ... بسيفِـكَ يـا أَميـرَ المُـؤْمنينَـا
أَدَارت مَـرْوَ رأْسَ أَبـي السـرايـا ... وأَبقـت عِبْـرَةً للعـابـرينـا

وبعث الحسن بن سهل محمد بن محمد حين قتل أبو السرايا إلى المأمون بخراسان[1].

* * *

ذكر الخبر عن خروج إبراهيم بن موسى باليمن

وفي هذه السنة خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب باليمن.

= «أبو السرايا» ومعه العلويُّ. ودخلها «هرثمة» فأقام بها أياماً ، ثم استخلف عليها ، ثم رجع إلى «بغداد» ، ومضى إلى «خُراسان» وظفر بـ «أبي السَّرايا» و«العلويّ» ، فقَتل «أبا السرايا» ، ثم حمل «العلوي» إلى «خُراسان» (المعارف/ ١٩٧).

(١) وذكر خليفة أصل الخبر فقال: وفيها دخل علي بن أبي سعيد وأحمد بن سعيد بن سلم الجلودي البصرة والأمير علي بن أبي سعيد فخرج زيد ومن كان بها من الطالبيين بالبصرة (تأريخ خليفة/ ٣١١) ولم يذكر التفاصيل التي ذكرها الطبري والله أعلم.

ذكر الخبر عنه وعن أمره:

وكان إبراهيم بن موسى ـ فيما ذُكر ـ وجماعة من أهل بيته بمكّة حين خرج أبو السرايا وأمْرُه وأمر الطالبيين بالعراق ما ذُكر. وبلغ إبراهيم بن موسى خبرهم ، فخرج من مكة مع مَنْ كان معه من أهل بيته يريد اليمن ، ووالي اليمن يومئذ المقيم بها من قِبَل المأمون إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس. فلما سمع بإقبال إبراهيم بن موسى العلوي وقربه من صنعاء ، خرج منصرفاً عن اليمن ، في الطريق النجدية بجميع مَّنْ في عسكره من الخيل والرَّجْل ، وخلّى لإبراهيم بن موسى بن جعفر اليمن وكره قتاله ، وبلغه ما كان من فعل عمّه داود بن عيسى بمكة والمدينة؛ ففعل مثل فعله ، وأقبل يريد مكة؛ حتى نزل المُشاش ، فعسكر هناك ، وأراد دخول مكة ، فمنعه مَن كان بها من العلويّين ، وكانت أم إسحاق بن موسى بن عيسى متواريةً بمكة من العلويّين ، وكانوا يطلبونها فتوارت منهم ، ولم يزل إسحاق بن موسى معسكراً بالمشاش ، وجعل مَن كان بمكة مستخفياً يتسللون من رؤوس الجبال ، فأتوا بها ابنها في عسكره. وكان يقال لإبراهيم بن موسى: الجزّار؛ لكثرة مَّن قتل باليمن من الناس وسبَى وأخذ من الأموال[1].

* * *

ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة

وفي هذه السنة في أول يوم من المحرّم منها بعدما تفرّق الحاجّ من مكة جلس حسين بن حسن الأفطس خلف المقام على نُمرقة مثنيّة ، فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجُرّدت منها حتى لم يُبق عليها من كسوتها شيئاً ، وبقيَت حجارة مجرّدة ، ثم كساها ثوبين من قَزّ رقيق ، كان أبو السرايا وجّه بهما معه مكتوب عليهما: أمرَ به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد ، لكسوة بيت الله الحرام ، وأن

(١) انظر تعليقنا الآتي.

يطرح عنه كُسوة الظلَمة من ولد العباس ، لتطهّر من كُسوتهم. وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة.

ثم أمر حسين بن حسن بالكسوة التي كانت على الكعبة فقسمت بين أصحابه من العلويّين وأتباعهم على قدر منازلهم عنده ، وعمَد إلى ما في خزانة الكعبة من مالٍ فأخذه ، ولم يسمع بأحد عنده وديعة لأحد من ولد العباس وأتباعهم إلاّ هجم عليه في داره؛ فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل؛ وإن لم يجد عنده شيئاً حبَسه وعذّبه حتى يفتدي نفسه بقدر طَوْلِه ، ويقرّ عند الشهود أن ذلك للمسوّدة من بني العباس وأتباعهم ، حتى عمّ هذا خلقاً كثيراً.

وكان الذي يتولى العذابَ لهم رجلاً من أهل الكوفة يقال له محمد بن مسلمة ، كان ينزل في دار خالصة عند الحنّاطين؛ فكان يقال لها دار العذاب ، وأخافوا الناس؛ حتى هرب منهم خلْق كثير من أهل النّعم ، فتعقبوهم بهدم دورهم حتى صاروا من أمر الحرم ، وأخذ أبناء الناس في أمر عظيم ، وجعلوا يحكّون الذهب الرقيق الذي في رؤوس أساطين المسجد ، فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدْر مثقال ذهب أو نحوه ، حتى عمّ ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام ، وقلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم ، ومن خشب الساج ، فبيع بالثّمن الخسيس. فلما رأى حسين بن حسن ومَنْ معه من أهل بيته تغيّر الناس لهم بسيرتهم ، وبلغهم أن أبا السرايا قد قُتل ، وأنه قد طرد من الكوفة والبصرة وكور العراق من كان بها من الطالبيين ، ورجعت الولاية بها لولد العباس ، اجتمعوا إلى محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ـ وكان شيخاً ودّاعاً محبّباً في الناس ، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة ، وكان يروي العلم عن أبيه جعفر بن محمد ، وكان الناس يكتبون عنه وكان يظهر سَمْتاً وزهداً ـ فقالوا له: قد تعلم حالك في الناس ، فأبْرِزْ شخصك نبايع لك بالخلافة؛ فإنك إن فعلت ذلك لم يختلف عليك رجلان؛ فأبى ذلك عليهم ، فلم يزل به ابنه عليّ بن محمد بن جعفر وحسين بن حسن الأفطس حتى غلبا الشيخ على رأيه؛ فأجابهم. فأقاموه يوم صلاة الجمعة بعد الصلاة لستّ من ربيع الآخر ، فبايعوه بالخلافة ، وحشروا إليه الناسَ من أهل مكة والمجاورين ، فبايعوه طوعاً وكرهاً ، وسموْه بإمرة المؤمنين ، فأقام بذلك أشهراً ، وليس له من الأمر إلا

اسمه ، وابنه عليّ وحسين بن حسن وجماعة منهم أسوأ ما كانوا سيرة ، وأقبح ما كانوا فعلاً ، فوثب حسين بن حسن على امرأة من قريش من بني فهر ـ وزوْجها رجل من بني مخزوم ، وكان لهاجمال بارع ـ فأرسل إليها لتأتيَه فامتنعت عليه فأخاف زوجها وأمر بطلبها فتوارت منه ، فأرسل ليلاً جماعة من أصحابه فكسروا بابَ الدار ، واغتصبوها نفسها ، وذهبوا بها إلى حسين ، فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة ، فهربت منه ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة. ووثب عليّ بن محمد بن جعفر على غلام من قريش ، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد ، ـ وكان جميلاً بارعاً في الجمال ـ فاقتحم عليه بنفسه نهاراً جهاراً في داره على الصفا مشرفاً على المسعى؛ حتى حمله على فرسه في السرْج. وركب عليّ بن محمد على عجُز الفرس ، وخرج به يشق السوق حتى أتى بئر ميمون ـ وكان ينزل في دار داود بن عيسى في طريق منىً ـ فلما رأى ذلك أهلُ مكة ومَنْ بها من المجاورين ، خرجوا فاجتمعوا في المسجد الحرام ، وغلقت الدكاكين ، ومال معهم أهلُ الطواف بالكعبة؛ حتى أتوا محمد بن جعفر بن محمد ، وهو نازل دار داود ، فقالوا: والله لنخلعنك ولنقتلنّك ، أو تردنّ إلينا هذا الغلام الذي ابنك أخذه جهرة. فأغلق باب الدار ، وكلمهم من الشباك الشارع في المسجد ، فقال: والله ما علمت ، وأرسل إلى حسين بن حسن يسأله أن يركب إلى ابنه عليّ فيستنقذ الغلام منه. فأبى ذلك حسين ، وقال: والله إنك لتعلم أني لا أقوى على ابنك ، ولو جئتُه لقاتلني وحاربني في أصحابه. فلما رأى ذلك محمد قال لأهل مكة: آمنوني حتى أركب إليه وآخذ الغلام منه. فآمنوه وأذنوا له في الركوب ، فركب بنفسه حتى صار إلى ابنه ، فأخذ الغلام منه وسلمه إلى أهله. وقال: فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أقبل إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي مقبلاً من اليمن حتى نزل المُشاش ، فاجتمع العلويّون إلى محمد بن جعفر بن محمد ، فقالوا له: يا أميرَ المؤمنين ، هذا إسحاق بن موسى مقبلاً إلينا في الخيل والرجال ، وقد رأينا أن نخندق خندقاً بأعلَى مكة ، وتبرز شخصك ليراك الناس ويحاربوا معك. وبعثوا إلى مَنْ حولهم من الأعراب ، ففرضوا لهم ، وخندقوا على مكة ليقاتلوا إسحاق بن موسى من ورائه ، فقاتلهم إسحاق أياماً. ثم إن إسحاق كره القتال والحرب ، وخرج يريد العراق ، فلقيه ورقاء بن جميل في أصحابه ومنْ كان معه من أصحاب الجُلوديّ ، فقالوا: ارجع معنا إلى مكة ونحن نكفيك القتال. فرجع

معهم حتى أتوْا مكة فنزلوا المُشاش. واجتمع إلى محمد بن جعفر من كان معه من غوغائها، ومن سودان أهل المياه، ومَن فرض له من الأعراب، فعبّأهم ببئر ميمون، وأقبل إليهم إسحاق بن موسى وورقاء بن جميل بمَنْ معه من القوّاد والجند، فقاتلهم ببئر ميمون، فوقعت بينهم قتلى وجراحات. ثم رجع إسحاق وورقاء إلى معسكرهم، ثم عادوهم بعد ذلك بيوم فقاتلهم، فكانت الهزيمة على محمد بن جعفر وأصحابه؛ فلما رأى ذلك محمد، بعث رجالاً من قريش فيهم قاضي مكة يسألون لهم الأمان؛ حتى يخرجوا من مكة، ويذهبوا حيث شاؤوا، فأجابهم إسحاق وورقاء بن جميل إلى ذلك، وأجّلُوهم ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الثالث، دخل إسحاق وورقاء إلى مكة في جمادى الآخرة وورقاء الوالي على مكة للجلوديّ، وتفرّق الطالبيون من مكة، فذهب كلّ قوم ناحية؛ فأمّا محمد بن جعفر فأخذ ناحية جُدّة، ثم خرج يريد الجُحفة، فعرض له رجل من موالي بني العباس يقال له محمد بن حكيم بن مروان، قد كان الطالبيون انتهبوا داره بمكة، وعذّبوه عذاباً شديداً؛ وكان يتوكّل لبعض العباسيين بمكة لآل جعفر بن سليمان، فجمع عبيد الحوائط من عبيد العبّاسيين حتى لحق محمد بن جعفر بين جُدّة وعُسْفان، فانتهب جميع ما معه مما خرج به من مكة، وجرّده حتى تركه في سراويل، وهمّ بقتله، ثم طرح عليه بعد ذلك قميصاً وعمامة ورداء ودريهمات يتسبّب بها، فخرج محمد بن جعفر حتى أتى بلاد جهينة على الساحل، فلم يزل مقيماً هنالك حتى انقضى الموسم، وهو في ذلك يجمع الجموع. وقد وقع بينه وبين هارون بن المسيّب والي المدينة وقعات عند الشجرة وغيرها، وذلك أن هارون بعث ليأخذه، فلما رأى ذلك أتاه بمن اجتمع حتى بلغ الشجرة، فخرج إليه هارون فقاتله، فهزم محمد بن جعفر، وفقئِت عينه بنشابة، وقتِل منْ أصحابه بشر كثير، فرجع حتى أقام بموضعه الذي كان فيه ينتظر ما يكون من أمر الموسم، فلم يأته مَنْ كان وعده. فلما رأى ذلك وانقضى الموسم، طلب الأمان من الجُلوديّ ومن رجاء ابن عمّ الفضل بن سهل، وضمن له رجاء على المأمون وعلى الفضل بن سهل ألاّ يُهاج، وأن يُوَفّى له بالأمان، فقبل ذلك ورضيَه، ودخل به إلى مكة، يوم الأحد بعد النفرْ الأخير بثمانية أيام لعشر بقين من ذي الحجة، فأمر عيسى بن يزيد الجُلودي ورجاء بن أبي الضحاك ابن عمّ الفضْل بن سهل بالمنبر؛ فوضع بين الركن والمقام حيث كان محمد بن

جعفر بويع له فيه ، وقد جمع الناس من القريشيين وغيرِهم ، فصعد الجُلودي رأسَ المنبر ، وقام محمد بن جعفر تحته بدرجة ، وعليه قبَاء أسود وقَلنسوة سوداء؛ وليس عليه سيف ليخلع نفسه. ثم قام محمد ، فقال:

أيها الناس مَنْ عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فإنه كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رَقبتي بيعة بالسمع والطاعة ، طائعاً غير مُكْرَه ، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبد الله المأمون أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منّا ومن غيرنا. وكان نُميَ إليّ خبر؛ أن عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين كان توفِّيَ؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين ، واستحللت قبول ذلك لما كان عليّ من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون ، فبايعتموني ـ أو من فعل منكم ـ ألا وقد بلغني وصحّ عندي أنه حيّ سويّ. ألا وإني أستغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة ، وقد خلعت نفسي من بَيْعتي التي بايعتموني عليها؛ كما خلعت خاتمي هذا من إصبعي ، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم ، وقد أخرجت نفسي من ذلك ، وقد ردّ الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله المأمون أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون.

ثم نزل. فخرج به عيسى بن يزيد الجلوديّ إلى العراق ، واستخلف على مكة ابنه محمد بن عيسى في سنة إحدى ومائتين ، وخرج عيسى ومحمد بن جعفر حتى سلّمه إلى الحسن بن سهل ، فبعث به الحسن بن سهل إلى المأمون بمَرْو مع رجاء بن أبي الضحاك[1].

---

(١) هذا الخبر الطويل استغرق الصفحات (٥٣٦ ـ ٥٣٧ ـ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ ـ ٥٤٠) ولأصله ما يؤيده عند البسوي مع بعض التفاصيل اليسيرة إذ قال:
وبايعوا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بالخلافة يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة مائتين فلم يزل يسلم عليه بالخلافة حتى كان يوم الثلاثاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة مائتين (المعرفة/ ١/ ٥٩) ثم أخرج البسوي رواية عن شاهد عيان فقال البسوي سمعت أبا بشر بكر بن خلف قال: قد أخذ أبو شعيب المكفوف =

وفي هذه السنة وجّه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الطالبيّ بعض ولد عَقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف إلى مكة ليحجّ بالناس ، فحورب العَقيليّ فهزم ، ولم يقدر على دخول مكة .

= بيدي فأدخلني إلى محمد بن جعفر بن محمد فبايعته وأمر لي بشقة ديباج مما كان نزعه عن الكعبة (المعرفة/ ١/ ٥٩) ثم فصل البسوي في وصف تلك الأحداث وما آلت إليه من انتصار جيش الخلافة والعفو عن محمد بن جعفر العلوي وإعلان بيعته للخليفة العباسي على الملأ فقال:

وخرج مُحمَّد بن جعفر بن مُحمَّد يوم الثلاثاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة مائتين ، فخرج في ذلك اليوم ومن كان معه حين ارتفع النهار ودخل ورقاء مكة بعد الظهر. ودخل إسحاق بن موسى بن عيسى مع العصر ، ـ وكان عاملاً على صنعاء ـ فلما سمع بإبراهيم بن موسى بن جعفر بن مُحمَّد الطالبيّ مقبلاً يُريد صنعاء خرج منها حتى قدم مكة ودخل الجُلودي معه في آخر جُمادى الأولى ، فلم يزل عاملاً عليها وقدم نخلة جيش من صنعاء ، فخرج إليهم الجُلُوديّ يوم سابع من ذي الحجة وهزمهما ، وفرق جمعهم ، ودخل أبو إسحاق بن هارون أمير المؤمنين عاملاً على الحجّ سنة مائتين واستأمن مُحمَّد بن جعفر بن مُحمَّد بعد العصر . . . فخرج إليه الجُلوديّ والقاضي مُحمَّد بن عبد الرحمن ، فقدموا به مكة لعشر من ذي الحجة ، وألبسوه سواداً ، ورقى المنبر فخلع نفسه وبايع لعبد الله. وقدم المدينة الحُسين بن الحَسن بن عليّ ، ومُحمَّد بن سليمان ، الذي كان عاملاً على المدينة ومكة ، فخرج بهما رجاء إلى بغداد. وخرج بعد ذلك الجُلوديّ بمحمد بن جعفر إلى عبد الله المأمون ليومين مضيا من المحرم ، وخلف الجُلوديُّ ابنه عاملاً على مكة ، وكان بينه وبين أهل مكة منازعة ، فرموه بالحجارة حتى أدخلوه دار العَجَلة ، وأخذ منهم أناساً فجلدهم ، وقطع يد اثنين ، وجلد عُثمان بن مُحمَّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المخزوميّ.

وكان مُحَمَّد بن عليّ بن عيسى بن ماهان قد استعمل على صنعاء ، وخرج ابنه الأحول عليها ، وكان مقيماً بمكة حتى جاءه العمل عليها.

وخرج ابن الجُلوديّ إلى العراق. واستمر عمل حمدويه بن عليّ على مكة (المعرفة/ ١/ ٥٩).

أما خليفة فقد اختصر الخبر جداً فقال:

وأقام الحج أبو إسحاق بن أمير المؤمنين فوثب محمد بن جعفر بن محمد بن علي وابن الأفطس بمكة فظهر عليهم أبو إسحاق بن أمير المؤمنين وبعث بهما إلى المأمون (تأريخ خليفة/ ٣١٢).

ذكر الخبر عن أمر إبراهيم العقيليّ الذي ذكرنا أمره

ذكر أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد حجّ بالناس في سنة مائتين ، فسار حتى دخل مكة ، ومعه قوّاد كثير ، فيهم حمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان ، وقد استعمله الحسن بن سهل على اليمن ، ودخلوا مكة ، وبها الجلوديّ في جنده وقواده ، ووجه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ من اليمن راجلاً من ولد عَقيل بن أبي طالب ، وأمره أن يحجّ بالناس ، فلما صار العقيليّ إلى بستان ابن عامر ، بلغه أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد قد ولي الموسم ، وأن معه من القواد والجنود ما لا قبل لأحد به ، فقام ببستان ابن عامر ، فمرّت به قافلة من الحاجّ والتجار ، فيها كسوة الكعبة وطيبها ، فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها ، وقدم الحاج والتجار مكة عراة مسلّبين ، فبلغ ذلك أبا إسحاق بن الرشيد وهو نازل بمكة في دار القوارير ، فجمع إليه القوّاد فشاورهم ، فقال له الجلوديّ ـ وذلك قبل التروية بيومين أو ثلاثة : أصلح الله الأمير! أنا أكفيكهم ، أخرج إليهم في خمسين من نخبة أصحابي ، وخمسين أنتخبهم من سائر القوّاد. فأجابوه إلى ذلك ، فخرج الجُلوديّ في مائة حتى صبّح العقيليّ وأصحابه ببستان ابن عامر ، فأحدق بهم ، فأسر أكثرهم وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ، فأخذ كسوة الكعبة إلاّ شيئاً كان هرب به من هرب قبل ذلك بيوم واحد ، وأخذ الطيب وأموال التجار والحاجّ ، فوجّه به إلى مكة ، ودعا بمَنْ أسر من أصحاب العقيليّ ، فأمر بهم فقُنِّع كلّ رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال : اعزبوا يا كلاب النار؛ فو الله ما قتلكم وعِر ، ولا في أسركم جمال . وخلّى سبيلَهم ، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً وعرياً .

وخالف ابن أبي سعيد على الحسن بن سهل ، فبعث المأمون بسراج الخادم ، وقال له : إن وضع عليّ يد الحسن أو شخص إليّ بمرْو وإلا فاضرب عنقه . فشخص إلى المأمون مع هرثمة بن أعين .

وفي هذه السنة شخص هرثمة في شهر ربيع الأول منها من معسكره إلى المأمون بمرو .

ذكر الخبر عن شخوص هرثمة إلى المأمون
وما آل إليه أمره في مسيره ذلك

ذُكر أنّ هرثمة لما فَرغ من أمر أبي السرايا ومحمد بن محمد العلويّ ، ودخل الكوفة ، أقام في معسكره إلى شهر ربيع الأول؛ فلما أهلّ الشهر خرج حتى أتى نهر صَرْصر ، والناس يروْن أنه يأتي الحسن بن سهل بالمدائن؛ فلما بلغ نهر صرصر خرج على عقْرَقُوف ، ثم خرج حتى أتى البرَدَان ، ثمّ أتى النَّهروَان ، ثم خرج حتى أتى إلى خُراسان؛ وقد أتته كتب المأمون في غير منزل ، أن يرجع فيَلِيَ الشام أو الحجاز ، فأبى وقال: لا أرجع حتى ألْقَى أمير المؤمنين؛ إدلالاً منه عليه؛ لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه ، وأراد أن يعرّف المأمون ما يدبّر عليه الفضل بن سهل ، وما يكتم عنه من الأخبار ، وألاّ يدَعه حتى يردّه إلى بغداد ، دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ، ويُشرف على أطرافه. فعلم الفضل ما يريد ، فقال للمأمون: إنّ هرثمة قد أنغْلَ عليك البلاد والعباد ، وظاهرَ عليك عدوّك ، وعادى وليّك ، ودسّ أبا السرايا ، وهو جنديّ من جنده حتى عمل ما عمل ، ولو شاء هرثمة ألاّ يفعل ذلك أبو السرايا ما فعله. وقد كتب إليه أمير المؤمنين عدّة كتب؛ أن يرجع فيَلِيَ الشام أو الحجاز فأبى ، وقد رجع إلى باب أمير المؤمنين عاصياً مشاقّاً ، يُظهر القوْل الغليظ ، ويتواعد بالأمر الجليل ، وإن أطلِق هذا كان مفسدة لغيره. فأشرب قلب أمير المؤمنين عليه.

وأبطأ هرثمة في المسير فلم يصل إلى خُراسان حتى كان ذو القعدة؛ فلما بلغ مَرْو خشي أن يكتم المأمون قدومه ، فضرب بالطبول لكي يسمعها المأمون ، فسمعها فقال: ما هذا؟ قالوا: هرثمة قد أقبل يُرعد ويبرِق ، وظنّ هرثمةُ أنّ قوله المقبول. فأمر بإدخاله ، فلما أدخل ـ وقد أشرِب قلبه ما أشرب ـ قال له المأمون: مالأتَ أهل الكوفة والعلويّين وداهنت ودَسست إلى أبي السرايا حتى خرج وعمل ما عمل؛ وكان رجلاً من أصحابك؛ ولو أردت أن تأخذهم جميعاً لفعلت؛ ولكنّك أرخيت خناقهم ، وأجررت لهم رَسَنهم. فذهب هرثمةُ ليتكلم ويعتذر ، ويدفع عن نفسه ما قُرِف به فلم يُقْبَل ذلك منه ، وأمر به فوجئ على

أنفه ، وديس بطنه ، وسُحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظِ عليه والتّشديد حتى حبس ، فمكث في الحبس أياماً ، ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا له : إنه مات[(١)].

ذكر الخبر عن وثوب الحربية ببغداد

وفي هذه السنة هاج الشَّغْب ببغداد بين الحربيّة والحسن بن سهل .

ذكر الخبر عن ذلك وكيف كان:

ذُكر أنّ الحسن بن سهل كان بالمدائن حين شخص هَرْثمة إلى خُراسان ، ولم يزل مقيماً بها إلى أن اتّصل بأهل بغداد والحربية ما صُنع به ، فبعث الحسن بن سهل إلى عليّ بن هشام ـ وهو والي بغداد ، من قبَله : أن أمطل الجندَ من الحربيَّة والبغداديين أرزاقَهم ، ومنِّهم ولا تُعطهم . وقد كان الحسن قبل ذلك اتَّعدَهم أن يعطيَهم أرزاقهم ، وكانت الحربيّة حين خرج هرثمة إلى خُراسان وثبوا وقالوا: لا نرضى حتى نطرد الحسن بن سهل عن بغداد؛ وكان من عمّاله بها محمد بن أبي خالد وأسد بن أبي الأسد ، فوثبت الحربية عليهم فطردوهم ، وصيّروا إسحاق بن موسى بن المهديّ خليفة للمأمون ببغداد؛ فاجتمع أهل الجانبين على

(١) أما أصل الخبر وأعني شخوص هرثمة إلى المأمون ثم موته هناك في السجن فصحيح وقد تحدث عن هذه الواقعة ابن قتيبة الدينوري والجهشياري . أما ابن قتيبة فقد ذكر زبدة الخبر فقال : ولما صار «هَرثمة» إلى «خُراسان» . جرى بينه وبين «الفضل بن سهل» كلام بين يدي «المأمون» ، فأمر بحَبسه ، فُحبس بقبة في دار «المأمون» ، فمكث فيها أياماً ثم أُخرج ميتا ، فلُف في خَيشة ، ودُفن في خَندق كان لأهل السجن بـ «مَرْو» (المعارف/ ١٩٧) .
وكذلك تحدث الجهشياري عن هذه القصة بخبر طويل وفيه اختلاف عمّا ذكر الطبري ولكن الجهشياري يتفق مع الطبري أن ذا الرياستين قد ناصبه العداء وأن هرثمة أراد من سفره أن يحذّر المأمون من شر وزيره ذي الرياستين ولكن بعد فوات الأوان وكانت النتيجة أن أهين وضرب وسجن وقتل في السجن أو على الأقل أخرج ميتاً من السجن بعد أيام قلائل وانظر الجهشياري (الوزراء والكتاب/ ٣١٧) .
أما خليفة فهو يرى أن هرثمة مات ليلة الأحد لثلاث خلون من المحرم سنة (٢٠١ هـ) (تأريخ خليفة/ ٣١٢) .

ذلك ، ورضُوا به ، فدسّ الحسنُ إليهم ، وكاتب قوّادهم حتى وثبوا من جانب عسكر المهديّ ، وجعل يعطي الجندَ أرزاقهم لستة أشهر عطاء نزْراً؛ فحوّل الحربية إسحاق إليهم ، وأنزلوه على دُجيل.

وجاء زهير بن المسيّب فنزل في عسكر المهديّ ، وبعث الحسن بن سهلُ عليّ بن هشام ، فجاء من الجانب الآخر؛ حتى نزل نهر صَرْصر ، ثم جاء هو ومحمد بن أبي خالد وقوّادهم ليلاً؛ حتى دخلوا بغداد ، فنزل عليّ بن هشام دارَ العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخُزاعيِّ على باب المحوّل لثمانٍ خلوْن من شعبان؛ وقبل ذلك ما كان الحربية حين بلغهم أنّ أهل الكرخ يريدون أن يُدخلوا زهيراً وعليّ بن هشام ، شدّوا على باب الكرخ فأحرقوه ، وأنهبوا من حدّ قصر الوضّاح إلى داخل باب الكرْخ إلى أصحاب القراطيس ليلةَ الثلاثاء ، ودخل عليّ بن هشام صبيحةَ تلك الليلة ، فقاتل الحربية ثلاثة أيام على قنطرة الصّراة العتيقة والجديدة والأرحاء.

ثم إنه وعد الحربيّة أن يعطيَهم رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلّة ، فسألوه أن يعجّل لهم خمسين درهماً لكل رجل لينفقوها في شهر رمضان، فأجابهم إلى ذلك، وجعل يعطى ، فلم يُتمّ لهم إعطاءهم؛ حتى خرج زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ، الخارج بالبَصْرة المعروف بزيد النار؛ كان أفلت من الحبْس عند عليّ بن أبي سعيد ، فخرج في ناحية الأنبار ومعه أخو أبي السرايا في ذي القعدة سنة مائتين ، فبعثوا إليه ، فأخذ ، فأتي به عليّ بن هشام ، فلم يلبث إلاّ جمعة حتى هرب من الحربيّة ، فنزل نهر صرصر ، وذلك أنه كان يكذبهم ، ولم يفِ لهم بإعطاء الخمسين؛ إلى أن جاء الأضحى؛ وبلغهم خبرُ هرثمة وما صُنع به ، فشدّوا على عليّ فطردوه.

وكان المتولي ذلك والقائم بأمر الحرْب محمد بن أبي خالد؛ وذلك أن عليّ بن هشام لما دخل بغداد كان يُستخفّ به ، فوقع بين محمد بن أبي خالد وبين زُهير بن المسيّب إلى أن قنّعه زهير بالسوط. فغضب محمد من ذلك ، وتحوّل إلى الحربية في ذي القعدة ، ونصب لهم الحرْب ، واجتمع إليه الناس فلم يقْوَ

بهم عليّ بن هشام حتى أخرجوه من بغداد؛ ثم اتبعه حتى هزمهم من نهر صرصر[١].

* * *

وفي هذه السنة وجّه المأمون رجاء بن أبي الضحّاك وفرناس الخادم لإشخاص عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر.

وأُحصِيَ في هذه السنة ولد العباس؛ فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكرٍ وأنثى.

* * *

وفي هذه السنة قتلت الروم ملكها ليون، فكان قد ملك عليهم سبع سنين وستة أشهر، وملكوا عليهم ميخائيل بن جورجس ثانية[٢].

وفيها قَتَل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل؛ وذلك أن يحيى أغلظ له، فقال له: يا أميرَ الكافرين؛ فقتِل بين يديه.

وأقام للناس الحجّ في هذه السنة أبو إسحاق بن الرّشيد[٣].

* * *

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

* * *

ولاية منصور بن المهديّ ببغداد

فمما كان فيها من ذلك مراودَة أهل بغداد منصورَ بن المهديّ على الخلافة

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٨).

(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٨).

(٣) وكذلك قال خليفة (تأريخ الخليفة/ ٣١٢).

وامتناعه عليهم؛ فلما امتنع من ذلك راودوه على الإمْرة عليهم، على أن يدعوْ للمأمون بالخلافة؛ فأجابهم إلى ذلك[1].

ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه:

قد ذكرنا قبل ذلك سببَ إخراج أهل بغداد عليّ بن هشام من بغداد، ويذكر عن الحسن بن سهل أن الخبر عن إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد لما اتصل به وهو بالمدائن انهزم حتى صار إلى واسط وذلك في أول سنة إحدى ومائتين.

وقد قيل إن سبب إخراج أهل بغداد علي بن هشام من بغداد كان أنّ الحسن بن سهل وجّه محمد بن خالد المرورّوذيّ بعدما قُتل أبو السرايا، أفسده وولّى عليّ بن هشام الجانبِ الغربيّ من بغداد وزهير بن المسيّب يلي الجانب الشرقيّ، وأقام هو بالخيزرانيّة، وضرب الحسنُ عبد الله بن عليّ بن عيسى بن ماهان حدّاً بالسياط، فغضب الأبناء، فشغب الناس، فهرب إلى برْبَخا ثم إلى باسَلاَمَا، وأمر بالأرزاق لأهل عسكر المهديّ، ومنع أهل الغربيّ، واقتتل أهل الجانبين، ففرّق محمد بن أبي خالد على الحربيّة مالاً، فهُزم عليّ بن هشام، فانهزم الحسن بن سهل بانهزام عليّ بن هشام، فلحق بواسط، فتبعه محمد بن أبي خالد بن الهندوان مخالفاً له؛ وقد تولّى القيام بأمر الناس، وولّى سعيد بن الحسن بن قحطبة الجانب الغربيّ ونصر بن حمزة بن مالك الشرقيّ، وكنفه ببغداد منصور بن المهديّ وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع.

وقد قيل إنّ عيسى بن محمد بن أبي خالد قدم في هذه السنة من الرّقّة، وكان عند طاهر بن الحسين، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن، فمضَيا حتى انتهيا ومَنْ معهما من الحربيّة وأهل بغداد إلى قرية أبي قريش قرب واسط، وكان كلما أتيا موضعاً فيه عسكر من عساكر الحسن فيكون بينهما فيه وقعة، تكون الهزيمة فيه على أصحاب الحسن.

ولما انتهى محمد بن خالد إلى دير العاقول، أقام به ثلاثاً، وزهير بن

(١) انظر المنتظم لابن الجوزي (١٠/ ٩٢).

المسيّب حينئذ مقيم بإسكاف بني الجُنيد، وهو عامل الحسن على جوخَى مقيم في عمله؛ فكان يكاتب قوّاد أهل بغداد. فبعث ابنه الأزهر، مضى حتى انتهى إلى نهر النهروان، فلقي محمد بن أبي خالد، فركب إليه، فأتاه بإسكاف، فأحاط به فأعطاه الأمان، وأخذه أسيراً، فجاء به إلى عسكره بدير العاقول، وأخذ أمواله ومتاعه وكلّ قليل وكثير وجد له. ثم تقدّم محمد بن أبي خالد، فلما صار إلى واسط بعث به إلى بغداد، فحبسه عند ابن له مكفوف، يقال له جعفر؛ فكان الحسن مقيماً بجرْجرايا، فلما بلغه خبر زهير، وأنه قد صار في يد محمد بن أبي خالد ارتحل حتى دخل واسط، فنزل بفم الصِّلح، ووجه محمّد من دير العاقول ابنَه هارون إلى النيل وبها سعيد بن الساجور الكوفيّ، فهزمه هارون، ثم تبعه حتى دخل الكوفة، فأخذها هارون، وولّى عليها. وقدم عيسى بن يزيد الجُلوديّ من مكّة؛ ومعه محمد بن جعفر، فخرجوا جميعاً حتى أتوْا واسط في طريق البرّ، ثم رجع هارون إلى أبيه، فاجتمعوا جميعاً في قرية أبي قريش ليدخلوا واسط، وبها الحسن بن سهل، فتقدّم الحسن بن سهل، فنزل خلف واسط في أطرافها.

وكان الفضل بن الربيع مختفياً من حين قتل المخلوع، فلما رأى أن محمد بن أبي خالد قد بلغ واسطَ بعث إليه يطلب الأمان منه، فأعطاه إياه وظهر. ثم تعبّأ محمد بن أبي خالد للقتال، فتقدّم هو وابنه عيسى وأصحابهما، حتى صاروا على ميلين من واسط، فوجّه إليهم الحسن أصحابَه وقوّاده، فاقتتلوا قتالاً شديداً عند أبيات واسط. فلما كان بعد العصر هبّت ريح شديدة وغُبْرة حتى اختلط القوم بعضهم ببعض؛ وكانت الهزيمة على أصحاب محمد بن أبي خالد، فثبت للقوم فأصابتْه جراحات شديدة في جَسَده، فانهزم هو وأصحابه هزيمةً شديدة قبيحة، فهزم أصحابه الحسن، وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى ومائتين.

فلما بلغ محمد فم الصِّلْح خرج عليهم أصحابُ الحسن فصافّهم للقتال، فلما جنّهم الليل، ارتحلَ هو وأصحابه حتى نزلوا المبارك؛ فأقاموا به؛ فلمّا أصبحوا غدَا عليهم أصحابُ الحسن فصافّوهم، واقتتلوا.

فلما جنّهم الليل ارتحلوا حتى أتوا جَبُّل، فأقاموا بها، ووجّه ابنه هارون إلى

النيل ، فأقام بها ، وأقام محمد بجَرْجَرايا ، فلما اشتدّت به الجراحات خلّف قوّاده في عسكره ، وحمَله ابنه أبو زنبيل حتى أدخله بغداد ليلة الإثنين لستّ خلوْن من شهر ربيع الآخر ، فدخل أبو زنبيل ليلة الإثنين ، ومات محمد بن أبي خالد من ليلته من تلك الجراحات ، ودفن من ليلته في داره سرّاً.

وكان زهير بن المسيّب محبوساً عند جعفر بن محمد بن أبي خالد ، فلما قدم أبو زنبيل أتى خزيمة بن خازم يوم الإثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ، فأعلمه أمر أبيه ، فبعث خزيمة إلى بني هاشم والقوّاد وأعلمهم ذلك ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد بن أبي خالد ، وأنه يكفيهم الحرب. فرضوا بذلك ، فصار عيسى مكان أبيه على الحرْب ، وانصرف أبو زنبيل من عند خُزيمة حتى أتى زهير بن المسيّب ، فأخرجه من حَبْسه ، فضرب عنقه ويقال: إنه ذبحه ذبحاً وأخذ رأسه ، فبعث به إلى عيسى في عسكره ، فنصبه على رمح وأخذوا جسدَه ، فشدّوا في رجليه حبلاً ، ثم طافوا به في بغداد ، ومرّوا به على دوره ودور أهل بيته عند باب الكوفة ، ثم طافوا به في الكرْخ ، ثم ردُّوه إلى باب الشام بالعشيّ؛ فلما جنّهم الليل طرحوه في دِجلة ، وذلك يوم الإثنين لثمان خلوْن من شهر ربيع الآخر.

ثم رجع أبو زنبيل حتى انتهى إلى عيسى فوجّهه عيسى إلى فم الصّراة.

وبلغ الحسن بن سهل موت محمد بن أبي خالد ، فخرج من واسط حتى انتهى إلى المُبارك ، فأقام بها. فلما كان جمادى الآخرة وجّه حميد بن عبد الحميد الطوسيّ ومعه عركو الأعرابيّ وسعيد بن الساجور وأبو البط ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ ، وعدّة سواهم من القوّاد ، فلقوا أبا زنبيل بفم الصَّراة فهزموه ، وانحاز إلى أخيه هارون بالنّيل ، فالتقوْا عند بيوت النيل ، فاقتتلوا ساعة ، فوقعت الهزيمة على أصحاب هارون ، وأبي زنبيل ، فخرجوا هاربين حتى أتوا المدائن؛ وذلك يوم الإثنين لخمس بَقين من جمادى الآخرة.

ودخل حميد وأصحابه النِّيل فانتهبوها ثلاثة أيام؛ فانتهبوا أموالَهم وأمتعتهم ، وانتهبوا ما كان حوْلهم من القرى؛ وقد كان بنو هاشم والقوّاد حين مات محمد بن أبي خالد تكلّموا في ذلك؛ وقالوا: نصيّر بعضنا خليفة ونخلع المأمون ، فكانوا يتراضَوْن في ذلك؛ إذ بلغهم خبر هارون وأبي زنبيل وهزيمتهم ، فجدُّوا فيما

كانوا فيه ، وأرادوا منصور بن المهديّ على الخلافة؛ فأبى ذلك عليهم ، فلم يزالوا به حتى صيّروه أميراً خليفة للمأمون ببغداد والعراق ، وقالوا: لا نرضى بالمجوسيّ ابن المجوسيّ الحسن بن سهل ، ونطرده حتى يرجع إلى خراسان.

وقد قيل: إنّ عيسى بن محمد بن أبي خالد لمّا اجتمع إليه أهل بغداد ، وساعدوه على حرب الحسن بن سهل ، رأى الحسن أنه لا طاقة له بعيسى ، فبعث إليه وهب بن سعيد الكاتب ، وبذَل له المصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية أيّ النواحي أحبّ ، فطلب كتاب المأمون بذلك بخطِّه ، فردّ الحسن بن سهل وهباً بإجابته ، فغرق وهب بين المُبارك وجبل؛ فكتب عيسى إلى أهل بغداد: إني مشغول بالحرب عن جباية الخراج ، فولّوا رجلاً من بني هاشم ، فولوْا منصور بن المهديّ ، وعسكر منصور بن المهديّ بكَلْواذَى ، وأرادوه على الخلافة فأبى ، وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولي مَنْ أحبّ ، فرضى بذلك بنو هاشم والقوّاد والجند؛ وكان القيّم بهذا الأمر خزيمة بن خازم ، فوجّه القوّاد في كلّ ناحية ، وجاء حميد الطوسي من فوره في طلب بني محمد حتى انتهى إلى المدائن ، فأقام بها يومه ، ثم انصرف إلى النيل.

فلما بلغ منصوراً خبرُه خرج حتى عسكر بكَلْواذى ، وتقدّم يحيى بن عليّ بن عيسى بن ماهان إلى المدائن.

ثم إن منصوراً وجّه إسحاق بن العباس بن محمد الهاشميّ من الجانب الآخر ، فعسكر بنهر صَرْصر ، ووجّه غسان بن عباد بن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان صاحب حرس صاحب خُراسان ناحية الكوفة ، فتقدّم حتى أتى قصر ابن هبيرة ، فأقام به. فلما بلغ حُميداً الخبر لم يعلم غسان إلا وحُميد قد أحاط بالقصر ، فأخذ غسانَ أسيراً ، وسلب أصحابه ، وقتل منهم؛ وذلك يوم الإثنين لأربع خلوْن من رجب.

ثم لم يزل كلُّ قوم مقيمين في عساكرهم؛ إلاّ أن محمد بن يقطين بن موسى كان مع الحسن بن سهل ، فهرب منه إلى عيسى ، فوجّهه عيسى إلى منصور ، فوجّهه منصور إلى ناحية حُميد؛ وكان حُميد مقيماً بالنيل إلاّ أنّ له خيلا بالقَصْر.

وخرج ابن يقطين من بغداد يوم السبت لليلتين خَلَتا من شعبان حتى أتى

كُوثى. وبلغ حُميداً الخبر ، فلم يعلم ابن يقطين حتى أتاه حُميد وأصحابه إلى كُوثى ، فقاتلوه فهزموه ، وقتلوا من أصحابه ، وأسروا ، وغرق منهم بشر كثير ، وانتهب حميد وأصحابه ما كان حول كوثى من القُرى وأخذوا البقر والغنم والحمير وما قَدَروا عليه من حَلْيٍ ومتاع وغير ذلك؛ ثم انصرف حتى النّيل ، وراجع ابنُ يقطين ، فأقام بنهر صَرصَر.

وفي محمد بن أبي خالد قال أبو الشدّاخ:

هَوَى خيلُ الأَبناءِ بعدَ محمَّدٍ ... وأَصْبحَ منها كاهِلُ العِزِّ أَخضَعَا
فلا تَشمَتُوا يا آلَ سهلٍ بموْتِه ... فإنَّ لكم يوماً من الدهرِ مَصْرَعَا

وأحْصَى عيسى بن محمد بن أبي خالد ما كان في عسكره ، فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً بين فارس وراجل؛ فأعطى الفارس أربعين درهماً ، والرّاجل عشرين درهماً[١].

ذكر خبر خروج المطوّعة للنكير على الفساق

وفي هذه السنة تجرّدت المطوّعة للنكير على الفساق ببغداد ، ورئيسهم خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاريّ أبو حاتم من أهل خُراسان[٢].

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله فعلت المطوّعة ما ذكرت:

كان السبب في ذلك أن فساق الحربيّة والشطار الذين كانوا ببغداد والكَرْخ آذوا الناسَ أذى شديداً ، وأظهروا الفسْق وقطع الطريق وأخذِ الغلمان والنساء علانيةً

---

(١) لم نجد تأييداً لجميع هذه التفاصيل عند غير الطبري سوى ما سنذكر بعد الخبر الآتي.

(٢) لقد اختصر ابن قتيبة الدينوري هذا الخبر والخبر الطويل الذي قبله والذي استغرق صفحات بأسطر قليلة مفيدة فقال: وحارب أهل بغداد الحسن بن سهل ، ورئيسُهم محمد بن أبي خالد المروزي وبنوه عيسى وهارون وأبو زنبيل والحسن بالمدائن وصار الناس فوضى لا أمير عليهم فخرج سهل بن سلامة والمطوعة (المعارف/ ١٩٧).
وأما خليفة فلم يذكر من تفاصيل خبر الطبري سوى أمرين: الأول مقتل محمد فقال: وقتل محمد بن أبي خالد أصابته ضربة فمات منها (تأريخ خليفة/ ٣١٢).
والثاني مقتل زهير فقال: وفيها (٢٠١) قتل زهير بن المسيب ببغداد (تأريخ خليفة/ ٣١٢).

من الطرق؛ فكانوا يجتمعون فيأتُون الرّجل ، فيأخذونَ ابنَه ، فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع؛ وكانوا يسألون الرَّجُل أن يُقرِضهم أو يصِلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم؛ وكانوا يجتمعون فيأتُون القرى ، فيكاثرون أهلَها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك؛ لا سلطانَ يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم؛ لأن السلطان كان يعتزّ بهم ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنَعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يَجْبُون المارّة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ، ويقطعون الطرق علانية ، ولا أحد يعدو عليهم ، وكان الناس منهم في بلاء عظيم؛ ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قُطْرَبّل ، فانتهبوها علانيةً ، وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد ، وجعلوا يبيعونها علانية ، وجاء أهلها فاستعَدَوْا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم عليهم ، ولم يردّ عليهم شيئاً مما كان أخِذ منهم ، وذلك آخر شعبان.

فلما رأى الناس ذلك وما قد أخِذ منهم؛ وما بيع من متاع الناس في أسواقهم ، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقَطْع الطريق ، وأن السلطان لا يغيّر عليهم ، قام صُلحاء كل رَبَض وكلّ دَرْب ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا: إنما في الدّرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة ، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم؛ فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً ، لقمعتم هؤلاء الفُساق ، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم.

فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد الدريوش ، فدعا جيرَانه وأهل بيته وأهل محلّته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك ، وشدّ على مَنْ يليه من الفساق والشطار ، فمنعهم مما كانوا يصنعون ، فامتنعوا عليه ، وأرادوا قتاله ، فقاتلهم فهزمهم وأخذ بعضهم ، فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان؛ إلا أنه كان لا يرى أن يُغَيّر على السلطان شيئاً ، ثم قام من بعده رجلٌ من أهل الحربيّة ، يقال له سهل بن سلامة الأنصاريّ من أهل خُراسان؛ يكنى أبا حاتم؛ فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل بكتاب الله جلّ وعزّ وسنّة نبيه ﷺ ، وعلّق مصحفاً في عنقه ، ثم بدأ بجيرانه وأهلِ محِلّته ، فأمرهم ونهاهم فقبِلوا منه ، ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك؛ الشريفَ منهم والوضيعَ؛ بني هاشم ومَنْ دونهم ، وجعل له ديواناً

يثبت فيه اسم من أتاه منهم ، فبايعه على ذلك ، وقتال مَنْ خالفه وخالف ما دعا إليه كائناً من كان؛ فأتاه خلق كثير ، فبايعوا.

ثمّ إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ، ومنع كلّ من يخفر ويجبي المارّة والمختلفة ، وقال: لا خفارة في الإسلام ـ والخفارة أنه كان يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول: بستانك في خَفَري ، أدفع عنه من أراده بسوء ، ولي في عُنقك كلّ شهر كذا وكذا درهماً ، فيعطيه ذلك شائياً وآبياً ـ فقوي على ذلك إلا أن الدريوش خالفه ، وقال: أنا لا أعيبُ على السلطان شيئاً ولا أغيِّره ، ولا أقاتله ، ولا آمره بشيء ولا أنهاه. وقال سهل بن سلامة: لكني أقاتل كلّ من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان؛ سلطاناً أو غيره؛ والحق قائم في الناس أجمعين ، فمن يبايعني على هذا قبلتُه ، ومن خالفني قاتلته ، فقام في ذلك سهل يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومئتين في مسجد طاهر بن الحسين؛ الذي كان بناه في الحربيّة. وكان خالد الدريوش قام قبله بيومين أو ثلاثة ، وكان منصور بن المهديّ مقيماً بعسكره بجَبُّل ، فلما كان من ظهور سهل بن سلامة وأصحابه ما كان ، وبلغ ذلك منصوراً وعيسى ـ وإنما كان عُظم أصحابهما الشّطار ، ومن لا خير فيه ـ كسرهما ذلك ، ودخل منصور بغداد.

وقد كان عيسى يكاتب الحسن بن سهل ، فلما بلغه خبر بغداد ، سأل الحسن بن سهل أن يعطيَه الأمان له ولأهل بيته ولأصحابه؛ على أن يعطي الحسن أصحابه وجنده وسائر أهل بغداد رزق ستة أشهر إذا أدركتْ له الغَلّة ، فأجابه الحسن ، وارتحل عيسى من مُعسكره ، فدخل بغداد يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من شوّال ، وتقوّضت جميع عساكرهم ، فدخلوا بغداد فأعلمهم عيسى ما دخل لهم فيه من الصّلح ، فرضُوا بذلك.

ثم رجع عيسى إلى المدائن ، وجاء يحيى بن عبد الله ، ابن عمّ الحسن بن سهل ، حتى نزل دَير العاقول ، فوَلّوْه السواد ، وأشركوا بينه وبين عيسى في الولاية ، وجعلوا لكلّ عدّة من الطّساسيج وأعمال بغداد. فلمّا دخل عيسى فيما دخل فيه ـ وكان أهل عسكر المهديّ مخالفين له ـ وثب المطلب بن عبد الله بن مالك الخُزاعيّ يدعو إلى المأمون وإلى الفضل والحسن ابني سهل؛ فامتنع عليه سهل بن سلامة ، وقال: ليس على هذا بايعتَني.

وتحوّل منصور بن المهديّ وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع ـ وكانوا يوم تحوّلوا بايعوا سهلَ بن سلامة على ما يدعُو إليه من العمل بالكتاب والسنة ـ فنزلوا بالحربية فراراً من الطلب ، وجاء سهل بن سلامة إلى الحسن ، وبعث إلى المطلب أن يأتيَه ، وقال: ليس على هذا بايعتَنِي ، فأبى المطلب أن يجيئَه ، فقاتله سهل يومين أو ثلاثة قتالاً شديداً؛ حتى اصطلح عيسى والمطلب ، فدسّ عيسى إلى سهلٍ مَن اغتاله فضربه ضربة بالسيف؛ إلا أنها لم تعمل فيه؛ فلما اغتيل سهل رجع إلى منزله ، وقام عيسى بأمر الناس ، فكفُّوا عن القتال.

وقد كان حميد بن عبد الحميد مقيماً بالنيل ، فلما بلغه هذا الخبر دخل الكوفة ، فأقام بها أياماً. ثم إنه خرج منها حتى أتى قصر ابن هبيرة ، فأقام به ، واتخذ منزلاً وعمل عليه سوراً وخندقاً؛ وذلك في آخر ذي القعدة ، وأقام عيسى ببغداد يعرض الجند ويصحّحهم ، إلى أن تدرك الغلّة ، وبعث إلى سهل بن سلامة فاعتذر إليه مما كان صنع به ، وبايعه وأمره أن يعود إلى ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأنه عونه على ذلك ، فقام سهل بما كان قام به أولا من الدعاء إلى العمل بالكتاب والسنّة.

* * *

ذكر خبر البيعة لعليّ بن موسى بولاية العهد

وفي هذه السنة جعل المأمون عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسماه الرِّضِيّ من آل محمد ﷺ ، وأمر جنده بطرح السَّواد ولبس ثياب الخُضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق[١].

---

(١) أيّد خليفة هذا الخبر فقال: سنة إحدى ومائتين فيها بايع المأمون لعلي بن موسى بن جعفر بالخلافة من بعده وخلع القاسم بن هارون أمير المؤمنين وأمر بالسواد فألقي ولُبِسَت الخضرة (تأريخ خليفة/ ٣١٢).
وقال ابن قتيبة الدينوري: وبعث المأمون إلى علي بن موسى الذي يُدعى بالرضى فحمله إلى خراسان فبايع له بولاية العهد وأمر الناس بلباس الخضرة (المعارف/ ١٩٧).
وكذلك أشار البسوي إلى هذه البيعة ضمن أحداث سنة (٢٠١ هـ) (المعرفة والتأريخ / ١/ ٦٠). =

ذكر الخبر عن ذلك وعما كان سبب ذلك وما آل الأمر فيه إليه:

ذُكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد، بينما هو فيما هو من عَرْض أصحابه بعد منصرَفه من عسكره إلى بغداد، إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل يُعلمه أنّ أمير المؤمنين المأمون قد جعل عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده؛ وذلك أنه نظر في بني العباس وبني عليّ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورعَ ولا أعلم منه؛ وأنه سمَّاه الرضِيّ من آل محمد، وأمره بطرح لُبْس الثياب السود ولبس ثياب الخضرة؛ وذلك يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، ويأمره أن يأمر مَنْ قبله من أصحابه والجند والقوّاد وبني هاشم بالبيعة له، وأن يأخذهم بلبس الخُضْرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك.

فلما أتى عيسى الخبر دعا أهلَ بغداد إلى ذلك على أن يعجِّل لهم رزق شهر، والباقي إذا أدركت الغلّة، فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة، وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضرة، ولانُخرِج هذا الأمر من ولد العباس؛ وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل، فمكثوا بذلك أياماً. وغضب ولد العباس من ذلك، واجتمع بعضهم إلى بعض، وتكلموا فيه، وقالوا: نولّي بعضَنا، ونخلع المأمون؛ وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلّد له إبراهيم ومنصور ابنا المهديّ.

* * *

ذكر الدعوة لمبايعة إبراهيم بن المهديّ وخلع المأمون

وفي هذه السنة بايع أهلُ بغداد إبراهيم بن المهديّ بالخلافة وخلعوا المأمون

ذكر السبب في ذلك:

قد ذكرنا سببَ إنكار العباسيين ببغداد على المأمون ما أنكروا عليه، واجتماع

= ولقد ذكر الحافظ ابن كثير وهو إمام مؤرخ متأخر أن المأمون رأى أن علياً الرّضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه فجعله ولي عهده من بعده (انظر البداية والنهاية/ ٨/ ١٤٩).

وانظر تعليقنا (٨/ ٥٥٥/ ١٢٨).

من اجتمع على محاربة الحسن بن سهل منهم؛ حتى خرج عن بغداد. ولمّا كان من بيعة المأمون لعليّ بن موسى بن جعفر ـ وأمره الناس بلبس الخضرة ما كان، وورود كتاب الحسن على عيسى بن محمد بن أبي خالد يأمره بذلك، وأخْذ الناس به ببغداد، وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقِين من ذي الحجة ـ أظهر العباسيون ببغداد أنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهديّ بالخلافة، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهديّ؛ وأنهم قد خلعوا المأمون[1] وأنهم يعطون عشرة دنانير كل إنسان، أوّل يوم من المحرّم أول يوم من السنة المستقبلة. فقبل بعض ولم يقبل بعض حتى يعطَى؛ فلما كان يوم الجمعة وأرادوا الصلاة أرادوا أن يجعلوا إبراهيم خليفة للمأمون مكان منصور، فأمروا رجلاً يقول حين أذّن المؤذن: إنا نريد أن ندعوَ للمأمون ومن بعده لإبراهيم يكون خليفة؛ وكانوا قد دسُّوا قوماً، فقالوا لهم: إذا قام يقول: ندعُو للمأمون، فقوموا أنتم فقولوا: لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم ومنْ بعده لإسحاق، وتخلعوا المأمون أصلاً، ليس نريد أن تأخذوا أموالنا كما صنع منصور، ثم تجلسوا في بيوتكم. فلما قام

---

(١) وأيده خليفة في هذا فقال: وفيها أخرج الحسن بن سهل من بغداد وبويع إبراهيم بن المهدي وأمّه شكلة ببغداد وأخذت له الكوفة وعامة السواد (تأريخ خليفة/ ٣١٢).
وقال ابن قتيبة الدينوري: وصار أهل بغداد إلى إبراهيم بن المهدي فبايعوه بيعة الخلافة (المعارف/ ١٩٧).
وقد قال الجهشياري نحواً مما قال الطبري فأجمل الأسباب والوقائع التي أدت بالنتيجة إلى بيعة الناس إبراهيم بن المهدي فقال: وكان إبراهيم بن المهدي يتقلد البصرة من قبل المأمون، وكاتبه إبراهيم بن نوح بن أبي نوح. وكان المأمون جدّ في تجديد العهد لعليّ بن موسى بن جعفر، وتقدّم إلى الفضل بأخذ البَيْعَة على الناس، والكِتاب إلى الأقاليم في إبطال السواد، وكتبَ الفضل بن سهل إلى الحسن يعلمه ذلك، ويأمره بطرح لبس السواد، وأن يلبس الخُضْرة، ويجعل الأعلام والقلانس خُضْراً، ويطالب الناس بذلك، ويكاتب فيه جميع عُمّاله. فكتب الحسن إلى عيسى بن أبي خالد بذلك، فدعا عيسى أهل بغداد، وعرفهم ما كتب به الحسن، فبعض أجاب، وبعض امتنع، ودب الهاشميون بعضهم إلى بعض، وخلعوا المأمون، وعقدوا الأمر لإبراهيم بن المهديّ في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحِجَّة سنة إحدى ومئتين؛ وكان القيّم بأمره عيسى بن محمد بن أبي خالد، فكان من أمره ما كان (الوزراء والكتاب/ ٣١٢).

مَن يتكلم أجابه هؤلاء ، فلم يُصَلّ بهم تلك الجمعة صلاة الجمعة ، ولا خطب أحد ، إنما صلى الناس أربع ركعات ثم انصرفوا؛ وذلك يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن خُرْداذْبه وهو والي طَبرستان اللارز والشيرز؛ من بلاد الديلم ، وزادهما في بلاد الإسلام ، وافتتح جبال طبرستان ، وأنزل شهريار بن شَروين عنها ، فقال سلاّم الخاسر:

إنـا لنَـأْمُـلُ فتْـحَ الـرومِ والصِّيـن بمـن أَدال لنا مـن مُلـك شَـرْوِيـنِ
فـاشـدُدْ يـديـك بِعبـدِ الله إِنَّ لـهُ مـع الأَمـانـةِ رأْيٌ غيـرُ مَـوهُـونِ[1]

وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون ، وأسر أبا ليلى ملك الديلم بغير عهد في هذه السنة.

وفيها مات محمد بن محمد صاحب أبي السرايا.

وفيها تحرّك بابك الخرّميّ في الجاويذَانيّة أصحاب جاويذان بن سهل ، صاحب البذّ ، وادّعى أن رُوح جاويذان دخلت فيه ، وأخذ في العيْث والفساد.

وفيها أصابَ أهلَ خراسان والريّ وإصبهان مجاعة ، وعزَّ الطعام ، ووقع الموت.

* * *

وحجّ بالناس فيها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ[2].

---

(١) هكذا ذكر الطبري وفي نسبة هذا الشعر إلى سلامة الخاسر ـ يوم أن وقع هذا الفتح ـ نظراً لأن الطبري ذكر هذا الفتح ضمن أحداث سنة (٢٠١ هـ) بينما ذكر ابن الجوزي في المنتظم أن سلاماً هذا توفي سنة (١٨٦ هـ).
وانظر تعليق ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٤٩).

(٢) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٢).

ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

ذكر خبر بيعة إبراهيم بن المهديّ

فممّا كان فيها من ذلك بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهديّ بالخلافة ، وتسميتهم إيّاه المُبارك. وقيل إنهم بايعوه في أوّل يوم من المحرّم بالخلافة ، وخلعوا المأمون؛ فلمّا كان يوم الجمعة صعد إبراهيم المنبر؛ فكان أوّل من بايعه عُبيد الله بن العباس بن محمد الهاشميّ ، ثم منصور بن المهديّ ، ثم سائر بني هاشم ، ثم القوّاد. وكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك؛ وكان الذي سعى في ذلك وقام به السنديّ وصالح صاحب المصلّى ومنْجاب ونُصير الوصيف وسائر الموالي؛ إلا أن هؤلاء كانوا الرؤساء والقادة غضباً منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد عليّ ، ولتركه لباس آبائه من السّواد ولبسِه الخُضرة[1].

ولما فرغ من البيعة وعد الجند أن يعطيَهم أرزاق الأشهر ، فدافعهم بها ، فلما رأوا ذلك شغَبُوا عليه ، فأعطاهم مائتي درهم لكل رجل ، وكتب لبعضهم إلى السواد بقيمة بقيّة مالهم حنطة وشعيراً. فخرجوا في قَبْضها فلم يمرّوا بشيء إلا انتهبوه ، فأخذوا النَّصيبيْن جميعاً؛ نصيب أهل البلاد ونصيب السلطان. وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسَّواد كله ، وعسكر بالمدائن. وولّى الجانب الشرقيّ من بغداد العباس بن موسى الهادي والجانب الغربيّ إسحاق بن

(١) لقد بيّن الطبري فيما سبق أن الناس بايعوا إبراهيم بن المهدي لأسباب منها أن المأمون أخرج الخلافة من بني العباس وبايع لعلي الرضى من آل علي وانظر تعليقنا على الخبر (٨/ ٥٥٥/ ١٢٩).
ولقد تحدث الطبري مرتين عن هذه البيعة مرة في سنة (٢٠١) ومرة في سنة (٢٠٢ هـ) ولعلها كانت مرة واحدة كما ذكر غيره من المتقدمين أو أن الأولى كانت بين القادة من بني العباس والثانية كانت عامة ظاهرة بين الناس والله أعلم.

موسى الهادي. وقال إبراهيم بن المهديّ:

أَلَـم تعلَمُـوا يـا آل فهـرٍ بـأَنَّنـي   شَرَيْتُ بنفسي دُوَنكُمْ في المهالكِ

* * *

خبر تحكيم مهديّ بن علوان الحَرُوريّ[١]

وفي هذه السنة حَكَّم مهديّ بن عُلوان الحروريّ، وكان خروجه بِبُزرجسابور، وغلب على طساسيج هنالك. وعلى نهر بوق والراذانيْن. وقد قيل: إن خروج مهديّ كان في سنة ثلاث ومئتين في شوّال منها، فوجّه إليه إبراهيم بن المهدي أبا إسحاق بن الرشيد في جماعة من القوّاد، منهم أبو البطّ وسعيد بن الساجور، ومع أبي إسحاق غلمان له أتراك؛ فذُكر عن شُبيل صاحب السلبة، أنه كان معه وهو غلام، فلقوا الشُّراة، فطَعن رجل من الأعراب أبا إسحاق، فحامى عنه غلام له تركيّ، وقال له: أشناس مَرَا، أي اعرفْني، فسماه يومئذٍ أشناس، وهو أبو جعفر أشِناس، وهُزم مهديّ إلى حَوْلاَيا.

وقال بعضهم: إنما وجّه إبراهيم إلى مهديّ بن علوان الدهقاني الحروريّ المُطَّلبَ، فسار إليه، فلمّا قرب منه أخذ رجلاً من قَعدِ الحروريّة يقال له أقْذَى، فقتله، واجتمعت الأعراب فقاتلوه فهزموه حتى أدخلوه بغداد.

وفي هذه السنة وثب أخو أبي السرايا بالكوفة، فبيّض، واجتمعت إليه جماعة، فلقيه غَسان بن أبي الفرج في رَجب فقتله، وبعث برأسه إلى إبراهيم بن المهديّ.

* * *

ذكر الخبر عن تبييض أخي أبي السرايا وظهوره بالكوفة[٢]

ذكر أن الحسن بن سهل أتاه وهو مقيم بالمبَارك في معسكره كتاب المأمون يأمره بلبس الخضرة، وأن يبايع لعليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بولاية العهد

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٩).

(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٤٩).

من بعده ، ويأمره أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها ، فارتحل حتى نزل سمّر ، وكتب إلى حميد بن عبد الحميد أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها من ناحية أخرى ، ويأمر بلباس الخُضرة ، ففعل ذلك حميد. وكان سعيد بن الساجور وأبو البطّ وغسان بن أبي الفرج ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ وعِدّة من قوّاد حُميد كاتبوا إبراهيم بن المهديّ ، على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة. وكان قد تباعد ما بينهم وبين حميد ، فكانوا يكتبون إلى الحسن بن سهل يخبرونه أن حُميداً يكاتب إبراهيم ، وكان يكتب فيهم بمثل ذلك ، وكان الحسن يكتب إلى حُميد يسأله أن يأتيه فلم يفعل ، وخاف إن هو خرج إلى الحسن أن يثب الآخرون بعسكره؛ فكانوا يكتبون إلى الحسن أنّه ليس يمنعه من إتيانك إلاّ أنه مخالف لك ، وأنه قد اشترى الضياع بين الصّراة وسُورا والسواد. فلما ألحّ عليه الحسن بالكُتب ، خرج إليه يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الآخر ، فكتب سعيد وأصحابه إلى إبراهيم يعلمونه ، ويسألون أن يبعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد ، حتى يدفعوا إليه القصر وعسكر حميد ، وكان إبراهيم قد خرج من بغداد يوم الثلاثاء حتى عسكر بكَلْواذى يريد المدائن ، فلما أتاه الكتاب وجّه عيسى إليهم.

فلما بلغ أهلَ عسكر حميد خروجُ عيسى ونزوله قرية الأعراب على فرسخ من القصر تهيّئوا للهرب؛ وذلك ليلة الثلاثاء ، وشدّ أصحاب سعيد وأبي البطّ والفضل بن محمد بن الصباح الكنديّ الكوفيّ على عسكر حميد؛ فانتهبوا ما فيه ، وأخذوا لحُميد ـ فيما ذكر ـ مائة بَدْرة أموالاً ومتاعاً ، وهرب ابنٌ لحُميد ومعاذ بن عبد الله ، فأخذ بعضهم نحو الكوفة وبعض نحو النيل؛ فأمّا ابنُ حميد ، فإنه انحدر بجواري أبيه إلى الكوفة ، فلما أتى الكوفة اكترى بغالاً ثم أخذ الطريق ، ثم لحق بأبيه بعسكر الحسن ، ودخل عيسى القصر وسلّمه له سعيد وأصحابه ، وصار عيسى وأخذه منهم ، وذلك يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الآخر. وبلغ الحسن بن سهل وحميد عنه ، فقال له حميد: ألم أعلمك بذلك! ولكن خُدعت ، وخرج من عنده حتى أتى الكوفة ، فأخذ أموالاً له كانت هنالك ومتاعاً. وولّى على الكوفة العباس بن موسى بن جعفر العلويّ ، وأمره بلباس الخضرة ، وأن يدعُو للمأمون ومن بعده لأخيه عليّ بن موسى ، وأعانه بمائة ألف

درهم ، وقال له: قاتل عن أخيك ، فإن أهل الكوفة يُجيبونك إلى ذلك؛ وأنا معك.

فلمّا كان الليل خرج حميد من الكوفة وترَكه ، وقد كان الحسن وجّه حكيماً الحارثيّ حين بلغه الخبر إلى النيل ، فلما بلغ ذلك عيسى وهو بالقصرتهيّأ هو وأصحابه ، حتى خرجوا إلى النّيل؛ فلما كان ليلة السبت لأربع عشرة ليلة خلتْ من ربيع الآخر طلعت حُمرة في السماء ، ثم ذهبت الحمرة ، وبقي عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل؛ وخرج غداة السبت عيسى وأصحابه من القصر إلى النيل ، فواقعهم حكيم ، وأتاهم عيسى وسعيد وهم في الوقعة ، فانهزم حكيم ، ودخلوا النِّيل.

فلما صاروا بالنِّيل ، بلغهم خبر العباس بن موسى بن جعفر العلويّ ، وما يدعو إليه أهل الكوفة ، وأنه قد أجابه قوم كثير منهم ، وقال له آخرون: إن كنتَ تدعو للمأمون ثم من بعده لأخيك فلا حاجةَ لنا في دعوتك ، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك. فقال: أنا أدعو إلى المأمون ثم من بعده لأخي؛ فقعد عنه الغالية من الرّافضة وأكثر الشيعة. وكان يُظهر أن حميداً يأتيه فيعينه ويقوّيه ، وأن الحسن يوجّه إليه قوماً من قبَله مدداً ، فلم يأته منهم أحد ، وتوجّه إليه سعيد وأبو البط من النيل إلى الكوفة ، فلما صاروا بدير الأعور ، أخذوا طريقاً يخرج بهم إلى عسكر هرثمة عند قرية شاهي.

فلمّا التأم إليه أصحابه ، خرجوا يوم الإثنين لليلتين خَلتَا من جمادى الأولى. فلما صاروا قرب القنطرة خرج عليهم عليّ بن محمد بن جعفر العلويّ ، ابن المبايع له بمكة. وأبو عبد الله أخو أبي السرايا ومعهم جماعة كثيرة ، وجّههم مع علي بن محمد ابنُ عمه صاحب الكوفة العباسُ بن موسى بن جعفر ، فقاتلوهم ساعة ، فانهزم عليّ وأصحابه حتى دخلوا الكوفة ، وجاء سعيد وأصحابه حتى نزلوا الحيرة؛ فلمّا كان يوم الثلاثاء غدوْا فقاتلوهم مما يلي دار عيسى بن موسى ، وأجابهم العباسيون ومواليهم ، فخرجوا إليهم من الكوفة ، فاقتتلوا يومهم إلى الليل ، وشعارهم: «يا إبراهيم يا منصور ، لا طاعة للمأمون» ، وعليهم السّواد ، وعلى العباس وأصحابه من أهل الكوفة الخُضْرة.

فلما كان يوم الأربعاء اقتتلوا في ذلك الموضع ، فكان كلّ فريق منهم إذا

ظهروا على شيء أحرقوه. فلما رأى ذلك رؤساء أهل الكوفة ، أتوْا سعيداً وأصحابَه ، فسألوه الأمان للعباس بن موسى بن جعفر وأصحابه؛ على أن يخرج من الكوفة ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم أتَوا العباس فأعلموه ، وقالوا: إن عامّة مَن معك غوغاء ، وقد ترى ما يلقى الناس من الحرْق والنهب والقتل؛ فاخرج من بين أظهرنا ، فلا حاجة لنا فيك. فقبل منهم ، وخاف أن يُسلموه ، وتحوّل من منزله الذي كان فيه بالكُناسة ، ولم يعلم أصحابه بذلك ، وانصرف سعيد وأصحابه إلى الحيرة ، وشدّ أصحاب العباس بن موسى على مَنْ بقي من أصحاب سعيد وموالي عيسى بن موسى العباسيّ ، فهزموهم حتى بلغوا بهم الخندق ، ونهبُوا ربَض عيسى بن موسى ، فأحرقوا الدّور ، وقتلوا من ظهروا به. فبعث العباسيّون ومواليهم إلى سعيد يعلمونه بذلك ، وأنّ العباس قد رجع عما كان طلب من الأمان. فركب سعيد وأبو البط وأصحابهما حتى أتوا الكوفة عَتَمَةً ، فلم يظفروا بأحد منهم ينتهب إلاّ قتلوه ، ولم يظهروا على شيء مما كان في أيدي أصحاب العباس إلا أحرقوه؛ حتى بلغوا الكُناسة ، فمكثوا بذلك عامة الليل حتى خرج إليهم رؤساء أهل الكوفة ، فأعلموهم أنّ هذا من عمل الغوغاء ، وأن العباس لم يرجع عن شيء. فانصرفوا عنهم.

فلمّا كان غداة الخميس لخمس خلون من جمادى الأولى ، جاء سعيد وأبو البطّ حتى دخلوا الكوفة ، ونادى مناديهم: أمن الأبيض والأسود؛ ولم يعرضوا لأحد من الخلق إلا بسبيل خير ، وولّوْا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكنديّ ، من أهلها. فكتب إليهم إبراهيم بن المهديّ يأمرهم بالخروج إلى ناحية واسط ، وكتب إلى سعيد أن يستعمل على الكوفة غير الكنديّ ، لميله إلى أهل بلده؛ فولاّها غسان بن أبي الفرج ، ثم عزله بعدما قتل أبا عبد الله أخا أبي السرايا ، فولاها سعيدٌ ابنَ أخيه الهوْل؛ فلم يزل والياً عليها حتى قدمها حميد بن عبد الحميد ، وهرب الهوْل منها ، وأمر إبراهيم بن المهديّ عيسى بن محمد بن أبي خالد أن يسيرَ إلى ناحية واسط على طريق النيل ، وأمر ابن عائشة الهاشميّ ونعيم بن خازم أن يسيرا جميعاً ، فخرجا مما يلي جُوخى ، وبذلك أمرهما ، وذلك في جمادى الأولى. ولحق بهما سعيد وأبو البطّ والإفريقي حتى عسكروا بالصيّادة قرب واسط؛ فاجتمعوا جميعاً في مكان واحد ، وعليهم

عيسى بن محمد بن أبي خالد ، فكانوا يركبون حتى يأتوا عسكر الحسن وأصحابه بواسط في كلّ يوم ، فلا يخرج إليهم من أصحاب الحسن أحد ، وهم متحصّنون بمدينة واسط .

ثم إن الحسن أمر أصحابه بالتهيُّؤ للخروج للقتال ، فخرجوا إليهم يوم السبت لأربع بقينَ من رجب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى قريب الظهر . ثم وقعت الهزيمة على عيسى وأصحابه ، فانهزموا حتى بلغوا طرنايا والنيل ، وأخذ أصحاب الحسن جميع ما كان في عسكرهم من سلاح ودوابّ وغير ذلك .

* * *

ظفر إبراهيم بن المهديّ بسهل بن سلامة المطوّعيّ

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوّعيّ فحبسه وعاقبه(١) .

ذكر الخبر عن سبب ظفره به وحبسه إياه :

ذُكر أنّ سهل بن سلامة كان مقيماً ببغداد ، يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فلم يزل كذلك حتى اجتمع إليه عامةُ أهل بغداد ونزلوا عنده؛ سوى مَنْ هو مقيم في منزله ، وهواه ورأيه معه؛ وكان إبراهيم قد همّ بقتاله قبل الوَقعة ، ثم أمسك عن ذلك ، فلمَّا كانت هذه الوقعة وصارت الهزيمة على أصحاب عيسى ومَنْ معه أقبل على سهل بن سلامة ، فدسّ إليه وإلى أصحابه الذين بايعوه على العمل بالكتاب والسنة ، وألاَّ طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق؛ فكان كلُّ مَنْ أجابه إلى ذلك قد عمل على باب داره بُرجاً بجصّ وآجرّ ، ونصب عليه السلاح والمصاحف؛ حتى بلغوا قرب باب الشأم؛ سوى مَنْ أجابه من أهل الكرْخ وسائر الناس؛ فلما رجع عيسى من الهزيمة إلى بغداد ، أقبل هو وإخوته وجماعة أصحابه نحو سهل بن سلامة؛ لأنه كان يذكّرهم بأسوأ أعمالهم وفعَالهم ، ويقول : الفسّاق؛ لم يكن لهم عنده اسم غيره ، فقاتلوه أياماً؛ وكان الذي تولى قتاله عيسى بن محمد بن أبي خالد؛ فلمّا صار إلى الدّروب التي قرب سهل أعطى

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥٠).

أهلَ الدروب الألف الدرهم والألفين درهماً؛ على أن يتنحوْا له عن الدروب ، فأجابوه إلى ذلك؛ فكان نصيبُ الرجل الدرهم والدرهمين ونحو ذلك؛ فلما كان يوم السبت لخمس بقين من شعبان تهيئوا له من كلّ وجه ، وخذَله أهل الدروب حتى وصلوا إلى مسجد طاهر بن الحسين وإلى منزله؛ وهو بالقرب من المسجد؛ فلما وصلوا إليه اختفى منهم ، وألقى سلاحه ، واختلط بالنظارة ، ودخل بين النساء فدخلوا منزله .

فلمّا لم يظفروا به جعلوا عليه العيون؛ فلمّا كان الليل أخذوه في بعض الدّروب التي قرب منزله ، فأتوا به إسحاق بن موسى الهادي ـ وهو وليّ العهد بعد عمّه إبراهيم بن المهديّ وهو بمدينة السلام ـ فكلّمه وحاجّه ، وجمع بينه وبين أصحابه ، وقال له: حرّضت علينا الناس ، وعبتَ أمرنا! فقال له: إنما كانت دعوتي عباسيّة؛ وإنما كنتُ أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة؛ وأنا على ما كنْتُ عليه أدعوكم إليه الساعة. فلم يقبلوا ذلك منه. ثم قالوا له: اخرج إلى الناس ، فقل لهم: إن ما كنت أدعوكم إليه باطلٌ. فأخرِج إلى الناس وقال: قد علمتم ما كنتُ أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة ، وأنا أدعوكم إليه الساعة. فلما قال لهم هذا وجؤوا عنقه ، وضربوا وجهه؛ فلما صنعوا ذلك به قال: المغرور مَنْ غررتموه يا أصحاب الحربيّة؛ فأخِذ فأدخل إلى إسحاق ، فقيّده ، وذلك يوم الأحد. فلما كان ليلة الإثنين خرجوا به إلى إبراهيم بالمدائن ، فلما دخل عليه كلمه بما كلم به إسحاق ، فردّ عليه مثل ما ردّ على إسحاق. وقد كانوا أخذوا رجلاً من أصحابه يقال له محمد الرواعيّ ، فضربه إبراهيم ، ونتَف لحيته ، وقيّده وحبسه؛ فلما أخذ سهل بن سلامة حبسوه أيضاً ، وادّعوا أنه كان دُفع إلى عيسى ، وأنّ عيسى قتله؛ وإنما أشاعوا ذلك تخوّفاً من الناس أن يعلموا بمكانه فيخرجوه؛ فكان بين خروجه وبين أخذه وحبسه اثنا عشر شهراً.

* * *

ذكر خبر شخوص المأمون إلى العراق

وفي هذه السنة شخص المأمون من مَرْو يريد العراق[(١)]

ذكر الخبر عن شخوصه منها:

ذُكر أن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخْبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وأنّ أهل بيته والناس قد نقَموا عليه أشياء؛ وأنهم يقولون إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمّه إبراهيم بن المهديّ بالخلافة. فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة؛ وإنما صيّروه أميراً يقوم بأمرهم، على ما أخبره به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذَبه وغشّه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل، وأنّ الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك، فقال: ومَنْ يعلم هذا من أهل عسكري؟ قال له: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له: أدخلهم عليّ حتى أسألهم عمّا ذكرتْ، فأدخلهم عليه؛ وهم يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وموسى وعليّ بن أبي سعيد ـ وهو ابن أخت الفضل ـ وخلف المصريّ، فسألهم عما أخبره، فأبوْا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل؛ ألا يعرض لهم، فضمن ذلك لهم، وكتب لكلّ رجل منهم كتاباً بخطه، ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبيّنوا ذلك له، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه في أشياء كثيرة، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأنّ هرثمة إنما جاءه لينصحه وليبين له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأنّ الفضل دسّ إلى هرثمة مَنْ قتله، وأنه أراد نصحه؛ وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى، وافتتح ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة، حتى إذا وطّأ الأمر أخرِج من ذلك كله، وصُيّر في زاوية من الأرض بالرّقة، قد حُظرت عليه الأموال حتى ضعف أمرُه فشغب عليه جنده، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك،

(١) انظر تعليقنا في نهاية الخبر (٥٦٥).

ولم يجترَأ عليه بمثل ما اجترِى به على الحسن بن سهل ، وأنّ الدنيا قد تفتّقت من أقطارها ، وأن طاهر بن الحسين قد تُنوسيَ في هذه السنين منذ قتل محمد في الرّقة ، لا يُستعان به في شيء من هذه الحروب؛ وقد استعين بمن هو دونه أضعافاً ، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد في بني هاشم والموالي والقواد ، والجندُ لو رأوا عزّتك سكنوا إلى ذلك ، وبخَعُوا بالطاعة.

فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد؛ فلمّا أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم ، فتعنّتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً ، ونتف لحى بعض؛ فعاوده عليّ بن موسى في أمرهم ، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم؛ فأعلمه أنه يداري ما هو فيه. ثم ارتحل من مرْو فلما أتى سرخَسْ شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام ، فضربوه بالسيوف حتى مات؛ وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة اثنتين ومائتين. فأخِذوا ، وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون وهو أربعة نفر: أحدهم غالب المسعوديّ الأسود ، وقسطنطين الروميّ ، وفرج الديلميّ ، وموفّق الصّقلبيّ ، وقتلوه وله ستون سنة؛ وهربوا. فبعث المأمون في طلبهم ، وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن بُزُرْجمهر الدينوريّ ، فقالوا للمأمون: أنت أمرتَنا بقتله ، فأمر بهم فضرِبت أعناقهم[1]. وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل لمّا أخِذوا ساءلهم المأمون؛ فمنهم من قال: إن عليّ بن أبي سعيد ، ابن أخت الفضل دسّهم ، ومنهم من أنكر ذلك ، وأمر بهم فقتلوا. ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعليّ وموسى وخلف فساءلهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك؛ فلم يقبل ذلك منهم وأمر بهم فقتلوا ، وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل إلى واسط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل ،

---

(١) أما خليفة بن خياط فقد ذكر في تأريخه أصل الخبر (٣١٢) فقال: وفيها ـ أي سنة (٢٠٢ هـ) ـ خرج أمير المؤمنين من خراسان يريد بغداد ثم ذكر خليفة آخر الخبر (كما ذكره الطبري) فقال: وفيها ـ أي سنة (٢٠٢ هـ) ـ قتل الفضل بن سهل بسرخس في شعبان فقتل أمير المؤمنين علي بن أبي سعيد وموسى بن عمران وعبد العزيز بن عمران اتهمهم بقتل الفضل بن سهل (تأريخ خليفة/ ٣١٢).
وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري وهو مؤرخ متقدم ثقة هذا الخبر فقال: وقد قتل الفضل بن سهل بسرخس سنة ثلاث ومائتين (المعارف ١٩٨).

وأنه قد صيّره مكانه. ووصل الكتاب بذلك إلى الحسن في شهر رمضان، فلم يزل الحسن وأصحابه حتى أدركت الغلّة وجُبيَ بعض الخراج، ورحَل المأمون من سَرخَسْ نحو العراق يوم الفطْر، وكان إبراهيم بن المهديّ بالمدائن وعيسى وأبو البطّ وسعيد بالنيل وطرنايا يراوحون القتال ويغادونه؛ وقد كان المطلب بن عبد الله بن مالك بن عبد الله قدِم من المدائن، فاعتلّ بأنه مريض، وجعل يدعو في السرّ إلى المأمون؛ على أن المنصور بن المهديّ خليفة المأمون، ويخلعون إبراهيم، فأجابه إلى ذلك منصور وخزيمة بن خازم وقوّاد كثير من أهل الجانب الشرقيّ، وكتب المطلب إلى حُميد وعليّ بن هشام أن يتقدّما فينزل حُميد نهر صرصر وعليّ النهروان؛ فلما تحقق عند إبراهيم الخبر خرج من المدائن إلى بغداد، فنزل زَنْدَوردْ يوم السبت لأربع عشرة خلت من صفر، وبعث إلى المطلب ومنصور وخزيمة، فلما أتاهم رسولُه اعتلّوا عليه؛ فلما رأى ذلك بعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد وإخوته؛ فأما منصور وخزيمة فأعطوْا بأيديهما، وأما المطلب فإن مواليه وأصحابه قاتلوا عن منزله حتى كثر الناس عليهم، وأمر إبراهيم منادياً فنادى: من أراد النهب فليأت دار المطّلب، فلما كان وقت الظهر وصلوا إلى داره، فانتهبوا ما وجدوا فيها، وانتهبوا دورَ أهل بيته، وطلبوه فلم يظفروا به، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر.

فلما بلغ حميداً وعلي بن هشام الخبر بعث حميد قائداً فأخذ المدائن، وقَطَع الجسر، ونزل بها، وبعث عليّ بن هشام قائداً فنزل المدائن، وأتى نهر دَيَالى فقطَعه، وأقاموا بالمدائن، وندم إبراهيم حيث صنع بالمطّلب ما صنع، ثم لم يظفر به.

* * *

وفي هذه السنة تزوّج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل.

وفيها زوّج المأمون عليّ بن موسى الرضِيّ ابنته أم حبيب، وزوّج محمد بن عليّ بن موسى ابنته أم الفضل[1].

---

(١) انظر الخبر في البداية والنهاية (٨/ ١٥٠).

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد ، فدعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد[١] .

وكان الحسن بن سهل كتب إلى عيسى بن يزيد الجُلُوديّ ، وكان بالبصرة فوافى مكة في أصحابه ، فشهد الموسم ، ثم انصرف ومضى إبراهيم بن موسى إلى اليمن ؛ وكان قد غلب عليها حمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

موت عليّ بن موسى الرضيّ

ذكر أن مما كان فيها موت عليّ بن موسى بن جعفر[٢]

ذكر الخبر عن سبب وفاته :

ذُكر أنّ المأمون شخص من سَرَخْس حتى صار إلى طُوس ، فلما صار بها أقام بها عند قبر أبيه أياماً. ثم إنّ عليّ بن موسى أكل عنباً فأكثر منه ، فمات فجأة؛ وذلك في آخر صفَر ؛ فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرّشيد ، وكتب في شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه أن عليّ بن موسى بن جعفر مات ، ويعلمه ما دخل عليه من الغمّ والمصيبة بموته؛ وكتب إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موتَ عليّ بن موسى ، وأنهم إنما نقَموا بيعته له من بعده؛ ويسألهم الدخول في طاعته. فكتبوا إليه وإلى الحسن جواب الكتاب بأغلظ ما يُكتَب به إلى أحد. وكان الذي صلّى على عليّ بن موسى المأمون.

* * *

---

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٢) دون ذكرٍ لولاية العهد.

(٢) وكذلك أرّخ خليفة واتفق خبره مع خبر الطبري في أنه رضي الله عنه توفي في آخر صفر سنة ٢٠٣ هـ (تأريخ خليفة/ ٣١٢).
وانظر سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٨٧).

ورحل المأمون في هذه السنة من طوس يريد بغداد ، فلما صار إلى الرّيّ أسقط من وظيفتها ألفي ألف درهم(١) .

وفي هذه السنة غلبت السوداء على الحسن بن سهل ، فذُكر سبب ذلك أنه كان مرض مرضاً شديداً ، فهاج به من مرضه تغيّر عقله ، حتى شُدّ في الحديد وحبِس في بيت . وكتب بذلك قوّاد الحسن إلى المأمون ، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله ، ويعلمهم أنه قادم على أثر كتابه .

* * *

خبر حبس إبراهيم بن المهديّ عيسى بن محمد بن أبي خالد

وفي هذه السنة ضرب إبراهيم بن المهديّ عيسى بن محمد بن أبي خالد وحبسه .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

ذُكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد كان يكاتب حُميداً والحسن؛ وكان الرّسول بينهم محمد بن محمد المعبديّ الهاشميّ ، وكان يُظهر لإبراهيم الطاعة والنصيحة ، ولم يكن يقاتل حُميداً ولا يعرض له في شيء من عمله؛ وكان كلّما قال إبراهيم : تهيّأ للخروج لقتال حُميد ، يعتلّ عليه بأنّ الجند يريدون أرزاقهم ، ومرة يقول : حتى تُدرِك الغلّة؛ فما زال بذلك حتى إذا توثق مما يريد مما بينه وبين الحسن وحُميد فارقهم ، على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهديّ يوم الجمعة لانسلاخ شوّال . وبلغ الخبر إبراهيم؛ فلما كان يوم الخميس ، جاء عيسى إلى باب الجسر ، فقال للناس : إني قد سالمت حُميداً ، وضمنت له ألاّ أدخل عمله ، وضمن لي ألاّ يدخل عملي . ثم أمر أن يُحفَر خندق بباب الجسر وباب الشأم ، وبلغ إبراهيمَ ما قال وما صنع ، وقد كان عيسى سأل إبراهيم أن يصلِّي الجمعة بالمدينة ، فأجابه إلى ذلك ، فلمّا تكلم عيسى بما تكلم به ، وبلغ إبراهيمَ الخبر وأنه يريد أخذه حذر .

---

(١) ذكر الطبري هنا مسير المأمون يريد بغداد مروراً بالري بينما ذكر خليفة أنه قدم بغداد فلعله وصل إلى مشارفها وانظر تأريخ خليفة (٣١٢) وانظر تعليقنا على الخبر (٨/ ٥٧٤) .

وذُكر أنّ هارون أخا عيسى أخبر إبراهيم بما يريد أن يصنع به عيسى؛ فلمّا أخبره ، بعث إليه أن يأتيَه حتى يناظره في بعض ما يريد ، فاعتلّ عليه عيسى ، فلم يزل إبراهيم يعيد إليه الرّسل حتى أتاه إلى قصره بالرّصافة ، فلما دخل عليه حُجب الناس ، وخلا إبراهيم وعيسى ، وجعل يعاتبه ، وأخذ عيسى يعتذر إليه مما يعتبه به ، وينكر بعض ما يقول؛ فلما قرّره بأشياء أمر به فضرب. ثم إنه حبسه وأخذ عدّة من قوّاده فحبسهم ، وبعث إلى منزله ، فأخذ أم ولده وصبياناً له صغاراً؛ فحبسهم؛ وذلك ليلة الخميس لليلة بقيت من شوال. وطلب خليفة له يقال له العباس فاختفى. فلما بلغ حبسُ عيسى أهلَ بيته وأصحابه ، مشى بعضُهم إلى بعض ، وحرّض أهلَ بيته وإخوته الناس على إبراهيم واجتمعوا؛ وكان رأسَهُم عباس خليفة عيسى ، فشدُّوا على عامل إبراهيم على الجسر فطردوه ، وعبرَ إلى إبراهيم فأخبره الخبر ، وأمر بقطع الجسر فطردوا كلَّ عامل كان لإبراهيم في الكرخ وغيره ، وظهر الفسّاق والشطار ، فقعدوا في المسالح. وكتب عباس إلى حُميد يسأله أن يقدم إليهم حتى يسلموا إليه بغداد؛ فلمّا كان يوم الجمعة صلّوا في مسجد المدينة أربع ركعات ، صلّى بهم المؤذن بغير خطبة.

* * *

ذكر خبر خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهديّ

وفي هذه السنة خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهديّ ، ودعوا للمأمون بالخلافة[١].

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

قد ذكرنا قبل ما كان من إبراهيم وعيسى بن محمد بن أبي خالد وحبْس إبراهيم إياه ، واجتماع عباس خليفة عيسى وإخوة عيسى على إبراهيم ، وكتابهم إلى حُميد يسألونه المصيرَ إليهم ليُسلّموا بغداد إليه؛ فذكِر أنّ حُميداً لما أتاه

---

(١) لقد استغرقت أخبار إبراهيم بن المهدي وخلعه واختفائه والمعارك التي خاضها معظم أحداث سنة (٢٠٣) عند الطبري (٥٦٩ ـ ٥٧٣) فقد ذكره الحافظ بن كثير مختصراً في البداية والنهاية (٨/ ١٥٠) وانظر تأريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات/ ٢٠١ ـ ٢١٠ هـ).

كتابُهم ، وفيه شرط منهم عليه أن يعطيَ جند أهل بغداد؛ كلّ رجل منهم خمسينَ درهماً ، فأجابهم إلى ذلك ، وجاء حتى نزل صَرْصر بطريق الكوفة يوم الأحد ، وخرج إليه عباس وقوّاد أهل بغداد ، فلقُوه غَداة الإثنين ، فوعدهم ومنَّاهم ، وقبلوا ذلك منه ، فوعدهم أن يضع لهم العطاء يوم السبت في الياسريّة ، على أن يصلّوا الجمعة فيدعوا للمأمون ، ويخلعوا إبراهيم؛ فأجابوه إلى ذلك. فلما بلغ إبراهيمَ الخبرُ أخرج عيسى وإخوته من الحبس ، وسأله أن يرجع إلى منزله ، ويكفيه أمر هذا الجانب ، فأبى ذلك عليه.

فلما كان يوم الجمعة بعث عباس إلى محمد بن أبي رجاء الفقيه ، فصلّى بالناس الجمعة ، ودعا للمأمون ، فلما كان يوم السبت جاء حُميد إلى الياسريّة فعرض حُميد جند أهل بغداد ، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم ، فسألوه أن ينقصهم عشرة عشرة ، فيعطيَهم أربعين أربعين درهماً لكل رجل منهم؛ لما كانوا تشاءموا به من عليّ بن هشام حين أعطاهم الخمسين ، فغَدر بهم ، وقطع العطاء عنهم ، فقال لهم حميد: لا بل أزيدكم وأعطيكم ستين درهماً لكل رجل. فلما بلغ ذلك إبراهيم دعا عيسى فسأله أن يقاتل حُميداً ، فأجابه إلى ذلك ، فخلَّى سبيله ، وأخذ منه كُفلاء ، فكلم عيسى الجند أن يعطيَهم مثل ما أعطى حميد؛ فأبوا ذلك عليه؛ فلما كان يوم الإثنين عبر إليهم عيسى وإخوته وقوّاد أهل الجانب الشرقيّ ، فعرضوا على أهل الجانب الغربيّ أن يزيدُوهم على ما أعطى حُميد ، فشتموا عيسى وأصحابه ، وقالوا: لا نريد إبراهيم. فخرج عيسى وأصحابه حتى دخلوا المدينة ، وأغلقوا الأبواب ، وصعدوا السور ، وقاتلوا الناس ساعة. فلما كثر عليهم الناس انصرفوا راجعين؛ حتى أتوا باب خُراسان ، فركبوا في السفن ، ورجع عيسى كأنه يريد أن يقاتلهم ، ثم احتال حتى صار في أيديهم شبه الأسير ، فأخذه بعض قواده فأتى به منزله ، ورجع الباقون إلى إبراهيم فأخبروه الخبر ، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً؛ وقد كان المطلب بن عبد الله بن مالك اختفى من إبراهيم ، فلما قدم حُميد أراد العبور إليه فأخذه المعبِّر ، فذهب إلى إبراهيم فحبسه عنده ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم إنه خلّى عنه ليلة الإثنين لليلة خلت من ذي الحجة.

* * *

ذكر خبر اختفاء إبراهيم بن المهديّ

وفي هذه السنة اختفى إبراهيم بن المهديّ ، وتغيّب بعد حربٍ بينه وبين حميد بن عبد الحميد ، وبعد أن أطلق سعد بن سلامة من حبسه.

ذكر الخبر عن اختفائه والسبب في ذلك:

ذُكر أنّ سهل بن سلامة كان الناس يذكرون أنه مقتول ، وهو عند إبراهيم محبوس؛ فلمّا صار حُميد إلى بغداد ودخلها أخرجه إبراهيم. وكان يدعو في مسجد الرُّصافة كما كان يدعو ، فإذا كان الليل ردّه إلى حبسه؛ فمكث بذلك أياماً ، فأتاه أصحابه ليكونوا معه ، فقال لهم: الزموا بيوتكم ، فإني أرْزَأ هذا - يعني إبراهيم - فلما كان ليلة الإثنين لليلة خلت من ذي الحجّة خلّى سبيله ، فذهب فاختفى ، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقوّاده أن حُميداً قد نزل في أرجاء عبد الله بن مالك ، تحوّل عامّتُهم إليه ، وأخذوا له المدائن؛ فلمّا رأى ذلك إبراهيم ، أخرج جميع مَنْ عنده حتى يقاتلوا ، فالتقوْا على جسر نهر ديَالى ، فاقتتلوا ، فهزمهم حُميد ، فقطعوا الجسر ، فتبعهم أصحابُه حتى أدخلوهم بيوت بغداد ، وذلك يوم الخميس لانسلاخ ذي القعدة.

فلما كان يوم الأضحى أمر إبراهيم القاضيَ أن يصلّيَ بالناس في عيساباذ ، فصلّى بهم فانصرف الناس ، واختفى الفضل بن الربيع ، ثم تحوّل إلى حُميد ، ثم تحوّل عليّ بن ريطة إلى عسكر حُميد ، وجعل الهاشميون والقوّاد يلحقون بحُميد واحداً بعد واحد؛ فلما رأى ذلك إبراهيم أسقِط في يديه ، فشقّ عليه. وكان المطّلب يكاتب حميداً على أن يأخذ له الجانب الشرقيّ ، وكان سعيد بن الساجور وأبو البطّ وعبدويه وعدّة معهم من القواد يكاتبون عليّ بن هشام ، على أن يأخذوا له إبراهيم؛ فلمّا علم إبراهيم بأمرهم وما اجتمع عليه كلّ قوم من أصحابه ، وأنهم قد أحدقوا به ، جعل يُداريهم؛ فلما جنّه الليل اختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين ، وبعث المطلب إلى حُميد يعلمه أنه قد أحدق بدار إبراهيم هو وأصحابه؛ فإن كان يريده فليأته.

وكتب ابن الساجور وأصحابه إلى عليّ بن هشام ، فركب حُميد من ساعته؛ وكان نازلاً في أرجاء عبد الله ، فأتى باب الجسر ، وجاء عليّ بن هشام حتى نزل

نهر بَيْن ، وتقدّم إلى مسجد كَوْثر ، وخرج إليه ابن الساجور وأصحابه ، وجاء المطلب إلى حُميد ، فلقوه بباب الجسر ، فقرّبهم ووعَدهم ونبّأهم أن يُعلم المأمون ما صنعوا ، فأقبلوا إلى دار إبراهيم ، وطلبوه فيها فلم يجدوه ، فلم يزل إبراهيم متوارياً حتى قدم المأمون وبعد ما قدم؛ حتى كان من أمره ما كان.

وقد كان سهل بن سلامة حيث اختفى وتحوّل إلى منزله وظهر ، وبعث إليه حُميد ، فقرّبه وأدناه ، وحمله على بغل ، ورده إلى أهله؛ فلم يزل مقيماً حتى قدم المأمون ، فأتاه فأجازه ووصله ، وأمره أن يجلس في منزله.

* * *

وفي هذه السنة انكسفت الشمس يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي الحجة حتى ذهب ضوءها ، وكان غاب أكثر من ثلثيها ، وكان انكسافها ارتفاع النهار ، فلم يزل كذلك حتى قرب الظهر ثم انجلت.

فكانت أيام إبراهيم بن المهدي كلها سنة وأحَدَ عشر شهراً واثني عشر يوماً.

وغلب عليّ بن هشام على شرقيّ بغداد وحميد بن عبد الحميد على غربيها ، وصار المأمون إلى همَذان في آخر ذي الحجة.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ[1].

ثم دخلت سنة أربع ومائتين
ذكر الأحداث التي كانت فيها

* * *

خبر قدوم المأمون إلى بغداد

فممّا كان فيها من ذلك قدوم المأمون العراق ، وانقطاع مادّة الفتن ببغداد

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٢).

ذكر الخبر عن مقْدمه العراق وما كان فيه بها عند مقدمه:

ذُكر عن المأمون أنه لمّا قدِم جُرجان أقام بها شهراً، ثم خرج منها، فصار إلى الريّ في ذي الحجة، فأقام بها أيّاماً، ثم خرج منها، فجعل يسير المنازل، ويقيمُ اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان؛ وذلك يوم السبت، فأقام فيه ثمانية أيام، وخرج إليه أهلُ بيته والقوّاد ووجوه الناس، فسلّموا عليه؛ وقد كان كتب إلى طاهر بن الحسين من الطريق وهو بالرّقة، أن يوافيَه إلى النّهروان، فوافاه بها، فلمّا كان السبت الآخر دخل بغداد ارتفاعَ النهار، لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين، ولباسه ولباس أصحابه؛ أقبيتُهم وقلانسهم وطرّاداتهم وأعلامهم كلُّها الخضرة. فلما قدم نزل الرّصافة[1]، وقدم معه طاهر، فأمره بنزول الخيزرانيّة مع أصحابه، ثم تحوّل فنزل قصره على شطّ دِجْلة، وأمر حميد بن عبد الحميد وعليّ بن هشام وكلّ قائد كان في عسكره أن يقيم في عسكره؛ فكانوا يختلفون إلى دار المأمون في كلّ يوم؛ ولم يكن يدخل عليه أحد إلاّ في الثياب الخُضْر، ولبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون، فكانوا يخرقون كلّ شيء يروْنه من السواد على إنسان إلا القلنسوة؛ فإنه كان يلبسها الواحد بعد الواحد على خوف ووجَل؛ فأما قبَاء أو علم فلم يكن أحد يجترئ أن يلبس شيئاً من ذلك ولا يحمله. فمكثوا بذلك ثمانية أيام؛ فتكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصةً، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتهم، ولبست الخضرة. وكتب إليه في ذلك قوّاد أهل خراسان.

وقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أوّل حاجة سأله أن يطرح لباس الخضرة، ويرجع إلى لبس السواد وزيّ دولة الآباء؛ فلمّا رأى طاعةَ الناس له في لبس الخُضرة وكراهتَهم لها، وجاء السّبت قعد لهم وعليه ثياب خضْر، فلما اجتمعوا عنده دعا بسَواد فلبسه، ودعا بخلْعة سواد فألبسها طاهراً،

---

(١) وقال ابن قتيبة الدينوري: ودخل المأمون بغداد يوم السبت لأربع ليالٍ خلون من صفر سنة ٢٠٤ هـ وقد ذكر خليفة أصل الخبر فقط فقال: وفيها ـ أي سنة ٢٠٤ هـ ـ نزل المأمون الرصافة وأمر بإلقاء الخضرة (تأريخ خليفة/ ٣١٣).
وقد ذكر ابن قتيبة كذلك أنه دخلها وعليه الخضرة فأحسن السيرة وتفقد أمور الناس وقعد لهم (المعارف/ ١٩٨).

ثم دعا بعدّة من قوّاده، فألبسهم أقبية وقلانس سوداً؛ فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد، طرح سائر القواد والجند لبْس الخضرة، ولبسوا السّواد، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر[١].

وقد قيل: إن المأمون لبس الثياب الخضر بعد دخوله بغداد سبعة وعشرين، ثم مزّقت.

وقيل: إنه لم يزل مقيماً ببغداد في الرّصافة حتى بنى منازل على شطّ دجلة عند قصره الأول؛ وفي بستان موسى.

وذكر عن إبراهيم بن العباس الكاتب، عن عمرو بن مسعدة، أن أحمد بن أبي خالد الأحول قال: لمّا قدمنا من خُراسان مع المأمون وصرْنا في عقبة حُلوان - وكنت زميله - قال لي: يا أحمد، إني أجد رائحة العراق، فأجبتُ بغير جوابه، وقلت: ما أخلقه! قال: ليس هذا جوابي، ولكني أحسبك سهوت أو كنت مفكراً، قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فيم فكرت؟ قال: قلت: يا أميرَ المؤمنين، فكرت في هجومنا على أهل بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم، مع فتنة غلبت على قلوب الناس، فاستعذبوها، فكيف يكون حالنا إن هاج هائج، أو تحرّك متحرّك! قال: فأطرق مليّاً، ثم قال: صدقت يا أحمد، ما أحسن ما فكرت؛ ولكني أخبرك؛ الناسُ على طبقات ثلاث في هذه المدينة: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم؛ فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفوَنا وإمساكَنا، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلاّ بنا، ومَنْ كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيتُه يسعه. فوالله ما كان إلا كما قال.

وأمر المأمون في هذه السنة بمقاسمة أهل السواد على الخُمسين؛ وكانوا يقاسمون على النصف، واتخذ القفيز الملجم - وهو عشرة مكاكيك بالمكُّوك الهارونيّ - كيلا مرسَلا[٢].

* * *

(١) انظر المنتظم (١٠/ ١٢٦) والبداية (٨/ ١٥١).
(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥١).

وفي هذه السنة واقع يحيى بن معاذ بابك ، فلم يظفر واحد منهما بصاحبه .

وولّى المأمون صالح بن الرشيد البصرة ، وولّى عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب الحرَمين[١] .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن[٢] .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين
ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث

* * *

ولاية طاهر بن الحسين خراسان

فمن ذلك تولية المأمون فيها طاهر بن الحسين من مدينة السلام إلى أقصَى عمل المشرق؛ وقد كان قبل ذلك ولاَه الجزيرة والشُّرَط وجانبي بغداد ومعاون السواد ، وقعد للناس[٣] .

ذكر الخبر عن سبب توليته:

وكان سبب توليته إياه خُراسان والمشرق ، ما ذُكر عن حماد بن الحسن ، عن بشر بن غياث المريسيّ ، قال: حضرتُ عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبي العباس وعليّ بن الهيثم ، فتناظروا في التشيّع ، فنصر محمد بن أبي العباس الإمامة ، ونصر عليّ بن الهيثم الزيديّة ، وجرى الكلام بينهما؛ إلى أن قال محمد لعليّ: يا نَبطيْ ، ما أنت والكلام! قال: فقال المأمون ـ وكان متّكئاً فجلس:

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥١) وانظر الآتي.

(٢) وكذلك قال البسوي في المعرفة (١/ ٦٢).
وقال خليفة: وحجّ في هذه السنة عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب وهو والي مكة والمدينة أيضاً (تأريخ خليفة/ ٣١٢).

(٣) انظر المنتظم (١٠/ ١٤١).

الشتم عيّ ، والبذاء لؤم؛ إنا قد أبحنا الكلام ، وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقَفناه ، ومن جهل الأمرين حكَمنا فيه بما يجب؛ فاجعلا بينكما أصلا ، فإنّ الكلام فروع؛ فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول. قال: فإنا نقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وذكرا الفرائض والشرائع في الإسلام ، وتناظرا بعد ذلك. فأعاد محمد لعليّ بمثل المقالة الأولى ، فقال له عليّ: والله لولا جلالةُ مجلسه وما وهب الله من رأفته ، ولولا ما نهى عنه لأعرقتُ جبينك؛ وبحسبك من جهلك غُسْلك المنبر بالمدينة.

قال: فجلس المأمون ـ وكان متّكئاً ـ فقال: وما غُسْلك المنبر؟ ألتقصير مني في أمرك أو لتقصير المنصور كان في أمر أبيك؟ لولا أن الخليفة إذا وهب شيئاً استحيا أن يرجع فيه لكان أقرَب شيء بيني وبينك إلى الأرض رأسك ، قمْ وإياك ما عدت.

قال: فخرج محمد بن أبي العباس ، ومضى إلى طاهر بن الحسين ـ وهو زوج أخته ـ فقال له: كان من قصّتي كيت وكيت؛ وكان يحجب المأمون على النبيذ فتْح الخادم ، وياسر يتولى الخِلَع ، وحسين يسقى ، وأبو مريم غلام سعيد الجوهريّ يختلف في الحوائج. فركب طاهر إلى الدار؛ فدخل فتح ، فقال: طاهر بالباب؛ فقال: إنه ليس من أوقاته ، ائذن له: فدخل طاهر فسلّم عليه ، فردّ عليه السلام ، وقال: اسقوه رِطلا ، فأخذه في يده اليمنى ، وقال له: اجلس ، فخرج فشربه ثم عاد ، وقد شرب المأمون رطلاً آخر ، فقال: اسقوه ثانياً ، ففعل كفعله الأول ، ثم دخل ، فقال له المأمون: اجلس ، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيّده ، فقال له المأمون: ذلك في مجلس العامة ، فأما مجلس الخاصة فطلقٌ ، قال: وبكى المأمون ، وتغرغرت عيناه ، فقال له طاهر: يا أميرَ المؤمنين؛ لِمَ تبكي لا أبكى الله عينيك! فوالله لقد دانتْ لك البلاد ، وأذعن لك العباد ، وصرتَ إلى المحبّة في كلّ أمرك. فقال: أبكي لأمر ذِكرُه ذلّ ، وستره حزن ، ولن يَخْلُوَ أحد من شَجَن؛ فتكلّم بحاجة إن كانت لك ، قال: يا أمير المؤمنين ، محمد بن أبي العباس أخطأ فأقِلْه عثرتَه ، وارض عنه.

قال: قد رضيت عنه، وأمرتُ بصلته، ورَددتُ عليه مرتبته؛ ولولا أنّه ليس من أهل الأنس لأحضرتُه.

قال: وانصرف طاهر، فأعلم ابن أبي العباس ذلك، ودعا بهارون بن جبغويه؛ فقال له: إن للكتاب عشيرة، وإن أهل خُراسان يتعصّب بعضهم لبعض؛ فخذ معك ثلثمائة ألف درهم، فأعطِ الحسين الخادم مائتي ألف، وأعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف، وسلْه أن يسأل المأمون: لم بكى؟ قال: ففعل ذلك، قال: فلما تغدّى قال: يا حسين اسقني، قال: لا والله لأسقينّك أو تقول لي: لِمَ بكيت حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين، وكيف عُنِيْت بهذا حتى سألتَني عنه! قال: لغمّي بذاك، قال: يا حسين هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلتُك، قال: ياسيّدي، ومتى أخرجتُ لك سرّاً! قال: إني ذكرت محمداً أخي، وما ناله من الذلة، فخنقتني العَبْرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً منّي ما يكره. قال: فأخبر حسين طاهراً بذلك؛ فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد، فقال له: إن الثناء منّي ليس برخيص، وإنّ المعروف عندي ليس بضائع، فغيِّبْني عن عينه، فقال له: سأفعل، فبكِّرْ إليّ غداً. قال: فركب ابنُ أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال: ما نمتُ البارحة، فقال: لِمَ ويحك! فقال: لأنك ولّيتَ غَسّان خراسان، وهو ومَنْ معه أكلَةُ رأس، فأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصطلمه، فقال له: لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه، قال: فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين، قال: ويلك يا أحمد! هو الله خالع، قال: أنا الضامن له، قال: فأنفذْه، قال: فدعا بطاهر من ساعته، فقعد له؛ فشخص من ساعته، فنزل في بستان خليل بن هاشم، فحمل إليه في كلّ يوم ما أقام فيه مائة ألف. فأقام شهراً، فحمل إليه عشرة آلاف ألف، التي تحمَل إلى صاحب خراسان.

قال أبو حسان الزياديّ: وكان قد عَقد له على خُراسان والجبال من حلوان إلى خُراسان، وكان شخوصُه من بغداد يوم الجمعة لليلة بقيت من ذي القعدة سنة خمس ومائتين، وقد كان عسكر قبل ذلك بشهرين، فلم يزل مقيماً في عسكره. قال أبو حسان: وكان سبب ولايته ـ فيما اجتمع الناس عليه ـ أن عبدَ الرحمن المطَّوّعيّ جمع جموعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحروريّة بغير أمر والي خراسان،

فتخوّفوا أن يكون ذلك لأصل عمله عليه. وكان غسان بن عبّاد يتولى خراسان من قبَل الحسن بن سهل، وهو ابن عم الفضل بن سهل[١].

وذكر عن عليّ بن هارون أن طاهر بن الحسين قبل خروجه إلى خُراسان وولايته لها، ندبه الحسن بن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شبث، فقال: حاربتُ خليفة، وسقتُ الخلافة إلى خليفة، وأومر بمثل هذا! وإنما كان ينبغي أن توجّه لهذا قائداً من قوّادي؛ فكان سبب المصارمة بين الحسن وطاهر.

قال: وخرج طاهر إلى خراسان لما تولّاها، وهو لا يكلم الحسن بن سهل، فقيل له في ذلك، فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها لي في مصارمته.

وفي هذه السنة ورد عبد الله بن طاهر بغداد منصرفاً من الرقّة، وكان أبوه طاهر استخلفه عليها، وأمره بقتال نصر بن شبّث، وقدم يحيى بن معاذ فولّاه المأمون الجزيرة.

وفيها ولّى المأمون عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيَةَ وأذربيجان ومحاربة بابك.

وفيها مات السريّ بن الحَكَم بمصر، وكان واليها.

وفيها مات داود بن يزيد عامل السند، فولّاها المأمون بشر بن داود علَى أن يحمَل إليه في كلّ سنة ألف ألف درهم.

وفيها ولّى المأمون عيسى بن يزيد الجُلوديّ محاربة الزّطّ[٢].

وفيها شخص طاهر بن الحسين إلى خُراسان في ذي القعدة، وأقام شهرين حتى بلغه خروج عبد الرحمن النيسابوريّ المطوّعِيّ بنيسابور، فشخص ووافى التّغْرُغُزيّة أشْرُوسنَةَ.

وفيها أخذ فرج الرخَّجيّ عبد الرحمن بن عمار النيسابوريّ.

* * *

(١) أبو حسان الزيادي أخباري ثقة وخبره يؤيد ما ذكره الطبري في الخبر السابق.

(٢) لهذه الأخبار الموجزة انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥٤).

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن ، وهو والي الحَرمين[١] .

* * *

ثم دخلت سنة ست ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك تولية المأمون داود بن ماسجور محاربة الزّطّ وأعمال البصرة وكُور دجلة واليمامة والبحرين .

وفيها كان المدّ الذي غرق منه السواد وكَسْكر وقطيعة أم جعفر وقطيعة العباس وذهب بأكثرها .

وفيها نَكَبَ بابك بعيسى بن محمد بن أبي خالد[٢] .

* * *

ولاية عبد الله بن طاهر على الرّقة:

وفيها ولّى المأمون عبد الله بن طاهر الرّقة لحرب نصر بن شَبَث ومُضَر[٣] .

ذكر الخبر عن سبب توليته إياه :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أن يحيى بن معاذ كان المأمون ولاّه الجزيرَة؛ فمات في هذه السنة ، واستخلف ابنه أحمد على عمله ، فذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، أنّ المأمون دعا عبد الله بن طاهر في شهر رمضان ، فقال بعض : كان ذلك في سنة خمس ومائتين ، وقال بعض : في سنة

---

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٣) .
والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٦٢) .

(٢) لهذه الأخبار الموجزة انظر المنتظم (١٠/ ١٤٩) .

(٣) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥٦) .
والمنتظم (١٠/ ١٤٩) وقد أكد الخبر ابن قتيبة الدينوري فقال : وجه المأمون عبد الله بن طاهر لمحاربة نصر بن شبث والزواقيل سنة ٢٠٧ هـ (المعارف/ ١٩٨) .

ست. وقال بعض: في سنة سبع، فلما دخل عليه: قال: يا عبد الله أستخير الله منذ شهر، وأرجو أن يخير الله لي، ورأيت الرّجل يصف ابنه ليطريَه لرأيه فيه، وليرفعه، ورأيتُك فوق ما قال أبوك فيك، وقد مات يحيى بن معاذ، واستخلف ابنه أحمد بن يحيى، وليس بشيء، وقد رأيت توليتَك مُضر ومحاربة نصر بن شبَث، فقال: السمع والطاعة يا أميرَ المؤمنين، وأرجو أن يجعل الله الخيرة لأمير المؤمنين وللمسلمين.

قال: فعقد له، ثم أمر أن تقطع حبال القصّارين عن طريقه، وتُنحَّى عن الطرقات المظالّ، كيلا يكون في طريقه ما يردّ لواءه، ثم عقد له لواء مكتوباً عليه بصُفرة ما يكتب على الألوية؛ وزاد فيه المأمون: «يا منصور»، وخرج ومعه الناس فصار إلى منزله؛ ولما كان من غدٍ ركب إليه الناس، وركب إليه الفضل بن الربيع؛ فأقام عنده إلى الليل؛ فقام الفضل، فقال عبد الله: يا أبا العباس، قد تفضّلت وأحسنت، وقد تقدّم أبي وأخوك إليّ ألاّ أقطَع أمراً دونَك، وأحتاج أن أستطلع رأيك، وأستضيء بمشورتك؛ فإن رأيتَ أن تقيم عندي إلى أن نُفطر فافعل.

فقال له: إن لي حالات ليس يمكنني معها الإفطار هاهنا. قال: إنْ كنت تكره طعام أهل خُراسان فابعث إلى مطبخك يأتون بطعامك، فقال له: إن لي ركعات بين العشاء والعَتمَة، قال: ففي حفظ الله؛ وخرج معه إلى صحن داره يشاوره في خاصّ أموره.

وقيل: كان خروج عبد الله الصحيح إلى مُضر؛ لقتال نصر بن شبث بعد خروج أبيه إلى خراسان، بستّة أشهر.

* * *

وصية طاهر إلى ابنه عبد الله

وكان طاهر حينَ ولى ابْنُه عبد الله ديار ربيعة، كتب إليه كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله وحدَه لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلةَ سخطه وحفظ

رعيّتك ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه؛ وموقوف عليه ، ومسؤول عنه؛ والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجّيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه؛ فإنّ الله قد أحسن إليك وأوجبَ عليك الرّأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذبّ عنهم ، والدّفع عن حريمهم وبَيْضتهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الرّاحة عليهم في معايشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقِفك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومُثيبك عليه بما قدّمتَ وأخّرتَ؛ ففرّغ لذلك فكرَك وعقلَك وبصرَك ورؤيتَك ، ولا يذْهلك عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلك عنه شاغل؛ فإنه رأس أمرِك ، ومِلاك شأنك ، وأوّل ما يوفّقك الله به لرشدك.

وليكن أوّل ما تلزِم به نفسَك ، وتَنسب إليه فعالك؛ المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلَك في مواقيتها على سننها؛ في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها. وترتّل في قراءتك ، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهّدك ، ولتصْدُق فيها لربك نيّتُك. واحضض عليها جماعةَ مَنْ معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها تأمُرُ بالمَعْروفِ وَتَنْهَى عَن المُنكَرِ. ثم أتْبِعْ ذلك الأخذ بسُنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده؛ وإذا ورد عليك أمر فاستعنْ عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه؛ من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار على النبي ﷺ؛ ثم قم فيه بما يحقّ لله عليك ، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببتَ أو كرهتَ لقريب من الناس أو بعيد. وآثر الفقه وأهله ، والدِّين وحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به؛ فإن أفضل ما تَزيَّنَ به المرء الفقهُ في دين الله ، والطلب له ، والحثّ عليه ، والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله؛ فإنه الدّليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها. وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ ، وإجلالا له ، ودركاً للدرجات العلا في المعاد؛ مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسة بك والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها؛ فليس شيء أبينَ نفعاً ، ولا أحضر أمناً ،

ولا أجمعَ فضلاً من القصد ، والقصدُ داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التَّوفيق ، والتوفيق منقاد إلى السَّعادة. وقوامُ الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره في دنياك كلها ، ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ، ومعالم الرّشد فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعي له؛ إذا كان يُطلَب به وجه الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ ، ويحصِّن من الذنوب ، وإنك لن تحوط نفسك ومَنْ يليك ، ولا تستصلح أمورَك بأفضلَ منه ، فأته واهتدِ به ، تتمّ أمورك ، وتزْدَدْ مقدرتُك ، وتصلح خاصّتك وعامتك.

وأحسن الظن بالله عزَّ وجل تستقمْ لك رعيّتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلّها تستدم به النعمة عليك؛ ولا تُنهض أحداً من الناس فيما تولِّيه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة؛ فإنّ إيقاع التّهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم. واجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك واطرد عنهم سوء الظنّ بهم ، وارفضه عنهم يُعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم. ولا يجدنّ عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمَزاً ، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وَهنك فيدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما ينغصك لذاذة عيشِك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوةً وراحة ، وتكفي به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبّتك والاستقامة في الأمور كلها لك. ولا يمنعْك حسنُ الظنّ بأصحابك والرأفة برعيّتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرّعيّة والنظر فيما يقيمها ويصلحها؛ بل لتكن المباشرة لأمورِ الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثرَ عندك مما سوى ذلك؛ فإنه أقوم للبدن ، وأحيا للسنة.

وأخلص نيّتك في جميع هذا ، وتفرّد بتقويم نفسك تفرّدَ من يعلم أنه مسؤولٌ عما صنع ، ومجزيٌّ بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء؛ فإن الله جعل الدين حرْزاً وعزّاً ، ورفع من اتّبعه وعزّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدين وطريقة الهدى. وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ، وما استحقُّوه. ولا تُعَطِّلْ ذلك ولا تهاون به. ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة؛ فإنّ في تفريطك في ذلك لمَا يفسد عليك حسنَ ظنك.

واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبدعات ، يسلَمْ لك دينك ، وتقم لك مروءتك. وإذا عاهدتَ عهداً فَفِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة ، وادفع بها ، واغمض عن عيْب كلِّ ذي عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزُّور ، وابغض أهلَه ، وأقص أهلَ النميمة؛ فإنّ أوّل فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر.

وأحبّ أهلَ الصدق والصلاح ، وأعن الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرّحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزّة أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوءَ الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيّك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيّتك؛ وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحقّ فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملُك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلْم ، وإيّاك والحدّة والطِّيَرة والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول إنّي مسلّط أفعل ما أشاء؛ فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له. وأخلص لله النيّة فيه واليقين به؛ واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغيّر النعمة وحلول النقمة إلى أحدٍ أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله. ودعْ عنك شرَه نفسك. ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدّخر وتكنز البرَّ والتقوى والمعدلة واستصلاح الرّعية ، وعمارة بلادهم ، والتفقد لأمورهم ، والحفظَ لدهمائهم ، والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا كثُرت وذُخّرتْ في الخزائن لا تثمر؛ وإذا كانت في إصلاح الرّعية وإعطاء حقوقهم وكفّ المؤنة عنهم نمتْ وربتْ ، وصلَحت به العامة ، وتزيّنت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العزّ والمَنعة؛ فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفِّرْ منه على أولياء أمير المؤمنين قَبلك حقوقَهم ، وأوْفِ رعيّتك من ذلك حصصَهم ، وتعهّد ما يصلح

أمورهم ومعايشهم؛ فإنك إذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، واستوجبتَ المزيد من الله ، وكنتَ بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدَر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب أنفساً لكلّ ما أردت .

فاجهد نفسك فيما حددتُ لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه ، فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرَهم وأثبهم عليه . وإياك أن تنسيَك الدنيا وغرورُها هولَ الآخرة فتتهاون بما يحقّ عليك؛ فإنّ التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار . وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارجُ الثوابَ؛ فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضلَه؛ فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإنّ الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين؛ وقضّ الحقّ فيما حمل من النّعم ، والبس من العافية والكرامة . ولا تحقرنّ ذنباً ، ولا تمايلن حاسداً ، ولا ترحمنّ فاجراً ، ولا تصلنّ كَفُوراً ، ولا تداهننّ عدوّاً ، ولا تصدقنّ نماماً ، ولا تأمننّ غدّاراً ، ولا توالينّ فاسقاً ، ولا تتبعنّ غاوياً ، ولا تحمَدنّ مرائياً ، ولا تحقرنّ إنساناً ، ولا تردنّ سائلاً فقيراً ، ولا تجيبنَّ باطلاً ، ولا تلاحظنّ مضحكاً ، ولا تخلفنّ وعداً ، ولا ترهبنّ فُجّراً ، ولا تعملنّ غضباً ، ولا تأتينّ بذخاً ، ولا تمشينّ مَرحاً ، ولا تركبنّ سفهاً ، ولا تفرّطنّ في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عياناً ، ولا تغمضنّ عن الظالم رهبةً أو مخافة ، ولا تطلبنّ ثواب الآخرة بالدنيا . وأكثرْ من مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلْم ، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرّأي والحكمة ، ولا تُدخلنّ في مشورتك أهل الدِّقة والبخل ، ولا تسمعنّ لهم قولاً؛ فإنّ ضرَرهم أكثر من منفعتهم . وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشحّ ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ ، قليل العطية؛ وإذا كنت كذلك لم يستقمْ لك أمرك إلاّ قليلاً؛ فإن رعيّتك إنما تعتقد على محبّتك بالكفّ عن أموالهم وترك الجوْر عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطيّة لهم ، فاجتنب الشحّ ، واعلم أنه أول ما عَصَى به الإنسان ربّه ، وأن العاصي بمنزلة خزي؛ وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ؛ فسهّل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من

نيّتك حظّاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فاعدده لنفسك خُلقاً ، وارض به عملاً ومذهباً.

وتفقّد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم في معايشهم؛ ليُذهبَ بذلك الله فاقتهم ، ويقومَ لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيّته رحمةً في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته؛ فزايل مكروه إحدى البليّتين باستشعار تكملة الباب الآخر ، ولزوم العمل به تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أنّ القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل ، تصلح الرعيّة ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ، ويؤدّى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.

واشتدّ في أمر الله ، وتورّع عن النَّطَف ، وامض لإقامة الحدود ، واقلل العجلة ، وأبعد من الضّجر والقلق ، واقنع بالقَسْم ، ولتسكن ريحك ، ويقرّ جدُّك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، واسددْ في منطقك ، وأنصف الخصم ، وقف عند الشُّبهة ، وابلغ في الحجة ، ولا يأخذْك في أحدٍ من رعيتك محاباة ولا محاماة ، ولا لوم لائم ، وتثبّت وتأنّ ، وراقب وانظر ، وتدبّرْ وتفكر ، واعتبر ، وتواضع لربك ، وارأف بجميع الرعية ، وسلّط الحقّ على نفسك ، ولا تُسرعنّ إلى سفك دم ـ فإن الدماء من الله بمكان عظيم ـ انتهاكاً لها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعيّة ، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعَة ، ولعدوّه وعدوهم كَبْتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلاًّ وصَغاراً ، فوزِّعه بين أصحابه بالحقّ والعدْل ، والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعنَّ منه شيئاً عن شريف لشرفه ، وعن غنيٍّ لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحدٍ من خاصّتك. ولا تأخذنّ منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفنّ أمراً

فيه شطط. واحمل الناس كلَّهم على مرّ الحق؛ فإنّ ذلك أجمعُ لألْفتِهم وألزمُ لرضا العامة. واعلم أنك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً، وإنما سُمِّي أهل عملك رعيّتك؛ لأنك راعيهم وقيّمهم؛ تأخذ منهم ما أعطوْك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم؛ فاستعمل عليهم في كُور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعَفاف، ووسِّع عليهم في الرزق؛ فإنّ ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت وأسند إليك، ولا يشغلنّك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف؛ فإنك متى آثرته وقُمْت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربّك، وحسن الأحدوثة في أعمالك، واحترزتَ النصيحة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخِصْب في كُورك، فكثر خراجُك، وتوفَّرَت أموالك، وقويَت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة بإقامة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمودَ السياسة، مرضيّ العدل في ذلك عند عدوِّك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوّة، وآلة وعدّة، فنافس في هذا ولا تقدّم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله.

واجعل في كلّ كورة من عملك أميناً يخبرك أخبارَ عمّالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم؛ حتى كأنك مع كلّ عامل في عمله، معاينٌ لأمره كلِّه. وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك؛ فإن رأيت السَّلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه؛ وإلا فتوقّف عنه. وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدّته؛ فإنه ربما نظر الرجل في أمرٍ من أمره قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقضَ عليه أمرَه.

فاستعمل الحزْم في كلّ ما أردت، وباشره بعْد عون الله بالقوّة، وأكثر استخارة ربِّك في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخّره لغدِك؛ وأكثر مباشرته بنفسك؛ فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخّرتْ. واعلم أنّ اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخّرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه؛ فإذا أمضيتَ لكلّ يوم عمَله أرحْتَ نفسَك وبدَنك، وأحكمت أمور سلطَانك.

وانظر أحرارَ الناس وذوِي الشرف منهم ، ثم استيقنْ صفاء طويّتهم وتهذيبَ مودّتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك؛ فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهَدْ أهلَ البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤنتهم ، واصلح حالهم؛ حتى لا يجدوا لخلّتهم مسّاً. وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك. والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه؛ فاسأل عنه أحفَى مسألة ، ووكّل بأمثاله أهلَ الصلاح من رعيّتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملَهم ، واجعل لهم ارزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله ، في العَطْف عليهم ، والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشُهم ويرزقك به بركة وزيادة. وأجْرِ للأضرّاء من بيت المال ، وقدّم حَملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقُوّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف في بيت المال. واعلم أنّ الناس إذا أعطُوا حقوقَهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ، ولم تطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما برِم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة؛ وليس مَنْ يرغب في العدل ، ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل؛ كالذي يستقبل ما يقرّبه إلى الله ، ويلتمس رحمته به. وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهَك ، وسكِّنْ لهم أحراسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بِشْرَك ، ولِنْ لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفَضْلك؛ وإذا أعطيتَ فأعْطِ بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غيرَ مكدّر ولا منّان؛ فإن العطيّة على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله.

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ، ومَن مضى من قَبْلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة؛ ثم اعتصم في أحوالك كلِّها بأمر الله ، والوقوف عند محبَّته ، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه؛ واجتنب ما فارق ذلك وخالفَه ، ودعا إلى سخط الله. واعرف ما يَجمع عُمّالُك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمعْ حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء

ومشاورتَهم ومخالطتهم. وليكن هواك اتّباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها؛ وليكن أكرمُ دُخلائك وخاصّتك عليك مَنْ إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتُك من إنهاء ذلك إليك في سرّ ، وإعلامك ما فيه من النقص؛ فإن أولئك أنصحُ أوليائك ومظاهريك.

وانظر عمّالك الذين بحضرتك وكتّابَك؛ فوقّتْ لكل رجل منهم في كلِّ يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته ، وما عنده من حوائج عملك ، وأمر كُورك ورعيتك ، ثم فرّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له؛ فما كان موافقاً للحزم والحق فامضه واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبّت فيه ، والمسألة عنه.

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلاّ الوفاء والاستقامة والعوْن في أمور أمير المؤمنين ، ولا تَضَعنّ المعروف إلاّ على ذلك.

وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ، فإن الله مع الصلاح وأهله؛ وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضاً ولدينه نظاماً ، ولأهله عزّاً وتمكيناً؛ وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً.

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك ، وأن يُنزل عليك فضله ورحمتَه بتمام فضله عليك وكرامته لك؛ حتى يجعلك أفضَل مثالك نصيباً ، وأوفرهم حظّاً ، وأسناهم ذكراً ، وأمراً ، وأن يهلك عدوّك ومَنْ ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من رعيّتك العافية ، ويحجز الشّيطان عنك وساوسه ، حتى يستعلى أمرُك بالعزّ والقوّة والتوفيق ، إنه قريب مجيب.

* * *

وذكر أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه ، وتدارسوه وشاع أمره؛ حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه ، فقال: ما بقَّى أبو الطّيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعيّة وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلاّ وقد أحكَمه ، وأوصى

به وتقدم؛ وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وتوجّه عبد الله إلى عمله فسار بسيرته، واتبع أمره وعمل بما عهد إليه[(١)].

وفي هذه السنة ولّى عبد الله بن طاهر إسحاق بن إبراهيم الجسرين، وجعله خليفتَه على ما كان طاهر أبوه استخلفه فيه من الشُّرَط وأعمال بغداد؛ وذلك حين شخص إلى الرَّقة لحرب نصر بن شبث.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن؛ وهو والي الحرميْن[(٢)].

ثم دخلت سنة سبع ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

ذكر خروج عبد الرحمن بن أحمد العلَويّ باليمن

فمن ذلك خروجُ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب ببلاد عكّ من اليمن يدعو إلى الرضيّ من آل محمد ﷺ.

ذكر الخبر عن سبب خروجه:

وكان السبب في خروجه أنّ العمال باليمن أساءوا السيرة، فبايعوا عبد الرحمن هذا، فلما بلغ ذلك المأمون وَجّه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيفٍ، وكتب معه بأمانِه، فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحجّ، فلما فرغ من حجّه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن، فبعث إليه بأمانه من المأمون؛ فقبل ذلك، ودخل ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون

(١) هذه الوصية الطويلة التي استغرقت الصفحات [٥٨٢ إلى ٥٩١] لم نجدها عند غير الطبري وبهذه التفاصيل ممن تقدّموه أو عاصروه من المؤرخين الثقات ورحم الله الطبري لِمَ لَمْ يبيّن الطريقة التي حصل بها أو منها على هذه الوثيقة حتى نتبيّن صحة نسبتها إلى طاهر.

(٢) وكذلك قال البسوي (المعرفة/ ١/ ٦٣). وخليفة في تأريخه (٣١٣).

عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه ، وأمر بأخذهم بلبس السواد؛ وذلك يوم الخميس لليلة بقيتْ من ذي القعدة[١] .

* * *

ذكر الخبر عن وفاة طاهر بن الحسين

وفي هذه السنة كانت وفاة طاهر بن الحسين[٢] .

ذكر الخبر عن وفاته :

ذكر عن مطهّر بن طاهر ، أنّ وفاة ذي اليمينين كانت من حمّى وحرارة أصابته ، وأنه وُجد في فراشه ميّتاً .

وذكر أن عمّيه عليّ بن مصعب وأخاه أحمد بن مصعب ، صارا إليه يعودانه ، فسألا الخادم عن خبره ـ وكان يغلّس بصلاة الصّبح ـ فقال الخادم : هو نائم لم ينتبه ، فانتظراه ساعة ، فلما انبسط الفجر ، وتأخّر عن الحركة في الوقت الذي كان يقوم فيه للصلاة ، أنكرا ذلك ، وقالا للخادم : أيقظْه ، فقال الخادم : لست أجسرُ على ذلك ، فقالا له : اطرق لنا لندخل إليه ، فدخلا فوجداه ملتفّاً في دُواج ، قد أدخله تحته ، وشدّه عليه من عند رأسه ورجليه ، فحركاه فلم يتحرّك ، فكشفا عن وجهه فوجداه قد مات . ولم يعلما الوقت الذي توفِّيَ فيه ، ولا وقف أحد من خدمه على وقت وفاته ؛ وسألا الخادم عن خبره وعن آخر ما وقف عليه منه ؛ فذكر أنه صلى المغرب والعشاء الآخرة ، ثم التفّ في دُواجه . قال الخادم : فسمعتُه يقول بالفارسية كلاماً وهو «دِرْمَك ينزمَرْدِي وَيَذْ» ؛ تفسيره أنه يحتاج في الموت أيضاً إلى الرّجلة .

وذُكر عن كلثوم بن ثابت بن أبي سعد ـ وكان يكنى أبا سعدة ـ قال : كنت على بَريد خُراسان ، ومجلسي يوم الجمعة في أصل المنبر ، فلما كان في سنة سبع ومائتين ؛ بعد ولاية طاهر بن الحسين بسنتين ، حضرت الجمعة ، فصعد طاهر

---

(١) انظر الخبر في المنتظم (١٠/ ١٦٠) .

(٢) وقال خليفة وفيها (١٠٧ هـ) مات طاهر بن الحسين بخراسان فولّى أمير المؤمنين ابنه عبد الله بن طاهر خراسان مع الجزيرة فولّى أخاه طلحة بن طاهر خراسان (تأريخ خليفة/ ٣١٣) .

المنبر ، فخطب ، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدّعاء له ، فقال: اللهمَّ أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك ، واكفِها مؤونة مَنْ بغى فيها ، وحشد عليها ، بلمّ الشعث ، وحقْن الدّماء ، وإصلاح ذات البين. قال: فقلت في نفسي: أنا أوّل مقتول؛ لأني لا أكتم الخبر؛ فانصرفت واغتسلت بغسل الموتى ، وائتزرت بإزار الموتى ، ولبست قميصاً ، وارتديت رداء ، وطرحت السواد ، وكتبت إلى المأمون. قال: فلمّا صلى العصر دعاني ، وحدَث به حادث في جفن عينه وفي مأقه ، فخرّ ميتاً. قال: فخرج طلحة بن طاهر ، فقال: ردّوه ردّوه ـ وقد خرجت ـ فردّوني ، فقال: هل كتبت بما كان؟ قلت: نعم ، قال: فاكتب بوفاته ، وأعطاني خمسمائة ألف ومائتي ثوب ، فكتبت بوفاته وبقيام طلحة بالجيش.

قال: فوردت الخريطة على المأمون بخلعه غدْوة ، فدعا ابنَ أبي خالد فقال له: اشخص: فأتِ به ـ كما زعمت ، وضمنت ـ قال: أبيتُ ليلتي ، قال: لا لعمري لا تبيت إلا على ظَهْر. فلم يزل يناشده حتى أذن له في المبيت. قال: ووافت الخريطة بموته ليلاً ، فدعاه فقال: قد مات ، فمن ترى؟ قال: ابنه طلحة ، قال: الصواب ما قلت ، فاكتب بتوليته. فكتب بذلك ، وأقام طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون سبع سنين بعد موت طاهر ، ثم توفِّيَ ، وولى عبد الله خُراسان ـ وكان يتولى حرب بابك ـ فأقام بالدينور ، ووجّه الجيوش ، ووردت وفاة طلحة على المأمون؛ فبعث إلى عبد الله يحيى بن أكثم يعزّيه عن أخيه ويهنئه بولاية خراسان ، وولّى عليّ بن هشام حرب بابك.

وذكر عن العباس أنه قال: شهدت مجلساً للمأمون ، وقد أتاه نعي الطاهر ، فقال: لليدين وللفم! الحمد لله الذي قدّمه وأخّرنا.

وقد ذُكر في أمر ولاية طلحة خراسان بعد أبيه طاهر غير هذا القول؛ والذي قيل من ذلك ، أنّ طاهراً لما مات ـ وكان موته في جمادى الأولى ـ وثب الجند ، فانتهبوا بعض خزائنه ، فقام بأمرهم سلاّم الأبرش الخصيّ ، فأمر فأعطوا رزق ستة أشهر. فصيّر المأمون عمله إلى طلحة خليفة لعبد الله بن طاهر؛ وذلك أنّ المأمون ولّى عبد الله في قول هؤلاء بعد موت طاهر عمل طاهر كله ـ وكان مقيماً بالرَّقة على حرب نصر بن شبَث ـ وجمع له مع ذلك الشأم ، وبعث إليه بعده على خُراسان وعمل أبيه؛ فوجّه عبد الله أخاه طلحة بخراسان ، واستخلف بمدينة

السلام إسحاق بن إبراهيم ، وكاتب المأمونَ طلحةُ باسمه ، فوجّه المأمون أحمد بن أبي خالد إلى خُراسان للقيام بأمر طلحة ، فشخص أحمد إلى ما وراء النهر ، فافتتح أشْروسَنة ، وأسر كاوس بن خاراخره وابنه الفضل ، وبعث بهما إلى المأمون ، ووهب طلحة لابن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعَروضاً بألفي ألف ، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد بن أبي خالد خمسمائة ألف درهم.

وفي هذه السنة غلا السعر ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ سعر القفِيز من الحنطة بالهارونيّ أربعين درهماً إلى الخمسين بالقفيز الملجَم.

وفي هذه السنة وُلِّيَ موسى بن حفص طبرستان والرُّويان ودُنْباونْد.

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو عيسى بن الرشيد[١].

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مصير الحسن بن الحسين بن مصعب من خُراسان إلى كرمان ممتنعاً بها ، ومصير أحمد بن خالد إليه حتى أخذه ، فقدِم به على المأمون ، فعفا عنه[٢].

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ قضاءَ عسكر المهديّ في المحرّم[٣].

وفيها استعفى محمد بن سماعة القاضي من القضاء فأعفِيَ ، وولّى مكانه إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة[٤].

وفيها عُزل محمد بن عبد الرحمن عن القضاء بعد أن وُلِّيَه فيها في شهر ربيع

---

(١) وكذلك قال خليفة (٣١٣) والبسوي (١/ ٦٣).
(٢) انظر المنتظم (١٠/ ١٨١).
(٣) انظر الخبر (١٦٣).
(٤) وكذلك قال القاضي وكيع (أخبار القضاة/ ٦٦٩).

الأول ، ووليَه بشر بن الوليد الكنديّ ، فقال بعضهم[(١)]:

يـأيُّهـا الملِـكُ المـوحِّـدُ ربَّـهُ قـاضيكَ بشـرُ بـنُ الـوليـدِ حِمـارْ
يَنفِـي شَهـادَةَ مَـن يَـدِيـنُ بمـا بِـهِ نَطَـقَ الكتـابُ وجـاءَتِ الأَخبـارْ
ويَعُـدُّ عـدلاً مَـن يقـولُ بـأَنَّـهُ شيـخٌ يُحيـط بجسمـه الأَقطـارْ[(٢)]

ومات موسى بن محمد المخلوع في شعبان ، ومات الفضل بن الربيع في ذي القعدة[(٣)].

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة صالح بن الرشيد[(٤)].

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

خبر الظفر بنصر بن شبث[(٥)]

فمن ذلك ما كان من حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبَث وتضييقه عليه؛ حتى طلب الأمان ، فذُكر عن جعفر بن محمد العامريّ أنه قال: قال المأمون لثُمامة: ألا تدلّني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة ، يؤدّي عنّي ما أوجّهه به إلى نصر بن شبَث؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ، رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد ، قال له: أحضرنيه ، قال جعفر: فأحضرني ثمامة ، فأدخلني عليه ، فكلّمني بكلام كثير ، ثم أمرني أن أبلغه نصر بن شبَث. قال:

---

(١) قال القاضي وكيع: لما توفي الواقدي في المحرم سنة (٢٠٨ هـ) استقضى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومي (المصدر السابق/ ٦٦١) وذكر أنه صَرَفه في آخر هذه السنة.

(٢) إن كان الطبري قد أبهم اسم الشاعر فما الداعي لذكر هذه الأبيات التي لا يخفى حالها على القارئ الكريم وغفر الله لنا وله.

(٣) وقال خليفة وفيها مات الفضل بن الربيع (تأريخ خليفة/ ٣١٣).

(٤) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٣) والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٦٣).

(٥) انظر المنتظم (١٠/ ١٩٨).

فأتيت نصْراً وهو بكفر عَزُون بسَروج ، فأبلغته رسالتَه ، فأذعن وشرط شروطاً ، منها ألا يطأ له بساطاً. قال: فأتيتُ المأمون فأخبرته ، فقال: لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ، ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي؛ وما باله ينفر منّي! قال: قلتُ لجرْمه وما تقدّم منه. فقال: أتراه أعظم جُرْماً عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد! أتدري ما صنع بي الفضل! أخذ قوّادي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوْصى به لي أبي. فذهب به إلى محمد وتركني بمروْ وحيداً فريداً وأسلمني ، وأفسد عليّ أخي؛ حتى كان من أمره ما كان؛ وكان أشدّ عليّ من كل شيء. أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد! طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي ، وذهب بخراجي وفيئي ، وأخرب عليّ دياري ، وأقعد إبراهيم خليفة دوني ، ودعاه باسمي. قال: قلت: يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في الكلام فأتكلم؟ قال: تكلم ، قلتُ: الفضل بن الربيع رضيعكم ومولاكم ، وحال سلفه حالكم ، وحال سلفكم حاله ، ترجع عليه بضروب كلّها تردّك إليه ، وأما عيسى بن أبي خالد فرجُلٌ من أهل دولتك ، وسابقتُه وسابقة مَنْ مضى من سلفه سابقتهم ترجع عليه بذلك؛ وهذا رجل لم تكن له يد قطّ فيُحْملُ عليها ، ولا لمن مضى من سلفه؛ إنما كانوا من جند بني أمية. قال: إن كان ذلك كما تقول ، فكيف بالحَنَق والغيظ؛ ولكني لستُ أقلع عنه حتى يطأ بساطي ، قال: فأتيت نصراً فأخبرته بذلك كلّه ، قال: فصاح بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال: ويلي عليه! هو لم يقْوَ على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعني الزّط ـ يقوى على حَلْبة العرب!

فذُكر أن عبد الله بن طاهر لما جادّه القتال وحصره وبلغ منه ، طلب الأمان فأعطاه ، وتحوّل من معسكره إلى الرّقّة سنة تسع ومائتين ، وصار إلى عبد الله بن طاهر ، وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك بعد أن هزم عبد الله بن طاهر جيوشَه كتاباً يدعوه إلى طاعته ومفارقة معصيته ، فلم يقبل ، فكتب عبد الله إليه ـ وكان كتاب المأمون إليه من المأمون كتبه عمرو بن مسعدة:

أما بعد؛ فإنك يا نصر بن شبَث قد عرفتَ الطاعة وعزّها وبَرْد ظلّها وطيب مَرْتعها وما في خلافها من النّدم والخَسار ، وإن طالت مدّة الله بك ، فإنه إنما يُملى لمن يلتمس مظاهرة الحجّة عليه لتقع عبَرُه بأهلها على قَدْر إصرارهم

واستحقاقهم. وقد رأيتُ إذكارَك وتبصيرك لما رجوتُ أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك؛ فإنّ الصدق صدق والباطل باطل؛ وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنَوْن به، ولم يعاملك من عمّال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرصَ على استنقاذك والانتياش لك من خطائك مني؛ فبأيّ أوّل أو آخر أو سِطَةٍ أو إمْرة إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين! تأخذ أموالَه، وتتولى دونه ما ولاّه الله، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً، أو وادعاً أو ساكناً أو هادئاً! فوَعالِمِ السرّ والجهرِ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً وبها خانعاً، لتستوبلنّ وخَمَ العاقبة؛ ثم لأبدأنَّ بك قبل كلّ عمل، فإنّ قرون الشيطان إذا لم تُقطَع كانت في الأرض فتنة وفساداً كبيراً، ولأطأنَّ بمن معي من أنصار الدولة كواهلَ رعاع أصحابك، ومَنْ تأشَّب إليك من أداني البلدان وأقاصيها وطَغامها وأوباشها، ومَن انضوى إلى حوْزتك من خُرّاب الناس، ومن لفظه بلدهُ، ونفته عشيرته؛ لسوء موضعه فيهم. وقد أعذَرَ من أنذَر. والسلام.

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شبَث محارباً له ـ فيما ذكر ـ خمس سنين حتى طلب الأمان؛ فكتب عبد الله إلى المأمون يعلمه أنه حصره وضيّقَ عليه، وقتل رؤساء مَنْ معه، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه، فأمره أن يكتب له كتاب أمان، فكتب إليه، أماناً نسختُه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أما بعد؛ فإنّ الإعذار بالحقّ حجة الله المقرون بها النصر، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العزّ؛ ولا يزال المعذِر بالحق، المحتجّ بالعدل في استفتاح أبواب التأييد، واستدعاء أسباب التمكين؛ حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين، ويمكّن وهو خير الممكّنين؛ ولستَ تعدو أن تكون فيما لهجتَ به أحد ثلاثة: طالب دين، أو ملتمس دنيا، أو متهوّراً يطلبُ الغَلَبة ظلماً؛ فإن كنت للدين تسعى بما تصنع، فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقّاً، فلعمري ما همّته الكبرى، ولا غايته القصوى إلاّ الميل مع الحقّ حيث مال، والزوال مع العدل حيث زال؛ وإن كنت للدنيا تقصد، فأعلم أمير المؤمنين غايتَك فيها؛ والأمر الذي تستحقها به؛ فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعلَه بك.

فلعمري ما يستجيز مَنْع خلق ما يستحقه وإن عظُم ، وإن كنت متهوّراً فسيكفي الله أميرَ المؤمنين مؤنتَك. ويعجّل ذلك كما عجّل كفايته مؤن قوم سلكوا مثلَ طريقك كانوا أقوى يداً ، وأكثف جنداً. وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين. وأنزل بهم من حوائج الظالمين. وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ؛ وضمانه لك في دينه وذِمّتِه الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العزّ والرفعة إن أتيتَ وراجعتَ؛ إن شاء الله. والسلام.

ولما خرج نصر بن شبث إلى عبد الله بن طاهر بالأمان هدم كيسوم وخرّبها[1].

* * *

وفي هذه السنة ولّى المأمون صدقة بن عليّ المعروف بزريق أرمينيّة وأذْرَبيجان ومحاربة بابك ، وانتدب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد بن فرزندي الإسكافي ، ثم رجع أحمد بن الجنيد بن فرزندي إلى بغداد ، ثم رجع إلى الخُرّميّة ، فأسره بابك ، فولّى إبراهيم بن الليث بن الفضل التجيبيّ أَذْرَبيجان[2].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد بن عليّ ، وهو والي مكة[3].

وفيها مات ميخائيل بن جورجس صاحب الروم ، وكان ملكه تسع سنين ، وملكت الروم عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل[4].

(١) لهذه التفاصيل انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥٩).
(٢) وقال خليفة موجزاً هذا الخبر وفيها (٢٠٩ هـ) أسر الخرّمي أحمد بن الجنيد ومعاذ بن هانئ (تأريخ خليفة/ ٣١٤).
(٣) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٤).
(٤) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٥٩).

ثم دخلت سنة عشر ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وصول نصر بن شبَث فيها إلى بغداد ، وجّه به عبد الله بن طاهر إلى المأمون ، فكان دخوله إليها يوم الإثنين لسبع خلون من صفر ، فأنزله مدينة أبي جعفر ووكّلَ به من يحفظه[1] .

* * *

ذكر الخبر عن ظفر المأمون بابن عائشة ورفقائه

وفيها ظهر المأمون على إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، الذي يقال له ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ ومالك بن شاهي وفرج البَغواريّ ومَنْ كان معهم ممّن كان يسعى في البيعة لإبراهيم بن المهديّ ، وكان الذي أطلعه عليهم وعلى ما كانوا يسعوْن فيه من ذلك عمران القَطْرَبُّليُّ؛ فأرسل إليهم المأمون يوم السبت ـ فيما ذُكر ـ لخمس خلوْن من صفر سنة عشر ومائتين؛ فأمر المأمون بإبراهيم بن عائشة أن يقامَ ثلاثة أيام في الشمس على باب دار المأمون ، ثم ضربه يوم الثلاثاء بالسِّياط ، ثم حبسه في المطبَق ، ثم ضرب مالك بن شاهي وأصحابه ، وكتبوا للمأمون أسماء مَنْ دخل معهم في هذا الأمر من القوّاد والجند وسائر الناس ، فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا له؛ ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً بُرآء ، وكانوا اتّعدوا أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجند يتلقوْن نصر بن شبث ، فغُمِر بهم فأخِذوا ، ودخل نصر بن شبَث بعد ذلك وحده؛ ولم يوجَّه إليه أحدٌ من الجند ، فأنزل عند إسحاق بن إبراهيم ، ثم حُوّل إلى مدينة أبي جعفر .

* * *

(١) انظر المنتظم (١٠/ ٢١٠).

ذكر خبر الظفر بإبراهيم بن المهديّ

وفيها أخذ إبراهيم بن المهديّ ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر، وهو متنقّب مع امرأتين في زيّ امرأة؛ أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أنتنّ؟ وأين تردْن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم ـ فيما ذكر ـ خاتم ياقوت كان في يده، له قدر عظيم؛ ليخلّيهنّ، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهنّ، وقال: هذا خاتم رجل له شأن، فرفعهنّ إلى صاحب المسلحة، فأمرهنّ أن يُسفرن، فتمنّع إبراهيم، فجبذه صاحب المسلحة، فبدت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه؛ فذهب به إلى باب المأمون، فأعلِم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار؛ فلما كان غداة الأحد أقعد في دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقوّاد والجند، وصيّروا المقنعة التي كان منتقباً بها في عُنقه، والملحفة التي كان ملتحفاً بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ. فلما كان يوم الخميس حوّله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده، ثم أخرجه المأمون معه حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط، فقال الناس: إن الحسن كلّمه فيه، فرضيَ عنه وخلّى سبيله، وصيره عند أحمد بن أبي خالد، وصيّر معه أحمد بن يحيى بن معاذ وخالد بن يزيد بن مَزْيد يحفظانه؛ إلا أنه موسّع عليه، عنده أمّه وعياله، ويركب إلى دار المأمون، وهؤلاء معه يحفظونه[1].

* * *

ذكر خبر قتل ابن عائشة

وفي هذه السنة قتل المأمون إبراهيم بن عائشة وصلبه.

ذكر الخبر عن سبب قتله إياه:

كان السبب في ذلك أن المأمون حبس ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ

---

(١) وقال خليفة: وفيها (٢١٠) ظفر المأمون أمير المؤمنين بإبراهيم بن المهدي فعفا عنه (تأريخ خليفة/ ٣١٤).

وقال ابن قتيبة: وظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي سنة عشر ومائتين فأمنه ونادمه (المعارف/ ١٩٨).

ورجلين من الشُّطّار ، يقال لأحدهما أبو مسمار وللآخر عمّار ، وفرج البغواريّ ومالك بن شاهي وجماعة معهم ممّن كان سعى في البيعة لإبراهيم؛ بعد أن ضُربوا بالسياط ما خلا عمّاراً ، فإنه أومن لما كان من إقراره على القوم في المطبَق ، فرفع بعض أهل المطبَق أنهم يريدون أن يشغَبوا وينقبُوا السجن ـ وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدّوا باب السجن من داخل فلم يدَعُوا أحداً يدخل عليهم ـ فلما كان الليل وسمعوا شغْبهم ، بلغ المأمونَ خبرُهم ، فركب إليهم من ساعته بنفسه ، فدعا بهؤلاء الأربعة فضرب أعناقهم صبراً ، وأسمعه ابن عائشة شتماً قبيحاً؛ فلما كانت الغداة صُلبوا على الجسر الأسفل؛ فلما كان من الغداة يوم الأربعاء أنزل إبراهيم بن عائشة ، فكُفِّن وصلي عليه ، ودفن في مقابر قريش ، وأنزل ابن الإفريقيّ فدفن في مقابر الخيزران وتُرك الباقون.

* * *

العفو عن إبراهيم بن المهديّ[1]

وذكر أن إبراهيم بن المهديّ لما أخذ صِير به إلى دار أبي إسحاق بن الرشيد ـ وأبو إسحاق عند المأمون ـ فحُمل رديفاً لفرج التركيّ؛ فلما أدخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم! فقال: يا أميرَ المؤمنين ، وليّ الثأر محكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه؛ وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب؛ كما جعل كلَّ ذي ذنب دونك ، فإن تعاقب فبحقِّك ، وإن تعفُ فبفضلك ، قال: بل أعفو يا إبراهيم ، فكبّر ثمّ خرّ ساجداً.

وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختفٍ ، فوقّع المأمون في حاشية رقعته: «القُدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكبر ما نسأله» ، فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خيرَ من ذَمَلَت يمانيةٌ به ... بعد الرسول لآيسٍ ولطامعِ
وأَبرَّ من عَبَدَ الإله على التقى ... عيناً وأَقْوَلَه بحقٍّ صادع

(١) وكذلك قال خليفة كما ذكرنا آنفاً وانظر تأريخ خليفة (٣١٤) والبداية والنهاية (٨/ ١٦٠).

عَسلُ الفوارع ما أُطِعتَ فإن تُهَجْ فالصَّابُ يُمزَجُ بالسِّمامِ الناقعِ
متيقظاً حَذِراً وما يخشى العِدَى نَبْهانُ من وسَنَاتِ ليلِ الهاجعِ
مُلئت قلوبُ الناسِ منك مخافةً وتبيتُ تكلؤهم بقلبٍ خاشعِ
بأَبي وأُمِّي فديةً وبنيهمَا من كُلِّ مُعضِلةٍ وريْبٍ واقعِ
ما أَليَنَ الكَنَفَ الذي بوَّأتَني وَطناً وأَمرَعَ رتعَهُ للراتعِ
للصالحات أَخاً جُعِلت وللتقى وأَباً رءوفاً للفقيرِ القانعِ
نفسي فِداؤك إذ تضلُّ معاذري وألوذُ منك بفضلِ حلمٍ واسعِ
أَمَلاً لفضلك والفواضلُ شِيمةٌ رفَعَت بناءَك بالمحلِّ اليافعِ
فَبذَلتَ أَفضلَ ما يضيقُ ببذْلِه وُسعُ النفوسِ من الفَعَالِ البارعِ
وعفوتَ عمّن لم يكن عن مثلِه عفوٌ ، ولم يشفع إليك بشافعِ
إلاّ العلوَّ عن العقوبة بعدما ظَفِرَت يداك بمستكينٍ خاضعِ
فرَحمتَ أَطفالا كأَفراخ القَطَا وعَويلَ عَانِسَةٍ كقَوْسِ النازع
وَعَطَفت آصِرَةً عليَّ كما وَعَى بعد انهِيَاضِ الوشْيِ عَظمُ الظالع
الله يعلَم ما أَقولُ فإنَّها جَهدُ الأَلِيَّةِ من حَنيفٍ راكعِ
ما إن عصيتك والغُوَاة تَقُودني أَسبابها إلا بِنِيَّةِ طَائعِ
حتى إذا علِقَت حَبَائلُ شقوتي بِرَدىً إلى حُفَرِ المهالك هَائعِ
لم أَدْرِ أَنَّ لمثل جُرمِي غَافِراً فوقفتُ أَنظر أَيّ حَتفٍ صارعي
ردَّ الحياةَ عليَّ بعد ذَهَابِها وَرَعُ الإمام القَادِرِ المتواضعِ
أَحياك مَنْ وَلاَّك أَطولَ مُدَّةٍ ورمى عَدُوَّكَ في الوَتِينِ بقَاطِعِ
كَمْ من يَدٍ لك لم تُحَدِّثْني بها نفسي إذَا آلَتْ إليَّ مطامِعي
أَسديتَها عفواً إليَّ هنيئةً فشكرتُ مُصطَنعاً لأَكرم صانِعِ
إلاَّ يسيراً عند ما أَولَيتَني وهو الكثيرُ لديَّ غيرُ الضائعِ
إن أَنت جدتَ بها عليَّ تكن لها أَهلاً ، وإن تمنع فأَعدَلُ مانعِ
إنَّ الذي قَسَم الخلافةَ حَازَها في صُلبِ آدَمَ للإمام السابِعِ
جَمَعَ القلوبَ عليك جَامعُ أَمرِها وحَوَى رداؤك كلَّ خيرٍ جامعِ

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة ، قال : أقول ما قال يوسف

لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

* * *

ذكر الخبر عن بناء المأمون ببورَان

وفي هذه السنة بنى المأمون ببُورَان بنت الحسن بن سهل في رمضان منها[1].

ذكر الخبر عن أمر المأمون في ذلك وما كان في أيام بنائه:

ذُكر أنّ المأمون لمّا مضى إلى فم الصِّلح إلى معسكر الحسن بن سهل، حمل معه إبراهيمَ بن المهديّ، وشخص المأمون من بغداد حين شخص إلى ما هنالك للبناء ببوران، راكباً زورقاً، حتى أَرْسى على باب الحسن؛ وكان العباس بن المأمون قد تقدّم أباه على الظَّهْر؛ فتلقّاه الحسن خارجاً عسكره في موضع قد اتُّخذ له على شاطئ دِجلة، بُنِيَ له فيه جوسق؛ فلما عاينه العبّاس ثنى رجله لينزل، فحَلف عليه الحسن ألاّ يفعل، فلمّا ساواه ثنى رجلَه الحسن لينزل، فقال له العباس: بحقّ أميرِ المؤمنين لا تنزل؛ فاعتنقه الحسن وهو راكب. ثم أمر أن يقدّم إليه دابّته، ودخلا جميعاً منزل الحسن، ووافى المأمون في وقت العشاء؛ وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين، فأفطر هو والحسن والعباس - ودينار بن عبد الله قائم على رجله - حتى فرغوا من الإفطار، وغسلوا أيديهُم، فدعا المأمون بشراب، فأُتيَ بجام ذهب فصُبَّ فيه وشرب، ومدّ يده بجام فيه شراب إلى الحسن؛ فتباطأ عنه الحسن؛ لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك؛ فغمز دينار بن عبد الله الحسنَ. فقال له الحسن: يا أميرَ المؤمنين، أشربه بإذنك وأمرك؟ فقال له المأمون: لولا أمري لم أمدد يدي إليك، فأخذ الجام فشربه. فلما كان في الليلة الثانية، جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذي الرئاستين، فلمّا كان في الليلة الثالثة دخل على بوران، وعندها حمدونة وأمّ جعفر وجدّتها؛ فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدّتها ألف درّة كانت

---

(١) وقد أكد القاضي وكيع في كتابه أخبار القضاة هذا الخبر في ترجمة القاضي يحيى بن أكثم: ثم خرج المأمون إلى فم الصلح إلى الحسن بن سهل يشبب بتومان ابنته انظر تأريخ الطبري (٨/ ٦٠٩) والمنتظم (١٠/ ٢١٦).

في صينيّةٍ ذهب ، فأمر المأمون أن تُجمع ، وسألها عن عدد ذلك الدرّ كم هو؟ فقالت: ألف حبّة ، فأمر بعدّها فنقصَت عشراً ، فقال: مَنْ أخذها منكم فليردّها ، فقالوا: حُسين زجلة ، فأمره بردّها ، فقال: يا أميرَ المؤمنيْن؛ إنما نُثر لنأخذه ، قال: ردّها فإني أخلفها عليك ، فردّها. وجمع المأمون ذلك الدرّ في الآنية كما كان ، فوُضع في حجْرها ، وقال: هذه نحلتك ، وسَلِي حوائجك؛ فأمسكت. فقالت لها جدّتها: كلّمي سيدك ، وسليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته الرّضا عن إبراهيم بن المهديّ ، فقال: قد فعلت ، وسألته الإذن لأمّ جعفر في الحجّ ، فأذن لها. وألبستها أم جعفر البَدَنة الأمويّة؛ وابتنى بها في ليلته ، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر؛ فيها أربعونَ منّاً في تور ذهب. فأنكر المأمون ذلك عليهم ، وقال: هذا سَرَف؛ فلمّا كان من الغد دعا بإبراهيم بن المهديّ فجاء يمشي من شاطئ دِجلة ، عليه مُبطّنةُ ملحَم ، وهو معتمّ بعمامة ، حتى دخل؛ فلما رُفع الستر عن المأمون رمى بنفسه ، فصاح المأمون: يا عمّ ، لا بأسٍ عليك ، فدخل فسلم عليه تسليمَ الخلافة ، وقبّل يده ، وأنشد شعره ، ودعا بالخلَع فخلع عليه خلعة ثانية ، ودعا له بمركَب وقلّده سيفاً ، وخرج فسلّم الناس ، ورُدّ إلى موضعه.

وذُكر أنّ المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعدّ له في كلّ يوم لجميع مَنْ معه جميع ما يُحتاج إليه. وأنّ الحسن خلع على القوّاد على مراتبهم ، وحملهم ووصلهم؛ وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. قال: وأمر المأمون غسان بن عبّاد عند منصرَفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مالِ فارس ، وأقطعه الصِّلح فحمِلت إليه على المكان؛ وكانت معدّة عند غسان بن عباد ، فجلس الحسن ففرّقها في قُوّاده وأصحابه وحشمه وخدمه؛ فلمّا انصرف المأمون شيّعه الحسن ، ثم رجع إلى فم الصِّلح.

فذُكر عن أحمد بن الحسن بن سهل ، قال: كان أهلنا يتحدّثون أنّ الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه ، ونثرها على القوّاد وعلى بني هاشم؛ فمَنْ وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضَيْعة بعث فتسلمها.

وذكِر عن أبي الحسن عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الكاتب ، قال: حدّثني الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت في أم جعفر ، ووصف رجاحة عقلها وفهمها ، ثمّ قال: سألها يوماً المأمون بفم الصِّلح حيث خرج إلينا عن النفقة على بُوران ،

وسأل حمدونة بنت غَضِيض عن مقدار ما أنفقت في ذلك الأمر. قال: فقالت حمدونة: أنفقتُ خمسة وعشرين ألف ألف، قال: فقالت أم جعفر: ما صنعتِ شيئاً، قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. قال: وأعددنا له شمعتين من عَنبر، قال: فدخل بها ليلاً، فأوقدتا بين يديه؛ فكثر دخانهما، فقال: ارفعوهما قد أذانا الدّخان، وهاتوا الشمع. قال: ونحلتْها أمّ جعفر في ذلك اليوم الصّلح قال: فكان سبب عود الصِّلح إلى مُلكي، وكانت قبل ذلك لي، فدخل عليّ يوماً حُميد الطوسيّ فأقرأني أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين، فقلت له: ننفذها لك ذي الرّياستين، وأقطعك الصِّلح في العاجل إلى أن تأتيَ مكافأتك من قبَله. فأقطعته إياها، ثم ردَّها المأمون على أمّ جعفر فنحلتْها بُوران.

وروى عليُّ بن الحسين أنّ الحسن بن سهل كان لا ترفع السُّتور عنه، ولا يرفع الشَّمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبيّنها إذَا نظر إليها. وكان متطيّراً يحبّ أن يقال له إذا دخل عليه: انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت أحد. قال: ودخلتُ عليه يوماً فقال له قائل: إن عليّ بن الحسين أدخل ابنه الحسن اليوم الكتّاب، قال: فدعا لي وانصرفت، فوجدت في منزلي عشرين ألف درهم هبةً للحسن وكتاباً بعشرين ألف درهم. قال: وكان قد وهب لي من أرضه بالبصرة ما قوّم بخمسين ألف دينار، فقبضه عنّي بُغا الكبير، وأضافه إلى أرضه.

وذكر عن أبي حسان الزياديّ أنه قال: لما صار المأمون إلى الحسن بن سهل، أقام عنده أياماً بعد البناء ببُوران، وكان مقامه في مسيرِه وذهابه ورجوعه أربعين يوماً. ودخل إلى بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلتْ[1] من شوال.

وذكر عن محمد بن مُوسى الخُوارزميّ أنه قال: خرج المأمون نحو الحسن بن

(١) أبو حسان الزيادي عالم فاضل وأخباري (تأريخ بغداد/ ٧/ ٣٥٧) ثقة توفي سنة ٢٤٢ هـ وعاصر هذه الأحداث وانظر الخبر الآتي.

سهل إلى فم الصِّلح لثمان خلوْن من شهر رمضان ، ورحلَ من فم الصِّلْح لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين[١] .

وهلك حُميد بن عبد الحميد يوم الفطر من هذه السنة؛ وقالت جاريته عَذَل :

مَنْ كَانَ أَصْبَح يومَ الفطرِ مُغتَبطاً فمَا غَبْطُنا به والله محمودُ
أَو كان منتظراً في الفطر سَيِّدَهُ فإن سَيِّدَنا في التربِ ملحوُد

* * *

وفي هذه السنة افتتح عبد الله بن طاهر مصر؛ واستأمن إليه عبيد الله بن السريّ بن الحكم.

ذكر الخبر عن سبب شخوص عبد الله بن طاهر من الرَّقة إلى مصر وسبب خروج ابن السريّ إليه في الأمان[٢]

ذُكر أن عبد الله بن طاهر لمّا فرغ من نصر بن شبَث العُقَيليّ ، ووجّهه إلى المأمون فوصل إليه ببغداد كتب المأمون يأمره بالمصير إلى مصر؛ فحدّثني أحمد بن محمد بن مَخْلَد ، أنه كان يومئذ بمصر ، وأن عبد الله بن طاهر لما قَرُب منها ، وصار منها على مرحلة ، قدّم قائداً من قوّاده إليه ليرتاد لمعسكره موضعاً يعسكر فيه ، وقد خندق ابن السريّ عليها خندقاً ، فاتّصل الخبر بابن السريّ عن مصير القائد إلى ما قرب منها ، فخرج بمن استجاب له من أصحابه إلى القائد الذي كان عبد الله بن طاهر وجّهه لطلب موضع معسكره؛ فالتقى جيش ابن السريّ وقائد عبد الله وأصحابه وهم في قلّة ، فجالَ القائد وأصحابه جولةً ، وأبرد القائد إلى عبد الله بريداً يخبره بخبره وخبر ابن السريّ ، فحمل رجاله على البغال؛ على كلّ رجلين بآلتهما وأدواتهما ، وجَنَبُوا الخيل ، وأسرعوا السير حتى لحقوا القائد وابن السريّ؛ فلم تكن من عبد الله وأصحابه إلاّ حمْلة واحدة حتى انهزم ابن السريّ وأصحابه ، وتساقطتْ عامّة أصحابه ـ يعني ابن السريّ ـ في الخندق ،

(١) هذا الخبر يؤكد ما قبله مع فارق يسير في تحديد الأيام.
(٢) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٦٠).

فمن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض في الخندق كان أكثرَ ممّن قتله الجند بالسيف ، وانهزم ابن السريّ ، فدخل الفسطاط ، وأغلق على نفسه وأصحابه ومَنْ فيها الباب ، وحاصره عبد الله بن طاهر؛ فلم يعاوده ابن السريّ الحربَ بعد ذلك حتى خرج إليه في الأمان.

وذكر عن ابن ذي القلمين ، قال: بعث ابن السريّ إلى عبد الله بن طاهر لمّا ورد مصْر ومانعه من دخولها بألف وَصِيف ووصيفة؛ مع كلّ وصيف ألف دينار في كيس حرير ، وبعث بهم ليلاً. قال: فردّ ذلك عليه عبد الله وكتب إليه: لو قبلت هديّتك نهاراً لقبلتُها ليلاً ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ قال: فحينئذ طلب الأمان منه وخرج إليه.

وذكَر أحمد بن حفص بن عمر ، عن أبي السمراء ، قال: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طار متوجّهين إلى مصر؛ حتى إذا كنّا بين الرَّمْلة ودمشق؛ إذا نحن بأعرابيّ قد اعترض؛ فإذا شيخ فيه بقيّة على بعير له أوْرَق ، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام. قال أبو السمراء: وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقيّ وإسحاق بن أبي رِبعيّ ، ونحن نساير الأميرَ ، وكنّا يومئذ أفرَه من الأمير دوابّ ، وأجود منه كُساً. قال: فجعل الأعرابيّ ينظر في وجوهنا ، قال: فقلتُ: يا شيخ؛ قد ألحَحْتَ في النظر ، أعرفت شيئاً أم أنكرته؟ قال: لا والله ما عرفتُكم قبل يومي هذا ، ولا أنكرتُكم لسوء أراه فيكم؛ ولكني رجلٌ حسن الفراسة في الناس ، جيّد المعرفة بهم ، قال: فأشرت له إلى إسحاق بن أبي رِبْعيّ ، فقلت: ما تقول في هذا؟ فقال:

أَرَى كاتِباً دَاهِي الكتابَةِ بيّنٌ ... عليه وتأْدِيبُ العرَاقِ مُنيرُ
له حرَكاتٌ قد يشاهِدْنَ أَنَّه ... عليمٌ بتقسِيطِ الخَراج بصِيرُ

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقيّ ، فقال:

ومُظهِر نُسْكٍ ما عليه ضميرُهُ ... يُحِبُّ الهدايا ، بالرِّجال مَكورُ
إخال بهِ جُبْناً وبُخلاً وشيمَةً ... تُخبّرُ عنهُ أمة لَوزيرُ

ثم نظر إليّ وأنشأ يقول:

وهذا نديمٌ للأَمير ومؤنِسٌ ... يكونُ لهُ بالقرْبِ منهُ سرورُ
إخاله للأشعارِ والعِلم رَاوِياً ... فبعْضُ نديمٍ مرَّةً وسميرُ

ثم نظر إلى الأمير وأنشأ يقول:

وهذا الأَميرُ المُرتجَى سيْب كَفِّهِ فمَا إن له فيمنْ رأَيْتُ نظيرُ
عليه رِدَاءٌ من جمالٍ وهيْبَةٍ ووجهٌ بإدراكِ النجاحِ بشِيرُ
لقَد عُصِم الإسلامُ مِنه بذَابِدٍ به عاشَ معرُوفٌ وماتَ نكيرُ
أَلا إنما عبدُ الإلهِ بنُ طاهِر لنا وَالدٌ بَرٌّ بنا، وأَميرُ

قال: فوقع ذلك من عبد الله أحسنَ موقع، وأعجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

وذكر عن الحسن بن يحيى الفهريّ، قال: لقينا البُطيْن الشاعر الحمصيّ، ونحن مع عبد الله بن طاهر فيما بين سَلَميْة وحِمْص، فوقف على الطريق، فقال لعبد الله بن طاهر:

مَرْحَباً مَرحَباً وأَهلاً وسَهْلاً بابنِ ذِي الجودِ طاهِرِ بن الحُسينِ
مَرْحباً مَرحبا وأَهلاً وسَهْلاً بابن ذِي الغُرَّتينِ في الدَّعوَتينِ
مَرْحباً مرحباً بمن كفُّهُ البَحْـ ـرُ إذا فاضَ مُزبدَ الرَّجَوَين
ما يُبالِي المأمونُ أَيَّدهُ اللـ ـه إذا كنْتُما له باقيَيْنِ
أَنتَ غَرْبٌ وذَاكَ شرقٌ مقيماً أَيُّ فَتقٍ أَتى منَ الجانبَيْنِ
وحقيقٌ إذ كُنتُما في قديمٍ لِزُريْق ومُصعب وحُسينِ
أَن تنالا ما نلتُماه مِن المجـ ـد وأَن تعْلُوَا على الثَّقَليْنِ

قال: من أنت ثكلتك أمك! قال: أنا البُطَين الشاعر الحمصيّ، قال: اركب يا غلام وانظر كم بيتاً؟ قال: سبعة، فأمر له بسبعة آلاف درهم أو بسبعمائة دينار، ثم لم يزل معه حتى دَخلوا مصر والإسكندرية، حتى انخسف به وبدابته مخرَجٌ، فمات فيه بالإسكندرية.

* * *

ذكر الخبر عن فتح عبد الله بن طاهر الإسكندرية

وفي هذه السنة فتح عبد الله بن طاهر الإسكندرية ـ وقيل كان فتحه إياها في سنة إحدى عشرة ومائتين ـ وأجلَى مَنْ كان تغلّب عليها من أهل الأندلس عنها.

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم:

حدّثني غير واحد من أهل مصر ، أنّ مراكب! أقبلت من بحر الروم من قِبَل الأندلس ، فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قِبَلهم بفتنة الجَرَوِيّ وابن السريّ ، حتى أرسوا مراكبَهم بالإسكندرية ، ورئيسهم يومئذ رجل يدعَى أبا حفص؛ فلم يزالوا بها مقيمين حتى قدم عبد الله بن طاهر مصر. قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا منْ قبَل المشرق فتىً حدَث - يعني عبد الله بن طاهر - والدُّنيا عندنا مفتونة ، قد غلب على كلّ ناحية من بلادنا غالب ، والناس منهم في بلاء؛ فأصلح الدنيا ، وأمَّن البريء ، وأخاف السقيم؛ واستوسقتْ له الرّعية بالطاعة. ثم قال: أخبرنا عبد الله بن وهب ، قال: أخبرني عبد الله بن لهيعة ، قال: لا أدري رَفعُه إليّ قَبْلُ أم لا! فلم نجد فيما قرأنا من الكتب أن لله بالمشرق جنداً لم يَطغَ عليه أحدٌ من خلقه إلاّ بعثهم إليه ، وانتقم بهم منه - أو كلاماً هذا معناه - فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى مَنْ كان بها من الأندلسيّين ، وإلى من كان انضوى إليهم ، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة ، فأخبروني أنهم أجابوه إلى الطاعة ، وسألوه الأمان ، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الرّوم التي ليست من بلاد الإسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر؛ يقال لها إقْرِيطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، وفيها بقايا أولادهم إلى اليوم[١].

* * *

ذكر الخبر عن خروج أهل قمّ على السلطان

وفي هذه السنة خلع أهل قمّ السلطان ومنعوا الخراج.

---

(١) هذا هو الموضع الأول الذي بدأ به الطبري بتخريج رواية تاريخية عن شاهد عيان مباشرة فالطبري يروي هذه الحادثة عن الراوي يونس بن عبد الأعلى الصدفي وهو ثقة من رجال الصحيحين من صغار العاشرة وهو بدوره عاصر هذه الأحداث وشاهدها أي أن هذا إسناد صحيح أما النص الذي رواه عن ابن لهيعة فهو يشك في رفعها كما ورد أثناء الرواية.

ذكر الخبر عن سبب خلعهم السلطان ومآل أمرهم في ذلك:

ذكر أن سبب خلعهم إياه كان أنهم كانوا استكثروا ما عليهم من الخراج، وكان خراجهم ألفيْ ألف درهم، وكان المأمون قد حطّ عن أهل الرّيّ حين دخلها منصرفاً من خراسان إلى العراق، ما قد ذكرتُ قبلُ، فطمع أهل قُمّ من المأمون في الفعل بهم في الحطّ عنهم والتخفيف مثل الذي فعل من ذلك بأهل الرّيّ، فرفعوا إليه يسألونه الحطّ، ويشكون إليه ثقله عليهم؛ فلم يجِبْهم المأمون إلى ما سألوه، فامتنعوا من أدائه، فوجّه المأمون إليهم عليّ بن هشام، ثم أمده بعُجَيف بن عَنْبسة، وقدم قائد لحمَيد يقال له محمد بن يوسف الكح بعرض من خُراسان، فكتب إليه بالمصير إلى قمّ لحرب أهلها مع عليّ بن هشام، فحاربهم عليّ فظفر بهم، وقتل يحيى بن عمران وهدم سور قمّ، وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعد ما كانوا يتظلّمون من ألفي ألف درهم.

* * *

ومات في هذه السنة شهريار، وهو ابن شروين، وصار في موضعه ابنه سابور، فنازعه مازيار بن قارن فأسره وقتله، وصارت الجبال في يدي مازيار بن قارن.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد وهو يومئذ والي مكة[١].

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

أمر عبيد الله بن السريّ

فمن ذلك خروج عبيد الله بن السريّ إلى عبد الله بن طاهر بالأمان، ودخول

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٤).
والبسوي في المعرفة (١/ ٦٤).

عبد الله بن طاهر مصر ـ وقيل إن ذلك في سنة عشر ومائتين ـ وذكر بعضهم أن ابن السريّ خرج إلى عبد الله بن طاهر يوم السبت لخمسٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة ومائتين ، وأدخل بغداد لسبع بقين من رجب سنة إحدى عشرة ومائتين ، وأنزل مدينة أبي جعفر ، وأقام عبد الله بن طاهر بمصر والياً عليها وعلى سائر الشأم والجزيرة؛ فذُكر عن طاهر بن خالد بن نزار الغسائي ، قال؛ كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها في أسفل كتاب له:

أَخي أَنت ومولايَ ... ومَنْ أَشكُرُ نُعمَاهُ
فما أَحبَبْتَ من أَمرٍ ... فإِنِّي الدَّهْرَ أَهْواهُ
وما تكرَهُ مِنْ شَيْءٍ ... فإِنّي لسْتُ أَرْضَاهُ
لَكَ الله على ذاكَ ... لَكَ اللهُ لَكَ اللهُ

وذُكر عن عطاء صاحب مظالم عبد الله بن طاهر ، قال: قال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أميرَ المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب ، وكذا كان أبوه قبله. قال: فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول ، فدسّ إليه رجلاً ثم قال له: امض في هيئة القرّاء والنسّاك إلى مصر ، فادع جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته فادْعُه ورغّبه في استجابته له ، وابحث عن دفين نيّته بحثاً شافياً ، وائتني بما تسمع منه. قال: ففعل الرجل ما قال له ، وأمره به؛ حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر ، وقد ركب إلى عبيد الله بن السريّ بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام إليه الرجل ، فأخرج من كمّه رقعةً فدفعها إليه ، فأخذها بيده؛ فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجب إليه ، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه؛ ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجليه ، وخُفَّاه فيهما ، فقال له: قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك ، فهاتِ ما عندك ، قال: ولي أمانُك وذمّة الله معك؟ قال: لك ذلك ، قال: فأظهَر له ما أراد ، ودعاه إلى القاسم ، أخبره بفضائله وعلمه وزهده ، فقال له عبد الله: أَتُنصِفني؟ قال: نعم ، قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضّل؟ قال: نعم ، قال: فتجيء إليّ وأنا في هذه

الحالة التي ترى ، لي خاتمٌ في المشرق جائز وفي المغرب كذلك؛ وفيما بينهما أمري مطاع ، وقولي مقبول ، ثم ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقدّامي إلاّ رأيت نعمة لرجل أنعمها عليّ ، ومنّة ختم بها رقبتي ، ويداً لائحة بيضاء ابتدأني بها تفضّلاً وكرماً ، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان ، وتقول: اغدر بمن كان أولا لهذا وآخراً ، واسْع في إزالة خيْط عنقه وسفك دمه! تراكَ لو دعوتني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم؛ أكان الله يحبّ أن أغدر به ، وأكفر إحسانه ومنّته ، وأنكث بيعتَه! فسكت الرجل ، فقال له عبد الله: أما إنه قد بلغني أمرُك ، وتالله ما أخاف عليك إلاّ نفْسَك؛ فارحل عن هذا البلد؛ فإنّ السلطان الأعظم إن بلغه أمرُك ـ وما آمنُ ذلك عليك ـ كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك. فلمّا أيسَ الرجل مما عنده جاء إلى المأمون ، فأخبره الخبر ، فاستبشر وقال: ذلك غرس يدي ، وإلْف أدبي ، وترْب تلقيحي ، ولم يُظهر من ذلك لأحدٍ شيئاً ، ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون[١].

وذُكر عن عبد الله بن طاهر أنه قال وهو محاصِر بمصر عبيد الله بن السريّ:

بكَرَتْ تُسْبِلُ دَمْعاً ... أَنْ رأَت وشْكَ بَراحِي
وتَبَدَّلْتُ صقِيلاً ... يمنيّاً بِوِشَاحِي
وتمادَيْتُ بسَيرٍ ... لِغُدُوٍّ وَرَواحِ
زعمَتْ جَهلا بأَنِّي ... تَعِبٌ غيْرُ مُراحِ
أَقصِرِي عنِّي فإِنِّي ... سالكٌ قَصْدَ فلاحِي
أَنا للمأْمونِ عبدٌ ... مِنْهُ في ظلٍّ جَنَاحِ
إن يُعافِ اللهُ يوماً ... فَقَريب مُسْتَراحِي
أَوْ يكنْ هُلكٌ فقُولِي ... بِعَويلٍ وصِياحِ:
حلَّ في مصرَ قَتيلٌ ... وَدعِي عنكِ التَّلاحِي

وذُكر عن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنّ أباه كتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السريّ إليه يهنئه بذلك الفتح:

---

(١) استغرق هذا الخبر الصفحتين (٦١٤ ـ ٦١٥) وقد ذكره ابن الجوزي مع بعض الاختصار (المنتظم/ ١٠/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

بلغني أعزّ الله الأمير ما فتح الله عليك ، وخروجُ ابن السريّ إليك ؛ فالحمد لله الناصر لدينه ، المعزّ لدولة خليفته على عباده ، المذلّ لمن عَنَد عنه وعن حقه ، ورغب عن طاعته . ونسأل الله أن يظاهرَ له النِّعم ، ويفتح له بلدان الشِّرْك ، والحمد لله على ما وليك به مذ ظعنتَ لوجهك ؛ فإنّا ومَنْ قبلنَا نتذاكر سيرتَك في حرْبك وسلمك ، ونكثر التعجّب لما وُفِّقت له من الشدّة والليان في مواضعهما ، ولا نعلمَ سائس جندٍ ورعيّة عدل بينهم عدلَكَ ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك ؛ ولَقَلّ ما رأينا ابن شَرف لم يُلقِ بيده متّكلا على ما قدّمَتْ له أبوّته ، ومَنْ أوتيَ حظّاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا حتى يخلّ بمساماة ما أمامه . ثم لا نعلمَ سائساً استحقّ النُّجح لحسن السيرة وكفّ معرّة الأتباع استحقاقَك . وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدّم عليك أحداً يهوى عند الحاقة والنازلة المعضلة فليهنك منّة الله ومزيده ، ويسوّغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمّت لك ؛ من التَّمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاّك وإيانا العيش ببقائه .

وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرماً مقدّماً معظماً ؛ وقد زادك الله في أعين الخاصّة والعامة جلالةً وَبَجَالةً ؛ فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويُعدوّنك لأحداثهم ونوائبهم ؛ وأرجو أنْ يوفّقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه ؛ فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ، ولم تزدد إلا تذلُّلاً وتواضعاً ؛ فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك ، وأودع فيك . والسلام .

* * *

وفي هذه السنة قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين مدينة السلام من المغرب ، فتلقّاه العباس بن المأمون وأبو إسحاق المعتصم وسائر الناس ، وقدم معه بالمتغلّبين على الشام كابن السرْج وابن أبي الجَمَل وابن أبي الصفر[1] .

ومات موسى بن حفص ، فولى محمد بن موسى طبَرِستان مكان أبيه .

وولى حاجب بن صالح الهند فهزمه بشْر بن داود ، فانحاز إلى كرمَان .

---

(١) انظر المنتظم (١٠/ ٢٣٥) .

وفيها أمر المأمون منادياً فنادى: برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير ، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ[١].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس وهو والي مكة[٢].

وفيها مات أبو العتاهية الشاعر[٣].

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه المأمون محمد بن حميد الطوسيّ إلى بابك لمحاربته على طريق الموصل وتقويته إياه ، فأخذ محمد بن حُميد يعلَى بنَ مرّة ونظراءه من المتغلبة بأذْرَبيجان ، فبعث بهم إلى المأمون.

وفيها خلع أحمد بن محمد العمريّ المعروف بالأحمر العين باليمن.

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازي اليمن[٤].

وفيها أظهر المأمون القولَ بخلق القرآن وتفضيل عليّ بن أبي طالب عليه

---

(١) وهذا خبر منكر كان الأولى بالطبري أن يذكر هذا الاتهام الخطير ولو بإسناد منقطع كعادته في ذكر سيرة الخلفاء والمأثور من أقوالهم وهو خبر منكر ولم يؤيده في هذا مؤرخ متقدم ثقة ، والمأمون كان من رواة الحديث والمحبين للعلم والعلماء وما كان يخفى عليه أن سيدنا معاوية رضي الله عنه من كتاب الوحي ولم يؤثر عن آبائه الطعن في صحابة رسول الله ﷺ.

(٢) وكذلك قال خليفة (٣١٤) وقال البسوي: وحجّ بنا في هذه السنة صالح بن العباس (المعرفة والتأريخ/ ١/ ٦٤).

(٣) انظر المنتظم (١٠/ ٢٤٢) إذ قال ابن الجوزي توفي أبو العتاهية في جمادى الآخرة من هذه السنة ببغداد ا. هـ.
وانظر تأريخ بغداد (٦/ ٢٥٠).

(٤) لهذه الأخبار الموجزة انظر المنتظم (١٠/ ٢٤٨).

السلام ، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، وذلك في شهر ربيع الأول منها[١].

* * *

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد[٢].

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خلْع عبد السلام وابن جَليس بمصر في القيسية واليمانيّة ووثوبهما بهما.

وفيها مات طلحة بن طاهر بخُراسان.

وفيها ولى المأمون أخاه أبا إسحاق الشام ومصر ، وولّى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم ، وأمر لكل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار[٣].

وقيل: إنه لم يفرّق في يوم من المال مثل ذلك.

* * *

ذكر الخبر عن ولاية غسان بن عباد السند

وفيها ولي غسان بن عباد السند[٤].

(١) انظر المنتظم (١٠/ ٢٤٨).

(٢) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٤).
والبسوي في المعرفة (١/ ٦٤).

(٣) انظر المنتظم (١٠/ ٢٥١).

(٤) والخبر عند خليفة في تأريخه (٣١٤) إذ قال وفيها عزل محمد بن عباد عن البحر وعبر إلى غسان بن عباد فولى محمد بن عباد ا.هـ.

ذكر الخبر عن سبب توليته إيّاه السند:

وكان السبب في ذلك - فيما بلغني - أن بشر بن داود بن يزيد خالف المأمون، وجَبَى الخراج فلم يحمل إلى المأمون شيئاً منه؛ فذُكر أن المأمون قال يوماً لأصحابه: أخبروني عن غسّان بن عباد؛ فإني أريده لأمر جسيم - وكان قد عزم على أن يولِّيَه السند لما كان من أمر بشر بن داود - فتكلم مَنْ حضر، وأطنبوا في مدحه، فنظر المأمون إلى أحمد بن يوسف وهو ساكت، فقال له: ما تقول يا أحمد؟ قال: يا أميرَ المؤمنين ذاك رجل محاسنه أكثر من مساويه؛ لا تصرف به إلى طَبَقة إلا انتصف منهم: فمهما تخوّفت عليه؛ فإنه لن يأتي أمراً يُعتذر منه؛ لأنه قسّم أيامَه بين أيام الفضل، فجعل لكل خلُق نوْبة، إذا نظرت في أمرِه لم تدر أيّ حالاته أعجب! إما هداه إليه عقله؛ أم إما اكتسبه بالأدب، قال: لقد مدحتَه على سوء رأيك فيه! قال: لأنّه فيما قلت كما قال الشاعر:

كفى شكراً بما أَسْديتَ أَنِّي مدَحتُك في الصَّديق وفي عِداتِي

قال: فأعجب المأمونَ كلامُه، واسترجح أدبه.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد[1].

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك مقتل محمد بن حُميد الطوسيّ، قتله بابك بهَشْتَادْسَر، يوم السبت لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول، ورفض عسكره، وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه[2].

---

(١) وكذلك قال خليفة عن الحجّ في هذه السنة (تأريخ/ ٣١٤) والبسوي في المعرفة (١/ ٦٥).

(٢) وقال خليفة: وفيها (٢١٤ هـ) قتل ابن حميد الطوسي قتله الخرمي وهو الأمير (تأريخ خليفة/ ٣١٤) وكذلك قال ابن قتيبة: ووجه محمد بن حميد لقتال بابك فقتل محمد سنة أربع وعشرين ومائتين (المعارف/ ١٩٨).

وفيها قتل أبو الرازي باليمن.

وفيها قُتل عُمَير بن الوليد الباذَغيسيّ عامل أبي إسحاق بن الرشيد بمصر بالحوْف في شهر ربيع الأول، فخرج أبو إسحاق إليها فافتتحها، وظفر بعبد السلام وابن جَليس، فقتلهما فضرب المأمونُ بن الحَروريّ وردّه إلى مصر.

وفيها خرج بلال الضَّبابيّ الشاري، فشخص المأمون إلى العَلْث، ثم رجع إلى بغداد، فوجّه عباساً ابنه في جماعة من القوّاد، فيهم عليّ بن هشام وعُجيف وهارون بن محمد بن أبي خالد، فقتلَ هارون بلالا[1].

وفيها خرج عبد الله بن طاهر إلى الدّينَور، فبعث المأمون إليه إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم يخيّرانه بين خُراسان والجبال وأرمينيَة وأذْرَبيجان، ومحاربة بابك، فاختار خُراسان، وشخص إليها.

وفيها تحرّك جعفر بن داود القُمّي، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر، وكان هرب من مصر فرُدّ إليها.

وفيها ولّى عليّ بن هشام وقُمّ وإصبهان وأذرَبيجان[2].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد[3].

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

ذكر خبر شخوص المأمون لحرب الروم[4]

وفي هذه السنة شخص المأمون من مدينة السّلام لغزو الروم، وذلك يوم

---

(١) عن خروج بلال الضبابي انظر المنتظم (١٠/ ٢٦٢).

(٢) لخروج عبد الله بن طاهر إلى الدينور وبقية الأخبار المختصرة انظر المنتظم (١٠/ ٢٦٢).

(٣) وكذلك قال خليفة عن الحج في هذه السنة (تأريخ خليفة/ ٣١٤) والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٦٥).

(٤) قال البسوي وغزا المأمون في هذه السنة (المعرفة/ ١/ ٦٦) وانظر الخبر الآتي.

السبت ـ فيما قيل ـ لثلاث بقين من المحرّم ـ وقيل كان ارتحاله من الشماسيّة إلى البَرَدان يوم الخميس بعد صلاة الظهر ، لستّ بقين من المحرّم سنة خمس عشرة ومائتين ـ واستخلف حين رَحل عن مدينة السلام عليها إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، وَوَلِّيَ مع ذلك السواد وحُلْوان وكُور دِجْلة. فلما صار المأمون بتَكْريت قدم عليه محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رحمه الله ، من المدينة في صَفر ليلة الجمعة من هذه السنة ، ولقيَه بها فأجازه ، وأمره أن يدخل بابنته أم الفَضْل وكان زوّجها منه؛ فأدخلت عليه في دار أحمد بن يوسف التي على شاطئ دِجْلة ، فأقام بها؛ فلما كان أيام الحجّ خرج بأهله وعياله حتى أتى مكة ، ثم أتى منزله بالمدينة؛ فأقام بها ، ثم سلك المأمون طريق الموصل: حتى صار إلى مَنْبج ، ثم إلى دابق ، ثم إلى أنطاكيَة ، ثم إلى المَصِّيصة ، ثم خرج منها إلى طَرَسُوس ، ثمّ دخل من طَرَسوس إلى بلاد الرّوم للنصف من جمادى الأولى. ورحل العباس بن المأمون من مَلَطْيَة؛ فأقام المأمون على حصن يقال له قُرّة؛ حتى فتحه عَنْوة؛ وأمر بهدمه؛ وذلك يوم الأحد لأربع بقين من جُمادى الأولى؛ وكان قد افتتح قبل ذلك حصناً يقال له ماجدة ، فمنّ على أهلها.

وقيل إن المأمون لما أناخ على قُرّة ، فحارب أهلها طلبوا الأمان ، فآمنهم المأمون ، فوجه أشناس إلى حصن سندس ، فأتاه برئيسه ، ووجّه عُجيفاً وجعفراً الخياط إلى صاحب حصن سنان ، فسمع وأطاع[١].

* * *

(١) قال ابن قتيبة الدينوري: ثم توجه المأمون إلى طرسوس في المحرم سنة خمس عشرة ومائتين فغزا الروم وافتتح حصن قرة وخرشنة وصمالوا ثم انصرف إلى دمشق (المعارف/ ١٩٩).
وأما البسوي فقد فرّق بين أمرين الأول قوله أن المأمون غزا في هذه السنة أي ـ ٢١٥ هـ ـ والثاني أن المأمون غزا الروم وفتح قرة (حصن قريب من طرسوس) ودخل العباس ابنه من درب الحدث (المعرفة/ ١/ ٦٥) وذلك ضمن أحداث سنة ٢١٤ هـ.
وهذا اختلاف والراجح أنه غزا الروم سنة ٢١٥ هـ لاتفاق الطبري وابن قتيبة على ذلك واتفاق الثلاثة على أنه فتح حصن «قرّة» في غزاته لأرض الروم ، أما بقية الحصون فلم يتفقوا عليه كما ترى والله أعلم.

وفي هذه السنة انصرف أبو إسحاق بن الرشيد من مصر. فلقي المأمون قبل دخوله الموصل، ولقيه مَتْوِيل وعباس ابنه برأس العين.

وفيها شخص المأمون بعدخروجه من أرض الروم إلى دمشق[١].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد[٢].

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

عود إلى ذكر غزو المأمون أرض الروم

فمن ذلك كرّ المأمون إلى أرض الروم[٣].

ذكر السبب في كرّه إليها:

اختُلف في ذلك، فقيل: كان السبب فيه ورودُ الخبر على المأمون بقتل ملك الرّوم قوماً من أهل طَرَسوس والمَصِّيصَة؛ وذلك - فيما ذُكر - ألف وستمائة. فلما

(١) سبق أنه ذكرنا قول ابن قتيبة الدينوري بعد ذكره لغزو المأمون أرض الروم (ثم انصرف إلى دمشق) - (المعارف/ ١٩٩).

(٢) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٥).
والبسوي في المعرفة (١/ ٦٦).

(٣) لقد ذكر الطبري عودة المأمون ثانية إلى أرض الروم لغزوها ضمن أحداث سنة (٢١٦ هـ) بينما ذكره البسوي وابن قتيبة ضمن أحداث سنة (٢١٧ هـ) وإذا اتفق اثنان من المؤرخين المتقدمين على مسألة كهذه رجحنا رأي الاثنين على الواحد ولذلك سنتحدث عن هذه الغزوة إن شاء الله ضمن تعليقنا على أحداث السنة (٢١٧ هـ).
وكذلك ذكر ابن عساكر مسنداً أنه غزا سنة (٢١٥) و(٢١٧) و(٢١٨) (انظر تأريخ ابن عساكر/ ٣٤/ ٣٠٢/ تر٣٦١١).

بلغه ذلك شخص حتى دخل أرض الرّوم يوم الإثنين لإحدى عشرة بقيتْ من جُمادى الأولى من هذه السنة ، فلم يزل مقيماً فيها إلى النّصف من شعبان.

وقيل: إن سبب ذلك أن تَوْفيل بن ميخائيل كتب إليه ، فبدأ بنفسه فلمّا ورد الكتاب عليه لم يقرأه ، وخرج إلى أرض الرُّوم ، فوافاه رسل تَوْفيل بن ميخائيل بأذَنَة ، ووجّه بخمسمائة رجل من أسارى المسلمين إليه؛ فلما دخل المأمون أرضَ الروم ، ونزل على أنطيغوا ، فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقْلَةَ ، فخرج أهلها إليه على صلح ، ووجّه أخاه أبا إسحاق ، فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة. ووجّه يحيى بن أكثم من طُوانة ، فأغار وقتل وحرّق ، وأصاب سبْياً ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى كيسوم ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ، ثم ارتحل إلى دمشق.

وفي هذه السنة ظهر عَبْدوس الفِهريّ ، فوثب بمن معه على عمّال أبي إسحاق ، فقتل بعضهم؛ وذلك في شعبان ، فشخص المأمون من دِمشق يوم الأربعاء لأربعَ عشرة بقيتْ من ذي الحجّة إلى مصر[١].

وفيها قدم الأفشين من بَرْقة منصرفاً عنها ، فأقام بمصر.

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتَّكْبير إذا صلَّوْا ، فبدؤوا بذلك في مسجد المدينة والرُّصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيتْ من شهر رمضان من هذه السنة ، حين قضوا الصلاة ، فقاموا قياماً ، فكبّروا ثلاث تكبيرات ، ثم فعلوا ذلك في كلِّ صلاة مكتوبة[٢].

وفيها غضب المأمون على عليّ بن هشام ، فوجّه إليه عُجيف بن عنبسة

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٦٣).

(٢) في نسبة بدعة كهذه إلى المأمون نظر وهذا الخبر لا يصح للأسباب التالية:

١ ـ لو كان صحيحاً لتناقلته كتب الفقه من المذاهب المختلفة كنقلهم مسألة وقوع الطلاق مرة واحدة (بثلاث) ومسألة توزيع أرض السواد وما إلى ذلك.

٢ ـ المعروف عن المأمون أنه كان حريصاً على اتباع السنة فيما يتعلق بالشعائر التعبدية كما سيأتي عند الحديث عن سيرته. وهذا مخالف لذلك.

٣ ـ مسألة هامة كهذه لابد من ذكرها بإسناد ولو منقطع ولكن الطبري ذكرها بلا إسناد كما ترى والله أعلم.

وأحمد بن هشام، وأمر بقبض أمواله وسلاحه.

وفيها ماتت أمّ جعفر ببغداد في جمادى الأولى.

وفيها قدم غسان بن عباد من السِّنْد، وقد استأمن إليه بشر بن داود المهلبيّ، وأصلح السند، واستعمل عليها عمران بن موسى البرمكيّ، فقال الشاعر:

سيفُ غسانَ رَونَقُ الحربِ فيه ... وسمامُ الحُتوفِ في ظُبَتَيْهِ
فإذا جرَّه إلى بلدِ السنـ ... ـدِ فألقَى المَقادَ بِشرٌ إليهِ
مُقسِماً لا يعودُ ما حجَّ للـ ... ـه مُصَلٍّ وما رمى جَمرتَيْهِ
غادِراً يَخلَعُ الملوكَ ويغتا ... لُ جُنوداً تأْوى إلى ذِروَتَيْهِ

فرجع غسان إلى المأمون، وهرب جعفر بن داود القميّ إلى قمّ، وخلع بها.

وفي هذه السنة كان البَرْد الشديد.

* * *

وحجّ بالناس - في قول بعضهم - في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وفي قول بعضهم: حجّ بهم في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس؛ وكان المأمون ولاّه اليمن، وجعل إليه ولاية كلّ بلدة يدخلها حتى يدخل إلى اليمَن، فخرج من دمشق حتى قدم بغداد، فصلّى بالناس بها يوم الفطْر، فشخص من بغداد يوم الإثنين لليلةٍ خلَتْ من ذي القَعْدة، وأقام الحجّ للناس[1].

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ظَفرُ الأفشيْن فيها بالبِيمَا؛ وهي من أرض مصر، ونزَل أهلها بأمان

---

(١) ذكر الطبري هنا قولين في الحج ونادراً ما حدث ذلك ولم ينفرد الطبري بذكر هذا الاختلاف في تعيين أمير الحج لهذه السنة (٢١٦) فقد ذكر خليفة أن الذي أقام الحج عبد الله بن عبد الله بن العباس (تأريخ خليفة/ ٣١٥) تأييداً لقول الطبري الأول.
بينما ذكر البسوي أن الذي حجّ بالناس هذه السنة هو عبد الله بن عبيد الله تأييداً للإحتمال الثاني الذي ذكره الطبري (انظر المعرفة والتأريخ/ ١/ ٦٦).

على حُكم المأمون ، قُرِئَ كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر .

وورد المأمون فيها بمصر في المحرّم ، فأُتيَ بعبدوس الفهريّ فضرب عنقه ، وانصرف إلى الشام[١] .

* * *

ذكر الخبر عن قتل عليّ وحسين ابني هشام

وفيها قتل المأمون ابني هشام عليّاً وحُسيناً بأذَنَة في جمادى الأولى[٢] .

ذكر الخبر عن سبب قتله عليّاً :

وكان سبب ذلك ، أنّ المأمون لِلّذي بلغه من سوء سيرته في أهل عمله الذي كان المأمون ولاّه ـ وكان ولاّه كُور الجبال ـ وقتلِه الرجال ، وأخذِه الأموال؛ فوُجّه إليه عُجيف ، فأراد أن يفتك به ويلحق ببابك ، فظفر به عُجيف ، فقدم به على المأمون ، فأمر بضرب عنقه ، فتولى قتله ابن الجليل . وتولّى ضربَ عُنُق الحسين محمد بن يوسف ابن أخيه بأذَنَة ، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيتْ من جمادى الأولى ، ثم بعث رأس عليّ بن هشام إلى بغداد وخُراسان ، فطِيف به ، ثم رُدّ إلى الشام والجزيرة فطِيف به كورةً كورةً ، فقدم به إلى دمشق في ذي الحجة ، ثم ذهب به إلى مصر ، ثم ألقيَ بعد ذلك في البحر .

وذُكر أن المأمون لما قتل عليّ بن هشام ، أمر أن يكتب رقعة وتُعلَّق على رأسه ليقرأها الناس؛ فكتب :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان قد دعا عليّ بن هشام فيمن دعا من أهل

---

(١) أما قدوم المأمون إلى مصر في هذه السنة فثابت إذ أيد الطبري فيه البسوي فقال: وكان المأمون قدم مصر في المحرم فأقام بها شهراً أو بعض شهر. (المعرفة والتأريخ/ ١/ ٦٧/ سنة ٢١٧ هـ) ولم يتحدث عن عبدوس الفهري ومقتله.

(٢) وقال خليفة فيها قتل علي بن هشام (تأريخ خليفة أحداث سنة ٢١٧/ ص ٣١٥).

وأما عن سبب مقتله فقد ذكر الطبري عن سوء سيرته في الناس وما إلى ذلك مما لم نجده عند غيره والله أعلم.

وقال ابن قتيبة: وفي هذه السنة قدم عليه عجيف بـ(علي بن هشام) فقتله وأخاه (المعارف/ ١٩٩).

خُراسان أيام المخلوع ، إلى معاونته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة . فرعى أمير المؤمنين ذلك واصطنعه ، وهو يظنّ به تقوى الله وطاعتَه والانتهاء إلى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسند إليه في حسن السيرة وعفاف الطُّعمة ، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه ، فولاّه الأعمال السنيّة ، ووصله بالصلات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها ، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمدّ يده إلى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة ، فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقالَ أميرَ المؤمنين عثْرَته فأقاله إيّاها ، وولاّه الجبل وأذرَبيجان وكُور أرمينيَة ، ومحاربة أعداء الله الخرّميّة ، على ألا يعود لما كان منه؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدّرهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة وعسْف الرعيّة وسفك الدماء المحرّمة ، فوجّه أمير المؤمنين عُجيف بن عَنْبسة مباشراً لأمره ، وداعياً إلى تلافي ما كان منه؛ فوثب بعُجَيف يري قتله فقوّى الله عُجيفاً بنيّته الصادقة في طاعة أمير المؤمنين؛ حتى دفعه عن نفسه ، ولو تم ما أراد بعُجَيف لكان في ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال؛ ولكنّ الله إذا أراد أمراً كان مفعولا . فلما أمضى أميرُ المؤمنين حكم الله في عليّ بن هشام ، رأى ألا يؤاخذ مَنْ خلفه بذنبه ، فأمر أن يجري لولده وعياله ولمن اتصل بهم ومَنْ كان يجري عليهم مثل الذي كان جارياً لهم في حياته؛ ولولا أن عليّ بن هشام أراد العُظمى بعُجيف ، لكان في عداد مَنْ كان في عسكره ممن خالف وخان ، كعيسى بن منصور ونظرائه . والسلام .

وفي هذه السنة دخل المأمونُ أرضَ الرّوم ، فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها وخلّف عليها عُجَيفاً ، فاختدعه أهلُها وأسروه؛ فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ، ثم أخرجوه ، وصار تَوْفيل إلى لؤلؤة ، فأحاط بعُجَيف ، فصرف المأمون الجنود إليه ، فارتحل تَوْفيل قبل موافاتهم ، وخرج أهل لؤلؤة إلى عُجيف بأمان[1] .

---

(١) هذا الخبر من قوله (وفي هذه السنة دخل المأمون أرض الروم . . . إلى قوله وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان) له ما يؤيده عند البسوي إذ قال : وخرج منها ـ أي من مصر ـ متوجهاً إلى طرسوس وغزا أرض الروم وأقام على لؤلؤة ولم يفتحها ثم فتحها عجيف بعده (المعرفة/ ١/ ٦٧) .

=

كتاب توفيل إلى المأمون وردّ المأمون عليه

وفيها كتَب تَوْفيل صاحب الرُّوم إلى المأمون يسأله الصلح ، وبدأ بنفسه في كتابه ، وقدم بالكتاب الفضل وزير توْفيل يطلب الصلح ، وعرض الفدية.

وكانت نسخة كتاب توفيل إلى المأمون:

أما بعد؛ فإن اجتماع المختلفين على حظِّهما أوْلى بهما في الرأي مما عاد بالضّرر عليهما؛ ولستَ حريّاً أن تَدع لحظٍّ يصل إلى غيرك حظّاً تحوزُه إلى نفسك ، وفي علمك كافٍ عن إِخبارك؛ وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كلّ واحد لكل واحد وليّاً وحزباً؛ مع اتصال المرافق والفُسَح في المتاجر ، وفكّ المستأسر ، وأمن الطريق والبَيْضة؛ فإن أبيتَ فلا أدِبّ لك في الخمَر ، ولا أزخرف لك في القول؛ فإني لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها؛ شانٌّ خيلَها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدّمت المعذرة ، وأقمت بيني وبينك عَلَم الحجّة. والسلام.

فكتب إليه المأمون:

أما بعد؛ فقد بلغني كتابُك فيما سألتَ من الهدنة ، ودعوتَ إليه من الموادَعة ، وخلطت فيه من اللِّين والشدّة؛ مما استعطفتَ به؛ من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفكّ الأسارى ، ورفع القَتْل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤَدة والأخذ بالحظّ في تقليب الفكرة ، وألاّ أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه ، لجعلت جوابَ كتابك خيلاً تحمل رجالا من أهل البأس والنّجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثُكلكم ، ويتقرّبون إلى الله بدمائكم ، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العُدّةِ والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم؛ موعدُهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة ، أو كريم منقلَب؛ غير أني رأيت أن أتقدّم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك

= وقال ابن قتيبة الدينوري وفيها ـ أي سنة ٢١٧ هـ ـ فتحت لؤلؤة (المعارف/ ١٩٩).

الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفيّة؛ فإن أبيتَ ففدية توجب ذمّة، وتُثبت نَظرة، وإن تركتَ ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يُغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى.

* * *

وفيها صار المأمون إلى سَلَغُوس.

وفيها بعث عليّ بن عيسى القميّ جعفر بن داود القميّ فضرب أبو إسحاق بن الرّشيد عنقَه.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ[١].

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من شخوص المأمون من سَلَغُوس، وقتله بها ابنَ أخت الداري.

وفيها أمر بتفريغ الرّافقة لينزلها حشمه، فضجّ من ذلك أهلها فأعفاهم.

وفيها وجّه المأمون ابنَه العباس إلى أرض الرّوم، وأمره بنزول الطُّوانة وبنائها، وكان قد وجّه الفَعَلة والفروض، فابتدأ البناء، وبناها ميلاً في ميل، وجعل سورَها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كلّ باب حصْناً؛ وكان توجيهُه ابنَه العباس في ذلك في أوّل يوم من جمادى[٢].

وكتب إلى أخيه أبي إسحاق بن الرّشيد؛ أنه قد فرض على جُند دمشق وحمْص والأردُنّ وفلسطين أربعة آلاف رجل، وأنه يجرى على الفارس مائة درهم، وعلى الرّاجل أربعين درهم، وفرضَ على مصر فَرْضاً، وكتب إلى العباس بمَنْ فَرضَ

---

(١) وكذلك قال خليفة (تأريخ خليفة/ ٣١٥).

(٢) لهذا الخبر (خبر توجيه المأمون ابنه العباس إلى الطوانة وبناءها.. أو بتعبير أدق بإعادة بناءها) كما ذكر (الحافظ بن كثير) أيده ابن قتيبة الدينوري في المعارف (١٩٩) دون ذكرٍ للتفاصيل التي ذكرها الطبري، وانظر المنتظم (١١/ ١٥).

على قِنَّسرين والجزيرة ، وإلى إسحاق بن إبراهيم بمن فرض على أهل بغداد وهم ألفا رجل ، وخرج بعضهم حتى وافَى طُوانة ونزلها مع العباس.

* * *

ذكر خبر المحنة بالقرآن(١)

وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدّثين ، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرّقّة؛ وكان ذلك أوّل كتاب كتب في ذلك ، ونسخة كتابه إليه:

أما بعد؛ فإن حقّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهادُ في إقامة دين الله الذي استحفظهم ، ومواريث النبوّة التي أورثهم ، وأثْرِ العلم الذي استودعهم ، والعملُ بالحقّ في رعيّتهم والتشمير لطاعة الله فيهم ، واللهَ يسألَ أميرَ المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرّشد وصريمته والإقساط فيما ولاّه الله من رعيّته برحمته ومنّته. وقد عرف أمير المؤمنين أنّ الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حَشْو الرعية وسفْلة العامة ممن لا نظَر له ولا رويّة ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهلُ جهالة بالله ، وعمّي عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به. ونكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصورٍ أن يقدروا الله حقّ قدره ، ويعرفوه كنهَ معرفته ، ويفرّقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكّر والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتّفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم أوّل لم يخلقه الله ويُحْدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاءً ، وللمؤمنين رحمةً وهدىً: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ، فكلُّ ما جعله الله فقد خلقه ، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ ، وقال عزّ وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ، فأخبر أنه

---

(١) خبر محنة الأئمة بالقرآن زمن المأمون معروف ـ ولكن هذه الرسائل المتبادلة بين المأمون ونائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم ـ انفرد بذكرها الطبري من بين المؤرخين المتقدمين الثقات وذكرها بلا إسناد فكيف لنا أن نتأكد من صحتها وفي نسبتها إلى المأمون شك والله أعلم.

قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدّمها ، وقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، وكل محكَمٍ مفصَّل فله محكِم مفصِّل ، والله محكم كتابه ومفصله؛ فهو خالقه ومبدعه.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كلّ فصل من كتاب الله قصَص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذّب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونِحْلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحقّ والدين والجماعة ، وأن مَنْ سواهم أهل الباطل والكفر والفُرْقة ، فاستطالوا بذلك على النّاس ، وغرّوا به الجهّال حتى مال قوم من أهل السَّمْت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشّف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزيّناً بذلك عندهم وتصنّعاً للرياسة والعَدالة فيهم فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتّخذُوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبِلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دَغَل دينهم ، ونَغَل أديمهم ، وفساد نيّاتهم ويقينهم. وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروْا ، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم ، وقد أخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلا الحقّ ، ودَرَسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمّهُمُ الله وأعمى أبصارهم ، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

فرأى أمير المؤمنين أنَّ أولئك شرُّ الأمة ورؤوس الضّلالة ، المنقوصون من التوحيد حظّاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه؛ من أهل دين الله ، وأحقّ من يُتّهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، لا يوثَق بقوله ولا عمله؛ فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقينَ إلاّ بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، ومن عَميَ عن رُشْده وحظّه من الإيمان بالله وبتوحيده؛ كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمَى وأضلّ سبيلا. ولعمرُ أمير المؤمنين إنَّ أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخرّص الباطل في شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإنّ أولاهم بردّ شهادته في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه ، وبَهت حق الله بباطله.

فاجمعْ من بحضرتك من القُضاة ، واقرأ عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا

إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله ، واستحفظه من أمور رعيّته بمن لا يوثَق بدينه وخلوص توحيده ويقينه؛ فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة. فمرهم بنصّ من يحضُرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدَث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم؛ والأمر لهم بمثل ذلك؛ ثم أشرف عليهم وتَفَقَّد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدّين والإخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك. إن شاء الله.

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين.

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر ، منهم محمد ابن سعد كاتب الواقديّ ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن الدّوْرقيّ؛ فأشخِصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلْق القرآن ، فأجابوا جميعاً إن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه ، فشهر أمرهم وقولهم بحضْرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقرُّوا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلَّى سبيلهم. وكان ما فعل من ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون(١).

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم(٢):

أما بعدُ؛ فإنّ من حق الله على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعايةَ خلْقه وإمضاء حكمه وسُنَنه والائتمام بعدله

---

(١) هؤلاء من أئمة أهل السنة والجماعة ولم يكونوا من المعتزلة وإن كان صحيحاً أنهم أجابوا بحضرة الخليفة أن القرآن مخلوق فقد قالوها كرهاً وخوفاً على أنفسهم لا إيماناً بها وتراجمهم تشهد لهم بذلك وانظر تعليقنا فيما بعد.

(٢) هذا الخبر الطويل (٢٧٧ ـ ٢٨٦) خبر خير صحيح في أغلب تفاصيله وانظر تعليقنا في نهاية الرواية ومتعلقاتها (ص٢٨٦).

في بريته ، أن يُجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه ـ تبارك اسمه وتعالى ـ بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردّوا مَنْ أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم ، ويقِفوهم على حدود إيمانهم وسبيلِ فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم مغطّيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الرِّيب عنهم ، ويعود بالضياء والبيِّنة على كافّتهم ، وأن يؤثِرُوا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذْ كان جامعاً لفنون مصانعهم ، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكَّروا ما الله مُرصدٌ من مساءلتهم عمّا حُمِّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحدَه ، وحسبه الله وكفى به. ومما بيّنه أمير المؤمنين برويّته ، وطالعه بفكره ، فتبيّن عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكْفه وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله ﷺ وصفيّه محمد ﷺ باقياً لهم ، واشتباهه على كثير منهم؛ حتى حسن عندهم ، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرّد بجلالته؛ من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته ، والتقدّم عليها بأوليّته التي لا يُبلَغ أولاها ، ولا يدرك مداها؛ وكان كل شيء دونه خَلْقاً من خلقه ، وحدَثاً هو المحدِث له؛ وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهَوْا به قول النصارى في دعائهم في عيسى بن مريم: إنه ليس بمخلوق؛ إذ كان كلمة الله ، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ ، وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جلّ جلاله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ، فسوّى عزّ وجلّ بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ، وأَخبر عن قوم ذمَّهم بكذبهم أَنهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ، ثم أَكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ ، فسمّى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدىً ومباركاً وعربيّاً

وقصصاً ، فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ ، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ ، وقال: ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ ، وقال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فجعل له أولاً وآخراً ، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق.

وقد عظّم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثّلْمَ في دينهم ، والحرجَ في أمانتهم ، وسهلوا السبيلَ لعدوّ الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا ووصفوا خَلْق الله وفعله بالصّفة التي هي لله وحده ، وشبّهوه به ، والاشتباهُ أولى بخلقه. وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظّاً في الدّين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلّ أحداً منهم محلّ الثقة في أمانة ، ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرّعيّة ، وإن ظهر قصْد بعضهم ، وعُرف بالسداد مسدّدٌ فيهم؛ فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمْد والذّم عليها؛ ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سوّاه أعظم جهلا ، وعن الرّشد في غيره أعمى وأضلّ سبيلا.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك ، وانصصها عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلاّ بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقرّ بأن القرآن مخلوق فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدّمْ إليهما في امتحان مَنْ يحضر مجالسهما بالشّهادات على الحقوق ، ونصّهم عن قولهم في القرآن؛ فمن لم يقلْ منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكماً بقوله؛ وإن ثبت عفافُه بالقصد والسّداد في أمره. وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرِف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. إن شاء الله.

قال: فأحضر إسحاقُ بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدّثين ، وأحضر أبا حسان الزياديّ وبشر بن الوليد الكنديّ وعليّ بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذيّال بن الهيثم وسجّادة والقواريريّ وأحمد بن

حنبل وقُتيبة وسعدويه الواسطيّ وعليّ بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهرْش وابن عُلَيّة الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمريّ وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضي الرقة ـ وأبا نصر التّمارِ وأبا مَعْمَر القطيعيّ ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفَرُّخان ، وجماعة منهم النضْر بن شُمَيل وابن عليّ بن عاصم وأبو العوام البزّاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعاً على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتيْن حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقولُ في القرآن؟ فقال: قد عرّفتُ مقالتي لأمير المؤمنين غير مرّة؛ قال: فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال: أقول: القرآن كلام الله ، قال: لَمْ أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كلّ شيء ، قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء ، قال: فمخلوق؟ قال: ليس بخالق ، قال: ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال: ما أحسِنُ غيرَ ما قلت لك ، وقد استعهدتُ أمير المؤمنين ألاّ أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك. فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعةً كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقّفَه عليها ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرْداً ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنىً من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال: نعم؛ وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعليّ بن أبي مقاتل: ما تقول يا عليّ؟ قال: قد سمَّعتُ كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرّة وما عندي غير ما سمع ، فامتحنه بالرقعة فأقرّ بما فيها ، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله ، قال: لم أسألك عن هذا ، قال: هو كلام الله؛ وإن أمَرَنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيّال نحواً من مقالته لعليّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك.

ثم قال لأبي حسان الزياديّ: ما عندك؟ قال: سلْ عما شئت ، فقرأ عليه الرّقعة ووقّفه عليها ، فأقرّ بما فيها ، ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله والله خالق كلّ شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامّة العلم ، وقد سمع ما لم

نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامةً ، إن أمرَنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا. قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال: قد تكونُ مقالة أمير المؤمنين ولا يأمرُ بها الناس ولا يدعوهم إليها؛ وإن أخبرتَني أن أمير المؤمنين أمرَك أن أقول ، قلتُ ما أمرتَني به؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتَني عنه من شيء؛ فإن أبلغتَني عنه بشيء صرت إليه ، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال عليّ بن أبي مقاتل: قد يكون قولُه كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة ، فمرني آتمر ، قال: ما أمرني أن آمرك؛ وإنما أمرني أن أمتحنَك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله ، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنَه بما في الرّقعة ، فلما أتى على ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكّاء الأصغر ، فقال: أصلحك الله! إنه يقول: سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؟ قال: هو كما وصف نفسه ، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري ، هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلا رجلا ، كلهم يقول: القرآن كلام الله ، إلا هؤلاء النفر: قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابنُ عليّة الأكبر وابن البكّاء وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبّه والمظفّرين مُرَجّأ ، ورجلا ضريراً ليس من أهل الفقه ، ولا يعرَف بشيء منه ، إلا أنه دُسّ في ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرّقة ، وابن الأحمر؛ فأما ابنُ البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ والقرآن محدَث لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم ، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول؛ فكتب مقالته.

فلمّا فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكّاء الأصغر ، فقال: أصلحك الله! إنَّ هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما ممّن يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال: فلو أمرتَهما أن يُسمعانا مقالتهما ، لنحكي ذلك عنهما! قال له إسحاق: إنْ شهدت عندهما بشهادة ، فستعلم مقالتهما إن شاء الله.

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً ، ووُجّهت إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام؛ ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم ، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد؛ فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جواب كتابه كان إليك ، فيما ذهب إليه متصنّعةُ أهل القبْلة وملتمسو الرّئاسة ، فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم وإحلالهم محالَّهم. تذكر إحضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممّن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعاً كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظِّهم ، وإطباقهم على نفي التشبيه واختلافهم في القرآن ، وأمرك مَنْ لم يقل منهم إنه مخلوق الإمساك عن الحديث والفتوى في السرّ والعلانية ، وتقدّمك إلى السنديّ وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدّمت به فيهم إلى القاضييْن بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين من امتحان مَنْ يحضر مجالسهما من الشهود ، وبثّ الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أميرُ المؤمنين ، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصتَ.

وأمير المؤمنين يحمَد الله كثيراً كما هو أهله ، ويسأله أن يصلِّيَ على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغبُ إلى الله في التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيّته برحمته. وقد تدبّر أميرُ المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء مَنْ سألت عن القرآن ، وما رجع إليه فيه كلّ امرئ منهم ، وما شرحت من مقالتهم.

فأمّا ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه ، وما أمسك عنه من أنّ

القرآن مخلوق ، وادّعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أميرَ المؤمنين؛ فقد كذب بشر في ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهدٌ ولا نظرٌ أكثر من إخباره أميرَ المؤمنين من اعتقاده كلمةَ الإخلاص ، والقول بأنّ القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أميرُ المؤمنين من ذلك ، وأنصِصْه عن قوله في القرآن ، واستتبْه منه؛ فإنّ أمير المؤمنين يرى أن تستتيب مَن قال بمقالته؛ إذ كانت تلك المقالة الكفر الصّراح ، والشّرْك المحض عند أمير المؤمنين؛ فإن تاب منها فأشهر أمره ، وأمسك عنه؛ وإن أصرّ على شركه ، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهديّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً؛ فإنه كان يقول بقوله. وقد بلغت أميرَ المؤمنين عنه بوالغ؛ فإن قال: إنّ القرآن مخلوق فأشهرْ أمره واكشفه؛ وإلاّ فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وأما عليّ بن أبي مقاتل ، فقلْ له: ألستَ القائل لأمير المؤمنين؛ إنّك تُحلّل وتحرّم ، والمكلّم له بمثل ما كلّمته به؛ مما لم يذهب عنه ذكره!

وأما الذيّال بن الهيثم؛ فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله؛ وأنّه لوكان مقتفياً آثار سلفه؛ وسالكاً مناهجهم ، ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوّام ، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيّ في عقله لا في سنّه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيُحسنه إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك؛ إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه؛ فأعلمه أنّ أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيلَه فيها ، واستدلّ على جهله وآفته بها.

وأما الفضلُ بن غانم؛ فأعلمه أنه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال في أقلّ من سنة ، وما شجرَ بينه وبين المطّلب

ابن عبد الله في ذلك؛ فإنه مَنْ كان شأنَه شأنه ، وكانت رغبته في الدّينار والدرهم رغبته ، فليس بمستنكَر أن يبيع إيمانَه طمعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك القائل لعليّ بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه؛ فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره!

وأما الزّياديّ ، فأعلمه أنه كان منتحلاً ، ولا كأوّل دَعيٍّ كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جديراً أن يسلك مسلَكه ، فأنكر أبو حسّان أن يكون مولىً لزياد أو يكون مولىً لأحد من الناس؛ وذُكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمّار؛ فإن أمير المؤمنين شبّه خسَاسة عقله بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفرُّخَان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربُّصاً بمن استودعه ، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيلَ عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقلْ لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا واتِّمانك إياه ، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمَر؛ فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الرّبا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لاستحلّ ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شرْكاً ، وصار للنصارى مثلاً!

وأما أحمد بن شجاع؛ فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه ما استخرجتَه من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام؛ وأنه ممّن الدينار والدرهم دينُه.

وأما سَعدويه الواسطيّ ، فقل له: قبح الله رجلا بلغ به التَصنّع للحديث ، والتزين به ، والحِرْص على طلب الرئاسة فيه: أن يتمنّى وقت المحنة ، فيقول بالتقرّب بها متى يمتحن ، فيجلس للحديث!

وأما المعروف بسجّادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممّن كان يجالس من أهل

الحديث وأهل الفقه القول بأنّ القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النّوى وحكّه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه عليّ بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه؛ إن كان شاهدَهما وجالسهما.

وأما القواريريّ؛ ففيما تكشّف من أحواله وقبوله الرّشا والمصانعات ، ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه؛ وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحسنيّ مسائله ، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في رفضِه ، وترك الثقة به والاستنامَة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ؛ فإن كان من ولد عمر بن الخطاب ، فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم ، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلَفه ، لم ينتحل النّحلة التي حُكيت عنه ، وإنه بعدُ صبيّ يحتاج إلى تعلم.

وقد كان أمير المؤمنين وجّه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن محنته في القرآن ، فجمجم عنها ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقرّ ذميماً ، فأنصِصْه عن إقراره؛ فإن كان مقيماً عليه فأشهرْ ذلك وأظهره؛ إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميتَ لأمير المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا؛ ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهديّ فاحملهم أجمعين موثَقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم: حتى يؤدّيهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلِّمهم إلى مَنْ يؤمَن بتسليمهم إليه ، لينصّهم أمير المؤمنين؛ فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف ، إن شاء الله ، ولا قوّة إلا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُنداريّة؛ ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطيّة ، معجّلا به ، تقرَّباً إلى الله عزَّ وجلَّ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمّل من جزيل ثواب الله عليه؛ فأنفذ لما أتاك من أمر

المؤمنين ، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُنْداريّة مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرّف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة ثمان عشرة ومائتين.

فأجاب القوم كلُّهم حين أعاد القول عليهم إلى أنّ القرآن مخلوق ، إلاّ أربعة نفر؛ منهم أحمد بن حنبل وسجّادة والقواريريّ ومحمد بن نوح المضروب. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشُدّوا في الحديد؛ فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجّادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قَيْده وخلّى سبيلَه ، وأصرَّ الآخرون على قولهم؛ فلمّا كان من بعد الغد عاودهم أيضاً ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريريّ إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده ، وخلّى سبيله ، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، ولم يرجعا ، فشُدّا جميعاً في الحديد ، ووُجّها إلى طَرَسُوس ، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما ، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه. فمكثوا أياماً ، ثمّ دعا بهم فإذا كتابٌ قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم ، أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه ، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أنّ بشر بن الوليد تأوّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقد أخطأ التأويل؛ إنما عنى الله عزّ وجلّ بهذه الآية مَنْ كان معتقد الإيمان ، مظهرَ الشرك ، فأما مَنْ كان معتقدَ الشّرك مظهر الإيمان؛ فليس هذه له ، فأشخصْهم جميعاً إلى طَرَسُوس؛ ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم.

فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكُفلاء ليوافُوا العسكر بطَرسوس ، فأشخص أبا حسان وبشر بن الوليد والفضل بن غانم وعليّ بن أبي مقاتل والذّيال بن الهيثم ويحيى بن عبد الرحمن العمريّ وعليّ بن الجَعْد وأبا العوَّام وسجّادة والقواريريّ وابن الحسن بن عليّ بن عاصم وإسحاق بن أبي إسرائيل والنّضْر بن شُميل وأبا نصر التمار وسعدويه الواسطيّ ومحمد بن حاتم بن ميمون وأبا معمَر وابن الهرْش وابن الفرُّخان وأحمد بن شجاع وأبا هارون بن البكّاء. فلما صاروا إلى الرَّقة بلغتهم وفاة المأمون: فأمر بهم عنبسة بن إسحاق ـ وهو والي الرَّقة ـ أن يصيروا إلى الرَّقة ، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة

السلام مع الرسول المتوجّه بهم إلى أمير المؤمنين ، فسلّمهم إليه ، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم ، ثم رخّص لهم بعد ذلك في الخروج ، فأما بشر بن الوليد والذّيال وأبو العوّام وعليّ بن أبي مقاتل؛ فإنهم شخصوا من غير أن يؤذَن لهم حتى قدموا بغداد ، فلقوا من إسحاق بن إبراهيم في ذلك أذىً ، وقدم الآخرون مع رسول إسحاق بن إبراهيم؛ فخلى سبيلهم[1] .

* * *

(١) هذا الخبر الطويل للطبري استغرق الصفحات (٦٣٤ ـ ٦٤٤) أي ما يقرب من عشر صفحات فيها أجوبة متبادلة بين المأمون ونائبه ببغداد وفيه أقوال وأجوبة للعلماء الأفاضل وفي مقدمتهم عالم أهل السنة والجماعة وإمامهم أيام المحنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وقد انفرد الطبري بذكر هذا الخبر الطويل دون غيره من المؤرخين المتقدمين الثقات: وفي نسبة ما ورد فيها من مقال وتهجّم إلى المأمون نظر وألف نظر للأسباب التالية:
أولاً: كانت المحنة في بدايتها ولم يبلغ الأمر من الشدة إلى هذا الحدّ حتى يُغلظ المأمون في ردّه على العلماء المخالفين لرأيه وإنما اشتد الصراع في عهد المعتصم كما سنرى إن شاء الله.
ثانياً: لم يكن المعروف عن المأمون التسرُّع والتهوّر والشدة والغلظة مع رعيته فكيف مع العلماء ، وكان صاحب أدب رفيع في الكلام والخطاب فلم يعرف عنه استخدام الكلمات النابية بل كان أديباً شاعراً راوياً للحديث ويروى عنه الحديث ، وينتقي لكلامه العبارات الجميلة والمؤثرة أما أن يبحث عن عيوب العلماء الشخصية أو يتهمهم بالبخل أو الربا أو الانتساب كذباً وزوراً وغير ذلك من الأمور التي تخدش في عدالة الراوي ناهيك عن كونه إماماً فاضلاً صالحاً والحق يقال فإن أحد المبتدعة ممن لا شغل له إلا الغمز واللمز قد جلس وتمعّن وفكّر فأنتج فكره الخبيث هذه العبارات ثم روّج لها بين الناس فالتقطها الأخباريون الجماعون ثم سجّلها الطبري كعادته في تسجيل كل ما تسمع به أذناه من الأخبار سقيمها أو صحيحها وإن كانت مستشنعة لا أصل لها من الصحة حسب تعبيره هو.
ثالثاً: لم يبلغ الصراع يوماً بين أئمة أهل السنة والجماعة وخصومهم أو قل لم يبلغ الصراع يومها بين أصحاب الآراء المختلفة والمذاهب أن ينعتوا من لم يقل بخلق القرآن بأنه معتقد الشرك وأنه لا إيمان له وما إلى ذلك ، كل ما في الأمر أن المأمون ارتكب خطيئة كبيرة وذلك من سوء مصيبته أن عمد إلى أمور العقيدة فخاض فيها واقتنع برأي بعض رؤوس المعتزلة وخاصة في مسألة خلق القرآن فأراد من حرصه على الإسلام وأهله ـ حسب تصوره ـ أن يفرض ما اقتنع به من البدعة على رعيته فبدأ بالعلماء فبدأت محنتهم عندها فكان أن صبر منهم من صبر وصمد كالطود الشامخ وفي مقدمتهم إمام السنة يوم المحنة أحمد بن حنبل الذي قال فيه الشافعي (شيخه): خرجت من العراق فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل (تأريخ بغداد/ ٤/ ٤١٩). =

كتب المأمون إلى عماله ووصيته في كتبه

وفي هذه السنة نُفّذت كتبُ المأمون إلى عمّاله في البلدان: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي أسحاق بن أمير المؤمنين الرّشيد. وقيل إنّ ذلك لم يكتبه المأمون كذلك؛ وإنما كتب في حال إفاقة من غَشْيَةٍ أصابته في مرضه بالبَدَندُون، عن أمر المأمون إلى العباس بن المأمون، وإلى إسحاق وعبد الله بن طاهر؛ أنه إن حدَث به حدَث الموت في مرضه هذا، فالخليفة من بعده أبو إسحاق بن أمير المؤمنين الرّشيد. فكتب بذلك محمد بن داود، وختم الكتب وأنفذها.

فكتب أبو إسحاق إلى عمّاله: من أبي إسحاق أخِي أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين.

فورد كتاب من أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد إلى إسحاق بن يحيى بن مُعاذ عامله على جند دمشَق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلتْ من رجب، عنوانه: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد: أما بعد؛ فإن أميرَ المؤمنين أمرَ بالكتاب إليك في التقدّم إلى عمّالك في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل عملك، فتقدم إلى عمّالك في ذلك أشدّ التقدمة، واكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك.

وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام؛ جند حمصْ والأردنْ وفلسطين بمثل ذلك؛ فلما كان يوم الجمعة إحدى عشرة بقيتْ من رَجب صلى الجمعة إسحاق بن

= رابعاً: ورد في المقطع الأخير من الخبر (٨/ ٦٤٥) اسم من كان متوفياً قبل هذه السنة بعقد من الزمان أو يزيد فهل أُحضِر ميتاً؟؟! فقد مات النضر بن شميل سنة ٢٠٤ هـ (تقريب التهذيب/ تر ٨٠٣٥) بينما تقول الرواية أن إسحاق بن إبراهيم نائب العراق أشخصه فيمن أشخصهم إلى المأمون سنة ٢١٨ هـ، ورحم الله أئمة الجرح والتعديل إذ بيّنوا التأريخ لتأريخ الولادة والوفاة والرحلات، فتبيّن عوار الروايات الموضوعة.

وكذلك ذكر ابن علية الكبير من بين العلماء الذين طلبهم المأمون فإن كان يعني به الإمام إسماعيل بن علية فقد توفي أيام الأمين سنة ١٩٣ هـ أي قبل هذه المحنة بـ (٢٥) عاماً والله أعلم.

يحيى بن مُعاذ في مسجد دمشق ، فقال في خطبته بعد دعائه لأمير المؤمنين: اللهمّ وأصلح الأميرَ أخا المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد.

* * *

ذكر الخبر عن وفاة المأمون

وفي هذه السنة توفّيَ المأمون.

ذكر الخبر عن سبب المرض الذي كانت فيه وفاته

ذُكر عن سعيد العلاّف القارئ ، قال: أرسل المأمون وهو ببلاد الرّوم ـ وكان دخلها من طَرسُوس يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة ـ فحُملتُ إليه وهو في البَدندون؛ فكان يستقرئني ، فدعاني يوماً ، فجئتُ فوجدته جالساً على شاطئ البدندون؛ وأبو إسحاق المعتصم جالس عن يمينه ، فأمرني فجلست نحوه منه؛ فإذا هو وأبو إسحاق مدلّيان أرجلهما في ماء البدندون ، فقال: يا سعيد ، دَلّ رجليْك في هذا الماء وذقه؛ فهل رأيت ماء قطّ أشد برداً ، ولا أعذب ولا أصفى صفاء منه! ففعلت وقلت: يا أميرَ المؤمنين ، ما رأيت مثل هذا قطّ ، قال: أيّ شيء يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء عليه؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم ، فقال: رُطَب الآزاذ؛ فبينا هو يقول هذا إذا سمع وقع لُجم البريد فالتفتَ ، فنظر فإذا بغالٌ من بغال البريد ، على أعجازها حقائب فيها الألطاف ، فقال لخادم له: اذهب فانظر: هل في هذه الألطاف رُطَب؟ فانظره ، فإن كان آزاذ فأت به؛ فجاء يسعى بسلّتين فيهما رطب آزاذ ، كأنما جُنِي من النخل تلك الساعة؛ فأظهر شكراً لله تعالى؛ وكثر تعجُّبُنا منه ، فقال: ادن فكل ، فأكل هو وأبو إسحاق ، وأكلت معهما ، وشربْنا جميعاً من ذلك الماء؛ فما قام منا أحد إلا وهو محمومٌ؛ فكانت منيّة المأمون من تلك العلّة؛ ولم يزل المعتصم عليلاً حتى دخل العراق ، ولم أزل عليلا حتى كان قريباً.

ولما اشتدّت بالمأمون علّته بعث إلى ابنه العباس ، وهو يظنّ أن لن يأتيَه ، فأتاه وهو شديد المرض متغيّر العقل ، قد نُفّذت الكتب بما نُفذت له في أمر

أبي إسحاق بن الرشيد ، فأقام العباس عند أبيه أياماً ، وقد أوصى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق .

وقيل : لم يوصِ إلاّ والعباس حاضر ، والقضاة والفقهاء والقوّاد والكتاب ، وكانت وصيته : هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بحضْرة مَنْ حضره ؛ أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يَشهد ومَنْ حضره أن الله عز وجلّ وحده لا شريك له في ملكه ، ولا مدبّر لأمره غيره ، وأنه خالقٌ وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل ؛ ولا شيء مثله تبارك وتعالى ، وأن الموت حقّ ، والبعث حقّ ، والحساب حقّ ، وثواب المُحسن الجنة وعقاب المُسيء النار ، وأن محمداً ﷺ قد بلَّغ عن ربّه شرائعَ دينه ، وأدّى نصيحته إلى أمته ؛ حتى قبضه الله إليه ﷺ أفضل صلاة صلاّها على أحد من ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين ، وأني مقرّ مذنب ، أرجو وأخاف ؛ إلا أني إذا ذكرت عفْوَ الله رجوتُ ؛ فإذا أنا متّ فوجِّهوني وغمّضوني ، وأسبغوا وَضوئي وطهوري ، وأجيدوا كَفني ؛ ثم أكثروا حَمْد الله على الإسلام ومعرفة حقه عليكم في محمد ؛ إذ جعلنا من أمّته المرحومة ، ثم أضجعوني على سريري ، ثم عجّلوا بي ؛ فإذا أنتم وضعتموني للصلاة ؛ فليتقدّم بها من هو أقربكم بي نسباً ، وأكبركم سنّاً ، فليكبر خمساً ، يبدأ في الأولى في أولها بالحمد لله والثناء عليه والصّلاة على سيّدي وسيد المرسلين جميعاً ، ثم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات ؛ الأحياء منهم والأموات ، ثم الدّعاء للذين سبقونا بالإيمان ، ثم ليكبّر الرابعة ، فيحمد الله ويهلِّله ويكبّره ويسلم في الخامسة ، ثم أقلّوني فأبلغوا بي حُفرتي ، ثم لينزِل أقربكم إليّ قرابةً ، وأودّكم محبة ، وأكثروا من حمد الله وذكره ، ثم ضَعُوني على شقي الأيمن واستقبلوا بيَ القبلةَ ، وحُلُّوا كفني عن رأسي ورجليّ ، ثم سدّوا اللحد باللّبِن ، واحْثوا تراباً عليّ ، واخرجوا عني وخلُّوني وعملِي ؛ فكلكم لا يغني عني شيئاً ، ولا يدفع عني مكروهاً ، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا خيراً إن علمتم ، وأمسِكوا عن ذكر شرٍّ إن كنتم عرفتم ، فإني مأخوذٌ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به ، ولا تدَعُوا باكيةً عندي ؛ فإن المعْوَل عليه يعذّب . رحمَ الله امرأ اتّعظ وفكر فيما حَتّم الله على جميع خلقه من الفناء ، وقضى عليهم من الموت الذي لابد منه ، فالحمد لله الذي توحّد بالبقاء ، وقضى على جميع خلقه الفناء . ثم ليَنظر ما كنتُ فيه من عزّ الخلافة ؛

هل أغنى ذلك عني شيئاً إذ جاء أمر الله! لا والله ، ولكن أضعِف عليّ به بالحسابُ ، فيا ليت عبد الله بن هارون لم يكن بشراً ، بل ليته لم يكن خلقاً! يا أبا إسحاق ، ادنُ منّي ، واتّعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة إذا طوّقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه؛ ولا تغترّ بالله ومهلته؛ فكأنْ قد نزلَ بك الموت. ولا تغفل أمرَ الرّعيّة. الرعيةَ الرعية! العوامّ العوام! فإن المُلْك بهم وبتعهُّدك المسلمين والمنفعة لهم. اللهَ اللهَ فيهم وفي غيرهم من المسلمين! ولا يُنهَينَّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدّمتَه وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضَهم من بعض بالحقّ بينهم ، وقرّبهم وتأنّهم ، وعجل الرّحلة عنِّي ، والقدوم إلى دار مُلْكِك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بِساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت. والخُرَّمية فأغزِهم ذا حزامة وصرامة وجلَد ، وأكْنِفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرّجالة؛ فإن طالت مدتهم فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك عمل مقدّم النّيّة فيه ، راجياً ثواب الله عليه. واعلم أنّ العِظة إذا طالت أوجبتْ على السامع لها والموصى بها الحجّة؛ فاتق الله في أمرك كله ، ولا تُفْتَن.

ثم دعا أبا إسحاق بعد ساعة حين اشتدّ به الوجَع ، وأحسّ بمجيء أمر الله فقال له : يا أبا إسحاق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ لتقومنّ بحق الله في عباده ، ولتؤثرنّ طاعته على معصيته؛ إذ أنا نقلتُها من غيرك إليك؟ قال: قال: اللهم نعم ، قال: فانظر مَنْ كنت تسمعني أقدّمه على لساني فأضعِف له التّقدمة؛ عبد الله بن طاهر أقرّه على عمله ولا تهجْه ، فقد عرفتَ الذي سلفَ منكما أيام حياتي وبحضرتي ، استعطفه بقلبك ، وخُصّه ببرّك ، فقد عرفتَ بلاءه وغنَاءه عن أخيك. وإسحاق بن إبراهيم فأشرِكه في ذلك؛ فإنه أهلٌ له. وأهل بيتك ، فقد علمتَ أنه لا بقيّة فيهم وإن كان بعضهم يظهر الصّيانة لنفسه. عبد الوهاب عليك به من بين أهلك ، فقدّمه عليهم ، وصيّر أمرهم إليه. وأبو عبد الله بن أبي داود فلا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كلّ أمرك فإنه موضع لذلك منك ، ولا تتخذّن بعدي وزيراً تلقى إليه شيئاً؛ فقد علمتَ ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبثْ سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحّة مني ، فصرتُ إلى

مفارقته! قالياً له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً! وهؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبَتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبَلْ من محسنهم ، وصلاتِهم فلا تغفلْها في كلّ سنة عند محلّها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتّى. اتقوا الله ربكم حقّ تقاته ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون. اتقوا الله واعملوا له ، اتقوا الله في أموركم كلها. أستودعكم الله ونفسي وأستغفر الله مما كان مني ، إنه كان غفاراً ، فإنه ليَعْلَمُ كيف ندمِي على ذنوبي ، فعليه توكلت من عظيمها ، وإليه أنيب ولا قوّة إلا بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد نبيّ الهدى والرحمة![1].

---

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٥) وانظر (٨/ ٦٥٠) هذا: المقطع من الخبر (٦٤٩ ـ ٦٥٠) مقطع مشكوك فيه وآثار التأليف والتلفيق عليه واضحة فقد جاء فيها أن المأمون اتهم القاضي يحيى بن أكثم فقال: [فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملته الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني فصرت إلى مفارقته قالياً له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته] (٨/ ٦٤٩).
قلت: المعروف من سيرة القاضي يحيى بن أكثم أنه تولى القضاء ثم كان كالوزير للمأمون وكان مقدماً على غيره عند المأمون ـ لثقة المأمون بدينه وعدله ورجحان عقله ولو أقاله أو طرده لعرف ذلك ولذكره المؤرخون ومنهم الطبري قبل ذكره لهذه الوصية ـ وكثير من الوزراء طردوا أو أبعدوا فذكر الأخباريون ذلك والقاضي يحيى بن أكثم وإن اتهمه بعضهم ـ اعتماداً على من لا يحتج بروايته ـ بتهم شخصية لا علاقة لها بالقضاء والحكم بين الناس وهي تهم ردّها الإمام أحمد وغير واحد ، وبالعكس مما جاء في خبر الطبري فإنه كان شديداً في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم وإليك أقوال الأئمة فيه:
قال الخطيب البغدادي في ترجمته: كان من أئمة الاجتهاد وله تصانيف ، وقال حدث عنه الترمذي وأبو حاتم والبخاري خارج صحيحه وغيرهم ، وقال أيضاً كان واسع العلم باللغة كثير الأدب ، قال الفضل الشعراني سمعت يحيى بن أكثم يقول القرآن كلام الله فمن قال مخلوق يستتاب فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه (تأريخ بغداد/ ١٤/ ١٩٨) وسئل عنه أحمد فقال ما عرفناه ببدعة (تهذيب/ تر ١٤٨٦) ، قال الصولي: سمعت إسماعيل القاضي يعظم شأن يحيى بن أكثم وذكر له يوم قيامه في وجه المأمون لمّا أباح متعة النساء فما زال به حتى رده إلى الحق ونص له الحديث في تحريمه ويعني به حديث مسلم (ح ١٤٠٦) باب نكاح المتعة.

ثم قال القاضي إسماعيل في ردّ التهم الموجّهة إليه (فيما يتعلق بخلقه وسلوكه الشخصي) معاذ الله أن تزول عدالة مثله بكذب باغٍ أو حاسد (انظر تأريخ بغداد/ ١٤/ ٢١٠). =

ذكر الخبر عن وقت وفاته والموضع الذي دفن فيه ومَنْ صلّى عليه ومبلغ سنّه وقَدْر مدة خلافته

قال أبو جعفر: وأما وقت وفاته، فإنه اختُلف فيه، فقال بعضهم: توفِّيَ يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيتْ من رجب بعد العصر سنة ثمان عشرة ومائتين[1].

= وتفصيل حواره مع المأمون: يا أمير المؤمنين وهذا الزهري: روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما محمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه قال: أمرني رسول الله ﷺ بأن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان يأمر بها فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهري؟ فقلنا نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك فقال: استغفر الله نادوا بتحريم المتعة فنادوا بها.. الخ، فسمعت ـ أي الصولي ـ إسماعيل بن إسحاق يقول وقد ذكر يحيى بن أكثم فعظّم أمره وقال كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله وذكر هذا اليوم وانظر تأريخ بغداد (١٤/ ٢٠٠ ـ ١٩١) (طبقات الحنابلة/ ١/ ٤١٣) اتباع الأثر (١٠/ ٣١٦).

قلت خلاصة قول المؤرخين الثقات وأئمة الحديث أنه اتصف بالصفات الآتية:

أولاً: كان صاحب سنة محارباً للبدعة.

ثانياً: كان عادلاً في أقضيته بين الناس.

ومعلوم أن المأمون كان ممن يناصر القضاء العادل حتى أنه قضى بنفسه لامرأة من رعيته على ابنه المعتصم فقد أخرج هذا الخبر الحافظ بن عساكر في ترجمة المأمون بأسانيد ثلاث: (تأريخ دمشق/ المجلد ٣٤/ تر ٣٦١١/ ص ٣٩٨ ـ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وهذا يعني أنه بينه وبين المأمون عامل مشترك باعث على المحبة ألا وهو العدل بين الناس في أقضيتهم.

ثالثاً: ثبت أن القاضي يحيى بن أكثم قد ردّ المأمون إلى السنة الصحيحة ولم تأخذه في ذلك لومة لائم كما في مسألة زواج المتعة وهذا يعني أن يحيى بن أكثم قد أعان المأمون على العدل والخير واتباع السنة ورواية العيثي التي وردت في تأريخ الطبري (٨/ ٦) تؤكد أنه كان في معيّة المأمون حين أعطى الناس الملايين فكيف إذاً يصفه المأمون بأنه كان خبيث السيرة وأنه أضرّ بالمأمون؟؟

وهنا نؤكد ما قد قلناه مراراً ضمن تعليقاتنا على مرويات الطبري من أن أهل البدع والأهواء قد قعدوا لأهل السنة بالمرصاد يؤلفون ويضعون في مثالبهم. والحمد لله الذي جعلنا من أمة الإسناد ووفقنا لدراسة الأسانيد والمتون.

(١) وقال البسوي: وغزا المأمون الروم حتى إذا كان بالبذندون توفي عبد الله بن هارون في رجب سنة ثمان عشرة ومائتين (المعرفة والتأريخ/ ١/ ٦٧).

وقال ابن قتيبة الدينوري: ثم عاد إلى بلاد الروم فمات على نهر البذندون لثلاث عشرة ليلة =

وقال آخرون: بل توفِّيَ في هذا اليوم مع الظهر، ولما توفِّيَ حمله ابنُه العباس وأخوه أبو إسحاق محمد بن الرشيد إلى طَرسوس، فدفناه في دار كانت لخاقان خادم الرشيد، وصلّى عليه أخوه أبو إسحاق المعتصم، ثم وكّلوا به حَرساً من أبناء أهل طَرَسوس وغيرهم مائة رجل، وأُجْرِيَ على كلّ رجلٍ منهم تسعون درهماً.

وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً؛ وذلك سوى سنتين كان دُعِيَ له فيهما بمكة وأخوه الأمين محمد بن الرّشيد محصور ببغداد.

وكان ولد للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة[1].

وكان يكنى ـ فيما ذكر ابن الكلبي ـ أبا العباس.

وكان رَبْعة أبيض جميلاً، طويل اللحية، قد وخطه الشيب. وقيل كان أسمر تعلوه صفرة، أحْنى أعْين طويل اللحية رقيقها، أشيب، ضيِّق الجبهة، بخدّه خالٌ أسود.

واستُخلفَ يوم الخميس لخمس ليال بقين من المحرم.

* * *

= بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين فحمل إلى طرسوس ودفن بها (المعارف/ ١٩٩).
وأخرج الخطيب في ترجمته أنه توفي في رجب بالبذندون وهو متوجه يريد الغزو فحمل إلى طرسوس (تأريخ بغداد/ تر ٥٣٣٠).

(١) وأخرج ابن عساكر بسنده عن خليفة بن خياط أن المأمون مات وهو ابن ثمان وأربعين سنة وخمسة أشهر ويومين وكانت ولايته التي استقامت له عشرين سنة وخمسة أشهر وأيام ومن قبل أن يقتل المخلوع بسنتين (تأريخ دمشق/ ٣٤/ ٣٣٧).
وأخرج ابن عساكر عن محمد بن يزيد قال: كانت خلافة المأمون من قتل محمد بن هارون عشرين سنة ونحو أربعة أشهر وتوفي ناحية طرسوس في رجب سنة ثمان عشرة (تأريخ دمشق/ ٣٤/ ٣٣٩).
وقال البسوي: فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة إلا أياماً (المعرفة/ ١/ ٦٧).
وأخرج الخطيب في تأريخه أن المأمون ولد ليلة ملك هارون في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة (تأريخ بغداد/ تر ٥٣٣٠) والله أعلم.

ذكر بعض أخبار المأمون وسيَره

ذُكر عن محمد بن الهيثم بن عديّ ، أن إبراهيم بن عيسى بن بُريهَة بن المنصور ، قال: لما أراد المأمون الشخوصَ إلى دمشق هيّأتُ له كلاماً ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلتُ بين يديه قلتُ: أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، في أدوم العزّ وأسبغ الكرامة ، وجعلني من كلِّ سوء فداه! إنّ من أمسى وأصبح يتعرّف من نعمة الله ، له الحمد كثيراً عليه برأي أمير المؤمنين أيّده الله فيه ، وحُسْن تأنيسه له ، حقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها بشكر الله وشكر أمير المؤمنين ، مدّ الله في عمره عليها. وقد أحبّ أن يعلم أميرُ المؤمنين أيّده الله أني لا أرغب بنفسي عن خدمته أيده الله بشيء من الخَفْض والدّعة؛ إذ كان هو أيّده الله يَتجشَّم خُشونة السفر ونصَب الظَّعْن ، وأوْلى الناس بمواساته في ذلك وبذل نفسه فيه أنا ، لما عرّفني اللهُ من رأيه ، وجعل عندي من طاعته ومعرفة ما أوجب الله من حقه؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أكرمه الله أن يكرمني بلزوم خدمته ، والكينونة معه فعل. فقال لي مبتدئاً من غير تروية: لم يعزمْ أميرُ المؤمنين في ذلك على شيء ، وإن استصحب أحداً من أهل بيتك بدأ بك؛ وكنت المقدَّم عنده في ذلك؛ ولا سيما إذْ أنزلتَ نفسك بحيث أنزلكَ أمير المؤمنين من نفسه؛ وإن ترك ذلك فمن غير قِلىً لمكانك؛ ولكن بالحاجة إليك. قال: فكان واللهِ ابتداؤه أكثرَ من تَرْوِيتي.

وذكر عن محمد بن عليّ بن صالح السرخسيّ ، قال تعرّض رجلٌ للمأمون بالشام مراراً ، فقال له: يا أميرَ المؤمنين ، انظر لعرب الشّأم كما نظرت لعجم أهل خراسان! فقال: أكثرت عليّ يا أخا أهل الشام؛ والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلاّ وأنا أرى أنه لم يبقَ في بيتِ مالي درهم واحد؛ وأما اليمن فو الله ما أحببتُها ولا أحبّتني قطّ؛ وأما قُضاعة فسادتُها تنتظر السفيانيّ وخروجَه فتكونُ من أشياعه ، وأمّا رَبيعة فساخطةٌ على الله منذ بعث نبيَّه من مُضَر؛ ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ، اعزُبْ فعل الله بك!

وذُكر عن سعيد بن زياد أنه لما دخل على المأمون بدمشق قال له: أرِني الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لكم ، قال: فأريته ، قال: فقال: إني لأشتهي أن

أدري أيّ شيء هذا الغِشاء على هذا الخاتم؟ قال: فقال له أبو إسحاق: حُلّ العقد حتى تدري ما هو، قال: فقال: ما أشكّ إنّ النبي ﷺ عقد هذا العقد، وما كنت لأحلّ عقداً عقده رسول الله ﷺ. ثم قال للواثق: خذه فضعْه على عينك؛ لعلّ الله أن يشفيَك. قال: وجعل المأمون يضعه على عينه ويبكي.

وذُكر عن العَيْشيّ صاحب إسحاق بن إبراهيم، أنه قال: كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المالُ عندَه حتى ضاق، وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، كأنك بالمال وقد وافاكَ بعد جمعة. قال: وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف مِنْ خراج ما يتولاه له، قال: فلما وردَ عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال: فخرجا حتى أصحَرا، ووقفا ينظرانه؛ وكان قد هُيِّئَ بأحسن هيئة، وحُلِّيَتْ أباعِرُه، وألبِست الأحلاس الموشّاة والجِلال المصبّغة وقُلِّدت العِهنَ، وجعِلت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر، وأبديت رؤوسها. قال: فنظر المأمون إلى شيء حسن، واستكثر ذلك، فعظم في عينه، واستشرَفه الناس ينظرون إليه، ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى: يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم، وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم! إنا إذاً للئام. ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له: وقّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها. قال: فو الله إنْ زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب، ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلَّى يعطي جندنا. قال العيشيّ: فجئت حتى قمت نصب عينه، فلم أردّ طرفي عنها، لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال. فقال: يا أبا محمد، وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلف ألف؛ لا يختلس ناظري. قال: فلم يأت عليَّ ليلتان حتى أخذت المال[1].

---

(١) ذكر الطبري هذا الخبر عن العيشي توفي ٢٢٨ هـ أخباري صدوق كان عالماً بالعربية وأيام الناس [تأريخ بغداد/ ١٠/ ٣١٤] و[سير أعلام/ تر٥٤٦٢] وهذا الخبر إن صح فهو منقبة من جانب ومثلبة من جانب آخر، فمن جانب يبين الخبر أن المأمون كان عطوفاً على رعيته لا يستأثر بالمال العام عنهم بالرغم من حاجة خزينة الدولة إلى ذلك المال ومن جانب آخر عمل غير جيد لأنه فرّط في المال العام وإن كان إنفاقاً على الناس ولكن للإنفاق ضوابط في =

وذكر عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان؛ أنه كان بالبصرة رجلٌ من بني تميم، وكان شاعراً ظريفاً خبيثاً منكراً؛ وكنت أنا والي البصرة، آنسُ به وأستحليه؛ فأردتُ أن أخدَعه وأستنزله، فقلت له: أنت شاعر وأنت ظريف، والمأمون أجودُ من السحاب الحافل والريح العاصف؛ فما يمنعك منه؟ قال: ما عندي ما يُقلُّني، قلت: فأنا أعطيك نجيباً فارهاً، ونفقة سابغة، وتخرج إليه وقد امتدحتَه؛ فإنك إن حظيتَ بلقائه، صرْت إلى أمنيّتك. قال: والله أيها الأمير ما إخالك أبعدت؛ فأعدّ لي ما ذكرت. قال: فدعوتُ له بنجيب فاره، فقلت: شأنك به فامتطه؛ قال: هذه إحدى الحُسنَيَيْن، فما بال الأخرى! فدعوت له بثلثمائة درهم، وقلت: هذه نفقتك؛ قال: أحسبك أيها الأمير قصَّرت في النفقة، قلت: لا، هي كافية، وإن قصّرت عن السّرف. قال: ومتى رأيت في أكابر سعد سرفاً حتى تراه في أصاغرها! فأخذ النجِيب والنفقة، ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة، فأنشد فيها وحذف منها ذكري والثناء عليّ ـ وكان مارداً ـ فقلت له: ما صنعتَ شيئاً. قال: وكيف؟ قلت: تأتي الخليفةَ ولا تُثْنِي على أميرك! قال: أيّها الأمير أردت أن تخدعني فوجدتني خدّاعاً، ولمثلها ضرب هذا المثل: «من يَنِك العَيْر يَنك نيّاكاً»؛ أما والله ما لكرامتي حملْتَني على نجيبك، ولا جُدْت لي بمالك الذي ما رامه أحد قطّ إلا جعل الله خدّه الأسفل؛ ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، أفهم هذا. قلت: قد صدقت، فقال: أمّا إذْ أبديتَ ما في ضميرك، فقد ذكرتك، وأثنيت عليك، فقلت: فأنشدني ما قلتَ، فأنشدنيه، فقلت: أحسنت؛ ثم ودّعني وخرج فأتى الشام؛ وإذا المأمون بسلغَوس. قال: فأخبرَني، قال: بينا أنا في غزَاةٍ قُرّة، قد ركبتُ نجيبِي ذاك، ولبستُ مقطّعاتي، وأنا أروم العسكر؛ فإذا أنا بكهل على بَغْل فاره ما يُقَرّ قراره، ولا يدرك خطاه. قال: فلتقّاني مكافحة ومواجهة، وأنا أردّد نشيد

= السياسة الشرعية التزم بها الخلفاء الراشدون (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم) ومن بعدهم الصحابي الجليل سيدنا معاوية رضي الله عنه ثم عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وأبو جعفر المنصور ثم غيرهم بدرجة أقل وعلى تفاوت ولكن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين.

ثم المهدي وابنه هارون وابنه مأمون والأمين لم يراعوا تلك الضوابط إلى حدٍّ ما والله أعلم والحق أحق أن يقال.

أرجوزتي ، فقال: سلام عليكم ـ بكلام جَهْوريّ ولسان بسيط ـ فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، قال: قف إن شئت ، فوقفت فتضوّعت منه رائحة العَنْبر والمسك الأذفر ، فقال: ما أوّلك؟ قلت: رجل من مُضَر ، قال: ونحن من مُضَر ، ثم قال: ثمّ ماذا؟ قلت: رجلٌ من بني تميم ، قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد ، قال: هيهِ ، فما أقدمك هذا البلد؟ قال: قلت: قصدتُ هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحةً ، ولا أوسعَ راحة ، ولا أطولَ باعاً ، ولا أمدّ يفاعاً منه. قال: فما الذي قصدتَهُ به؟ قلت: شعر طيب يلذّ على الأفواه ، وتقتفيه الرّواة ، ويحلو في آذان المستمعين ، قال: فأنشدْنيه ، فغضبتُ وقلت: يا ركيك ، أخبرتُك أني قصدتُ الخليفة بشعر قلتُه ، ومديح حَبّرتُه ، تقول: أنشدْنيه! قال: فتغافل والله عنها ، وتطامن لها ، وألغى عن جوابها ، قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذُكر لي عنه فألف دينار ، قال: فأنا أعطيك ألفَ دينار إن رأيتُ الشعرَ جيّداً والكلام عذباً وأضع عنك العناء ، وطول التَّرداد؛ ومتى تصلُ إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامحٍ ونابل! قلت: فلي الله عليك أن تفعَل! قال: نعم لك الله عليّ أن أفعل ، قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا بغلي وهو خيرٌ من ألف دينار ، أنزل لك عن ظهره ، قال: فغضبتُ أيضاً وعارضني نَزَق سعْد وخفّة أحلامها ، فقلت: ما يساوي هذا البغل هذا النجيب! قال: فدعْ عنك البغل ، ولك الله عليّ أن أعطيَك الساعة ألف دينار ، قال: فأنشدته:

مـأْمـونُ يـا ذا المِنـنِ الشـريفَـةْ	وصـاحـبَ المـرتبـةِ المُنيفَـةْ
وقـائـدَ الكتيبـةِ الكثِيْفَـةْ	هـل لـك فـي أَرجـوزةٍ ظـريفـةْ
أَظـرَفَ مِـن فقـهِ أَبـي حنيفـةْ	لا والـذي أَنـت لـه خليفـةْ
مـا ظُلِمَـتْ فـي أَرضنـا ضعيفـةْ	أَميـرُنـا مُـؤْنَتُـهُ خَفيفـةْ
ومـا اجتبـى شيئـاً سـوى الـوظيفـةْ	فـالـذئـبُ والنَّعجـةُ فـي سَقيفـةْ

* واللصّ والتاجرُ في قَطيفَةْ *

قال: فو الله ما عدا أن أنشدته ، فإذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق ، يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! قال: فأخذني أفكلٌ ، ونظر إليّ بتلك الحال ، فقال: لابأس عليك أي أخي ، قلت: يا أميرَ المؤمنين ،

جعلني الله فداك! أتعرف لغات العرب؟ قال: إي لعمر الله ، قلت: فمن جعل الكاف منهم مكان القاف؟ قال: هذه حميَر ، قلت: لعنها الله ، ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم! فضحك المأمون ، وعلم ما أردتُ ، والتفت إلى خادم إلى جانبه ، فقال: أعطه ما معك ، فأخرج إليّ كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال: هاك ، ثم قال: السلام عليك؛ ومضى فكان آخر العهد به[1].

وقال أبو سعيد المخزومي:

هلِ رأَيتَ النُّجومَ أَغنَت عنِ المأْ ... مونِ شيئاً أَو ملكِهِ المأْسوسِ
خَلَّفُوهُ بِعَرْصتَيْ طرسوس ... مثلَ ما خَلَّفُوا أَباه بطوس

وقال عليّ بن عبيدة الرّيحانيّ:

ما أقلَّ الدموعَ للمأْمونِ ... لستُ أَرضى إلا دماً مِن جفوني

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي أنّ عليّ بن صالح حدّثه ، قال: قال لي المأمون يوماً: أبغني رجلاً من أهل الشام ، له أدب ، يجالسني ويحدّثني ، فالتمستُ ذلك فوجدته ، فدعوته فقلت له: إني مدخلك على أمير المؤمنين ، فلا تسأله عن شيء حتى يبتدئك ، فإني أعرفُ الناس بمسألتكم يا أهل الشام ، فقال: ما كنت متجاوزاً ما أمرتني به. فدخلت على المأمون ، فقلت له: قد أصبت الرّجل يا أمير المؤمنين ، فقال: أدخله ، فدخل فسلم ، ثم استدناه ـ وكان المأمون على شغله من الشراب ـ فقال له: إني أردتك لمجالستي ومحادثتي ، فقال الشامي: يا أمير المؤمنين؛ إن الجليس إن كانت ثيابه دون ثياب جليسه دخله لذلك غضاضة ، قال: فأمر المأمون أن يخلَع عليه؛ قال: فدخلني من ذلك ما الله به أعلم ، قال: فلما خلع عليه ، ورجع إلى مجلسه ، قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ قلبي كان إذا كان متعلِّقاً بعيالي لم تنتفع بمحادثتي ، قال: خمسون ألفاً تحمل إلى منزله ، ثم قال: يا أمير المؤمنين ، وثالثة: قال: وما هي؟ قال: قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله؛ فإن كانت

---

(١) هذا الخبر الطويل استغرق الصفحات (٦٥٣ ـ ٦٥٤ ـ ٦٥٥) لم يتابعه فيه أحد من المؤرخين المتقدمين الثقات ولم نتبيّن حال محمد بن أيوب بن جعفر ناهيك عن الشاعر الذي سمّاه خبيثاً منكراً. وسامح الله الطبري لو ترك هذه الروايات ولم يُشغل الأمة بها فمكانها كتاب الأغاني لا تاريخ الأمم والملوك وهي في أغلبها روايات ملفقة غير صحيحة.

مني هنةٌ فاغتفرها ، قال: وذاك! قال عليّ: فكأنّ الثالثة جلتْ عني ما كان بي.

وذكر أبو حشيشة محمد بن عليّ بن أمية بن عمرو ، قال: كنا قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علّويَه:

بَرئت مِنَ الإِسلام إن كَانَ ذا الذِي أَتـاكِ بـه الـواشـونَ عنِّي كمـا قـالـوا
ولكنَّهـــمْ لمّـــا رأَوْكِ سَـــرِيعَـــةً إِلـيَّ ، تَـواصَـوْا بـالنَّميمَـةِ واحتـالـوا

فقال: يا علّويه ، لمن هذا الشعر؟ فقال: للقاضي ، قال: أيّ قاض ويحك! قال: قاضي دمشق ، فقال: يا أبا إسحاق ، اعزله ، قال: قد عزلته ، قال: فيُحضر الساعة. قال: فأحضر شيخ مخضوب قصير؛ فقال له المأمون: من تكون؟ قال: فلان بن فلان الفلانيّ ، قال: تقول الشعر؟ قال: قد كنت أقوله ، فقال: يا علّويه ، أنشده الشعر ، فأنشده؛ فقال: هذا الشعرُ لك: قال: نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالِق وكلّ ما يملك في سبيل الله إن كان قال الشعر منذ ثلاثون سنة إلا في زُهد أو معاتبة صديق ، فقال: يا أبا إسحاق اعزله؛ فما كنت أولِّي رقابَ المسلمين مَن يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام. ثم قال: اسقوه؛ فأتِيَ بقدح فيه شراب ، فأخذه وهو يرتعد ، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذقته قطّ ، قال: فلعلك تريد غيره! قال: لم أذق منه شيئاً قطّ ، قال: فحرام هو؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: أوْلى لك! بها نجوت ، اخرج. ثم قال: يا علّويه ، لا تقل: «برئت من الإسلام» ، ولكن قل:

حُرِمْتُ منايَ منكِ إن كان ذَا الَّذي أَتاك به الواشون عَنِّي كما قالوا

قال: وكنّا مع المأمون بدمشق ، فركب يريد جبل الثلج ، فمرّ ببركة عظيمة من برَك بني أميّة ، وعلى جوانبها أربع سَرَوات ، وكان الماء يدخلها سيْحاً ، ويخرج منها؛ فاستحسن المأمون الموضِع ، فدعا ببزْما وَرد ورطْل ، وذكَر بني أميّة ، فوضع منهم وتنقّصهم؛ فأقبل علّويه على العُود ، واندفع يغنّي:

أولئِـك قـومـي بعـد عـزٍّ وثـروةٍ تَفَـانَـوْا فـإِلاَّ أَذرِفُ العيـنَ أَكمـدَا

فضرب المأمونُ الطعام برجله ، ووثب وقال لعلّويه: يابن الفاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر فيه مواليك إلاّ في هذا الوقت! فقال: مولاكم زِرياب عند مواليّ

يركب في مائة غلام؛ وأنا عندكم أموت من الجوع! فغضب عليه عشرين يوماً ، ثم رضى عنه(١) .

قال: وزرياب مولى المهديّ ، صار إلى الشام ثم صار إلى المغرِب ، إلى بني أمية هناك .

وذكر السّلِيطيّ أبو عليّ ، عن عُمارة بن عَقِيل ، قال: أنشدتُ المأمون قصيدةً فيها مديح له ، هي مائة بيت؛ فأبتدئ بصدر البيت فيبادرني إلى قافِيته كما قفَّيْتُهُ ، فقلت: والله يا أمير المؤمنين؛ ما سمعها مني أحد قطّ ، قال: هكذا ينبغي أن يكون؛ ثم أقبل عليّ ، فقال لي: أما بلغك أنّ عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التي يقول فيها:

* تشُطُّ غداً دارُ جيراننا *

فقال ابنُ العباس:

* وللدارُ بعد غد أبعد *

حتى أنشده القصيدة ، يقفّيها ابن عباس! ثم قال: أنا ابنُ ذاك(٢) .

وذُكر عن أبي مروان كازر بن هارون ، أنه قال: قال المأمون:

بعثتُكَ مُرتاداً ففزتَ بِنظْرةٍ ... وأَغفَلْتَنِي حتى أَسأْتُ بكَ الظَّنّا
فناجيتَ مَن أَهْوَى وكنتُ مباعَداً ... فيا ليت شعرِي عَن دُنوّك ما أغنى!
أَرَى أَثَراً منهُ بعينَيك بَيِّناً ... لقد أَخذَت عيناكَ مِن عينه حُسنا

قال أبو مروان: وإنما عوّل المأمون في قوله في هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف ، فإنه اخترع:

إن تَشْقَ عيني بها فقد سَعِدَتْ ... عينُ رسولي ، وفُزتُ بالخَبَرِ
وكلَّما جاءَني الرسولُ لهَا ... ردَّدتُ عمداً في طرفه نَظَري

---

(١) هذا الخبر الطويل (٢٥٦ ـ ٢٥٧) ذكره الطبري عن أبي حشيشة ولم نتبيّن من هو وأمّا علّويه فهو المغني المذكور في كتاب الأغاني وكفىٰ بلقبه دالاً علىٰ منزلته .

(٢) راوي الخبر عمارة بن عقيل الخطفي الشاعر كان واسع العلم غزير الأدب وقدم بغداد فأخذ أهلها عنه وانظر تأريخ بغداد [١٢/ ٢٨٢/ تر٦٧٢٢] وأما ثقافة المأمون الأدبية وملكتهُ الشعرية فمعروفتان .

تَظْهَرُ في وجهِه محاسنُها قد أَثَّرَتْ فيه أَحسنَ الأَثرِ
خُذ مقلتِي يا رسولُ عَاريةً فانظر بها واحتَكِمْ على بصرِي

قال أبو العتاهية: وجّه إليّ المأمون، فصرتُ إليه، فألفيتُه مطرقاً مفكِّراً، فأحجمتُ عن الدنوّ منه في تلك الحال؛ فرفع رأسه؛ فنظر إليّ وأشار بيده؛ أن ادنُ، فدنوتُ ثم أطرق مليّاً، ورفع رأسه، فقال: يا أبا إسحاق؛ شأنُ النفس الملل وحُبّ الاستطراف؛ تأنس الوحدة كما تأنس بالأُلْفة، قلت: أجَل يا أمير المؤمنين، ولي في هذا بيت، قال: وما هو؟ قلت:

لا يُصلِح النفسَ إذ كانت مُقَسَّمَةً إلاَّ التَّنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ[1]

وذُكر عن أبي نزار الضّرير الشاعر أنه قال: قال لي عليّ بن جَبَلة: قلتُ لحميد بن عبد الحميد: يا أبا غانم، قد امتدحتُ أميرَ المؤمنين بمدْح لا يحسِن مثله أحدٌ من أهل الأرض؛ فاذكرني له، فقال: أنشدْنيه، فأنشدته، فقال: أشهد أنك صادق؛ فأخذ المديح فأدخله على المأمون، فقال: يا أبا غانم، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفوْنا عنه وجعلنا ذلك ثواباً بمديحه؛ وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دُلف القاسم بن عيسى؛ فإن كان الذي قال فيك وفيه أجودُ من الذي مدحَنا به ضربنا ظهره، وأطلْنا حبسَه، وإن كان الذي قال فينا أجود أعطيتُه بكلّ بيت من مديحه ألف درهم، وإن شاء أقلناه. فقلت: يا سيّدي، ومن أبو دُلف! ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك! فقال: ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء، فاعرضْ ذلك على الرجل. قال عليّ بن جبلة: فقال لي حُميد: ما ترى؟ قلت: الإقالة أحبُّ إليّ، فأخبر المأمون، فقال: هو أعلم، قال حميد: فقلت لعلي بن جبلة إلى أي شيء ذهب في مدحك أبا دُلف وفي مدحك لي؟ قال: إلى قولي في أبي دلف:

إنَّما الدّنيا أَبو دُلَفٍ بينَ مغزاهُ ومُحتَضَرِهْ

---

(١) راوي الخبر أبو العتاهية (توفي ٢١٠هـ) قال الذهبي في ترجمته: الأديب الصالح الأوحد وكان أبو نواس يعظمه ويتأدب معه لدينه ويقول ما رأيته إلا توهمت أنه سماوي وأنا أرضي [سير أعلام ١٠/ ٩٥] وكان أبو العتاهية يقول في الغزل والهجاء والمديح قديماً ثم تنَسّك وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ فأحسن القول فيه وجوّد وأربىٰ على كل من ذهب ذلك المذهب [تأريخ بغداد ٦/ ٢٥١].

فإذا ولَّى أَبو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدّنيا على أَثَرِهْ

وإلى قولي فيك:

لولا حميدٌ لم يكُنْ ... حسبٌ يُعَدُّ ولا نَسَبْ
يا واحِدَ العَربِ الَّذي ... عَزَّتْ بعِزَّته العربْ

قال: فأطرق حُميد ساعة، ثم قال: يا أبا الحسن، لقد انتقد عليك أمير المؤمنين. وأمر لي بعشرة آلاف درهم وحُملان وخلعة وخادم، وبلغ ذلك أبا دُلَف فأضعف لي العطية، وكان ذلك منهما في سترٍ لم يعلم به أحد إلى أن حدّثتك يا أبا نزار بهذا[1].

قال أبو نزار: وظننتُ أنّ المأمون تعقّد عليه هذا البيت في أبي دُلَف:

تحَدَّرَ ماءُ الجُودِ من صُلبِ آدمٍ ... فأَثبتَهُ الرَّحمَنُ في صلب قاسِمِ

وذُكر عن سليمان بن رَزين الخزاعيّ، ابن أخي دعْبل، قال: هجا دعْبل المأمونَ، فقال:

ويَسُومُني المأْمُونُ خَطَّةَ عارِفٍ ... أَوَ مَا رأى بالأَمسِ رأْسَ محمدِ
يُوفِي على هامِ الخلائفِ مثلَ مَا ... يُوفِي الجبالُ على رؤوسِ القَرددِ
وَيَحِلُّ في أكنافِ كلِّ ممنَّعٍ ... حتى يُذَلِّلَ شاهِقاً لم يُصْعَدِ
إنَّ التِّراتِ مُسَهَّدٌ طُلاَّبُها ... فاكفُفْ لُعَابكَ عن لعابِ الأَسودِ

فقيل للمأمون: إن دعْبلا هجاك، فقال: هو يهجو أبا عبّاد لا يهجوني. يريد حدّة أبي عبّاد، وكان أبو عبّاد إذا دخل على المأمون كثيراً ما يضحك المأمون، ويقول له: ما أراد دِعبل منك حين يقول:

وكأَنه من دَيرِ هِزْقِلَ مفلِتٌ ... حَرِدٌ يجُرُّ سلاسلَ الأَقياد

---

(١) الغريب في هذه الأخبار التي أوردها ابن جرير الطبري عن سيرة المأمون هي أنها في جلّها من طريق شعراء وبعضهم عرف بمجونه ولم يفعل ذلك آنفاً عند ذكره لسير بقية الخلفاء ولعله أراد بذلك أن يثبت قوة ملكته الشعرية ولكن تركيزه هذا علىٰ الجانب الثقافي من حياة المأمون أثر في بقية الجوانب من سيرته فأهملها وأما أبو نزار الضرير فهو شاعر كما ترىٰ وكذلك شيخه علي بن جبلة الأنباري من أبناء الشيعة الخراسانية ببغداد وهو شاعر مداح ضرير كذلك استنفذ شعره في مدح أبي دلف.

وكان المأمون يقول لإبراهيم بن شَكْلة إذا دخل عليه: لقد أوجعك دِعْبل حين يقول:

إن كانَ إبراهيمُ مضطلعاً بِهَا فلَتَصلُحَنْ من بَعده لِمُخارِقِ
وَلتَصْلُحَنْ من بعد ذاكَ لِزُلْزُلٍ ولتَصْلحَنْ مِنْ بعدِهِ للمَارِقِ
أَنَّى يكُونُ ولا يكونُ وَلَمْ يكُنْ لينَالَ ذَلِكَ فاسقٌ عن فاسق![1]

وذكر محمد بن الهيثم الطائيّ أنّ القاسم بن محمد الطَيْفوريّ حدّثه، قال: شكا اليزيديّ إلى المأمون خلّةً أصابته، ودَيْناً لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ما تريد، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ الأمرَ قد ضاق عليّ، وإنّ غُرَمائي قد أرهقوني. قال: فرُمْ لنفسك أمراً تنال به نفعاً فقال: لك منادمون فيهم مَن إنْ حرّكتُه نلتُ منه ما أحبّ، فأطلق ليَ الحيلة فيهم، قال: قل ما بدالك، قال: فإذا حضرُوا وحضرتُ فمرْ فلاناً الخادم أنْ يوصلَ إليك رقعتي؛ فإذا قرأتَها، فأرسل إليّ: دخولُك في هذا الوقت متعذّر؛ ولكن اختر لنفسك مَنْ أحببت. قال: فلما علم أبو محمد بجلُوس المأمون واجتماع ندمائه إليه، وتيقّن أنهم قد ثملوا من شُرْبهم، أتى الباب، فدفع إلى ذلك الخادم رُقعة قد كتبها، فأوصلها له إلى المأمون، فقرأها فإذا فيها:

يا خيرَ إخواني وأَصْحَابي هَذَا الطّفَيْليُّ لَدَى البابِ
خُبِّرَ أَنَّ القَومَ في لَذَّةٍ يَصْبُو إليها كلُّ أَوّابِ
فصيِّروني واحداً منكمُ أَو أَخرِجوا لِي بعضَ أَترابِي

قال: فقرأها المأمون عَلى مَنْ حضره، فقالوا: ما ينبغي أن يدخُل هذا

---

(١) وهذا مثال آخر لما ذكرنا آنفاً فدعبل بن علي الخزاعي الشاعر المعروف كان خبيث اللسان (كما قال الخطيب في ترجمته) قبيح الهجاء وقد روي عنه أحاديث مسندة عن مالك وعن غيره كلها باطلة نراها (والكلام للخطيب) من وضع ابن أخيه [تأريخ بغداد ٨/ ٣٨٣].
ومن علامات زيف متنه أن فيه ما يخالف المعروف من طباع أبي عباد الكاتب ـ وزير المأمون ـ فهو وإن كان أحد الكفاة البارعين في مجال الحساب والتصرف والمعرفة والنهوض بأمور الأموال المخدومة أتمّ ما يكون وبالرغم من كونه جواداً سمحاً، فقد كان منقبضاً عبوساً [انظر سير أعلام النبلاء / ١٠/ ١٩٩/ تر٤٤]. فكيف يُضحك المأمون كثيراً من كان عبوساً منقبضاً؟!

الطفيليّ على مثل هذه الحال. فأرسل إليه المأمون: دخولُك في هذا الوقت متعذّر ، فاخترْ لنفسك مَنْ أحببت تنادمه ، فقال: ما أرى لنفسي اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك ، فصِرْ إليه ، قال: يا أميرَ المؤمنين ، فأكونُ شريك الطفيليّ! قال: ما يمكن رَدّ أبي محمد عن أمرين؛ فإن أحببت أن تخرج ، وإلاّ فافتد نفسك ، قال: فقال: يا أميرَ المؤمنين ، له عليّ عشرة آلاف درهم ، قال: لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك ، قال: فلم يزل يزيدُه عشرة عشرة ، والمأمون يقول له: لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ المائة ألف. قال؛ فقال له المأمون: فعجّلْها له ، قال: فكتب له بها إلى وكيلِه ، ووجّه معه رسولاً ، فأرسل إليه المأمون: قبض هذه في الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة.

وذُكر عن محمد بن عبد الله صاحب المراكب قال: أخبرَني أبي عن صالح بن الرشيد ، قال: دخلتُ على المأمون ، ومعي بيتَان للحسين بن الضحّاك ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين ، أحبّ أ ن تسمع منّي بيتين ، قال: أنشدهما ، قال: فأنشده صالح:

حَمِدْنا الله شكراً إذ حَبَانا ... بِنَصْرِكَ يا أَميرَ المؤمِنينَا
فأَنتَ خليفةُ الرَّحْمَنِ حَقّاً ... جَمَعْتَ سَماحةً وجَمعتَ دينا

فاستحسنهما المأمون ، وقال: لمن هذان البيتان يا صالح؟ قلت: لعبدك يا أميرَ المؤمنين الحسين بن الضحاك ، قال: قد أحسن ، قلت: وله يا أمير المؤمنين ما هو أجود من هذا ، قال: وما هو؟ فأنشدته:

أَيَبْخَلُ فردُ الحُسنِ فَرْدُ صفاتِه ... عليَّ ، وقد أَفردْتُه بهوىً فَرْدِ!
رَأَى اللهُ عبدَ اللهِ خيرَ عِبَادِهِ ... فَمَلَّكَهُ واللهُ أَعلَمُ بالعبدِ[(١)]

وذُكر عن عُمارة بن عَقيل ، أنه قال: قال لي عبد الله بن أبي السّمط: علمت أنّ المأمون لا يبصر الشعر ، قال: قلت: ومَنْ ذا يكون أعلم منه! فو الله إنك لترانا ننشده أوّلَ البيت فيسبِقنا إلى آخره ، قال: أنشدته بيتا أجدتُ فيه ، فلم أره تحرّك

(١) لم نتبيّن من هو محمد بن عبد الله الذي روىٰ عن أبيه ولم يبين الطبري كنيته ولا نسبه ولا لقبه ، وأما صاحب البيتين الحسين بن الضحاك فهو شاعر ماجن كما سنذكر بعد قليل فقد جاء ذكره في أخبار الأمين.

له ، قال: قلتُ: وما الذي أنشدته؟ قال: أنشدته:

أَضحى إِمامُ الهدى المأْمونُ مشتغلاً بـالـديـنِ والـنـاسُ بـالـدنيـا مشـاغيـلُ

قال: فقلت له: إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زِدتَ على أن جعلته عجوزاً في محْرابها ، في يدها سُبحتها! فمن القائمُ بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ، وهو المطوّق بها! هلاّ قلتَ فيه كما قال عمّك جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فَـلاَ هُـوَ فـي الـدُّنْيـا مُضيـعٌ نَصيبَـهُ وَلا عَرَضُ الدُّنيا عَن الدِّين شاغِلُهْ

فقال: الآن علمتُ أني قد أخطأت.

وذُكر عن محمد بن إبراهيم السَّيّاريّ قال: لما قدِم العتابيّ على المأمون مدينة السلام أذن له ، فدخل عليه ، وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلّي ـ وكان شيخاً جليلاً ـ فسلّم عليه ، فردّ عليه السلام ، وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه ، فقبّل يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسائله عن حاله ، فجعل يجيبه بلسانٍ طلْق؛ فاستَطرف المأمون ذلك. فأقبل عليه بالمداعبة والمُزاح ، فظنّ الشيخ أنه استخفّ به ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، الإبساس قبل الإيناس قال: فاشتبه على المأمون الإبساس ، فنظر إلى إسحاق بن إبراهيم ، ثم قال: نعم ، يا غلام ألف دينار؛ فأتِيَ بها ، ثم صبّت بين يدي العتابيّ ، ثم أخذوا في المفاوضة والحديث ، وغمز عليه إسحاق بن إبراهيم ، فأقبل لا يأخذ العتابيّ في شيء إلاّ عارضه إسحاق بأكثر منه ، فبقيَ متعجباً ، ثم قال: يا أمير المؤمنين ، إيذن لي في مسألة هذا الشيخ عن اسمه ، قال: نعم ، سله ، قال: يا شيخ ، مَنْ أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس ، واسمي كلْ بصل ، قال: أما بالنسبة فمعروفة ، وأما الاسم فمنكر ، وما كلْ بَصَل من الأسماء؟ فقال: له إسحاق: ما أقلَّ إنصافك! وما كلْ ثوم من الأسماء! البصل أطيب من الثوم ، فقال العتابيّ: لله درّك! ما أحجّك! يا أمير المؤمنين ما رأيت كالشيخ قط أتأذن لي في صلته بما وصلني به أمير المؤمنين فقد والله غلبني! فقال المأمون: بل هذا موفَّرٌ عليك؛ ونأمر له بمثله ، فقال له إسحاق: أما إذا أقررت بهذه فتوهَّمْني تجدْني ، فقال: والله ما أظنّك إلا الشيخ الذي يتناهَى إلينا خبره من العراق؛ ويعرف بابن الموصلّي! قال: أنا حيث ظننتَ ، فأقبل عليه بالتحيّة والسلام ، فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما: أما إذ اتفقتما على الصلح والمودة ، فقوما فانصرفا

متنادميْن؛ فانصرف العتابيّ إلى منزل إسحاق فأقام عنده[١].

وذُكِر عن محمد بن عبد الله بن جشم الرَّبعيّ أن عُمارة بن عقيل قال: قال لي المأمون يوماً وأنا أشرب عنده: ما أخبثَك يا أعرابيّ! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ وهَّمتني نفسي، قال: كيف قلت:

قالت مُفَدَّاةُ لَمَّا أن رأَتْ أَرَقِي … والهمُّ يَعتَادُني من طيفِه لَمَمُ
نَهَّبْتَ مالك في الأَدْنينَ آصِرَةً … وفي الأَباعِدِ حتى حفَّكَ العَدمُ
فاطلبْ إِليهم ترى ما كنتَ من حَسَنٍ … تُسدِي إليهم فقد باتَتْ لهمْ صِرَمُ
فقلتُ عَذلَكِ قد أَكثَرْتِ لائِمتِي … ولَمْ يَمُتْ حاتم هُزْلاً ولا هرِمُ

فقال لي المأمون: أين رميتَ بنفسك إلى هَرِم بن سنان سيد العرب وحاتم الطائيّ! فعلا كذا وفعلا كذا، وأقبل ينثال عليّ بفضلهما، قال: فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنا خيرٌ منهما، أنا مسلم وكانا كافرين، وأنا رجل من العرب[٢].

وذُكر عن محمد بن زكرياء بن ميمون الفرْغانيّ، قال: قال المأمون لمحمد بن الجَهْم: أنشدني ثلاثة أبيات في المديح والهجاء والمراثي؛ ولك بكل بيت كُورة، فأنشده في المديح:

يجودُ بالنفس إذ ضنَّ الجوادُ بها … والجودُ بالنفس أَقصى غاية الجودِ

وأنشده في الهجاء:

قَبُحَتْ مناظِرُهُمْ فحينَ خَبَرْتُهم … حسُنَتْ مناظرهم لِقُبحِ المخبَرِ

وأنشده في المراثي:

أَرادُوا ليُخفُوا قبْرَه عَنْ عدُوّه … فطِيبُ تُراب القبرِ دَلَّ على القبر

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان بن القاسم الكاتب، قال: أخبرني

---

(١) لم نجد لمحمد بن إبراهيم السيَّاري ترجمة فيما بين أيدينا من كتب الجرح والتعديل والتراجم وأما العتابيّ فهو كلثوم بن عمرو كان شاعراً يظهر الزهد ويلبس الصوف ويتجنب غشيان السلطان قناعة وتنزهاً [تأريخ بغداد / ١٢/ ٤٨٨/ تر٦٩٦١].

(٢) لم نجد لمحمد بن عبد الله بن جثم الربعي ترجمة فيما بين أيدينا من كتب الجرح والتعديل وقد ذكره الطبري هنا وأبو الفرج صاحب كتاب الأغاني كما في هذه الرواية ولا ندري هل كان يشرب النبيذ (أي الشاعر عمارة) أم أنه يعني الخمر والخبر لا يصح والله أعلم.

الحسين بن الضحاك ، قال: قال لي علّوية: أخبرُك أنه مرّ بي مرة ما أيستُ من نفسي معه لولا كرم المأمون؛ فإنه دعا بنا؛ فلمّا أخذ فيه النبيذ؛ قال: غنّوني ، فسبقني مخارق ، فاندفع فغنّى صوتاً لابن سُرَيج في شعر جرير:

لمَّا تَـذَكَّـرت بـالـدَّيـريْـنِ أَرَّقَنَـي صوتُ الدَّجاج وضرْبٌ بالنَّواقِيسِ
فقلـتُ لِلَّـركـبِ إذ جَـدَّ المَسيرُ بنـا يا بُعْدَ يَبْرينَ من باب الفراديس!

قال: فحُيِّنَ لي أن تغنّيتُ ، وكان قد همّ بالخروج إلى دمشق يريد الثغر:

الحَيـنُ سـاقَ إلـى دمشـق ومَـا كـانـتْ دمشـق لأَهلهـا بلـدا

فضرب بالقدح الأرض ، وقال: ما لك! عليك لعنة الله. ثم قال: يا غلام ، أعطِ مخارقاً ثلاثة آلاف درهم؛ وأخذ بيدي فأقمتُ وعيناه تدمعان ، وهو يقول للمعتصم: هو والله آخر خُروج ، ولا أحسبني أن أرى العراق أبداً ، فكان والله أخرَ عهدِه بالعراق عند خروجه كما قال(١).

---

(١) هذا خبر باطل ـ وفي إسناده الشاعر حسين بن الضحاك وهو معروف بالخلع شاعر ماجن وسمّي الخليع لكثرة مجونه وخلاعته [وفيات الأعيان / ٢/ ١٦٢] وشيخه الذي يروى عنه هو علوية المغني ويكفيه لقباً جرحاً ـ وما كان المأمون ليدعيّ العلم بأحداث المستقبل حتى يقسم أن خروجه ذلك آخر خروج وهو العالم الأديب راوي الحديث وقد روىٰ عنه العلماء أحاديث ولو قال أخشىٰ أن يكون خروجاً هذا آخر خروج لانطلت كذبة الحسين بن ضحاك على الناس ولكن عوار المتن يتفق مع خلاعة ومجون صاحب السند (الحسين بن ضحاك ومن روىٰ عنه).

ـ وأخيراً المأمون ماله وما عليه ـ

قبل أن نذكر خلاصة في تقييم المأمون نودّ أن نردّ عنه شبهة أو تهمة الشرب ومعلوم لدىٰ علماء الفقه واللغة أن العرب كانوا يشربون الخمر ونوعاً آخر من الشراب هو النبيذ وهو التمر أو الزبيب يترك في الماء مستنقعاً ثم تؤخذ عصارته أو تغلىٰ وقد ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الانتباذ في أنواع معينة من الأواني أما الخمر فقد حرمه الله ورسوله ـ والروايات التي تتهم المأمون بشرب الخمر جاءت من طريق رواة لا يحتج بحديثهم ولعل المأمون كان يشرب النبيذ على رأي علماء بغداد (أي الذي لا يسكر) أما الخمر فلم يصح عنه ولذلك ذكر الذهبي الحافظ الناقد خبر شربه للخمر بصيغة التمريض فقال في ترجمته: كان يشرب نبيذ الكوفة وقيل بل يشرب الخمر فالله أعلم. [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٣/ تر٧٢]. ولقد ارتكب المأمون خطيئتين كبيرتين وأمره إلى الله في كل ذلك.

الأولى خوضه في أمور العقيدة وفرضه لعقيدة المعتزلة في قولهم بخلق القرآن ثم أخذه لعلماء السنة في ذلك وامتحانهم ـ قال الحافظ البيهقي رحمه الله تعالى: لم يكن في الخلفاء قبله (أي=

خلافة أبي إسحاق المعتصم محمد بن هارون الرشيد

وفي هذه السنة بُويع لأبي إسحاق محمد بن هارون الرّشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بالخلافة؛ وذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين. وذُكر أنّ الناس كانوا قد أشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة، فسلِموا من ذلك[1].

ذُكر أنّ الجند شغبوا لمّا بويع لأبي إسحاق بالخلافة، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره، فبايعه ثمّ خرج إلى الجند، فقال: ما هذا الحبّ البارد! قد بايعتُ عمّي؛ وسلّمت الخلافة إليه؛ فسكن الجند.

= قبل المأمون) لا من بني أمية ولا من بني العباس ـ خليفة إلاّ علىٰ منهج السلف حتى ولي هو الخلافة (أي المأمون) فاجتمع به هؤلاء (أي المبتدعة) فحملوه على ذلك [البداية والنهاية ٨/ ٢٠٢].

والثانية: كيده لأخيه ومحاربته فكلاهما كاد لأخيه وبدلاً من أن يتطاوعا ويتراحما ويلين أحدهما للآخر حرصاً على مصلحة الأمة ووحدة الجماعة ولكن اقتتلا فسفكت دماء وهدّمت بيوت وقتل خلق كثير فكانت بداية لكسر شوكة الخلافة وطمع الأعداء والمتربصين وما عدا ذلك فقد قال أبو معشر: كان أماراً بالعدل محمود السيرة ميمون النقيبة فقيه النفس يعدّ من كبار العلماء وقال يحيىٰ بن أكثم: كان المأمون يحلم حتىٰ يغيظنا [تأريخ بغداد/ ١٠/ ١٨٩] [فوات الوفيات / ٢/ ٢٣٧] قلت وقد اهتم بترجمة الكتب إلى العربية وبنى مرصداً فلكياً في دمشق وكان يحب العلم والعلماء والشعراء ويكرمهم حتى أسرف في ذلك وكان على صلة طيبة بأبناء عمومته من آل علي رضي الله عنهم ولا ينسىٰ له في التأريخ توصيته لعلي بن موسى الرضا بالخلافة من بعده دون أبناءه وإخوانه من بني العباس والله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون وقال أبو حنيفة الدينوري في ترجمة المأمون [وكان شهماً بعيد الهمة أبيّ النفس وكان نجم ولد العباس في العلم والحكمة].

وقال أيضاً: ودخل (المأمون) بلاد الجزيرة والشام فأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحاً كثيرة وأبلىٰ بلاءً حسناً ثم توفي على نهر البذندون ودفن بطرسوس يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين [الأخبار الطوال/ ٤٠١].

(١) وأخرج الخطيب البغدادي في ترجمة المعتصم بالله عن محمد بن يزيد قال: استخلف أبو إسحاق محمد بن هارون في رجب سنة ثمان وعشرة ومائتين [تأريخ بغداد / تر١٤٥١] وانظر الأخبار الطوال [٤٠١].

وفيها أمر المعتصم بهدْم ما كان المأمون أمر ببنائه بُطَوانة ، وحمَل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدَر على حمله ، وأحرق ما لم يقدر على حمله؛ وأمرَ بصرف مَنْ كان المأمون أسكن ذلك من الناس إلى بلادهم(١) .

وفيها انصرف المعتصم إلى بغداد ، ومعه العباس بن المأمون فقدمها ـ فيما ذكر ـ يوم السبت مستهلّ شهر رمضان(٢) .

وفيها دخل ـ فيما ذكر ـ جماعة كثيرة من أهل الجبال من هَمَذان وأصبهان وماسبذان ومِهْرجانْقذُق في دين الخرّميّة؛ وتجمّعوا ، فعسكروا في عمل هَمَذان؛ فوجّه المعتصم إليهم عساكر؛ فكان آخرَ عسكر وجّه إليهم عسكرٌ وجهه مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، وعقد له على الجبال في شوّال في هذه السنة ، فشخص إليهم في ذي القعدة ، وقرئ كتابه بالفتح يوم التّروية ، وقتل في عمل هَمَذان ستين ألفاً ، وهرب باقيهم إلى بلاد الروم(٣) .

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد ، وضحّى أهلُ مكة يوم الجمعة ، وأهل بغداد يوم السبت(٤) .

* * *

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٩) والبداية والنهاية [٨/ ١٧٠].

(٢) وقال أبو حنيفة الدينوري وكان قدومه بغداد مستهل شهر رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين [الأخبار الطوال/ ٤٠١] وأخرج الخطيب بسنده عن الصولي حدثني عون بن محمد قال: رأيت المعتصم أول ركبة ركبها ببغداد وهو خليفة حين قدم من الشام وكان أول يوم من رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين [تأريخ بغداد/ تر ١٤٥١].

(٣) انظر المنتظم لابن الجوزي [١١/ ٣٠].

(٤) وافق البسوي الطبري في خبر الحج فقال: حج بالناس صالح بن العباس بن محمد [المعرفة والتأريخ ١/ ٦٧] وانظر المنتظم [١١/ ٣٠].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوي][1]

فمن ذلكَ ما كانَ مِنْ ظُهورِ محمد بن القاسم بن عُمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خُراسان ، يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ ؛ فاجتمعَ إليهِ بها ناسٌ كثير؛ وكانت بينه وبين قوَّاد عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها ، فهُزِمَ هو وأصحابه ، فخرجَ هارباً يريدُ بعض كُور خُراسان ، كانَ أهلهُ كاتبوه؛ فلما صارَ بنَسا ، وبها والد لبعض مَنْ معه ، مضىٰ الرجلُ الذي معه من أهل نَسا إلى والدهِ ليسلِّمَ عليهِ ، فلما لقيَ أباهُ سألهُ عن الخبر ، فأخبرهُ بأمرهم وأنهم يقصدون كورة كذا ، فمضىٰ أبو ذلكَ الرجل إلى عامل نَسا ، فأخبره بأمر محمد بن القاسم؛ فذكر أن العامل بذل له عشرة آلاف درهم على دلالته عليه فدلَّهُ عليهِ ، فجاء العاملُ إلى محمد بن القاسم ، فأخذه واستوثق منه؛ وبعث به إلى عبد الله بن طاهر ، فبعث بهِ عبد الله بن طاهر إلى المعتصم ، فَقُدِمَ بهِ عليه يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر؛ فحبس ـ فيما ذكر ـ بسامراء عندَ مسرور الخادم الكبير في محبس ضيق ، يكون على قدر ثلاث أذرع في ذراعين ، فمكث فيهِ ثلاثة أيام ، ثم حَوَّلَ إلى موضع أوسعَ من ذلكَ ، وأجرىٰ عليهِ طعام ، ووُكِلَ به قوم يحفظونهُ ، فلمَّا كان ليلة الفِطْر ، واشتغلَ الناسُ بالعيد

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٤١).

والتهنئة احتال للخروج ، ذُكر أنه هرب من الحبس بالليل ، وأنهُ دُلّيَ إِليهِ حَبل من كُوَّةٍ كانت فِي أعلىٰ البيت ، يدخل عليه منها الضوء؛ فلما أصبحوا أتوا بالطعام للغداء افتقد. فذكر أنهُ جُعِلَ لمن دلَّ عليهِ مائة ألف درهم ، وصاحَ بذلكَ الصائح ، فلم يُعرف له خبر.

وفي هذه السنة قدم إسحاق بن إبراهيم بغداد من الجبل ، يوم الأحد لإحدىٰ عشرةَ ليلةٍ خَلَّتْ مِن جمادىٰ الأولىٰ ، ومعهُ الأسرىٰ من الخرمية والمستأمنة.

وقيلَ: إن إسحاق بن إبراهيم قتل مِنْهُمْ في محاربته إياهم نحواً من مائة ألف سوىٰ النساء والصبيان[١].

[ذكر الخبر في محاربة الزط][٢]

وفي هذه السنة وجَّهَ المعتصم عُجَيف بن عنبسة في جمادىٰ الآخرة منها لحرب الزُّط الذين كانوا قد عاثوا في طريق البصرة ، فقطعوا فيهِ الطريق ، واحتملوا الغلاَّت من البيادر بكسْكَر وما يليها من البَصْرة ، وأخافوا السبيل ، ورتَّبَ الخيل في كل سكة من سكك البرد تركض بالأخبار ، فكان الخبرُ يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه؛ وكان الذي يتولىٰ النفقة على عجيف من قِبَل المُعْتَصِم محمد بن منصور كاتب إبراهيم بن البَختري؛ فلما صارَ عُجَيف إلى واسط ، ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها الصافية في خمسة آلاف رجل ، وصار عُجَيف إلى نَهر يحمل من دجلة يقال له بَرْدُودَا؛ فلم يزل مقيماً عليه حتىٰ سدَّهُ. وقيل إنَّ عُجَيفاً إنما ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها نجيدا ، ووجَّهَ هارون بن نعيم ابن الوضاح القائد الخراساـنيّ إلى موضـع يُقالُ لهُ الصافية في خمسة آلاف رجل ، ومضىٰ عُجيفُ في خمسة آلاف إلى بَرْدُودا ، فأقامَ عليهِ حتىٰ سدَّهُ وسَدَّ أَنهاراً أُخَر كانوا يدخلون منها ويخرجون ، فحصرهم من كل وجه؛ وكان من الأنهار التي سدَّها عجيف ، نهر يقال لهُ العروس؛ فلما أخذ

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٧١) والخبر منكر ولم نر ما يؤيده لا من قريب ولا من بعيد سواء كان عند خليفة بن خياط أو البسوي حتى الطبري نفسه ذكره هنا بصيغة التضعيف والله أعلم.

(٢) انظر تعليقنا (٢٣٥) وأصل الخبر عن هزيمة الزط على يد القائد العباسي عجيف صحيح أيده خليفة (٢٤٦) وأما أغلب التفاصيل فلا والله أعلم.

عليهم طرقهم حاربهم ، وأسر منهم خمسمائة رجل ، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل ، فضرب أعناق الأسرىٰ وبعثَ برؤوس جميعهم إلى باب المعتصم؛ ثم أقام عُجَيف بإِزاء الزُّط خمسةَ عشرَ يوماً ، فظفرَ منهم بخلْقٍ كثير ، وكانَ رئيسُ الزُّط رجلاً يُقالُ لَهُ محمد بن عثمان؛ وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق ، ومكث عُجيف يقاتلهم ـ فيما قيل تِسعة أشهر .

وحجَّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد[١] .

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

[ذكر ظفر عجيف بالزط]

فمن ذلكَ ما كان من دخول عُجيف بالزُّط بغداد ، وقهره إياهم حتىٰ طلبوا منهُ الأمان فآمنهم ، فخرجوا إليهِ في ذي الحجة سنة تسع عشرة ومائتين على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم؛ وكانت عِدَّتهم ـ فيما ذكر ـ سبعةُ وعشرينَ ألفاً؛ المقاتلةُ منهم اثنا عشر ألفاً؛ وأحصاهم عُجَيفَ سبعةَ وعشرين ألف إنسان؛ بين رجل وامرأة وصبي ، ثم جعلهم في السُّفنِ ، وأقبل بهم حتىٰ نزل الزعفرانية فأعطىٰ أصحابهُ دينارين دينارين جائزة ، وأقامَ بها يوماً ، ثمَّ عَبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب؛ معهم البوقات ، حتىٰ دخلَ بهم بغداد يوم عاشوراء سنة عشرين ومائتين والمعتصم بالشماسيَّة في سفينةٍ يُقَالُ لَها الزَّو ، حتىٰ مرَّ به الزطُّ على تَعبئتهم ينفخون بالبوقات؛ فكان أولهم بالقُفْص وآخرهم بحذاء الشماسيَّة ، وأقاموا في سفُنهم ثلاثة أيام ، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي؛ فدفعُوا إلى بشر بن السميدع ، فذهب بهم إلى خانقين ، ثم نقلوا إلى الثَّغْرِ إلى عين زربة ، فأغارت عليهم الروم ، فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد[٢] ، فقال شاعرهم:

---

(١) وكذلكَ قال خليفة فيما يتعلق بالحج في هذه السنة (٣١٦) والبسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٦٨).

(٢) هذه التفاصيل وغيرها لم نجدها عند خليفة ولا البسوي وإنما ذكر خليفة أصل الخبر ضمن أحداث سنة (٢١٩ هـ) فقال وفيها أخرج الزط من البطيحة إلى بغداد على يد عجيف (تأريخ خليفة/ ٣١٦) وانظر المنتظم (١١/ ٥٠).

يـا أهـلَ بغـدادَ مـوتـوا دامَ غَيظكـمُ — شـوقـاً إلـى تمـرِ بَـرْنِـيٍّ وَشُهْـرِيـزِ
نَحـن الـذيـنَ ضـربنـاكـم مجـاهَـرَةً — قَسـراً وسُقنـاكـم سَـوقَ المعـاجيـزِ
فلم تشكروا الله نَعْماهُ التي سَلفَتْ — ولـم تحـوطـوا أَيـاديـه بتَعـزِيـز
فـاسْتَنْصِرُواالعبـدَ مـن أَبنـاءِ دَوْلَتِكُـمْ — مِـنْ يـا زمـانَ ومـن بلـجٍ ومـن تُـوزِ
ومـن شِنـاسَ وأَفشِيـنٍ ، ومـن فـرجٍ — المُعَلِميـنَ بـديبـاجٍ وإِبـريـز
واللابِسي كيمخار الصين قد خرَطَت — أردانَـهُ دَرْزُ بَـرْوَازِ الـدَّخـاريـزِ
والحـامليـن الشُّكَىٰ نِيْطت عـلائقها — إلـى منـاطـقِ خـاصٍ غيـرِ مَخـروز
يَفـرى بِبَيـضٍ مـن الهنـدي هـامَهُـمُ — بنـو بَهِلَّـةَ فـي أَبْنَـاءِ فيـروزِ
فـوارسٌ خيلُهـا دُهْـم مـودَّعـةٌ — علـى الخـراطِيـم منهـا والفـراريـز
مسخَّـرَات لهـا فـي المـاءِ أَجْنِحَـةٌ — كـالآبَنُـوسِ إذا اسْتَحضِـرْن والشِّيـز
متـىٰ تـرمـوا لنـا فـي غَمـرِ لجَّتِنـا — حِـذْراً نَصيـدُكُـمْ صيـدَ المعـافِيـزِ
أَوْ اختِطَـافـاً وإزهـاقـاً كمـا اختُطِفـت — طيـرُ الـدِّحـال حثـاثـاً بـالمنـاقيـزِ
ليسَ الجلادُ جِلادَ الزُّطِّ فاعترفوا — أَكـلَ الثَّـريـدِ ولا شُـربَ القَـواقيـز
نحـنُ الـذيـن سقينـا الحـرب دِرَّتَهـا — ونقنقنـا مقـاسـاة الكـواليـز
لَنَسْفَعَنَّكُـم سَفعـاً يَـذِلُّ لَـهُ — رب السَّرير ويُشجِي صاحبَ التِّيز
فأَبكوا على التَّمر أَبكى اللهُ أَعيُنَكم — في كلِّ أَضحَىٰ ، وفي فطرٍ ونيروزِ

[ذكر خبر مسير الأفشين لحرب بابك]

وفي هذه السنة عقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال ، ووجَّه به لحرب بابك؛ وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادىٰ الآخرة ، فعسكر بمصلَّىٰ بغداد ، ثم صارَ إلى بَرزَنْدْ[1] .

---

(١) لهذا الخبر ما يؤيده عند أبي حنيفة الدينوري إذ قال: فلما أفضىٰ الأمر إلى أبي إسحاق المعتصم بالله لم تكن همته غيره فأعدّ لهُ الأموال والرجال وأخرج مولاه الأفشين حيدر بن كاوس [الأخبار الطوال/ ٤٠٣] وسنتحدث في نهاية الحديث إن شاء الله عن أصل بابك هذا وتكملة خبر الدينوري كذلك.

[ذكر الخبر عن أمر بابك ومخرجه]

ذُكر أن ظهور بابك كان في سنة إحدىٰ ومائتين ، وكانت قريتهُ ومدينتهُ البَذ؛ وهزم من جيوش السلطان ، وقتلَ من قواده جماعة فلما أفضىٰ الأمر إلى المعتصم ، وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل ، وأمره أن يبني الحصونَ التي خربها بابك فيما بين زَنْجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرَة إلى أَردَبيل ، فتوجَّهَ أبو سعيد لذلك ، وبنىٰ الحصون التي خرَّبها بابك ، ووجهَ بابك سريّة لهُ في بعض غاراته ، وصيَّرَ أميرهم رجلاً يقال لهُ معاوية؛ فخرج فأغار على بعض النواحي ، ورجعَ منصرفاً؛ فبلغَ ذلكَ أبا سعيد محمد بن يوسف ، فجمعَ الناسَ وخرج إليهِ يعترضه في بعض الطريق ، فواقعهُ ، فقتل من أصحابهِ جماعة وأسر منهم جماعة ، واستنقذ ما كان حواه؛ فهذه أول هزيمة كانت على أصحاب بابك. ووجَّهَ أبو سعيد الرؤوس والأسرىٰ إلى المعتصم.

ثم كانت الأخرىٰ لمحمد بن البعيث؛ وذلكَ أن محمد بن البعيث كان في قلعة له حصينة تسمىٰ شاهى؛ كان ابن البعيث أخذها من الوجناء بن الرَّوَّاد ، عرضها نحو من فرسخين ، وهي من كورة أذْرَبِيجان ، وله حصن آخر في بلاد أذربيجان يسمىٰ تبْريز ، وشاهىٰ أمنعهما؛ وكان ابن البعيث مصالحاً لبابك ، إذا توجهت سراياه نزلت به. فأضافهم ، وأحسنَ إليهم حتىٰ أنسوا به ، وصارت لهم عادة. ثم إنَّ بابك وجَّهَ رجلاً من أصحابهِ يقالُ لَهُ عِصْمَة من أصبهبذته في سرية ، فنزل بابن البعيث ، فأنزل إليه ابن البعيث على العادة الجارية الغنم والأنزال وغير ذلك ، وبعث إلى عصمة أن يصعد إليهِ في خاصَّتهِ ووجوهِ أصحابه ، فصعد فغدَّاهم وسقاهم حتىٰ أسكرهم ثم وثبَ على عصمة فاستوثقَ منهُ ، وقتل مَنْ كانَ معهُ من أصحابهِ ، وأمرهُ أن يسمِّي رجلاً رجلاً من أصحابهِ باسمهِ؛ فكانَ يُدعىٰ بالرجل فيصعد ، ثم يأمر بهِ فيضرب عنقه؛ حتىٰ علموا بذلك؛ فهربوا ، ووجَّهَ ابن البعيث بعصمة إلى المعتصم ـ وكان البعيث أبو محمد صعلوكاً من صعاليك ابن الرَّواد ـ فسأل المعتصم عصمة عن بلاد بابك ، فأعلمه طُرقها ووجوه القتال فيها؛ ثم لم يزل عصمة محبوساً إلى أيامِ الواثق. ولما صار الأفشين إلى بَرزَند عسكر

بها ، ورمَّ الحصون فيما بين برزَندْ وأردبيل ، وأنزل محمد بن يوسف بموضع يقال لهُ خُش ، فاحتفر فيه خندقاً ، وأنزلَ الهيثم الغنوي القائد من أهل الجزيرة في رستاق يقال لهُ أرشق ، فرمَّ حصنه وحفر حوله خندقاً ، وأنزلَ عَلّويه الأعور من قُوَادِ الأبناء في حصن ممَّا يلي أردبيل يسمىٰ حصن النهر؛ فكانت السابلة والقوافل تخرجُ من أردبيل معها من يُبذرِقها حتىٰ تصل إلى حصن النَّهر، ثم يُبَذْرقها صاحب حصن النهر إلى الهيثم الغنوي ، ويخرجُ هيثم فيمن جاء من ناحيته حتىٰ يسلمه إلى أصحابِ حصن النَّهر ، ويُبَذْرق مَن جاء من أردبيل حتىٰ يصير الهيثم وصاحب حصن النهر في منتصف الطريق ، فيسلِّمَ صاحب حصن النهر مَنْ معهُ إلى هيثم ، ويسلم هيثم من معهُ إلى صاحب حصن النهر؛ فيسير هذا مع هؤلاء؛ وهذا مع هؤلاء. وإِنْ سبقَ أحدهما صاحبه إلى الموضع لم يَجُزْه حتىٰ يجيء الآخر؛ فيدفع كلَّ واحدٍ منهما مَنْ معهُ إلى صاحبِهِ ليُبذْرقهم ، هذا إلى أردبيل ، وهذا إلى عسكر الأفشين ، ثم يُبَذْرق الهيثم الغنوي مَنْ كانَ معهُ إلى أصحاب أبي سعيد؛ وقد خرجوا فوقفوا على منتصف الطريق ، معهم قوم ، فيدفع أبو سعيد وأصحابه مَنْ معهم إلى الهيثم ، ويدفعُ الهيثم مَنْ معهُ إلى أصحاب أبي سعيد ، فيصيرُ أبو سعيد وأصحابه بمَنْ في القافلة إلى خُش ، وينصرف الهيثم وأصحابهُ بمن صار في أيديهم إلى أرشق حتىٰ يصيروا به من غد ، فيدفعوهم إلى عَلَّويه الأعور وأصحابه ليوصلوهم إلى حيث يريدون ، ويصير أبو سعيد ومن معه إلى خُش ، ثم إلى عسكر الأفشين ، فتلقاه صاحب سيارة الأفشين ، فيقبض منه من في القافلة ، فيؤديهم إلى عسكر الأفشين؛ فلم يزل الأمرُ جارياً على هذا؛ وكلما صارَ إلى أبي سعيد أو إلى أحدِ من المسالح أحدٌ من الجَواسيس وجهّوا به إلى الأفشين؛ فكانَ لا يقتلُ الجواسيس ولا يضربُهم ، ولكن يهب لهم ويصلهم ويسألهم ما كان بابك يعطيهم ، فيُضعفه لهم ، ويقول للجاسوس: كن جاسوساً لنا.

[ذكر خبر وقعة الأفشين مع بابك بأرشق]

وفيها كانت وقعة بين بابك وأفشين بأرشق ، قتلَ فيها الأفشين من أصحاب

بابك خلقاً كثيراً؛ قيل أكثر من ألف ، وهرب بابك إلى مُوقَان ، ثم شخص منها إلى مدينته التي تدعىٰ البذ[1] .

[ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة بين الأفشين وبابك]

ذُكر أنَ سبب ذلكَ أن المعتصم وجَّهَ مَع بُغا الكبير بمال إلى الأفشين عَطاءً لجندِهِ وللنفقات ، فقدم بُغَا بذلكَ المالَ إلى أَردَبيل ، فلمَّا نزل أردبيل بلغَ بابك وأصحابه خبرهُ ، فتهيَّأ بابك وأصحابه ليقطعوا عليه قبل وصوله إلى الأفشين ، فقدم صالح الجاسوس على الأفشين ، فأخبره أنّ بُغا الكبير قد قدمَ بمال ، وأن بابك وأصحابه تهيَّئوا ليقتطعوه قبل وصوله إليك .

وقيل : كان مجيء صالح إلى أبي سعيد ، فوجَّهَ بِهِ أبو سعيد إلى الأفشين وهيأ بابك كميناً في مواضع ، فكتب الأفشين إلى أبي سعيد يأمره أن يحتال لمعرفة صحة خبر بابك ، فمضىٰ أبو سعيد متنكراً هو وجماعة من أصحابه ، حتىٰ نظروا إلى النيران والوقود في المواضع التي وصفها لهم صالح ، فكتب الأفشين إلى بُغا؛ أن يقيم بأَردَبيل حتىٰ يأتيه رأيَهُ ، وكتب أبو سعيد إلى الأفشين بصحَّة خبر صالح ، فوعد الأفشين صالحاً وأحسن إليه ، ثم كتب الأفشين إلى بُغا أن يظهر أنه يريد الرحيل ، ويشدَّ المالَ على الإبل ويُقْطِرها ويسير متوجِّهَاً من أَردبيل؛ كأنهُ يريد برْزَنْد؛ فإذا صارَ إلى مَسلحة النهر ، أو سارَ شبيهاً بفرسخين ، احتبسَ القطار حتىٰ يجوزَ مَن صحب المال إلى بَرْزند فإذا جَازَت القافلةُ رجع بالمالِ إلى أردبيل . ففعل ذلكَ بُغا ، وسارت القافلةُ حتىٰ نزلت النهر ، وانصرف جواسيس بابك إليهِ يعلمونه أنَّ المال قد حُمل ، وعاينوه محمولاً حتىٰ صارَ إلى النهر ، ورجعَ بُغا بالمال إلى أردبيل ، وركب الأفشينُ في اليوم الذي وعد فيه بُغا عند العصر من برزند ، فوافىٰ خشَّ مع غروب الشمس ، فنزل معسكراً خارج خندق أبي سعيد؛ فلما أصبح ركب في سرٍّ؛ لم يضرب طبلاً ولا نَشرَ علماً ، وأمر أن يلفّ الأعلامُ ، وأمر الناسَ بالسكوت ، وجدَّ في السير ، ورحلت القافلةُ التي كانت توجَّهت في ذلكَ اليوم من النهر إلى ناحية الهيثم الغنوي، ورحل الأفشين من خشّ يريد ناحية الهيثم ليصادفه في الطريق، ولم يعلم الهيثم [بمن كانَ معه]

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٧٢).

فرحل بمَن كان معهُ من القافلة يريد بها النهر.

وتعبَّأَ بابك في خَيلهِ ورجالهِ وعساكره، وصار على طريق النهر، وهو يظنُّ أن المالَ موافيه، وخرجَ صاحب النهر ببذَرق مَنْ قِبَله إلى الهيثم، فخرجت عليه خيل بابك؛ وهم لا يشكُّون أنَّ المال معه، فقاتلهم صاحبُ النهر، فقتلوه وقتلوا مَنْ كانَ معهم من الجند والسابلة، وأخذوا جميعَ ما كان معهم من المتاع، وغيره، وعلموا أن المال قد فاتهم، وأخذوا علَمَه، وأخذوا لباسَ أهل النهر ودراريعهم وطراداتهم وخفاتينَهم فلبسوها، وتنكروا ليأخذوا الهيثم الغنوي ومن معهُ أيضاً، ولا يعلمون بخروج الأفشين، وجاءوا كأنهم أصحاب النهر، فلما جاءوا لم يعرفواالموضع الذي كانَ يقف فيه علم صاحب النهر، فوقفوا في غير موضع صاحب النهر، وجاء الهيثم فوقف في موقفه، فأنكرَ ما رأىٰ، فوجَّهَ ابن عَمٍّ لَهُ، فقال لهُ: اذهب إلى هذا البغيض، فقل له: لأيِّ شيءٍ وقوفك؟ فجاء ابن عم الهيثم، فلما رأىٰ القومَ أنكرهم لما دنا منهم فرجعَ إلى الهيثم فقال له: إنَّ هؤلاء القومُ لستُ أعرفهم، فقال له الهيثم: أَخزاك الله! ما أجبنَكَ! ووجهَ خمسة فرسان من قبله، فلما جاءوا وقربوا من بابك، خرج من الخُرّمية رجلان فتلقَّوهما وأنكروهما، وأعلموهما أنهم قد عرفوهما، ورجعوا إلى الهيثم ركضاً، فقالوا: إنَّ الكافرَ قد قتل علويه وأصحابه، وأخذوا أعلامهم ولباسهم، فرحل هيثم منصرفاً، فأتىٰ القافلةَ التي جاء بها معه، وأمرهم أن يركضوا ويرجعوا، لئلا يُؤخذوا، ووقفَ هو في أصحابه، يسير بهم قليلاً قليلاً، ويقف بهم قليلاً، ليشغل الخرميّة عن القافلة، وصار شبيهاً بالحامية لهم؛ حتىٰ وصلت القافلة إلى الحصن الذي يكونُ فيهِ الهيثم ـ وهو أرشق ـ وقال لأصحابه: مَنْ يذهب منكم إلى الأمير وإلى أبي سعيد فيعلمهما وله عشرة آلاف درهم وفرس بدل فرسهِ إن نَفق فرسه فله مثل فرسه على مكانه؟ فتوجَّهَ رجلانِ من أصحابهِ على فرسينِ فارهين يركضانِ، ودخل الهيثم الحصنَ، وخرجَ بابكَ فيمن معه، فنزل بالحصن، وضع له كرسي وجلس على شرف بحيال الحصن، وأرسل إلى الهيثم: خلِّ عَن الحصن وانصرف حتىٰ اهدمه. فأبىٰ الهيثم وحاربه. وكان مع الهيثم في الحصن ستمائة راجل وأربعمائة فارس، وله خندق حصين، فقاتله، وقعد بابك فيمن معه، ووضع الخمر بين يديه ليشربها، والحرب مشتبكة كعادته، ولقىٰ

الفارسان الأفشين على أقلِّ من فرسخ من أرشق ، فساعة نظر إليهما من بعيد قال لصاحب مقدَّمته : أرى فارسين يركُضان ركضاً شديداً ، ثم قال : اضربوا الطبل ، وانشروا الأعلام واركضوا نحو الفارسين ، ففعل أصحابه ذلك ، وأسرعوا السير ، وقال لهم : صيحوا بهما لبيكَ لبيك! فلم يزل الناس في طَلَقٍ واحدٍ متراكضينَ ، يكسرُ بعضهم بعضاً حتىٰ لحقوا بابك؛ وهو جالسٌ ، فلم يتدارك أن يتحوَّل ويركب حتى وافتهُ الخيل والناس ، واشتبكت الحرب ، فلم يفلت من رجالة بابك أحد ، وأفلت هو في نفر يسير ، ودخل مُوقان ، وقد تقطَّع عنه أصحابه ، وأقامَ الأفشين في ذلك الموضع، وبات ليلته ثم رجع إلى معسكره ببرزند، فأقام بابك بمُوقان أياماً. ثم إنه بعث إلى البذ ، فجاءه في الليل عسكر فيهِ رجَّالة ، فرحل بهم من موقان حتىٰ دخل البذ ، فلم يزل الأفشين معسكراً ببرزَند ، فلما كان في بعض الأيام مرَّت به قافلة من خُش إلى بَرزند ، ومعها رجلٌ من قِبَل أبي سعيد يسمىٰ صالح آب كش ـ تفسيره السقاء ـ فخرج عليه أصبهبذ بابك ، فأخذ القافلةَ وقتل مَنْ فيها ، وقتل مَنْ كانَ مع صالح ، وأفلتَ صالح ، بلا خف مع من أفلت ، وقُتِلَ جميعُ أهل القافلة ، وانتُهِبَ متاعهم ، فقحط عسكر الأفشين من أجل تلك القافلةِ التي أخذت من الآب كش؛ وذلكَ أنها كانت تحمل الميرة ، فكتب الأفشين إلى صاحب المراغة يأمرهُ بحمل الميرة تعجيلها عليه؛ فإنَّ الناسَ قد قحطوا وجاعوا ، فوجه إليه صاحب المراغة بقافلة ضخمة ، فيها قريب من ألف ثَوْر سوىٰ الحمرُ والدوابّ وغير ذلك ، تحمل الميرة ، ومعها جند يُبذرقونها ، فخرجت عليهم أيضاً سريَّةٌ لبابك ، كان عليها طَرْخَان ـ أو آذين ـ فاستباحوها عن آخرها بجميعِ ما فيها ، وأصابَ الناس ضيق شديد؛ فكتب الأفشين إلى صاحب السيروَانَ أن يحمل إليه طعاماً فحمل إليها طعاماً كثيراً ، وأغاثَ الناسَ في تلكَ السنة وقدم بُغا على الأفشين بمالٍ ورجال .

[ذكر الخبر عن خروج المعتصم إلى القاطول]

وفي هذه السنة خرج المعتصم إلى القاطُول ، وذلكَ في ذي القعدة منها[1] .

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٧٢).

[ذكر الخبر عن سبب خروجه إليها]

ذكر عن أبي الوزير أحمد بن خالد ، أنه قال: بعثني المعتصم في سنة تسع عشرة ومائتين ، وقال لي: يا أحمد ، اشترِ لِي بناحية سامراء موضعاً أَبني فيه مدينة؛ فإني أتخوفُ أَن يصيحَ هؤلاء الخرمية صيحة؛ فيقتلوا غلماني؛ حتىٰ أَكونَ فوقهم ، فإن رابني منهم ريبٌ أتيتُهم في البر والبحر؛ حتىٰ آتي عليهم ، وقال لي: خذ مائة ألف دينارٍ ، قال: قلتُ: آخذ خمسة آلاف دينار ، فكلَّما احتجتُ إلى زيادةٍ بعثتُ إليكَ فاستزدتُ؟ قال: نعم؛ فأتيت الموضع ، فاشتريتُ سامراء بخمسمائةِ درهم من النصارىٰ أصحاب الدير ، واشتريتُ موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم ، واشتريتُ عدَّة مواضعٍ حتىٰ أحكمت ما أردت ، ثم انحدرتُ فأتيته بالصكاك ، فعزم على الخروجِ إليها في سنة عشرين ومائتين ، فخرج حتىٰ إذا قارب القاطول ضُربت له فيه القباب والمضارب ، وضرب الناس الأخبية ، ثم لم يزل يتقدَّم وتضرب له القباب حتىٰ وضع البناء بسامراء سنة إحدىٰ وعشرينَ ومائتين.

فذكر عن أبي الحسن بن أبي عباد الكاتب ، أن مسروراً الخادم الكبير ، قال: سألني المعتصم: أين كانَ الرشيد يتنزَّهُ إذا ضجرَ من المقامِ ببغداد؟ قال: قلتُ لهُ: بالقاطول ، وقد كان بنى هُناكَ مدينةً آثارها وسورها قائمٌ؟ وقد كان خافَ من الجند ما خاف المعتصم ، فلما وثبَ أهلُ الشأم بالشأم وعصوا ، خرج الرشيد إلى الرَّقة فأقامَ بها ، وبقيت مدينة القاطول لم تستتمَّ ، ولما خرجَ المعتصم إلى القاطول استخلفَ ببغداد ابنهُ هارون الواثق.

وقد حَدَّثني جعفر بن بوَّازة الفرَّاء ، أن سبب خروج المعتصم إلى القاطول ، كانَ أنَّ غلمانهُ الأتراك لا يزالون يجدُون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها؛ وذلكَ أنهم كانوا عُجْماً جفاة يركبون الدواب ، فيتراكضون في طُرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ويطئون الصبي ، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ، فربما هلكَ من الجراحِ بعضهم ، فشكت الأتراك ذلكَ إلى المُعْتصم ، وتأذَّت بهم العامة ، فذُكِرَ أَنهُ رأَىٰ المعتصم راكباً منصرفاً من المصلىٰ في يوم عيد الأضحىٰ أو فطر؛ فلما صار في مربعة

الحَرشي ، نظر إلى شيخ قد قام إليه ، فقال لهُ: يا أبا إسحاق ، قال: فابتدره الجند ليضربوه ، فأشارَ إليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ: ما لك! قال: لا جَزاكَ اللهُ عن الجوارِ خيراً! جاورتَنا وجئت بهؤلاء العُلوج فأسكنتَهم بين أَظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملتَ بهم نسوانَنا ، وقتلتَ بهم رجالنا! والمعتصم يسمع ذلكَ كله. قال: ثم دخلَ داره فلم يُرَ راكباً إلى السنة القابلة في مثل ذلكَ اليوم؛ فلما كان العام المقبل في مثل ذلكَ اليوم خرج فصلَّىٰ بالناس العيد؛ ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد؛ ولكنهُ صرف وجه دابتهِ إلى ناحية القاطول ، وخرج من بغداد ولم يرجع إليها.

[ذكر الخبر عن غضب المعتصم على الفضل بن مروان]

وفي هذه السنة غضب المعتصم على الفضل بن مروان وحبسه(١).

ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وحبسه إياه وسبب اتصاله بالمعتصم:

ذُكر أن الفضل بن مروان ـ وهو رجل من أهل البَرَدَان ـ كانَ مُتَصِلاً برجل من العمَّال يكتب له ، وكان حسن الخط ، ثم صار مع كاتب كان للمعتصم يقال له يحيىٰ الجُرْمَقاني ، وكانَ الفضلُ بن مروان يخطُّ بينَ يديهِ؛ فلما مات الجُرْمقاني صار الفضلُ في موضعهِ؛ وكان يكتبُ للفضل عليَّ بن حسان الأنباري ، فلم يزل كذلكَ حتىٰ بلغَ المعتصم الحالُ التي بلغها ، والفضلُ كاتبه ، ثم خرجَ معهُ إلى معسكر المأمون ، ثم خرجَ معه إلى مصر ، فاحتوىٰ على أموال مصر ، ثم قدم الفضل قبل موت المأمون بغداد ، ينفذ أمور المعتصم ، ويكتب على لسانه بما أحب حتىٰ قدم المعتصم خليفةً ، فصارَ الفضل صاحب الخلافة ، وصارت الدَّواوين كلها تحت يديه وكنز الأموال ، وأقبل أبو إسحاق حين دخلَ بغداد يأمرهُ بإعطاء المغنِّي والمُلهِي؛ فلا ينفذ الفضل ذلك؛ فثقلَ على أبي إسحاق.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٧٢).

فحدثني إبراهيم بن جهروَيْه أن إبراهيم المعروف بالهفْتِي ـ وكان مضحكاً ـ أمر له المعتصم بمال ، وتقدَّمَ إلى الفضل بن مروان في إعطائه ذلك ، فلم يعطِهِ الفضل ما أمر بِهِ المعتصم؛ فبينا الهَفْتي يوماً عند المعتصم ، بعد ما بُنيت له داره التي ببغداد ، واتُّخذ له فيها بستان ، قام المعتصم يتمشَّى في البستان ينظر إليه وإلى ما فيهِ من أنواعِ الرَّياحينِ والغُروس ، ومعهُ الهفتي ، وكان الهفتي يصحب المعتصم قبل أن تُفضي الخِلافةُ إليهِ ، فيقول فيما يداعبه: واللهِ لا تفلح أبداً! قال: وكان الهفتي رجلاً مربوعاً ذا كُدنة ، والمعتصم رجلاً معرَّقاً خفيف اللحم ، فجعل المعتصم يسبقُ الهفتيَّ في المشي ، فإذا تقدمهُ ولم يرَ الهفتي معه التفتَ إليهِ ، فقال: ما لكَ لا تمشي! يستعجله المعتصم في المشي ليلحق بهِ؛ فلما كثر ذلكَ من أمر المعتصم على الهَفْتي ، قال لهُ الهفتي ، مداعباً لهُ: كنتُ أصلحكَ الله ، أراني أماشي خليفة؛ ولم أكن أراني أماشي فَيْجَاً ، واللهُ لا أفلحت! فضحكَ منها المعتصم ، وقال: ويلكَ! هل بقيَ من الفلاحِ شيءٌ لم أدركهُ! أبعدَ الخلافةِ تقول هذا لي! فقال له الهفتي: أتحسب أنكَ قد أفلحتَ الآنَ إنما لكَ من الخِلافةِ الاسم؛ واللهِ ما يجاوز أمركَ أذُنيكَ؛ وإنما الخليفة الفَضْل بن مروان ، الذي يأمر فينفذُ أمرهُ من ساعته ، فقال له المعتصم: وأيُّ أمرٍ لي لا ينفذ!؟ فقال له الهفتي: أمرتَ لي بكذا وكذا منذ شهرين؛ فما أُعطِيتُ مما أمرتَ به منذ ذاكَ حبة!.

قال: فاحتجنَها على الفضل المعتصم حتىٰ أوقع به.

فقيل: إن أوَّلَ ما أحدثه في أمرِهِ حين تغيَّر لهُ أن صيَّرَ أحمدَ بن عمار الخُراساني زماماً عليه في نفقات الخاصة ، ونصر بن منصور بن بسام زماماً عليهِ في الخراج وجميع الأعمال؛ فلم يزل كذلك؛ وكان محمد بن عبد الملك الزيَّات يتولَّىٰ ما كان أبوه يتولاَّه للمأمون من عمل المشمّس والفساطيط وآلة الجمَّازات ويكتب على ذلكَ مما جرىٰ على يدي محمد بن عبد الملك ، وكانَ يلبس إذا حضر الدار دُراعة سوداء وسيفاً بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان: إنما أنت تاجر ، فما لكَ وللسواد والسيف! فتركَ ذلكَ محمد ، فلما تركهُ أخذه الفضل برفع حسابه إلى دُليل بن يعقوب النصراني ، فرفعه ، فأحسن دُلَيل في أمره؛ ولم يرزأهُ شيئاً ، وعرض عليه محمد هدايا ، فأبىٰ دُليل أن يقبل منها شيئاً ، فلما

كانت سنة تسع عشرة ومائتين ـ وقيل سنة عشرين وذلكَ عندي خطأ ـ خرجَ المعتصم يريد القاطول ، ويريدُ البناء بسامراء ، فصرفه كثرة زيادة دجلة؛ فلم يقدر على الحركة ، فانصرفَ إلى بغداد إلى الشماسيَّة ، ثم خرجَ بعد ذلك؛ فلما صار بالقاطول غضب على الفَضْل بن مروان وأهل بيتِهِ في صفر ، وأمرهم برفع ما جرىٰ على أيديهم؛ وأخذ الفضل وهو مغضوب عليه في عمل حسابه ، فلما فرغَ من الحساب لم يناظر فيه ، وأمر بحبسه ، وأن يحمل إلى منزله ببغداد في شارع الميدان ، وحبس أصحابه ، وصيَّرَ مكانهُ محمد بن عبد الملك الزيات ، فحبس دُليلاً ، ونفىٰ الفضل إلى قرية في طريق الموصل يقال لها السن ، فلم يزل بها مقيماً؛ فصار محمد بن عبد الملك وزيراً كاتباً ، وجرىٰ على يديهِ عامةُ ما بنى المعتصم سامراء من الجانبين الشرقيِّ والغربيِّ ، ولم يزل في مرتبته حتىٰ استُخلِفَ المُتوكل ، فقتل محمد بن عبد الملك.

وذكر أن المعتصم لما استوزر الفضل بن مروان حلَّ من قبله المحل الذي لم يكن أحد يطمعُ في ملاحظته ، فضلاً عن منازعته ولا في الاعتراض في أمرهِ ونهيه ، وإرادتهِ وحكمه؛ فكانت هذه صفتهُ ومقدارهُ؛ حتىٰ حملته الدَّالة ، وحرَّكتهُ الحُرمةُ على خلافه في بعض ما كان يأمره به ، ومنعَهُ ما كان يحتاجُ إليه من الأموال في مهم أموره؛ فذكر عن ابن أبي داود أنه قال: كنت أحضر مجلس المعتصم؛ فكثيراً ما كنت اسمعه يقول للفضل بن مروان: احمل إليَّ كذا وكذا من المال ، فيقول: ما عندي ، فيقول: فاحتلها من وجه من الوجوه ، فيقول: ومن أين أحتالها! ومَن يعطيني هذا القدر من المال؟ وعندَ من أجده؟ فكانَ ذلكَ يسوءهُ وأعرفهُ في وجهه؛ فلمَّا كثر هذا من فعله ركبتُ إليهِ يوماً فقلت له مستخلياً به: يا أبا العباس؛ إنَّ الناسَ يدخلون بيني وبينكَ بما أكرهُ وتكره؛ وأنتَ امرؤ قد عرفتُ أخلاقَكَ ، وقد عرفها الداخلونَ بيننا؛ فإن حُرِّكت فيك بحق فاجعله باطلاً ، وعلى ذلكَ فما أدع نصيحتك وأداء ما يجب عليَّ في الحق لك؛ وقد أراكَ كثيراً ما ترد على أميرِ المؤمنين أجوبةً غليظةً تُرمضه ، وتقدح في قلبه ، والسلطان لا يحتمل هذا لابنه ، لا سيما إذا كثرَ ذلكَ وغلظ. قال: وما ذاك يا أبا عبد الله؟ قلتُ: أسمعهُ كثيراً ما يقول لك: نحتاجُ إلى كذا من المال لنصرفَهُ في وجهِ كذا ، فتقول: ومن يعطيني هذا! وهذا ما لا يحتملهُ الخُلَفاء. قال: فما أصنعُ إذا طلب

مني ما ليسَ عندي؟ قلت: تصنع أن تقول: يا أميرَ المؤمنين ، نحتالُ في ذاك بحيلة ، فتدفعُ عَنكَ أياماً إلى أن يتهيّأ ، وتحمل إليه بعض ما يطلب وتسوفه بالباقي ، قال نعم أفعل وأصبر إلى ما أَشرتَ به. قال: فواللهِ لكأني كنتُ أغريهِ بالمنع ، فكان إذا عاودهُ بمثلِ ذلكَ من القول عاد إلى مثل ما يكره من الجواب. فلما كَثُرَ ذلكَ عليه ، دخلَ يوماً إليهِ وبينَ يديهِ حزمةُ نرجس غض ، فأخذها المعتصم فهزَّها ، ثم قال: حيَّاكَ اللهُ يا أبا العباس! فأخذها الفضلُ بيمينهِ وسلَّ المعتصم خاتمه من أصبعه بيساره ، وقال لهُ بكلام خفي: أعطني خاتمي ، فانتزعهُ من يدهِ ، وضعه في يد ابن عبد الملك.

وحجَّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد[1].

ثم دخلت سنة إحدىٰ وعشرينَ ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلكَ الوقعة التي كانت بين بابك وبغا الكبير من ناحية هَشْتَادسر ، فهزم بُغا واستبيح عسكره.

[ذكر الخبر عن وقعة الأفشين مع بابك في هذه السنة]

وفيها واقع الأفشين بابك وهزمه[2].

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وكيف كان السبب فيها:

ذكر أن بُغا الكبير قدم بالمال الذي قد مضىٰ ذكره؛ وأنَّ المعتصم وجَّهه معه إلى الأفشين عطاءً للجند الذي كانَ معه ولنفقات الأفشين. على الأفشين ، وبالرجال الذين توجَّهوا معهُ إليه ، فأعطىٰ الأفشين أصحابهُ ، وتجهَّزَ بعد النيروز ، ووجَّهَ بُغَا في عسكر ليدور حول هَشْتَادسر ، وينزل في خندق محمد بن حميد ويحفره ويُحكمه وينزله ، فتوجَّه بُغا إلى خندق محمد بن حُميد ، وصار

---

(١) وكذلكَ قال خليفة في تأريخه (٣١٦) والبسوي في المعرفة والتأريخ (١/ ٦٩).

(٢) انظر المنتظم (١١/ ٦٤).

إليهِ ، ورحل الأفشين من برْزَند ، ورحل أبو سعيد من خُش يريد بابك ، فتوافوا بموضع يقال لهُ دروذ ، فاحتفر الأفشين بها خندقاً ، وبنىٰ حولهُ سوراً ، ونزلَ هو وأبو سعيد في الخندق مع مَنْ كانَ صاد إليهِ من المطوعة؛ فكان بينهُ وبين البَذ سِتَّة أميال. ثم إن بُغا تجهزَّ ، وحمل معه الزَّادَ من غير أن يكون الأفشين كتبَ إليه ولا أمرهُ بذلك ، فدار حولَ هَشتادسر حتىٰ دخلَ إلى قريةِ البذ ، فنزل في وسطها ، وأقامَ بها يوماً واحداً ، ثم وجه ألف رجل في علافة له ، فخرج عسكر من عساكر بابك ، فاستباح علافة ، وقتل جميع مَنْ قاتلهُ منهم ، وأسر من قدر عليه ، وأخذ بعض الأسرىٰ؛ فأرسلَ لهم رجلين مما يلي الأفشين ، وقال لهما: اذهبا إلى الأفشين ، وأعلماهُ ما نزل بأصحابكم. فأشرف الرَّجُلان ، فنظر إليهما صاحب الكُوهْبانيَّة ، فحرَّكَ العلمَ ، فصاحَ أهلُ العسكر: السلاح السلاح! وركبوا يريدون البذّ ، فتلقَّاهُم الرجلان عُريانين؛ فأخذهما صاحبُ المقدِّمة ، فمضىٰ بهما إلى الأفشين ، فأخبراه بقضيتهما ، فقال: فعل شيئاً من غير أن نأمره. ورجع بُغَا إلى خندق محمد بن حميد شبيهاً بالمنهزم؛ وكتبَ إلى الأفشين يعلمهُ ذلكَ ، ويسألهُ المدد ، ويعلمهُ أنَّ العسكر مفلول ، فوجَّهَ إليهِ الأفشينُ أخاه الفضل بن كاوس وأحمد بن الخليل بن هشام وابن جَوْشن وجَنَاحا الأعور السكري ، وصاحب شرطة الحسن بن سهل ـ وأحد الأخوين قرابة الفضل بن سهل ـ فداروا حولَ هَشْتادسر ، فسُرَّ أهل عسكره بهم ، ثم كتبَ الأفشين إلى بُغا يعلمهُ أنه يغزو بابك في يوم سمَّاه له ، ويأمرهُ أن يغزوَه في ذلكَ اليوم بعينه ، ليحاربهُ من كلا الوجهين؛ فخرجَ الأفشينُ في ذلكَ اليوم مِنْ دَروذ يريد بابك ، وخرجَ بُغا من خندق محمد بن حميد ، فصعد إلى هَشتادسر ، فعسكر على دعوة بجنب قبر محمد بن حميد ، فهاجت ريحٌ باردة ومطر شديد؛ فلم يكن للناس عليها صبر لشدة البرد وشدَّةِ الريح ، فانصرفَ بُغا إلى عسكرِهِ ، وواقعهم الأفشين من الغد ، وقد رجعَ بُغا إلى عسكره ، فهزمهُ الأفشين ، وأخذ عسكرهُ وخيمتهُ وامرأة كانت معه في العسكر. ونزل الأفشين في معسكر بابك ، ثم تجهَّزَ بُغا من الغد ، وصعد هَشْتادسر ، فأصابَ العسكر الذي كانَ مقيماً بإزائهِ بهشتادسر وقد انصرف إلى بابك ، ورحل بُغا إلى موضعه ، فأصابَ خُرَثيًا وقُماشاً ، وانحدر من هَشتادسر يريد البذ ، فأصابَ رجلاً وغلاماً نائمين فأخذهما داودسياه ـ وكان على مقدمته ـ فسألهما ، فذكرا أن رسولَ بابك أتاهم في الليلةِ التي انهزم فيها بابك ، فأمرهم أن

يوافوه بالبذ ، فكان الرجل والغلام سكرانين ، فذهب بهما النوم ، فلا يعرفان من الخبر غير هذا؛ وكان ذلكَ قبل صلاة العصر ، فبعث بُغا إلى داودسياه: قد توسطنا الموضع الذي نعرفه ـ يعني الذي كنا في المرة الأولىٰ ـ وهذا وقت المساء ، وقد تعب الرَّجالة ، فانظر جبلاً حصيناً يسعُ عسكرنا ، حتىٰ نعسكرَ فيهِ ليلتنا هذه. فالتمسَ داودسياه ذلك ، فصعد إلى بعض الجبال ، فالتمسَ أعلاهُ فأشرف ، فرأىٰ أعلامَ الأفشين ومعسكره شبه الخيال فقال: هذا موضعنا إلى غدوة ، وننحدر من الغد إلى الكافر إن شاء الله. فجاءهم في تلكَ الليلة سحابٌ وبرد ومطر وثلج كثير؛ فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل يأخذ ماء ، ولا يسقي دابَّته من شدَّة البرد وكثرة الثلج؛ وكأنهم كانوا في ليل من شدَّة الظلمةِ والضباب. فلمَّا كانَ اليوم الثالث قال الناسُ لبُغَا: قد فني ما معنا من الزَّادِ ، وقد أضرَّ بنا البردُ؛ فانزل على أيِّ حالة كانت؛ إما راجعين وإما إلى الكافر. وكان في أيام الضبَّاب. فبيتَ بابك الأفشين ونقض عسكره ، وانصرف الأفشين عنه إلى معسكره ، فضرب بُغا بالطَّبْلِ وانحدر يريدُ البذَّ حتىٰ صار إلى البطنِ ، فنظر إلى السماءِ منجليةً ، والدُّنيا طيبة ، غير رأس الجبل الذي كانَ عليهِ بُغا ، فعبىٰ بُغا أصحابه ميمنةً وميسرةً ومقدِّمة ، وتقدَّمَ يريد البذ ، وهو لا يشكُّ أن الأفشين في موضع معسكره ، فمضىٰ حتىٰ صار بلزقِ جَبل البذ ، ولم يبق بينهُ وبين أن يشرف على أبياتِ البذ إلا صعود قَدْر نصف ميل؛ وكان على مقدِّمته جماعة فيهم غلامٌ لابن البَعيث ، له قرابة بالبذ ، فلقيتهم طلائعُ لبابك ، فعرف بعضهم الغلام ، فقال له: فلان؛ فقال: من هذا ها هنا؟ فسمىٰ له مَنْ كانَ معهُ من أهل بيته ، فقال: ادنُ حتى أكلمك ، فدنا الغلامُ منهُ ، فقال لهُ: ارجع وقلْ لمن تعني به يتنحَّىٰ؛ فإنا قد بيَّتنا الأفشين ، وانهزمَ إلى خندقهِ وقد هيَّأنا لكم عسكرين ، فعجل الانصراف لعلكَ أن تفلت. فرجعَ الغلامُ فأخبر ابن البعيث بذلكَ ، وسمَّى لهُ الرجل ، فعرفهُ ابن البعيث ، فأخبر ابن البعيث بُغا بذلك ، فوقفَ بُغا شاورَ أصحابهُ ، فقال بعضهم: هذا باطل؛ هذه خُدعة ليس من هذا شيء ، فقال بعض الكُوهبانين: إنَّ هذا رأسُ جبل أعرفه ، مَنْ صعدَ إلى رأسه نظر إلى عسكر الأفشين. فصعد بُغا والفضل بن كاوس وجماعة منهم ممن نشط ، فأشرفوا على الموضع ، فلم يروا فيه عسكر الأفشين فتيقنوا أنه قد مضىٰ ، وتشاوروا فرأوا أن ينصرف الناس راجعين في صدر النهار قبل أن يجنهم الليل ، فأمر بُغا داودسياه

بالانصراف، فتقدَّمَ داود وجدَّ في السير، ولم يقصد الطريق الذي كانَ دخلَ منهُ إلى هَشتادسر مخافةَ المضايق والعقاب، وأخذ الطريقَ الذي كانَ دخلَ منهُ في المرَّةِ الأولىٰ، يدورُ حول هَشْتَادسر، وليس فيهِ مضيق إلاَّ في موضع واحد:

فسارَ بالناس، وبعث بالرجَّالة، فطرحوا رماحهم في الطريق، ودخلتهم وحشة شديدة ورُعب، وصار بُغا والفضل بن كاوس وجماعة القوَّاد في الساقة، وظهرت طلائع بابك؛ فكلما نزل هؤلاء جبلاً صعدتهُ طلائع بابك؛ يتراءون لهم مرَّة ويغيبون عنهم مرَّة، وهم في ذلكَ يَقفُونَ آثارهم، وهم قدر عشرة فرسان؛ حتىٰ كان بين الصَّلاتين: الظهر والعصر، فنزل بغا ليتوضَّأَ ويصلِّي، فتدانت منهم طلائع بابك، فبرزوا لهم، وصلىٰ بُغا ووقف في وُجوههم، فوقفوا حين رأوهُ، فتخوفَ بُغا على عسكرِهِ أن يواقعهُ الطلائع من ناحية، ويدور عليهم في بعض الجبال والمضايق قومٌ آخرون، فشاور من حضره، وقال: لستُ آمن أن يكونوا جعلوا هؤلاء مشغلة، يحبسوننا عن المسير، ويقدِّمونَ أصحابهم ليأخذوا على أصحابنا المضايق. فقال له الفضل بن كاوس: ليس هؤلاء أصحاب نهار، وإنما هم أصحاب ليل؛ وإنما يتخوف على أصحابنا من الليل، فوجَّهَ إلى داودسياه ليُسرِعَ السير ولا ينزل، ولو صار إلى نصف الليل حتىٰ يجاوز المضيق، ونقف نحن ها هنا؛ فإن هؤلاء ما داموا يروننا في وجوههم لا يسيرون. فنماطلهم وندافعهم قليلاً قليلاً حتىٰ تجيء الظلمة؛ فإذا جاءت الظلمة لم يعرفوا لنا موضعاً، وأصحابنا يسيرون فينفذون أولاً فأولاً، فإن أخذ علينا نحنُ المضيقُ تخلصنا من طريق هَشتادسر أو من طريق آخر.

وأشار غيره على بُغا. فقال: إنَّ العسكر قد تقطع، وليس يدرك أوَّله آخره. والناس قد رموا بسلاحهم، وقد بقي المالُ والسلاح على البغال، وليسَ معه أحد، ولا نأمن أن يخرج عليه من يأخذ المال والأسير ـ وكان ابن جويدان معهم أسيراً أرادوا أن يفادوا بهِ كاتباً لعبد الرحمن بن حبيب، أسره بابك ـ فعزم بُغا على أن يعسكر بالناسِ حين ذُكر له المال والسلاح والأسير، فوجَّهَ إلى داودسياه: حيثما رأيتَ جبلاً حصيناً، فعسكر عليه.

فعدل داود إلى جبل مؤرب، لم يكن للناس موضع يقعدون فيهِ من شدَّةِ هبوطهِ، فعسكر عليه، فضرب مضرباً لبُغا على طرف الجبل في موضع شبيه

بالحائط؛ ليس فيهِ مسلك ، وجاء بغا فنزل ، وأنزل الناسَ وقد تعبُوا وكلُّوا ، وفنيت أزوادُهم ، فباتوا على تعبئة وتحارُس من ناحية المصعد ، فجاءهم العدوُ من الناحية الأُخرىٰ ، فتعلقوا بالجبل حتىٰ صاروا إلى مضرب بُغا ، فكسبوا المضرب ، وبيتوا العسكر ، وخرج بُغا راجلاً حتىٰ نجا ، وجُرح الفضل بن كاوس ، وقتل جناح السكري ، وقتل ابن جَوشن ، وقتل أحد الأخوين قرابة الفضل بن سهل ، وخرج بُغا مع العسكر راجلاً ، فوجد دابة فركبها ، مرَّ بابنِ البَعيث فأصعده على هَشتادسر ، حتىٰ انحدر بهِ على عسكر محمد بن حُميد ، فوافاهُ في جوف الليل ، وأخذ الخُرَّمية المال والسلاح والأسير ابن جويدان ، ولم يتبعوا الناس ، ومرَّ الناسُ منهزمين منقطعين حتىٰ وافوا بُغا ، وهو في خندق محمد بن حميد ، فأقامَ بُغا في خندق محمد بن حُميد خمسةَ عشر يوماً ، فأتاهُ كتاب الأفشين يأمرهُ بالرجوع إلى المَرَاغة ، وأن يردَّ إليهِ المدد الذي كانَ أمدَّهُ بهِ ، فمضَىٰ بُغا إلى المراغة ، وانصرفَ الفضل بن كاوس وجميعُ مَنْ كان جاء معهُ من معسكر الأفشين إلى الأفشين ، وفرَّق الأفشين الناس في مشاتيهم تلك السنة ، حتىٰ جاء الربيع من السنة المقبلة .

* * *

[خبر مقتل طرخان قائد بابك]

وفي هذه السنة قُتِلَ قائد لبابك كان يقال لهُ طَرْخان .

ذكر سبب قتله :

ذُكِرَ أَنَّ طرخان هذا كان عظيم المنزلة عند بابك ، وكان أحد قوّادهِ ، فلمَّا دخلَ الشتاء من هذه السنة ، استأذنَ بابك في الإذن لهُ أن يشتو في قرية له بناحية المَرَاغة ـ وكان الأفشين يرصده ، ويحبُّ الظفر به؛ لمكانه من بابك ـ فأذن لهُ بابك ، فصار إلى قريته ليشتو بها بناحية هشتادسر ، فكتب الأفشين إلى تُرك مولىٰ إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وهو بالمَراغة ، أن يسري إلى تلك القرية ـ ووصفها له ـ حتىٰ يقتل طرخان ، أو يبعث به إليه أسيراً. فأسرىٰ تُرك إلى طِرخَان ، فصار إليهِ في جَوفِ الليل ، فقتل طرخان وبعث برأسهِ إلى الأفشين .

* * *

وفي هذه السنة قدم صول أرتكين وأهل بلادهِ في قيود فنُزعت قيودُهم ، وحمل على الدواب منهم نحو من مائتي رجل.

وفيها غضب الأفشين على رجاء الحضاري وبعث به مقيَّداً.

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسىٰ بن موسىٰ بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو والي مكة[١].

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كانَ فيها من الأحداث

فمن ذلكَ ما كان من توجيه المعتصم جعفر بن دينار الخياط إلى الأفشين مدداً لهُ ، ثم إتباعهُ بعد ذلكَ بإيتاخ وتوجيهه معه ثلاثين ألف ألف درهم عطاء للجند وللنفقات[٢]

* * *

[ذكر خبر الوقعة بين أصحاب الأفشين وآذين قائد بابك]

وفيها كانت وقعة بين أصحاب الأفشين وقائد لبابك يقال له آذين.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وما كان سببها

ذكر أن الشتاء لما انقضىٰ من سنة إحدىٰ وعشرين ومائتين وجاء الربيعُ ، ودخلت سنةُ اثنتين وعشرين ومائتين ، وجَّه المعتصم إلى الأفشين ما وجهه إليه من المدد والمال ، فوافاهُ ذلكَ كله وهو ببرزند ، سلَّمَ إيتاخ إلى الأفشين المال والرِّجال الذين كانوا معهُ وانصرف ، وأقامَ جعفر الخياط مع الأفشين مدة ، ثم

---

(١) وكذلكَ قال البسوي في المعرفة (١/ ٦٩).

(٢) انظر المنتظم (١١/ ٧٣) وانظر تعليقنا في نهاية هذه الأحداث (٩/ ٥٤).

رحل الأفشين عند إمكان الزَّمان ، فصار إلى موضع يقال له كلان روذ ، فاحتفر فيهِ خندقاً ، وكتب إلى أبي سعيد ، فرحل من بَرْزَند إلى إزائه على طرف رِستاق كلان روذ ، وتفسيره: نهر كبير؛ بينهما قدر ثلاثة أميال ، فأقامَ معسكراً في خندق ، فأقامَ بكلان روذ خمسة أيام ، فأتاهُ من أخبره أن قائداً من قواد بابك يدعىٰ آذين ، قد عسكرَ بإزاء الأفشين ، وأنهُ قد صير عيالهُ في جبل يشرف على رُوذ الروذ ، وقال لا أتحصنُ من اليهود ـ يعني المسلمين ـ ولا أدخل عيالي حصناً؛ وذلكَ أنَّ بابك قال له: أدخِل عيالكَ الحصن ، قال: أنا أتحصَّن من اليهود! والله لا أدخلتهم حصناً أبداً ، فنقلهم إلى هذا الجبل ، فوجَّهَ الأفشين ظفر بن العلاء السعدي والحسين بن خالد المدائني من قواد أبي سعيد في جماعة من الفرسان والكوهبانية ، فساروا ليلتهم من كلان روذ؛ حتىٰ انحدروا في مضيق لا يمرُّ فيهِ راكب واحد إلاَّ بجَهد ، فأكثرُ الناس قادوا دوابَّهم ، وانسلوا رجلاً خلفَ رجلٍ ، فأمرهم أن يصيروا قبل طلوع الفجر على روذ الروذ ، فيعبر الكوهبانية رجَّالة؛ لأنه لا يمكن الفارس أن يتحرَّكَ هُناك ، ويتسلقوا الجبل ، فصاروا على روذ الروذ قبل السَّحر ، ثمَّ أمر من أطاق من الفرسان أن يرتجل وينزع ثيابه ، فترجل عامة الفرسان ، وعبروا وعبر معهم الكوهبانية جميعاً ، وصعدوا الجبل؛ فأخذوا عيال آذين ، وبعض ولده ، وعبروابهم ، وبلغ آذين الخبر بأخذ عياله؛ وكان الأفشين عند توجه هؤلاء الرجالة ودخولهم المضيق يخاف أن يؤخذ عليهم المضيق ، فأمر الكُوهبانية أن يكون معهم أعلام ، وأن يكونوا على رؤوس الجبال الشواهق في المواضع التي يُشرفون منها على ظَفَر بن العلاء وأصحابه ، فإن رأوا أحداً يخافونهُ حرَّكوا الأعلام ، فبات الكوهبانية على رؤوس الجبال ، فلما رجعَ ابنُ العلاء والحسين بن خالد بمن أخذوا من عيال آذين ، وصاروا في بعض الطريق قبل أن يصيروا إلى المضيق ، انحدر عليهم رجالة آذين فحاربوهم قبل أن يدخلوا المضيق ، فوقع بينهم قتلىٰ ، واستنقذوا بعض النساء. ونظر إليهم الكوهبانية الذين رتَّبهم الأفشين ، وكان آذين قد وجَّه عسكرين؛ عسكراً يقاتلهم ، وعسكراً يأخذ عليهم المضيق؛ فلما حرَّكوا الأعلامَ وجه الأفشين مظفر بن كيدر في كردوس من أصحابه ، فأسرع الركض. ووجَّهَ أبا سعيد خلف المظفر ، وأتبعهما ببخارا خُذاه ، فوافوا؛ فلما نظر إليهم رجَّالةُ آذين الذين كانوا على المضيق انحدروا عن المضيق ، وانضموا إلى أصحابهم ،

ونجا ظفر بن العلاء والحسين بن خالد ومَن معهما من أصحابهما ، ولم يقتل منهم إلا من قتل في الوقعةِ الأولىٰ وجاؤوا جميعاً إلى عسكر الأفشين؛ ومعهم النساء اللواتي أخذوهن.

* * *

[ذكر خبر فتح البذ مدينة بابك]

وفي هذه السنة فتحت البذ مدينة بابك ، ودخلها المسلمون واستباحوها ، وذلكَ في يوم الجمعة لعشر بَقِيْنَ من شهر رمضان في هذه السنة[١].

ذكر الخبر عن أمرها وكيف فُتِحَت والسبب في ذلك:

ذُكر أنَّ الأفشين لما عزم على الدنو من البذ والارتحال من كلان روذ جعل يُرحلف قليلاً قليلاً ـ على خلافِ زحفهِ قبل ذلك ـ إلى المنازل التي كان ينزلها؛ فكان يتقدم الأميال الأربعة ، فيعسكر في موضع على طريق المضيق الذي ينحدر إلى روذ الرَّوذ ، ولا يحفر خندقاً؛ ولكنهُ يقيم معسكراً في الحسك ، وكتب إليه المعتصم يأمرهُ أن يجعل الناسَ نوائبَ كراديس تقف على ظهور الخيل ، كما يدور العسكر بالليل؛ فبعض القوم معسكرون وبعضٌ وقوف على ظهور دوابِّهم على ميل كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات؛ كي إن دهمهم أمر يكون الناسُ على تعبية والرَّجالةُ في العسكر؛ فضجَّ الناسُ من التعب ، وقالوا: كم نقعد ها هنا في المضيق ونحن قعود في الصحراء ، وبيننا وبين العدو أربعة فراسخ ، ونحن نفعل فعلاً؛ كأنَّ العدو بإزائنا! قد استحينا من الناس والجواسيس الذين يمرُّونَ بيننا وبينَ العدو أربعة فراسخ؛ ونحن قَدْ متنا من الفزع؛ أقدم بنا؛ فإمَّا لنا وإما علينا ، فقال: أنا واللهِ أعلمُ أنَّ ما تقولون حقٌّ؛ ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا. ولا أجدُ منهُ بُدّاً.

---

(١) أكدَّ خليفة أصل الخبر فقال: وفيها (أي ٢٢٢ هـ) وقعة الأفشين بالكافر بابك فهزمه. وحوىٰ عسكره واستخرج من كان في بلادهِ من أسرىٰ المسلمين وهرب بابك ثم ظفر به أسيراً فكتب بالفتح إلى أمير المؤمنين [تأريخ خليفة / ٣١٦) وانظر المنتظم [١١/ ٧٣] وانظر تعليقنا [٩/ ٥٤][٩/ ٥١].

فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يتحرىٰ بدراجة الليل على حسب ما كان؛ فلم يزل كذلكَ أياماً ، ثم انحدر في خاصته حتىٰ نزل إلى روذ الرَّوذ ، وتقدَّمَ حتىٰ شارف الموضع الذي به الرَّكوة التي واقعه عليها بابك في العام الماضي؛ فنظر إليها ، ووجد عليها كُردوساً من الخرمية؛ فلم يحاربوه ولم يحاربهم؛ فقال بعض العلوج: ما لكم تجيئون وتفرُّون! أما تستحيون! فأمر الأفشين ألا يجيئوهم ولا يبرز إليهم أحد؛ فلم يزل مُواقفهم إلى قريب من الظهر ، ثم رجع إلى عسكره ، فمكثَ فيه يومين ، ثم انحدرَ أيضاً في أكثر مما كان انحدر في المرةِ الأولىٰ ، فأمرَ أبا سعيد أن يذهب فيواقفهم على حسب ما كان واقفهم في المرة الأولىٰ ، ولا يحرِّكهم ولا يهجم عليهم.

وقام الأفشين بروذ الروذ ، وأمرالكوهبانية أن يصعدوا إلى رؤوس الجبال التي يظنون أنها حصينة ، فيتراءوا له فيها، ويختاروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصن فيها الرجالة، فاختاروا له ثلاثة أجبل ، قد كانت عليها حصون فيما مضىٰ؛ فخربت فعرفها ، ثم بعث إلى أبي سعيد ، فصرفه يومه ذلك؛ فلما كانَ بعد يومين انحدر من معسكره إلى روذ الروذ ، وأخذ معهُ الكِلغَريَّة ـ وهم الفعلة ـ وحملوا معهم شِكاء الماء والكعك؛ فلما صاروا إلى روذ الروذ وجَّه أبا سعيد ، وأمرهُ أن يواقفهم أيضاً على حسب ما كان أمرهُ به في اليوم الأوَّل ، وأمر الفعلة بنقل الحجارة وتحصين الطرق التي تسلك إلى تلك الثلاثة الأجبل؛ حتىٰ صارت شبه الحصون ، وأمر فاحتفر على كل طريق وراء تلك الحجارة إلى المِصعد خندقاً؛ فلم يترك مسلكاً إلى جبل منها إلا مسلكاً واحداً. ثم أمر أبا سعيد بالانصراف ، فانصرف ، ورجع الأفشين إلى معسكره. قال: فلما كانَ اليوم الثامن من الشهر ، واستحكم الحصر ، دفع إلى الرَّجالة كعكاً وسويقاً ، ودفع إلى الفرسان الزاد والشعير ، ووكَّلَ بمعسكرِهِ ذلك مَن يحفظه ، وانحدروا ، وأمر الرَّجالة أن يصعدوا إلى رؤوس تلك الجبال ، وأن يصعدوا معهم بالماء ، وبجميع ما يحتاجونه إليهِ ، ففعلوا ذلك ، وعسكر ناحية ووجَّهَ أبا سعيد ليواقف القوم على حسب ما كان يواقفهم ، وأمر الناس بالنزول في سلاحهم ، وألا يأخذ الفرسان سروج دوابهم. ثم خطَّ الخندق ، وأمر الفعلةَ بالعمل فيهِ ، ووكَّلَ من يستحثهم ، ونزل هو والفرسان ، فوقفوا تحتَ الشجر في ظل يرعون دوابهم ،

فلما صلىٰ العصر أمر الفعلة بالصعود إلى رؤوس الجبال التي حصنها مع الرَّجالة ، وأمر الرجالة أن يتحارسوا ولا يناموا ، ويدعو الفعلة فوق الجبال ينامون ، وأمر الفرسان بالركوب عند اصفرار الشمس ، فيصيّرهم كراديس وقفها حيالهم ، بين كلِّ كردوس وكُردوس قَدْر رمية سهم ، وتقدم إلى جميع الكراديس ألاَّ يلتفتنَّ كل واحد منكم إلى الآخر ؛ ليحفظ كلُّ واحد منكم ما يليه ؛ فإن سمعتم هدَّةً فلا يلتفتن أحد منكم إلى أحد ، وكلُّ كردوس منكم قائم بما يليه ، فإنهُ لا بهدة يأخذ. فلم يزل الكراديس وقوفاً على ظهور دوابهم إلى الصباح ، والرَّجالة فوق رؤوس الجبال يتحارسون ، وتقدَّمَ إلى الرجالة : متىٰ ما أحسوا في الليل بأحد فلا يكترثوا ، وليلزم كلُّ قوم منهم المواضع التي لهم ؛ وليحفظوا جبلهم وخندقهم فلا يلتفتنّ أحدٌ إلى أحد. فلم يزالوا كذلكَ إلى الصباح ، ثم أمرَ مَنْ يتعاهد الفرسان والرَّجالة بالليل ، فينظر إلى حالتهم ؛ فلبثوا في حفر الخندق عشرة أيام ، ودخله اليوم العاشر فقسمهُ بينَ الناسِ ، وأمر القوَّادَ أن يبعثوا إلى أثقالهم وأثقال أصحابهم على الرفق ، وأتاهُ رسولُ بابك ومعهُ قِثَّاء وبِطيخ وخيار ؛ يعلمهُ أنه في أيامه هذه في جفاء ؛ إنما يأكل الكعك والسويق هو وأصحابهِ ، وأنه أحبُّ أن يُلطفه بذلك ، فقال الأفشين للرسول : قد عرفتُ أيَّ شيءٍ أرادَ أخي بهذا ، إنما أرادَ أن ينظر إلى العسكر ، وأنا أحقُّ مَن قبل برَّه ، وأعطاه شهوته ؛ فقد صدق ، أنا في جفاء. وقال للرَّسول : أما أنتَ فلا بدَّ لكَ أن تصعد حتىٰ ترىٰ معسكرنا ، فقد رأيت ما ها هنا ، وترىٰ ما وراءنا أيضاً ؛ فأمرَ بحمله على دابةٍ ، وأن يُصعد به حتىٰ يرىٰ الخندق ، ويرىٰ خندق كلان روذ خندق برزند ، ولينظر إلى الخنادق الثلاثة ، ويتأملها ، ولا يخفى عليه منها شيء ، ليخبر به صاحبه. ففُعل به ذلك ؛ حتىٰ صار إلى برزند ، ثم رده إليه ، فأطلقه وقال له : اذهب فأقرئه مني السلام ـ وكان من الخرمية الذين يتعرضون لمن يجلب الميرة إلى العسكر ـ ففعل ذلكَ مرَّة أو مرتين ، ثم جاءت الخرَّمية بعد ذلكَ في ثلاثة كراديس ، حتىٰ صاروا قريباً من سور خندق الأفشين يصيحون ، فأمرَ الأفشين الناس ألا ينطق أحدٌ منهم ، ففعلوا ذلكَ ليلتين أو ثلاث ليالٍ ، وجعلوا يركضون دوابهم خلف السور ، ففعلوا ذلكَ غير مرَّةٍ ، فلما أنسوا هيَّأَ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والرجَّالة ، فكانت الرجالة ناشبة ، فكمنوا لهم في الأودية ، ووضع عليهم العيون ؛ فلما انحدروا في وقتهم الذي كانوا ينحدرون فيهِ في كل مرة ،

وصاحوا وجلَّبوا كعادتهم شدَّت عليهم الخيلُ والرجالة الذين رُتِّبوا ، فأخذوا عليهم طريقهم.

وأخرج الأفشين إليهم كُردوسين من الرَّجالة في جوف الليل ، فأحسوا أن قد أخذت عليهم العقبة ، فتفرَّقوا في عدَّة طرق؛ حتىٰ أقبلوا يتسلَّقون الجبال ، فمرُّوا فلم يعودوا إلى ما كانوا يفعلون ، ورجع الناسُ من الطلب مع صلاة الغداة إلى الخندق بروذ الروذ. ولم يلحقوا من الخرميَّةِ أحداً.

ثم إنَّ الأفشين كان في كل أسبوع يضرب الطبول نصفَ الليل ، ويخرج بالشمع والنفاطات إلى باب الخندق ، وقد عرف كل إنسان منهم كُردوسه؛ مَنْ كان في الميمنة ومن كان في الميسرة ، فيخرج الناسُ فيقفون في مواقفهم ومواضعهم ، وكان الأفشينُ يحمل أعلاماً سوداً كباراً ، اثني عشرَ علماً يحملها على البغال؛ ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع ، يحملها على اثني عشر بغلاً وكانت طبولهُ الكبار واحداً وعشرينَ طبلاً؛ وكانت الأعلام الصغار نحو من خمسمائة علم؛ فيقف أصحابه كل فرق على مترتبهم من رُبع الليل؛ حتىٰ إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه ، فيؤذِّن المؤذن بين يديه ويصلي ، ثم يصلي الناس بغلَس. ثم يأمر بضرب الطبول ، ويسير زحفاً ، وكانت علامته في المسير الوقوف تحريك الطبول وسكونها ، لكثرة الناس ومسيرهم في الجبال والأزقة على مصافهم؛ كلما استقبلوا جبلاً صعدوهُ ، وإذا هبطوا إلى وادٍ مضوا فيه؛ إلا أن يكونَ جبلاً منيعاً لا يمكنهم صعودُه وهبوطهُ؛ فإنهم كانوا ينضمون إلى العساكر ، ويرجعون إذا جاؤوا إلى الجبل إلى مصافهم ومواضعهم وكانت علامة المسير ضرب الطبول؛ فإن أرادَ أن يقف أمسكَ عن ضرب الطبول؛ فيقف الناس جميعا من كلِّ ناحية على جبل ، أو في وادٍ أو في مكانهم وكان يسيرُ قليلاً قليلاً؛ كلما جاءهُ كوهباني بخبر وقف قليلا؛ وكان يسير هذه الستة الأميال بين رُوذ الروذ ، وبين البذ ، ما بينَ طلوع الفجر إلى الضحىٰ الأكبر؛ فإذا أرادَ أن يصعد إلى الرَّكوة التي كانت الحرب تكون عليها في العام الماضي ، خلف بُخاراخُذاه على رأس العقبة مع ألف فارس وستمائة راجل؛ يحفظون عليهِ الطريق لا يخرج أحد من الخرمية؛ فيأخذ عليه الطريق ، وكان بابك إذا أحسَ بالعسكر أنه وارد عليه وجه عسكراً لهُ فيهِ رجالة إلى وادٍ تحت تلكَ العقبة التي كان عليها بُخاراخذاه ،

ويكمنون لمن يريد أن يأخذ عليه الطريق.

وكان الأفشين يقف بخاراخذاه يحفظ هذه العقبة التي وجه بابك عسكرهُ إليها ليأخذها على الأفشين، وكان بُخاراخذاه يقف بها أبداً، ما دام الأفشين داخل البذ على الرَّكوة، وكان الأفشين يتقدم إلى بخاراخذاه أن يقف على وادٍ فيما بينه وبين البذّ شبه الخندق.

كان يأمرُ أبا سعيد محمد بن يوسف أن يعبُرَ ذلكَ الوادي في كُردوس من أصحابِهِ، ويأمر جعفراً الخياط أن يقفَ في كُردوس من أصحابِهِ، ويأمر أحمد بن الخليل فيقف في كردوس آخر؛ فيصير في جانب ذلكَ الوادي ثلاثة كراديس في طرف أبياتهم؛ وكان بابك يُخرج عسكراً مع آذين، فيقف على تل بإزاء هؤلاء الثلاثة الكراديس خارجاً من البذ لئلا يتقدم أحد من عساكر الأفشين إلى باب البذ. وكان الأفشين يقصد إلى باب البذ، ويأمرهم إذا عبروا بالوقوف فقط، وترك المحاربة، وكان بابك إذا أحسَّ بعساكر الأفشين أنها قد تحركت من الخندق تريده فرَّق أصحابه كمناء؛ ولم يبقَ معه إلا نُفير يسيراً؛ وبلغ ذلكَ الأفشين، ولم يكن يعرف المواضع التي يكمنُونَ فيها. ثم أتاه الخبر بأن الخرّمية قد خرجوا جميعاً، ولم يبقَ مع بابك إلا شرذمة من أصحابه. وكان الأفشين إذا صعد إلى ذلك الموضع بُسط له نِطَع، ووُضع له كرسي، وجلس على تل مشرف يُشرف على باب قصر بابك، والناس كراديس وقوف، مَنْ كان معه من جانب الوادي هذا أمره بالنزول عن دابته، ومَنْ كانَ من ذاكَ الجانب مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأصحابهُ وأحمد بن الخليل لم يُنزل لقربه من العدوِّ؛ فهم وقوف على ظهور دوابهم؛ ويفرق رجَّالته الكوهبانية ليفتشوا الأودية؛ طمع أن يقع على مواضع الكمناء فيعرفها. فكانت هذه حالته في التفتيش إلى بعد الظهر، والخُرّمية بين يدي بابك يشربون النبيذ، ويزمُرون بالسُّرنيايات، ويضربون بالطبول؛ حتىٰ إذا صلىٰ الأفشين الظهر؛ تقدم فانحدر إلى خندق بروذ الروذ؛ فكان أول من ينحدر أبو سعيد ثم أحمد بن الخليل ثم جعفر بن دينار، ثم ينصرف الأفشين، وكان مجيئهُ ذلكَ مما يغبط بابك، وانصرافه، فإذا دنا الانصراف، ضربوا بصنوجهم، ونفخوا بُوقاتهم استهزاء، ولا يبرح بخاراخذاه من العقبة التي هو عليها؛ حتىٰ تجوزه الناسُ جميعاً، ثم ينصرفُ في آثارهم؛ فلما كان في بعض

أيامهم ضجرت الخُرّمية من المعادلة والتفتيش الذي كان يفتش عليهم ، فانصرف الأفشين كعادتهِ ، وانصرفت الكراديسُ أولاً فأولاً ، وعبر أبو سعيد الوادي ، وعبر أحمد بن خليل ، وعبر بعض أصحاب جعفر الخياط ، وفتح الخُرمية باب خندقهم ، وخرج منهم عشرة فوارس ، وحملوا على مَنْ بقي من أصحاب جعفر الخياط في ذلكَ الموضع ، وارتفعت الضجةُ في العسكر ، فرجعَ جعفر مع كُردوسٍ من أصحابه بنفسهِ ، فحملَ على أولئكَ الفرسان حتىٰ ردَّهم إلى باب البذ ، ثم وقعت الضجَّةُ في العسكر ، فرجع الأفشين وجعفر وأصحابه من ذلكَ الجانب يقاتلون؛ وقد خرج من أصحاب جعفر عدة ، وخرج بابك بعدَّة فرسان ، ولم يكن معهم رجَّالة؛ لا من أصحاب الأفشين ولا من أصحاب بابك؛ كان هؤلاء يحملون ، وهؤلاء يحملون؛ فوقعت بينهم جراحات ، ورجع الأفشين حتىٰ طُرحَ له النطع والكرسي ، فجلس في موضعِهِ الذي كانَ يجلس فيه ، وهو يتلظَّى على جعفر ، ويقول: قد أفسد علي تعبيتي وما أريد.

وارتفعت الضجة ، وكان مع أبي دُلف في كردوس قوم من المطَّوّعة من أهل البصرة وغيرهم؛ فلما نظروا إلى جعفر يحارب ، انحدر أولئكَ المطوّعة بغير أمر الأفشين ، وعبروا إلى ذلكَ جانب الوادي؛ حتىٰ صاروا إلى جانب البذ؛ فتعلقوا به وأثَّروا فيهِ آثاراً؛ وكادوا يصعدونهُ فيدخلون البذّ ، ووجه جعفر إلى الأفشين: أن أمدَّني بخمسمائة راجل من الناشبة ، فإني أرجو أن أدخل البذَّ إن شاء الله؛ ولست أرىٰ في وجهي كثير أحد إلاَّ هذا الكُردوس الذي تَراهُ أنتَ فقط ـ يعني كردوس آذين ـ فبعثَ إليه الأفشين أن قد أفسدتَ عليَّ أمري ، فتخلَّص قليلاً قليلاً ، وخلِّص أصحابك وانصرف ، وارتفعت الضجة من المطوعة حين تعلَّقوا بالبذ ، وظنَّ الكُمناء الذين أخرجهم بابك أنها حرب قد اشتبكت ، فنعروا ووثبوا من تحت عسكر بُخاراخذاه ، ووثب كمين آخر من وراء الرَّكوة التي كان الأفشين يقعد عليها ، فتحرَّكت الخُرّمية ، والناس وقوف على رؤوسهم لم يزُل منهم أحد؛ فقال الأفشين: الحمدُ لله الذي بيَّنَ لنا مواضع هؤلاء.

ثم انصرف جعفر وأصحابه والمطوّعة ، فجاء جعفر إلى الأفشين؛ فقال له: إنما وجّهني سيدي أمير المؤمنين إلى الحرب التي ترىٰ ، ولم يوجهني للقعود ها هنا ، وقد قطعتَ بي في موضع حاجتي ما كان يكفيني إلا خمسمائة راجل حتىٰ

أدخل البذ أو جوف داره؛ لأني قد رأيتُ من بين يدي ، فقال له الأفشين : لا تنظر إلى ما بينَ يديكَ؛ ولكن انظر إلى ما خلفكَ وما قد وثبوا ببخاراخذاه وأصحابه ، فقال الفضل بن كاوس لجعفر الخياط : لو كان الأمرُ إليكَ ما كنتَ تقدرُ أن تصعدَ إلى هذا الموضع الذي أنتَ عليهِ واقف؛ حتىٰ تقول : كنت وكنت. . فقال له جعفر : هذه الحرب؛ وها أنا واقف لمن جاء . فقال له الفضل : لولا مجلس الأمير لعرَّفتُكَ نفسكَ الساعة؛ فصاحَ بهما الأفشينُ ، فأمسكا ، وأمر أبا دُلف أن يردّ المطوّعة عن السور ، فقال أبو دُلف للمطوّعة : انصرفوا . فجاء رجل منهم ومعهُ صخرة ، فقال : أتردّنا وهذا الحجر أخذته من السور! فقال له : الساعة ، إذا انصرفتَ تَدْرِي مَنْ على طريقكَ جالس ـ يعني العسكر الذي وثبَ على بخاراخذاه من وراء الناس ـ.

ثم قال الأفشين لأبي سعيد في وجه جعفر : أحسن اللهُ جزاءَكَ عن نفسكَ وعن أميرِ المؤمنين؛ فإنِّي ما علمتكَ عالماً بأمر هذه العساكر وسياستها؛ ليس كلُّ من حفَّ رأسَهُ يقول : إنَّ الوقوف في الموضعِ الذي يحتاجُ إليهِ خير من المحاربة في الموضع الذي لا يحتاجُ إليه ، لو وثبَ هؤلاء الذين تحتك ـ وأشارَ إلى الكمين الذي تحت الجبل ـ كيفَ كنتَ ترىٰ هؤلاء المطوّعة الذين هم في القُمُص؟ أي شيء كان يكون حالهم ، ومن كان يجمعهم؟ الحمدُ لله الذي سلّمهم؛ فقف ها هنا فلا تبرح حتى لا يبقىٰ ها هنا أحد ، وانصرف الأفشين؛ وكان من سنته إذا بدأ بالانصراف ينحدر علم الكراديس وفرسانه ، ورجَّالته ، والكُردوس الآخر واقفٌ بينهُ وبينهُ قدر رميَّة سهم؛ لا يدنو من العقبة ، ولا من المضيق؛ حتىٰ يرىٰ أنه قد عبر كلَّ مَنْ في الكردوس الذي بين يديه وخلابه الطريق ، ثم يدنوا بعد ذلكَ فينحدر في الكُردوس الآخر بفرسانه ورجَّالتهِ؛ ولا يزالُ كذلكَ؛ وقد عرَّف كلُّ كُردوس من خلف مَنْ ينصرف؛ فلم يكن يتقدم أحد منهم بين يدي صاحبه ، ولا يتأخَّر هكذا؛ حتىٰ إذا نفذت الكراديس كلها ولم يبق أحد غير بخاراخذاه؛ انحدر بخاراخذاه وخلَّى العقبة. فانصرف ذلكَ اليوم على هذه الهيئة؛ وكان أبو سعيد آخر من انصرف؛ وكلَّما مرَّ العسكر بموضع بُخاراخذاه ، ونظروا إلى الموضع الذي كانَ فيهِ الكَمين؛ علموا ما كان وُطّئَ لهم ، وتفرَّقَ أولئكَ الأعلاج الذين أرادوا أخذ الموضع الذي كان بُخاراخذاه يحفظه ، ورجعوا إلى مواضعهم ، فأقامَ الأفشين في خندقهِ بروذ الروذ أياماً؛ فشكا إليهِ المطوّعة الضيق

في العلوفة والأزواد والنفقات ، فقال لهم: مَنْ صبرَ منكم فليصبر ، ومَنْ لم يصبر فالطريق واسع فلينصرف بسلام؛ معي جند أمير المؤمنين ، ومن هو في أرزاقهِ يقيمون معي في الحرِّ والبرد؛ ولست أبرح من ها هنا حتىٰ يسقطَ الثلج ، فانصرف المطوّعةُ وهم يقولون: لو ترك الأفشين جعفراً وتركنا لأخذنا البذ؛ هذا لا يَشتهي إلا المُماطلة؛ فبلغه ذلكَ وما كثر المطوّعة فيهِ، ويتناولونه بألسنتهم وأنه لا يحبُّ المناجزة ، وإنَّما يُريد التطويل؛ حتىٰ قال بعضهم إنه رأىٰ في المنامِ ، أن رسول الله ﷺ قال له: قل للأفشين: إن أنتَ حاربتَ هذا الرجل وجددت في أمره وإلا أمرتُ الجبال أن ترجمكَ بالحجارة: فتحدَّثَ الناسُ بذلكَ في العسكر علانية؛ كأنه مستور ، فبعث الأفشين إلى رؤساء المطّوعة ، فأحضرهم وقال لهم: أحب أن تُروني هذا الرجل ، فإن الناس يرون في المنامِ أبواباً؛ فأتوه بالرجل في جماعة من الناس ، فسلَّمَ عليهِ ، فقرَّبهُ وأدناه ، وقال له: قُصّ علينا رؤياك ، ولا تحتشم ولا تستحي؛ فإنما تؤدي. قال: رأيتُ كذا ورأيتُ كذا؛ فقال: اللهُ يعلمُ كلَّ شيء قبل كل أحد؛ وما أُريدَ بهذا الخَلْق. إن اللهَ تباركَ وتعالى لو أرادَ أن يأمرَ الجبال أن ترجمَ أحداً لرجم الكافر ، وكفانا مؤنته؛ كيف يرجمني حتىٰ أكفيه مؤنة الكافر، كان يرجمه ولا يحتاجُ أن أقاتله أنا ، وأنا أعلمُ أن الله عز وجل لا يخفى عليهِ خافية ، فهو مطَّلعٌ على قلبي؛ وما أُريدُ بكم يا مساكين! فقال رجل من المطوعة من أهل الدين: يا أيها الأمير ، لا تحرمنا شهادةً إن كانت قد حضرت؛ وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه؛ فدعنا وحدنا حتىٰ نتقدم بعد أن يكون بإذنك؛ فلعلَ الله أن يفتح علينا؛ فقال الأفشين: إني أرىٰ نياتِكم حاضرة؛ وأحسب هذا الأمر يريدهُ الله؛ وهو خيرٌ إن شاء الله؛ وقد نشطتم ونشط الناس؛ واللهُ أعلم ما كانَ هذا رأيي؛ وقد حدث الساعة لَمَّا سمعت من كلامكم ، وأرجو أن يكونَ أراد هذا الأمر وهو خير؛ اعزموا على بركةِ اللهِ أيِّ يومٍ أحببتم حتىٰ نناهضهم؛ ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلا بالله! فخرج القوم مستبشرين فبشَّروا أصحابهم؛ فمن كان أراد أن ينصرف أقام ، ومن كان في القرب وقد خرج مسيرة أيام فسمع بذلكَ رجع؛ ووعد الناس ليوم، وأمر الجند والفرسان والرَّجالة وجميع الناس بالأهبة ، وأظهر أنه يريدُ الحرب لا محالة. وخرج الأفشين وحمل المال والزاد، ولم يبقَ في العسكر بغل إلاَّ وُضعَ عليه محمل للجرحىٰ ، وأخرجَ معهُ المتطبّبين، وحمل الكعك والسَّويق وغير ذلك؛ وجميع ما يحتاجُ إليه، وزحف

الناسُ حتىٰ صعدَ إلى البذِّ وخلَّفَ بخاراخذاه في موضعه الذي كان يخلِّفه عليه على العقبة ، ثم طُرِح النَّطع ، ووُضِعَ لهُ الكرسي ، وجلس عليه كما كان يفعل ، وقال لأبي دلف: قل للمطَّوعةِ: أي ناحية هي أسهل عليكم ، فاقتصروا عليها. وقال لجعفر: العسكر كلُّه بين يديك ، والناشبةُ والنفَّاطون؛ فإن أردتَ رجالاً دفعتُهم إليك؛ فخذ حاجتكَ وما تريدُ ، واعزِم على بركةِ اللهِ؛ فادنُ مِنْ أيِّ موضع تريد. قال: أريدُ أن أقصد الموضع الذي كنتُ عليهِ ، قال: امضِ إليهِ. ودعا أبا سعيد ، فقال له: قف بين يديّ؛ أنت وجميعُ أصحابكَ ، ولا يبرحنَّ منكم أحدٌ ، ودعا أحمد بن الخليل فقال لهُ: قف أنتَ وأصحابكَ ها هنا، ودع جعفراً يعبرُ وجميع مَنْ معهُ من الرجال؛ فإن أراد رجالاً أو فرساناً أمددناهُ؛ ووجَّهنا بهم إليهِ؛ ووجهَ أبا دلف وأصحابه من المطّوعة؛ فانحدروا إلى الوادي، وصعدوا إلى حائط البذّ من الموضع الذي كانوا صعدوا عليه تلك المرَّة، وعلقوا بالحائط على حسب ما كان فعلوا ذلكَ اليوم؛ وحَمَل جعفر حملةً حتىٰ ضرب باب البذّ؛ على حسب ما كان فعل تلك المرة الأولىٰ؛ ووقف على الباب، وواقفه الكفرة ساعة صالحة؛ فوجَّه الأفشين برجل معه بدرة دنانير، وقال: اذهب إلى أصحاب جعفر، فقل: مَنْ تقدَّم، فاحثُ له ملء كفِّكَ، ودفع بَدْرة أخرىٰ رجل من أصحابِهِ، قال لهُ: اذهب إلى المطّوعة ومعكَ هذا المال وأطواق وأسورة؛ وقل لأبي دلف: كل من رأيتهُ محسناً من المطّوعة وغيرهم فأعطه. ونادىٰ صاحب الشراب، فقال: اذهب فتوسَّط الحرب معهم حتىٰ أراكَ بعيني معكَ السويق والماء؛ لئلا يعطش القوم فيحتاجوا إلى الرجوع، وكذلكَ فعل بأصحاب جعفر في الماء والسويق، ودعا صاحب الكِلْغَريّة، فقال له: مَنْ رأيته في وسط الحرب من المطّوعة في يدهِ فأس فله عندي خمسون درهماً؛ ودفع إليهِ بَدْرة دراهم؛ وفعل مثل ذلكَ بأصحابِ جعفر ، ووجه إليهم الكِلْغَريّة بأيديهم الفؤوس ، ووجه إلى جعفر بصندوق فيه أطواق وأسورة ، فقال لهُ: ادفع إلى مَنْ أردتَ من أصحابكَ هذا سوى ما لهم عندي ، وما تضمن لهم عليَّ من الزيادةِ في أرزاقهم والكتاب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ، فاشتبكت الحرب على البابِ طويلاً ، ثم فتح الخرميَّة الباب ، وخرجوا على أصحاب جعفر ، فنحّوهم عن الباب ، وشدُّوا على المطّوعة من الناحية الأخرىٰ؛ فأخذوا منهم علمينِ وطرحوهم عن السور ، وجرحوهم بالصَّخرِ حتَّىٰ أثَّروا فيهم ، فرقّوا عن الحرب؛ ووقفوا ، وصاح جعفر بأصحابِهِ ، فبدر

منهم نحو من مائة رجل ، فبركوا خلف تِراسهم التي كانت معهم ، وواقفوهم متحاجزين؛ لا هؤلاء يقدمون على هؤلاء ، ولا هؤلاء يقدمون على هؤلاء؛ فلم يزالوا كذلكَ حتىٰ صلَّىٰ الناس الظهر؛ وكان الأفشينُ قد حمل عرَّادات ، فنصب عرَّادة منها مما يلي جعفراً على الباب ، وعرَّادةً أخرىٰ من طرف الوادي من ناحية المطّوعة؛ فأما العرادةُ التي من ناحية جعفر؛ فدافعَ عَنها جعفر حتىٰ صارت العرادة فيما بينهم وبين الخُرّمية ساعة طويلة؛ ثم تخلّصها أصحاب جعفر بعد جهد ، فقلعوها وردُّوها إلى العسكر؛ فلم يزل الناس متواقفين متحاجزين؛ يختلف بينهم النّشاب والحجارة أولئكَ على سورهم والباب ، وهؤلاء قعود تحت أتراسهم ، ثم تناجزوا بعدَ ذلك؛ فلَّما نظر الأفشين إلى ذلكَ كره أن يطمع العدوُّ في الناس ، فوجَّهَ الرَّجالةُ الذين كان أعدَّهم قبله؛ حتىٰ وقفوا في موضعِ المطّوعة ، وبعث إلى جعفر بكردوسٍ فيه رَجَّالة ، فقال جعفر: لستُ أوتىٰ من قلة الرَّجالة معي رجال فُرهٌ ولكني لستُ أرىٰ للحرب موضعاً يتقدمون؛ إنما ها هنا موضع مجال رجل أو رجلين قد وقفوا عليه ، وانقطعت الحرب ، فبعث إليه: انصرف على بركة اللهِ؛ فانصرف جعفر وبعث الأفشين بالبِغال التي كان جاء بها معه ، عليها المحامل؛ فجُعلت فيها الجرحىٰ ومن كان به وهن من الحجارة ولا يقدر على المشي؛ وأمر الناس بالانصراف؛ فانصرفوا إلى خَندقهم بروذ الروذ ، وأيس الناسُ من الفتح في تلك السنة وانصرف أكثر المطوّعة.

ثم إنَّ الأفشين تجهزَّ بعد جمعتين؛ فلمَّا كان في جَوفِ الليلِ؛ بعث الرجَّالةَ الناشبة؛ وهم مقدار ألف رجلٍ ، فدفع إلى كل واحدٍ منهم شكوة وكعكاً ، ودفع إلى بعضهم أعلاماً سوداً وغير ذلك ، وأرسلهم عند مغيبِ الشمسِ ، وبعث معهم أدلاء ، فساروا ليلتهم في جبال منكرة صعبة على غير الطريق؛ حتىٰ داروا ، فصارَ خلْفَ التلِّ الذي يقفُ آذين عليه ـ وهو جبل شاهق ـ وأمرهم ألا يعلم بهم أحد؛ حتىٰ إذا رأوا أعلام الأفشين وصلوا الغداة ورأوا الوقعة ، ركَّبوا تلكَ الأعلام في الرِّماح ، وضربوا الطبول ، وانحدروا من فوق الجبل ، ورموا بالنشاب والصخر على الخُرَّمية؛ وإِن هم لم يروا الأعلام لم يتحرَّكوا حتىٰ يأتيهم خبره؛ ففعلوا ذلكَ؛ فوافَوا رأس الجبل عند السَّحر ، وجعلوا في تلكَ الشكاء الماء من الوادي؛ وصاروا فوق الجبل ، فلمَّا كان في بعض اللَّيلِ وجهَ الأفشين إلى القواد

أن يتهيئوا في السلاح ، فإنه يركب في السحر؛ فلما كان في بعض الليل ، وجه بشيراً التركي وقوّاداً من الفراغنة كانوا معه؛ فأمرهم أن يسيروا حتىٰ يصيروا تحت التل مع أسفل الوادي الذي حملوا منه الماء؛ وهو تحت الجبل الذي كان عليهِ آذين؛ وقد كان الأفشين علم أنَّ الكافر يكمنُ تحت ذلكَ الجبل كلَّما جاءه العسكر؛ فقصد بشير والفراغنة إلى ذلكَ الموضع الذي علم أن للخرَّمية فيه عسكراً كامنين ، فساروا في بعض الليل؛ ولا يعلم بهم أكثر أهل العسكر. ثم بعث للقوَّاد: تأهَّبوا للركوب في السلاح؛ فإن الأمير يغدو في السحر؛ فلما كان السَّحَر خرج وأخرجِ الناس ، وأخرج النَّفاطين والنَّفاطات والشمع على حسب ما كان يخرج ، فصلّىٰ الغداةَ ، وضرب الطبل ، وركب حتىٰ وافى الموضع الذي كان يقف فيهِ في كل مرة ، وبُسط لهُ النطَع ، ووضع له الكرسي كعادته.

وكانَ بخاراخذاه يقف على العقبة التي كان يقف عليها في كلِّ يوم؛ لمَّا كانَ ذلكَ اليوم صيَّرَ بخاراخذاه في المقدمة مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأحمد بن الخليل؛ فأنكر الناس هذه التعبية في ذلكَ الوقت ، وأمرهم أن يدنوا من التل الذي عليه آذين؛ فيحدقوا به؛ وقد كان ينهاهم عن هذا قبل ذلكَ اليوم؛ فمضىٰ الناس مع هؤلاء القواد الأربعة الذين سمَّينا؛ حتى صاروا حولَ التلِّ. وكان جعفر الخياط مما يلي باب البذّ ، وكانَ أبو سعيد مما يليه ، وبخاراخذاه مما يلي أبا سعيد ، وأحمد بن الخليل بن هشام ممَّا يلي بخاراخذاه؛ فصاروا جميعاً حلقة حول التل ، وارتفعت الضجة من أسفل الوادي؛ وإذا الكمين الذي تحتَ التل الذي كانَ يقفُ عليه آذين قد وثب ببشير التركي والفراغنة ، فحاربوهم واشتبكت الحرب بينهم ساعة.

وسمع أهل العسكر ضجَّتهم ، فتحرَّكَ الناسُ ، فأمر الأفشين أن ينادوا أيها الناس ، هذا بشير التركي والفراغنة قد وجهتُهم ، فأثاروا كميناً فلا تتحركوا. فلما سمع الرجالة الناشبة الذين كانوا تقدموا ، وصاروا فوق الجبل ركبوا الأعلام كما أمرهم الأفشين؛ فنظر الناس إلى الأعلام تجيء من جبل شاهق؛ أعلام سود وبين العسكر وبين الجبل نحو فرسخ؛ وهم ينحدرون على جبل آذين من فوقهم؛ قد ركَّبوا الأعلام ، وجعلوا ينحدرون يريدون آذين؛ فلمَّا نظر إليهم أهل عسكر آذِين وجَّهَ آذين إليهم بعض رجالته الذين معه من الخرمية. ولما نظر الناس إليهم

راعوهم؛ فبعث إليهم الأفشين: أولئكَ رجالنا أنجدتنا على آذين؛ فحمل جعفر الخياط وأصحابه على آذين وأصحابه، حتىٰ صعدوا إليهم، فحملوا عليهم حملة شديدة، قلبوه وأصحابه في الوادي، وحمل عليهم رجل ممَّنْ في ناحية أبي سعيد من أصحاب أبي سعيد يقال له معاذ بن محمد ـ أو محمد بن معاذ ـ في عدَّة معه؛ فإذا تحت حوافر دوابهم آبارٌ محفورة تدخلُ أيدي الدواب فيها، فتساقطت فرسان أبي سعيد فيها؛ فوجهَ الأفشين الكلغرية يُقلعون حيطان منازلهم، ويطمُّونَ بها تلك الآبار؛ ففعلوا ذلكَ، فحملَ الناسُ عليهم حملة واحدة، وكان آذين قد هيَّأ فوق الجبل عجلا عليها صخر؛ فلما حمل الناسُ عليه، دفع العجل على الناس فأفرجوا عنه، فقد حرجت؛ ثم حَمل الناسُ من كلِّ وجه.

فلما نظر بابك إلى أصحابه قد أحدق بهم، خرج من طرف البذِّ من بابٍ مما يلي الأفشين، يكون بين هذا الباب وبين التل الذي عليهِ الأفشين قدر ميل. فأقبل بابك في جماعة معه يسألون عن الأفشين، فقال لهم أصحاب أبي دُلف: مَنْ هذا؟ فقالوا: هذا بابك يريد الأفشين؛ فأرسل أبو دلف إلى الأفشين يعلمه ذلك؛ فأرسل الأفشين رجلاً يعرف بابك؛ فنظر إليهِ، ثم عاد إلى الأفشين؛ فقال: نعم هو بابك؛ فركب إليهِ الأفشين، فدنا منهُ حتىٰ صار في موضع يسمعُ كلامه وكلام أصحابه، والحرب مشتبكة في ناحية آذين، فقال لهُ: أريد الأمان من أميرِ المؤمنين، فقال له الأفشين: قد عرضتُ عليكَ هذا؛ وهو لك مبذولٌ متىٰ شئتَ، فقال: قد شئتُ الآن؛ على أن تؤجلني أجلاً أحملُ فيه عيالي، وأتجهزُ. فقال له الأفشين: قد واللهِ نصحتُكَ غير مرَّةٍ فلم تقبل نصيحتي، وأنا أنصحكَ الساعة، خروجكَ اليوم في الأمان خيرٌ من غدٍ. قال: قد قبلت أيها الأميرُ؛ وأنا على ذلك؛ فقال لهُ الأفشين: فابعث بالرَّهائن الذين كنت سألتكَ. قال: نعم، أما فلان وفلان فهم على ذلكَ التل، فمر أصحابكَ بالتوقف.

قال: فجاء رسولُ الأفشين ليرد الناس، فقيل له: إن أعلام الفراغنة قد دخلت البذ، وصعدوا بها القصور. فركب وصاح بالناس، فدخل ودخلوا، وصعِد الناس بالأعلام فوق قصورِ بابكِ؛ وكانَ قد كمَّنَ في قصوره ـ وهي أربعة ـ ستمائة رجل؛ فوافاهم الناسُ؛ فصعدوا بالأعلامِ فوق القصور، وامتلأت شوارع البذ

وميدانها من الناس ، وفتح أولئكَ الكُمناء أبواب القصور ، وخرجوا رجالة يقاتلون الناس ، ومرَّ بابك حتىٰ دخل الوادي الذي يلي هشتادسَر ، واشتغل الأفشين وجميع قُوَّادِهِ بالحرب على أبواب القصور ، فقاتل الخرَّمية قتالاً شديداً ، وأحضرَ النَّفاطين ، فجعلوا يصبون عليهم النِّفطَ والنَّار ، والناس يهدمون القصور؛ حتىٰ قتلوا عن آخرهم ، وأخذ الأفشين أولاد بابك ومَنْ كانَ معهم في البذِّ من عيالهم؛ حتىٰ أدركهم المساءُ ، فأمر الأفشين بالانصراف فانصرفوا ، وكان عامة الخرَّمية في البيوت؛ فرجع الأفشينُ إلى الخندق بروذ الرَّوذ.

فذُكر أن بابك وأصحابهُ الذين نزلوا معه الوادي حينَ علموا أنَّ الأفشينَ قد رجع إلى خندقه ، رجعوا إلى البذ ، فحملوا من الزادِ ما أمكنهم حملُه ، وحملوا أموالهم ، ثم دخلوا الوادي الذي يلي هشتادسَر فلمَّا كان في الغد خرج الأفشين حتى دخل البذ ، فوقف في القرية ، وأمر بهدم القصور ، ووجَّهَ الرجَّالة يطوفون في أطراف القرية ، فلم يجدوا فيها أحداً من العلوج؛ فأعد الكلغريَّة ، فهدموا القصور وأحرقوها؛ فعل ذلكَ ثلاثة أيامٍ حتىٰ أحرق خزائنه وقصوره؛ ولم يَدع فيها بيتاً ولا قصراً إلا أحرقه ، وهدمه؛ ثم رجعَ وعلم أنَّ بابك قد أفلت في بعض أصحابهِ؛ فكتب الأفشين إلى ملوك أرمينية وبطارقتها يعلمهم أنَّ بابك قد هربَ وعدَّة معه ، وصار إلى وادٍ ، وخرجَ منه إلى ناحية إرمينية؛ وهو مارٌّ بكم ، وأمرهم أن يحفظ كلُّ واحدٌ منهم ناحيته ، ولا يسلكها أحدٌ إلا أخذوه حتىٰ يعرفوه. فجاء الجواسيس إلى الأفشين ، فأخبروه بموضعه في الوادي؛ وكان وادياً كثيرُ العشب والشجر ، طرفُه بإرمينيَة وطرفهُ الآخر بأذرَبيجان؛ ولم يمكن الخيلِ أن تنزل به ، ولا يُرىٰ من يستخفي فيه لكثرة شجره ومياهه؛ إنما كانت غيضةً واحدة؛ ويسمَّىٰ هذا الوادي غَيضة. فوجه الأفشين إلى كلِّ موضعٍ يعلم أن منهُ طريقاً ينحدر منهُ إلى تلكَ الغَيضة ، أو يمكن بابك أن يخرج من ذلكَ الطريق؛ فيصير على كلِّ طريق وموضع من هذه المواضع عسكراً فيه ما بينَ أربعمائة إلى خمسمائة مقاتل ، ووجَّهَ معهم الكُوهبانية ليقفوهم على الطريق ، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل لئلا يخرج منه أحد.

وكان يوجِّه إلى كل عسكر من هذه العساكر الميرة من عسكره؛ وكانت هذه العساكر خمسة عشر عسكراً ، فكانوا كذلك حتىٰ ورد كتاب أمير المؤمنين

المعتصم بالذهب مختوماً ، فيهِ «أمان» لبابك . فدعا الأفشين مَنْ كان استأمن إليه من أصحاب بابك؛ وفيهم ابن له كبير ، أكبر ولدهُ ، فقال له وللأسرىٰ: هذا ما لم أكن أرجوهُ من أمير المؤمنين ، ولا أطمع له فيه أن يكتب إليه وهو في هذه الحال بأمان؛ فمن يأخذه منكم ويذهبُ به إليه؟ فلم يجسر على ذلكَ أحد منهم ، فقال بعضهم: أيها الأمير؛ ما فينا أحدٌ يجترئ أن يلقاه بهذا فقال له الأفشين: ويحك! إنه يفرح بهذا ، قالوا: أصلح الله الأمير! نحنُ أعرف بهذا منك؛ قال: فلا بدَّ لكم من أن تهبوا لي أنفسكم ، وتُوصلوا هذا الكتاب إليه. فقام رجلان منهم فقالا له: اضمن لنا أنك تُجري على عيالاتنا؛ فضمن لهما الأفشين ذلك؛ وأخذا الكتاب وتوجَّها فلم يزالا يدوران في الغَيْضَةِ حتىٰ أصاباه ، وكتب معهما ابن بابك بكتاب يُعلمهُ الخبر ، ويسأله أن يصير إلى الأمان؛ فهو أسلم له وخير. فدفعا إليه كتاب ابنه ، فقرأهُ ، وقال: أيُّ شيء كنتم تصنعون؟ قال: أسِرَ عيالاتنا في تلك الليلة وصبياننا؛ ولم نعرف موضعكَ فنأتيكَ ، وكنَّا في موضع تخوَّفنا أن يأخذونا؛ فطلبنا الأمان؛ فقال للذي كان الكتاب معهم: هذا لا أعرفه؛ ولكن أنت يا بن الفاعلة ، كيفَ اجترأتَ على هذا أن تجيئني من عند ذاكَ ابن الفاعلة فأخذه وضرب عنقه ، وشدَّ الكتاب على صدره مختوماً لم يفضَّه؛ ثم قال للآخر: اذهب وقل لذاكَ ابنَ الفاعلة ـ يعني ابنه ـ حيث يكتب إليَّ؛ وكتب إليهِ: لو أنكَ لحقت بي واتبعت دعوتكَ حتىٰ يجيئكَ الأمرُ يوماً كنتَ ابني؛ وقد صحَّ عندي الساعة فساد أمِّكَ الفاعلة؛ يا بن الفاعلة ، عسىٰ أن أعيشَ بعد اليوم! قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثما كنت أو ذكرت كنت ملكاً؛ ولكنك من جنس لا خيرَ فيه ، وأنا أشهد أنكَ لستَ بابني؛ تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير ، أو تعيشُ أربعين سنة وأنت عبد ذليل!

ورحل من موضعهِ ، ووجَّهَ مع الرجل ثلاثة نفر حتىٰ أصعدوهُ من موضع من المواضع ، ثم لحقوا ببابك؛ فلم يزل في تلكَ الغَيضة حتىٰ فني زادهُ ، وخرجَ مما يلي طريقاً كان عليهِ بعض العساكر ، وكان موضع الطريق جبلاً ليس فيه ماء؛ فلم يقدر العسكر أن يقيم على الطريق لبعده عن الماء ، فتنحَّىٰ العسكر عن الطريق إلى قرب الماء؛ وصيَّروا كوهبانيين وفارسين على طرف الطريق يحرسونهُ ، والعسكر بينهُ وبين الطريق نحو من ميل ونصف ، كان ينوب على الطريق كلَّ يوم

فارسان وكوهبانيان ، فبينا هم ذات يوم نصف النهار؛ إذ خرج بابك وأصحابه؛ فلم يروا أحداً ، ولم يروا الفارسين والكوهبانيين ، وظنوا أن ليسَ هناك عسكر؛ فخرج هو وأخواه: عبد الله ومعاوية ، وأمه وامرأة لهُ يقال لها ابنة الكَلْنَدانية. فخرجوا من الطريق ، وساروا يريدون إرمينيةَ ، ونظرَ إليهم الفارسان والكوهبانيان ، فوجَّهوا إلى العسكر ، وعليه أبو الساج: أنا قد رأينا فرساناً يمرُّون ولا ندري مَنْ هُم. فركبَ الناسُ ، وساروا ، فنظروا إليهم من بُعد وقد نزلوا على عين ماء يتغدوَّن عليها؛ فلمَّا نظروا إلى الناسِ بادرَ الكافر فركبَ وركبَ مَنْ كانَ معهُ ، فأفلت وأخذ معاوية أمَّ بابك والمرأةَ التي كانت معه ، ومع بابك غلام له ، فوجَّهَ أبو الساج بمعاوية والمرأتين إلى العسكر ومرَّ بابك متوجِّهاً حتىٰ دخل جبال إرمينية يسير في الجبال متكمِّناً؛ فاحتاج إلى طعام؛ وكان جميع بطارقة إرمينية قد تحفَّظوا بنواحيهم وأطرافهم ، وأوصوا إلى مسالحهم ألا يجتاز عليهم أحد إلا أخذوه حتىٰ يعرفوه؛ فكان أصحاب المسالح كلهم متحفظين؛ وأصاب بابك الجوع ، فأشرف فإذا هو بحرَّاثٍ يحرثُ على فدان له في بعض الأودية ، فقال لغلامه: انزل إلى هذا الحرَّاث ، وخذ معك دنانير ودراهم؛ فإن كان معه خبز فخذه وأعطه؛ وكان للحرَّاثِ شريك ذهب لحاجته؛ فنزل الغلامُ إلى الحرَّاث ، فنظرَ إليه شريكهُ من بعيد ، فوقف بالبعد يفرَق من أن يجيء إلى شريكه وهو ينظر ما يصنع شريكه ، فدفعَ الغلام إلى الحرَّاثِ شيئاً ، فجاءَ الحراث فأخذ الخبزَ ، فدفعهُ إلى الغلام وشريكه قائم ينظر إليه؛ ويظنُّ أنما اغتصبه خبزَه؛ ولم يظن أنَّهُ أعطاهُ شيئاً ، فعدا إلى المسلحة؛ فأعلمهم أن رجلاً جاءهم عليه سيف وسلاح؛ وأنهُ أخذ خبز شريكه من الوادي؛ فركب صاحب المسلحة ـ وكان في جبال ابن سُنباط ـ ووجَّهَ إلى سهل بن سنباط بالخبر ، فركب ابن سنباط وجماعة معهُ حتىٰ جاءه مسرعاً ، فوافىٰ الحرَّاث والغلام عنده ، فقال له: ما هذا؟ قال لهُ الحراث: هذا رجل مرَّ بي ، فطلبَ مني خبزاً فأعطيته ، فقال للغلام: وأينَ مولاك؟ قال: ها هنا ـ وأومى إليه ـ فاتبعه فأدركه وهو نازل؛ فلمَّا رأىٰ وجهه عرفه ، فترجل له ابن سنباط عن دابته ، ودنا منهُ فقبَّلَ يدهُ ، ثم قال له: يا سيِّداه؛ إلى أين؟ قال: أريدُ بلاد الروم ـ أو موضعاً سمَّاه ـ فقال له: لا تجدُ موضعاً ولا أحداً أعرف بحقكَ ، ولا أحقَّ أَن تكون عنده مني ، تعرف موضعي ، ليس بيني وبين السلطان عمل؛ ولا تدخل على أحد من أصحاب السلطان وأنت عارف بقضيتي وبلدي؛

وكلُّ مَنْ ها هنا من البطارقة إنما هم أهل بيتكَ ، قد صار لكَ منهم أولاد؛ وذلكَ أن بابك كان إذا علم أن عند بعض البطارقةِ ابنة أو أختاً جميلة وجه إليها يطلبها ، فإن بعث بها إليه وإلا بيَّته وأخذها ، وأخذ جميعَ ماله من متاعٍ وغير ذلك ، وصار به إلى بلده غصباً.

ثم قال ابن سنباط له: صرْ عندي في حصني؛ فإنَّما هو منزلك؛ وأنا عبدك؛ كُنْ فيهِ شتوتَك هذه ثم ترىٰ رأيكَ. وكانَ بابك قد أصابهُ الضرُّ والجهدُ ، فركن إلى كلامِ سهل بن سنباط؛ وقال لهُ: ليس يستقيمُ أن أكون أنا وأخي في موضع واحد؛ فلعلهُ أن يُعثَر بأحدنا فيبقىٰ الآخر؛ ولكن أقيم عندكَ أنا ، ويتوجَّهُ عبد الله أخي إلى ابن اصطفانوس؛ لا ندري ما يكون؛ وليس لنا خلَفٌ يقوم بدعوتِنا. فقال لهُ ابن سنباط: ولدكَ كثير ، قال: ليس فيهم خير. وعزم على أن يصيِّرَ أخاه في حصن ابن اصطفانوس ـ وكان يثق به ـ فصار هو مع ابن سنباط في حِصنه ، فلما أصبح عبد الله مضىٰ إلى حصن اصطفانوس؛ وأقامَ بابك عند ابن سنباط ، وكتب ابن سنباط إلى الأفشين يعلمهُ أن بابك عندهُ في حصنهِ. فكتبَ إليهِ: إنْ كانَ هذا صحيحاً فلك عندي وعندَ أمير المؤمنين ـ أيدهُ الله ـ الذي تحبُّ؛ وكتب يجزيهِ خيراً ، ووصف الأفشين صفة بابك لرجل من خاصته؛ ممَّن يثق به ، ووجَّهَ به إلى ابن سنباط وكتب إليه يعلمه أنه قد وجه إليهِ برجل من خاصته ، يحبُّ أن يرىٰ بابك ليحكي للأفشين ذلك. فكره ابن سنباط أن يُوحشَ بابك ، فقال للرجل: ليس يمكن أن تراه إلا في الوقت الذي يكون منكباً على طعامه يتغدَّىٰ؛ فإذا رأيتنا قد دعونا بالغداء فالبس ثياب الطبَّاخين الذين معنا على هيئة علوجنا وتعال كأنكَ تقدم الطعام ، أو تناول شيئاً؛ فإنهُ يكونُ منكباً على الطعام ، فتفَقَّدْ منهُ ما تريد؛ فاذهب فاحكه لصاحبك.

ففعل ذلكَ في وقت الطعام ، فرفع بابك رأسه فنظر إليهِ فأنكره ، فقال: مَنْ هذا الرجل؟ فقال له ابن سنباط: هذا رجل من أهل خراسان ، منقطع إلينا منذ زمن ، نصراني. فلقن ابنُ سنباط الأشروسنيَّ ذلك. فقال لهُ بابك: منذ كم أنت ها هنا؟ قال: منذ كذا وكذا سنة ، قال: وكيفَ أقمتَ ها هنا؟ قال: تزوَّجتُ ها هنا ، قال: صدقت إذا قيل للرجل من أين أنت؟ قال: مِنْ حيث امرأَتي.

ثم رجعَ إلى الأفشين فأخبرهُ ، ووصف له جميع ما رأىٰ ثَمَّ من بابك ، ووجَّهَ

الأفشين أبا سعيد وبُوزبارة إلى ابن سنباط ، وكتب إليه معهما ، وأمرهما إذا صارا إلى بعض الطريق قدَّما كتابه إلى ابن سنباط مع علج من الأعلاج ، وأمرهما ألاَّ يخالفا ابن سنباط فيما يشيرُ به عليهما . ففعلا ذلك ، فكتبَ إليهما ابن سنباط في المقام بموضع ـ قد سماه ووصفه لهما ـ إلى أن يأتيَهُما رسوله . فلم يزالا مقيمين بالموضع الذي وصفه لهما ، ووجَّهَ إليهما ابن سنباط بالميرة والزاد؛ حتىٰ تحركَ بابك للخروج إلى الصيد ، فقال لهُ : ها هنا وادٍ طيب ، وأنتَ مغموم في جوف هذاالحصن! فلو خرجنا ومعنا بازي وباشق وما يحتاجُ إليهِ فتتفرج إلى وقت الغداء بالصيد! فقال لهُ بابك : إذا شئت . فأنفذ ليركبا بالغداة ، وكتب ابن سنباط إلى أبي سعيد وبوزبارة يعلمهما ما قد عزم عليه ، ويأمرهما أن يوافياه ، واحد من هذا الجانب من الجبل والآخر من الجانب الآخر في عسكرهما وأن يسيرا متكمنين مع صلاة الصبح ؛ فإذا جاءهما رسوله أشرفا على الوادي ، فانحدروا عليهِ إذا رأوهم وأخذوهم .

فلما ركب ابن سنباط وبابك بالغداة وجَّهَ سنباط رسولاً إلى أبي سعيد ورسولاً إلى بوزبارة ، وقال لكل رسول : جيء بهذا إلى موضع كذا ، وجيء بهذا إلى موضع كذا ؛ فأشرفا علينا ؛ فإذا رأيتمونا فقولوا : هم هؤلاء خذوهم ؛ وأرادَ أن يشبّه على بابك ؛ فيقول : هذا خيل جاءتنا فأخذتنا ، ولم يحبّ أن يدفعهُ إليهما من منزله ؛ فصار الرسولان إلى أبي سعيد وبوزبارة ، فمضيا بهما حتىٰ أشرفا على الوادي ؛ فإذا هما ببابك وابن سنباط ، فنظرا إليهِ وانحدرا وأصحابهما عليه ؛ هذا من ها هنا ، وهذا من ها هنا ، وأخذاهما ومعهما البواشيق ، وعلى بابك دُرَّاعة بيضاء وعمامة بيضاء ، وخُف قصير . ويقال كان بيدهِ باشق ؛ فلما نظر إلى العساكر قد أحدقت به وقف ، فنظر إليهما ، فقالا له : انزل ، فقال : ومن أنتما؟ فقال أحدهما : أنا أبو سعيد ، والآخر : أنا بوزبارة ، فقال : نعم ، وثنىٰ رجله ، فنزل ، وكان ابنُ سنباط ينظرُ إليهِ ؛ فرفعَ رأسهُ إلى ابن سنباط فشتمه ، وقال : إنما بعتني لليهود بالشيء اليسير ؛ لو أردت المالَ وطلبته لأعطيتكَ أكثر مما يعطيكَ هؤلاء ، فقال له أبو سعيد : قم فاركب ، قال : نعم فحملوه وجاءوا بهِ إلى الأفشين ؛ فلما قرب من العسكر صعد الأفشين برزند ، فضربت له خيمة على برزند ، وأمر الناسَ فاصطفوا صفين ، وجلس الأفشين في فازة ، وجاءوا بهِ ،

وأمر الأفشين ألا يتركوا عربيّاً يدخل بين الصفين فرَقاً أن يقتلهُ إنسان أو يجرحه ممن قتل أولياءه؛ أو صنع به داهية. وكانَ قد صار إلى الأفشين نساءٌ كثيرٌ وصبيان؛ ذكروا أن بابك كان أسرهم؛ وأنهم أحرار من العرب والدهاقين ، فأمر الأفشينُ فجُعلت لهم حظيرة كبيرة ، وأسكنهم فيها ، وأجرىٰ لهم الخبز ، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم حيث كانوا ، فكانَ كلُّ من جاء فعرف امرأة أو صبياً أو جارية ، وأقام شاهدين أنه يعرفها وأنَّها حرمة له أو قرابة دفعها إليه؛ فجاء الناسُ ، فأخذوا منهم خلقاً كثيراً ، وبقي منهم ناسٌ كثير ينتظرون أن يجيء أولياؤهم.

ولما كان ذلك اليوم الذي أمر الأفشين الناس أن يصطفوا ، فصار بين بابك وبينهُ قَدر نصف ميل، أنزِل بابك يمشي بين الصَّفين في دُراعته وعمامته وخفيه ، حتىٰ جاء فوقف بين يدي الأفشين فنظر إليه الأفشين ، ثم قال: انزلوا به إلى العسكر؛ فنزلوا به راكباً ، فلما نظر النساء والصبيان الذين في الحظيرة إليهِ لَطموا على وجوههم ، وصاحوا وبكوا حتىٰ ارتفعت أصواتهم ، فقال لهم الأفشين: أنتم بالأمس؛ تقولون أسرنا ، وأنتم اليوم تبكون عليه! عليكم لعنة الله. قالوا: كان يحسن إلينا. فأمر به الأفشين فأدخل بيتاً ، ووكل بِهِ رجالاً من أصحابه.

وكان عبد الله أخو بابك لما أقام بابك عند ابن سنباط ، صار إلى عيسىٰ ابن يوسف بن اصطفانوس؛ فلما أخذ الأفشين بابك ، وصيره معهم في عسكره ووكلَ بِهِ ، أعلِمَ بمكان عبد الله أنه عند ابن اصطفانوس؛ فكتب الأفشين إلى ابن اصطفانوس أن يوجّه إليهِ بعبد الله؛ فوجهَ به ابن اصطفانوس إلى الأفشين ، فلما صارَ في يد الأفشين حبسه مع أخيهِ في بيت واحد؛ ووكَّلَ بهما قوماً يحفظونهما.

وكتبَ الأفشين إلى المعتصم بأخذهِ بابك وأخاه ، فكتب المعتصم إليه يأمرهُ بالقدوم بهما عليه ، فلما أرادَ أن يسير إلى العراق وجَّهَ إلى بابك فقال: إني أريد أن أسافرَ بكَ ، فانظر ما تشتهي من بلاد أذْرَبيجان ، فقال: أشتهي أن أنظر إلى مدينتي ، فوجهَ معهُ الأفشين قوماً في ليلةٍ مُقمرةٍ إلى البذ حتى دار فيهِ ، ونظر إلى القتلىٰ والبيوت إلى وقت الصباح ، ثم رده إلى الأفشين ، وكان الأفشين قد وكَّلَ بِهِ رجلاً من أصحابِهِ فاستعفاهُ منه بابك ، فقال لهُ الأفشين: لم استعفيتَ منه؟ قال: يجيء ويده ملأى غمَرا ، حتىٰ ينام عند رأسي فيؤذيني ريحُها ، فأعفاهُ منه.

وكان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند لعشر خلون من شوال بين بوزبارة وديوداذ[١].

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة محمد بن داود[٢].

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

[ذكر خبر قدوم الأفشين ببابك على المعتصم][٣]

فمن ذلكَ قدوم الأفشين على المعتصم ببابك وأخيه ، ذُكرَ أنَّ قدومهُ عليه به كان ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر سامراء ، وأنَّ المعتصم كان يوجه إلى الأفشين كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافىٰ سامراء فرساً وخِلْعة ، وأنَّ المعتصم لعنايتهِ بأمر بابك وأخباره ولفساد الطريق بالثلج وغيره ، جعل من سامراء إلى عقبة حلوان خيلاً مضمَّرة على رأس كلِّ فرسخ فرساً معه مُجْرٍ مرتب؛ فكانَ يركضُ بالخبر ركضاً حتىٰ يؤديهِ من واحدٍ إلى واحد ، يداً بيد؛ وكان ما خَلْف حُلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيهِ المرج؛ فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتىٰ يقفَ لهُ على الطريق؛ فيأخذ الخريطة منه؛ فكانت الخريطة تصلُ من عسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام وأقل؛ فلما صار الأفشين بقناطر حُذَيفة تلقاهُ هارون بن المعتصم وأهل بيت المعتصم؛ فلما صار الأفشين ببابك إلى سامراء أنزله الأفشين في قصره بالمَطيرة؛ فلمَّا كان في جوف الليل ذهب أحمد بن أبي دواد متنكراً ، فرآهُ وكلمه ، ثم رجع إلى المعتصم ، فوصفه له ، فلم يصبر

(١) انظر تعليقنا في (٩/ ٥٤).

(٢) بينما قال البسوي حج بنا محمد بن عيسى (المعرفة ١/ ٧٠) ولعل هذه هي المرة الأولى التي لم يصيب فيها الطبري في تعيين أمير الحج والله أعلم.

(٣) انظر المنتظم (١١/ ٧٦) والبداية والنهاية [٨/ ١٧٢] وانظر تعليقنا [٩/ ٥٤/ ٢٤٦].

المعتصم حتىٰ ركب إليهِ بين الحائطين في الحِير؛ فدخلَ إليهِ متنكراً، ونظرَ إليهِ وتأملهُ، وبابك لا يعرفه؛ فلما كان من غدٍ قعد له المعتصم يوم إثنين أو خميس، واصطف الناس من باب العامَّة إلى المطيرة، وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال: على أيِّ شيء يُحمل هذا؟ وكيفَ يُشهر! فقال حزام: يا أمير المؤمنين، لا شيء أشهر من الفيل، فقال: صدقت؛ فأمر بتهيئةِ الفيل، وأمرَ به فجُعِلَ في قبَاء ديباج وقلنسوة سمّور مدوَّرة؛ وهو وحدهُ؛ فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قـد خُضِـبَ الفيـلُ كعـاداتـه يَحمـلُ شيطـانَ خـراسـانِ
والفيـلُ لا تُخضَـبُ أعضـاؤه إلا لـذي شـأنٍ مـن الشـانِ

فاستشرفه الناسُ من المَطيرة إلى باب العامَةِ؛ فأدخل دار العامة إلى أمير المؤمنين، وأحضر جزَّاراً ليقطع يديه ورجليه؛ ثم أمر أن يحضر سيَّافُه، فخرج الحاجب من باب العامة؛ وهو ينادي: نودنود ـ وهو اسم سياف بابك ـ فارتفعت الصيحةُ بنودنود حتىٰ حضر، فدخل دار العامةِ، فأمرهُ أمير المؤمنين أن يقطعَ يديه ورجليه، فقطعهما فسقط، وأمر أميرُ المؤمنين بذبحهِ وشقّ بطن أحدهما، ووجَّهَ برأسه إلى خُراسان، وصلبَ بدنهُ بسامراء عند العقبة، فموضعُ خشبته مشهور، وأمر بحمل أخيه عبد الله مع ابن شَرْوين الطَّبَرِيّ إلى إسحاق بن إبراهيم خليفته بمدينة السَّلام، وأمره بضرب عنقه، وأن يفعل بِهِ مثل ما فعل بأخيه، وصلبه؛ فلما صارَ به الطبري إلى البَردَان، نزلَ به ابن شروين في قصر البردان، فقال عبد الله أخو بابك لابن شروين: مَنْ أَنْت؟ فقال: ابن شروين ملك طبرستان، فقال: الحمدُ لله الذي وفَّق لي رجلاً من الدَّهاقين يتولىٰ قتلي، قال: إنما يتولَّى قتلك هذا ـ وكانَ عندهُ نودنود، وهو الذي قتل بابك ـ فقال له: أنتَ صاحبي، وإنما هذا علج، فأخبرني، أأمرتَ أن تطعمني شيئاً أم لا؟ قال: قل ما شئت، قال: اضرب لي فالوذجة، قال: فأمر فضربت له فالوذجة في جوف الليل، فأكل منها حتىٰ تملأ، ثم قال يا أبا فلان، ستعلم غداً أني دِهقان إن شاء الله. ثم قال: تقدر أن تسقيني نبيذاً؟ قال: نعم، ولا تُكثِر، قال: فإني لا أكثر، قال: فأحضر أربعة أرطالِ خمر، فقعد فشربها على مَهل إلى قريب من الصبح، ثم رحل في السَّحر، فوافىٰ به مدينة السلام، ووافىٰ به رأس الجسر، وأمر

إسحاق بن إِبراهيم بقطع يديهِ ورجليهِ ، فلم ينطق ولم يتكلم ، وأمر بصلبهِ فصُلِبَ في الجانب الشرقيِّ بينَ الجسرين بمدينة السلام[١] .

---

(١) هذه الأخبار الطويلة عن وقائع محاربة بابك الخرمي ودفع شره من قبل المعتصم وجيوشه بقيادة إفشين ذكرها الطبري واستقصاها دون سواه من المؤرخين المتقدمين الثقات كما قال الحافظ ابن كثير مشيراً إلى طرف منها (بعد حروب طويلة قد استقصاها أبو جعفر في تأريخه) (البداية والنهاية ٨/ ١٧٢) ولم يذكر خليفة إلاَّ أصل الخبر وخاصة فيما يتعلق بهزيمة بابك وانتصار إفشين عليه سنة (٢٢٢ هـ) .
إلاَّ أن أبا حنيفةَ الدينوري قد ذكر هذه الأحداث ولكن بصيغة مختصرة جداً عما عند الطبري ولم يجزِّئها بين السنوات وحين يقرؤها القارئ تتكون لديهِ صورة عن تلكَ الوقائع دون الشرود وراء التفاصيل والملل من ذكرها وقد استغرقت الصفحات (٤٠٢ ـ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) من الأخبار الطوال وسنذكرها كما هي دون تلخيص أو تصرف: قال أبو حنيفة الدينوري: [وكانَ ابتداء أمر بابك أنه تحركَ في آخر أيام المأمون وقد اختلف في نسبهِ ومذهبه والذي صحَّ عندنا وثبت أنه كان من ولد مطهّر بنت فاطمة بنت أبي مسلم ، هذه التي ينتسب إليها الفاطمية من الخرمية لا إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ فنشأ بابك والحبل مضطرب والفتن متصلة فاستفتح أمره بقتل من حوله بالبذّ وإخراب تلك الأمصار والقرىٰ التي حواليه ، لتصفو له البلاد ، ويصعب مطلبه ، وتشتد المؤونة في التوصل إليه؛ واشتدت شوكته واستفحل أمره. وقد كان المأمون وجَّهَ إليهِ حين اتصل به خبره عبد الله بن طاهر بن الحسين في جيش عظيم ، فسارَ إليهِ ونزلَ في طريقه الدينور في ظاهرها في مكانٍ يعرف إلى يومنا هذا بقصر عبد الله بن طاهر وهو كَرْمٌ مشهورٌ ، ومكان مذكور.
ثم سار منها حتىٰ وافىٰ البذ ، وقد عظم أمر بابك ، وتهيَّبه الناس فحاربوهُ فلم يقدروا عليهِ ، ففضَّ جمعهم وقتل صناديدهم ، وكان ممن قتل في تلك الواقعة محمد بن حميد الطوسي ، وهو الذي رثاه أبو تمام بقصيدته التي يقول فيها:

كأنَّ بني نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خرَّ من بينها البدرُ

وفيها يقول:

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... فقال لها من تحت أخمصكِ الحشرُ

فلما أفضىٰ الأمر إلى أبي إسحاق المعتصم لم تكن همتهُ غيره فأعدَّ لهُ الأموال والرجال وأخرج مولاه الأفشين حيدر بن كاوس ، فسار الأفشين بالعساكر والجيوش حتىٰ وافىٰ برزند ، فأقامَ بها حتىٰ طاب الزمانُ ، وانحسرت الثلوج عن الطرقات ثم قدم خليفته يوبارة وجعفر بن دينار وهو المعروف بجعفر الخياط في جمع كثير من الفرسان إلى الموضع الذي كانَ فيهِ معسكراً وأمرهما أن يحفرا خندقاً حصيناً فسارا حتىٰ نزلا هناك ، واحتفرا الخندق.
فلما فرغا من حفر الخندق استخلف الأفشين ببرزند المرزبان مولىٰ المعتصم في جماعة من=

= القواد ، وسار هو حتىٰ نزل الخندق ووجه يوبارة وجعفر الخياط في جمع كثيف إلى رأس نهر كبير وأمرهما بحفر خندق آخر هناك فسار حتى احتفراه ، فلما فرغا وافاهما الأفشين ثم خلّف في موضعه محمد بن خالد بخارا خذاه ، وشخص إلى دَرْوَذْ في خمسة آلاف فارس وألفي راجلٍ ومعهُ ألف رجل من الفعلة حتىٰ نزلَ درود واحتفرَ بها خندقاً عظيماً وبنىٰ عليها سوراً شاهقاً فكانَ بابك وأصحابه يقفون على جبال شاهقة فيشرفون منها على العسكر ويولولون.

ثم ركبَ الأفشين يومِ الثلاثاء لثلاث بقينَ من شعبان في تعبية وحمل المجانيق وأمر بابك آذين أن يحصِّنَ تَلّاً مشرفاً على المدينة ومعهُ ثلاثة آلاف رجل وقد احتفر حوله الآبار ليمنعَ الخيل منهم.

فانصرف الأفشين يوماً إلى خندقه ثم غدا عليهِ يوم الجمعة في غرة شهر رمضان فنصب المجانيق والعرادات على المدينة وأحدقت القواد والرؤساء.

وأقبل بابك في أنجاد أصحابه وعباهم فقاتله القواد قتالاً شديداً إلىٰ العصر ثم انصرفوا وقد نكّوا في أصحابه وأقام الأفشين ستة أيام ثم ناهضه يوم الخميس لسبع ليال خلون من شهر رمضان واستعد له بابك فوضع على البذّ عجلاً عظيماً ليرسله إلى أصحاب الأفشين ثم أرسل بابك رجلاً يقال لهُ «موسىٰ الأقطع» إلى الأفشين يسألهُ أن يخرجَ إليهِ ليشافهه بما في نفسه ، فإن صارَ إلى مرادهِ وإلّا حاربه فأجابه الأفشين إلى ذلك فخرج بابك حتىٰ صار بالقرب من الأفشين في موضع بينهماواد. فلما رأىٰ الأفشين كفّى له فبسطه الأفشين وأعلمه ما في الطاعة من السلامة في الدنيا والآخرة فلم يقبل ذلك ، فانصرفَ إلى موضعه وأمر أصحابه بالحرب فتسرعوا إلى ذلكَ ودهدهوا العجل الذي كانوا أعدوهُ فانكسر العجل ، وثاب أصحاب الأفشين فدفعوهم إلى رأس الجبل.

وقد كان يوبارة وجعفر الخياط وقفا بحذاء عبد الله أخي بابك ، فحملا وحمل عليهم القواد من جميع النواحي ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وانهزموا حتىٰ دخلوا المدينة ، فدخلوا خلفهم في طلبهم ، وصارت الحرب في ميدان وسط المدينة. وكانت حرباً لم ير مثلها شدة وقتلوا في الدور والبساتين وهرب عبد الله أخو بابك.

فلما رأىٰ بابك أن العساكر قد أحدقت بهِ والمذاهب قد ضاقت عليهِ ، وأن أصحابهُ قد قتلوا وفلّوا توجَّهَ إلى أرمينية ، وسار حتىٰ عبر نهر الرسّ متوجهاً إلى الروم فلما عبر نهر الرسّ قصد نحوه سهل بن سنباط صاحب الناحية وقد كان الأفشين كتب إلى أصحاب تلك النواحي وإلى الأكراد بأرمينية والبطارقة بأخذ الطرق عليه.

فوافاه سهل بن سنباط وقد كان بابك غيَّر لباسه وبدّل زيّه وشدّ الخرق على رجليهِ وركب بغلة بإكاف فأوقع به سهل بن سنباط فأخذهُ أسيراً.

ووجّه به إلى الأفشين فاستوثق منه الأفشين وكتبَ إلى المعتصم بالفتح. واستأذنهُ في القدوم عليه فأذن له ، فسارَ حتىٰ قدم عليه وجه بابك وأخوه ، فكان من قتل المعتصم لبابك وقطع

وذكر عن طَوق بن أحمد ، أن بابك لما هرب صار إلى سهل بن سنباط فوجَّهَ الأفشين أبا سعيد وبوزبارة ، فأخذاه منه ، فبعث سهل مع بابك بمعاوية ابنه إلى الأفشين ، فأمر لمعاوية بمائة ألف درهم ، وأمر لسهل بألف ألف درهم استخرجها لهُ من أمير المؤمنين ومنطقة مغرقة بالجوهر وتاج البطرقة ، فبطرق سهل بهذا السبب ، والذي كانَ عنده عبد الله أخو بابك عيسىٰ بن يوسف المعروف بابن أخت اصطفانوس ملك البَيلقان.

وذكر عن محمد بن عمران كاتب عليٍّ بن مر ، قال: حدَّثني علي بن مرٍّ ، عن رجل من الصعاليك يقال له مَطر ، قال: كان واللهِ يا أبا الحسن بابك ابني ، قلت: وكيف؟ قال: كنا مع ابن الرَّوَّاد ، وكانت أمه ترتوميذ العوراء من علوج ابن الرَّواد ، فكنت أنزل عليها ، وكانت مصكة فكانت تخدمني ، وتغسل ثيابي ، فنظرتُ إليها يوماً ، فواثبتها بشبق السفر وطول الغربة ، فأقررتُه في رحمها ، ثم قال: غبنا غيبة بعد ذلكَ ، ثم قدمنا فإذا هي تطلبني ، فنزلتُ في منزل آخر ، فصارت إليَّ يوماً ، فقالت: حين ملأتَ بطني تنزلُ ها هنا وتتركني! فأذاعت أنه منِّي فقلت: واللهِ لئن ذكرتِني لأقتلنَّكِ؛ فأمسكت عني ، فهو واللهِ ابني.

وكان يُجزَىٰ الأفشين في مقامه بإزاء بابك سوىٰ الأرزاق ، والأنزال والمعاون في كلِّ يوم يركب فيهِ عشرة آلاف درهم ، وفي كلِّ يومٍ لا يركب فيهِ خمسة آلاف درهم.

وكان جميعُ من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان ، وغلب يحيىٰ بن معاذ وعيسىٰ بن محمد بن أبي خالد وأحمد بن الجُنيد ، وأسره وزُريق بن علي بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسي وإبراهيم بن الليث ، وأسِر مع بابك ثلاث آلاف وثلثمائة وتسعة أناسي ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان، وعدَّة من صار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلاً ، ومن البنات والكنَّات ثلاث

= يديهِ ورجليه وصلبهِ ما هو مشهور.
قالوا: ولما قدمَ الأفشين ومعهُ بابك أجلسه المعتصم على سرير أمامه وعقدالتاج على رأسه.
[الأخبار الطوال/ ٤٠٢ ـ ٤٠٥].

وعشرون امرأة ، فتوّج المعتصم الأفشين وألبسه وشاحين بالجوهر ، ووصله بعشرين ألف درهم ، منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرِّقها في أهل عسكره ، وعقد له على السَّند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ، وأمر للشعراء بصلات ، وذلكَ يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر ، وكان مما قيلَ فيه قول أبي تمام الطائيّ :

بـذَّ الجـلادُ البـذَّ فهـو دفيـنُ ... مـا إن بـه إلاَّ الـوحـوش قطيـنُ
لم يقر هذا السيفُ هَذَا الصَّبر في ... هَيْجـاءَ إلاَّ عَـزَّ هـذا الـديـن
قـد كـان عُـذرةَ سُـودَد فـافتضَّهـا ... بـالسيـفِ فَحْـلُ المشـرقِ الأَفشيـن
فـأَعـادهـا تَعـوِي الثعـالـبُ وسطهـا ... ولقـد تُـرىٰ بـالأَمـس وهـي عـريـنُ
هطلـتْ عليهـا مـن جَمـاجِـمِ أَهلهـا ... دِيَـمٌ أَمـارَتُهـا طُلـىً وشـؤون
كـانـت مـن المُهَجـات قبـلُ مفـازةً ... عِسـراً فـأَضحـتْ وهـي منـه مَعيـن

[ذكر خبر إيقاع الروم بأهل زبطرة]

وفي هذه السنة أوقع تَوفِيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زَبَطرة ، فأسرهم وخرب بلدهم ، ومضىٰ من فوره إلى مَلَطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين ؛ إلى غير ذلك ؛ وسبا من المسلمات ـ فيما قيل ـ أكثر من ألف امرأة ، ومثَّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمَل أعينهم ، وقطع آذانهم ، وآنافهم[(١)].

ذكر الخبر عن سبب فعل صاحب الروم بالمسلمين ما فعل من ذلك :

ذُكر أنّ السبب في ذلكَ كان ما لحق بابك من تضييق الأفشين عليه وإشرافه على الهلاك ، وقَهْر الأفشين إياه ؛ فلما أشرف على الهلاك ، وأيقن بالضَّعْفِ من نفسه عن حربه ، كتب إلى ملك الروم توفيل بن ميخائيل بن جُورجس ؛ يعلمه أن ملك العرب قد وجَّهَ عساكرهُ ومقاتلتهُ إليه حتىٰ وجَّهَ خيَّاطه ـ يعني جعفر بن

(١) انظر المنتظم (١١/ ٧٨) والبداية والنهاية (٨/ ١٧٤) وجعل ابن قتيبة هٰذه الحادثة سبباً مباشراً فقال ونزلت الروم زبطرة فتوجه أبو إسحاق غازياً في جمادىٰ الآخرة سنة ٢٢٣ هـ [المعارف ٢٠٠].

دينار ـ وطباخه ـ يعني إيتاخ ـ ولم يبقَ على بابهِ أحد؛ فإن أردتَ الخروجَ إليهِ فاعلم أنهُ ليس في وجهكَ أحدٌ يمنعُكَ؛ طمعاً منهُ بكتابهِ ذلكَ إليه في أن ملك الروم إن تحرك انكشف عنه بعض ما هو فيه بصرف المعتصم بعض مَنْ بإزائهِ من جيوشه إلى ملك الروم ، واشتغاله به عنه .

فذكر أن توفيل خرج في مائة ألف ـ وقيل أكثر ـ فيهم من الجند نيِّف وسبعون ألفاً ، وبقيَّتهم أتباع حتىٰ صار إلى زِبَطرة ، ومعه من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرَض لهم ، وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعينُ بهم في أهم أمورهِ إليه؛ فلما دخلَ ملكُ الرومِ زِبَطرة وقتل الرجال الذين فيها ، وسبىٰ الذراري والنساء التي فيها وأحرقها ، بلغَ النفير ـ فيما ذكر ـ إلى سامراء ، وخرج أهل ثغور الشأم والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عندهُ دابةٌ ولا سلاح واستعظم المعتصم ذلك .

فذكر أنه لما انتهىٰ إليهِ الخبرُ بذلكَ صاحَ في قصره النفير ، ثم ركب دابتهُ وسمَّطَ خلفهُ شكالا وسكة حديد وحقيبة ، فلم يستقم له أن يخرج إلا بعد التعبية ، فجلس ـ فيما ذكر ـ في دار العامة ، وقد أحضر من أهل مدينة السلام قاضيها عبد الرحمن بن إسحاق وشعيب بن سهل ، ومعهما ثلثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة ، فأشهدهم على ما وقف من الضياع ، فجعل ثلثاً لولدهِ ، وثلثاً لله وثلثاً لمواليه . ثم عسكر بغربي دجلة؛ وذلكَ يوم الإثنين لليلتين خلتا من جمادىٰ الأولىٰ .

ووجه عُجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني ومحمد كُوتة وجماعة من القُواد إلى زِبطرة إعانة لأهلها، فوجد ملك الروم قد انصرف إلى بلادهِ بعدما فعل ما قد ذكرناه ، فوقفوا قليلاً؛ حتىٰ تراجعَ الناسُ إلى قراهم ، واطمأنُّوا ، فلما ظفر المعتصم ببابك ، قال: أيِّ بلاد الروم أمنعُ وأحصن؟ فقيل: عمُّورية ، لم يعرض لها أحدٌ من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبُنكها، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية .

ذكر الخبر عن فتح عمورية[(١)]

وفي هذه السنة شخص المعتصم غازياً إلى بلاد الروم ، وقيل كان شخوصهُ إليها من سامراء في سنة أربع وعشرين ومائتين ـ وقيل في سنة اثنتين وعشرين ومائتين ـ بعد قتلهِ بابك .

فذكر أنه تجهّز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قطُّ من السلاح والعُدد والآلة وحياض الأدم والبِغال والرّوايا والقِرَب وآلة الحديد والنفط ، وجعل على مقدِّمتهِ أشناس ، ويتلوه محمد بن إبراهيم ، وعلى ميمنتهِ إيتاخ ، وعلى ميسرتهِ جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط ، وعلى القلب عُجَيف بن عنبسة .

ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللمِس وهو على سَلُوقية قريباً من البحر ، بينهُ وبين طرَسُوس مسيرة يوم ، وعليهِ يكون الفداء إذا فُودِي بين المسلمين والروم ، وأمضىٰ المعتصم الأفشين خيذر بن كاوس إلى سَرُوج ، وأمرهُ بالبروز منها والدخول من دربِ الحدَث ، وسمَّى لهُ يوماً أمرهُ أن يكونَ دخولهُ فيهِ ، وقدَّر لعسكرهِ وعسكر أشناس يوماً جعلهُ بينهُ وبين اليوم الذي يدخلُ فيهِ الأفشين ، بقدر ما بين المسافتين إلى الموضع الذي رأىٰ أن يجتمعَ العساكر فيه ـ وهو أنقِرة ـ ودبَّر النزول على أنقرة ، فإذا فتحها اللهُ عليهِ صار إلى عمُّورية ، إذ لم يكن شيء مما يقصد لهُ من بلاد الروم أعظم من هاتين المدينتين ، ولا أحرىٰ أن تجعل غايته التي يؤمّها .

وأمر المعتصم أشناس أن يدخل من درب طَرسُوس ، وأمره بانتظاره

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٨٢) والبداية والنهاية (٨/ ١٧٤) .
وهذا الخبر الطويل استغرق الصفحات (٥٧ ـ ٧٠) وقد انفرد الطبري من بين المؤرخين المتقدمين الثقات بهذه التفاصيل وقد أخرج ابن الجوزي رواية مسندة في ذكر غزوة عمورية أيام المعتصم (عن شاهد عيان) فقال : روىٰ أبو بكر الصولي قال حدثنا الغلابي قال حدثني يعقوب بن جعفر بن سليمان قال : غزوت مع المعتصم عمورية فاحتاج الناس إلى ماء فمد لهم المعتصم حياضاً من أدم عشرة أميال وساق الماء . . الخ . وفي آخر الخبر وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرخى طرسوس وكانت إناخة المعتصم على عمورية لست خلون من رمضان (المنتظم ١١/ ٨٢) .
وأما قتيبة الدينوري فقال : ونزلت الروم زبطرة فتوجه أبو إسحاق غازياً في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين ففتح عمورية في شهر رمضان من هذه السنة (المعارف / ٢٠٠) .

بالصفصاف فكان شخوص أشناس يوم الأربعاء لثمانٍ بقينَ من رجب ، وقدَّمَ المعتصم وصيفاً في إثر أشناس على مقدِّمات المعتصم ، ورحل المعتصم يوم الجمعة لستٍ بقينَ من رجب .

فلما صارَ أشناس بمرج الأُسقُف ، ورد عليه كتاب المعتصم من المطامير يعلمهُ أن الملك بين يديه ، وأنه يريد أن يجوز العساكرُ اللِمس ، فيقف على المخاضة ، فيكبسهم ، ويأمره بالمقام بمرج الأسقُف ـ وكان جعفر بن دينار على ساقة المعتصم ـ وأعلم المعتصم أشناس في كتابهِ أن ينتظر موافاة الساقة ، لأن فيها الأثقال والمجانيق والزَّاد وغير ذلك؛ وكانَ ذلكَ بعد في مضيق الدرب لم يخلُص ، ويأمرهُ بالمقامِ إلى أن يتخلص صاحب الساقة من مضيق الدَّرب بمن معه ، ويُصحر حتىٰ يصير في بلاد الروم .

فأقام اشناس بمرج الأسقف ثلاثة أيام؛ حتىٰ ورد كتاب المعتصم ، يأمرهُ أن يوجِّهَ قائداً من قُواده في سرية يلتمسون رجلاً من الروم ، يسألونهُ عن خبر الملك ومَنْ معهُ ، فوجَّهَ أشناس عمراً الفرغانيِّ في مائتي فارس ، فسارَوا ليلتهم حتىٰ أتوا حصن قرَّة فخرجوا يلتمسون رجلاً من حَوْلِ الحصن؛ فلم يمكن ذلكَ ، ونذر بهم صاحب قُرة ، فخرج في جميع فرسانه الذين كانوا معهُ بالقُرَّة ، وكمن في الجبل الذي فيما بين قُرَّة ودُرَّة؛ وهو جبل كبير يحيط برستاق يسمىٰ رستاق قُرَّة ، وعلم عمرو الفرغاني أن أصحاب قُرَّة قد نذر بهم ، فتقدَّمَ إلى دُرَّة ، فكمن بها ليلته؛ فلما انفجرَ عمود الصبح صيَّرَ عسكرهُ ثلاثة كراديس ، وأمرهم أن يركُضوا ركضاً سريعاً ، بقدر ما يأتونهُ بأسير عنده خبر الملك ، ووعدهم أن يوافوه به في بعض المواضع التي عرفها الأدلأء ، ووجَّهَ مع كل كُردوسٍ دليلين .

وخرجوا مع الصبح ، فتفرقوا في ثلاثة وجوه؛ فأخذوا عدَّة من الروم؛ بعضهم من أهل عسكر الملك ، وبعضهم من الضواحي ، وأخذ عمرو رجلاً من الروم من فرسان أهل القرَّة ، فسألهُ عن الخبر؛ فأخبره أن الملك وعسكره بالقرب منه وراء اللمس بأربعة فراسخ ، وأنَّ صاحب قُرَّة نذر بهم في ليلتهم هذه ، وأنه ركب فكمن في هذا الجبل فوق رؤوسهم؛ فلم يزل عمرو في الموضع الذي كانَ وعد فيهِ أصحابه ، وأمر الأدلاء معهُ أن يتفرَّقوا في رؤوس الجبال ، وأن يشرفوا على الكراديس الذين وجَّههم إشفاقاً أَنْ يخالفهم صاحب قُرة إلى أحد

الكراديس ، فرآهم الأدلاءُ ، ولوحوا لهم ، فأقبلوا فتوافوا هم وعمرو في موضع غير الموضع الذي كانوا اتَّعدوا له ، ثم نزلوا قليلاً ، ثم ارتحلوا يريدون العسكر ، وقد أخذوا عدَّة ممن كان في عسكر الملك ، فصاروا إلى أشناس في اللَّمس ، فسألهم عن الخبر ، فأخبروه أن الملك مقيم منذ أكثر من ثلاثين يوماً ينتظرُ عُبور المعتصم ومقدَّمته باللَّمس؛ فيواقعهم من وراء اللَّمس ، وأنه جاءه الخبر قريباً؛ أنه قد رحل من ناحية الأرمنياق عسكرٌ ضخم ، وتوسط البلاد ـ يعني عسكر الأفشين ـ وأنه قد صار خلفه.

فأمرَ الملك رجلاً من أهل بيته ابن خاله ، فاستخلفه على عسكره ، وخرجَ ملكُ الروم في طائفةٍ من عسكرِهِ يريدُ ناحية الأفشين ، فوجَّهَ أشناس بذلك الرجل الذي أخبره بهذا الخبر إلى المعتصم فأخبره الخبر ، فوجه المعتصم من عسكره قوماً من الأدلاَّء ، وضمن لهم لكل رجلٍ منهم عشرة آلاف درهم؛ على أن يوافُوا بكتابه الأفشين ، وأعلمهُ فيه أنَّ أمير المؤمنين مقيمٌ ، فليقم إشفاقاً من أن يواقعه ملكُ الروم. وكتبَ إلى أشناس كتاباً يأمرهُ أن يوجه من قِبَله رسولاً من الأدلاء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالرُّوم ، وضمِنَ لكلِّ رجلٍ منهم عشرة آلاف درهم إن هو أوصل الكتاب ، ويكتب إليهِ أن ملك الروم قد أقبل نحوهُ فليُقم مكانهُ حتىٰ يوافيَهُ كتاب أمير المؤمنين.

فتوجَّهت الرسل إلى ناحية الأفشين ، فلم يلحقه أحد منهم؛ وذلكَ أنه كان وغل في بلاد الروم ، وتوافت آلات المعتصم وأثقالهُ مع صاحب الساقة إلى العسكر ، فكتب إلى أشناس يأمرهُ بالتقدُّم؛ فتقدَّمَ أشناس والمعتصم من ورائه ، بينهم مرحلة ينزلُ هذا ويرحل هذا. ولم يرد عليهم من الأفشين خبر؛ حتىٰ صاروا من أنقرة على مسيرة ثلاثة مراحل؛ وضاق عسكر المعتصم ضيقاً شديداً من الماء والعَلَف.

وكانَ أشناس قد أسرَ عدَّةَ أسرىٰ في طريقهِ ، فأمر بهم فضُربت أعناقهم حتىٰ بقي منهم شيخٌ كبير؛ فقال الشيخ: ما تنتفع بقتلي ، وأنت في هذا الضيق ، وعسكركَ أيضاً في ضيقٍ من الماءِ والزاد ، وها هنا قوم قد هربوا من أَنقرة خوفاً من أن ينزل بهم ملك العرب؛ وهم بالقرب منا ها هنا ، معهم من الميرة والطعام ، والشعير شيءٌ كثير ، فوجِّهْ معي قوماً لأدفعهم إليهم ، وخلِّ سبيلي!.

فنادىٰ منادي أشناس: مَنْ كان بِهِ نشاط فليركب، فركب معهُ قريب من خمسمائة فارس؛ فخرجَ أشناس حتىٰ صار من العسكر على ميل، وبرز معه مَنْ نشطَ من الناس، ثم برز فضرب دابته بالسوط، فركض قريباً من ميلين ركضاً شديداً، ثم وقف ينظر إلى أصحابِهِ خَلفه؛ فمَنْ لم يلحق بالكُردوس لضعف دابتِهِ ردَّهُ إلى العسكر، ودفعَ الرجل الأسير إلى مالك بن كَيدر، وقال له: متىٰ ما أراكَ هذا سَبْياً وغنيمةً كثيرة فخلِّ سبيله على ما ضِمِنَّا له. فسار بهم الشيخ إلى وقت العتمة، فأوردهم على وادٍ وحشيش كثير، فأمرج الناس دوابَّهم في الحشيش حتىٰ شبعت، وتعشىٰ الناسُ وشربوا حتىٰ رَووا، ثم سارَ بهم حتىٰ أخرجهم من الغَيضةِ، وسار أشناسُ مِنْ موضعِهِ الذي كانَ بِهِ متوجِّهاً إلى أنقرة.

وأمر مالك بن كيدر والأدلاَّء الذين معه أن يوافُوه بأنقرة، فسار بهم الشيخ العِلج بقية ليلتهم يدُورُ بهم في جبل ليسَ يخرجهم منه، فقال الأدلاءُ لمالك بن كيدر: هذا الرجلُ يدورُ بنا، فسألهُ مالك عما ذكر الأدلاَّء، فقال: صدقوا؛ القوم الذين تريدهم خارج الجبل، وأخافُ أن أخرج من الجبل بالليل فيسمعوا صوتَ حوافر الخيل على الصخر؛ فيهربوا، فإذا خرجنا من الجبل ولم نرَ أحداً قتلني، ولكن أدور بكَ في هذا الجبل إلى الصبح؛ فإذا أصبحنا خرجنا إليهم، فأريتُكَ إياهم حتىٰ آمن ألاَّ تقتلني. فقال لهُ مالك: ويحك! فأنزلنا في هذا الجبل حتىٰ نستريح، فقال: رأيك؛ فنزلَ مالك ونزل الناس على الصخرة، وأمسكوا لُجم دوابهم حتىٰ انفجر الصبح؛ فلما طلعَ الفجر قال: وجهوا رجلين يصعدان هذا الجبل؛ فينظران ما فوقه، فيأخذان من أدركا فيهِ، فصعد أربعةٌ من الرجال فأصابوا رجلاً وامرأةً؛ فأنزلوهما فسألَهُما العِلج: أين باتَ أهلُ أنقرة؟ فسمُّوا لهم الموضع الذي باتوا فيهِ، فقال لمالك: خلِّ عن هذين؛ فإنا قد أعطيناهما الأمان حتى دلونا، فخلَّىٰ مالك عنهما، ثم سار بهم العلج إلى الموضع الذي سمَّاهُ لهم، فأشرفَ بهم على العسكر عسكر أهل أنقرة، وهم في طرف ملاَّحة، فلما رأوا العسكر صاحوا بالنساء والصبيان، فدخلوا الملاَّحة، ووقفوا لهم على طرف الملاَّحة يقاتلون بالقَنا، ولم يكن موضع حجارة ولا موضع خيل، وأخذوا منهم عدة أسرىٰ، وأصابوا في الأسرىٰ عدَّة بهم جراحات عُتق من جراحات متقدمة، فسألوهم عن تلك الجِراحات، فقالوا: كنا في وقعة الملك مع

الأفشين ، فقالوا لهم : حدِّثونا بالقضية فأخبروهم أنَّ الملكَ كان معسكراً على أربعة فراسخ من اللَّمس ؛ حتىٰ جاءه رسول ، أن عسكراً ضخماً قد دخل من ناحية الأرمنياق ، فاستخلف على عسكره رجلاً من أهل بيتهِ ، وأمرهُ بالمقام في موضعهِ ؛ فإن ورد عليهِ مقدِّمةُ ملك العرب، واقعه إلى أن يذهب هو فيواقع العسكر الذي دخل الأرمنياق يعني عسكر الأفشين ـ فقال أميرهم : نعم ؛ وكنت ممن سار مع الملك ، فواقعناهم صلاة الغداة فهزمناهم ؛ وقتلنا رجَّالتهم كلَّهم ، وتقطعت عساكرنا في طلبهم ، فلما كان الظهر رجع فرسانهم ، فقاتلونا قتالاً شديداً حتىٰ حرَّقوا عسكرنا ، واختلطوا بنا واختلطنا بهم ؛ فلم ندرِ في أيِّ كُردوسٍ الملك! فلم نزل كذلكَ إلى وقتِ العصر ، ثم رجعنا إلى موضع عسكرِ الملك الذي كنا فيه فلم نصادفه ، فرجعنا إلى موضع معسكر الملك الذي خلَّفهُ على اللَّمس، فوجدنا العسكرَ قد انتقض، وانصرفَ الناس عن الرجل قرابة الملك الذي كانَ الملك استخلفهُ على العسكر ؛ فأقمنا على ذلكَ! ليلتنا ؛ فلمَّا كانَ الغدُ، وافانا الملكُ في جماعة يسيرة ، فوجد عسكرهُ قد اختلَّ ، وأخذ الذي استخلفهُ على العسكر ، فضرب عنقه ، وكتب إلى المدن والحصون ألاَّ يأخذوا رجلاً ممن انصرف من عسكر الملك إلا ضربوه بالسياط ، أو يرجع إلى موضع سماهُ لهم الملك انحاز إليهِ ليجتمعَ إليهِ الناسُ ، ويعسكر بهِ ، ليناهضَ ملك العرب ؛ ووجَّهَ خادماً له خصياً إلى أنقرة على أن يقيمَ بها ، ويحفظ أهلها إن نزل بها ملك العرب .

قال الأسير : فجاء الخصي إلى أنقرة وجئنا معهُ ، فإذا أنقرةَ قد عطَّلها أهلها ، وهربوا منها ، فكتب الخصي إلى ملكِ الروم يعلمهُ ذلك ، فكتبَ إليهِ الملك يأمره بالمسير إلى عَمورية .

قال : وسألتُ عن الموضع الذي قصد إليه أهلها يعني أهل أنقرة ـ فقالوا لي : إنهم بالملاَّحة فلحقنا بهم .

قال مالك بن كيدر : فدعوا الناس كلهم ، خذوا ما أخذتم ، ودعوا الباقي ، فتركَ الناس السبي والمقاتلة وانصرفوا راجعين ، يريدون عسكر أشناس ، وساقوا في طريقهم غنماً كثيراً وبقراً ، أطلق ذلكَ الشيخ الأسيرَ مالك ؛ وسار إلى عسكر أشناس بالأسرىٰ؛ حتىٰ لحق بأنقرة ، فمكث أشناس يوماً واحداً ، ثم لحقه المعتصم من غد؛ فأخبرهُ بالذي أخبره به الأسير ، فسُرَّ المعتصم بذلك . فلمَّا كانَ

اليوم الثالث جاءت البُشرىٰ من ناحية الأفشين يخبرون بالسلامة ، وأنه وارد على أمير المؤمنين بأنقرة .

قال : ثم ورد على المعتصم الأفشين بعد ذلكَ اليوم بيوم بأنقرة ، فأقاموا بها أياماً ، ثم صيَّرَ العسكرَ ثلاثة عساكر : عسكر فيه أشناس في الميسرة ، والمعتصم في القلب ، والأفشين في الميمنة ؛ وبين كل عسكر وعسكر فرسخان ، وأمر كل عسكر منهم أن يكونوا له ميمنة وميسرة ، وأن يحرقوا القرى ويخربوها ، ويأخذوا من لحقوا فيها من السَّبي ، وإذا كان وقت النزول توافَىٰ كلُّ أهل عسكر إلى صاحبهم ورئيسهم ، يفعلون ذلكَ فيما بينَ أنقرةَ إلى عَموريَّة ؛ وبينهما سبع مراحل ؛ حتىٰ توافت العساكر بعمُّورية .

قال : فلما توافت العساكر بعمُّورية ، كان أوَّل مَنْ وردها أشناس وردَها يوم الخميس ضَحوة ، فدار حولها دَورة ، ثم نزل على ميلين منها بموضع فيهِ ماء وحشيش ؛ فلما طلعت الشمسُ من الغد ، ركبَ المعتصم ، فدار حولها دورة ، ثم جاء الأفشين في اليوم الثالث ، فقسمها أميرُ المؤمنين بين القوَّاد كما تدور ؛ صيَّرَ إلى كل واحدٍ منهم أبراجاً منها على قدر كثرة أصحابه وقلَّتهم ، وصار لكلِّ قائد منهم ما بين البرجين إلى عشرين برجاً وتحصَّنَ أهلُ عمُّورية وتحرَّزوا .

وكان رجلٌ من المسلمين قد أسرهُ أهل عمُّورية ، فتنصر وتزوجَ فيهم فحبس نفسه عند دخولهم الحصن ، فلمَّا رأىٰ أميرَ المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين ، وجاء إلى المعتصم ، وأعلمه أن موضعاً من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل الماء عليه ، فوقع السور من ذلكَ الموضع ، فكتب ملك الروم إلى عامل عَمورية أن يبني ذلكَ الموضع ، فتوانىٰ في بنائهِ حتىٰ كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع ، فتخوفَ الوالي أن يمرَّ الملك على تلك الناحية فيمرَّ بالسور فلا يراه يُبنىٰ ، فَوَجَّه خلف الصنَّاع فبنىٰ وجه السور بالحجارةِ حجراً حجراً ، وسيرَ وراءه من جانب المدينةِ حشواً ، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كانَ ، فوقَّفَ ذلكَ الرجلُ المعتصِمَ على هذه الناحية التي وصف ، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلكَ الموضع ، ونصب المجانيق على ذلكَ البناء ، فانفرج السور من ذلك الموضع ، فلما رأىٰ أهل عموريَّة انفراج السور ، علَّقوا عليه الخشب الكبار ، كل واحد بلزق الأخرىٰ ؛ فكانَ حجر المجنيق إذا

وقع على الخشب تكسر ، فعلَّقوا خشباً غيره ، وصيَّروا فوقَ الخشب البراذع ليترِّسوا السور .

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع ، انصدع السور ، فكتب ياطس والخصيُّ إلى ملك الروم ، كتاباً يعلمانه أمر السور ، وجَّها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام رومي ، وأخرجاهما من الفصيل ، فعبرا الخندق ، ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني ، فلمَّا خرجا من الخندق أنكروهما ، فسألوهما : من أين أنتما : قالا لهم : نحن من أصحابكم ، قالوا : من أصحاب مَنْ أنتم؟ فلم يعرفا أحداً من قوَّادِ العسكر يسميانه لهم ، فأنكروهما ، وجاءوا بهما إلى عمرو الفرغاني بن أربخا ، فوجَّهَ بهما عمرو إلى أشناس ، فوجَّهَ بهما أشناس إلى المعتصم ، فسألهما المعتصم وفتَّشهما ، فوجد معهما كتاباً من ياطس إلى ملك الروم ، يعلمه فيهِ أن العسكر قد أحاطَ بالمدينةِ في جَمعٍ كثير ، وقد ضاق بهم الموضع . وقد كان دخولهُ ذلكَ الموضع خطأً ـ وأنه قد اعتزم على أن يركب ، ويحملَ خاصة أصحابهِ على الدواب التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً غفلة ، ويخرج فيحمل على العسكر كائناً فيهِ ما كان؛ أفلت فيه من أفلت ، وأصيبَ فيهِ مَن أصيب؛ حتىٰ يتخلَّص من الحصار ، ويصير إلى الملك .

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما بالعربية والغلام الرومي الذي معهُ ببدرة ، فأسلما وخلع عليهما ، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عَمورية ، فقالا : ياطس يكون في هذا البرج ، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيهِ ياطس طويلاً ، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخلع ، ومعهما الكتاب حتىٰ فهمهما ياطس وجميع الروم ، وشتَّموهما من فوق السور ، ثم أمر بهما المعتصم فَنحَّوهما ، وأمر المعتصم أن يكون الحراسة بينهم نوائب؛ في كلِّ ليلة يحضرها الفرسان ، يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها؛ لئلا يُفتح الباب ليلاً ، فيخرج من عَمُّورَية إنسان ، فلم يزل الناس يبيتون كذلكَ نوائب على ظهور الدوَّابِ في السلاح ودوابهم بسروجها ، حتىٰ انهدمَ السُّور ما بين بُرجين من الموضع الذي وصف للمعتصم أنه لم يحكم عمله .

وسمع أهل العسكر الوجبة فتشوَّفوا ، وظنُّوا أن العدوَّ قد خرج على بعض

الكراديس حتىٰ أرسل المعتصم مَنْ طافَ على الناس في العسكر يعلمهم أن ذلكَ صوت السور وقد سقط ، فطِيبُوا نفساً.

وكان المعتصم حين نزل عَمُّورية ونظر إلى سعة خندقها وطول سورها؛ وكان قد استاق في طريقه غنماً كثيرة، فدبَّرَ في ذلكَ أن يتَّخذ مجانيق كباراً على قدر ارتفاع السور، يسع كلُّ مِنجنيق منها أربعة رجال ، وعملها أوثق ما يكون وأحكمه، وجعلها على كراسي تحتها عجل ، ودبَّرَ في ذلكَ أن يدفع الغنم إلى أهل العسكر إلى كلِّ رجل شاة، فيأكل لحمها، ويحشو جلدها تراباً ثم يؤتىٰ بالجلودِ مملوءة تراباً ، حتىٰ تطرح في الخندق.

ففعل ذلكَ بالخندق ، وعمِل دبَّابات كباراً تسع كل دبابة عشرة رجال ، وأحكمها على أن يُدَحرجها على الجلود المملوءة تراباً حتىٰ يمتلئ الخندق؛ ففعل ذلكَ ، وطُرحت الجلود فلم تقع الجلود؛ مستوية منضدَّة خوفاً منهم من حجارة الروم ، فوقعت مختلفة؛ ولم يمكن تسويتها ، فأمر أن يطرح فوقها التراب حتىٰ استوت ، ثم قدّمت دبَّابة فدحرجها ، فلما صارت من الخندق في نصفه تعلقت بتلك الجلود ، وبقي القومُ فيها؛ فما تخلَّصوا منها إلا بعد جهد. ثم مكثت تلك العجلة مقيمة هناك ، لم يمكن فيها حيلة حتىٰ فتحت عَمُّورية ، وبطلت الدبابات والمنجنيقات والسلاليم وغير ذلك؛ حتىٰ أحرقت.

فلما كان من الغد قاتلهم على الثُّلمة؛ وكان أوَّلُ من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه ، وكان الموضع ضَيِّقاً ، فلم يمكنهم الحرب فيه؛ فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرِّقة حول السور ، فجمع بعضها إلى بعض ، وصيرها حول الثلمة ، وأمر أن يُرمَىٰ ذلكَ الموضع؛ وكانت الحربُ في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه ، فأجادوا الحرب وتقدَّموا. وكانَ المعتصم واقفاً على دابتهِ بإزاءِ الثلمةِ وأشناس وأفشين وخواصِّ القواد معهم وكان باقي القواد الذين دون الخاصَّةِ وقوفاً رجَّالة ، فقال المعتصم: ما كان أحسن الحرب اليوم! فقال عمرو الفرغاني: الحرب اليوم أجودُ منها أمس ، وسمعها أشناس فأمسك؛ فلما انتصفَ النهار ، وانصرف المعتصم إلى مضربه ، فتغدَّىٰ وانصرف القوادُ إلى مضاربهم يتغدون ، وقرب أشناس من باب مضربه ، ترجَّل له القواد كما كانوا يفعلون؛ وفيهم عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام ، فمشوا بين يديه

كعادتهم، عند مَضربه، فقال لهم أشناس: يا أولاد الزنا، أيْشٍ تمشون بين يدي! كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين، فتقولون: إن الحرب اليوم أحسن منها أمس؛ كان أمس يقاتل غيركم. انصرفوا إلى مضاربكم.

فلما انصرف عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام، قال أحدهما للآخر: أما ترى هذا العبد ابن الفاعلة ـ يعني أشناس ـ ما صنع بنا اليوم! أليسَ الدخولُ إلى بلاد الرومِ أهونَ من الذي سمعناهُ اليوم! فقال عمرو الفرغاني لأحمد بن الخليل ـ وكانَ عند عمرو خبر ـ: يا أبا العباس سيكفيكَ اللهُ أمره، عن قريبٍ أبشر، فأوهم أحمدَ أن عندهُ خبراً، فألَّح عليه أحمد يسألهُ؛ فأخبره بما هم فيه؛ وقال: إن العباس بن المأمون قد تمَّ أمرُه، وسنبايعُ له ظاهراً، نقتل المعتصم وأشناس وغيرهما من قريب. ثم قال له: أشير عليك أن تأتيَ العباس، فتقدم فتكونُ في عداد من مال إليه. فقال له أحمد: هذا أمرٌ لا أحسبهُ يتم، فقال له عمرو: قد تمَّ وفرغ، وأرشده إلى الحارث السمرقندي ـ قرابة سلمة بن عبيد الله بن الوضاح؛ وكان المتولِّي لإيصال الرجال إلى العباس وأخذ البيعة عليهم ـ فقال له عمرو: أنا أجمع بينك وبين الحارث حتىٰ تصير في عداد أصحابنا، فقال لهُ أحمد: أنا معكم إن كان هذا الأمرُ يتم فيما بيننا وبين عشرة أيام، وإن جاوزَ ذلكَ فليس بيني وبينكم عمل؛ فذهبَ الحارث، فلقي العباس فأخبره أن عمراً قد ذكره لأحمد بن الخليل فقال له: ما كنت أحب أن يطَّلع الخليل على شيءٍ من أمرنا؛ أمسكوا عنه؛ ولا تشركوه في شيء من أمركم، دعوه بينهما، فأمسكوا عنه.

فلما كان في اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصَّة، ومعهم المغاربة والأتراك، والقيّم بذلكَ إيتاخ، فقاتلوا وأحسنوا واتسع لهم الموضع المنثلم؛ فلم تزل الحرب كذلك حتىٰ كثرت في الروم الجراحات.

وكان قوَّادُ ملك الروم عند ما نزلَ بهم عسكر المعتصم اقتسموا البروج؛ لكل قائد وأصحابه عدَّة أبرجة؛ وكان الموكَّل بالموضع الذي انثلمَ من السور رجلاً من قوَّادِ الروم يقالُ لهُ وندوا، وتفسيره بالعربية «ثَور» فقاتل الرَّجُلُ وأصحابه قتالاً شديداً بالليل والنهار والحرب عليه وعلى أصحابِهِ، لم يمدَّهُ ياطس ولا غيره

بأحد من الرُّوم؛ فلما كان بالليل مضىٰ القائد الموكل بالثلمة إلى الرُّومِ ، فقال: إنَّ الحربَ عليَّ وعلى أصحابي ، ولم يبقَ معي أحدٌ إلاَّ قد جُرح؛ فصيِّرُوا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلا؛ وإلا افتضحتم وذهبت المدينة. فأبوا أن يمدُّوه بأحد ، فقالوا: سلِم السور من ناحيتنا ، وليسَ نسألكَ أن تمدَّنا؛ فشأنَك وناحيتَك؛ فليس لك عندنا مدد. فاعتزمَ هُوَ وأصحابهُ أن يخرجوا إلى أميرِ المؤمنين المعتصم ويسألوه الأمان ، على الذُّرِّية ، ويسلِّموا إليه الحصن بما فيه من الخُرثي والمتاع والسلاح وغير ذلك.

فلما أصبح وكَّلَ أصحابه بجنبي الثلمة؛ وخرج فقال: إني أُريد أمير المؤمنين؛ وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتىٰ يعود إليهم؛ فخرج حتىٰ وصل إلى المعتصم؛ فصار بين يديه ، والناسُ يتقدمون إلى الثلمة؛ وقد أمسكَ الرُّوم عن الحرب ، حتىٰ وصلوا إلى السور والروم يقولون بأيديهم: لا تَحيَوا ، وهم يتقدمون ، ووندوا بين يدي المعتصم جالس؛ فدعا المعتصم بفرس فحملهُ عليه ، وقابل حتىٰ صار الناس معهم على حرف الثلمة ، وعبد الوهاب بن علي بين يدي المعتصم ، فأومأ إلى الناس بيده: أن ادخلوا ، فدخلَ الناس المدينة ، فالتفتَ وندوا ، وضرب بيدِهِ إلى لحيته ، فقال له المعتصم: ما لك؟ قال: جئتُ أريدُ أن أسمعَ كلامكَ وتسمعَ كلامي ، فغدرتَ بي؛ فقال المعتصم: كلُّ شيء تريدُ أن تقولهُ فهو لك عليَّ ، قُل ما شئتَ؛ فإني لست أخالفك. قال: أيشٍ لا تخالفني وقد دخلوا المدينة! فقال المعتصم: اضرب بيدكَ إلى ما شئتَ فهو لك ، وقل ما شئتَ فإني أعطيكه. فوقف في مضرب المعتصم. وكان ياطس في برجه الذي هو فيهِ وحولهُ جماعة من الروم مجتمعين ، وصارت طائفة منهم إلى كنيسة كبيرة في زاوية عمُّورية؛ فقاتلوا قتالاً شديداً ، فأحرق الناسُ الكنيسة عليهم فاحترقوا عن آخرهم ، وبقي ياطس في بُرجهِ حوله أصحابه ، وباقي الروم وقد أخذتهم السيوف؛ فبين مقتولٍ ومجروح؛ فركب المعتصم عند ذلكَ حتىٰ جاء فوقف حذاء ياطس؛ وكان مما يلي عسكر أشناس ، فصاحوا: يا ياطس ، هذا أمير المؤمنين؛ فصاحَ الرُّوم من فوق البرج: ليس ياطس ها هنا ، قالوا: بلىٰ ، قولوا لهُ: إنَّ أمير المؤمنين واقف ، فقالوا: ليس ياطس ها هنا فمرَّ أميرُ المؤمنين مغضباً ، فلما جاوز صاح الرُّومُ: هذا ياطس ، هذا ياطس! فرجع المعتصم إلى

حيال البُرجِ حتىٰ وقفَ؛ ثم أمر بتلكَ السلاليم التي هُيئت ، فحمل سُلَّم منها ، فوضعَ علىٰ البُرج الذي هو فيه ، وصعِدَ عليه الحسن الرُّومي ـ غلامُ لأبي سعيد محمد بن يوسف ـ وكلَّمَه ياطس ، فقال: هذا أمير المؤمنين ، فانزل على حكمه؛ فنزلَ الحسن ، فأخبر المعتصم أنه قد رآه وكلَّمه ، فقال المعتصم: قل له فلينزل؛ فصعد الحسن ثانية ، فخرج ياطس من البُرجِ مُتقلِّداً سيفاً حتىٰ وقف على البُرج والمعتصم ينظرُ إليه ، فخلعَ سيفهُ من عُنقه ، فدفعهُ إلى الحسن ، ثم نزل ياطس ، فوقف بين يدي المعتصم؛ فقنَّعه سوطاً ، وانصرف المعتصم إلى مَضْربه ، وقال: هاتوه ، فمشىٰ قليلاً ، ثم جاءه رسول المعتصم ، أن احملوه ، فحملوه ، فذُهب به إلى مضرب أمير المؤمنين.

ثم أقبل الناسُ بالأسرىٰ والسَّبي من كلِّ وجه حتىٰ امتلأَ العسكر؛ فأمر المعتصم بسَيل الترجمان أن يميز الأسرىٰ ، فيعزل منهم أهل الشرف والقدر من الروم في ناحية ، ويعزل الباقين في ناحية؛ ففعل ذلكَ بسيل ، ثم أمر المعتصم فوكّل بالمقاسم قوَّادهُ ، ووكل أشناس بما يخرج من ناحيته ، وأمره أن ينادي عليه ، ووكَّلَ الأفشينُ بما يخرج من ناحيته ، وأمره أن ينادي عليه، ووكل الأفشين بما يخرج من ناحيته وأمره أن ينادي ويبيع، وأمر إيتاخ بناحيته مثل ذلك، وجعفراً الخياط بمثل ذلك في ناحيته ووكَّل مع كل قائد من هؤلاء رجلاً من قِبَل أحمد بن أبي دواد يحصِي عليهِ ، فبيعت المقاسم في خمسة أيامٍ ، بيعَ منها ما استباع ، وأمر بالباقي فضُرِبَ بالنار ، وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرض طَرسُوس.

ولما كان يوم إيتاخ قبل أن يرتحل المعتصم منصرفاً ، وثب الناس على المغنم الذي كانَ إيتاخ على بيعهِ ، وهو اليومُ الذي كان عُجيفُ وعدَ الناسَ فيه أن يثب بالمعتصم ، فركب المعتصم بنفسه ركضاً ، وسلَّ سيفه ، فتنحَّىٰ الناس عنه من بين يديه ، وكَفُّوا عن انتهاب المغنم ، فرجع إلى مضربهِ؛ فلما كان من الغد أمر ألا ينادىٰ على السَّبي إلا ثلاثة أصوات ، ليتروَّجَ البيع؛ فمن زاد بعد ثلاثة أصوات ، وإلاَّ بيع العلق؛ فكانَ يفعل ذلكَ في اليوم الخامس؛ فكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة ، وعشرة عشرة ، والمتاعُ الكثير جملة واحدة.

قال: وكان ملك الرومِ قد وجَّهَ رسولاً في أول ما نزل المعتصم على عَمُّورية

فأمر به المعتصم فأنزل على موضع الماء الذي كانَ الناسُ يستقونَ مِنه؛ وكانَ بينهُ وبين عَمُّورية ثلاثة أميال؛ ولم يأذن لهُ في المصير إليهِ حتىٰ فتحَ عَمورية ، فلما فتحها أذن له في الانصراف إلى ملك الروم ، فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور؛ وذلكَ أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج في أثره ، أو يريد التعبث بالعسكر؛ فمضىٰ في طريق الجادَّة مرحلة؛ ثم رجع إلى عمُّورية ، وأمر الناسَ بالرجوعِ ، ثم عدل عن طريق الجادةِ إلى طريق وادي الجَوْر

ففرق الأسرى على القواد، ودفع إلى كل قائد من القواد طائفة منهم يحفظهم، ففرقهم القواد على أصحابهم؛ فساروا في طريق نحواً من أربعين ميلا؛ ليس فيه ماء؛ فكان كل من امتنع من الأسرى أن يمشي معهم لشدة العطش الذي أصابهم ضربوا عنقه؛ فدخل الناس في البرية في طريق وادي الجور فأصابهم العطش، فتساقط الناس والدواب وقتل بعض الأسرى بعض الجند وخرب.

وكان المعتصم قد تقدم العسكر، فاستقبل الناس، ومعه الماء قد حمله من الموضع الذي نزله، وهلك الناس في الوادي من العطش، وقال الناس للمعتصم: إن هؤلاء الأسرى قد قتلوا بعض جندنا، فأمر عند ذلك بسيل الرومي بتمييز من له القدر منهم، فعزلوا ناحية، ثم أمر بالباقين فأصعدوا إلى الجبال، وأنزلوا إلى الأودية فضربت أعناقهم جميعاً، وهم مقدار ستة آلاف رجل؛ قتلوا في موضعين بوادي الجور وموضع آخر.

ورحل المعتصم من ذلك الموضع يريد الثغر حتى دخل طرسوس، وكان قد نصب له الحياض من الأدم حول العسكر من الماء إلى العسكر بعمورية والحياض مملوءة، والناس يشربون منها لا يتعبون في طلب الماء وقد كانت الوقعة التي وقعت بين الأفشين وملك الروم فيما ذكر يوم الخميس لخمس بقين من شعبان وكانت إناخة المعتصم على عمورية يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان وقفل بعد خمسة وخمسين يوماً.

وقال الحسن بن الضحاك الباهلي يمدح الأفشين، ويذكر وقعته التي كانت بينه وبين ملك الروم:

أَثبتَ المَعْصُومُ عزًّا لأَبي ... حَسَنٍ أَثبَتَ من رُكنِ إضَم
كلُّ مجدٍ دُونَ ما أَثَّلهُ ... لبَنِي كاوُسَ أَملاكِ العَجَمْ

إنمــا الأفشيــنُ سيْــفُ سلَّــهُ قَــدَرُ اللهِ بكَــفِّ المُعتصــمْ
لــم يَــدَعْ بــالبَــذِّ مــن ســاكِنــه غيــر أمثــال كــأَمثــال إرَمْ
ثــم أَهْــدى سَلَمــاً بــابِكَــهُ رَهْــن حجليْــنِ نجيًّــا للنــدَمْ
وقَــرَا تَــوْفيــلَ طَعنــاً صــادقــاً فــضَّ جمْعَيْــهِ جميعــاً وهَــزَمْ
قُتِــلَ الأَكثَــرُ منهــم ونجــا مــن نجـا لحْمـاً علـى ظَهْـرِ وضَـمْ

[ذكر خبر المعتصم مع العباس بن المأمون]

وفي هذه السنة حبس المعتصم العباس بن المأمون وأمر بلعنه(١).

ذكر الخبر عن سبب فعله ذلك:

ذُكِر أنّ السبب كان في ذلك أن عُجيف بن عنبسة حين وجّهه المعتصم إلى بلاد الروم ، لمّا كان من أمر ملك الروم بِزِبَطْرَة مع عمرو بن أربخا الفرغانيِّ ومحمد كوته ، لم يطلق يد عُجيف في النفقات كما أطلقت يد الأفشين ، واستقصر المعتصم أمر عُجيف وأفعاله ، واستبان ذلك لعُجيف ، فوبّخ عُجيف العباس على ما تقدّم من فعله عند وفاة المأمون حين بايع أبا إسحاق وعلى تفريطه فيما فعل ، وشجّعه على أن يتلافَى ما كان منه.

فقبل العباس ذلك ، ودسّ رجلاً يقال له الحارث السمرقنديّ قرابة عبيد الله بن الوضّاح ـ وكان العباس يأنس به ، وكان الحارث رجلاً أديباً له عقل ومداراة ـ فصيّره العباس رسوله وسفيره إلى القوّاد ، فكان يدور في العسكر حتى تألّف له جماعة من القواد ، وبايعوه وبايعه منهم خواصّ ، وسمّى لكل رجل من قُوّاد المعتصم رجلاً من ثقات أصحابه ممن بايعه ، ووكله بذلك ، وقال: إذا أمرنا بذلك؛ فليثب كلّ رجل منكم على من ضمنّاه أن يقتله ، فضمنوا له ذلك ، فكان يقول للرجل ممن بايعه: عليك يا فلان أن تقتُل فلاناً ، فيقول: نعم ، فوكل مَنْ بايعه من خاصّة المعتصم بالمعتصم ومن خاصة الأفشين بالأفشين ، ومن خاصّة أشناس بأشناس؛ ممن بايعه من الأتراك ، فضمنوا ذلك جميعاً. فلما أرادوا أن

(١) قال ابن قتيبة: ففتح عمورية في شهر رمضان من هذه السنة (أي ٢٢٣ هـ) ، ثم أقبل منصرفاً وأوقع بالعباس بن المأمون وبعجيف في طريقه [المعارف/ ٢٠٠] ، وليس فيه ذكر للعن وغير ذلك ، وانظر المنتظم [١١/ ٨٣].

يدخلوا الدّرب وهم يريدون أنقرة وعَمّوريَة ، ودخل الأفشين من ناحية مَلَطْية ، أشار عُجيف على العباس أن يثب على المعتصم في الدّرب وهو في قلة من الناس، وقد تقطعت عنه العساكر، فيقتله ويرجع إلى بغداد؛ فكان الناس يفرحون بانصرافهم من الغزو ، فأبى العباس عليه ، وقال: لا أفسد هذه الغزاة ، حتى دخلوا بلاد الروم ، وافتتحوا عَمُّورية ، فقال عُجيف للعباس: يا نائم، كم تنام! قد فتحت عَمُّوريَّة، والرجل ممكن، دُسَّ قوماً ينتبهون هذا الخرثي، فإنه إذا بلغه ذلك ركب بسرعة، فتأمر بقتله هناك، فأبى عليه العباس ، وقال: أنتظر حتى يصير إلى الدرب، فيخلو كما خلا في البدْأة؛ فهو أمكن منه هاهنا، وكان عُجيف قد أمر مَنْ ينتهب المتاع ، فانتُهب بعض الخرْثيّ في عسكر إيتاخ.

فركب المعتصم وجاء ركضاً ، فسكن الناس ، ولم يطلق العباس أحداً من أولئك الرجال الذين كان واعدهم ، فلم يُحدثوا شيئاً ، وكرهوا أن يفعلوا شيئاً بغير أمره.

وكان عمرو الفرغانيّ قد بلغه الخبر ذلك اليوم ، ولعمرو الفرغانيّ قرابة ، غلام أمرد في خاصة المعتصم ، فجاء الغلام إلى ولد عمرو يشرب عندهم في تلك الليلة ، فأخبرهم أن أمير المؤمنين ركب مستعجلاً ، وأنه كان يعدو بين يديه ، وقال: إنّ أمير المؤمنين قد غضب اليوم ، فأمرني أن أسلّ سيفي ، وقال: لا يستقبلك أحد إلا ضربتَه ، فسمع عمرو ذلك من الغلام ، فأشفق عليه أن يصاب فقال له: يا بني ، أنت أحمق ، أقلّ من الكينونة عند أمير المؤمنين بالليل ، والزم خيمتك ، فإن سمعت صحيةً مثل هذه الصيحة ، أو شَغباً أو شيئاً فلا تبرح من خيمتك؛ فإنك غلامِ غرّ؛ لست تعرف بعدُ العساكر ، فعرف الغلام مقالَة عمرو.

وارتحل المعتصم من عَمُّوريَّة يريد الثغر ووجّه الأفشين ابن الأقطع في طريق خلاف طريق المعتصم، وأمره أن يغير على موضع سمّاه له، وأن يوافيه في بعض الطريق، فمضى ابن الأقطع ، وتوجّه المعتصم يريد الثغر ، فسار حتى صار إلى موضع أقام فيه ليُريح ويستريح، وليسلك الناس من المضيق الذي بين أيديهم، ووافى ابن الأقطع عسكر الأفشين بما أصاب من الغنائم ، وكان عسكر المعتصم على حدة وعسكر الأفشين على حدة ، بين كل عسكر قدر ميلين أو أكثر ، واعتل

أشناس فركب المعتصم صلاة الغداة يعوده؛ فجاء إلى مضربه فعاده؛ ولم يكن الأفشيْن لحقه بعد.

ثم خرج المعتصم منصرفاً، فتلقاه الأفشين في الطريق، فقال له المعتصم: تريد أبا جعفر. وكان عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل عند منصرف المعتصم من عيادة أشناس توجها إلى ناحية عسكر الأفشين لينظرا ما جاء به ابن الأقطع من السبي فيشتريا منه ما أعجبهما، فتوجها ناحية عسكر الأفشين ولقيهما الأفشين يريد أشناس ـ فترجلا، وسلما عليه، ونظر إليهما حاجب أشناس من بعد، فدخل الأفشين إلى أشناس، ثم انصرف، وتوجها إلى عسكر الأفشين، فلم يكن السَّبي أخرج بعد، فوقفا ناحية ينتظران أن ينادى على السَّبْي، فيشتريا منه، ودخل حاجب أشناس على أشناس، فقال: إن عمراً الفرغانيّ وأحمد بن الخليل تلقّيا الأفشين، وهما يريدان عسكره، فترجّلا وسلما عليه، وتوجها إلى عسكره.

فدعا أشناس محمد بن سعيد السعديّ؛ فقال له: اذهب إلى عسكر الأفشين، فانظر هل ترى هناك عمراً الفرغانيّ وأحمد بن الخليل! وانظر عند مَن نزلا، وأيّ شيء قصّتهما؟ فجاء محمد بن سعيد، فأصابهما واقفين على ظهور دوابّهما فقال: ما أوقفكما هاهنا؟ قالا: وقفنا ننتظر سَبْيَ ابن الأقطع يخرج، فنشتري بعضَه، فقال لهما محمد بن سعيد: وكّلاَ وكيلاً يشتري لكما، فقالا: لا نحب أن نشتري إلا ما نراه؛ فرجع محمد، فأخبر أشناس بذلك، فقال لحاجبه: قل لهؤلاء الزموا عسكركُم: فهو خير لكم ـ يعني عمراً وابن الخليل ـ ولا تذهبوا هاهنا وهاهنا، فذهب الحاجب إليهما، فأعلمهما، فاغتمّا لذلك واتفقا على أن يذهبا إلى صاحب خبر العسكر، فيستعفياه من أشناس، فصارا إلى صاحب الخبر، فقالا: نحن عبيد أمير المؤمنين، يضمّنا إلى من شاء، فإنّ هذا الرجل يستخفّ بنا، قد شتمنا وتوعدنا، ونحن نخاف أن يقدم علينا، فليضمّنا أمير المؤمنين إلى من أحبّ.

فأنهى صاحب الخبر ذلك إلى المعتصم من يومه؛ واتفق الرّحيل صلاة الغداة؛ وكان إذا ارتحل الناس سارت العساكر على حيالها، وسار أشناس والأفشين وجميع القوّاد في عسكر أمير المؤمنين، ووكّلوا خلفاءهم بالعساكر؛ فيسيرون بها. وكان الأفشين على الميسرة وأشناش على الميمنة، فلما ذهب

أشناس إلى المعتصم ، قال له : أحسِنْ أدب عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل ، فإنهما قد حمَّقا أنفسهما؛ فجاء أشناس ركضاً إلى معسكره ، فسأل عن عمرو وابن الخليل ، فأصاب عمراً؛ وكان ابن الخليل قد مضى في الميسرة يبادر الروم ، فجاءوه بعمرو الفرغانيّ؛ وقال : هاتوا سياطاً؛ فمكث طويلاً مجرّداً ليس يؤتى بالسياط ، فتقدّم عمّه إلى أشناس ، فكلمه في عمرو - وكان عمه أعجميًّا - وعمرو واقف ، فقال : احملوه ، فألبسوه قباء طاق ، فحملوه على بغل في قبّة ، وساروا به إلى العسكر ، وجاء أحمد بن الخليل وهو يركُض ، فقال : احبسوا هذا معه ، فأنزل عن دابته ، وصُيِّر عديلَه ، ودُفعا إلى محمد بن سعيد السعديّ يحفظهما؛ فكان يضرب لهما مضرباً في فازة وحجرة ومائدة ، ويفرش لهما فرشاً وطيّة ، وحوضاً من ماء وأثقالهما وغلمانهما في العسكر؛ لم يحرَّك منها شيء ، فلم يزالا كذلك حتى صارا إلى جبل الصَّفْصاف.

وكان أشناس على الساقة ، وكان بغا على ساقة عسكر المعتصم ، ، فلمّا صار بالصّفصاف ، وسمع الغلام الفرغانيّ قرابة عمرو بحبس عمرو ، ذكر الغلام للمعتصم ما دار بينه وبين عمرو من الكلام في تلك الليلة ، مما قال له عمرو؛ إذا رأيت شغْباً فالزم خيمتك؛ فقال المعتصم لبغا : لا ترحل غداً حتى تجيء أشناس ، فتأخذ منه عمراً ، وتلحقني به؛ وكان هذا بالصفصاف .

فوقف بُغا بأعلامه ينتظر أشناس ، وجاء محمد بن سعيد ومعه عمرو وأحمد بن الخليل ، فقال بغا لأشناس : أمرني أمير المؤمنين أن أوافيَه بعمرو الساعة ، فأنزل عمرو ، وجعل مع أحمد بن الخليل في القبة رجل يعادله ، ومضى بغا بعمرو إلى المعتصم ، فأرسل أحمد بن الخليل غلاماً من غلمانه إلى عمرو ، لينظر ما يصنع به ، فرجع الغلام فأخبره أنه أدخل على أمير المؤمنين ، فمكث ساعة ثم دُفع إلى إيتاخ؛ وكان أمير المؤمنين لما دخل ساءله عن الكلام الذي قاله للغلام قرابته؛ فأنكر وقال : هذا الغلام كان سكران؛ ولم يفهم ولم أقل شيئاً ممّا ذكره؛ فأمر به فدفع إلى إيتاخ ، وسار المعتصم حتى صار إلى باب مضايق البذندون ، وأقام أشناس ثلاثة أيام على مضيق البذندون ينتظر أن تتخلّص عساكر أمير المؤمنين؛ لأنه كان على الساقة ، فكتب أحمد بن الخليل إلى أشناس رقعة يعلمه أنّ لأمير المؤمنين عنده نصيحة ، وأشناس مقيم على مضيق

البذندون ، فبعث إليه أشناس بأحمد بن الخصيب وأبي سعيد محمد بن يوسف يسألانه عن النصيحة؛ فذكر أنه لا يخبربها إلا أمير المؤمنين، فرجعا فأخبرا أشناس بذلك ، فقال: ارجعا فاحلفا له: إني حلفت بحياة أمير المؤمنين؛ إن هو لم يخبرني بهذه النصيحة أن أضربه بالسياط حتى يموت ، فرجعا فأخبرا أحمد بن الخليل بذلك.

فأخرج جميع من عنده ، وبقي أحمد بن الخصيب وأبو سعيد فأخبرهما بما ألقى إليه عمرو الفرغاني من أمر العباس، وشرح لهما جميع ما كان عنده، وأخبرهما بخبر الحارث السمرقندي، فانصرفا إلى أشناس، فأخبراه بذلك فبعث أشناس في طلب الحدّادين، فجاءوا بحدّادين من الجند، فدفع إليهما حديداً، فقال: اعملا لي قيداً مثل قيد أحمد بن الخليل، وعجّلا به الساعة، ففعلا ذلك، فلمّا كان عنده حبسه، وكان حاجب أشناس يبيت عند أحمد بن الخليل مع محمد بن سعيد السعديّ.

فلما كان تلك الليلة عند العتمة ذهب الحاجب إلى خيمة الحارث السمر قندي فأخرجه منها ، وجاء به إلى أشناس فقيّده ، وأمر الحاجب أن يحمله إلى أمير المؤمنين ، فحمله الحاجب إليه ، واتفق رحيل أشناس صلاة الغداة ، فجاء أشناس إلى موضع معسكره ، فتلقاه الحارث معه رجل من قِبلَ المعتصم ، وعليه خلع ، فقال له أشناس: مه ، فقال: القيد الذي كان في رجلي صار في رجل العباس. وسأل المعتصم الحارث حين صار إليه عن أمره ، فأقرّ أنه كان صاحب خبر العباس ، وأخبره بجميع أمره وجميع مَنْ بايع العباس من القوّاد فأطلق المعتصم الحارث وخلع عليه ، ولم يصدق على أولئك القواد لكثرتهم وكثرة من سمى منهم.

وتحير المعتصم في أمر العباس ، فدعا به حين خرج إلى الدّرب فأطلقه ومنّاه ، وأوهمه أنه قد صفح عنه ، وتغدّى معه ، وصرفه إلى مضربه ، ثم دعاه بالليل ، فنادمه على النبيذ ، وسقاه حتى أسكره ، واستحلفه ألا يكتمه من أمره شيئاً ، فشرح له قصته ، وسمّى له جميع مَنْ كان دبّ في أمره ، وكيف كان السبب في ذلك في كلّ واحد منهم ، فكتبه المعتصم وحفظه ، ثم دعا الحارث السمرقندي بعد ذلك ، فسأله عن الأسباب ، فقص عليه مثل ما قصّ عليه

العباس ، ثم أمر بعد ذلك بتقييد العباس ، ثم قال للحارث : قد رضتك على أن تكذب ؛ فأجد السبيل إلى سَفْك دمك فلم تفعل ، فقد أفْلَتَّ ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لست بصاحب كذب.

ثم دفع العباس إلى الأفشين ، ثم تتبَّع المعتصم أولئك القوّاد ، فأخذوا جميعاً ، فأمر أن يحمَل أحمد بن الخليل على بغل بإكاف بلا وطاء ، ويطرح في الشمس إذا نزل ، ويطعم في كلّ يوم رغيفاً واحداً ، وأخذ عُجيف بن عَنْبسة فيمن أخذ من القوّاد ، فدفع من سائر القواد إلى إيتاخ ، ودفع ابن الخليل إلى أشناس ، فكان عجيف وأصحابه يحملون في الطريق على بغال بأكُفٍ بلا وطاء ، وأخذ الشاه بن سهل ـ وهو الرأس ابن الرأس من أهل قرية من خراسان يقال لها سجستان ـ فدعا به المعتصم والعباس بين يديه ، فقال له : يابن الزانية ، أحسنتُ إليك فلم تشكر ! فقال له الشاه بن سهل : ابن الزّانية ، هذا الذي بين يديك ـ يعني العباس ـ لو تركني هذا كنت أنتَ الساعة لا تقدر أن تقعد في هذا المجلس وتقول لي : يابن الفاعلة؟ فأمر به المعتصم ، فضُربت عنقه ؛ وهو أوّل من قتل من القواد ومعه صحبه ، ودفع عُجيف إلى إيتاخ فعلّق عليه حديداً كثيراً وحمله على بغل في محمل بلا وطاء.

وأما العبّاس فكان في يدي الأفشين ؛ فلما نزل المعتصم مَنْبج ـ وكان العباس جائعاً ـ سأل الطعام ، فقدُم إليه طعام كثير ؛ فأكل فلمّا طلب الماء مُنِع وأدرج في مِسْحٍ ، فمات بمنبج ، وصلى عليه بعض إخوته.

وأما عمرو الفَرغانيّ ، فإنه لما نزل المعتصم بنصيبين في بستان ، دعا صاحب البستان ، فقال له : احفر بئراً في موضع أومأ إليه بقدر قامة ، فبدأ صاحب البستان فحفرها ، ثم دعا بعمرو والمعتصم جالسٌ في البستان ، قد شرب أقداحاً من نبيذ ؛ فلم يكلمه المعتصم ، ولم يتكلم عمرو حتى مثل بين يديه ، فقال : جرّدُوه ، فجُرّد ، وضرب بالسياط ضربة الأتراك ، والبئر تُحفر ، حتى إذا فُرغ من حفرها قال صاحب البستان : قد حفرتها ، فأمر المعتصم عند ذلك فضُرب وجه عمرو وجسده بالخشب ؛ فلم يزل يُضرب حتى سقط ، ثم قال جُرّوه إلى البئر فاطرحوه فيها ، فلم يتكلم عمرو ولم ينطق يومه ذلك ، حتى مات فطرح في البئر ، وطُمّت عليه.

وأما عُجيف بن عنبسة؛ فلما صار بباعَينَاثا ، فوق بلدَ قليلاً ، مات في المحمل ، فطُرح عند صاحب المسلحة ، وأمر أن يُدفن فيها ، فجاء به إلى جانب حائط خرب فطرحه عليه فقبِر هناك .

وذُكر عن علي بن حسن الرّيدانيّ أنه قال: كان عُجيف في يد محمد بن إبراهيم بن مُصعب ، فسأله المعتصم عنه؛ فقال له: يا محمد ، لم يمت عُجيف؟ قال: يا سيّدي اليوم يموت ، ثم أتي محمد مضرَبه ، فقال لعجيف يا أبا صالح ، أيَّ شيء تشتهي؟ قال أسفيدباج وحَلْوى فالوذج ، فأمر أن يعمَل له من كلِّ طعام ، فأكل وطلب الماء فمنع؛ فلم يزل يطلب وهو يسوق حتى مات ، فدفن بباعَيْنَاثا .

قال: وأماالتركيّ الذي كان ضمن للعباس قتل أشناس متى ما أمره العباس ـ وكان كريماً على أشناس ينادمه ولا يحجب عنه في ليل ولا نهار ـ فإنه أمر بحبسه ، فحبسه أشناس قبَله في بيت ، وطيَّن عليه الباب ، وكان يلقي إليه في كلّ يوم رغيفاً وكوز ماء ، فأتاه ابنه في بعض أيامه ، فكلمه من وراء الحائط ، فقال له: يا بنيّ ، لو كنت تقدر لي على سِكِّين كنت أقدر أن أتخلص من موضعي هذا: فلم يزل ابنه يتلطّف في ذلك حتى أوصل إليه سكِّيناً ، فقتل به نفسه .

وأما السنديّ بن بختاشه ، فأمر المعتصم أن يوهب لأبيه بختاشه ـ لأن بختاشه لم يكن يتلطّخ بشيء من أمر العباس ـ فقال المعتصم: لا يفجع هذا الشيخ بابنه ، فأمر بتخلية سبيله .

وأما أحمد بن الخليل؛ فإنه دفعه أشناس إلى محمد بن سعيد السعديّ ، فحفر له بئراً في الجزيرة بسامراء ، فسأل عنه المعتصم يوماً من الأيام ، فقال لأشناس: ما فعل أحمد بن الخليل؟ فقال له أشناس: هو عند محمد بن سعيد السعديّ ، قد حفر له بئراً وأطبق عليه ، وفتح له فيها كوّة ليرمي إليه بالخبز والماء ، فقال المعتصم: هذا أحسبه قد سمن على هذه الحال؛ فأخبر أشناس محمد بن سعيد بذلك ، فأمر محمد بن سعيد أن يسقى الماء ، ويصبّ عليه في البئر حتى يموت ، ويمتلىء البئر ، فلم يزل يصُبّ عليه الماء؛ والرمل ينشف الماء؛ فلم يغرق ولم يمتلىء البئر؛ فأمر أشناس بدفعه إلى غِطريف الخجنديّ ، فدُفع إليه ، فمكث عنده أياماً ، ثم مات فدفُن .

وأما هرثمة بن النضر الخُتَّليّ ، فكان والياً على المراغة ، وكان في عداد مَنْ سَمّاه العباس أنه من أصحابه؛ فكتب في حمله في الحديد ، فتكلّم فيه الأفشين ، واستوهبه من المعتصم ، فوهبه له ، فكتب الأفشين كتاباً إلى هرثمة بن النضر يعلمه أنّ أمير المؤمنين قد وهبه له ، وأنه قد ولّاه البلد الذي يصل إليه الكتاب فيه ، فورد به الدينور عند العشاء مقيّداً ، فطرح في الخان ، وهو موثَقٌ في الحديد ، فوافاه الكتاب في جُنح الليل ، فأصبح وهو والي الدّينور.

وقُتل باقي القواد ومَنْ لم يُحفظ اسمه من الأتراك والفراغنة وغيرهم ، قُتلوا جميعاً[١].

وورد المعتصم سامراء سالماً بأحسن حال ، فسُمّي العباس: اللعين يومئذ ، ودفع ولد سندُس من ولد المأمون إلى إيتاخ ، فحبِسوا في سرداب من داره ثم ماتوا بعدُ.

وجرح في هذه السنة في شوال إسحاقُ بن إبراهيم؛ جرحه خادم له.

وحجّ بالناس فيها محمد بن داود[٢]

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن مخالفة ما زيار بطبرستان]

فمما كان فيها من ذلك إظهار مازيار بن قارن بن نداهُرْمز بطبرستان الخلافَ

(١) ٨/ ٧٩/ (٢٥٠) انظر لمقتل عجيف وغيره المنتظم [١١/ ٨٥].

(٢) وقال البسوي (وكان حاضراً الحج تلك السنة) حجّ بنا محمد بن داود وخرج في الثمان من مكة ودخلها بعمرة وقصر الصلاة في إقباله وبمكة يخرج من داره ـ دار الإمارة ـ ويصلي بالناس ركعتين ووقع الناس في ذلك في جهاد مكروه كل رجل من أهل العلم ينكرون ذلك من فعله وأنشأ الحج وحجّ بنا على هذا السبيل [المعرفة ١/ ٧٠].

على المعتصم ، ومحاربته أهل السفح والأمصار منها[1] :

ذكر الخبر عن سبب إظهاره الخلاف على المعتصم وفعله ما فعل من الوثوب بأهل السفح :

ذكر أن السبب في ذلك ، كان أن مازيار بن قارن كان منافراً لآل طاهر ، لا يحمل إليهم الخراج؛ وكان المعتصم يكتب إليه يأمره بحمله إلى عبد الله بن طاهر ، فيقول: لا أحمله إليه؛ ولكني أحمله إلى أمير المؤمنين ، فكان المعتصم إذا حمل المازيار إليه الخراج ، يأمر: إذا بلغ المالُ همَذان رجلا من قِبَله أن يستوفيه ويسلّمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليردّه إلى خراسان ، فكانت هذه حاله في السنين كلها. ونافر آل طاهر حتى تفاقم الأمر بينهم.

وكان الأفشين يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدلّ على أنه يريد عزل آل طاهر عن خُراسان ، فلما ظفر الأفشين ببابك ، ونزل من المعتصم المنزلة التي لم يتقدّمه فيها أحدٌ ، طمع في ولاية خراسان ، وبلغته منافرة مازيار آل طاهر ، فرجا أن يكون ذلك سبباً لعزل عبد الله بن طاهر ، فدس الأفشين الكتب إلى المازيار يستميله بالدّهقنة ، يعلمه ما هو عليه من المودّة له ، وأنه قد وُعد ولاية خراسان؛ فدعا ذلك المازيار إلى ترك حمل خراجه إلى عبد الله بن طاهر ، وواتر عبد الله بن طاهر الكتب فيه إلى المعتصم ، حتى أوحش المعتصم منه وأغضبه عليه ، وحمل ذلك المازيار إلى أن وثب وخالف ، ومنه الخراج ، وضبط جبال طبّرستان وأطرافه.

وكان ذلك مما يسُرّ الأفشين ويُطمعه في الولاية ، فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بمحاربة مازيار ، وكتب الأفشين إلى المازيار يأمره بمحاربة عبد الله بن طاهر ، ويُعلمه أنه يقوم له عند المعتصم بما يحب ، وكاتبه المازيار أيضاً؛ فلا يشك الأفشين أن المازيار سيواقف عبد الله بن طاهر ويقاومه ، حتى يحتاج المعتصم إلى أن يوجّهه وغيره إليه.

فذُكر عن محمد بن حفص الثقَفيّ الطبريّ أنّ المازيار لما عزم على الخلاف ،

---

(١) انظر: خبر المازيار وحروبه باختصار في المنتظم (١١/ ٨٨) ، والبداية والنهاية [٨/ ١٧٦] ، وانظر: تعليقنا [٩/ ٨٤/ ٢٥٣] الآتي.

دعا الناس إلى البيْعة ، فبايعوه كَرْهاً ، وأخذ منهم الرهائن ، فحبسهم في بُرْج الأصْبَهْبذ ، وأمر أَكَرَةَ الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم؛ وكان المازيار يكاتب بابك؛ ويحرّضه ويعرض عليه النُّصرة. فلمّا فرغ المعتصم من أمر بابك ، أشاع الناس أنّ أمير المؤمنين يريد المسير إلى قَرْماسين ، ويوجّه الأفشين إلى الريّ لمحاربة مازيار؛ فلما سمع المازيار بإرجاف الناس بذلك ، أمر أن يمسح البلد ، خلا مَنْ قاطعَ على ضياعه بزيادة العشرة ثلاثة ، ومَن لم يقاطع رجع عليه ، فحسب ما عليه من الفَضْل ولم يحسب له النقصان.

ثم أنشأ كتاباً إلى عامله على الخراج ، وكان عامله عليه رجلاً يقال له شاذان بن الفضل ، نسخته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم: إن الأخبار تواترتْ علينا ، وصحّت عندنا بما يرجُف به جُهّال أهل خراسان وطبرستان فينا ، ويولّدون علينا من الأخبار ويحملون عليه رؤوسهم ، من التعصّب لدولتنا ، والطعن في تدبيرنا ، والمرّاسلة لأعدائنا وتوقّع الفتن ، وانتظار الدوائر فينا ، جاحدين للنعم مستقلّين للأمن والدّعة والرفاهية والسعة التي آثرهم الله بها ، فما يردُ الرّيَّ قائد ولا مشرّق ولا مغرّب ، ولا يأتينا رسول صغير ولا كبير إلا قالوا كيت وكيت ، ومدُّوا أعناقهم نحوه ، وخاضوا فيما قد كذّب الله أحدوثتهم ، وخيّب [أمانيهم] فيه مرّة بعد مرة ، فلا تنهاهم الأولى عن الآخرة ، ولا يزجرهم عن ذلك تقيّة ولا خشية ، كلّ ذلك نُغضي عليه ، ونتجرّع مكروهه ، استبقاءً على كافتهم ، وطلباً للصلاح والسلامة لهم إلحاحاً، فلا يزيدهم استبقاؤنا إلا لجاجاً ، ولا كفُّنا عن تأديبهم إلا إغراءً إن أخَّرنا عنهم افتتاح الخراج نظراً لهم ورفقاً بهم ، قالوا: معزول ، وإن بادرنا به قالوا: لحادث أمر؛ لا يزدجرون عن ذلك بالشدّة إن أغلظنا ، ولا برفق إن أنعمنا؛ والله حسبُنا وهو ولينا؛ وعليه نتوكل وإليه ننيب ، وقد أمرنا بالكتاب إلى بندار آمُل والرويان في استغلاق الخراج في عملهما ، وأجّلناهما في ذلك إلى سَلْخ تيرماه ، فاعلم ذلك ، وجرّدْ جبايتك ، واستخرج ما على أهل ناحيتك كمَلا ، ولا يمضين عنك تيرماه ، ولك درهم باقٍ؛ فإنك إن خالفت ذلك إلى غيره لم يكن جزاؤك عندنا إلا الصلب ، فانظر لنفسك ، وحامِ عن مهجتك ، وشمر في أمرك ، وتابع كتابك إلى العباس. وإياك والتغرير؛ واكتب بما يحدث منك من

الانكماش والتشمير ، فإنا قد رجونا أن يكون في ذلك مشغلة لهم عن الأراجيف ، ومانع عن التسويف ، فقد أشاعوا في هذه الأيام أن أمير المؤمنين أكرمه الله صائر إلى قَرْماسين ، وموجه الأفشين إلى الرّيّ ، ولعمري لئن فعل أيده الله ذلك ، إنه لممّا يسرّنا الله به ، ويؤنسنا بجواره ، ويبسط الأمل فيما قدعُوّدنا من فوائده وإفضاله ، ويكبت أعداءه وأعداءنا ، ولن يهمل أكرمه الله أموره ، ويرفض ثغوره ، والتصرف في نواحي ملكه ، لأراجيف مُرجف بعماله ، وقول قائل في خاصّته ، فإنه لا يسرب أكرمه الله جنده إذا سرّب ، ولا يندب قواده إذا ندب ، إلا إلى المخالف ، فاقرأ كتابنا هذا على من بحضرتك من أهل الخراج ؛ ليبلِّغ شاهدُهم غائبهم ؛ وعنف عليهم في استخراجه ، ومَنْ همّ بكسره . فليُبْد بذلك صفحته ، لينزل الله به ما أنزل بأمثاله ؛ فإن لهم أسوةً في الوظائف وغيرها بأهل جرجان والرّيّ وما والاهما ، فإنما خفف الخلفاء عنهم خراجهم ، ورُفعت الرفائع عنهم للحاجة التي كانت إليهم في محاربة أهل الجبال ومغازي الديلم الضُّلاّل ، وقد كفى الله أمير المؤمنين أعزّه الله ذلك كله ، وجعل أهل الجبال والديلم جنداً وأعواناً ، والله المحمود .

قال : فلما ورد كتاب المازيار على شاذان بن الفضل عامله على الخراج ، أخذ الناس بالخراج ، فجبى جميع الخراج في شهرين ، وكان يُجبَى في اثني عشر شهراً ، في كل أربعة أشهر الثلث ، وإنّ رجلاً يقال له عليّ بن يَزْداد العطار ؛ وهو ممن أخذ منه رهينة ، هرب وخرج من عمل المازيار ، فأخبرأبو صالح سرخاستان بذلك ؛ وكان خليفة المازيار على ساريَة ، فجمع وجوه أهل مدينة سارية ، وأقبل يوبّخهم ، ويقول : كيف يطمئنّ الملك إليكم ! أم كيف يثق بكم ! وهذا عليّ بن يزداد ممن قد حلف وبايع ، وأعطى الرهينة ثم نكث وخرج ، وترك رهينته ؛ فأنتم لا تفون بيمين ، ولا تكرهون الخُلْف والحِنْث ، فكيف يثق بكم الملك؟ أم كيف يرجع لكم إلى ما تحبون! فقال بعضهم : نقتُل الرهينة حتى لا يعود غيره إلى الهرب ، فقال لهم : أتفعلون ذلك؟ قالوا : نعم ؛ فكتب إلى صاحب الرهائن ، فأمره أن يوجه بالحسن بن علي بن يزداد وهو رهينة أبيه ؛ فلمّا صاروا به إلى سارية ندم الناس على ما قالوا لأبي صالح ، وجعلوا يرجعون على الذي أشار بقتله بالتعنيف . ثم جمعهم سرخاستان ، وقد أحضر الرَّهينة ، فقال لهم : إنكم قد

ضمنتم شيئاً؛ وهذا الرهينة فاقتلوه، فقال له عبد الكريم بن عبد الرحمن الكاتب: أصلحك الله! إنك أجلت من خرج من هذا البلد شهرين، وهذا الرهينة قبلك، نسألك أن تؤجله شهرين، فإن رجع أبوه وإلا أمضيت فيه رأيك.

قال: فغضب على القوم، ودعا بصاحب حرسه ـ وكان يقال له رستم بن بارويه ـ فأمره بصلب الغلام، وإن الغلام سأله أن يأذن له أن يصلِّي ركعتين، فأذن له، فطوّل في صلاته وهو يُرعَد، وقد مُدّ له جذع، فجذبوا الغلام من صلاته، ومدُّوه فوق الجِذْع، وشدوا حلقه معه حتى اختنق، وتوفِّي فوقه، وأمر سرخاستان أهل مدينة سارية أن يخرجوا إلى آمُل، وتقدّم إلى أصحاب المسالح في إحضار أهل الخنادق من الأبناء والعرب، فأحضروا ومضى مع أهل سارية إلى آمُل، وقال لهم: إنِّي أريد أن أشهدكم على أهل آمُل، وأشهد أهل آمُل عليكم، وأردّ ضياعكم وأموالكم؛ فإن لزمتم الطاعة والمناصحة زدناكم من عندنا ضعف ما كنا أخذنا منكم. فلما وافوْا آمُل جمعهم بقصر الخليل بن ونداسنجان، وصيّر أهل سارية ناحيةً عن غيرهم ووكّل بهم اللوزجان، وكتب أسماء جميع أهل آمُل حتى لم يخف منهم أحدٌ عليه، ثم عرضهم بعد ذلك على الأسماء حتى اجتمعوا؛ ولم يتخلّف منهم أحد، وأحدق الرجال في السلاح بهم، وصُفُّوا جميعاً، ووكّل بكل واحد منهم رجلين بالسلاح، وأمر الموكل بهم أن يحمل رأس كل من كاع عن المشي، وساقهم مكتفين حتى وافى بهم جبلا يقال له هُرْمُزْ داباذ، على ثمانية فراسخ من آمُل وثمانية فراسخ من مدينة سارية، وكبَّلهم بالحديد، وحبسهم.

وبلغت عدتهم عشرين ألفاً، وذلك في سنة خمس وعشرين ومائتين فيما ذُكر عن محمد بن حفص.

فأما غيره من أهل الأخبار وجماعة ممن أدرك ذلك فإنهم قالوا: كان ذلك في ستة أربع وعشرين ومائتين، وهذا القول عندي أولى بالصواب، وذلك أن مقتل مازيار كان في سنة خمس وعشرين ومائتين وكان فعله ما فعل بأهل طبرستان قبل ذلك بسنة[1].

---

(١) لعل هذه من نوادر الطبري رحمه الله في تأريخه إذ لطالما عوّدنا أن يقف بأعصاب باردة أمام=

رجع الحديث إلى الخبر عن قصة مازيار وفعله بأهل آمُل على ما ذكر عن محمد بن حفص ، قال : وكتب إلى الدُّري ليفعل ذلك بوجوه العرب والأبناء ممن كان معه بمرو ، وكبّلهم بالحديد ، وحبسهم ، ووكل بهم الرجال في حبْسهم ، فلما تمكن المازيار ، واستوى له أمره وأمْر القوم ، جمع أصحابه ، وأمر سرخاستان بتخريب سُور مدينة آمُل ، فخرَّبه بالطبول والمزامير ، ثم سار إلى مدينة سارية؛ ففعل بها مثل ذلك .

ثم وجّه مازيار أخاه فوهِيَار إلى مدينة طَمِيس ـ وهي على حدّ جرجان من عمل طبرستان ـ فخرّب سورها ومدينتها ، وأباح أهلها ، فهرب منهم مَنْ هرب ، وبُلي مَنْ بُلِيَ ، ثم توجّه بعد ذلك إلى طميس سرخاستان؛ وانصرف عنها قُوهِيار ، فلحق بأخيه المازيار ، فعمل سرخاستان سوراً من طميس إلى البحر ، ومده في البحر مقدار ثلاثة أميال . وكانت الأكاسرة بنته بينها وبين الترك؛ لأن الترك كانت تُغير على أهل طبرستان في أيامها ، ونزل معسكراً بطميس سرخاستان وصير حولها خندقاً وثيقاً وأبراجاً للحرس ، وصير عليها باباً وثيقاً ، ووكّل به الرجال الثقات؛ ففزع أهل جرجان ، وخافوا على أموالهم ومدينتهم؛ فهرب منها نفر إلى نيسابور ، وانتهى الخبر إلى عبد الله بن طاهر وإلى المعتصم ، فوجّه إليه عبد الله بن طاهر عمَّه الحسن بن الحسين بن مُصعب ، وضمّ إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جُرجان ، وأمره أن يعسكر على الخندق ، فنزل الحسن بن الحسين

= الأسانيد والمتون إلاّ مرة واحدة عند حديثه عن تأريخ فتح المسلمين لميناء الأبلة جنوب أرض السواد فرجّح رواية على أخرى وهو هاهنا يرجح رواية جماعة من أهل الأخبار وجماعة من شهود العيان على رواية محمد بن حفص الطبري فيقول عن رواية الأولين وهذا القول عندي أولى بالصواب وهذا الخبر الطويل الذي استغرق الصفحات (٨٠ ـ ١٠٠) عن المعارك التي خاضها مازيار الخارج على جيوش الخلافة انفرد الطبري من بين المؤرخين المتقدمين الثقات بذكر تفاصيله ـ وقد جمعه من مصادر عدة فهو تارة يروي أجزاء منه عن محمد بن حفص الطبري وتارة عن زرارة بن يوسف السجزي (شاهد عيان) وتارة عن إسحاق (شاهد عيان كذلك) وأخرى عن علي بن ربّن النصراني الكاتب، أو عمر بن سعيد الطبري، ولكنه صاغ هذه المقاطع مع بعضها متداخلة في خبر طويل وفيه من النكارات ـ أحياناً ما فيه ـ فهو يذكر رجلاً لم يشرب الماء منذ عشرين سنة (٩/ ٨٦) وهذا مخالف لطباع البشر كما جبلوا عليه ـ والله أعلم بالصواب وقد ذكر ابن كثير هذا الخبر مختصراً جداً [البداية والنهاية ٨/ ١٧٦] .

معسكراً على الخندق الذي عمله سرخاستان ، وصار بين العسكرين عرض الخندق ، ووجّه أيضاً عبد الله بن طاهر حيَّان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قُومِس معسكراً على حدّ جبال شروين ، ووجّه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم في جمع كثيف ، وضمَّ إليه الحسن بن قارن الطبري القائد ومَنْ كان بالباب من الطبرية ، ووجه منصور بن الحسن هار صاحب دُنْباوند إلى مدينة الرّيّ ليدخل طبرستان من ناحية الرّيّ ، ووجّه أبا الساج إلى اللارز ودنباوند ، فلما أحدقت الخيل بالمازيار من كل جانب بعث عند ذلك إبراهيم بن مهران صاحب شرطته وعلي بن ربن الكاتب النصراني ، ومعهما خليفة صاحب الحرس إلى أهل المدن المحتبسين عنده؛ أن الخيل قد زحفت إليَّ من كل جانب ، وإنما حبستكم ليبعث إلي هذا الرجل فيكم ـ يعني المعتصم ـ فلم يفعل ، وقد بلغني أن الحجّاج بن يوسف غضب على صاحب السند ، في امرأة أسرت من المسلمين وأدخلت إلى بلاد السند حتى غزا السند، وأنفق بيوت الأموال حتى استنقذ المرأة وردّها إلى مدينتها ، وهذا الرجل لا يكترث بعشرين ألفاً ، ولا يبعث إلي يسأل فيكم؛ وإني لا أقدم على حربه ، وأنتم ورائي ، فأدّوا إليّ خراج سنتين ، وأخلّي سبيلكم ، ومن كان منكم شاباً قويّاًقدمته للقتال؛ فمن وفى لي منكم رددت عليه ماله ، ومن لم يوف أكون قد أخذت ديته ، ومن كان شيخاً أو ضعيفاً صيّرتُه من الحفظة والبوابين.

فقال رجل يقال له موسى بن هرمز الزاهد ـ كان يقال إنه لم يشرب الماء منذ عشرين سنة ـ أنا أؤدي إليك خراج سنتين ، وأقوم به ، فقال خليفة صاحب الحرس لأحمد بن الصُّقَيْر: لِمَ لا تتكلم ، وقد كنتَ أحظى القوم عند الأصبهبذ؛ وقد كنت أراك تتغذى معه ، وتتكئ على وسادته! وهذا شيء لم يفعله الملك بأحد غيرك؛ فأنت أولى بالقيام بهذا الأمر من موسى ، قال أحمد: إنّ موسى لا يقدر على القيام بجباية درهم واحد ، وإنما أجابكم بجهل وبما هو عليه وعلى الناس أجمع ؛ ولو علم صاحبكم أن عندنا درهماً واحداً لم يحبسنا ، وإنما حبسنا بعد ما استنظف كلّ ما عندنا من الأموال والذخائر ، فإن أراد الضياع بهذا المال أعطيناه. فقال له عليّ بن ربن الكاتب: الضياع للملك لا لكم ، فقال إبراهيم بن مهران: أسألك بالله يا أبا محمد ، لما سكتَّ عن هذا الكلام! فقال له أحمد: لم

أزل ساكتاً حتى كلمني هذا بما قد سمعت.

ثم انصرفت الرسل على ضمان موسى الزاهد، وأعلموا المازيار ضمانه، وانضم إلى موسى الزاهد قومٌ من السعاة، فقالوا: فلان يحتمل عشرة آلاف، وفلان يحتمل عشرين ألفاً وأقل وأكثر، وجعلوا يستأكلون الناس أهل الخراج وغيرهم؛ فلما مضى لذلك أيام، ردّ مازيار الرُّسل مقتضياً المال، ومتنجزاً ما كان من ضمان موسى الزاهد، فلم يَرَ لذلك أثراً ولا تحقيقاً، وتحقق قول أحمد، وألزمه الذنْب. وعلم المازيار أن ليس عند القوم ما يؤدون، وإنما أراد أن يلقى الشر بين أصحاب الخراج، ومن لا خراج عليه من التجار والصناع.

قال: ثم إن سرخاستان كان معه ممَّن اختار من أبناء القوّاد وغيرهم من أهل آمُل فِتيانٌ لهم جلّد وشجاعة، فجمع منهم في داره مائتين وستين فتىً ممَّن يخاف ناحيته، وأظهر أنه يريد جمعهم للمناظرة، وبعث إلى الأكرة المختارين من الدَّهاقين، فقال لهم: إنّ الأبناء هواهم مع العرب والمسوّدة؛ ولست آمَنُ غدرَهم ومكرهم؛ وقد جمعت أهل الظِّنَّة ممن أخاف ناحيتَه، فاقتلوهم لتأمنوا، ولا يكون في عسكركم ممن يخالف هواه هواكم. ثم أمر بكتفهم ودفْعهم إلى الأكرة ليلا، فدفعوهم إليهم، وصاروا بهم إلى قناة هناك، فقتلوهم ورَمَوا بهم في آبار تلك القناة وانصرفوا. فلما ثاب إلى الأكرة عقولُهم ندموا على فعلهم، وفزعوا من ذلك؛ فلما علم المازيار أن القوم وليس عندهم ما يؤدونه إليه، بعث الأكرة المختارين الذين قتلوا المائتين والستين فتًى، فقال لهم: إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم - إلا ما كان من جارية جميلة من بناتهم؛ فإنها تصير للملك - وقال لهم: صيروا إلى الحبس فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك، ثم حُوزوا بعد ذلك، ما وهبتُ لكم من المنازل والحرم، فجبُن القوم عن ذلك وخافوا وحذروا فلم يفعلوا ما أمرهم به.

قال: وكان الموكلون بالسّور من أصحاب سرخاستان يتحدثون ليلا مع حرس الحسن بن الحسين بن مصعب، وبينهم عُرْض الخندق، حتى استأنس بعضُهم ببعض، وتآمروا وحرس سرخاستان بتسليم السور إليهم، فسلموه، ودخل أصحابُ الحسن بن الحسين من ذلك الموضع إلى عسكر سرخاستان في غفلة من الحسن بن الحسين ومن سرخاستان، فنظر أصحاب الحسن إلى قوم يدخلون من

الحائط ، فدخلوا معهم فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، فثاروا ، وبلغ الحسن بن الحسين بن مصعب ، فجعل يصيح بالقوم ويمنعهم ، ويقول: يا قوم؛ إني أخاف عليكم أن تكونوا مثل قوم داونْدَان ، ومضى أصحاب قيس بن زنجويه ـ وهو من أصحاب الحسن بن الحسين ـ حتى نصبوا العلم على السور في معسكر سرخاستان ، وانتهى الخبر إلى سرخاستان أن العرب قد كسروا السور ، ودخلوا بغتةً ، فلم تكن له همة إلا الهرب؛ وكان سرخاستان في الحمَّام ، فسمع الصياح ، فخرج هارباً في غلالة ، وقال الحسن بن الحسين حين لم يقدر على رد أصحابه: اللهمّ إنهم قد عصوْني وأطاعوك ، اللهم فاحفظهم وانصرهم ، ولم يزل أصحاب الحسن يتبعون القوم حتى صاروا إلى الدّرْب الذي على السور فكسروه ، ودخل الناس من غير مانع حتى استولوا على جميع ما في العسكر ، ومضى قوم في الطلب.

وذُكر عن زرارة بن يوسف السجزي أنه قال: مررتُ في الطلب؛ فبينا أنا كذلك؛ إذ صرت إلى موضع عن يَسرة الطريق ، فوجلت من الممر فيه ، ثم تقحمتُه بالرمح من غير أن أرى أحداً ، وصحتُ: من أنت؟ ويلك! فإذا شيخ جسيم قد صاح «زينهار» ـ يعني الأمان ـ قال: فحملت عليه ، فأخذته ، وشددت كتافه ، فإذا هو شهريار أخو أبي صالح سرخاستان ، صاحب العسكر ، قال: فدفعته إلى قائدي يعقوب بن منصور ، وحال الليل بيننا وبين الطلب ، فرجع الناس إلى المعسكر ، وأتى بشهريار إلى الحسن بن الحسين فضرب عنقه ، وأما أبو صالح فمضى حتى صار على خمسة فراسخ من معسكره ، وكان عليلا؛ فجهده العطش والفزع ، فنزل في غَيْضة يمنة الطريق إلى سفح جبل ، وشدّ دابته واستلقى ، فبصر به غلام له ورجل من أصحابه يقال له جعفر بن وَنْدَاميد؛ فنظر إليه نائماً ، فقال سرخاستان: يا جعفر: شربة ماء، فقد أجهدني العطش، قال: فقلت: ليس معي إناء أغرف به من هذا الموضع فقال سرخاستان: خذ رأس جعبتي فاسقني به، قال جعفر: وملتُ إلى عداد من أصحابي ، فقلت لهم: هذا الشيطان قد أهلكنا فلم لا نتقرب به إلى السلطان ، ونأخذ لأنفسنا الأمان! فقالوا لجعفر: كيف لنا به؟ قال: فوقفهم عليه ، وقال لهم: أعينوني ساعة ، وأنا أثاوره ، فأخذ جعفر خشبة عظيمة وسرخاستان مستلقٍ ، فألقى نفسه عليه ،

وملكوه وشدُّوه كتافاً مع الخشبة ، فقال لهم أبو صالح: خذوا مني مائة ألف درهم واتركوني؛ فإن العرب لا تعطيكم شيئاً ، قالوا له: أحضرها ، قال: هاتوا ميزاناً ، قالوا: ومن أين هاهنا ميزان؟ قال: فمن أين هاهنا ما أعطيكم! ولكن صيروا معي إلى المنزل، وأنا أعطيكم العهود والمواثيق أنِّي أفي لكم بذلك، وأوفر عليكم ، فصاروا به إلى الحسن بن الحسين ، فاستقبلتهم خيل للحسن بن الحسين ، فضربوا رؤوسهم ، وأخذوا سرخاستان منهم ، فهمتهم أنفسهم ، ومضى أصحاب الحسن بأبي صالح إلى الحسن ، فلما وقفوه بين يديه ، دعا الحسن قواد طبرستان؛ مثل محمد بن المغيرة بن شعبة الأزدي ، وعبد الله بن محمد القُطقُطي الضبي والفتح بن قراط وغيرهم ، فسألهم: هذا سرخاستان؟ قالوا: نعم ، فقال لمحمد بن المغيرة ، قم فاقتله بابنك وأخيك ، فقام إليه فضربه بالسيف ، وأخذته السيوف فقتل.

ذكر خبر أبي شاس الشاعر

وكان أبو شاس الشاعر ، وهو الغطريف بن حُصين بن حنش فتًى من أهل العراق ، رُبِّيَ بخراسان ، أديباً فهماً ، وكان سرخاستان ألزمه نفسه يتعلم منه أخلاق العرب ومذاهبها ، فلما نزل بسرخاستان ما نزل به ، وأبو شاس في معسكره ، ومعه دواب وأثقال ، هجم عليه قوم البُخارية ، من أصحاب الحسن؛ فانتهبوا جميع ما كان معه ، وأصابته جراحات ، فبادر أبو شاس فأخذ جرة كانت معه ، فوضعها على عاتقه ، وأخذ بيده قدحاً ، وصاح: الماء للسبيل؛ حتى أصاب غفلة من القوم ، فهرب من مضربه ، وقد أصابته جراحة ، فبصر به غلام ـ وقد كان مرَّ بمضرب عبد الله بن محمد بن حميد القُطْقُطي الطبري ، وكان كاتب الحسن بن الحسين ـ فعرفوه ، عَرَفَهُ خدمه ، وعلى عاتقه الجرة وهو يسقي الماء ، فأدخلوه خيمتهم ، وأخبروا صاحبهم بمكانه ، فأدخل عليه ، فحمله وكساه ، وأكرمه غاية الإكرام ، ووصفه للحسن بن الحسين ، وقال له: قل في الأمير قصيدة ، فقال أبو شاس: والله لقد امّحَى ما في صدري من كتاب الله من الهول ، فكيف أحسن الشعر! ووجه الحسن برأس أبي صالح سرخاستان إلى عبد الله بن طاهر ، ولم يزل من معسكره.

وذكر عن محمد بن حفص أن حيان بن جَبَلة مولى عبد الله بن طاهر ، كان أقبل مع الحسن بن الحسين إلى ناحية طميس ، فكاتب قارن بن شهريار ، ورغبه في الطاعة ، وضمن له أن يملكه على جبال أبيه وجده ، وكان قارن من قواد مازيار وهوابن أخيه. وكان مازيار صيَّره مع أخيه عبد الله بن قارن ، وضمّ إليهما عدة من ثقات قواده وقراباته؛ فلما استملاه حيان؛ وكان قارن قد ضمن له أن يسلم له الجبال ، ومدينة سارية إلى حد جُرجان ، على أن يملكه على جبال أبيه وجده إذا وفى له بالضمان ، وكتب بذلك حيان إلى عبد الله بن طاهر ، سجل له عبد الله بن طاهر بكل ما سأل ، وكتب إلى حيان بأن يتوقف ولا يدخل الجبل ولا يُوغل حتى يكون من قارن ما يُستدل به على الوفاء ، لئلا يكون منه مكر؛ فكتب حيان إلى قارن بذلك ، فدعا قارن بعبد الله بن قارن وهو أخو مازيار ، ودعا جميع قواده إلى طعامه ، فلما أكلوا ووضعوا سلاحهم واطمأنوا أحدق بهم أصحابه في السلاح الشاك ، وكتفهم ووجه بهم إلى حيان بن جبلة ، فلما صاروا إليه استوثق منهم ، وركب حيان في جمعه حتى دخل جبال قارن.

وبلغ مازيار الخبر فاغتم لذلك ، وقال له القوهيار أخوه: في حبسك عشرون ألفاً من المسلمين ، من بين إسكاف وخياط ، وقد شغلت نفسك بهم ، وإنما أتيت من مأمنك وأهل بيتك وقرابتك فما تصنع بهؤلاء المحبسين عندك؟ قال: فأمر مازيار بتخلية جميع من في حبسه ، ثم دعا إبراهيم بن مهران صاحب شرطته ، وعليَّ بن ربَّن النصرانيَّ كاتبه ، وشاذان بن الفضل صاحب خراجه ، ويحيى بن الروذبهار جهبذه ، وكان من أهل السهل عنده ، فقال لهم: إن حرمكم ومنازلكم وضياعكم بالسهل ، وقد دخلت العرب إليكم ، وأكره أن أشُومكم ، فاذهبوا إلى منازلكم ، وخذوا لأنفسكم الأمان ثم وصلهم ، وأذن لهم في الانصراف ، فصاروا إلى منازلهم وأخذوا الأمان لأنفسهم.

ولما بلغ أهل مدينة سارية أخذ سرخاستان واستباحة عسكره ودخول حيان بن جبلة جبل شروين ، وثبوا على عامل مازيار بسارية ـ وكان يقال له مهريستاني بن شهريز ـ فهرب منهم ، ونجا بنفسه ، وفتح الناس باب السجن ، وأخرجوا من فيه ، ووافى حيان بعد ذلك مدينة سارية ، وبلغ قوهيار أخا مازيار موافاة حيان سارية ، فأطلق محمد بن موسى بن حفص الذي كان عامل طبرسان من حبسه ،

وحمله على بغل بسرج ، ووجه به إلى حيَّان ليأخذ له الأمان ، ويجعل له جبال أبيه وجده على أن يسلم إليه مازيار ، ويوثق له بذلك بضمان محمد بن موسى بن حفص وأحمد بن الصُّقير ؛ فلما صار محمد بن موسى إلى حيان ، وأخبره برسالة قوهيار إليه ، قال له حيان: من هذا؟ يعني أحمد. قال: شيخ البلاد ، وبقية الخلفاء والأمير عبد الله بن طاهر به عارف ، فبعث حيان إلى أحمد ، فأتاه فأمره بالخروج إلى مسلحة خُرَّماباذ مع محمد بن موسى ، وكان لأحمد ابن يقال له إسحاق. وكان قد هرب من مازيار؛ يأوي نهاره الغياض ، ويصير بالليل إلى ضيعة يقال لها ساواشريان ، هي على طريق الجادة من قدح الأصبهبذ الذي فيه قصر مازيار.

فذكر عن إسحاق ، أنه قال: كنت في هذه الضيعة ، فمر بي عدة من أصحاب مازيار ، معهم دواب تقاد وغير ذلك ، قال: فوثبت على فرس منها هجين، ضخم فركبته عُرياً ، وصرت إلى مدينة سارية ، فدفعته إلى أبي ، فلما أراد أحمد الخروج إلى خرماباذ ركب ذلك الفرس ، فنظر إليه حيان ، فأعجبه ، فالتفت حيان إلى اللَّوزجان ـ وكان من أصحاب قارن ـ فقال له: رأيت هذا الشيخ على فرس نبيل قل ما رأيت مثله ، فقال له اللَّوزجان: هذا الفرس كان لمازيار ، فبعث حيان إلى أحمد يسأله البعثة بالفرس إليه ، لينظر إليه ، فبعث به إليه ، فلما تأمل النظر وفتشه وجده مشطب باليدين ، فزهد فيه ، ودفعه إلى اللَّوزجان ، وقال لرسول أحمد: هذا لمازيار ، ومال مازيار لأمير المؤمنين ، فرجع الرسول فأخبر أحمد ، فغضب على اللَّوزجان من ذلك ، فبعث إليه أحمد بالشتيمة ، فقال اللَّوزجان: مالي في هذا ذنب! ورد الفرس إلى أحمد ، ومعه برذون وشهري [فاره] ، فأمر رسوله فدفعهما إليه ، وغضب أحمد من فعل حيان به ، وقال: هذا الحائك يبعث إلى شيخ مثلي فيفعل به ما فعل! ثم كتب إلى قوهيار: ويحك! لِمَ تغلط في أمرك وتترك مثل الحسن بن الحسين عم الأمير عبد الله بن طاهر ، وتدخل في أمان هذا العبد الحائك ، وتدفع أخاك ، وتضع قدرك ، وتحقد عليك الحسن بن الحسين بتركك إياه وميلك إلى عبد من عبيده! فكتب إليه قوهيار: قد غلطتُ في أول الأمر؛ وواعدت الرجل أن أصير إليه بعد غد ، ولا آمن إن خالفته أن يناهضني ويحاربني ، ويستبيح منازلي وأموالي؛ وإن قاتلتُه فقتلتُ من

أصحابه ، وجرت الدماء بيننا وقعت الشحناء ، ويبطل هذا الأمر الذي التمسته ، فكتب إليه أحمد: إذا كان يوم الميعاد فابعث إليه رجلا من أهل بيتك ، واكتب إليه أنه قد عرضتْ لك علة منعتك من الحركة ، وأنك تتعالج ثلاثة أيام؛ فإنك عُوفيت وإلاَّ صرت إليه في محمل ، وسنحمله نحن على قبول ذلك منك ، والمصير في الوقت.

وإن أحمد بن الصُّقير ومحمد بن موسى بن حفص كتبا إلى الحسن بن الحسين وهو في معسكره بطميس ينتظر أمر عبد الله بن طاهر وجواب كتابه بقتل سرخاستان وفتح طميس ، فكتبا إليه أن اركب إلينا لندفع إليك مازيار والجبل ، وإلا فاتك ، فلا تقم. ووجها الكتاب مع شاذان بن الفضل الكاتب ، وأمراه أن يعجل السير.

فلما وصل الكتاب إلى الحسن ركب من ساعته ، وسار مسيرة ثلاثة أيام في ليلة ، حتى انتهى إلى سارية ، فلما أصبح سار إلى خُرّماباذ ـ وهو يوم موعد قُوهيار ـ وسمع حيان وقع طبول الحسن ، فركب فتلقاه على رأس فرسخ ، فقال له الحسن: ما تصنع هاهنا! ولم توجه إلى هذا الموضع ، وقد فتحت جبال شروين وتركتها ، وصرت إلى هاهنا ، فما يؤمنك أن يبدو للقوم ، فيغدروا بك ، فينتقض عليك جميع ما عملت ، ارجع إلى الجبل ، فصير مسالحك في النواحي والأطراف ، وأشرف على القوم إشرافاً لا يمكنهم الغدر ، إن هموا به. فقال له حيان: أنا على الرجوع ، وأريد أن أحمل أثقالي ، وأتقدم إلى رجالي بالرحلة ، فقال له الحسن: امض أنت ، فأنا باعث بأثقالك ورجالك خلفك ، وبت الليلة بمدينة سارية حتى يوافوك ، ثم تبكِّر من غدٍ؛ فخرج حيان من فوره كما أمره الحسن إلى سارية ، ثم ورد عليه كتاب عبد الله بن طاهر أن يعسكر بلبورة ـ وهي من جبال وَنْدَاهُرْمز ، وهي أحصن موضع من جباله ، وكان أكثر مال مازيار بها ـ وأمره عبد الله ألا يمنع قارن مما يريد من تلك الجبال والأموال. فاحتمل قارن ما كان لمازيار هنالك من المال ، والذي كان بأسباندرة من ذخائر مازيار ، وما كان لسرخاستان بقدح السلتان ، واحتوى على ذلك كله.

فانتقض على حيان جميع ما كان سنح له بسبب ذلك الفرس ، وتوفى بعد ذلك حيان بن جبلة. فوجه عبد الله مكانه على أصحابه محمد الحسين بن

مصعب ، وتقدم إليه عبد الله ألا يضرب على يدي قارن في شيء يريده ، وصار الحسن بن الحسين إلى خُرّماباذ ، فأتاه محمد بن موسى بن حفص وأحمد بن الصُّقير ، فتناظروا سرًّا ، فجزاهما خيراً ، وكتب هو إلى قوهيار ، فوافى خُرّماباذ ، وصار إلى الحسن ، فبره وأكرمه وأجابه إلى كل ما سأل ، واتعدا على يوم ، ثم صرفه وصار قوهيار إلى مازيار ، فأعلمه أنه قد أخذ له الأمان ، واستوثق له ، وكان الحسين بن قارن قد كاتب قوهيار من ناحية محمد بن إبراهيم بن مصعب ، وضمن له الرغائب عن أمير المؤمنين ، فأجابه قوهيار ، وضمن له ما ضمن لغيره، كل ذلك ليردهم عن الحرب ومال إليه، فركب محمد بن إبراهيم من مدينة آمُل ، وبلغ الحسن بن الحسين الخبر .

فذكر عن إبراهيم بن مهران أنه كان يتحدث عند أبي السعدي ، فلما قرب الزوال انصرف يريد منزله راكب وحده ، لم يتبعه إلاّ ثلاثة غلمان له أتراك ، قال : وكان طريقه على باب مضرب الحسن ، قال : فلما حاذيتُ مضربه؛ إذا بالحسن فرميت بنفسي ، وسلمت عليه ، فقال : اركب؛ فلما ركبت قال : أين طريق آرُم؟ قلت : هي على هذا الوادي ، فقال لي : امض أمامي ، قال : فمضيتُ حتى بلغت درباً على ميلين من آرُم ، قال : ففزعت ، وقلت : أصلح الله الأمير! هذا موضع مَهُول ، ولا يسلكه إلا ألف فارس؛ فأرى لك أن تنصرف ولا تدخله . قال : فصاح بي : امض . فمضيت وأنا طائش العقل؛ ولم نر في طريقنا أحداً حتى وافينا آرم ، فقال لي : أين طريق هُرْمزداباذ؟ قلت : على هذا الجبل في هذا الشَّراك . قال : فقال لي : سر إليها ، فقلت : أعز الله الأمير! الله الله في نفسك وفينا وفي هذا الخلق الذي معك! قال : فصاح بي : امض يا ابن اللخناء ، قال : فقلت له : أعزك الله! اضرب أنت عنقي؛ فإنه أحب إلي من أن يقتلني مازيار ، ويلزمني الأمير عبد الله بن طاهر الذنب .

قال : فانتهرني حتى ظننت أنه سيبطش بي ، ومضيت وأنا خليع الفؤاد ، وقلت في نفسي : الساعة نؤخذ جميعاً ، أو نوقَف بين يدي مازيار فيوبِّخني ، ويقول : جئت دليلا عليّ! فبينا نحن كذلك إذْ وافينا هرمزداباذ مع اصفرار الشمس ، فقال لي : أين كان سجن المسلمين هاهنا؟ فقلت له : في هذا الموضع .

قال : فنزل فجلس ونحن صيام ، والخيل تلحقنا متقطعة ، وذلك أنه ركب من

غير علم الناس ، فعلموا بعد ما مضى ، فدعا الحسن بيعقوب بن منصور ، فقال له: يا أبا طلحة ، أحبّ أن تصير إلى الطالقانيّة ، فتلطّف بحيَلك لجيش أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن مصعب هنالك ساعتين أو ثلاث ساعات أو أكثر؛ ما أمكنك ، وكان بينه وبين الطالقانية فَرْسخان أو ثلاثة فراسخ ، قال إبراهيم: فبينا نحن وقوف بين يدي الحسن ، إذ دعا بقيس بن زَنجويه ، فقال له: امض إلى درب لبورة ، وهو على أقلَّ من فرسخ؛ فابرز بأصحابك على الدَّرب.

قال: فلما صلّينا المغرب وأقبل الليل ، إذا أنا بفرسان بين أيديهم الشّمع مشتعلاً مقبلين من طريق لبُورة ، فقال لي: يا إبراهيم؛ أين طريق لبورة؟ فقلت: أرى نيراناً وفرساناً قد أقبلوا من ذلك الطريق ، قال: وأنا داهش لا أقف على ما نحن فيه ، حتى قربت النيران منا؛ فأنظر فإذا المازيار مع القوهيار ، فلم أشعر حتى نزلا وتقدم المازيار ، فسلم على الحسن بالإمرة ، فلم يردّ عليه ، وقال لطاهر بن إبراهيم وأوس البلخي: خذاه إليكما.

وذكر عن أخي وميدوار بن خواست جيلان ، أنه في تلك الليلة صار مع نفر إلى قوهيار ، وقال له: اتق الله ، قد خلفت سرواتنا ، فأذن لي أكنُف هؤلاء العرب كلَّهم؛ فإن الجند حيارى جياع ، وليس لهم طريق يهربون ، فتذهب بشرفها مابقى الدهر ، ولا تثق بما يعطيك العرب ، فليس لهم وفاء! فقال قوهيار: لا تفعلوا ، وإذا قوهيار قد عبّى علينا العرب ، ودفع مازيار وأهل بيته إلى الحسن لينفرد بالملك؛ ولا يكون أحد ينازعه ويضادّه.

فلما كان في السحر ، وجّه الحسن بالمازيار مع طاهر بن إبراهيم وأوْس البلخيّ إلى خرماباذ ، وأمرهما أن يمرّا به إلى مدينة سارية ، وركب الحسن ، وأخذ على وادي بابك إلى الكانية مستقبلا محمد بن إبراهيم بن مُصعب ، فالتقيا ومحمد يريد المصير إلى هرمزداباذ لأخذ المازيار ، فقال له الحسن: يا أبا عبد الله ، أين تريد؟ قال: أريدُ المازيار ، فقال: هو بسارية ، وقد صار إليَّ ، ووجّهت به إلى هنالك ، فبقى محمد بن إبراهيم متحيراً. وكان القوهيار قد همّ بالغدر بالحسن ، ودفع المازيار إلى محمد بن إبراهيم ، فسبق الحسن إلى ذلك ، وتخوف القوهيار منه أن يحاربه حين رآه متوسّطاً الجبل ، إن أحمد بن الصُّقير كتب إلى القوهيار: لا أرى لك التخليط والمناصبة لعبد الله بن طاهر ، وقد كُتب

إليه بخبرك وضمانك فلا تكن ذا قلبيْن ، فعند ذلك حذّره ودفعه إلى الحسن ، وصار محمد بن إبراهيم والحسن بن الحسين إلى هرمزداباذ ، فأحرقا قصر المازيار بها ، وأنهبا ماله ، ثم صارا إلى معسكر الحسن بخرماباذ ، ووجها إلى إخوة المازيار ، فحبسوا هناك في داره ، ووكل بهم ، ثم رحل الحسن إلى مدينة سارية؛ فأقام بها ، وحبس المازيار بقرب خيمة الحسن ، وبعث الحسن إلى محمد بن موسى بن حفص يسأله عن القيد الذي كان قيده به المازيار ، فبعث به محمد إليه ، فقيد المازيار بذلك القيد ، ووافى محمد بن إبراهيم الحسن بمدينة سارية ليناظره في مال المازيار وأهل بيته ، فكتبا بذلك إلى عبد الله بن طاهر ، وانتظرا أمره ، فورد كتاب عبد الله إلى الحسن بتسليم المازيار وإخوته وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم ، ليحملهم إلى أمير المؤمنين المعتصم؛ ولم يعرض عبد الله لأموالهم ، وأمره أن يستصفي جميع ما للمازيار ويحرزه ، فبعث الحسن إلى المازيار فأحضره ، وسأله عن أمواله فذكر أن ماله عند قوم سماهم ، من وجوه أهل سارية وصلحائهم عشرة نفر ، وأحضر القوهيار ، وكتب عليه كتاباً ، وضمنه توفير هذه الأموال التي ذكرها المازيار ، أنها عند خزانه وأصحاب كنوزه ، فضمن القوهِيار ذلك وأشهد على نفسه .

ثم إن الحسن أمر الشهود الذين أحضرهم أن يصيروا إلى المازيار ، فيشهدوا عليه؛ فذكر عن بعضهم ، أنه قال : لما دخلنا على المازيار ، تخوفت من أحمد بن الصُّقير أن يفزعه بالكلام ، فقلت له : أحب أن تمسك عنه ، ولا تذكر ما كنت أشرت به ، فسكت أحمد عند ذلك ، فقال المازيار : اشهدوا أن جميع ما حملتُ من أموالي وصحبي ستة وتسعون ألف دينار ، وسبع عشرة قطعة زمرد ، وست عشرة قطعة ياقوت أحمر ، وثمانية أوقار سلال مجلدة ، فيها ألوان الثياب ، وتاج وسيف من ذهب وجوهر ، وخنجر من ذهب مكلل بالجوهر ، وحُق كبير مملوء جوهراً ، وقد وضعه بين أيدينا ، وقد سلمت ذلك إلى محمد بن الصباح ، وهو خازن عبد الله بن طاهر وصاحب خبره على العسكر وإلى القوهيار . قال : فخرجنا إلى الحسن بن الحسين ، فقال : أشهدتم على الرجل؟ قال : قلنا : نعم ، قال : هذا شيء كنت اخترته لي ، فأحببت أن يعلم قِلّته وهَوَانه عندي .

وذكر عن عليّ بن ربَّن النصراني الكاتب أن ذلك الحق كان شرى جوهره على المازيار وجدّه وشَهْريار ثمانية عشر ألف ألف درهم ، وكان المازيار حمل ذلك كله إلى الحسن بن الحسين ، على أن يظهر أنه خرج إليه في الأمان ، وأنه قد آمنه على نفسه وماله وولده؛ وجعل له جبال أبيه ، فامتنع الحسن بن الحسين من هذا وعفّ عنه ـ وكان أعفَّ الناس عن أخذ درهم أو دينار ـ فلما أصبح أنفذ المازيار مع طاهر بن إبراهيم وعليّ بن إبراهيم الحربيّ ، وورد كتاب عبد الله بن طاهر في إنفاذه مع يعقوب بن منصور ، وقد ساروا بالمازيار ثلاث مراحل ، فبعث الحسن فردَّه ، وأنفذه مع يعقوب بن منصور ، ثم أمر الحسن بن الحسين القُوهِيار أخا المازيار أن يحمل الأموال التي ضمنها ، ودفع إليه بغالا من العسكر ، وأمر بإنفاذ جيش معه ، فامتنع القوهيار ، وقال لا حاجة لي بهم ، وخرج بالبغال هو وغلمانه ، فلما ورد الجبل وفتح الخزائن ، وأخرج الأموال وعبّاها ليحملها ، وثب عليه مماليك المازيار من الديالمة ـ وكانوا ألفاً ومائتين ـ فقالوا له : غدرت بصاحبنا ، وأسلمته إلى العرب ، وجئت لتحمل أمواله! فأخذوه وكبلوه بالحديد ، فلما جنّه الليل قتلوه ، وانتهبوا تلك الأموال والبغال؛ فانتهى الخبر إلى الحسن ، فوجّه جيشاً إلى الذين قتلوا القوهيار ، ووجّه قارن جيشاً من قِبَله في أخذهم ، فأخذ منهم صاحب قارن عدة ، منهم ابن عمّ للمازيار ، يقال له شهريار بن المَصْمُغان ـ وكان رأس العبيد ومحرّضهم ـ فوجّه به قارن إلى عبد الله بن طاهر ، فلما صار بقومِس مات ، وكان جماعة أولئك الديالمة أخذوا على السَّفح والغَيْضَة يريدون الديلم ، فنذر بهم محمد بن إبراهيم بن مصعب ، فوجّه من قِبَله الطبرية وغيرهم حتى عارضوهم ، وأخذوا عليهم الطريق ، فأخذوا ، فبعث بهم إلى مدينة سارية مع عليّ بن إبراهيم ، وكان مدخل محمد بن إبراهيم حين دخل من شَلَنْبَة على طريق الروذبار إلى الورُّيان.

وقيل : إن فساد أمر مازيار وهلاكه كان من قبل ابن عمّ له يقال له . . . . كان في يديه جبال طبرستان كلها ، وكان في يد المازيارر السهل؛ وكان ذلك كالقسمة بينهم يتوارثونه ، فذُكر عن محمد بن حفص الطبريّ أن الجبال بطبرستان ثلاثة : جبل وَنْداهُرْمز في وسط جبال طَبَرستان ، والثاني جبل أخيه ونداسبْجان بن الأنداد بن قارن ، والثالث جبَل شَرْوين بن سُرْخاب بن باب ، فلما قوي أمرُ

المازيار بعث إلى ابن عمه ذلك ، وقيل هو أخوه القوهِيار ، فألزمه بابه ، وولّى الجبل والياً من قِبَله ، يقال له درّي؛ فلما احتاج المازيار إلى الرجال لمحاربة عبد الله بن طاهر؛ دعا بابن عمه أو أخيه القوهِيار ، فقال له: أنت أعرف بجبلك من غيرك ، وأظهره على أمر الأفشين ومكاتبته له ، وقال له: صرْ في ناحية الجبل ، فاحفظ عليّ الجبل.

وكتب المازيار إلى الدرّيّ يأمره بالقدوم عليه ، فقدم عليه ، فضم إليه العساكر ، ووجّهه في وجه عبد الله بن طاهر ، وظنّ أنه قد توثق من الجبل بابن عمه أو أخيه القُوهيار ، وذلك أن الجبل لم يُظنّ أنه يُؤتى منه. لأنه ليس فيه للعساكر والمحاربة طريق لكثرة المضايق والشَّجر الذي فيه ، وتوثّق من المواضع التي يتخوّف منها بالدري وأصحابه ، وضمّ إليه المقاتلة وأهل عسكره ، فوجّه عبد الله بن طاهر عمَّه الحسن بن الحسين بن مصعب ، في جيش كثيف من خراسان إلى المازيار، ووجه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب، ووجّه معه صاحب خبر يقال له يعقوب إبراهيم البوشنجي مولى الهادي ، ويعرف بقوْصرة؛ يكتب بخبر العسكر؛ فوافى محمد بن إبراهيم الحسن بن الحسين ، وزحفت العساكر نحو المازيار حتى قَرُبوا منه ، والمازيار لا يشكّ أنه قد توثّق من الموضع الذي تلقّاه الجبل فيه.

وكان المازيار في مدينته في نفر يسير ، فدعا ابنّ عمّ المازيار الحقد الذي كان في قلبه على المازيار وصنيعه به وتنحيته إياه عن جبله ، أنْ كاتَبَ الحسن بن الحسين ، وأعلمه جميع ما في عساكره ، وأنّ الأفشين كاتب المازيار.

فأنفذ الحسن كتاب ابن عمّ المازيار إلى عبد الله بن طاهر ، فوجّه به عبد الله برجل إلى المعتصم ، وكاتب عبد الله الحسن بن الحسين ابن عم المازيار ـ وقيل القوهيار ـ وضمنا له جميع ما يريد؛ وكان ابن عم المازيار أعلم عبد الله بن طاهر أن الجبل الذي هو عليه كان له ولأبيه ولآبائه من قِبَل المازيار ، وأن المازيار عند تولية الفضل بن سهل إياه طبرستان انتزع الجبل من يديه ، وألزمه بابه ، واستخفّ به ، فشرط له عبد الله بن طاهر إن هُوَ وثب بالمازيار ، واحتال له أن يصير الجبل على حسب ما لم يزل. ولا يُعرَض له فيه ، ولا يحارب.

فرضِيَ بذلك ابن عم المازيار ، فكتب له عبد الله بن طاهر بذلك كتاباً ،

وتوثق له فيه ، فوعد ابن عمّ المازيار الحسن بن الحسين ورجالهم أن يدخلهم الجبل ، فلما كان وقت الميعاد ، أمر عبد الله بن طاهر الحسن بن الحسين أن يزحف للقاء الدريّ ، ووجّه عسكراً ضخماً عليه قائد من قواده في جوف الليل ، فوافوا ابن عمّ المازيار في الجبل ، فسلّم الجبال إليهم ، وأدخلهم إليها، وصافَّ الدريّ العسكر الذي بإزائه، فلم يشعر المازيار وهو في قصره حتى وقفت الرّجّالة والخيل على باب قصره ، والدري يحارب العسكر الآخر؛ فحصروا المازيار ، وأنزلوه على حكم أمير المؤمنين المعتصم .

وذكر عمرو بن سعيد الطبريّ أن المازيار كان يتصيّد ، فوافته الخيل في الصيد؛ فأخذ أسيراً ودُخل قصره عَنْوة ، وأخذ جميع ما فيه ، وتوجّه الحسن بن الحسين بالمازيار ، والدريّ يقاتل العسكر الذي بإزائه ، لم يعلم بأخذ المازيار ، فلم يشعر إلا وعسكر عبد الله بن طاهر مِنْ ورائه ، فتقطعت عساكره ، فانهزم ومضى يريد الدخول إلى بلاد الديلم ، فقتل أصحابه ، واتبعوه فلحقوه في نفر من أصحابه ، فرجع يقاتلهم ، فقتِل وأخِذ رأسه ، فبعث به إلى عبد الله بن طاهر ، وقد صار المازيار في يده ، فوعده عبدُ الله بن طاهر إن هو أظهره على كتب الأفشين أن يسأل أمير المؤمنين الصَّفْح عنه ، وأعلمه عبد الله أنه قد علم أن الكتب عنده ، فأقرّ المازيار بذلك ، فطُلبت الكتب فوُجدت ، وهي عدّة كتب ، فأخذها عبد الله بن طاهر ، فوجّه بها مع المازيار إلى إسحاق بن إبراهيم ، وأمره ألاّ يخرج الكتب من يده ولا المازيار إلاّ إلى يد أمير المؤمنين ، لئلا يُحتال للكتب والمازيار ، ففعل إسحاق ذلك ، فأوصلها من يده إلى يد المعتصم؛ فسأل المعتصم المازيار عن الكتب ، فلم يقرّ بها ، فأمر بضرب المازيار حتى مات ، وصلب إلى جانب بابك[١] .

وكان المأمون يكتب إلى المازيار: من عبد الله المأمون إلى جيل جيلان أصبهبذ أصبهبذان بشْوار جِرْشاه محمد بن قارن مولى أمير المؤمنين.

وقد ذكر أن بدء وهْي أمر الدريّ ، كان أنه لما بلغه بعدما ضمّ إليه المازيار

---

(١) هذ نهاية الخبر الطويل عن معارك مازيار من مخرجه إلى مقتله (٨٠ ـ ١٠٠) وانظر تعليقنا السابق.

الجيش نزول جيش محمد بن إبراهيم دُنْباوند ، وجّه أخاه بزرجشْنس ، وضمّ إليه محمداً وجعفراً ابني رستم الكلاريّ ورجالاً من أهل الثغر وأهل الرُّويان ، وأمرهم أن يصيروا إلى حدّ الرّويان والرّيّ لمنع الجيش؛ وكان الحسن بن قارن قد كاتب محمداً وجعفراً ابني رستم ، ورغّبهما؛ وكانا من رؤساء أصحاب الدّريّ ، فلما التقى جيش الدري وجيش محمد بن إبراهيم ، انقلب ابنا رستم وأهل الثغرين وأهل الرُّويان على بزرجشنس أخى الدرّيّ ، فأخذوه أسيراً ، وصاروا مع محمد بن إبراهيم على مقدّمته ، وكان الدريّ بموضع يقال له مُزْن في قَصْره مع أهله وجميع عسكره ، فلما بلغه غدر محمد وجعفر ابني رستم ومتابعة أهل الثغرين والرويان لهما وأسر أخيه بزرجشنس ، اغتمّ لذلك غمًّا شديداً ، وأذعن أصحابه ، وهمَّتهُم أنفسُهم ، وتفرّق عامّتهُم يطلبون الأمان ، ويحتالون لأنفسهم ، فبعث الدري إلى الديالمة فصار ببابه مقدار أربعة آلاف رجل منهم ، فرغبهم ومناهم ، ووصلهم ، ثم ركب وحمل الأموال معه ، ومضى كأنه يريد أن يستنقذ أخاه ويحارب محمد بن إبراهيم ، وإنما أراد الدخول إلى الديلم ، والاستظهار بهم على محمد بن إبراهيم .

فاستقبله محمد بن إبراهيم في جيشه؛ فكانت بينهم وقعة صعبة؛ فلما مضى الدرب هرب الموكلون بالسجن ، وكسر أهل السجن أقيادهم ، وخرجوا هاربين ، ولحق كل إنسان ببلده ، واتفق خروج أهل سارية الذين كانوا في حبس المازيار وخروج هؤلاء الذين كانوا في حبس الدريّ في يوم واحد ، وذلك في شعبان لثلاث عشرة ليلة خلت منه سنة خمس وعشرين ومائتين في قول محمد بن حفص ، وقال غيره : كان ذلك في سنة أربع وعشرين ومائتين .

وذكر عن داود بن قحذم أن محمد بن رستُم ، قال : لما التقى الدري ومحمد بن إبراهيم بساحل البحر ، بين الجبل والغَيْضة والبحر ، والغَيْضة متصلة بالديلم ، وكان الدري شجاعاً بطلاً ، فكان يحمل بنفسه على أصحاب محمد حتى يكشفهم ، ثم يحمل معارضةً من غير هزيمة ، يريد دخول الغَيْضة ، شدّ عليه رجل من أصحاب محمد بن إبراهيم يقال له فند بن حاجبة ، فأخذه أسيراً واسترجع ، واتبع الجند أصحابه وأخذ جميع ما كان معه من الأثاث والمال والدوابّ والسلاح ، فأمر محمد بن إبراهيم بقتل بزرجشنس أخي الدّرّيّ ، ودُعي

بالدري فمدّ يده فقُطعت من مرفقه ، ومدت رجله فقطعت من الركبة؛ وكذا باليد الأخرى والرجل الأخرى ، فقعد الدري على استه؛ ولم يتكلم ولم يتزعزع ، فأمر بضرب عنقه ، وظفر محمد بن إبراهيم بأصحاب الدري فحملهم مكبلين(١) .

وفي هذه السنة ولي جعفر بن دينار اليمن .

وفيها تزوج الحسن بن الأفشين أترنجة بنت أشناس ، ودخل بها في العمري ، قصر المعتصم في جُمادى الآخرة ، وأحضر عرسها عامة أهل سامراء فحُدِّثت أنهم كانو يغلّفُون العامة فيها بالغالية في تغار من فضة ، وأن المعتصم كان يباشر بنفسه تفقدّ من حضرها(٢) .

وفيه امتنع عبد الله الوَرْثانيّ بوَرْثان .

* * *

[ذكر الخبر عن خلاف منكجور الأشروسنيّ]

وفيها خالف مَنكجور الأَشْروسني قرابة الأفشين بأذْربيجان(٣) .

*** ذكر الخبر عن سبب خلافه :**

ذُكر أن : الأفشين عند فراغه من أمر بابك ومنصَرفه من الجبال ولىَ أذْرَبيجان - وكانت من عمله - واليه منكجور هذا ، فأصاب في قرية بابك في بعض منازله مالاً عظيماً ، فاحتجنه لنفسه؛ ولم يعلم به الأفشين ولا المعتصم؛ وكان على البريد بَأذْرَبيجان رجل من الشيعة يقال له عبد الله بن عبد الرحمن؛ فكتب إلى المعتصم بخبر ذلك المال ، وكتب مَنْكجور يكذب ذلك؛ فوقعت المناظرة بين مَنْكَجور وعبد الله بن عبد الرحمن؛ حتى همّ منكجور بقتل عبد الله بن

---

(١) هذا خبر مختصر عن مصير الدرّي وهو من قواد مازيار البارزين أورده الطبري مع ذكره للخلاف بين محمد بن حفص الطبري وغيره من الأخباريين في تحديد تأريخ هذه الوقعة (٢٢٤ هـ) أم (٢٢٥ هـ) ثم ذكر الرواية الأخيرة عن داود بن قحذم عن محمد بن رستم - وانفرد الطبري بين المؤرخين المتقدمين الثقات بهذه التفاصيل والله أعلم .

(٢) انظر : المنتظم (١١/ ٨٨) .

(٣) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٧٦] .

عبد الرحمن ، فاستغاث عبد الله بأهل أردبيل ، فمنعوه مما أراد به مَنْكجور؛ وبلغ ذلك المعتصم ، فأمر الأفشين أن يوجّه رجلاً من قبَله بعزل منكجور ، فوجّه رجلاً من قُوّاده في عسكر ضخم؛ فلما بلغ مَنكجور ذلك ، خلع وجمع إليه الصعاليك ، وخرج من أردبيل ، فرآه القائد فواقعه ، فانهزم مَنكجُور ، وصار إلى حصن من حصون أذْرَبيجان ـ التي كان بابك أخربها ـ حَصِينٍ في جبل منيع ، فبناه وأصلحه ، وتحصن فيه؛ فلم يلبث إلاَّ أقلّ من شهر حتى وثب به أصحابه الذين كانوا معه في الحصن ، فأسلموه ودفعوه إلى القائد الذي كان يحاربه؛ فقدم به إلى سامراء ، فأمر المعتصم بحبسه ، فاتُّهم الأفشين في أمره .

وقيل : إن القائد الذي وُجه لحرب مَنْكجور هذا كان بُغا الكبير .

وقيل : إنّ بغا لمّا لقى منكجور خرج منكجور إليه بأمان .

وفيها مات ياطس الروميُّ ، وصُلب بسامراء إلى جانب بابك(١) .

وفيها مات إبراهيم بن المهديّ في شهر رمضان وصلّى عليه المعتصم(٢) .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود(٣) .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك كان قدوم الوَرْثانيّ على المعتصم في المحرّم بالأمان .

وفيها قدم بغا الكبير بمنكجور سامراء .

وفيها خرج المعتصم إلى السِّنّ ، واستخلف أشناس .

وفيها أجلس المعتصم أشناس على كرسيّ ، وتوّجَه ووشّحه في شهر ربيع الأول .

وفيها أحرِق غنّام المرتَدّ .

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٧٦] .

(٢) انظر سير أعلام [١٠/ ٥٥٧] والوافي بالوفيات [٦/ ١١٠] .

(٣) وكذلك قال خليفة [تأريخ خليفة/ ٣١٧] .

وفيها غضب المعتصم على جعفر بن دينار ، وذلك من أجل وُثوبه على مَنْ كان معه من الشاكرية ، وحبسه عند أشناس خمسة عشر يوماً ، وعزَله عن اليمن ، وولّاها إيتاخ ، ثم رضي عن جعفر.

وفيها عُزل الأفشين عن الحرس ووليه إسحاق بن يحيى بن معاذ(١).

وفيها وجه عبد الله بن طاهر بمازيار ، فخرج إسحاق بن إبراهيم إلى الدَّسْكرة سامراء في شوال ، وأمر بحمله على الفيل ، فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خُضِبَ الفِيلُ كعاداتِهِ يحملُ جيلانَ خُراسانِ
والفيلُ لا تخضَبُ أعضاؤهُ إلا لذِي شأْنٍ من الشانِ

فأبى مازيار أن يركب الفيل ، فأُدخِلَ على بغْل بإكاف ، فجلس المعتصم في دار العامة ، لخمس ليال خلوْن من ذي القعدة ، وأمر فجمع بينه وبين الأفشين؛ وقد كان الأفشين حُبِس قبل ذلك بيوم ، فأقرّ المازيار أنّ الأفشين كان يكاتبه ، ويصوّب له الخلاف والمعصية فأمر بردّ الأفشين إلى محبسه ، وأمر بضرب مازيار ، فضرب أربعمائة سوط وخمسين سوطاً ، وطلب ماء فسُقِيَ ، فمات من ساعته(٢).

* * *

[ذكر الخبر عن غضب المعتصم على الأفشين وحبسه]

وفيها غضب المعتصم على الأفشين فحبسه.

*** ذكر الخبر عن سبب غضبه وحبسه إياه**(٣).

ذكر أن الأفشين كان أيام حربه بابك ومُقامه بأرض الخرّميّة؛ لا يأتيه هدية من

---

(١) لهذه الأخبار المختصرة انظر المنتظم [١١/ ٩٨].

(٢) في هذا الخبر ما يناقض أخبار الطبري السابقة عن مازيار التي قال فيها أن المازيار لم يقرّ بالكتب التي أرسلها أفشين إليه فَضُرِبَ بالسياط حتى مات بينما يذكر الطَبري هنا أن مازيار اعترف بتلك الكتب فالله أعلم بالصواب وقال ابن الجوزي وفيها (٢٢٥هـ) أسر مازيار فضرب خمسمائة سوط فمات من يومه [المنتظم ١١/ ١٠٠].

(٣) أما غضب المعتصم على الأفشين ومن ثم حبسه وما إلى ذلك فصحيح إلاّ أن الأسباب الحقيقية تظل غير مؤكدة بل غامضة وقد ذكر الطبري أسباباًلذلك وأورد فيها أخباراً عدة استغرقت الصفحات (١٠٤ ـ ١١٠) وجُلّها بلا إسناد ولم يتابع على كثير من هذه التفاصيل=

أهل إرمينيَة إلا وجّه بها إلى أشْروسَنَة ، فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر ، فيكتب عبد الله إلى المعتصم بخبره؛ فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمر بتعريف جميع ما يوجِّه به الأفشين من الهدايا إلى أشْروسنة؛ ففعل عبد الله بذلك؛ وكان الأفشين كلّما تهيّأ عنده مال حمَله أوساط أصحابه من الدنانير والهمايين بقدْر طاقتهم؛ كان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه؛ فأخبر عبد الملك بذلك؛ فبينا هو في يوم من الأيام ، وقد نزل رُسل الأفشين معهم

= سوى أن ابن الجوزي أخرج عن الصولي ما يؤيد بعضاً مما ذكر الطبري وهو أن أفشين أراد بالمعتصم السوء والخيانة وحتى القضاء عليه ، ولا نستطيع القول بصحة خبر الصولي لأنه توفي بعد الطبري بعقود (٣٣٥هـ) إلاّ أنه كان أخبارياً عارفاً بأيام الناس ترجم له الخطيب والذهبي، قال الخطيب في ترجمته: حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء، ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء [تأريخ بغداد ٣/ ٤٢٧ وفي آخر خبر الصولي أن المعتصم قبض على الأفشين وحبسه [المنتظم ١١/ ٩٩].

وأخرج القاضي وكيع قال حدثني موسى بن جعفر أخو نفس الكاتب ـ قال: كان أحمد بن أبي دواد ـ حين ولي المعتصم الخلافة ـ عادى الأفشين وحرض عليه المعتصم وكان جسوراً مقداماً لا يبالي ما يصنع فلم يزل يخبر المعتصم بأن الأفشين على دين المجوسية وأنه كاتب المرزبان حتى عصى وأنه. . . وأنه. . . حتى أوغر قلب المعتصم على الأفشين وهمّ به بعد أخذ المرزبان فجمع بينه وبينه [أخبار القضاة/ ٦٧٩].

وأخرج عن موسى بن جعفر الذي عاصر تلك الأحداث وحضر بعضها قال: ونوظر الأفشين فقال: المعتصم هاتوا احتجوا عليه فقال ابن أبي دواد: كاتب المرزبان يا أمير المؤمنين فقال الأفشين: أنتم قلتم لي كاتبه وأطعمه فإنك ملك وهو ملك ففعلت. قال ابن أبي دواد هو يعبد الأصنام وهو أغلف ، وأخرج من خزانته تماثيل ، فقال الأفشين: هذه سماجات يلعب بها كما يلعب العجم فأخرج ابن أبي دواد حقة فيها سم من خزانته ودعا برجل فاستحلفه أنه أمره أن يسم المعتصم فحلف الرجل فاستحل المعتصم دمه فقتله[أخبار القضاة/ ٦٧٩].

ولو قارن القاريء الكريم بين الروايات الثلاث (رواية الطبري والصولي والقاضي وكيع) يتبيّن له بعض التباين والفروق ولعلّ الأرجح هو اتهام ابن أبي دواد للأفشين بأمور زوراً وبهتاناً وليس ذلك. بمستبعد فقد كان ابن أبي دواد خبيث السريرة رأساً من رؤوس البدع والضلالة لم يتوانى في تحريض المعتصم على تعذيب الناس ومحنتهم وإهانتهم بل وحتى قتلهم ومحنة الإمام أحمد بن حنبل خير دليل على ذلك وكذلك مقتل أحمد بن نصر الخزاعي في عهد الواثق والله تعالى أعلم.

الهدايا نيسابور وجّه إليهم عبد الله بن طاهر ، وأخذهم ففتّشهم ، فوجد في أوساطهم همايين ، فأخذها منهم ، وقال لهم : من أين لكم هذا المال؟ فقالوا : هذه هدايا الأفشين؛ وهذه أمواله. فقال : كذبتم؛ لو أراد أخي الأفشين أن يرسل بمثل هذه الأموال لكتب إليّ يُعلمني ذلك لآمر بحراسته وبذْرَقتِه؛ لأن هذا مال عظيم؛ وإنما أنتم لصوص. فأخذ عبد الله بن طاهر المال ، وأعطاه الجند قبلَه ، وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم ، وقال : أنا أنكر أن تكون وجّهتَ بمثل هذا المال إلى أشْروسنة ، ولم تكتب إليّ تعلمني لأبذْرقه؛ فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيتَه الجند مكان المال الذي يوجّهه إليّ أمير المؤمنين في كلّ سنة ، وإن كان المال لك ـ كما زعم القوم. فإذا جاء المال من قِبَل أمير المؤمنين رددته إليك؛ وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحقّ بهذا المال؛ وإنما دفعته إلى الجند لأني أريد أن أوجّههم إلى بلاد الترك.

فكتب إليه الأفشين يعلمه أن مالَه ومال أمير المؤمنين واحد ، ويسأله إطلاق القوم ليمضوا إلى أشروسنة؛ فأطلقهم عبدُ الله بن طاهر ، فمضوا؛ فكان ذلك سبب الوحشة بين عبد الله بن طاهر وبين الأفشين.

ثم جعل عبد الله يتتبّع عليه ، وكان الأفشين يسمع أحياناً من المعتصم كلاماً يدلّ على أنه يريد أن يعزل آل طاهر عن خراسان ، فطمع الأفشين في ولايتها ، فجعل يكاتب مازيار ، ويبعثه على الخلاف ، ويضمَن له القيام بالدفْع عنه عند السلطان؛ ظنّاً منه أن مازيار إن خالف احتاج المعتصم إلى أن يوجهه لمحاربته ، ويعزل عبد الله بن طاهر ويولّيه خراسان؛ فكان من أمر مازيار ما قد مضى ذكره.

وكان من أمر منكجور بأذْرَبيجان ما قد وصفنا قبل. فتحقّق عند المعتصم ـ بما كان من أمر الأفشين ومكاتبته مازيار بما كان يكاتبه به ـ ما كان اتهمه به من أمر مَنكجور؛ وأنّ ذلك كان عن رأي الأفشين وأمْره إياه به ، فتغيّر المعتصم للأفشين لذلك؛ وأحسّ الأفشين بذلك ، وعلم تغيُّر حاله عنده ، فلم يَدْر ما يصنع ، فعزم ـ فيما ذكر ـ على أن يهيّىء أطوافاً في قصره ، ويحتال في يوم شغل المعتصم وقوّاده أن يأخذ طريق الموصل ، ويعبر الزاب على تلك الأطواف؛ حتى يصير إلى بلاد أرمينيَة ، ثم إلى بلاد الخزَر ، فعسر ذلك عليه ، فهيّأ سمّاً كثيراً ، وعزم على أن يعمل طعاماً ويدعو المعتصم وقُوّاده فيسقيهم؛ فإن

لم يجبه المعتصم استأذنه في قوّاد الأتراك ، مثل أشناس وإيتاخ وغيرهم في يوم تشاغل أمير المؤمنين ، فإذا صاروا إليه أطعمهم وسقاهم وسمَّهم؛ فإذا انصرفوا من عنده خرج من أوّل الليل ، وحمل تلك الأطواف والآلة التي يعبرُ بها على ظهور الدوابّ حتى يجيء إلى الزّاب فيعبر بأثقاله على الأطراف ، ويعبرُ الدوابُّ سباحةً كما أمكنه ، ثم يرسل الأطواف حتى يعبُر في دِجْلة ، ويدخل هو بلاد أرمينيَة؛ وكانت ولاية أرمينيَة إليه ، ثم يصير هو إلى بلاد الخزَر مستأمناً ، ثم يدور من بلاد الخزَر إلى بلاد الترك ، ويرجع من بلاد الترك إلى بلاد أشْرُوسنة ، ثم يستميل الخزَر على أهل الإسلام ، فكان في تهيِئة ذلك ، وطال به الأمر فلم يمكنه ذلك.

وكان قوّاد الأفشين ينوبون في دار أمير المؤمنين كما ينوبُ القوّاد؛ فكان واجن الأشْرُوسنيّ قد جرى بينه وبين من قد اطّلع على أمر الأفشيْن حديث ، فذكر له واجن أنّ هذا الأمر لا أراه يمكن ولا يتمّ؛ فذهب ذلك الرجل الذي سمع قول واجن ، فحكاه للأفشين. وسمع بعض من يميل إلى واجن من خدم الأفشين وخاصته ما قال الأفشين في واجن ، فلما انصرف واجن من النوبة في بعض الليل أتاه فأخبره أنْ قد أُلْقِيَ ذلك إلى الأفشين ، فحذر واجن على نفسه ، فركب من ساعته في جوف الليل حتى أتى دار أمير المؤمنين؛ وقد نام المعتصم؛ فصار إلى إيتاخ ، فقال: إن لأمير المؤمنين عندي نصيحة ، فقال له إيتاخ: أليس الساعة كنتَ ها هنا! قد نام أمير المؤمنين. فقال له واجن: ليس يمكنني أن أصبر إلى غد ، فدقّ إيتاخ الباب على بعض من يُعلم المعتصم بالذي قال واجن ، فقال المعتصم: قل له ينصرف الليلة إلى منزله ، ويبكّر عليّ في غد ، فقال واجن: إن انصرفَت الليلة ذهبت نفسي ، فأرسل المعتصم إلى إيتاخ: بيّتْه الليلة عندك. فبيته إيتاخ عنده؛ فلما أصبح بكَّربه مع صلاة الغداة ، فأوصله إلى المعتصم ، فأخبره بجميع ما كان عنده؛ فدعا المعتصم محمد بن حمَّاد دَنْقَش الكاتب ، فوجّهه يدعو الأفشين ، فجاء الأفشين في سواد ، فأمر المعتصم بأخذ سواده ، وحبَسه ، فحبِس في الجوسق؛ ثم بنى له حبساً مرتفعاً ، وسماه لؤلؤة داخل الجوسق ، وهو يعرف إلى الآن بالأفشين.

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال للحسن بن الأفشين ـ وكان

الحسن قد كثرت كتبه إلى عبد الله بن طاهر في نوح بن أسد ـ يعلمه تحامله على ضياعه وناحيته ، فكتب عبد الله بن طاهر إلى نوح بن أسد يعلمه ما كتب به أمير المؤمنين في أمره ، ويأمره بجمع أصحابه والتأهّب له؛ فإذا قدم عليه الحسن بن الأفشين بكتاب ولايته استوثَق منه ، وحمله إليه. فكتب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن الأفشين يُعلمه أنه عزل نوح بن أسد ، وأنه قد ولاّه الناحية ، ووجّه إليه بكتاب عزل نوح بن أسد.

فخرج الحسن بن الأفشين في قلّة من أصحابه وسلاحه؛ حتى ورد على نوح بن أسد ، وهو يظنّ أنه والي الناحية ، فأخذه نوح بن أسد ، وشدّه وثاقاً ، ووجّه به إلى عبد الله بن طاهر ، فوجه به عبد الله إلى المعتصم ، وكان الحبس الذي بُني للأفشين شبيهاً بالمنارة ، وجعل في وسطها مقدار مجلسه؛ وكان الرجال ينُوبون تحتها كما تدور.

وذُكِر عن هارون بن عيسى بن المنصور ، أنه قال: شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دواد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فأتَى بالأفشين ولم يكن بعد في الحبس الشديد ، فأحضِر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه ، ولم يترك في الدار أحدٌ من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصُرف الناس.

وكان المناظر له محمّد بن عبد الملك الزيات ، وكان الذين أحضرُوا المازيار صاحب طبرستان والموبْذ والمرزبان بن تركش ـ وهو أحد ملوك السُّغد ـ ورجلان من أهل السُّغد؛ فدعا محمد بن عبد الملك بالرَّجُلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك: ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهورهما وهي عارية من اللَّحْم ، فقال له محمد: تعرف هذين؟ قال: نعم؛ هذا مؤذن ، وهذا إمام ، بنَيا مسجداً بأشْروسنَة ، فضربتُ كلَّ واحد منهما ألفَ سوط؛ وذلك أن بيني وبين ملوك السُّغد عهداً وشرطاً ، أن أترك كلَّ قوم على دينهم وما هم عليه؛ فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم ـ يعني أهل أشروسنة ـ فأخرجا الأصنام ، واتّخذاه مسجداً ، فضربتهما على هذا ألفاً ألفاً لتعدّيهما ، ومنعهما القوم من بيعتهم. فقال له محمد: ما كتاب عندك قد زيَّنْتَه بالذهب والجواهر والديباج ، فيه الكفر بالله؟ قال: هذا كتاب ورثْتُه عن أبي ، فيه أدب من آداب العجم؛

وما ذكرت من الكفر؛ فكنت أستمتع منه بالأدب، وأترك ما سوى ذلك، ووجدتُه محلى، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه؛ فتركته على حاله؛ ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مَزْدَك في منزلك؛ فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام.

قال: ثم تقدم المؤبذ، فقال: إن هذا كان يأكل المخنوقة، ويحملني على أكلها، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة؛ وكان يقتل شاة سوداء كلّ يوم أربعاء، يضرب وسطها بالسَّيف يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها. وقال لي يوماً: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كلّ شيء أكرهه؛ حتى أكلتُ لهم الزيت وركبت الجمل، ولَبست النعل؛ غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة - يعني لم يَطَّلِ ولم يختتن.

فقال الأفشين: خَبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام، ثقةٌ هو في دينه؟ - وكان المؤبذ مجوسيّاً أسلم بعدُ على يد المتوكل ونادمه - قالوا: لا، قال: فما معنى قبولكم شهادة مَنْ لا تثقون به ولا تعدلونه! ثم أقبل على الموبذ، فقال: هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كوةَ تطلع عليّ منها وتعرف أخباري منها؟ قال: لا، قال: أفليس كنت أدخلك إليّ وأبثك سري وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟ قال: نعم، قال: فلستَ بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك؛ إذا أفشيت عليّ سرّاً أسررتُه إليك.

ثم تنحّى الموبذ، وتقدّم المرزبان بن تركش، فقالوا للأفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا، فقيل للمرزبان: هَل تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، قالوا له: هذا المرزبان، فقال له المرزبان: يامُمَخْرق، كم تدافع وتموه! قال له الأفشين: يا طويلَ اللحية، ما تقول؟ قال: كيف يكتب إليك أهل مملكتك؟ قال: كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي. قال: فقل، قال: لا أقول، فقال المرزبان: أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى، قال: أفليس تفسيره بالعربية «إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان»، قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا! فما بقّيت لفرعون حين قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾! قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدّي، ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليَّ طاعتهم. فقال له

إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ويحك يا خيذر كيف تحلِف بالله لنا فنصدّقك ونصدق يمينَك ونُجريك مجرى المسلمين، وأنت تدّعي ما ادّعى فرعون! قال: يا أبا الحسين؛ هذه سورة قرأها عُجيف على عليّ بن هشام، وأنت تقرؤها عليّ، فانظر غداً من يقرؤها عليك!.

قال: ثم قدِّم مازيار صاحب طبرِستان، فقالواللأفشين: تعرف هذا؟ قال: لا، قالوا للمازيار: تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، فقالوا له: هذا المازيار؟ قال: نعم، قد عرفتُه الآن، قالوا: هل كاتبتَه؟ قال: لا، قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟ قال: نعم، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهيار؛ أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرُك وغير بابك؛ فأما بابك فإنه بحمْقه قتيلُ نفسِه، ولقد جهدت أن اصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاَّه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم مَنْ يرمُونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس؛ فإن وجّهت إليه لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك، والعربيّ بمنزلة الكلب اطرَحْ له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس؛ وهؤلاء الذباب ـ يعني المغاربة ـ إنما هم أكَلَة رأس، وأولاد الشياطين ـ يعني الأتراك ـ فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامُهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم. فقال الأفشين: هذا يدّعي على أخيه وأخي دعوى لا تَجب عليّ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إليّ ويثق بناحيتي كان غير مستنكَر؛ لأني إذا نصرتُ الخليفة بيدي، كنتُ بالحيلة أحرَى أن أنصره لآخذ بقفاه، وآتي به الخليفة لأحظَى به عنده، كما حظَى به عبد الله بنُ طاهر عند الخليفة. ثم نحّى المازيار.

ولما قال الأفشين للمرزبان التركَشيّ ما قال، وقال لإسحاق بن إبراهيم ما قال، زجر ابن أبي دواد الأفشين، فقال له الأفشين: أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك، فلا تضعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة، فقال له ابن أبي دواد: أمطهّر أنت؟ قال: لا، قال: فما منعك من ذلك، وبه تمام الإسلام، والطهور من النجاسة! قال: أوَ ليس في دين الإسلام استعمال التقيّة؟ قال: بلى، قال: خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت، قال: أنت تطعن بالرمح، وتضرب بالسيف، فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب وتجزع من قطع

قَلفة! قال: تلك ضرورة تعنيني فأصبر عليها إذا وقعتْ؛ وهذا شيء أستجلبه فلا آمنُ معه خروج نفسي ، ولم أعلم أن في تركها الخروجَ من الإسلام ، فقال ابن أبي دواد: قد بان لكم أمره يا بغا ـ لبغا الكبير أبي موسى التركّي ـ عليك به! .

قال: فضرب بيده بغا على منطقته فجذَبها ، فقال قد كنت أتوقّع هذا منكم قبل اليوم ، فقلبَ بغا ذَيْل القبَاء على رأسه ، ثم أخذَ بمجامع القبَاء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزيريّ إلى محبسه.

* * *

وفي هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وأترنجه بنت أشناس إلى سامراء.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود(١).

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[خبر وثوب عليّ بن إسحاق برجاء بن أبي الضحاك].

فمن ذلك ما كان فيها من وثوب عليّ بن إسحاق بن يحيى بن معاذ ـ وكان على المعُونة بدمشق من قبَل صول أرتكين ـ برجاء بن أبي الضحاك؛ وكان على الخراج ، فقتله ، وأظهر الوسواس ، ثم تكلم أحمد بن أبي دواد فيه ، فأطلق من

---

(١) وكذلك قال خليفة في تأريخه (٣١٧) وقال البسوي حجّ بنا محمد بن دواد بن عيسى [المعرفة والتأريخ ١/ ٧٠].

محبسه ، فكان الحسن بن رجاء يلْقاه في طريق سامراء ، فقال البحتريّ الطائيّ :

عَفَا عليُّ بنُ إسحاق بفتكَتِهِ ... على غرَائِب تِيهٍ كنَّ في الحسَنِ
أَنْسَتهُ تَنقِيعَهُ في اللفظ نازلةٌ ... لم تُبق فيه سوى التسليمِ للزمن
فلم يكن كابنِ حُجْرٍ حين ثار ولا ... أَخي كليبٍ ولا سيفِ بن ذي يزنِ
ولم يُقَلْ لك في وِترٍ طلبتَ به ... تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لَبنِ

* * *

وفيها مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، فصلّى عليه المعتصم في دار محمد .

* * *

[ذكر الخبر عن موت الأفشين](1)

وفيها مات الأفشين .

ذكر الخبر عن موته وما فُعل به عند موته وبعده

ذكر عن حمدون بن إسماعيل ، أنه قال : لما جاءت الفاكهة الحديثة ، جمع المعتصم من الفواكه الحديثة في طبَق، وقال لابنه هارون الواثق : اذهب بهذه الفاكهة بنفسك إلى الأفشين ، فأدخلها إليه ، فحمِلت مع هارون الواثق حتى صعد بها إليه في البناء الذي بُني له الذي يسمى لؤلؤة؛ فحُبِس فيه؛ فنظر إليه الأفشين ، فافتقد بعضَ الفاكهة؛ إما الإجاص وإما الشاهلوج؛ فقال للواثق : لا إله إلا الله ، ما أحسنه من طبق ، ولكن ليس لي فيه إجّاص ولا شاهلوج! فقال له الواثق : هو ذا ، انصرف أوجِّه به إليك ، ولم يمسّ من الفاكهة شيئاً؛ فلما أراد الواثق الانصراف قال له الأفشين : أقرىء سيدي السلام ، وقل له : أسألك أن

---

(١) وكذلك ذكر ابن الجوزي وفاته ضمن وفيات سنة (٢٢٦هـ) وروى عن أبي بكر الصولي الأخباري : قال : مات في الحبس وصلب بعد ذلك بباب العامة في شعبان [المنتظم ١١/١١٢].

توجّه إليّ ثقة من قبلَك يؤدي عني ما أقول ، فأمر المعتصم حمدون بن إسماعيل ـ وكان حمدون في أيام المتوكل في حبس سليمان بن وهب في حبس الأفشين هذا؛ فحدّث بهذا الحديث وهو فيه:

قال حمدون: فبعث بي المعتصم إلى الأفشين ، فقال لي: إنه سيُطَوّلُ عليك فلا تحتبس ، قال: فدخلت عليه ، وطبق الفاكهة بين يديه لم يمسّ منه واحدةً فما فوقها ، فقال لي: اجلس ، فجلست فاستمالني بالدهقنة ، فقلت: لا تُطوّل؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ ألاّ أحتبس عندك ، فأوجزْ ، فقال: قل لأمير المؤمنين؛ أحسنتَ إليّ وشرّفتَني ، وأوطأت الرّجال عَقِبي ، ثم قبلْتَ فيّ كلاماً لم يتحقّق عندك؛ ولم تتدبّرْه بعقلك؛ كيف يكون هذا ، وكيف يجوز لي أن أفعل هذا الذي بلغك! تخبرَ بأني دَسستُ إلى مَنكجور أن يخرج ، وتقبله ، وتخبَر أني قلت للقائد الذي وجهته إلى مَنكجور: لا تحاربه ، واعْذِرْ ، وإن أحسست بأحد منا فانهزم من بين يديه؛ أنت رجل قد عرفتَ الحرب ، وحاربت الرجال ، وسُسْتَ العساكر؛ هذا يمكن رأس عسكر يقول لجند يلقون قوماً: افعلوا كذا وكذا؛ هذا ما لا يسوغ لأحد أن يفعله؛ ولو كان هذا يمكن ما كان ينبغي أن تقبله من عدوّ قد عرفت سببه؛ وأنت أوْلى بي ، إنما أنا عبد من عبيدك ، وصنيعك؛ ولكن مَثَلِي ومثلك يا أمير المؤمنين مَثَل رجل ربَّى عِجْلا له حتى أسمنه وكَبِر ، وحسنت حالُه ، وكان له أصحاب اشتهوا أن يأكلوا من لحمه ، فعرّضوا له بذبح العِجْل فلم يجبهم إلى ذلك ، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم: ويحك! لمَ تُربِّي هذا الأسد؟ هذا سبُع ، وقد كبر ، والسَّبُع إذا كبر يرجع إلى جنسه! فقال لهم: ويحك هذا عجل بقر ، ما هو سبع ، فقالوا: هذا سبع؛ سلْ مَنْ شئت عنه؛ وقد تقدموا إلى جميع من يعرفونه ، فقالوا له: إن سألكم عنِ العِجْل ، فقولوا له: هذا سبع؛ فكلما سأل الرّجل إنساناً عنه ، وقال له: أَما ترى هذا العِجْل ما أحسنه! قال الآخر: هذا سبع؛ هذا أسد ، ويحك! فأمر بالعجل فذُبح؛ ولكني أنا ذلك العِجْل ، كيف أقدر أن أكون أسداً! الله الله في أمري؛ اصطنعتني وشرّفتَنِي وأنت سيدي ومولاي ، أسأل الله أن يعطف بقلبك عليّ.

قال حمدون: فقمت فانصرفت ، وتركت الطَّبَق على حاله لم يمسّ منه شيئاً ، ثم ما لبثنا إلا قليلاً؛ حتى قيل: إنه يموت أو قد مات؛ فقال المعتصم: أروه

ابنَه ، فأخرجوه فطرحوه بين يديه ، فنتف لحيتَه وشعرَه ، ثم أمر به فحمل إلى منزل إيتاخ .

قال: وكان أحمد بن أبي دواد دعا به في دار العامة من الحبس ، فقال له: قد بلغ أمير المؤمنين أنك يا خيذر ، أقلف ، قال: نعم ، وإنما أراد ابن أبي دواد أن يشهد عليه؛ فإن تكشف نُسب إلى الخَرع؛ وإن لم يتكشف صحّ عليه أنه أقلف ، فقال: نعم أنا أقلف؛ وحضر الدار ذلك اليوم جميع القوّاد والناس؛ وكان ابن أبي دواد أخرجه إلى دار العامّة قبل مصير الواثق إليه بالفاكهة ، وقبل مصير حمدون بن إسماعيل إليه .

قال حمدون: فقلت له: أنت أقلف كما زعمت؟ فقال الأفشين: أخرجني إلى مثل ذلك الموضع ، وجميع القواد والناس قد اجتمعوا ، فقال لي ما قال؛ وإنما أراد أن يفضحني؛ إن قلت له: نعم لم يقبل قولي ، وقال لي: تكشَّف ، فيفضحني بين الناس؛ فالموت كان أحبّ إليّ من أن أتكشّف بين أيدي الناس؛ ولكن يا حمدون إن أحببتَ أن أتكشَّف بين يديك حتى تراني فعلتُ؛ قال حمدون: فقلت له: أنت عندي صدُوق؛ وما أريد أن تكشَف .

فلما انصرف حمدون فأبلغ المعتصم رسالتَه . أمر بمنع الطعام منه إلاّ القليل؛ فكان يدفع إليه في كلّ يوم رغيف حتى مات؛ فلما ذُهِب به بعد موته إلى دار إيتاخ ، أخرجوه فصلبُوه على باب العامّة ليراه الناس ، ثم طُرِح بباب العامة مع خشبته؛ فأحرِق وحُمِل الرّماد ، وطرح في دِجْلة .

وكان المعتصم حين أمر بحبسه وجّه سليمان بن وهب الكاتب يحصي جميع ما في دار الأفشين ويكتُبه في ليلة من الليالي ، وقصر الأفشين بالمطيرة ، فوُجِد في داره بيت فيه تمثال إنسان من خشب ، عليه حلية كثيرة وجوهر ، وفي أذنيه حجران أبيضان مشتبكان؛ عليهما ذهب ، فأخذ بعض مَنْ كان مع سليمان أحد الحجرين؛ وظنّ أنه جوهر له قيمة؛ وكان ذلك ليلاً ؛ فلما أصبح ونزع عنه شباك الذّهب ، وجده حجراً شبيهاً بالصَّدَف الذي يسمى الحبرون ، من جنس الصَّدَف الذي يقال له البُوق ، من صدف أخرج من منزله صُوَر السماجة وغيرها وأصنام وغير ذلك ، والأطواف والخشب التي كان أعدّها؛ وكان له متاع بالوزيريّة ، فوُجد فيه أيضاً صنم آخر ، ووجدوا في كتبه كتاباً من كتب المجوس يقال له زراوه

وأشياء كثيرة من الكُتب؛ فيها ديانته التي كان يدين بها ربه.

وكان موت الأفشين في شعبان من سنة ست وعشرين ومائتين[١].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود[٢] بأمر أشناس وكان أشناس حاجًّا في هذه السنة، فولّى كل بلدة يدخلها فدُعي له على جميع المنابر التي مرّ بها من سامراء إلى مكة والمدينة.

وكان الذي دعا له على منبر الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن موسى، وعلى منبر فَيْد هارون بن محمد بن أبي خالد المروزّوذيّ، وعلى منبر المدينة محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان، وعلى منبر مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى، وسُلّم عليه في هذه الكُور كلها بالإمارة، وكانت له ولايتها إلى أن رجع إلى سامراء.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر خروج أبي حرب المبرقع]

فمن ذلك ما كان من خروج أبي حرب المُبَرقع اليمانيّ بفلسطين وخلافه على السلطان[٣].

---

(١) وهذا ما نقله ابن الجوزي عن أبي بكر الصولي أنه مات في شعبان سنة ست وعشرين ومائتين [المنتظم ١١/ ١١٢].

(٢) وكذلك قال خليفة [٣١٧]

(٣) قال يعقوب بن سفيان سنة سبع وعشرين ومائتين خرج المبرقع بفلسطين مقاتل رجاء الحضاري أهل كفر بطنا [تأريخ دمشق ٦٦/ ١٣٨].
وانظر المنتظم [١١/ ١١٧ ـ ١١٨]، فقد ذكر موجزاً لخبر الطبري الطويل [١١٦/ ١١٨].

*** ذكر الخبر عن سبب خروجه وما آل إليه أمره:**

ذَكَرَ لي بعض أصحابي ممن ذكر أنه خبير بأمره، أنّ سبب خروجه على السلطان كان أنّ بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وفيها إما زوجته وإما أخته، فمانعته ذلك؛ فضربها بسوط كان معه؛ فاتّقته بذراعها، فأصاب السوط ذراعها، فأثّر فيها؛ فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكَتْ إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضَرْبه؛ فأخذ أبو حرب سيفَه ومشى إلى الجنديّ وهو غارّ؛ فضربه به حتى قتله؛ ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف، فصار إلى جبل من جبال الأردنَ؛ فطلبه السلطان فلم يُعرف له خبر؛ وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً؛ فيراه الرائي فيأتيه، فيذكره ويحرّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه؛ فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حرّاثي أهل تلك الناحية وأهل القرى؛ وكان يزعم أنه أمويّ، فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفيانيّ؛ فلما كثرت غاشيته وتبّاعه من هذه الطبقة من الناس، دعا أهل البيُوتات من أهل تلك الناحية؛ فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية؛ منهم رجل يقال له ابن بَيْهس، كان مطاعاً في أهل اليمن ورجلان آخران من أهل دمشق، فاتّصل الخبر بالمعتصم وهو عليل؛ علَّته التي مات فيها؛ فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاريّ في زُهاء ألف من الجند؛ فلما صار رجاء إليه وجده في عالم من الناس.

فذكر الذي أخبرني بقصته أنه كان في زُهاء مائة ألف؛ فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه، وطاوله؛ حتى كان أوّل عمارة الناس الأرضين وحراثتهم، وانصرف مَنْ كان من الحرّاثين مع أبي حرب إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أرضيهم، وبقي أبو حرب في نفر زُهاء ألفٍ أو ألفين؛ ناجزه رجاء الحرب، فالتقى العسكران: عسكر رجاء وعسكر المبرقع؛ فلما التقوْا تأمل رجاء عسكر المبرقع، فقال لأصحابه: ما أرى في عسكره رجلاً له فروسيةغيره، وإنه سيُظهر لأصحابه من نفسه بعض ما عنده من الرُّجلة؛ فلا تعجلوا عليه، قال: وكان الأمر كما قال رجاء؛ فما لبث المبرقَع أن حمل على عسكر رجاء، فقال رجاء لأصحابه: أفرجوا له: فأفرجوا له؛ حتى جاوزهم ثم كرّ راجعاً، فأمر رجاء

أصحابَه أن يُفرجوا له، فأفرجوا له حتى جاوزهم، ورجع إلى عسكر نفسه؛ ثم أمهل رجاء، وقال لأصحابه: إنه سيحمل عليكم مرّة أخرى، فأفرِجوا له؛ فإذا أراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك، وخُذُوه. ففعل المبرقع ذلك، فحمل على أصحاب رجاء، فأفرجوا له حتى جاوزهم، ثمّ كرّ راجعاً فأحاطوا به؛ فأخذوه فأنزلوه عن دابته.

قال: وقد كان قدم على رجاء حين ترك معالجة المبرقَع الحرب من قِبَل المعتصم مستحثٌّ، فأخذ الرسول فقيّده إلى أن كان من أمره، وأمر أبي حرب ما كان مما ذكرنا، ثم أطلقه.

قال: فلما كان يوم قدوم رجاء بأبي حرب على المعتصم، عزله المعتصم على ما فعل برسوله، فقال له رجاء: يا أمير المؤمنين؛ جعلني الله فداك! وجّهتَني في ألف إلى مائة ألف؛ فكرهت أن أعاجله فأهلِك ويهلك مَنْ معي، ولا نغني شيئاً؛ فتمهّلت حتى خفَّ مَنْ معه، ووجدت فرصة، ورأيت لحربه وجهاً وقياماً؛ فناهضته وقد خفَّ مَنْ معه وهو في ضعف، ونحن في قُوّة، وقد جئتك بالرجل أسيراً.

قال أبو جعفر: وأما غير من ذكرت أنه حدثني حديث أبي حرب على ما وصفت؛ فإنه زعم أن خروجه إنما كان في سنة ست وعشرين ومائتين بالرّملة، فقالوا: إنه سفيانيّ، فصار في خمسين ألفاً من أهل اليمن وغيرهم، واعتقد ابن بيهس وآخران معه من أهل دِمشق، فوجّه إليهم، المعتصم رجاء الحضاريّ في جماعة كبيرة، فواقعهم بدمشق؛ فقتِل من أصحاب ابن بيهس وصاحبيه نحواً من خمسة آلاف؛ وأخذ ابن بيهس أسيراً، وقتل صاحبيه، وواقع أبا حَرْب بالرّملة، فقتل من أصحابه نحواً من عشرين ألفاً، وأسر أبا حرب، فحمِل إلى سامراء، فجعل وابن بيهس في المطبق.

* * *

وفي هذه السنة أظهر جعفر بن مهرجش الكرديّ الخلاف، فبعث إليه المعتصم في المحرّم إيتاخ إلى جبال الموصل لحربه، فوثب بجعفر بعض أصحابه فقتله.

وفيها كانت وفاة بشر بن الحارث الحافي في شهر ربيع الأول وأصله من مرْو[١].

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة المعتصم والعلّة التي مات بها]

وفيها كانت وفاة المعتصم وذلك ـ فيما ذكر ـ يوم الخميس، فقال بعضهم: لثماني عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول لساعتين مضتَا من النهار[٢].

*** ذكر الخبر عن العلة التي كانت منها وفاته وقَدْر مدَّة عمره وصفته:**

ذُكر أن بدء علّته أنه احتجم أوّل يوم من المحرم، واعتلّ عندها، فذكر عن محمد بن أحمد بن رشيد عن زُنَام الزامر، قال: قد وجد المعتصم في علته التي توفي فيها إفاقة؛ فقال: هيّئوا إلى الزلال لأركب، فركب وركبت معه، فمرّ في دِجْلة بإزاء منازله، فقال: يا زنام، ازمر لي:

يا منزلاً لم تَبْلَ أَطلالُه ... حاشى لأَطلالك أَن تَبْلَى

لم أَبكِ أَطلالك لكّني ... بَكيْتُ عَيْشي فيك إذ وَلَّى

والعيش أوْلى ما بكاه الفَتى ... لا بدّ للمحزون أَن يَسْلَى

قال: فما زلتُ أزمر هذا الصوت حتى دعا برطليّة، فشرب منها قدحاً وجعلت أزمر وأكررّه؛ وقد تناول منديلاً بين يديه؛ فما زال يبكي ويمسح دموعَه فيه وينتحب؛ حتى رجع إلى منزله، ولم يستتم شرب الرطليّة.

وذكر عن عليّ بن الجعدانة، قال: لما احتُضر المعتصم جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة، حتى أُصْمِتَ.

---

(١) وكذلك قال ابن قتيبة الدينوي: وفي هذا الشهر (أي شهر ربيع الأول) توفي بشر بن الحارث الزاهد [المعارف/ ٢٠٠] وكذلك قال ابن الجوزي في المنتظم(١١/ ١٢٢).

(٢) وقال خليفة بن خياط: وفيها مات المعتصم بالله أمير المؤمنين يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع الواثق هارون بن أمير المؤمنين[تأريخ خليفة/ ٣١٧] وأخرج الخطيب البغدادي عن ابن أبي الدنيا (...: ومات المعتصم بسرّ من رأى يوم الخميس لتسع عشرة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين [تأريخ بغداد/ تر ١٤٥١].

وذكر عن غيره أنه جعل يقول: إني أخِذت من بين هذا الخلق.

وذكر عنه أنه قال: لو علمت أنّ عمري هكذا قصير ما فعلتُ ما فعلت. فلما مات دُفن بسامراء؛ فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين. وقيل: كان مولده سنة ثمانين ومائة في شعبان. وقيل: كان في سنة تسع وسبعين ومائة؛ فإن كان مولده سنة ثمانين ومائة فإنّ عمره كله كان ستّاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وإنْ كان مولده سنة تسع وسبعين ومائة؛ فإنّ عمره كان سبعاً وأربعين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً[١].

وكان - فيما ذُكر - أبيض أصهب اللحية طويلهَا، مربوعاً مشرَب اللون حمرة، حسن العينين.

وكان مولده بالخُلْدِ. وقال بعضهم: وُلد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن.

وهو ثامن الخلفاء، والثامن من ولد العباس، وعمره كان ثمانياً وأربعين سنة.

ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر[٢]. فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

---

(١) أخرج الخطيب عن ابن أبي الدنيا ما يؤيد القول الأول فقال: ولد يوم الإثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة [تأريخ بغداد/ ترا ١٤٥١].

(٢) وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن محمد بن عرفة النحوي: قال (وكان في المعتصم مناقب منها: أنه كان ثامن الخلفاء من بني العباس وثامن أمراء المؤمنين من ولد عبد المطلب وملك ثماني سنين وثمانية أشهر وفتح ثمانية فتوح: بلاد بابك على يد الأفشين وفتح عمورية بنفسه والزط بعجيف وبحر البصرة وقلعة الأحراف وأعراب ديار ربيعة والشاري وفتح مصر وقتل ثمانية أعداء - بابك ومازيار وياطس ورئيس الزنادقة والأفشين وعجيفاً وقارىء وقائد الرافضة [تأريخ بغداد/ ترا ١٤٥].

وقال ابن قتيبة الدينوري: وتوفي أبو إسحاق لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر [المعارف/ ٢٠٠] وقال أبو حنيفة الدينوري: ومات المعتصم بالله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين وصلى عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد وكان المعتصم أوصى إليه بالصلاة عليه، وكانت ولايته ثماني سنين وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً [الأخبار الطوال/ ٤٠٦ - وهو آخر الكتاب].

=

قـد قلـتُ إذ غيبـوك واصطَفَقَـت عليـك أَيـدٍ بـالتُّـرْبِ والطيـنِ
اذهبْ فنِعْم الحَفيظ كنتَ على الدّ نيـا ونعـم الظهيـرُ للـديـنِ
لا جَبـرَ اللهُ أُمـةً فَقَـدَتْ مِثلِـكَ إلا بمثـل هـارون

وقال مَرْوان بن أبي الجنوب وهو ابن حفصة:

أبـو إسحـاقَ مـاتَ ضحـىً فمتنـا وأَمسينـا بهـارون حُيينـا
لئـن جـاءَ الخميـسُ بمـا كـرهنـا لقـد جـاءَ الخميـسُ بمـا هـوينـا

* * *

ذكر الخبر عن بعض أخلاق المعتصم وسيره

ذُكر عن ابن أبي دواد أنه ذكر المعتصم بالله، فأسهب في ذكره، وأكثر في وصفه، وأطنب في فضله، وذكرَ من سعة أخلاقه وكرَمَ أعراقه وطيب مرْكَبِه ولين جانبه، وجميل عشرته؛ فقال: قال لي يوماً ونحن بعمُّوريّة: ما تقول في البُسْر يا أبا عبد الله؟ قلت: يا أمير المؤمنين؛ نحن ببلاد الروم والبُسر بالعراق؛ قال: صدقت قد وجَّهت إلى مدينة السلام، فجاءوا بكِبَاستَيْن، وعلمت أنك تشتهيه. ثم قال: يا إيتاخ، هات إحدى الكِبَاستين، فجاء بكباسة بُسْر، فمد ذراعه، وقبض عليها بيده، وقال: كُلْ بحياتي عليك من يدي، فقلت: جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين! بل تضعها فآكل كما أريد، قال: لا والله إلاّ من يدي، قال: فو الله ما زال حاسراً عن ذراعه، ومادّاً يده، وأنا أجتني من العِذْق، وآكلُ حتى رمى به خالياً ما فيه بُسرة.

قال: وكنت كثيراً ما أزامله في سفره ذلك؛ إلى أن قلت له يومياً: يا أمير المؤمنين، لو زاملك بعضُ مواليك وبطانتك فاسترحتَ مني إليهم مرّة، ومنهم إليّ مرة أخرى، كان ذلك أنشط لقلبك، وأطيب لنفسك، وأشدّ لراحتك؛ قال: فإنّ سِيما الدمشقيَ يزاملني اليوم، فمن يزاملك أنت؟ قلت: الحسن بن يونس، قال: فأنت وذاك. قال: فدعوت الحسن فزاملني. وتهيّأ أن ركب المعتصم بغلا، فاختار أن يكون منفرداً، قال: فجعل يسير بسير بعيري؛ فإذا أراد أن يكلمني رفع

= وهذا يعني أن المؤرخين والأخباريين المتقدمين اتفقوا على أنه توفي سنة ٢٢٧هـ في شهر ربيع الأول مع اختلافهم لإحدى عشرة بقيت من الشهر ومع فارق يسير لا يضر والله أعلم.

رأسه إليّ ، وإذا أردتُ أن أكلمه خفضت رأسي؛ قال: فانتهينا إلى وادٍ ولم نعرف غَوره؛ وقد خلَّفنا العسكر وراءنا ، فقال لي: مكانَك حتى أتقدّم. فأعرف غَوْر الماء وأطلب قلته ، واتبع أنت موضع سيري ، قال: فتقدّم فدخل الوادي ، وجعل يطلب قلة الماء ، فمرّة ينحرف عن يمينه ، ومرّة ينحرف عن شماله ، وتارة يمشي لسنَنِهِ ، وأنا خلفه متبع لأثره حتى قطعنا الوادي.

قال: واستخرجت منه لأهل الشاش ألفي ألف درهم لكرْى نهرٍ لهم اندفن في صدر الإسلام؛ فأضرّ ذلك بهم ، فقال لي: يا أبا عبد الله ، ما لي ولك؛ تأخذ مالي لأهل الشاش وَفَرْغانة! قلت: هم رعيَّتك يا أمير المؤمنين ، والأقصى والأدنى في حُسن نظر الإمام سواءٌ[1].

وقال غيره إنه إذا غضب لا يبالي مَن قتل ولا ما فعل.

وذكر عن الفضل بن مروان أنه قال: لم يكن للمعتصم لَذّة في تزيين البناء؛ وكانت غايته فيه الإحكام. قال: ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنّفقة في الحرب.

وذكر محمد بن راشد ، قال: قال لي أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم: دعاني أمير المؤمنين المعتصم يوماً ، فدخلت عليه وعليه صُدرة وشْيٍ ومنطقة ذهب وخفّ أحمر ، فقال لي: يا إسحاق ، أحببت أن أضرب معك بالصوالجة؛ فبحياتي عليك إلاَّ لبستَ مثل لباسي؛ فاستعفيتُه مِنْ ذلك فأبى ، فلبست مثل لباسه ، ثم قُدّم إليه فرس محلاّة بحلية الذهب ، ودخلنا الميْدان ، فلما ضرب ساعة ، قال لي: أراك كسلان ، وأحسبك تكره هذا الزّيّ ، فقلت: هو ذاك يا أمير المؤمنين ، فنزل وأخذ بيدي ، ومضى يمشي وأنا معه إلى أن صار إلى حجرة الحمّام ، فقال: خذ ثيابي يا إسحاق؛ فأخذت ثيابَه حتى تجردَّ ، ثم أمرني بنزع ثيابي ففعلت؛ ثم دخلنا أنا وهو الحمَّام؛ وليس معنا غلام؛ فقمت عليه ودلكته ، وتولى أمير المؤمنين المعتصم مني مثل ذلك، وأنا في كل ذلك أستعفيه، فأبى عليّ، ثم خرج من الحمّام فأعطيته ثيابَه ، ولبست ثيابي ، ثم أخذ

---

(١) ابن أبي داود معتزلي خبيث رأس من رؤوس البدعة والضلالة ولا قيمة لأخباره ـ سواء مدح أو ذم شخصاً ما.

بيدي ومضى يمشي؛ وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فقال: يا إسحاق؛ جئني بمصلّىً ومخدّتين ، فجئته بذلك ، فوضع المخدّتين ، ونام على وجهه، ثم قال: هات مصلّىً ومخدتين، فجئت بهما، فقال: ألقه ونم عليه بحذائي، فحلفت ألاّ أفعلَ ، فجلست عليه ، ثم حضر إيتاخ التركيّ وأشناس ، فقال لهما: امضيا إلى حيث إذا صحت سمعتما ، ثم قال: يا إسحاق ، في قلبي أمر أنا مفكّر فيه منذ مدّة طويلة؛ وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيَه إليك ، فقلت: قل يا سيدي يا أمير المؤمنين؛ فإنما أنا عبدك وابن عبدك ، قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعةً أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلحْ أحدٌ منهم؛ قلت: ومَن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين؛ فقد رأيتُ وسمعتُ ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرّجل الذي لم يُرَ مثله ، وأنت ، فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد! وأنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيتَ إلى ما صار أمْرُه ، وأشناس ففشل آيه وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه: فقلت: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك! أجيب على أمانٍ من غضبكِ، قال: قل ، قلت: يا أمير المؤمنين أعزّك الله نظر أخوك إلى الأصول؛ فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها، قال: يا إسحاق لمقاساةُ ما مرّ بي في طول هذه المدّة أسهلُ عليّ من هذا الجواب.

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، أنه قال: أتيتُ أمير المؤمنين المعتصم بالله يوماً وعنده قينة كان معجَباً بها ، وهي تغنِّيه ، فلما سلّمتُ وأخذت مجلسي ، قال لها: خذي فيما كنت فيه ، فغنّت فقال لي: كيف تراها يا إسحاق؟ قلت: يا أمير المؤمنين ، أراها تقهره بحذْق وتختله برفْق ، ولا تخرج من شيء إلاّ إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور أحسن من نظم الدرّ على النحور ، فقال: يا إسحاق ، لَصفتُك لها أحسن منها ومن غنائها ، وقال لابنه هارون: اسمع هذا الكلام[1] . .

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أنه قال: قلت للمعتصم في شيء ،

---

(١) إسحاق الموصلي شاعر أديب بليغ غلب عليه الغناء ومتى كان المغنون عدولاً تؤخذ أخبارهم مأخذ الجد بل محل أخبارهم المناسب كتاب الأغاني لصاحبه الشعوبي المعروف

فقال لي: يا إسحاق؛ إذا نصر الهوى بطل الرّأي؛ فقلت له: كنت أحبّ يا أمير المؤمنين أن يكون معي شبابي؛ فأقوم مِنْ خدمتك بما أنويه، قال لي: أوَلست كنت تبلغ إذ ذاك جهدك؟ قلت: بلى، قال: فأنت الآن تبلغ جهدك فسيّان إذاً.

وذكر عن أبي حسان أنه قال: كانت أمّ أبي إسحاق المعتصم من مولّدات الكوفة يقال لها ماردة.

وذكر عن الفضل بن مروان، أنه قال: كانت أمّ المعتصم ماردة سُغديّة، وكان أبوها نشأ بالسَّواد، قال: أحسبه بالبَنْدَنيجين.

وكان للرشيد من ماردة مع أبي إسحاق، أبو إسماعيل، وأمّ حبيب، وآخران لم يُعرف اسماهما.

وذكر عن أحمد بن أبي دواد أنه قال: تصدّق المعتصم ووهب على يدي وبسببي بقيمة مائة ألف ألف درهم.

* * *

خلافة هارون الواثق أَبي جعفر

وبُويع في يَوم تُوُفِّيَ المعتصم ابنه هارون الواثق بن محمد المعتصم، وذلك في يوم الأربعاء لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين وكان يكنى أبا جعفر، وأمه أمّ ولد رومية تسمى قراطيس[١].

وهلك هذه السنة توفيل ملك الروم وكان ملكه اثنتي عشرة سنة.

وفيها ملكت بعده امرأته تذورة، وابنها ميخائيل بن توفيل صبيّ[٢].

* * *

---

(١) هذا سَهو من الطبري فقد قال عند حديثه عن وفاة المعتصم توفي يوم الخميس لثمان عشرة ليلة خلت من ربيع الأول بينما قال هنا: يوم الأربعاء لثمان ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول والأول أصوب (يوم الخميس) ولعل ثمان تصحيف أو خطأ مطبعي والصواب (ثماني عشرة) والله أعلم، فقال ابن قتيبة الدينوري وبويع لهارون الواثق بالله يوم قبض أبوه [المعارف/ ٢٠٠].

(٢) لهذين الخبرين القصيرين انظر المنتظم (١١/ ١١٩).

وحجّ بالناس فيها جعفر بن المعتصم[1] ، وكانت أم الواثق خرجت معه تريد الحج ، فماتت بالحيرة لأربع خلوْن من ذي القعدة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من الواثق إلى أشناس أن توّجه وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان[2].

وفيها مات أبو الحسن المدائنّي في منزل إسحاق بن إبراهيم الموصليّ[3].

وفيها مات حبيب بن أوس الطائيّ أبو تمام الشاعر[4].

وفيها حجّ سليمان بن عبد الله بن طاهر.

وفيها غلا السعر بطريق مكة ، فبلغ رطل خبز بدرهم وراوية ماء بأربعين درهماً. وأصاب الناس في الموقف حرّ شدّيد ، ثم مطر شديد فيه برد، فأضرَّ بهم شدة الحر ثم شدة البرد في ساعة واحدة ، ومُطروا بمنىً في يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة قتلت عدّة من الحاج[5].

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود[6].

* * *

---

(١) وكذلك قال خليفة حج جعفر (تأريخ خليفة/ ٣١٨).

(٢) انظر المنتظم (١١/ ١٢٩).

(٣) هذا غير صحيح فالذي عليه أصحاب التراجم أنه توفي سنة ٢٢٤هـ أو ٢٢٥هـ واختار ابن الجوزي الأول أي (٢٢٤هـ) بينما ذكره الحافظ ابن كثير ضمن وفيات سنة (٢٢٥هـ).

(٤) انظر المنتظم (١١/ ١٢٩).

(٥) انظر المنتظم (١١/ ١٢٩).

(٦) وكذلك قال البسوي في المعرفة (١/ ٧٢) وخليفة في تأريخه (٣١٨).

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن حبس الواثق الكتّاب وإلزامهم الأموال] .[1]

فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتّاب وإلزامهم أموالاً ، فدفع أحمد بن إسرائيل إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ صاحب الحرس ، وأمر بضربه كلّ يوم عشرة أسواط ؛ فضربه ـ فيما قيل ـ نحواً من ألف سوط ، فأدّى ثمانين ألف دينار . وأخذ من سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار . وأخذ من أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار ، ومن إبراهيم بن رَباح وكتابه مائة ألف دينار ، ومن نَجَاح ستين ألف دينار ، ومن أبي الوزير صلحاً مائة ألف وأربعين ألف دينار ؛ وذلك سوى ما أخذ من العمّال بسبب عمَالاتهم . ونصب محمد بن عبد الملك لابن أبي دواد وسائر أصحاب المظالم العداوة ، فكُشفوا وحبُسوا ، وأجلس إسحاق بن إبراهيم ؛ فنظر في أمرهم وأقيموا للناس ولقوا كلّ جهد .

ذكر الخبر عن السبب الذي بعث الواثق على فعله ما ذكرت بالكتّاب في هذه السنة:

ذكر عن عزون بن عبد العزيز الأنصاريّ ، أنه قال : كنّا ليلةً في هذه السنة عند الواثق ، فقال : لست أشتهي الليلة النبيذ ، ولكن هلمّوا نتحدث الليلة ؛ فجلس في رِواقة الأوسط في الهارونيّ في البناء الأول الذي كان إبراهيم بن رَبَاح بناه ؛ وقد كان في أحد شقي ذلك الرّواق قُبّةٌ مرتفعة في السماء بيضاء ، كأنها بيضة إلا قدْر ذراع ـ فيما ترى العين ـ حولها في وسطها ساج منقوش مغشّي باللازوزْد

(١) انظر المنتظم (١١/ ١٤٤).

والذّهب، وكانت تسمّى قبة المنطقة؛ وكان ذلك الرواق يسمّى رواق قبّة المنطقة.

قال: فتحدَّثنا عامة الليل، فقال الواثق: مَنْ منكم يعلم السبب الذي به وثب جدي الرشيد على البرامكة فأزال نعمتهم؟ قال عزّون: فقلت: أنا والله أحدّثك يا أميرَ المؤمنين، كان سبب ذلك أن الرشيد ذُكرت له جارية لعوْن الخياط، فأرسل إليها فاعترضها، فرضيَ جمالها وعقلَها وحسن أدبها، فقال لعون: ما تقول في ثمنها؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، أمر ثمنها واضح مشهور؛ حلفتُ بعتقها وعتق رقيقي جميعاً وصدقة مالي الأيمان المغلظة التي لا مخرج منها لي، واشهدت عليّ بذلك العدول ألاّ أنقص ثمنها عن مائة ألف دينار، ولا أحتال في ذلك بشيء من الحِيل، هذه قضيتها. فقال أمير المؤمنين: قد أخذتها منك بمائة ألف دينار، ثم أرسل إلى يحيى بن خالد يخبره بخبر الجارية، ويأمره أن يرسل إليه بمائة ألف دينار، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء؛ إذا اجترأ في ثمن جارية واحدة على طلب مائة ألف دينار فهو أحْرَى أن يطلب المال على قدر ذلك؛ فأرسل يخبره أنه لا يقدر على ذلك، فغضب عليه الرّشيد، وقال: ليس في بيت مالي مائة ألف دينار، فأعاد عليه: لا بدّ منها. فقال يحيى: اجعلوها دراهم، ليراها فيستكثرها، فلعله يردّها، فأرسل بها دراهم، وقال: هذه قيمة مائة ألف دينار، وأمر أن تُوضع في رواقة الذي يمرّ فيه إذا أراد المتوضّأ لصلاة الظهر. قال: فخرج الرّشيد في ذلك الوقت؛ فإذا جبل من بِدَر، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثمن الجارية، لم تحضر دنانير، فأرسل قيمتها دراهم، فاستكثر الرشيد ذلك، ودعا خادماً له، فقال: اضمم هذه إليك، واجعل لي بيت مال لأضمّ إليه ما أريده وسمّاه بيت مال العروس، وأمر بردّ الجارية إلى عون، وأخذ في التفتيش عن المال، فوجد البرامكة قد استهلكوه، فأقبل يهمّ بهم ويمسك؛ فكان يرسل إلى الصحابة وإلى قوم من أهل الأدب من غيرهم فيسامرهم، ويتعشّى معهم؛ فكان فيمن يحضر إنسان كان معروفاً بالأدب، وكان يعرف بكنيته يقال له أبو العُود؛ فحضر ليلةً فيمن حضره، فأعجبه حديثه؛ فأمر خادماً له أن يأتيَ يحيى بن خالدإذا أصبَحَ، فيأمره أن يعطيَه ثلاثين ألف درهم. ففعل، فقال يحيى لأبي العود: أفعلُ؛ وليس بحضرتنا اليوم مال، غداً يجيء المال، ونعطيك إن

شاء الله. ثم دافعه حتى طالت به الأيام، قال: فأقبل أبو العود يحتال أن يجد من الرشيد وقتاً يحرّضه فيه على البرامكة ـ وقد كان شاع في الناس ما كان يهمّ به الرشيد في أمرهم ـ فدخل عليه ليلةً، فتحدّثوا، فلم يزل أبو العود يحتال للحديث حتى وصله بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعَدتْ هندٌ وما كانت تَعِدْ ليتَ هنداً أَنْجَزَتنا ما تَعِدْ
واسْتَبَدَّتْ مرَّة واحدةً إنما العاجز مَن لا يَسْتَبِدَ

فقال الرشيد: أجل والله؛ إنما العاجز من لا يستبدّ، حتى انقضى المجلس وكان يحيى قد اتخذ من خدم الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، وأصبح يحيى غادياً على الرَّشيد، فلما رآه قال: قد أردت البارحة أن أرسل إليك بشعرٍ أنشدنيه بعضُ مَنْ كان عندي، ثم كرهت أن أزعجك، فأنشده البيتين، فقال: ما أحسنَهما يا أمير المؤمنين! وفطن لما أراد، فلما انصرف أرسل إلى ذلك الخادم، فسأله عن إنشاد ذلك الشعر؛ فقال؛ أبو العود أنشده، فدعا الوزير يحيى بأبي العود، فقال له: إنا كنا قد لويناك بمالك، وقد جاءنا مال، ثم قال لبعض خدمه: اذهب فأعطه ثلاثين ألف درهم من بيت مال أمير المؤمنين، وأعطه من عندي عشرين ألف درهم لمُطْلنا إياه، واذهب إلى الفضل وجعفر فقل لهما هذا رجل مستحقّ أن يبرّ، وقد كان أمير المؤمنين أمر له بمال فأطلْت مطله، ثم حضر المال؛ فأمرت أن يعطى ووصلتُه من عندي صِلة، وقد أحببت أن تصلاه، فسألا: بكَم وصله قال: بعشرين ألف درهم؛ فوصله كلّ واحد منهما بعشرين ألف درهم؛ فانصرف بذلك المال كله إلى منزله. وجدّ الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم، وأزال نعمتهم، وقتل جعفراً وصنع ما صنع.

فقال الواثق: صدق والله جدي؛ إنما العاجز من لا يستبدّ! وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها.

قال عزُّون: أحسبه: سيوقع بكتّابه، فما مضى أسبوع حتى أوقع بكتّابه، وأخذ إبراهيم بن رباح وسليمان بن وهب وأبا الوزير وأحمد بن الخصيب وجماعتهم، قال: وأمر الواثق بحبس سليمان بن وَهْب كاتب إيتاخ، وأخذه بمائتي ألف درهم ـ وقيل دينار ـ فقيد وألبس مَدْرعة من مدارع الملاحين، فأدّى مائة ألف درهم، وسأل أن يؤخذ بالباقي عشرين شهراً، فأجابه الواثق إلى ذلك،

وأمر بتخلية سبيله وردّه إلى كتابة إيتاخ ، وأمره بلبس السواد .

* * *

وفي هذه السنة وَلِيَ شارباميَان لإيتاخ اليمن وشَخص إليها في شهر ربيع الآخر .

وفيها وَلِيَ محمد بن صالح بن العباس المدينة[١] .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود[٢] .

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر مسير بغا إلى الأعراب بالمدينة]

فمن ذلك ما كان من توجيه الواثق بُغا الكبير إلى الأعراب الذين عاثوا بالمدينة وما حواليها[٣] .

* **ذكر الخبر عن ذلك :**

ذكر أن بدء ذلك كان أن بني سُليم كانت تطاول على الناس حول المدينة بالشرّ ، وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاءوا ، ثم ترقّى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالحجاز بناس من بني كنانة وباهلة ، فأصابوهم وقَتلوا بعضهم ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ، وكان رأسهم عُزيزة بن قطّاب السُّلَمِيّ . فوجّه إليهم محمدُ بن صالح بن العباس الهاشميّ ؛ وهو يومئذ عامل المدينة ؛ مدينة الرسول ﷺ حمادَ بن جرير الطبريّ ـ وكان الواثق وجّه

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ١٤٤) .

(٢) وكذلك قال خليفة [تأريخ خليفة/٣١٨] والبسوي في المعرفة (١/ ٧٢) ولم يذكر من وقائع هذه السنة سوى الحج .

(٣) انظر المنتظم (١١/ ١٤٤) .

حماداً مسلحةً للمدينة لئلاّ يتطرقهّا الأعراب ، في مائتي فارس من الشاكريّة ـ فتوجّه إليهم حمّاد في جماعة من الجند ومَنْ تطوّع للخروج من قريش والأنصار ومواليهم وغيرهم من أهل المدينة ؛ فسار إليهم فلقيتْه طلائعهم . وكانت بنو سليم كارهة للقتال ، فأمر حماد بن جرير بقتالهم ، وحمل عليهم بموضع يقال له الرّوَيْثة من المدينة على ثلاث مراحل ؛ وكانت بنو سليم يومئذ وأمدادها جاءوا من البادية في ستمائة وخمسين ، وعامة مَنْ لقيَهم من بني عَوْف من بني سُلَيم ، ومعهم أشهب بنُ دُوَيكل بن يحيى بن حمير العوفيّ وعمه سلمَة بن يحيى وعُزيزة بن قطَّاب اللَّبيديّ من بني لبيد بن سُليم ؛ فكان هؤلاء قوّادهم ، وكانت خيلهم مائة وخمسين فرساً ، فقاتلهم حماد وأصحابه ؛ ثم أتت بني سليم أمدادُها خمسمائة من موضع فيه بَدْوهمْ وهو موضع يسمّى أعلى الرويثة ؛ بينها وبين موضع القتال أربعة أميال ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت سودان المدينة بالناس ؛ وثبت حمّاد وأصحابه وقريش والأنصار ، فصلُوا بالقتال حتى قُتِل حماد وعامة أصحابه ، وقُتل مِمّن ثبت من قريش والأنصار عددٌ صالح ، وحازت بنو سُليم الكُراع والسلاح والثياب ؛ وغلُظ أمر بني سُلَيم ، فاستباحت القرى والمناهل ؛ فيما بينها وبين مكة والمدينة ؛ حتى لم يمكن أحداً أن يسلك ذلك الطريق ؛ وتطرّقوا مَنْ يليهم من قبائل العرب .

فوجّه إليهم الواثق بُغا الكبير أبا موسى التركيّ في الشاكريّة والأتراك والمغاربة ، فقدِمها بُغا في شعبان سنة ثلاثين ومائتين ، وشخص إلى حَرّة بني سليم ، لأيام بقين من شعبان ؛ وعلى مقدّمته طردوش التركيّ ، فلقيهم ببعض مياه الحَرّة ؛ وكانت الوقعة بشقّ الحرّة من وراء السُّوارقيَّة ، وهي قريتهم التي كانوا يأوون إليها ـ والسوارقية حصون ـ وكان جُلّ من لقيه منهم من بني عوف فيهم عُزيزة بن قطَّاب والأشهب ـ وهما رأسا القوّاد يومئذ ـ فقتَل بُغا منهم نحواً من خمسين رجلاً ، وأسر مثلهم ؛ فانهزم الباقون ، وانكشف بنو سليم لذلك ؛ ودعاهم بُغا بعد الوقعة إلى الأمان على حُكْم أمير المؤمنين الواثق ، وأقام بالسوارِقيَّة فأتوْه ، واجتمعوا إليه ، وجمعهم من عشرة واثنين وخمسة وواحد ، وأخذ مَن جمعت السوارقيّة من غير بني سليم من أفناء الناس ، وهربت خُفَاف بني سُلَيم إلاّ أقلها ، وهي التي كانت تؤذي الناس ، وتطرّق الطريق ، وجلّ مَنْ صار

فيِ يده ممّن ثبت من بني عَوْف ، وكان آخر من أخذ منهم من بني حُبْشيّ من بني سُلَيم ، فاحتبس عنده من وُصف بالشرّ والفساد؛ وهم زُهاء ألف رجل ، وخلّى سبيلَ سائرهم؛ ثم رحل عن السوارقيّة بمَن صار في يده من أسارى بني سُلَيم ومستأمنيهم إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين ومائتين ، فحبسهم فيها في الدّار المعروفة بيزيد بن معاوية ، ثم شخص إلى مكة حاجّاً في ذي الحجة؛ فلمّا انقضى الموسم انصرف إلى ذات عِرْق ، ووجه إلى بني هلال مَنْ عرض عليهم مثل الذي عَرض على بني سُلَيم فأقبلوا ، فأخذ من مَردتهم وعُتاتهم نحواً من ثلاثمائة رجل ، وخلَّى سائرهم ، ورجع من ذات عِرْق وهي على مرحلة من البستان ، بينها وبين مكة مرحلتان.

* * *

[ذكر الخبر عن وفاة عبد الله بن طاهر]

وفي هذه السنة مات أبو العباس عبد الله بن طاهر بنيسابور يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول بعد موت أشناس التركيّ بتسعة أيام ومات عبد الله بن طاهر وإليه الحرب والشرطة والسّواد وخُراسان وأعمالها والريّ وطبرستان وما يتصل بها وكِرْمان ، وخراج هذه الأعمال كان يوم ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولّى الواثق أعمال عبد الله بن طاهر كلها ابنه طاهراً[(١)].

وحجّ في هذه السنة إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، فولِي أحداث الموسم[(٢)].

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود[(٣)].

---

(١) انظر تأريخ بغداد (٩/ ٤٨٣). أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٥).

(٢) انظر الخبر الآتي.

(٣) قال البسوي وحجّ بنا محمد بن داود بن عيسى [المعرفة ١/ ٧٢] وقال خليفة وحج في هذه السنة محمد بن داود [تأريخ خليفة/ ٣١٨] وقال البسوي في موضع آخر: وافيتُ الموسم من مصر وخرج ابن داود فتلقى إسحاق بن إبراهيم وأحرم بعمرة ورجع إلى مكة إلى داره ووطنه=

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر الفِداء الذي جرى على يد خاقان الخادم بين المسلمين والرّوم في المحرّم منها، فبلغت عدّة المسلمين - فيما قيل - أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين إنساناً(١).

* * *

[ذكر الخبر عن أمر بني سليم وغيرهم من القبائل]

وفيها قُتِل من قتل مَنْ بني سُليم بالمدينة في حبس بُغا.

* **ذكر الخبر عن سبب قتلهم وما كان من أمرهم:**

ذكر أنّ بُغا لمّا صار إليه بنو هلال بذات عِرْق، فأخذ منهم مَنْ ذكرت أنه أخذ منهم، شخص مُعْتمراً عُمْرة المحرَّم، ثم انصرف إلى المدينة، فجمع كلّ من أخذ من بني هلال واحتبسهم عنده مع الذين كان أخذ من بني سُليم، وجمعهم جميعاً في دار يزيد بن معاوية في الأغلال والأقيْاد وكانت بنو سليم حُبِست قبل ذلك بأشهر. ثم سار بُغا إلى بني مرّة، وفي حبس المدينة نحو من ألف وثلثمائة رجل من بني سُليم وهلال، فنقبوا الدار ليخرجوا، فرأت امرأة من أهل المدينة النَّقْب، فاستصرخت أهل المدينة فجاءوا، فوجدوهم قد وثبوا على الموكَّلين بهم، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين، وخرج بعضهم أو عامّتهم؛ فأخذوا سلاح الموكَّلين بهم، واجتمع عليهم أهل المدينة؛ أحرارهم وعبيدهم - وعامل المدينة يومئذ عبد الله بن أحمد بن داود الهاشميّ - فمنعوهم الخروج، وباتوا محاصريهم حول الدار حتى أصبحوا؛ وكان وثوبهم عشيّة الجمعة؛ وذلك أن عُزيزة بن قَطَّاب قال لهم: إني أتشاءم بيوم السبت؛ ولم يزل أهل المدينة يعتقبون القتال،

= يقصد الصلاة يخرج من الدار إلى المسجد ويصلي ركعتين [المعرفة ١/ ٧٢].

(١) انظر المنتظم (١١/ ١٦٣).

وقاتلتْهم بنو سُليم ، فظهر أهل المدينة عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، وكان عُزيزة يرتجز ، ويقول:

لا بُدَّ مِنْ زَحْم وإن ضاقَ البابْ ... إنـي أَنا عُـزَيزة بـنُ القطَّابْ
لَلموتْ خيرٌ للفتَى من العَابْ ... هـذا وربِّي عمـلٌ لِلبَـوَّابْ

وقيْده في يده قد فكّه ، فرمى به رجلا ، فخرّ صريعاً ، وقُتلوا جميعاً ، وقتلت سودان المدينة مَنْ لقيت من الأعراب في أزقة المدينة ممّن دخل يمتار ، حتى لقوا أعرابيًّا خارجاً من قبر النبي ﷺ فقتلوه؛ وكان أحد بني أبي بكر بن كلاب من ولد عبد العزيز بن زُرارة. وكان بُغا غائباً عنهم؛ فلمّا قدم فوجدهم قد قُتِلوا شقَّ ذلك عليه ، ووجد منه وجداً شديداً.

وذُكر أن البوّاب كان قد ارتشى منهم ، ووعدهم أن يفتح لهم الباب ، فعجلوا قبل ميعاده؛ فكانوا يرتجزون ويقولون وهم يقاتلون:

المـوت خيـرٌ للفتـى مِـنَ العـارْ ... قـد أَخَـذَ البـوابُ أَلْـف دينـارْ

وجعلوا يقولون حين أخذهم بُغَا:

يـا بُغيَـة الخْيـرِ وسَيْـفَ المُنتبِـهْ ... وجـانِـبَ الجـورِ البَعيـدِ المشتَبِـهْ
مَـنْ كـان منـا جـانِبـاً فلسـتُ بِـهْ ... افْعَـلْ هَـدَاك اللهُ مـا أُمـرتَ بـهْ

فقال: أمِرْت أن أقتلَكم. وكان عُزَيزة بن قَطّاب رأس بني سُليم حين قتِل أصحابه صار إلى بئر ، فدخلها ، فدخل عليه رجل من أهل المدينة فقتله ، وصُفَّت القتلى على باب مَرْوان بن الحكم؛ بعضُها فوق بعض.

وحدثني أحمد بن محمد أن مؤذِّن أهل المدينة أذّن ليلةَ حراستهم بني سليم بليل ترهيباً لهم بطلوع الفجر ، وأنهم قد أصبحوا ، فجعل الأعراب يضحكون ، ويقولون: يا شرَبة السَّويق؛ تُعلموننا بالليل ، ونحن أعلم به منكم! فقال رجل من بني سُليم:

متـى كـانَ ابـنُ عبـاسٍ أَميـراً ... يَصِـلُّ لِصَقـلِ نـابيْـهِ صَـرِيـفُ
يجـورُ ولا يُـرَدُّ الجَـوْرُ منـه ... ويسطـو مـا لِـوَقعَتِـهِ ضعيـفُ
وقـد كنـا نَـرُدُّ الجـور عنَّـا ... إذا انتُضِيـتْ بـأَيـدينـا السُّيـوفُ

أَميــرُ المــؤمنيــنَ سَمَــا إلينــا سُمُــوَّ الليــث ثــار مــن الغَـريـفِ
فــإِنْ يَمْنُــنْ فَعَفْــوَ اللهِ نــرجــو وإن يَقتــلْ فقــاتِلنــا شَــريــفُ

وكان سبب غَيْبَـة بُغا عنهم أنـه توجه إلى فَدَك لمحاربة مَنْ فيها ممّن كان تغلّب عليها من بني فزارة ومُرّة؛ فلما شارفهم وجّه إليهم رجلاً من فَزارة يعرض عليهم الأمان ، ويأتيه بأخبارهم ، فلمّا قدم عليهم الفزاريّ حذّرَهم سطوته ، وزيّن لهم الهرب ، فهربوا ودخـلوا في البرّ ، ودخلوا فَدَك إلاّ نفراً بقُوا فيها منهم؛ وكان قصدهم خَيْبَـر وجَنَفاء ونواحيها؛ فظفر ببعضهم ، واستأمن بعضهم ، وهرب الباقون مع رأس لهم يقال له الرّكاض إلى موضع من البلْقاء من عمل دمشق ، وأقام بُغا بجنَفَاء وهي قرية من حدّ عمل الشأم ، مما يلي الحجاز نحواً من أربعين ليلة ، ثم انصرف إلى المدينة بمن صار في يديه من بني مُرّة وفزارة.

* * *

وفي هذه السنة صار إلى بُغا من بطون غَطَفان وفزارة وأشْجع جماعة؛ وكان وجّه إليهم وإلى بني ثعلبة؛ فلما صاروا إليه ـ فيما ذكر ـ أمر محمد بن يوسف الجعفريّ ، فاستحلفهم الأيمان المؤكدة ألاّ يتخلّفوا عنه متى دعاهم. فحلفوا ، ثم شخص إلى ضَرِيّة لطلب بني كلاب ، ووجّه إليهم رسلَه ، فاجتمع إليه منهم ـ فيما قيل ـ نحو من ثلاثة آلاف رجل، فاحتبس منهم من أهل الفساد نحواً من ألف رجل وثلاثمائة رجل، وخلّى سائرهم ، ثم قدم بهم المدينة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، فحبسهم في دار يزيد بن معاوية ، ثم شخص إلى مكة بُغا ، وأقام بها حتى شهِد الموسم ، فبقىبنو كلاب في الحبس لا يجرى عليهم شيءٌ مدّة غيبة بُغا؛ حتى رجع إلى المدينة ، فلما صار إلى المدينة أرسل إلى مَنْ كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفَزارة فلم يجيبوه ، وتفرّقوا في البلاد ، فوجّه في طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد.

* * *

[ذكر مقتل أحمد بن نصر الخزاعي على يد الواثق][١]

وفي هذه السنة تحرّك ببغداد قومٌ في رَبَض عمرو بن عطاء ، فأخذوا على أحمد بن نصر الخُزاعيّ البيعة.

*** ذكر الخبر عن سبب حركة هؤلاء القوم وما آل إليه أمرهم وأمر أحمد بن نصر:**

وكان السبب في ذلك أنّ أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخُزاعيّ ـ ومالك بن الهيثم أحد نقباء بني العبّاس ، وكان ابنه أحمد يغْشاه أصحاب الحديث؛ كيحيى بن مَعين وابن الدَّوْرَقيّ وابن خَيْثمة ، وكان يُظهر المباينة لمن يقول: القرآن مخلوق؛ مع منزلة أبيه كانت من السلطان في دولة بني العباس ، ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك ، مع غِلْظة الواثق كانت على من يقول ذلك وامتحانه إياهم فيه ، وغلبة أحمد بن أبي دواد عليه ـ فحدثني بعض أشياخنا ، عمّن ذكره ، أنه دخل على أحمد بن نصر في بعض تلك الأيام وعنده جماعة من الناس ، فذُكر عنده الواثق ، فجعل يقول: ألا فعل هذا الخنزير! أو قال: هذا الكافر: وفشا ذلك من أمره ، فخُوّف بالسلطان ، وقيل له: قد اتّصل أمرُك به ، فخافه.

وكان فيمن يغشاه رجل ـ فيما ذكر ـ يعرف بأبي هارون السرّاج وآخر يقال له طالب ، وآخر من أهل خُراسان من أصحاب إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب صاحب الشرْطة ممّن يظهر له القول بمقالته ، فحرّك المطيفون به ـ يعني أحمد بن نصر ـ من أصحاب الحديث ، وممّن ينكر القول بخلْق القرآن من أهل بغداد ـ وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلْق القرآن ، وقصدوه بذلك دون غيره؛ لما كان لأبيه وجدّه في دولة بني العباس من الأثرَ ، ولمّا كان له ببغداد ، وأنه كان أحدَ مَنْ بايع له أهل الجانب الشرقيّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسمع له في سنة إحدى ومائتين ، لمّا كثر الدّعّار بمدينة السلام ، وظهر بها

(١) وقال ابن قتيبة الدينوري: وقتل أحمد بن نصر بالمحنة لليلتين بقيتا من شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين [المعارف/ ٢٠٠] وانظر تعليقنا [٩/ ١٤٠/ ٢٩١]

الفساد والمأمون بخراسان؛ وقد ذكرنا خبره فيما مضى. وأنه لم يزل أمره على ذلك ثابتاً إلى أن قدم المأمون بغداد في سنة أربع ومائتين، فرجوا استجابة العامة له إذا هو تحرّك للأسباب التي ذكرت.

فذكر أنه أجاب من سأله ذلك؛ وأنّ الذي كان يسعى به في دعاء الناس له الرجلان اللذان ذكرت اسمهما قبل. وإن أبا هارون السرّاج وطالباً فرّقا في قوم مالا، فأعطيا كلّ رجل منهم ديناراً ديناراً، وواعدهم ليلةً يضربون فيها الطَّبْل للاجتماع في صبيحتها للوثوب بالسلطان؛ فكان طالب بالجانب الغربيّ من مدينة السَّلام فيمن عاقده على ذلك، وأبو هارون بالجانب الشرقيّ فيمن عاقده عليه؛ وكان طالب وأبو هارون أعطيا فيمَنْ أعطيا رجلين من بني أشرس القائد دنانير يفرّقانها في جيرانهم، فانتبذ بعضُهم نبيذاً، واجتمع عدّة منهم على شربه، فلمّا ثمِلوا ضربوا بالطبل ليلة الأربعاء قبل الموعد بليلة؛ وكان الموعد لذلك ليلة الخميس في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، لثلاث تخلو منه، وهم يحسبونها ليلة الخميس التي اتّعدوا لها، فأكثروا ضرب الطبْل، فلم يجبهم أحد. وكان إسحاق بن إبراهيم غائباً عن بغداد وخليفته بها أخوه محمد بن إبراهيم، فوجّه إليهم محمد بن إبراهيم غلاماً له يقال له رَحش، فأتاهم فسألهم عن قصّتهم، فلم يظهر له أحد ممن ذكر بضرب الطَّبْل، فدُلّ على رجل يكون في الحمامات مصاب بعينه، يقال له عيسى الأعور، فهدّده بالضرب، فأقرّ على ابني أشرس وعلى أحمد بن نصر بن مالك وعلى آخرين سمّاهم، فتتبّع القوم من ليلتهم؛ فأخذ بعضهم، وأخذ طالباً ومنزلُه في الرَّبض من الجانب الغربي، وأخذ أبا هارون السرّاج ومنزله في الجانب الشرقيّ، وتتبّع مَنْ سمّاه عيسى الأعور في أيام وليال، فصُيروا في الحبس في الجانب الشرقيّ والغربيّ، كلُّ قوم في ناحيتهم التي أخذوا فيها، وقيّد أبو هارون وطالب بسبعين رطلاً من الحديد كلّ واحد منهما، وأصيب في منزل ابني أشرس عَلَمان أخضران فيهما حُمرة في بئر، فتولّى إخراجهما رجلٌ من أعوان محمد بن عيّاش ـ وهو عامل الجانب الغربيّ، وعامل الجانب الشرقيّ العباس بن محمد بن جبريل القائد الخراسانيّ ـ ثم أخذَ خصي لأحمد بن نصر فتُهُدِّد، فأقرّ بما أقرَّ به عيسى الأعور، فمضى إلى أحمد بن نصر وهو في الحمّام، فقال لأعوان السلطان: هذا منزلي؛ فإن أصبتم فيه عَلَماً أو عُدَّة

أو سلاحاً لفتنة فأنتم في حِلّ منه ومن دِمي؛ ففتش فلم يُوجد فيه شيء ، فحمِل إلى محمد بن إبراهيم بن مصعب وأخذوا خصيّين وابنين له ورجلاً ممن كان يغشاه يقال له إسماعيل بن محمد بن معاوية بن بكر الباهليّ ، ومنزله بالجانب الشرقيّ ، فحمل هؤلاء الستة إلى أمير المؤمنين الواثق وهو بسامراء على بغال بأُكُفٍ ليس تحتهم وطاء ، فَقيِّد أحمد بن نصر بزوج قيود ، وأخرجوا من بغداد يوم الخميس لليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وكان الواثق قد أعلم بمكانهم ، وأحضر ابن أبي دواد وأصحابه ، وجلس لهم مجلساً عامّاً ليُمتحنوا امتحاناً مكشوفاً ، فحضر القوم واجتمعوا عنده.

وكان أحمد بن أبي دواد ـ فيما ذكر ـ كارهاً قتله في الظاهر؛ فلما أتِيَ بأحمد بن نصر لم يناظره الواثق في الشَّغَب ولا فيما رُفع عليه من إرادته الخروج عليه؛ ولكنه قال له: يا أحمد ، ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله ـ وأحمد بن نصر مستقتل قد تنوّر وتطيّب ، قال: أفمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله ، قال: فما تقول في ربّك ، أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترَوْن ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته»؛ فنحن على الخبر. قال: وحدثني سفيان بن عيينة بحديث يرفعه: «أن قلب ابن آدم بين إصبعيْن من أصابع الله يقلّبه»؛ وكان النبي ﷺ يدعو: «يا مقلّب القلوب ، ثبّت قلبي على دينك»؛ فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك! انظر ماذا تقول! قال: أنت أمرتني بذلك؛ فأشفق إسحاق من كلامه ، وقال: أنا أمرتُك بذلك! قال: نعم ، أمرَتني أن أنصح له إذ كان أمير المؤمنين ، ومِنْ نصيحتي له ألا يخالِف حديث رسول الله ﷺ. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فأكثروا ، فقال عبد الرحمن بن إسحاق ـ وكان قاضياً على الجانب الغربيّ فعزِل؛ وكان حاضراً وكان أحمد بن نصر ودّاً له ـ : يا أمير المؤمنين؛ هو حلال الدّم ، وقال أبو عبد الله الأرمنيّ صاحب ابن أبي دواد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين ، فقال الواثق: القتل يأتي على ما تريد ، وقال ابن أبي دواد: يا أمير المؤمنين كافر يُستتاب؛ لعلّ به عاهة أو تَغيُّر عقل ـ كأنه كره أن يقتَل بسببه ـ فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمتُ إليه ، فلا يقومنّ أحد معي ، فإني أحتسب خُطاي إليه ، ودعا بالصَّمصامة ـ سيف عمرو بن معد يكرب الزّبيديّ وكان في الخزانة ، كان أهدى

إلى موسى الهادي ، فأمر سَلْماً الخاسر الشاعر أن يصفه له ، فوصفه فأجازَه ـ فأخذ الواثق الصّمصامة ـ وهي صفيحة موصولة من أسفلها مسمورة بثلاثة مسامير تجمع بين الصّفيحة والصلة ـ فمشى إليه وهو في وسط الدار ، ودعا بنطع فصيِّر في وسطه ، وحبْل فشُدَّ رأسه ، ومُدّ الحبل ، فضربه الواثق ضربة ، فوقعت على حبل العاتق ، ثم ضربه أخرى على رأسه ، ثم انتضى سِيَما الدمشّقيّ سيفه ، فضرب عنقه وحزّ رأسه .

وقد ذُكر أن بُغا الشرابيّ ضربه ضربة أخرى ، وطعنه الواثق بطرف الصَّمْصامة في بطنه ، فحمِل معترضاً حتى أتِيَ به الحَظيرة التي فيها بابك ، فصلِب فيها وفي رجله زَوْج قيود ، وعليه سراويل وقميص ، وحمِل رأسه إلى بغداد ، فنُصب في الجانب الشرقيّ أياماً ، وفي الجانب الغربيّ أياماً ، ثم حُوّل إلى الشرقيّ ، وحُظر على الرأس حظيرة ، وضرِب عليه فسطاط ، وأقيم عليه الحرس ، وعُرف ذلك الموضع برأس أحمد بن نصر؛ وكتب في أذنه رُقْعة : هذا رأس الكافر المشرك الضالّ؛ وهو أحمد بن نصر بن مالك؛ ممّن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة في خَلْق القرآن ونفي التشبيه ، وعرَض عليه التوبة ، ومكّنه من الرجوع إلى الحق؛ فأبى إلا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذي عجّل به إلى ناره وأليم عقابه . وإنّ أمير المؤمنين سأله عن ذلك؛ فأقرّ بالتشبيه وتكلّم بالكفر ، فاستحلَّ بذلك أمير المؤمنين دَمه ، ولعنه[1] .

---

(١) هذه التفاصيل التي استغرقت الصفحات (١٣٥ ـ ١٣٩) انفرد الطبري بجانب كبير منها من بين أقرانه من المؤرخين أو الأخباريين الثقات سوى ما ذكره الصولي وهو كالطبري لم يشهد تلك الأحداث إلا أن اتفاق الطبري والصولي على أصل الخبر في مقتل الإمام أحمد بن نصر وهذه التفاصيل لا تصح لا عند الطبري ولا عند الصولي وهما وإن كانا ثقتين فبينهما وبين هذه الأحداث مفاوز والله أعلم. ولنا عود على الخبر عند تخريجنا الخبر [٩/ ١٩٠/ ٣٣٦] إن شاء الله تعالى.
وقد أخرج الخطيب البغدادي في ترجمته [تأريخ بغداد ٥/ ١٧٦] عن القاضي أبي عبد الله الصَّيْمَريُّ ، حدثنا محمد بن عمران المرزباني، أخبرني محمد بن يحيى الصُّوليُّ قال: كانَ أحمد بن نَصْر بن مالك بن الهيثم الخُزَاعيُّ من أهل الحديث ، وكان جدُّه من رؤساء نقباء بني العباس ، وكانَ أحمد وسهل بن سلامة ، حين كان المأمون بخراسان ، بايَعا الناسَ على =

وأمر أن يُتتبع من وُسِم بصحبة أحمد بن نصر؛ ممن ذُكر أنه كان متشايعاً له؛ فوُضعوا في الحبوس ، ثم جُعل نيِّف وعشرون رجلا وُسموا في حبوس الظلمة؛ ومُنعوا من أخذ الصدقة التي يُعطاها أهل السجون ، ومنُعوا من الزُّوّار ، وثقّلوا بالحديد. وحمِل أبو هارون السراج وآخَرُ معه إلى سامراء ، ثم رُدُّوا إلى بغداد ، فجُعلوا في المحابس.

وكان سبب أخذ الذين أخذوا بسبب أحمد بن نصر ، أنّ رجلاً قصّاراً كان في

= الأَمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلى أن دَخَل المأمون بغدادَ ، فرفق بسهلٍ حتى لبسَ السَّوادَ ، وأخذ الأَرزاقَ ، ولزم أحمد بيته ، ثم إنَّ أمرَهُ تَحَرَّك ببغدادَ في آخر أيامِ الواثِقِ ، واجتمع إليه خَلْقٌ من الناسِ ، يأمرون بالمعروف ، إلىَ أن ملكوا بغداد ، وتَعدَّى رجلان من أصحابِهِ يقال لأحدهما : طالب في الجانب الغربي ، ويقال للآخر : أبو هارونَ ، في الجانب الشرقيّ، وكانا موسِرَين، فبذلا مالاً، وعزما على الوثوبِ ببغدادَ في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فنَمَّ عليهم قَوْمٌ إلى إسحَاق بن إبراهيم، فأخذ جماعة، فيهم أحمد بن نصر، وأخذ صاحبيه طالباً وأبا هارونَ ، فَقَيَّدهما ، ووجَدَ في منزل أحدِهما أعلاماً ، وضرب خادماً لأحمد بن نصر ، فأقرَّ أن هؤلاء كانوا يصيرون إليه ليلاً فيعرّفونه ما عملوا ، فحملهم إسحاق مُقَيَّدين، إلى سُرَّ من رأى، فجلس لهم الواثق وقال لأحمد بن نصر: دَعْ ما أُخِذْتَ له، ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله ، قال: أفمخلوق هو؟ قال: كلام الله. قال: أفَتَرَى ربَّك في القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية ، قال: ويحك ، يُرى كما يُرى المحدود المتجسِّم ، ويحويه مكان، ويحصره الناظر، أنا أكفر بربٍ هذه صفته، ما تقولون فيه؟ فقال عبد الرحمن بن إسحاق ، وكان قاضياً على الجانب الغربي ببغداد فَعُزِلَ: هو حلال الدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبي دواد أنه كارهٌ لقَتْله ، فقال للواثق: يا أمير المؤمنين شيخٌ مختلٌ: لعل به عاهة أو تغير عقل يؤخر أمره ويستتاب فقال الواثق: ما أراه إلاّ مؤدّياً لكفره ، قائماً بما يعتقده منه. ودعا الواثق بالصمصامة وقال: إذا قمتُ إليه ، فلا يقومَنَّ أحدٌ معي ، فإنّي أحتسبُ خطاي إلى هذا الكافر ، الذي يعبد ربّاً لا نعبُده ، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها ، ثم أمرَ بالنَّطع ، فأُجلِس عليه ، وهو مقَيَّد ، وأمَرَ بشدِّ رأسه بحبل وأمرهم أن يمدُّوه ، ومشى إليه حتى ضرب عُنُقه ، وأمَرَ بحمل رأسه إلى بغداد ، فنُصب بالجانب الشرقيّ أيّاماً ، وفي الجانب الغربيّ أيّاماً ، وتتبّع رؤساء أصحابِهِ فوُضِعوا في الحُبُوسِ. ورواية البغدادي عن الصولي هنا منقطعة غير صحيحة والله أعلم ـ وبه. أخبرنا عُبيد الله بن عُمر الواعظ ، حدّثني أبي قال: سمعتُ أبا محمد الحسن بن محمد بن بحر الحربيّ يقول: سمعت جعفر بن محمد الصائغ يقول: بَصَرُ عينيَّ وإلاَّ فعميتا ، وسَمْعُ أُذُنيَّ وإلاَّ فَصُمَّتا: أحمدُ بن نصر الخُزاعيُّ حيثُ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ يقول رأسُه: لا إله إلاّ الله ، أو كما قال [تأريخ بغداد/ ٥/ ١٧٦]. وهذا إسناد موصول يؤيد مقتل أحمد بن نصر في تلك المحنة والله أعلم.

الرَّبض جاء إلى إسحاقَ بن إبراهيم بن مصعب ، فقال : أنا أدلّك على أصحاب أحمد بن نصر ، فوجّه معه من يتبعهم ؛ فلمّا اجتمعوا وجدوا على القصّار سبباً حبسوه معهم ؛ وكان له في المِهْرزار نخل ، فقُطع وانتُهبَ منزله ؛ وكان ممن حُبس بسببه قوْم من ولد عمرو بن اسفنديار ، فماتوا في الحبس ؛ فقال بعض الشعراء في أحمد بن أبي دواد :

ما إنْ تحوّلتَ من إيادِ صِرْتَ عذاباً على العبادِ
أصنتَ كما قلتَ من إيادِ فارْفقْ بهذا الخلقِ يا إيادِي

* * *

وفي هذه السنة أراد الواثق الحجّ ، فاستعدّ له ، ووجّه عمر بن فرَج إلى الطريق لإصلاحه ، فرجع فأخبره بقلّة الماء فبدا له .

وحجّ بالناس فيها محمد بن داود بن عيسى[١] .

وفيها ولّى الواثق جعفر بن دينار اليمن ، فشخص إليها في شعبان ، وحجّ هو وبُغا الكبير ، وعلى أحداث الموسم بُغا الكبير ؛ وكان شخوص جعفر إلى اليمن في أربعة آلاف فارس وألفي راجل وأعطى رزق ستة أشهر .

وعقد محمد بن عبد الملك الزيات لإسحاق بن إبراهيم بن أبي خمَيصة مولى بني قُشير من أهل أضاخ فيها على اليمامة والبحرين وطريق مكة ، مما يلي البصرة في دار الخلافة ؛ ولم يذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة إلاّ الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيّات .

وفي هذه السنة نقب قوم من اللصوص بيت المال الذي في دار العامّة في جوف القصر ، وأخذوا اثنين وأربعين ألفاً من الدراهم ؛ وشيئاً من الدنانير يسيراً ، فأخذوا بعدُ وتتبع أخذهم يزيد الحلوانيّ ، صاحب الشرطة خليفة إيتاخ .

وفيها خرج محمد بن عمرو الخارجيّ من بني زيد بن تغلب في ثلاثة عشر رجلاً في ديار ربيعة ، فخرج إليه غانم بن أبي مسلم بن حُميد الطوسيّ ، وكان على حرب الموصل في مثل عدّته ، فقتل من الخوارج أربعة ، وأخذ محمد بن

(١) وقال البسوي حجّ بنا محمد بن داود بن عيسى[المعرفة ١/ ٧٢] وانظر تأريخ خليفة (٣١٨).

عمرو أسيراً فبعث به إلى سامراء ، فبعث به إلى مطبَق بغداد ، ونُصبت رؤوس أصحابه وأعلامه عند خشبة بابك .

وفي هذه السنة قدم وصيف التركيّ من ناحية أصبهان والجبال وفارس؛ وكان شخص في طلب الأكراد ، لأنهم قد كانوا تطرّقوا إلى هذه النواحي ، وقدم معه منهم بنحو من خمسمائة نفس؛ فيهم غلمان صغار ، جمعهم في قيود وأغلال؛ فأمر بحبسهم ، وأجِيز وصيف بخمسة وسبعين ألف دينار ، وقلّد سيفاً وكُسىً .

* * *

[خبر الفداء بين المسلمين والرّوم]

وفي هذه السنة ، تمّ الفداء بين المسلمين وصاحب الرُّوم ، واجتمع فيها المسلمون والرُّوم على نهر يقال له اللمس على سَلُوقيّةَ علَى مسيرة يوم من طَرَسُوس[١] .

*** ذكر الخبر عن سبب هذا الفداء وكيف كان:**

ذُكر عن أحمد بن أبي قَحْطَبَة صاحب خاقان الخادم ـ وكان خادم الرشيد ، وكان قد نشأ بالثغر ـ أنّ خاقان هذا قدِم على الواثق ، وقدم معه نفر من وجوه أهل طَرَسوس وغيرها يشكون صاحب مظالم كان عليهم ، يكنى أبا وهب؛ فأحضِر ، فلم يزل محمد بن عبد الملك يجمع بينه وبينهم في دار العامّة عند انصراف يوم الإثنين والخميس ، فيمكثون إلى وقت الظهر؛ وينصرف محمد بن عبد الملك وينصرفون ، فعُزل عنهم ، وأمر الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن ، فقالوا بخلقه جميعاً؛ إلا أربعة نفر؛ فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يقولوه ، وأمر لجميع أهل الثغور بجوائز على ما رأى خاقان ، وتعجّل أهلُ الثغور إلى ثغورهم ،

(١) ذكر الطبري أصل الخبر هنا ثم ذكر تفاصيله (١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤) وقد أيدّ خليفة في خبره أصل الخبر وكذلك اتفق مع الطبري أنه (أي الفداء) نفّذه الوالي من قبل الواثق ـ أحمد بن سعيد الباهلي فقال خليفة وفيها (٢٣١هـ) كان الفداء بالروم والوالي أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي ففدى المسلمين نحواً من أربعة آلاف رجل وستمائة ونحوها من النساء والصبيان [تأريخ خليفة/ ٣١٩].

وتأخّر خاقان بعدهم قليلاً؛ فقدم على الواثق رسلُ صاحب الروم ـ وهو ميخائيل بن توفيل بن ميخائيل بن أليون بن جورجس ـ يسأله أن يفادِيَ بمن في يده من أسارى المسلمين، فوجّه الواثق خاقان في ذلك، فخرج خاقان ومَنْ معه في فداء أسارى المسلمين في آخر سنة ثلاثين ومائتين على موعد بين خاقان ورسل صاحب الرّوم للالتقاء للفداء في يوم عاشوراء؛ وذلك في العاشر من المحرّم سنة إحدى وثلاثين ومائتين. ثم عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن سلْم بن قتيبة الباهليّ على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء؛ فخرج على سبعة عشر من البُرُد وكان الرسل الذين قدموا في طلب الفداء قد جرى بينهم وبين ابن الزّيات اختلاف في الفداء، قالوا: لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبيّاً، فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضُوا عن كلّ نفس بنفس.

فوجّه الواثق إلى بغداد والرّقة في شراء مَنْ يباع من الرقيق من مماليك، فاشترى مَنْ قدرَ عليه منهم، فلم تتم العدة، فأخرج الواثق من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهنّ؛ حتى تمّت العِدّة، ووجّه ممن مع ابن أبي دواد. رجلين، يقال لأحدهما يحيى بن آدم الكرخيّ، ويكنى أبا رملة، وجعفر [بن أحمد] بن الحذّاء؛ ووجّه معهما كاتباً من كتّاب العَرْض يقال له طالب بن داود، وأمره بامتحانهم هو وجعفر، فمن قال: القرآن مخلوق فودي به، ومن أبىٰ ذلك تُرِك في أيدي الروم؛ وأمَرَ لطالب بخمسة آلاف درهم؛ وأمر أن يعطوا جميع من قال: إن القرآن مخلوق؛ ممن فُودِي به ديناراً لكل إنسان من ماله حُمل معهم، فمضى القوم.

فذكر عن أحمد بن الحارث أنه قال: سألت ابن أبي قحطبة صاحب خاقان الخادم ـ وكان السفير الموجّه بين المسلمين والروم، وُجِّه ليعرف عدّة المسلمين في بلاد الروم. فأتى ملك الروم وعرف عدّتهم قبل الفداء ـ فذكَر أنه بلغت عِدّتهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة؛ فأمر الواثق بفدائهم، وعجّل أحمد بن سعيد على البَرِيد ليكون الفِداء على يديه، وجه من يمتحن الأسراء من المسلمين، فمن قال منهم: إنّ القرآن مخلوق، وإنّ الله عزّ وجلّ لا يُرَى في الآخرة فُودي به؛ ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الرّوم، ولم يكن فداء منذ أيام محمد بن زبيدة في سنة أربع أو خمس وتسعين ومائة.

قال: فلما كان يوم عاشوراء، لعشر خلوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين ومائتين، اجتمع المسلمون ومَنْ معهم من العُلوج وقائدان من قوّاد الروم؛ يقال لأحدهما أنقاس وللآخر لمسنوس، والمسلمون والمطوّعة في أربعة آلاف بين فارس وراجل، فاجتمعوا بموضع يقال له اللمس؛ فذكر عن محمد بن أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهليّ أن كتاب أبيه أتاه، أنّ من فُودِي به من المسلمين ومَنْ كان معهم من أهل ذمتهم أربعة آلاف وستمائة إنسان؛ منهم صبيان ونساء ستمائة؛ ومنهم من أهل الذمة أقلّ من خمسمائة والباقون رجالٌ من جميع الآفاق.

وذكر أبو قحطبة ـ وكان رسول خاقان الخادم إلى ملك الروم لينظر كَمْ عدد الأسرى، ويعلم صحّة ما عزم عليه ميخائيل ملك الروم ـ أنّ عدد المسلمين قبل الفداء كان ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وصبيّ، ممّن كان بالقسطنطينية وغيرها؛ إلا مَنْ أحضره الرّوم ومحمد بن عبد الله الطرسوسيّ ـ وكان عندهم ـ فأوفده أحمد بن سعيد بن سلمْ وخاقان مع نَفر من وجوه الأسرى على الواثق، فحملهم الواثق على فرس فرس، وأعطى لكلّ رجل منهم ألف درهم.

وذكر محمد هذا أنه كان أسيراً في أيدي الرّوم ثلاثين سنة، وأنه كان أسِر في غزاة رامية كان في العلاّفة فأسِر، وكان فيمن فُودي به في هذا الفداء، وقال: فودِيَ بنا في يوم عاشوراء على نهر يقال له اللامس، على سَلوقيَة قريباً من البحر، وأنّ عِدتهم كانت أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً؛ النساء وأزواجهنّ وصبيانهنّ ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة أو أكثر، فوقع الفداء كلّ نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً، فاستفرغ خاقان جميعَ مَنْ كان في بلد الرّوم من المسلمين ممن علم موضعه.

قال: فلمّا جُمعوا للفداء، وقف المسلمون من جانب النهر الشرقيّ والرّوم من الجانب الغربيّ ـ وهو مخاضة ـ فكان هؤلاء يرسلون من ها هنا رجلاً وهؤلاء من ها هنا رجلاً، فيلتقيان في وسط النهر، فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبّر وكبّروا، وإذا صار الروميّ إلى الروم تكلم بكلامهم، وتكلموا شبيهاً بالتكبير.

وذكر عن السنديّ مولى حسين الخادم، أنه قال: عقد المسلمون جسراً على النهر، وعقد الرُّوم جسراً؛ فكنا نرسل الروميّ على جسرنا ويرسل الروم المسلم على جسرهم؛ فيصير هذا إلينا وذاك إليهم، وأنكر أن يكون مخاضَة.

وذكر عن محمد بن كريم أنه قال: لما صرنا في أيدي المسلمين ، امتحنَنَا جعفر ويحيى ، فقلنا ، وأعطينا دينارين دينارين.

قال: وكان البطريقان اللذان قدما بالأسرى لا بأس بهما في معاشرتهما.

قال: وخاف الرّوم عدد المسلمين لقلتهم وكثرة المسلمين؛ فآمنهم خاقان من ذلك وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوماً لا يُغْزَون حتى يصلوا إلى بلادهم ومأمنهم؛ وكان الفداء في أربعة أيام ، ففضل مع خاقان ممن كان أمير المؤمنين أعدّ لفداء المسلمين عدّة كبيرة ، وأعطى خاقان صاحب الروم ممن كان قد فضل في يده مائة نفس؛ ليكون عليهم الفضل استظهاراً مكان مَنْ يخشى أن يأسروه من المسلمين إلى انقضاء المدّة ، وردّ الباقين إلى طَرسَوس ، فباعهم.

قال: وكان خرج معنا ممن كان تنصّر ببلاد الروم من المسلمين نحوٌ من ثلاثين رجلا فُودي بهم[1].

قال محمد بن كريم: ولما انقضت المدّة بين خاقان والرّوم الأربعون يوماً ، غزا أحمد بن سعيد بن سلم بن قُتيبة ، فأصاب الناس الثلج والمطر ، فمات منهم قَدْر مائتي إنسان وغرِق منهم في البذندون قوم كثير ، وأسِر منهم نحو من مائتين؛ فوجد أمير المؤمنين الواثق عليه لذلك ، وحصل جميع مَنْ مات وغرق خمسمائة إنسان؛ وكان أقبل إلى أحمد بن سعيد وهو في سبعة آلاف بِطْريق من عظمائهم فجبُنَ عنه ، فقال له وجوه الناس: إن عسكراً فيه سبعة آلف لا يتخوّف عليه ، فإن كنت لا تواجه القوم فتطرّق بلادهم. فأخذ نحواً من ألف بقَرة وعشرة آلاف شاة ، وخرج فعزله الواثق ، وعقد لنصر بن حمزة الخُزاعيّ يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيتْ من جمادى الأولى من هذه السنة.

* * *

(١) هذه الأخبار حول فداء الأسرى استغرقت مجتمعة الصفحات (١٤١ ـ ١٤٤) ذكر الطبري بعضها عن السندي مولى حسين الخادم ومحمد بن كريم وأبي قحطبة ـ رسول خاقان ـ وتارة يقول ابن أبي قحطبة ـ سفير أو رسول خاقان الخادم ـ بل إن معظم هذه القصة يرويها عن رسول الخاقان هذا ولم نجد من يؤيد الطبري في هذه التفاصيل سوى أمر واحد ـ وهو أن والي الثغور أيام المأمون وهو أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي قد أشرف على عملية الفداء مع أناس آخرين كخاقان وانظر تعليقنا على الخبر السابق.

في هذه السنة مات الحسن بن الحسين ، أخو طاهر بن الحسين بطبَرِستان في شهر رمضان.

وفيها مات الخطاب بن وجه الفُلْس.

وفيها مات أبو عبد الله الأعرابيّ الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من شعبان وهو ابن ثمانين سنة.

وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت عليّ بن موسى الرضيّ.

وفيها مات مخارق المغني ، وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعيّ ، وعمرو بن أبي عمرو الشيبانيّ ومحمد بن سعدان النحويّ(١).

* * *

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن مسير بُغا الكبير إلى حرب بني نمير]

فمن ذلك ما كان من مسير بغا الكبير إلى بني نمير حتى أوقع بهم(٢).

* ذكر الخبر عن سبب مسيره إليهم وكيف كان الأمر بينه وبينهم:

حدثني أحمد بن محمد بن مخلد بمعظم خبرهم؛ وذكر أنه كان مع بُغا في ذلك السفر ، وأما سياق الكلام فلغيره. ذكر أنّ سبب شخوص بُغا إلى بني نُمير كان أنّ عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطَفي امتدح الواثق بقصيدة ، فدخل عليه فأنشده إياها ، فأمر له بثلاثين ألف درهم ، وبنُزُل فكلّم عُمارة الواثق في بني نُمير ، وأخبره بعبثهم وفسادهم في الأرض ، وإغارتهم على الناس وعلى اليمامة وما قرب منها؛ فكتب الواثق إلى بُغا يأمره بحربهم.

---

(١) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٨٨].

(٢) انظر المنتظم [١١/ ١٧٦]

فذكر أحمد بن محمد أنّ بُغا لمّا أراد الشخوص من المدينة إليهم حمل معه محمد بن يوسف الجعفريّ دليلاً له على الطريق ، فمضى نحو اليمامة يُريدهم ، فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشُّريف؛ فحاربوه ، فقتل بُغا منهم نيِّفا وخمسين رجلاً ، وأسر نحواً من أربعين ، ثم سار إلى حُظَيَّان ، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة ، فنزل بها ، ثم تابع إليهم رسله ، يَعرض عليهم الأمان ، ودعاهم إلى السمع والطاعة؛ وهم في ذلك يمتنعون عليه ، ويشتمون رسله ، ويتفلّتون إلى حربه؛ حتى كان آخر من وجّه إليهم رجلين؛ أحدهما من بني عديّ من تميم والآخر من بني نُمير ، فقتلوا التميميّ وأثبتوا النميريّ جراحاً؛ فسار بُغا إليهم من مرأة. وكان مسيره إليهم في أول صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، فورد بطن نخل ، وسار حتى دخل نُخَيلة ، وأرسل إليهم أن ائتوني ، فاحتملت بنو ضَبّة من نُمَير ، فركبت جبالها مياسر جبال السَّوْد ـ وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله باهلة ـ فأرسل إليهم فأبوا أن يأتوه ، فأرسل إليهم سرّية فلم تدركهم ، فوجَّه سرايا ، فأصابت فيهم وأسرت منهم. ثم إنه أتبعهم بجماعة مَنْ معه وهم نحو من ألف رجل سوى مَنْ تخلَّف في العسكر من الضعفاء والأتباع ، فلقيهم وقد جمعوا له ، وحشدوا لحربه؛ وهم يومئذ نحو من ثلاثة آلاف ، بموضع يقال له روضة الأبَان وبطن السرّ من القرْنين على مرحلتين ، ومن أضاخ على مرحلة؛ فهزموا مقدّمته ، وكشفوا ميسرته ، وقتلوا من أصحابه نحواً من مائة وعشرين أو مائة وثلاثين رجلاً ، وعقروا من إبل عسكره نحواً من سبعمائة بعير ومائة دابة ، وانتهبوا الأثقال وبعض ما كان مع بُغا من الأموال.

قال لي أحمد: لقيهم بُغا وهجم عليهم ، وغلبَه الليل ، فجعل بُغا يناشدهم ، ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ، ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفريّ ، فجعلوا يقولون له: يا محمد بن يوسف ، قد والله ولدناك فما رعيتَ حُرْمة الرَّحم ، ثم جئتَنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم! والله لنرينّك العُبْر ، ونحو ذلك من القول.

فلما دنا الصبح قال محمد بن يُوسف لبُغا: أوقع بهم من قبل أن يضيء الصبح ، فيروْا قِلّة عددنا ، فيجترئوا علينا ، فأبى بُغا عليه؛ فلمّا أضاء الصبح ونظروا إلى عدد مَنْ مع بُغا ـ وكانوا قد جعلوا رجّالتهم أمامهم وفرسانهم وراءهم

ونَعمهم ومواشيهم من ورائهم ـ حملوا علينا ، فهزمونا حتى بلغت هزيمتنا معسكرنا ، وأيقنَّا بالهلكة.

قال: وكان قد بلغ بُغا أنَّ خيلاً لهم بمكان من بلادهم ، فوجَّه من أصحابه نحواً من مائتي فارس إليها: فبينا نحن فيما نحن فيه من الإشراف على العَطَب ، وقد هزِم بُغا ومنْ معه إذ خرجت الجماعة التي كان بُغا وجّهها من الليل إلى تلك الخيل ، وقد أقبلت منصرِفة من الموضع الذي وُجِّهت إليه من العسكر في ظهور بني نُمير ، وقد فعلوا ببُغا وأصحابه ، فنفخوا في صَفَّاراتهم؛ فلما سمعوا نَفْخَ الصّفارات ، ونظروا إلى مَنْ خرج عليهم في أدبارهم ، قالوا: غَدَر والله العبد ، وولَّوْا هاربين ، وأسلم فرسانهم رجَّالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عليهم.

قال لي أحمد بن محمد: فلم يفلت من رجَّالتهم كثير أحد؛ حتى قُتلوا عن آخرهم؛ وأما الفرسان فطاروا هُرّاباً على ظهور الخيل.

وأما غير أحمد بن محمد فإنه قال: لم تزل الهزيمة على بُغا وأصحابه منذ غدوة إلى انتصاف النهار؛ وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ثنتين وثلاثين ومائتين ، ثم تشاغلوا بالنَّهب وعَقْر الإبل والدوابَ حتى ثاب إلى بُغا من كان انكشف من أصحابه ، واجتمع إليه مَنْ كان تفرّق عنه ، فكرُّوا على بني نُمير ، فهزمهم وقتل منهم منذ زوال الشمس إلى وقت العصر زهاء ألف وخمسمائة رجل. وأقام بُغا بموضع الوقعة على الماء المعروف ببطن السرّ ، حتى جُمعت له رؤوس مَنْ قتِل من بني نمير ، واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام.

فحدثني أحمد بن محمد أنّ مَنْ هرب من فرسان بني نمير من الوقعة أرسلوا إلى بُغا يطلبون منه الأمان؛ فأعطاهم الأمان ، فصاروا إليه ، فقيَّدهم وأشخصهم معه.

وأمَّا غيره فإنه قال: سار بُغا من موضع الوقعة في طلب من شذّ عنه منهم ، فلم يدرك إلاّ الضعيف ممن لم يكن له نهوض منهم وبعض المواشي والنَّعَم ، ورجع إلى حصن باهلة. قال: وإنما قاتل بُغا من بني نُمير بنو عبد الله بن نُمير وبنو بُسْرَة وبلحَجَّاج وبنو قَطَن وبنو سلاه وبنو شُرَيح وبطون من الخوالف ـ وهم من بني عبد الله بن نمير ، ولم يكن في القتال من بني عامر بن نُمير إلا القليل ـ وبنو عامر بن نُمير أصحاب نخل وشاء ، وليسوا أصحاب خيل ، وعبد الله بن نمير هي

التي تحارب العرب ـ فقال عُمارة بن عَقيل لبُغا:

تــرَكــتَ الأَعقفيــن وبَطْــنَ قَــوٍّ ومَــلأَتَ السجــونَ مــن القمــاشِ

فحدثني أحمد بن محمد أنّ الذين دخلوا إلى بُغا بالأمان من بني نُمير لمَّا قيدهم وحبسهم وأشخصهم معه شَغَبُوا في الطريق، وحاولوا كسر قيُودهم والهرب، فأمر بإحضارهم واحداً بعد واحد؛ فكان إذا حضر الواحد يضربه ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة وأقلّ من ذلك وأكثر؛ فزعم أحمد أنه حضر ضربهم ولم ينطق منهم ناطق يتوجَّع من الضرب؛ وأنه أحضر منهم شيخ قد عَلّق في عنقه مصحفاً، ومحمد بن يوسف جالس إلى جنب بُغا، فضحك منه محمد بن يوسف وقال لبُغا: هذا أخبث ما كان ـ أصلحك الله ـ حين علَّق المصحف في عنقه! فضربه أربعمائة أو خمسمائة، فما توجَّع وما استغاث.

وذُكر أن فارساً من بني نُمير لقي بُغا في وقعتهم التي ذكرت أمرها يُدعى المجنون، فطعن بُغا ورمى المجنونَ رجلٌ من الأتراك. فأفلت، وعاش أياماً ثلاثة، ثم مات من رميته.

قال: ثم قدم عليه واجن الأشروسني الصُّغديّ في سبعمائة رجل مدداً له من الأشُروسنيّة الإشتيخنيّة، فوجَّهه بُغا ومحمد بن يوسف الجعفريّ في أثرهم؛ فلم يزل يتبعهم حتى وغلوا في البلاد، وصاروا بتَبَالة وما يليها من حدّ عمل اليمن وفاتوه؛ فانصرف ولم يصر في يديه منهم إلاّ ستّة نفر أو سبعة، وأقام بحصن باهلة، ووجّه إلى جبال بني نُمير وسهلها من هلان والسَّوْد وغيرها من عمل اليمامة ساريا في محاربة من امتنع ممن قبل الأمان منهم، فقتلوا جماعة وأسروا جماعة، وأقبل عدّة من ساداتهم، كلُّهم يطلب الأمان لنفسه والبطن الذي هو منه، فقبل ذلك منهم وبسطهم وآنسهم؛ ولم يزل مقيماً إلى أن جمع إليه كلَّ مَنْ ظنّ أنه كان في هذه النواحي منهم، وأخذ منهم زُهاء ثمانمائة رجل، فأثقلهم بالحديد وحملهم إلى البصرة، في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وكتب إلى صالح العباسيّ بالمسير بمَنْ قبله في المدينة من بني كِلاب وفَزارة ومُرّة وثعلبة وغيرهم واللحاق به؛ فوافاه صالح العباسيّ ببغداد، وصاروا جميعاً في المحرّم إلى سامراء سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وكانت عدّة مَنْ قدم به بُغا وصالح العباسيّ من الأعراب سوى مَنْ مات منهم وهرب. وقتل في هذه الوقائع

التي وصفناها ألفي رجل ومائتي رجل من بني نمير ومن بني كلاب ومن مرّة وفزارة ومن ثعلبة وطيّىء.

* * *

وفي هذه السنة أصاب الحاجّ في المرجع عطش شديد في أربعة منازل إلى الرَّبَذَة، فبلغت الشَّرْبة عدْة دنانير. ومات خلق كثير من العطش.

وفيها ولِّيَ محمد بن إبراهيم بن مصعب فارس.

وفيها أمر الواثق بترك جبايةٍ أعشار سفن البحر.

وفيها اشتدّ البرد في نِيسان حتى جَمد الماء لخمس خلون منه.

* * *

[ذكر خبر موت الواثق]

وفيها مات الواثق(١).

* **ذكر الخبر عن العلة التي كانت بها وفاته:**

ذكر لي جماعةٌ من أصحابنا أنّ عِلَّته التي تُوفِّيَ منها كانت الاستسقاء، فعُولج بالإقعاد في تَنُّور مسخّن، فوجَد لذلك راحة وخفْة مما كان به، فأمرهم من غدِ ذلك اليوم بزيادة في إسخان التَّنُّور، ففُعل ذلك وقعد فيه أكثر من قعوده في اليوم الذي قبله، فحمِيَ عليه، فأخرج منه، وصُيِّر في محفّة؛ وحضره الفضل بن إسحاق الهاشميّ وعمر بن فرَج وغيرهم؛ ثم حضر ابن الزيات وابن أبي دواد، فلم يعلموا بموته حتى ضرب بوجهه المحفَّة، فعلموا أنه قد مات.

وقد قيل: إن أحمد بن أبي دواد حضره وقد أغمي عليه، فقضى وهو عنده فأقبل يغمضه ويصلح من شأنه. وكانت وفاته لستٍّ بقين من ذي الحجة ودُفِن في

---

(١) وقال البسوي: وتوفي هارون (أي الواثق) لست بقين من ذي الحجة [المعرفة ١/ ٧٢].
وقال ابن قتيبة الدينوري وتوفي هارون يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين [المعارف/ ٢٠٠].

قصره بالهارونيّ. وكان الذي صلَّى عليه وأدخله قبرَه وتولَّى أمره أحمد بن أبي دواد؛ وكان الواثق أمر أحمد بن أبي دواد أن يُصَلِّيَ بالناس يوم الأضحى في المصلَّى، فصلى بهم العيد؛ لأن الواثق كان شديد العِلّة فلم يقدر على الحضور إلى المصلَّى، ومات من عِلَّته تلك.

* * *

ذكر الخبر عن صفة الواثق وسنه وقدر مدة خلافته

ذكرَ من رآه وشاهده أنه كان أبيضَ مشرباً حُمرة، جميلاً رَبْعة، حسن الجسم، قائم العين اليسرى؛ وفيها نُكتة بياض.

وتوفِّيَ ـ فيما زعم بعضهم ـ وهو ابن ستّ وثلاثين سنة، وفي قول بعضهم: وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة؛ فقال الذين زعموا أنه كان ابن ست وثلاثين: كان مولده سنة ست وتسعين ومائة، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام. وقال بعضهم: وسبعة أيام واثنتي عشرة ساعة(١).

وكان وُلِد بطريق مكة، وأمه أم ولد روميّة؛ يقال لها قراطيس.

واسمه هارون وكنيته أبو جعفر.

وذكر أنه لما اعتلّ علته التي مات فيها وسقى بطنه أمر بإحضار المنجّمين، فأحضروا؛ وكان ممن حضر الحسن بن سهل، أخو الفضل بن سهل، والفضل بن إسحاق الهاشميّ وإسماعيل بن نُوبخت ومحمد بن موسى الخُوارزميّ المجوسيّ القطرُبُّليُّ وسند صاحب محمد بن الهيثم وعامة مَنْ ينظر في النجوم، فنظروا في علَّته ونجمه ومولده، فقالوا: يعيش دهراً طويلاً، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة؛ فلم يلبث إلا عشرة أيام حتى مات.

---

(١) ذكر الطبري هنا قولين أيد كل من البسوي وابن قتيبة القول الأول فقد قال ابن قتيبة الدينوري: وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وأياماً [المعارف/ ٢٠٠].
وقال البسوي: وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر إلا ستة أيام [المعرفة ١/ ٧٢] والذي اختاره ابن كثير أنه توفي في يوم الأربعاءلست بقين من ذي الحجة من هذه السنة ـ أعني سنة ثنتين وثلاثين ومائتين عن ست وثلاثين سنة [البداية والنهاية ٨/ ١٨٨].

ذكر بعض أخباره

ذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام ، وقد قعد مجلساًكان أوّل مجلس قعَده؛ فكان أوّل ما تُغُنّى به من الغناء في ذلك المجلس؛ أن تغنَّت شارية جارية إبراهيم بن المهديّ:

مـا دَرَى الحـامِلـونَ يـومَ استقلُّـوا نَعْشَـه للثـواء أَمْ للفنـاء
فليقـل فيـك بـاكِيـاتُـكَ مـا شِـئْـنَ صبـاحـاً ووقـت كـلِّ مَسَـاء

قال: فبكى والله وبكينا حتى شغلَنا البكاء عن جميع ما كنّا فيه ، ثم اندفع بعض المغنيين فغنّى:

وَدِّعْ هـريـرة إِنَّ الـرَّكـبَ مـرتحِـلُ وهـل تطِيـقُ وَداعـاً أَيهـا الـرجـلُ!

قال: فازداد والله في البكاء؛ وقال: ما سمعت كاليوم قطّ تعزية بأب ونعيّ نفس؛ ثم انفض ذلك المجلس[1] .

وذكر عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع أن عليّ بن الجهم قال في الواثق بعد أن ولي الخلافة:

قـد فـازَ ذو الـدُّنيـا وذو الـدِّيـنِ بـدولـةِ الـواثـقِ هـارونِ
أَفـاضَ مـن عَـدْلٍ ومـن نـائـلٍ مـا أَحسـنَ الـدنيـا مـع الـديـنِ!
قـد عـمَّ بـالإحسـانِ فـي فضلـهِ فـالنـاس فـي خَفـض وفـي لِيـن
مـا أكثـرَ الـداعـي لـه بـالبقـا وأكثـرَ التـالـي بـآميـنِ

وقال عليّ بن الجهم أيضاً فيه:

وثِقَـتْ بـالمَلِـكِ الـوا ثِـقِ بـالله النفـوسُ
مَلِـكٌ يشقـى بـه المـا لُ ولا يشقـى الجليـسُ
أَنِـسَ السيـفُ بـه واسـتـوحـشَ العِلْـقُ النفِيـس
أَسـدٌ تضْحَـك عـن شـدّاتِـهِ الحـربُ العَبُـوس
يـا بنِـي العبـاسِ يـأبَـى الله إلا أَنْ تَسُـوسُـوا

---

(١) راوي الخبر الحسن بن الضحاك الشاعر المعروف بلقب الخليع لكثرة مجونه فكيف يَصُح خبره.

فغنّت قلم جارية صالح بن عبد الوهاب في هذين الشعرين ، وغنّت في شعر محمد بن كُناسة :

فــيٍّ انقبــاضٌ وحِشمَــةٌ فــإذا جــالَسْــتُ أَهــلَ الـوفـاءِ والكَـرَمِ
أَرسلــتُ نفسِــي علــى محبتيهــا وقلــتُ مــا شئــتُ غيــرَ محتشِــمِ

فغنّته الواثق؛ فاستحسنه؛ فبعث إلى ابن الزيات: ويحك من صالح بن عبد الوهاب هذا! فابعث إليه فأشخصْه؛ وليحمل جاريتَه؛ فغدا بها صالح إلى الواثق ، فأدخِلَتْ عليه ، فلما تغنَّت ارتضاها ، فبعث إليه ، فقال: قلْ ، فقال: مائة ألف دينار يا أمير المؤمنين وولاية مصر ، فردّها ، ثم قال أحمد بن عبد الوهاب أخو صالح في الواثق :

أَبَــتْ دارُ الأَحِبَّــةِ أَن تُبِينــا أَجــدَّكَ مــا رأَيــتَ لهــا مُعينَــا
تُقَطَّــعُ حَسْــرَةً مــن حُــبِّ لَيْلــى نفــوسٌ مــا أُثبْــن ولا جُــزِينــا

فصنعت فيه قلم جارية صالح ، فغنّاه زرزر الكبير للواثق ، فقال: لمن ذا؟ فقال: لقلم ، فبعث إلى ابن الزيات ، فأشخص صالحاً ومعه قلم؛ فلمّا دخلت عليه ، قال: هذا لك؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين ، قال: بارك الله عليك؟ وبعث إلى صالح: استمْ وقلْ قولا يتهيأ أن تُعطاه؛ فبعث إليه: قد أَهديتُها إلى أمير المؤمنين ، فبارك الله لأمير المؤمنين فيها. قال: قد قبلتُها ، يا محمد ، عَوِّضْه خمسة آلاف دينار ، وسمّاها «اغتباط» فمطَله ابن الزّيات ، فأعادت الصوت وهو:

أبــت دار الأحبــةِ أن تُبينَــا أجــدَّك هــل رأيــت لهــا معينــا

فقال لها: بارك الله عليك وعلى من ربّاك؛ فقالت: يا سيدي وما ينتفع مَنْ رباني ، وقد أمرت له بشيء لم يصل إليه! فقال الواثق: يا سمّانة ، الدواة؛ فكتب إلى ابن الزيّات: ادفع إلى صالح بن عبد الوهاب ما عوّضناه من ثمن اغتباط خمسة آلاف دينار ، وأضعفها. قال صالح: فصرت إلى ابن الزيّات فقرّبني ، وقال: هذه الخمسة الأولى؛ خذها ، والخمسة الآلاف الأخرى أدفعها إليك بعد جمعة؛ فإن سئلت ، فقل: إني قبضت المال. قال: فكرهت أن أسألَ فأقرَّ بالقبض؛ فاختفيت في منزلي حتى دفع إليّ المال ، فقال لي سمانة: قبضت

المال؟ قلت: نعم ، وترك عمل السلطان ، وتجر بها ، حتى تُوُفِّيَ[١] .

خلافة جعفر المتوكل على الله

وفي هذه السنة بُويع لجعفر المتوكل على الله بالخلافة؛ وهو جعفر بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد ذي الثَّفنات بن عليّ السجّاد ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[٢] .

* * *

ذكر الخبر عن سبب خلافته ووقتها

حدّثني غير واحد؛ أن الواثق لما تُوُفِّيَ حضر الدارَ أَحمد بن أبي دواد وإِيتاخ ووصيف وعمر بن فرَج وابن الزّيّات وأحمد بن خالد أبو الوزير ، فعزموا على البَيْعة لمحمد بن الواثق؛ وهو غلام أَمْرَد ، فأَلبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة رُصافية ، فإِذا هو قصير ، فقال لهم وصيف: أما تتقون الله! تولُّون مثل هذا الخلافة؛ وهو لا يجوز معه الصلاة!.

قال: فتناظروا فيمن يولّونَها ، فذكروا عدّة ، فذُكر عن بعض من حضر الدار مع هؤلاء ، أنه قال: خرجتُ من الموضع الذي كنتُ فيه ، فمررت بجعفر المتوكل؛ فإذا هو في قميص وسِرْوال قاعد مع أبناءِ الأتراك ، فقال لي: ما الخبر؟ فقلت: لم ينقطع أمرهم؛ ثم دَعوْا به ، فأخبره بُغا الشرابيّ الخبرَ ، وجاء به ، فقال: أخاف أن يكون الواثق لم يمت ، قال: فمرّ به ، فنظر إليه مسجّىً ، فجاء فجلس ، فألبسه أحمد بن أبي دواد الطويلة وعمَّمه وقبّله بين عينيه ، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! ثم غُسِّل الواثق وصُلِّيَ عليه

(١) هذه الأخبار لا تصح كسابقتها (٣٠١) والله أعلم.

(٢) وقال البسوي واستخلف (أي الواثق) جعفر بن أبي إسحاق لست ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين [المعرفة ١/ ٧٢].
فقال ابن قتيبة وبويع لجعفر يوم توفي الواثق وأمه أمة تسمى شجاع [المعارف/ ٢٠٠].
وقال الحافظ ابن كثير: بويع له بالخلافة بعد أخيه هارون الواثق وكانت بيعته وقت زوال الشمس من يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة [البداية والنهاية ٨/ ١٨٨].

ودفن ، ثم صاروا من فَوْرهم إلى دار العامة؛ ولم يكن لقِّب المتوكل.

وذكر أنه كان يوم بُويع له ابنَ ست وعشرين سنة؛ ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر؛ وكان الذي كتب البيعة له محمد بن عبد الملك الزيات؛ وهو إذ ذاك على ديوان الرسائل؛ واجتمعوا بعد ذلك على اختيار لقب له ، فقال ابن الزيات: نسمّيه المنتصر بالله؛ وخاض الناس فيها حتى لم يشكّوا فيها ، فلما كان غداة يوم بكّر أحمد بن أبي دواد إلى المتوكل ، فقال: قد روّيت في لقب أرجو أن يكون موافقاً حسناً إن شاء الله؛ وهو المتوكل على الله ، فأمر بإمضائه ، وأحضر محمد بن عبد الملك ، فأمر بالكتاب بذلك إلى الناس ، فنفذت إليهم الكتب ، نسخة ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أمرَ ـ أبقاك الله ـ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يكون الرّسمُ الذي يجرى به ذكرُه على أعواد منابرِه ، وفي كتبه إلى قضاته وكُتّابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وغيرهم مِنْ سائر مَنْ تجرى المكاتبة بينه وبينه: «من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين»؛ فرأيك في العمل بذلك وإعلامي بوصول كتابي إليك موفقاً إن شاء الله.

وذُكِر أنه لما أمر للأتراك برزق أربعة أشهر وللجند والشاكريّة ومَنْ يجرى مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر ، أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر ، فأبوْا أن يقبضوا ، فأرسل إليهم: من كان منكم مملوكاً؛ فليمض إلى أحمد بن أبي دواد حتى يبيعَه؛ ومن كان حرّاً صيرناه أُسْوَة الجند؛ فرضُوا بذلك؛ وتكلّم وصيف فيهم حتى رضي عنهم؛ فأَعْطُوا ثلاثة ، ثم أجروا بعد ذلك مُجْرَى الأتراك. وبويع للمتوكل ساعة مات الواثق بيعة الخاصة وبايعته العامّة حين زالت الشمس من ذلك اليوم.

وذكر عن سعيد الصَّغير أن المتوكل قبل أن يُستخلف ذكر له ولجماعة معه أنه رأى في المنام أن سكَّراً سليمانيّاً يسقط عليه من السماء ، مكتوباً عليه «جعفر المتوكل على الله» ، فعبَّرها علينا ، فقلنا: هي والله أيها الأمير أعزّك الله الخلافة ، قال: وبلغ الواثق ذلك فحبسه ، وحبس سعيداً معه ، وضيَّق على جعفر بسبب ذلك.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمدُ بن داود[١].

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر حبس محمد بن عبد الملك الزيات ووفاته]

فمن ذلك ما كان من غضب المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحبسه إياه[٢].

* ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل إليه الأمر فيه:

أما السبب في غضبه عليه؛ فإنه كان ـ فيما ذكر ـ أنّ الواثق كان استوزر محمد بن عبد الملك الزيات وفوّض إليه الأمور؛ وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور، فوكّل عليه عمر بن فرج الرُّخَّجيّ ومحمد بن العَلاء الخادم؛ فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كلّ وقت؛ فصار جعفر إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يكلمِّ له أخاه الواثق ليرضَى عنه؛ فلمّا دخل عليه مكث واقفاً بين يديه مليّاً لا يكلمه، ثم شار إليه أن يقعد فقعد؛ فلما فرغ من نظره في الكتب، التفت إليه كالمتهدّد له، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لتسأل أمير المؤمنين الرّضا عني، فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، يُغضب أخاه، ويسألني أن استرضيَه له! اذهب فإنك إذا صلحت رضِيَ عنك؛ فقام جعفر كئيباً حزيناً لمَا لقيه به من قُبْح اللقاء والتقصير به؛ فخرج من عنده؛ فأتى عمر بن فرج ليسأله أن يختم له صَكّه ليقبض أرزاقه، فلقيه عمر بن فرج بالخيبة؛ وأخذالصكَّ، فرمى به إلى صَحْن المسجد.

---

(١) وقال البسوي حج بنا محمد بن داود [المعرفة ١/ ٧٢] وانظر تأريخ خليفة (٣١٩).
وهنا توقف خليفة بن خياط رحمه الله (٢٣٢هـ) عن تسجيل الوقائع والأحداث بالترتيب الحولي.

(٢) انظر المنتظم (١١/ ١٨٩).

وكان عمر يجلس في مسجد؛ وكان أبو الوزير أحمد بن خالد حاضراً ، فقام لينصرف ، فقام معه جعفر ، فقال: يا أبا الوزير ، أرأيتَ ما صنع بي عمر بن فرج؟ قال: جعلت فداك! أنا زِمَامٌ عليه؛ وليس يختم صَكّي بأرزاقي إلا بالطلب والترفُّق به؛ فابعث إليّ بوكيلك؛ فبعث جعفر بوكيله؛ فدفع إليه عشرين ألفاً ، وقال: أنْفِق هذا حتى يهيِّىء الله أمرك ، فأخذها ثم أعاد إلى أبي الوزير رسوله بعد شهر؛ يسأله إعانته ، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم؛ ثم صار جعفر من فوْرِه حين خرج من عند عمر إلى أحمد بن أبي دواد ، فدخل عليه ، فقام له أحمد ، واستقبله على باب البيت ، وقبّله والتزمه ، وقال: ما جاء بك ، جعلتُ فداك! قال: قد جئتُ لتسترضيَ لي أمير المؤمنين ، قال: أفعل ونعمةَ عين وكرامة ، فكلّم أحمد بن أبي دواد الواثق فيه ، فوعده ولم يرض عنه؛ فلما كان يوم الحلبة كلّم أحمد بن أبي دواد الواثق، وقال: معروف المعتصم عندي معروف ، وجعفر ابنه؛ فقد كلمتك فيه ، ووعدتَ الرضا؛ فبحقّ المعتصم يا أمير المؤمنين إلاَّ رضيتَ عنه! فرضي عنه من ساعته وكساه ، وانصرف الواثق وقد قلَّد أحمد بن أبي دواد جعفراً بكلامه حتى رضيَ عنه أخوه شكراً، فأحظاه ذلك عنده حين ملك.

وذكر أنّ محمد بن عبد الملك كان كتب إلى الواثق حين خرج جعفر من عنده: يا أمير المؤمنين ، أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زيّ المخنثين له شعر قفا. فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره ، ومُرْ مَنْ يجزّ شعر قفاه ، ثم مُرْ من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه ، واصرفه إلى منزله. فذكر عن المتوكّل أنه قال: لما أتاني رسوله ، لبست سواداً لي جديداً ، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عَنِّي ، فقال: يا غلام ، ادع لي حجّاماً ، فدُعي به ، فقال: خذ شعره واجمعه ، فأخذه على السَّواد الجديد. ولم يأته بمنديل ، فأخذ شعره وشعر قفاه وضرب به وجهه.

قال المتوكِّل: فما دخلَني من الجزع على شيء مثل ما دخلني حين أخذني على السواد الجديد؛ وقد جئته فيه طامعاً في الرضا ، فأخذ شعري عليه.

ولما تُوفِّيَ الواثق أشار محمد بن عبد الملك بابن الواثق ، وتكلّم في ذلك وجعفر في حُجْرة غير الحجرة التي يتشاورون فيها ، فيمن يعقدون ، حتى بُعث

إليه ، فعُقد له هناك؛ فكان سبب هلاك ابن الزّيات .

وكان بُغا الشرابيّ الرسولَ إليه يدعوه ، فسلم عليه بالخلافة في الطريق ، فعقدوا له وبايعوا ، فأمهل حتى إذا كان يوم الأربعاء لسبع خَلَوْن من صفر؛ وقد عزم المتوكِّل على مكروه أن يناله به ، أمر إيتاخ بأخذه وعذابه؛ فبعث إليه إيتاخ ، فظنّ أنه دُعي به ، فركب بعد غدائه مبادراً يظنّ أن الخليفة دعا به؛ فلما حاذى منزل إيتاخ قيل له : اعدل إلى منزل أبي منصور ، فعدَل وأوجس في نفسه خيفةً؛ فلمَا جاء إلى الموضع الذي كان ينزل فيه إيتاخ عُدِل به يمْنةً ، فأحسّ بالشرّ ، ثم أدخِل حجرة ، وأخِذ سيفه ومنطِقته وقلنسوته ودرّاعته؛ فدُفع إلى غلمانه ، وقيل لهم : انصرفوا ، فانصرفوا لا يشكُّون أنه مقيم عند إيتاخ ليشرب النبيذ .

قال : وقد كان إيتاخ أعدّ له رجلين من وجُوه أصحابه؛ يقال لهما يزيد ابن عبد الله الحلواني وهَرْثمة شاربامیان؛ فلما حصل محمد بن عبد الملك خرجا يركُضان في جُنْدهما وشاكريّتهما ، حتى أتيا دار محمد بن عبد الملك ، فقال لهم غلمان محمد : أين تريدون؟ قد ركب أبو جعفر ، فهجما على داره ، وأخذا جميع ما فيها .

فذكر عن ابن الحلوانيّ أنه قال : أتيت البيت الذي كان محمد بن عبد الملك يجلس فيه ، فرأيته رثّ الهيئة قليل المتاع ، ورأيت فيه طنافس أربعة وقنانيّ رطليّات ، فيها شراب؛ ورأيت بيتاً ينام فيه جواريه؛ فرأيت فيه بُورياً ومخادَّ منضّدة في جانب البيت؛ على أن جواريه كنّ ينمْنَ بلا فُرش .

وذكر أنّ المتوكل وجّه في هذا اليوم من قَبض ما في منزله من متاع ودوابَ وحوار وغلمان ، فصيِّر ذلك كله في الهارونيّ ، ووجّه راشداً المغربيَّ إلى بغداد في قبض ما هنالك من أمواله وخَدَمِه ، وأمر أبا الوزير بقبض ضِياعه وضياع أهل بيته حيث كانت . فأمّا ما كان بسامراء فحمل إلى خزائن مَسرور سمانة ، بعد أن اشتُريَ للخليفة؛ وقيل لمحمد بن عبد الملك : وكّلْ ببيع متاعك . وأتوه بالعباس بن أحمد بن رشيد كاتب عُجيف ، فوكّله بالبيع عليه ، فلم يزل أياماً في حبَسْه مطلقاً ، ثم أمر بتقييده فقُيِّد ، وامتنع من الطعام؛ وكان لا يذوق شيئاً ، وكان شديد الجَزع في حبسه ، كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكّر ، فمكث أياماً ثم سُوهر ، ومُنع من النوم ، يساهَر ويُنْخَس بمسلّة ، ثم تُرك يوماً وليلة ،

فنام وانتبه؛ فاشتهى فاكهةً وعِنَباً؛ فأتِيَ به، فأكل ثم أعيد إلى المساهرة، ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد [قيامٌ]. فذكر عن ابن أبي دواد وأبي الوزير أنهما قالا: هو أوّل مَنْ أمر بعمل ذلك؛ فعذّب به ابن أسباط المصريّ حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتُليَ به فعُذِّب به أياماً.

فذُكر عن الدندانيّ الموكّل بعذابه أنه قال: كنت أخرج وأقفل الباب عليه؛ فيمدّ يديه إلى السماء جميعاً حتى يدقّ موضع كتفيه؛ ثم يدخل التَّنُّور فيجلس، والتَّنُّور فيه مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة، يجلس عليها المعذِّب؛ إذا أراد أن يستريح، فيجلس على الخشبة ساعة، ثم يجيء الموكّل به؛ فإذا هو سمع صوت الباب يُفتح قام قائماً كما كان؛ ثم شددوا عليه.

قال المعذِّب له: خاتلته يوماً، وأريتُه أني أقفلت الباب ولم أقفله؛ إنما أغلقته بالقفل، ثم مكثت قليلاً، ثم دفعت الباب غَفْلة؛ فإذا هو قاعد في التَّنُّور على الخشبة، فقلت: أراك تعمل هذا العمل! فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خِناقه، فكان لا يقدر على القعود، واستللت الخشبة حتّى كانت تكون بين رجليه؛ فما مكَث بعد ذلك إلا أياماً حتى مات.

واختلف في الذي قتِل به، فقيل: بُطِح، فضُرب على بطنه خمسين مَقْرعة، ثم قُلِب فضرب على استه مثلها، فمات وهو يُضرَب؛ وهم لا يعلمون، فأصبح ميِّتاً قد التوت عنُقه، ونُتفت لحيته. وقيل: مات بغير ضرب.

وذكر عن مبارك المغربيّ أنه قال: ما أظنه أكل في طول حبسه إلاّ رغيفاًواحداً؛ وكان يأكل العِنبة والعنبتين.

قال: وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه: يا محمد بن عبد الملك؛ لم يقنعك النعمة والدواب الفُرَّه والدّار النظيفة والكسوة الفاخرة؛ وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة؛ ذُق ما عملت بنفسك! فكان يكرّر ذلك على نفسه؛ فلمّا كان قبل موته بيوم؛ ذهب عنه عتابُ نفسه؛ فكان لا يزيد على التشهّد وذكر الله؛ فلما مات أحْضِرَ ابناه سليمان وعبيد الله ـ كانا مجبوسين ـ وقد طُرح على باب من خشب في قميصه الذي حُبس فيه؛ وقد اتَّسخ فقالا: الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق؛ فدُفعت جُثَّته إليهما، فغسلاه على الباب الخشب، ودفناه

وحفرا له ، فلم يعمِّقا؛ فذُكِر أن الكلاب نبشته؛ وأكلت لحمه.

وكان إبراهيم بن العباس على الأهواز ، وكان محمد بن عبد الملك له صديقاً ، فوجّه إليه محمد أحمدَ بن يوسف أبا الجهم ، فأقامه للناس فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، فقال إبراهيم:

وكنتَ أَخي بإِخاء الزمانِ فلما نَبَا عُدْتَ حرباً عَوَانا
وكنت أَذمُّ إِليك الزمانَ فأَصْبَحْتُ منك أَذمُّ الزمانا
وكنت أَعُدُّك للنائباتِ فها أَنا أَطلبُ منك الأَمانا

وقال:

أَصبحتُ مِن رأَي أَبي جعفرٍ في هيئةٍ تنذِرُ بالصَّيْلَمِ
مِنْ غيرِ ما ذَنبٍ ولكنَّها عَدَاوة الزنديقِ للمسْلِمِ

وأحدِر بعد ما قبض عليه مع راشد المغربيّ إلى بغداد ، لأخذ ماله بها ، فوردها ، فأَخذ رَوْحاً غلامَه ـ وكان قَهرمانه ـ في يده أمواله يتّجر بها ، وأخذ عدّة من أهل بيته ، وأخذ معهم حمل بغل ، وجدت له بيوت فيها أنواع التجارة من الحِنْطة والشعير والدّقيق والحبوب والزيت والزبيب والتين وبيت مملوء ثوماً ، فكان جميع ما قبض له مع قيمته تسعين ألف دينار ، وكان حبس المتوكل إياه يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر ووفاته يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من شهر ربيع الأول[١].

* * *

(١) هذا الخبر الطويل استغرق الصفحات (١٥٦ ـ ١٦١) ذكر الطبري بعض أجزائه عن المعذّب وذكر أجزاء أخرى بلا إسناد ومقاطع صغيرة عن رأس المبتدعة ابن أبي دواد ومقطعاً صغيراً عن ابن الحلواني والخبر لايصح وهكذا إسناده والمعذب لم نجد من يذكرهما في الثقات حتى ابن حبان المعروف بتساهله في التوثيق وأما ابن أبي داود فهو من المبتدعين الداعين إلى بدعتهم بل كان السبب في إغراء الخلفاء بأئمة أهل السنة والجماعة وقتلهم وما إلى ذلك فلا اعتبار لخبره.
ومثل هذه التفاصيل تناقلتها كتب التأريخ المتعاقبة وأصلها ها هنا في تأريخ الطبري الذي انفرد بتفاصيلها دون غيره من المؤرخين المتقدمين الثقات والله أعلم.

[ذكر غضب المتوكل على عمر بن فرج][(١)]

وفيها غضب المتوكل على عمر بن فرج؛ وذلك في شهر رمضان ، فدُفع إلى إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، فحُبس عنده ، وكتب في قبض ضياعه وأمواله ، وصار نَجَاح بن سَلَمة إلى منزِله؛ فلم يجد فيه إلا خمسة عشر ألف درهم ، وحضر مسرور سمانة ، فقبض جواريه ، وقُيِّد عمر ثلاثين رطلاً ، وأحضر مولاه نصر من بغداد ، فحمل ثلاثين ألف دينار ، وحمل نصر من مال نفسه أربعة عشر ألف دينار ، وأصيب له بالأهواز أربعون ألف دينار ، ولأخيه محمد بن فرج مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار ، وحُمِل من داره من المتاع ستة عشر بعيراً فُرُشاً ، ومن الجوهر قيمة أربعين ألف دينار ، وحُمِل من متاعه وفرشه على خمسين جملاً ، كرّت مراراً ، وألبس فَرَجِيّة صوف وقُيِّد ، فمكث بذلك سبعاً ، ثم أطلق عنه وقبض قصره ، وأخذ عياله ، ففتِّشوا وكنّ مائة جارية؛ ثم صولح على عشرة آلاف ألف درهم ، على أن يردّ عليه ما حيز عنه من ضياع الأهواز فقط ، ونزعت عنه الجبة الصّوف والقيد؛ وذلك في شوّال.

وقال عليّ بن الجهم بن بدر لنجاح بن سلمة يحرّضه على عمر بن فرج:

أَبلِـغْ نَجَـاحـاً فتـى الكتّـابِ مَـأْلُكَـةً ... تمضِي بِهَا الرِّيحُ إِصداراً وإِيرادَا
لا يخرُج المالُ عفواً من يَدَيْ عمرٍ ... أَو يُغْمَدَ السَّيفُ في فَوْدَيْه إِغماداً
الـرُّخَّجيُّـونَ لا يُـوفـون مـا وعَـدُوا ... والـرخَّجيّـات لا يُخلِفْـنَ ميعـادا

وقال أيضاً يهجوه:

جَمَعتَ أَمرَيْنِ ضاعَ الحزمُ بينهما ... تِيهَ المُلوكِ وأفعالَ! المماليكِ
أَردتَ شكـراً بـلا بـرٍّ ومَـرْزِئـة ... لقـد سَلَكـتَ سبيـلا غيـرَ مسلـوك
ظَنَنْتَ عِرْضَك لم يُقرَعْ بقارعة ... ومـا أَراك علـى حـالٍ بِمتـروكِ

* * *

وفي هذه السنة أمر المتوكّل بإبراهيم بن الجنيد النصرانيّ ، أخي أيوب كاتب

---

(١) انظر تعليقنا الآتي.

سمانة ، فضُرب له بالأعمدة حتى أقرَّ بسبعين ألف دينار ، فوجّه معه مباركاً المغربيّ إلى بغداد حتى استخرجها من منزله ، وجيء به فحُبس .

* * *

[ذكر غضب المتوكل على أبي الوزير وغيره][1]

وفيها غضب المتوكل على أبي الوزير في ذي الحجة ، وأمر بمحاسبته ، فحمل نحواً من ستين ألف دينار ، وحمل بدورَ دراهم وحليّاً ، وأخذ له من متاع مصر اثنين وستين سَفطاً واثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً ، وحبس بخيانته محمد بن عبد الملك أخا موسى بن عبد الملك والهيثم بن خالد النصرانيّ وابن أخيه سعدون بن عليّ ، وصولح سعدون على أربعين ألف دينار ، وصولح ابنا أخيه عبد الله وأحمد على نيّف وثلاثين ألف دينار ؛ وأخذت ضياعهم بذلك .

* * *

وفي هذه السنة استكتب المتوكل محمد بن الفضل الجرجرائيّ .

وفي هذه السنة عزل المتوكل يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيَت من شهر رمضان

---

(١) هذه أخبار ذكرها الطبري وأعني القبض على الكتاب والوزراء المذكورين آنفاً خلال هذه السنة (٢٣٣هـ) ولم يذكر الطبري ما ذكر بإسنادٍ ـ ولم يتطرق خليفة ولا البسوي هذه الأمور وكذلك غيرهما من المؤرخين المتقدمين الثقات فلا نستطيع أن نقول بصحتها وإن كان ذكر الطبري لها على جانب من الأهمية لأن الطبري وإن لم يعاصر تلك الأحداث ولم يكن يومها في دار الخلافة بل كان صغيراً في بلده أمل (من طبرستان) لم يتجاوز العاشرة من عمره إلا أنه رحل إلى بغداد بعد فترة والتقى بمن أخبره هذه الأخبار فلعله التقى بشهود عيان أو سمعها من أفواه الناس دون ذكر لمن هو ثقة دون غيره خلاصة القول: إن كانت هذه الأخبار صحيحة فهي دلالة واضحة على انفلات الأمور من عقالها وخوض الوزراء والكتاب في المال العام واكتسابهم الثروة من طرق غير مشروعة وكل ذلك مخالف لأصول ونصوص السياسة الشرعية ومخالف لما كان عليه الخلفاء الراشدون ومن بعدهم كثير من الخلفاء الأمويين كسيدنا معاوية رضي الله عنه وابن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ومن بعدهم خلفاء بني العباس كالمنصور وغيره وعلى ما يبدو فإن اضطراب أمر الوزراء والكتاب بدا جلياً أيام الواثق عندما تمكنوا من إدارة الأمور وجباية الأموال والله تعالى أعلم .

عن ديوان الخراج الفضلَ بن مرْوان ، وولاّه يحيى بن خاقان الخُراسانيّ مولى الأزْد ، وولَّى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول في هذا اليوم ديوان زِمام النفقات وعزل عنه أبا الوزير.

* * *

وفيها ولَّى المتوكل ابنه محمداً المنتصر الحَرَمين واليمن والطائف ، وعقد له يوم الخميس لإحدى عشرَة ليلة خلت من شهر رمضان(١).

وفيها فُلِج أحمد بن أبي دواد لستّ خلون من جمادى الآخرة(٢).

وفيها قدم يحيى بن هرثمة مكة وهو والي طريق مكة بعليّ بن محمد بن عليّ الرضيّ بن موسى بن جعفر من المدينة.

وفيها وثب ميخائيل بن توفيل على أمّه تذورة فشمّسها وأدخلها الدير ، وقتل اللُّغُشِيط لأنه اتهمها به؛ وكان ملكها ستّ سنين(٣).

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود(٤).

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن هرب محمد بن البعيث]

فمن ذلك ما كان من هرب محمد بن البعيث بن حَلْبَسْ؛ جيء به أسيراً من قبل أذْربيجان فحبس(٥).

---

(١) لهذه الأخبار الموجزة انظر البداية والنهاية (٨/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) لهذه الأخبار الموجزة انظر البداية والنهاية (٨/ ١٨٩).

(٤) وقال البسوي حجّ بنا محمد بن داود بن عيسى ونعى لنا هارون لست عشرة مضت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائتين لقاه على المنبر عن كتاب وكيله إليه وبايع جعفر ثم جاءت الخريطة بموت هارون [المعرفة ١/ ٧٣].

(٥) انظر المنتظم (١١/ ٢٠٦).

*** ذكر الخبر عن سبب هربه وما كان آل إليه أمره:**

ذكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ المتوكل كان اعتلّ في هذه السنة؛ وكان مع ابن البعيث رجلٌ يخدمه يسمّى خليفة، فأخبره بأنّ المتوكل قد تُوفِّيَ، وأعدّ له دوابٌّ، فهرب هو وخليفة الذي أخبره الخبر إلى موضعه من أذْرَبيجان، وموضعه منها مَرَنْد ـ وقيل: كانت له قلعتان تُدْعى إحداهما شاهى والأخرى يَكدرُ ـ ويكدر خارج البحيرة، وشاهى في وسط البحيرة، والبحيرة قدرُ خمسين فرسخاً من حدّ أرْمية؛ إلى رُستاق داخَرّقان بلاد محمد بن الرواد، وشاهى قلعة ابن البعيث حصينة يحيط بها ماء قائم ثَمَّ، يركب الناس من أطراف المراغة إلى أرْمِيَة وهي بحيرة لا سمك فيها ولا خير.

وذُكر أنّ ابن البَعيث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فتكلم فيه بُغَا الشرابيّ، وأخذ منه الكُفَلاء نحواً من ثلاثين كَفيلاً، منهم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانيّ؛ فكان يتردّد بسامراء؛ فهرب إلى مَرَنْد، فجمع بِمَرَنْد الطعام؛ وفيها عيون ماء، فرَمَّ ما كان وَهيَ من سُورها، وأتاه من أراد الفتنة من كلّ ناحية؛ من ربيعة وغيرهم؛ فصار في نحو من ألفين ومائتي رجل.

وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة، فقصّر في طلبه، فولّى المتوكل حمدويه بن عليّ بن الفضل السعديّ أَذْرَبيجان، ووجّهه من سامراء على البريد، فلما صار إليها جمع الجند والشاكريّة ومَن استجاب له، فصار في عشرة آلاف، فزَحف إلى ابن البَعيث، فألجأه إلى مدينة مَرَنْد ـ وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة، ومن خارجها كما تدور شجر إلاّ في موضع أبوابها ـ وقد جمع فيها ابن البعيث آلة الحصار، وفيها عيون ماء، فلما طالت مدّته وجه المتوكل زيرك التركي في مائة ألف فارس من الأتراك فلم يصنع شيئاً، فوجّه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكريّة، فلم يُغنِ شيئاً، فوجَه إليه بغا الشرابيّ في أربعة آلاف ما بين تركيّ وشاكريّ ومغربيّ، وكان حمدويه بن عليّ وعمرو بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مَرَنْد، وقطعوا ما حولها من الشجر، فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغِياض، ونصبوا عليها عشرين مِنْجَنيقاً، وبنوْا بحذاء المدينة ما يستكنّون فيه،

ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثلَ ذلك؛ وكان مَنْ معه من عُلُوج رساتيقه يرمون بالمقاليع ، فكان الرَّجُل لا يقدر على الدنوّ من سُور المدينة ، فقُتل من أولياء السلطان في حَرْبه في ثمانية أشهر نحو من مائة رجل ، وجُرح نحو من أربعمائة ، وقتِل وجرِح من أصحابه مثل ذلك.

وكان حمدويه وعمرو وزيرك يغادونه القتال ويُراوحونه؛ وكان السور من قِبَل المدينة ذليلاً ، ومن القرار نحواً من عشرين ذراعاً ، وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعيث يتدلَّوْن بالحبال ، معهم الرماح فيقاتلون؛ فإذا حُمِل عليهم من أصحاب السلطان لجؤوا إلى الحائط؛ وكانوا ربما فتحوا باباً يقال له باب الماء؛ فيخرج منه العِدّة يقاتلون ثم يرجعون.

ولما قرب بُغا الشرابيّ من مَرَنْد بعث ـ فيما ذكر ـ عيسى بن الشيخ بن السَّليل الشيبانيّ ، ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ، ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلاّ قاتلهم ، فإن ظفر بهم لم يستبقِ منهم أحداً ، ومَنْ نزل فله الأمان؛ وكان عامة مَنْ مع ابن البَعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ؛ فنزل منهم قوم كثير بالحبال ، ونزل خَتن ابن البعيث على أخته أبو الأغر.

وذكر عن أبي الأغرّ هذا أنه قال: ثم فتحوا باب المدينة ، فدخل أصحاب حمدويه وزيرك ، وخرج ابن البعيث من منزله هارباً يريد أن يخرج من وجه آخر؛ فلحقه قوم من الجند ، معهم منصور قَهرمانه؛ وهو راكب دابةً ، يريد أن يصير إلى نهر عليه رحاً ليستخفيَ في الرحا ، وفي عنقه السيف ، فأخذوه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة ، ثم نودي بعد ما انتهب الناس: برئت الذّمة ممن انتهب وأخذوا له أختين وثلاث بنات وخالته والبواقي سراريّ؛ فحصل في يد السلطان من حرمه ثلاث عشرة امرأة ، وأخذ من وجوه أصحابه المذكورين نحوٌ من مائتي رجل ، وهرب الباقون؛ فوافاهم بُغا الشرابيّ من غد ، فنادى مناديه بالمنع من النهْب ، فكتب بُغا الشرابيّ بالفتح لنفسه.

* * *

وخرج المتوكل فيها إلى المدائن في جمادى الأولى.

[ذكر الخبر عن حج إيتاخ وسببه]

وحجّ في هذه السنة إيتاخ ، وكان والي مكة والمدينة والموسم ، ودُعِي له على المنابر[١] .

* **ذكر الخبر عن سبب حجه في هذه السنة :**

ذُكر أن إيتاخ كان غلاماً خَزَرِيّاً لسلام الأبرش طباخاً ، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، وكان لإيتاخ رُجْلة وبأس ، فرفعه المعتصم ومنْ بعده؛ حتى ضمّ إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة ، وولاه المعتصم معونة سامراء مع إسحاق بن إبراهيم؛ وكان مِنْ قِبَله رجل ، ومن قبَل إسحاق رجل؛ وكان مَنْ أراد المعتصم أو الواثق قتله فعند إيتاخ يُقتل ، وبيدهُ يحبْس؛ منهم محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولاد المأمون من سندس ، وصالح بن عُجيف وغيرهم؛ فلمّا ولِيَ المتوكل كان إيتاخ في مرتبته ، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة؛ فخرج المتوكل بعد ما استوتْ له الخلافة متنزِّها إلى ناحية القَاطُول ، فشرب ليلة ، فعربَد على إيتاخ فهمّ إيتاخ بقتله؛ فلما أصبح المتوكل قيل له ، فاعتذر إليه والتزمه ، وقال له: أنت أبي وربَّيْتَني ، فلما صار المتوكل إلى سامراء دسَّ إليه مَنْ يشير عليه بالاستئذان للحجّ ، ففعل وأذِن له ، وصيَّره أمير كلِّ بلدة يدخلها ، وخلع عليه ، وركب جميع القوَّاد معه ، وخرج معه من الشاكرّية والقوّاد والغلمان سوى غلمانه وحَشمه بشر كثير؛ فحين خرج صُيِّرت الحجابة إلى وصيف ، وذلك يوم السبت لاثنتَي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة[٢] .

وقد قيل إن هذه القصة من أمر إيتاخ كانت في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وإن

---

(١) أيّد البسوي أصل هذا الخبر فقال [٨/ ١٨٩]: حجّ في هذه السنة إيتاخ وصدر وذهب أثره إلى اليوم [المعرفة ١/ ٧٣] وأما التفاصيل التالية التي ذكرها الطبري فلم نجد لها تأييداً والله أعلم.

(٢) هذه التفاصيل انفرد بها الطبري دون غيره من الأخباريين والمؤرخين المتقدمين الثقات.
وذكرها الطبري بلا إسناد (ذكر) ومثل هذه التفاصيل لا تصح بهذه الطريقة من الرواية ولو أيّده فيها أحد من المؤرخين المتقدمين الثقات ولو بغير إسنادٍ لتغيّرت المسألة وجُلُّ هذه التفاصيل لا تصح والله تعالى أعلم سوى أمر واحد أيده البسوي وهو أصل الخبر : كما ذكرنا آنفاً.

المتوكل إنما صيَّر إلى وصيف الحجابة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة من سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى[١].

* * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن مقتل إيتاخ]

فمن ذلك مقتل إيتاخ الخزَريّ[٢].

*** ذكر الخبر عن صفة مقتله:**

ذُكر عن إيتاخ أنه لما انصرف من مكّة راجعاً إلى العراق، وجّه المتوكل إليه سعيد بن صالح الحاجب مع كسوة وألطاف، وأمره أن يلقاه بالكُوفة أو ببعض طريقه، وقد تقدّم المتوكل إلى عامله على الشرطة ببغداد بأمره فيه.

فذكر عن إبراهيم بن المدبّر، أنه قال: خرجت مع إسحاق بن إبراهيم حين قَرُب إيتاخ من بغداد، وكان يريد أن يأخذ طريق الفُرات إلى الأنبار، ثم يخرج إلى سامراء، فكتب إليه إسحاق بن إبراهيم: إنّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، قد أمر أن تدخل بغداد، وأنْ يلقَاك بنو هاشم ووجُوه الناس، وأن تقعد لهم في دار خُزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز. قال: فخرجنا حتى إذا كنا بالياسريّة،

---

(١) وقال البسوي: سنة أربع وثلاثين ومائتين حجَّ بنا محمد بن داود بن عيسى [المعرفة ١/ ٧٣].

(٢) انظر المنتظم (١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) فقد ذكر هذا الخبر مختصراً عما ذكره الطبري في تأريخه (٩/ ١٦٨ ـ ١٧٠) ولم نجد للتفاصيل التي ذكرها الطبري تأييداً عند مؤرخ متقدم ثقة والله أعلم.

وقد شحن ابن إبراهيم الجسر بالجُنْد والشاكريّة ، وخرج في خاصّته ، وطُرِح له بالياسرية صُفَّة ، فجلس عليها حتى قالوا : قد قَرُب منك . فركب فاستقبله؛ فلما نظر إليه أهوى إسحاق لينزل ، فحلف عليه إيتاخ ألاّ يفعل .

قال : وكان إيتاخ في ثلاثمائة من أصحابه وغلمانه، عليه قَباء أبيض، متقلّداً سيفاً بحمائل ، فسارا جميعاً؛ حتى إذا صارا عند الجسر تقدّمه إسحاق عند الجسر ، وعبرَ حتى وقف على باب خُزيمة بن خازم ، وقال لإيتاخ : تدخل أصلح الله الأمير! وكان الموكَّلون بالجْسر كلما مرَ بهم غلام من غلمانه قدّموه؛ حتى بقيَ خاصّة غلمانه ، ودخل بين يديه قوم ، وقد فرشت له دار خزيمة ، وتأخّر إسحاق ، وأمر ألاّ يدخل الدار من غلمانه إلا ثلاثة أو أربعة ، وأخذت عليه الأبواب ، وأمر بحراسته من ناحية الشطّ ، وكسرت كل درجة في قصر خُزيمة بن خازم ، فحين دخل أغلق الباب خلفه ، فنظر فإذا ليس معه إلاّ ثلاثة غلمان ، فقال : قد فعلوها! ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه؛ ولو دخل إلى سامراء ، فأراد بأصحابه قتلَ جميع من خالفه أمكنه ذلك . قال : فأتِيَ بطعام قرب الليل ، فأكل فمكث يومين أو ثلاثة ، ثم ركب إسحاق في حرّاقة وأعدّ لإيتاخ أخرى ، ثم أرسل إليه أن يصير إلى الحرّاقة ، وأمر بأخذ سيفه ، فحدَروه إلى الحرّاقة ، وصُيِّرَ معه قوم في السلاح وصاعَدَ إسحاق ، حتى صار إلى منزله ، وأخرج إيتاخ حين بلغ دار إسحاق ، فأدخِل ناحية منها ، ثم قيِّد فأثقِل بالحديد في عُنقه ورجليه، ثم قدِّم بابنيه منصور ومظفر ، وبكاتبيه سليمان بن وهبْ وقدامة بن زياد النصرانيّ بغداد. وكان سليمان على أعمال السلطان ، وقدامة على ضياع إيتاخ خاصّة ، فحبِسوا ببغداد؛ فأما سليمان وقُدامة فضُرِبا ، فأسلم قُدامة وحُبس منصور ومظفر .

وذكر عن تُرْك مولى إسحاق أنه قال : وقفت على باب البيت الذي فيه إيتاخ محبوس ، فقال لي : يا ترك ، قلت : ما تريد يا منصور؟ قال : أقرِيء الأمير السلام ، وقل له : قد علمتَ ما كان يأمرني به المعتصم والواثق في أمرك؛ فكنت أدفع عنك ما أمكنني؛ فلينفعْني ذلك عندك؛ أما أنا فقد مرّ بي شدّة ورخاء؛ فما أبالي ما أكلت وما شربت ، وأمّا هذان الغلامان؛ فإنهما عاشا في نعمة ولم يعرفا البؤس ، فصيّرْ لهما مَرَقة ولحماً وشيئاً يأكلان منه . قال ترْك : فوقفتُ على

باب مجلس إسحاق ، قال لي: مالك يا ترك؟ أتريد أن تتكلم بشيء؟ قلت: نعم ، قال لي إيتاخ كذا ، كذا ، قال: وكانت وظيفة إيتاخ رغيفاً وكوزاً من ماء ، ويأمر لابنيه بخوان فيه سبعة أرغفة وخمس غُرف؛ فلم يزل ذلك قائماً حياة إسحاق ، ثم لا أدري ما صنع بهما؛ فأما إيتاخ فقُيِّد وصُيِّر في عنقه ثمانون رطلاً ، وقَيْدٌ ثقيل ، فمات يوم الأربعاء لخمس خلوْن من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين ، وأشهد إسحاق على موته أبا الحسن إسحاق بن ثابت بن أبي عباد وصاحب بريد بغداد والقضاة ، وأراهم إياه لا ضَرْبَ به ولا أثر.

وحدثني بعض شيوخنا أن إيتاخ كان موته بالعطش ، وأنه أطعِم فاستسقى فمنع الماء ، حتى مات عطشاً ، وبقي ابناه في الحبس حياةَ المتوكل ، فلما أفضَى الأمر إلى المنتصر أخرجَهما؛ فأما مظفّر فإنه لم يعش بعد أن أخرج من السجن إلا ثلاثة أشهر حتى مات؛ وأما منصور فعاش بعده.

* * *

[ذكر خبر أسر ابن البعيث وموته][1]

وفي هذه السنة قدم بُغا الشرابيّ بابن البَعيث في شوّال وبخليفته أبي الأغرّ وبأخوَي ابن البعيث صقْر وخالد ـ وكانا نزلا بأمان ـ وبابن لابن البعيث ، يقال له العلاء؛ خرج بأمان ، وقدم من الأسرى بنحو من مائة وثمانين رجلاً ، ومات باقيهم قبل أن يصلوا؛ فلمّا قربوا من سامراء حُملوا على الجِمال يستشرفهم الناس ، فأمر المتوكل بحبسه وحبسهم ، وأثقله حديداً.

فذُكر عن عليّ بن الجهم ، أنه قال: أتي المتوكل بمحمد بن البعيث ، فأمر بضرب عنقه ، فطرِح على نِطَع ، وجاء السيَّافون فلوّحوا له ، فقال المتوكّل ، وغلظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعتَ؟ قال: الشقوة ، وأنت الحبل

---

(١) علي بن جهم الخراساني شاعر مشهور صاحب ديوان معروف قال الخطيب في ترجمته كان ديناً فاضلاً وقد اتهمه المسعودي بالنصب ولا يؤخذ بقول المسعودي فهو غير ثقة عند أهل الحديث وهو معروف ببدعته التي جعلت منه مؤرخاً منحازاً غير محايد وغير عدل في أخباره وانظر المنتظم (١١/ ٢٢٢).

الممدود بين الله وبين خلقه؛ وإن لي فيك لظنَّيْن أسبقهما إلى قلبي أوْلاهما بك؛ وهو العفو؛ ثم اندفع بلا فضل، فقال:

أَبَى الناسُ إلا أَنك اليومَ قاتِلِي ... إمامَ الهُدَى والصفح بالناسِ أَجمَلُ

وهل أَنا إلا جُبلةٌ من خَطيَّةٍ ... وعفوك من نور النبوَّةِ يُجْبَلُ

فإنَّك خيرُ السابقين إلى العُلاَ ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل

قال عليّ: ثم التفت إليّ المتوكل، فقال: إن معه لأدباً، وبادرت فقلت: بل يفعل أمير المؤمنين خيرَهما ويمنّ عليك؛ فقال: ارجع إلى منزلك.

وحدّثني.... أنه أنشدني بالمراغة جماعة من أشياخها أشعاراً لابن البعيث بالفارسية، ويذكرون أدبه وشجاعته، وله أخبار وأحاديث.

وحدّثني بعضُ مَنْ ذكر أنه شهد المتوكّل حين أتِيَ بابن البَعِيث، وكلّمه ابن البَعيث بما كلَّمه به، فتكلّم فيه المعتزّ؛ وهو جالس مع أبيه المتوكل، فاستوهبه فُوهِب له، وعُفي عنه.

وكان ابن البَعيث حين هرب قال:

كمْ قد قضيت أموراً كان أَهمَلَها ... غيرِي وقد أَخذ الإفلاسُ بالكَظَم

لا تَعْذِلِينِيَ فيما ليس ينفعُني ... إليكِ عني جَرى المِقدارُ بالقَلم

سأتلِفُ المالَ في عُسرٍ وفي يُسرٍ ... إن الجوَادَ الذي يُعْطِي على العدَمِ

وكان ابنِ البعيث حين هرب خلّف في منزله ثلاثة بنين له، يقال لهم: البَعيث وجعفر وحَلْبس، وجواريَ، فحبِسوا ببغداد في قصر الذّهب، فتكلّم بُغا الشرابيّ بعد موت ابن البعيث ـ ومات بعد دخوله سامراء بشهر ـ في أبي الأغرّ خَتنَه، فأطلِق وأطلقتْ خالةٌ لابن البعيث، فخرجتْ من السجن، فماتت فرحاً من يومها، وبقي الباقون في الحبس.

وذكر أنّ ابن البعيث صُيِّر في عنقه مائة رطل، فلم يزل مكبوباً على وجهه حتى مات.

ولما أخِذ ابنُ البعيث أخرِج من الحبس مَنْ كان محبوساً بسبب كفالته به، وقد كان بعضهم مات، في الحبْس، فأخرج بعدُ باقي عياله وصُيِّرَ بنوه: حَلْبسَ

والبعيث وجعفر في عِداد الشاكريّة مع عبيد الله بن خاقان ، وأجْريتْ عليهم الأنزال .

* * *

[أمر المتوكل مع النصارى](١)

وفي هذه السنة أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذّمة كلهم بلبس الطيالسة العسليّة والزّنانير وركوب السروج يركب الخشَب وبتصيير كُرَتَيْن على مؤخّر السروج ، وبتصيير زِرّين على قَلانس مَنْ لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٌ لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه؛ وأن تكون إحدى الرُّقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى منهما خلْف ظهره؛ وتكون كلُّ واحدة من الرُّقعتين قَدْر أربع أصابع ، ولونهما عسليّاً ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسليّ ، ومن خرج من نسائهم فبرزتْ فلا تبرز إلاَّ في إزار عسليّ ، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزَّنانير وبمنعهم لبسَ المناطق ، وأمر بهدم بيَعهم المحدثة ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وإن كان الموضع واسعاً صُيِّر مسجداً ، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صُيِّر فضاء ، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صورَ شياطين من خشب مسمورة؛ تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ، ونهى أن يتعلّم أولادُهم في كتاتيب المسلمين ، ولا يعلِّمهم مسلم ، ونهى أن يُظهروا في شعانينهم صليباً ، وأن يشمعلوا في الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض ، لئلا تشبه قبور المسلمين .

وكتب إلى عماله في الآفاق:(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد؛ فإنّ الله تبارك وتعالى بعزّته التي لا تحاوَل

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٢٢).

(٢) لم نجد ذكراً لهذه الرسالة عند أيّ من المؤرخين المتقدمين الثقات سوى الطبري والله أعلم ٩/ ١٧٥ .

وقدرته على ما يريد؛ اصطفى الإسلام فَرَضِيَهُ لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيّد به أولياءه ، وكَنَفَه بالبرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديّان ، مبرّأً من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبوّاً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها؛ وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلالِه ، وحرّم عليهم من حرامه؛ وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقال فيما حرّم على أهله مما غمط فيه أهل الأديان من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزّههم عنه وليظهر به دينهم ، ليفضّلهم عليهم تفضيلا: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ . . . ﴾ إلى آخر الآية ، ثم ختم ما حرّم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه؛ ممن عندَ عنه وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . ﴾ الآية ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ . . . ﴾ وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ . . . ﴾ الآية ، فحرّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسَها وأنجسها ، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً ، وأولاها عند ذوي الحِجَى والألباب تحريماً ، ثم حباهم محاسنَ الأخلاق وفضائل الكرامات؛ فجعلهم أهلَ الإيمان والأمانة ، والفَضْل والتراحم واليقين والصدق؛ ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابرُ ، ولا الحميّة ولا التكبر ، ولا الخيانة ولا الغدر ، ولا التباغي ولا التظالم؛ بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى ، ووعد وأوعد عليها جَنّته ونارَه ، وثوابه وعقابه؛ فالمسلمون بما اختصَّهم الله من كرامتِه ، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم ، بائنون على الأديان بشرائِعهم الزّاكية ، وأحكامهم المرضية الطاهرة ، وبراهينهم المنيرة ، وبتطهير الله دينهم بما أحلّ وحرّم فيه لهم وعليهم ، قضاء من الله عزّوجلَّ في إعزاز دينه؛ حتماً ومشيئةً منه في إظهار حقه

ماضية ، وإرادةً منه في إتمام نعمته على أهله نافذة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزيّ في الدُّنيا والآخرة على الكافرين .

وقد رأى أمير المؤمنين ـ وبالله توفيقه وإرشاده ـ أن يحمل أهل الذمّة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله؛ أقربِها وأبعدها ، وأخصّهم وأخسّهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها؛ مَنْ لبسها من تجّارهم وكتابهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العسليّة ، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره ، ومَنْ قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ، ومَنْ يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خِرْقتين صبغهما ذلك الصَّبغ يكون استدارة كلّ واحدة منهما شبراً تامّاً في مثله ، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه ، تلقاء صدره ، ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرّة عليها تُخالف ألوانها ألوان القلانس؛ ترتفع في أماكنها التي تقع بها ، لئلا تلصق فتُستَر ولا ما يركّب منها على حباك فتخفى؛ وكذلك في سروجهم باتّخاذ رُكب خشب لها ، ونَصْبِ أكَرٍ على قرابيسها؛ تكون ناتئة عنها ، وموفية عليها ، لا يرخّص لهم في إزالتها عن قرابيسهم ، وتأخيرها إلى جوانبها؛ بل يُتفقَّد ذلك منهم؛ ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يتبيّنهُ الناظر من غير تأمُّل ، وتأخذه الأعين من غير طلب ، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ، ومَنْ يلبس المناطق من تلك الطبقة بشدّ الزنانير والكساتيج مكان المناطق التي كانت في أوساطهم ، وأن توعِزَ إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدّم إليهم فيه ، وتحذّرهم إدهاناً وميلاً ، وتتقدّم إليهم في إنزال العقوبة بمَنْ خالف ذلك من جميع أهل الذّمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره؛ ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها ، وأخذهم بها إن شاء الله .

فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وأنفذ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله؛ وأمير المؤمنين يسأل الله ربّه ووليّه أن يُصَلِّيَ على محمد عبده ورسوله ﷺ وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولى ما ولّاه مما لا يبلغ حقه فيه إلاّ بعونه؛

حفظاً يحمل به ما حمله ، وولاية يقضي بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه ، وأفضل مزيده؛ إنه كريم رحيم.

وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين(١).

فقال عليّ بن الجهم:

العَسلِيَّاتُ التي فرَّقَتْ بين ذوي الرِّشْدَةِ والغَيِّ
وما على العاقل إنْ تَكْثُرُوا فإنه أَكثرُ للفَيِّ

* * *

[ظهور محمود بن الفرج النيسابوريّ](٢)

وفي هذه السنة ظهر بسامراء رجلٌ يقال له محمود بن الفرج النيسابوريّ فزعم أنه ذو القرنين ، ومعه سبعة وعشرون رجلاً عند خشبة بابَك ، وخرج من أصحابه بباب العامة رجُلان ، وببغداد في مسجد مدينتها آخران ، وزعما أنه نبيّ ، وأنه ذو القرنين؛ فأتِيَ به وبأصحابه المتوكّل ، فأَمر بضربه بالسياط؛ فضرب ضرباً شديداً ، فمات من بعد من ضَرْبِهِ ذلك ، وحُبِس أصحابه؛ وكانوا قدموا من نيسابور ، ومعهم شيء يقرؤونه ، وكان معهم عيالاتهم ، وفيهم شيخ يشهد له بالنبوّة ، ويزعم أنه يوحى إليه ، وأنّ جبريل يأتيه بالوحي ، فضُرب محمود مائة سوط ، فلم ينكر نبوّته حين ضُرب ، وضُرب الشيخ الذي كان يشهد له أربعين سوطاً ، فأنكر نبوَّته حتى ضرب. وحُمل محمود إلى باب العامّة ، فأكذب نفسه ، وقال: الشيخ قد اختدعني ، وأمر أصحاب محمود أن يصفعوه فصفعوه؛ كلّ واحد منهم عشر صفعات ، وأخذ له مصحف فيه كلام قد جمعه ذكر أنه قرآنه ،

---

(١) خبر هذه الرسالة غير صحيح وهو عند الطبري بلا إسناد ومع التساهل في رواية التأريخ فإننا لم نجد ما يؤيده من مصدر موثوق. ومن أدلة زيف هذا الخبر ما جاء في أوله [وكتب إلىٰ عماله في الآفاق] فكيف برسالة تصدر من الخليفة العباسي وتنتشرُ في جميع الآفاق ثم لا تكتب في جميع المصادر التأريخية الموثوقة آنذاك بل ولا في واحدة منها؟.

(٢) انظر المنتظم (١١/ ٢٢٣).

وأن جبريل عليه السلام كان يأتيه به ، ثم مات يوم الأربعاء لثلاث خلوْن من ذي الحجة في هذه السنة ودفن في الجزيرة .

* * *

[ذكر عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة][1]

وفي هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة : لمحمد وسماه المنتصر ، ولأبي عبد الله بن قبيحة ـ ويختلف في اسمه ، فقيل إن اسمه محمد ، وقيل : اسمه الزبير ، ولقبه المعتزّ ـ ولإبراهيم وسماه المؤيّد بولاية العهد ، وذلك ـ فيما قيل ـ يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة ـ وقيل لليلتين بقيتا منه ـ وعقد لكلّ واحد منهم لواءين ؛ أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل ، وضمّ إلى كلٍّ واحد من العمل ما أنا ذاكره .

فكَان ما ضمّ إلى ابنه محمد المنتصر من ذلك إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنَّسرين والعواصم والثغور الشامية والجزريّة وديار مُضر وديار ربيعة والموصل وهِيت وعَانات والخابُور وقَرقيسيا وكور باجَرْمَى وتَكرِيت وطساسيج السواد وكور دِجلة والحرَمين واليمَن وعكّ وحضرموت واليَمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفَرْج بيت الذهب وكُور الأهواز والمستغلّات بسامراء وماه الكوفة وماه البصرة وماسَبَذان ومِهرجان قَذَق وشهرزور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقمّ وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضّياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة .

وكان ما ضمّ إلى ابنه المعتزّ كُور خراسان وما يضاف إليها ، وطبرستان والرّيّ وإرمينيَة وأذْرَبيجان وكُور فارس . ضم إليه في سنة أربعين خَزْن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم .

وكان ما ضمّ إلى ابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين ، فقال أبو الغصْن الأعرابيّ :

---

(١) وذكر ابن قتيبة الدينوري أصل الخبر في بيعة الأولاد الثلاثة [المعارف/ ٢٠٠] دون ذكر التفاصيل .

إنَّ وُلاَةَ المسلميـــــنَ الجِلَّـــــهْ   محمّـــدٌ ثـــم أبـــو عَبْـــدِ الله
ثمَّـــتَ إِبـــراهيـــمُ آبـــى الـــذِّلــهْ   بُـــورِكَ فـــي بنِـــى خليفـــةِ اللهْ

وكتب بينهم كتاباً نسخته :

هذا كتاب كتبه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ومَنْ حضر من أهل بيته وشيعته وقوّاده وقُضاته وكفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لمحمد المنتصر بالله ، ولأبي عبد الله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين؛ في أصالة من رأيه ، وعموم من عافية بدنه ، واجتماع من فهمه ، مختاراً لما شهد به ، متوخيّاً بذلك طاعةَ ربه ، وسلامة رعيّته واستقامتها وانقياد طاعتها ، واتساعَ كلمتها؛ وصلاح ذات بينها؛ وذلك في ذي الحجة سنة خمسة وثلاثين ومائتين [أنه جعل]؛ إلى محمد المنتصر بالله بن جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين في حياته والخلافة عليهم من بعده؛ وأمره بتقوى الله التي هي عِصْمة مَن اعتصم بها ونجاةُ من لجأ إليها ، وعزّ من اقتصر عليها؛ فإن بطاعة الله تمّ النعمة ، وتجب من الله الرحمة ، والله غفوررحيم. وجعل عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين الخلافة من بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين إلى أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، ثم من بعد أبي عبد الله المعتز ابن أمير المؤمنين الخلافة إلى إبراهيم المؤيد بالله ابن أميرِ المؤمنين.

وجعلَ عبدُ الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين لمحمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين السمع والطاعة والنصيحة والمشايعة والمُوالاة لأوليائه والمعاداة لأعدائه ، في السرّ والجهر ، والغضب والرضا ، والمنع والإعطاء ، والتمسك ببيعته ، والوفاء بعهده ، لا يبَغيانه غائلة ، ولا يحاولانه مخاتَلةً ، ولا يمالئان عليه عدوّاً ، ولا يستبدّان دونه بأمر يكون فيه نقضٌ لما جعل إليه أمير المؤمنين من ولاية العهد في حياته والخلافة من بعده.

وجعل عبد الله جعفر الإمام المتوكل علىٓ الله أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبد الله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما ، وعهد به إليهما من الخلافة بعد محمد

المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، وإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخليفة من بعد أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، والإتمام على ذلك ، وألاّ يَخْلعهما ولا واحداً منهما ، ولا يعقد دونهما ولا دون واحد منهما بيعةً لولد ، ولا لأحد من جميع البريّة ، ولا يؤخّر منهما مقدّماً ، ولا يقدّم منهما مؤخّراً ، ولا يَنْقصهما ولا واحداً منهما شيئاً من أعمالهما التي ولاهما عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين وكلَّ واحد منهما؛ من الصلاة والمعاون والقضاء والمظالم والخراج والضّياع والغنيمة والصّدقات وغير ذلك من حقوق أعمالهما ، وما في عمل كلّ واحد منهما؛ من البريد والطُّرُر وخزَن بيوت الأموال والمعاون ودُور الضّرْب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين ، ويجعلها إلى كلّ واحد منهما ، ولا ينقل عن واحد منهما أحداً من ناحيته من القوّاد والجند والشاكريّة والموالي والغلمان وغيرهم؛ ولا يعترض عليه في شيء من ضِياعه وإقطاعاته وسائر أمواله وذخائره وجميع ما في يده ، وما حواه وملكتْ يده من تالد وطارف ، وقديم ومستأنف؛ وجميع ما يستفيده ويُستفاد له بنقص ، ولا يحرم ولا يجنف ، ولا يعرض لأحد من عماله وكتّابه وقضاته وخدمه ووكلائه وأصحابه ، وجميع أسبابه بمناظرة ولا محاسبة؛ ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلها ، ولا يفسخ فيما وكّده أمير المؤمنين لهما في هذا العقد والعهد ، بما يزيل ذلك عن جهته ، أو يؤخّره عن وقته ، أو يكون ناقضاً لشيء منه .

وجعل عبد الله جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتّز بالله ابن أمير المؤمنين إن أفضت إليه الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين مثل الشرائط التي اشترَطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين بجميع ما سمّى فيه ووصف في هذا الكتاب ، وعلى ما بيّن وفسّر ، مع الوفاء من أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، بما جعله أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين من الخلافة وتسليم ذلك راضياً به ممضياً له؛ مقدّماً ما فيه حق الله عليه وما أمره به أمير المؤمنين ، غير ناكث ولا ناكب بذلك ، ولا مبدّل ، فإن الله تعالى جدُّه وعزّ ذكره يتوعّد مَن خالف أمره ، وعَنَد عن سبيله في محكم كتابه : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ .

على أن لأبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، الأمان ، وهما مقيمان بحضرته أو أحدهما ، أو كانا غائبين عنه؛ أو مجتمعين كانا أو متفرّقين. ويستمر أبو عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بخراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمونة إليها ، ويستمر إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بالشام وأجنادها؛ فعلى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، أن يُمضيَ أبا عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إلى خُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، وأن يسلّم له ولايتَها وأعمالها كلها وأجنادها والكُور الداخلة فيما ولّى جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أبا عبد الله المعتّز بالله ابن أمير المؤمنين ، فلا يعوّقه عنها ، ولا يحبسُه قَبله ولا في شيء من البلدان دون خراسان والكور والأعمال المضمومة إليها ، وأن يعجّل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، مُفْرَداً بها مفوّضاً إليه أعمالها كلها؛ لينزل حيث أحبّ من كُور عمله ، ولا ينقله عنها ، وأن يَشخص معه جميع من ضَمّ إليه أمير المؤمنين ، ويضمّ من مواليه وقوّاده وشاكريّته وأصحابه وكتابه وعماله وخدَمَه ومَن اتبعه من صُنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعيالهم وأموالهم؛ ولا يحبس عنه أحداً ، ولا يشرك في شيء من أعماله أحداً ، ولا يوجّه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ، ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير.

وأن يطلق محمد المنتصر بالله لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخروجَ إلى الشام وأجنادها فيمن ضمّ أمير المؤمنين ويضمه إليه من مواليه وقوّاده وخدَمه وجنوده وشاكريّته وصحابته وعُمّاله وخدّامه ومَن اتبعه من صنوف الناس بأهاليها وأولادهم وأموالهم ، ولا يحبس عنهم أحداً ، ويسلّم إليه ولايتها وأعمالها وجنودها كلَّها ، لا يعوّقه عنها ، ولا يحبسه قِبلَه ولا في شيء من البلدان دونَها ، وأن يعجِّل إشخاصه إلى الشام وأجنادها والياً عليها ، ولا ينقله عنها؛ وأنّ عليه له فيمن ضمّ إليه من القوّاد والموالي والغلمان والجنود والشاكرية وأصناف الناس وفي جميع الأسباب والوجوه مثل الذي اشترط على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبد الله المعتّز بالله ابن أمير المؤمنين في خُراسان وأعمالها على ما رسم من ذلك ، وبيّن ولخص ، وشرح في هذا الكتاب.

ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتّز بالله ابن أمير المؤمنين ـ إذا أفضت الخلافة إليه ، وإبراهيم المؤيد بالله مقيم بالشام ـ أن يُقرّه بها أو كان بحضرته ، أو كان غائباً عنه ، أن يمضيَه إلى عمله من الشأم ، ويسلّم إليه أجنادَها وولايتها وأعمالها كلها ، ولا يعوّقه عنها ، ولا يحبسه قِبلَه ولا في شيء من البلدان دونها ، وأن يُعجّلَ إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها؛ على مثل الشرط الذي أخذ لأبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها؛ على ما رسم ووصف وشرط في هذا الكتاب؛ لم يجعل أمير المؤمنين لواحد ممن وقعت عليه وله هذه الشروط؛ من محمد المنتصر بالله ، وأبي عبد الله المعتّز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله؛ بني أمير المؤمنين ، أن يزيل شيئاً مما اشترطنا في هذا الكتاب ، ووكّدنا ، وعليهم جميعاً الوفاءُ به؛ لا يقبل الله منهم إلاّ ذلك ، ولا التمسُّك إلا بعهد الله فيه؛ وكان عهد الله مسؤولاً .

أشهد الله ربّ العالمين جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ومن حضره من المسلمين بجميع ما في هذا الكتاب على إمضائه إياه؛ على محمد المنتصر بالله ، وأبي عبد الله المعتّز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين بجميع ما سمّى ووصَف فيه ، وكفى بالله شهيداً ومعيناً لمن أطاعه راجياً ، ووفَّى بعهده خائفاً وحسيباً ، ومعاقباً من خالفه معانداً ، أو صَدَف عن أمره مجاهداً .

وقد كتب هذا الكتاب أربع نسخ ، وقعت شهادة الشهود بحضرة أمير المؤمنين في كلّ نسخة منها؛ في خزانة أمير المؤمنين نسخة ، وعند محمد المنتصر ابن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

وقد ولى جعفر الإمام المتوكل على الله أبا عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين أعمال فارس وإرمينيَة وأذْرَبيجان إلى ما يلي أعمال خراسان وكُورها والأعمال المتصلة بها والمضمومة إليها ، على أن يجعل له على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في ذلك الذي جعل له في الحياطة في نفسه ، والوثاق في أعماله ، والمضمومين إليه ، وسائر من يستعين به من الناس جميعاً في خُراسان

والكُورالمضمومة إليها والمتصلة بها على ما سمّي ووصف في هذا الكتاب.

وقال إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول يمدح بني المتوكل الثلاثة: المنتصر، والمعتّز، والمؤيد:

أَضْحَتْ عُرَى الإِسلامِ وَهيْ مَنُوطةٌ ... بالنَّصْرِ والإِعزاز والتأْييدِ
بخليفة من هاشمٍ وثلاثةٍ ... كنفوا الخلافةَ من وُلاةِ عهودِ
قمرٌ توالتْ حولهُ أَقمارُهُ ... يكنفْنَ مطلَعَ سعدِهِ بسعود
كَنَفَتْهمُ الآباءُ واكتنفتْ بهمْ ... فسعوا بأَكرمِ أنفسٍ وجُدُودِ

وله في المعتّز بالله:

أَشرقَ المشرِقُ بالمعتز ... باللهِ ولا حَا
إِنما المعتز طِيبٌ ... بُثَّ في الناس فَفاحا

وله أيضاً فيها:

اللهُ أَظهرَ دينَهُ ... وأَعزَّهُ بمحمدِ
واللهُ أَكرَمَ بالخلا ... فةِ جعفرَ بنَ محمدِ
واللهُ أَيَّد عهدَه ... بمحمدٍ ومحمدِ
ومُؤيّدٍ لمؤيدَيْنِ ... إِلى النبيّ محمَّدِ

* * *

وفيها كانت وفاة إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر في يوم الثلاثاء لستٍّ بقين من ذي الحجة، وقيل كانت وفاته لسبع بقين منه. وصيّر ابنه مكانه، وكسى خمس خلع، وقلِّد سيفاً، وبعث المتوكل حين انتهى إليه خبرُ مرضه بابنه المعتّز لعيادته مع بُغا الشرابيّ وجماعة من القواد والجند[1].

وذكر أن ماء دجلة تغيّر في هذه السنة إلى الصُّفْرة ثلاثة أيام، ففزع الناس لذلك، ثم صار في لون ماء المدود وذلك في ذي الحجة.

* * *

وفيها أتِي المتوكل بيحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن عليّ بن أبي طالب

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٢٥).

عليه السلام من بعض النواحي؛ وكان ـ فيما ذكر ـ قد جمع قوماً ، فضربه عمر بن فرج ثمان عشرة مقرعة ، وحبس ببغداد في المطبق[١] .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود[٢] .

* * *

ثم دخلت سنة ستّ وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[خبر مقتل محمد بن إبراهيم بن مصعب][٣]

فمن ذلك ما كان من مقتل محمد بن إبراهيم بن مُصعب بن زُرَيق ، أخي إسحاق بن إبراهيم بفارس .

*** ذكر الخبر عن مقتله وكيف قتل :**

حدّثني غير واحد ، عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم؛ أن أباه إسحاق بلَغه عنه أنه أكول لا يملأ جوفَه شيء ، وأنه أمر باتخاذ الطعام والإكثار منه ، ثم أرسل إليه فدعاه ، ثم أمره أن يأكل ، وقال له: إني أحبّ أن أرى أكلك ، فأكل وأكثر حتى عجب إسحاق منه ، ثمّ قُدّم إليه بعد ما ظنّ أنه شبع وامتلأ من الطعام حَمَلٌ مشوي ، فأكل منه حتى لم يبق منه إلا عظامُه؛ فلما فرغ من أكله ، قال: يا بنيّ ، مالُ أبيك لا يقوم بطعام بطنك؛ فالحق أمير المؤمنين؛ فإنّ ماله أحْمَلُ لك من مالي. فوجّهه إلى الباب وألزمه الخدمة ، فكان في خدمة السلطان حياة أبيه ، وخليفة أبيه ببابه ، حتى مات أبوه إسحاق؛ فعقد له المعتزّ على فارس ، وعقد له المنتصر على اليمامة والبحرين وطريق مكة ، في المحرّم من هذه السنة ، وضمّ إليه المتوكِّل أعمال أبيه كلها ، وزاده المنتصر ولاية مصر؛ وذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ حمل إلى المتوكل وأولياء عهده مما كان في خزائن أبيه من الجواهر

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٢٥).

(٢) وقال البسوي وحجّ بنا (أي في سنة ٢٣٥) محمد بن داود بن عيسى [المعرفة ١/ ٧٣].

(٣) انظر البداية والنهاية [٨/ ١٩٠].

والأشياء النفيسة ما حظِيَ به عندهم ، فرفعوه ورفعوا مرتبته .

فلما بلغ محمد بن إبراهيم ما فعِل بابن أخيه محمد بن إسحاق تنكَّر للسلطان ، وبلغ المتوكل عنه أمور أنكرها ، فأخبرني بعضهم أنّ تنكّر محمد بن إبراهيم إنما كان لابن أخيه محمد بن إسحاق ، واعتلاله عليه بحمْل خراج فارس إليه . وإن محمداً شكا إلى المتوكل ما كان من تنكر عمّه محمد بن إبراهيم في ذلك ، فبسط يده عليه ، وأطلق له العمل فيه بما أحبّ ، فولّى محمد بن إسحاق الحسينَ بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب فارسَ ، وعزل عمه ، وتقدم محمد إلى الحسين بن إسماعيل في قتل عمِّه محمد بن إبراهيم؛ فذُكر أنه لما صار إلى فارس أهدى إليه في يوم النيروز هدايا؛ فكان فيما أهدى إليه حَلْواء ، فأكل محمد بن إبراهيم منها ، ثم دخل الحسين بن إسماعيل عليه ، فأمر بإدخاله إلى موضع آخر وإعادة الحلواء عليه ، فأكل أيضاً منها ، فعطش فاستسقى ، فمنِع الماء ، ورام الخروج من الموضع الذي أدخِل إليه؛ فإذا هو محبوس لا سبيلَ له إلى الخروج؛ فعاش يومين وليلتين ، ومات . فحُمل ماله وعياله إلى سامراء على مائة جمل . ولما ورد نعيُّ محمد بن إبراهيم على المتوكل أمرَ بالكتاب فيه إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بالتعزية فكُتِب :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يوجب لك مع كلِّ فائدة ونعمة تهنئتك بمواهب الله وتعْزِيَتَك عن ملمّات أقداره؛ وقد قضى الله في محمد بن إبراهيم مولى أمير المؤمنين ما هو قضاؤه في عباده؛ حتى يكون الفناء لهم والبقاء له . وأمير المؤمنين يعزّيك عن محمد بما أوجب الله لمن عمل بما أمره به في مصائبه؛ من جزيل ثوابه وأجره؛ فليكن الله وما قرّبك منه أوْلى بك في أحوالك كلها؛ فإنّ مع شكر الله مزيدَه ، ومع التسليم لأمر الله رضاه؛ وبالله توفيق أمير المؤمنين . والسلام .

* * *

[ذكر خبر وفاة الحسن بن سهل][1]

وفي هذه السنة تُوفِّيَ الحسنُ بن سهل في قول بعضهم في أوّل ذي الحجة

(١) وذكر الخطيب البغدادي عن إبراهيم بن محمد بن عرفة قال سنة ست وثلاثين يعني ومائتين فيها مات الحسن بن سهل وقد أتت عليه سبعون سنة [تأريخ بغداد/ ٧/ ٣٢٣] .

منها ، وقال قائل هذه المقالة: مات محمد بن إسحاق بن إبراهيم في هذا الشهر لأربع بقين منه. وذكر عن القاسم بن أحمد الكوفيّ ، أنّه قال: كنت في خدمة الفتح بن خاقان في سنة خمس وثلاثين ومائتين ، وكان الفتح يتولّى للمتوكل أعمالاً ، منها أخبار الخاصة والعامّة بسامراء والهارونيّ وما يليها؛ فورد كتاب إبراهيم بن عطاء المتولي الأخبارَ بسامراء يذكر وفاة الحسن بن سهل ، وأنه شرب شربة دواء في صبيحة يوم الخميس لخمس ليال بقين من ذي القعدة من سنة خمس وثلاثين ومائتين أفرطت عليه ، وأنه توفِّيَ في هذا اليوم وقت الظهر ، وأنّ المتوكل أمر بتجهيز جهازه من خزائنه. فلمّا وضع على سريره تعلق به جماعة من التجار من غرماء الحسن بن سهل ، ومنعوه من دفنه ، فتوسّط أمرهم يحيى بن خاقان وإبراهيم بن عتّاب ورجل يعرف ببرغوث؛ فقطعوا أمرهم ، ودفن. فلما كان من الغد ورَد كتاب صاحب البريد بمدينة السلام بوفاة محمد بن إسحاق بن إبراهيم بعد الظهر يوم الخميس لخمس خلوْن من ذي الحجة ، فجزع عليه المتوكل جزعاً ، وقال: تبارك الله وتعالى! كيف توافت منيّة الحسن ومحمد بن إسحاق في وقت واحد!

* * *

[ذكر خبر هدم قبر الحسين بن علي][1]

وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن عليّ وهدْم ما حوله من المنازل والدّور ، وأن يُحرَث ويُبذر ويُسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه؛ فذكر أنّ عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبَق؛ فهرب الناس ، وامتنعوا من المصير إليه؛ وحُرِث ذلك الموضع ، وزُرع ما حواليه.

* * *

(١) لم نجد لهذا الخبر أثرا عند المؤرخين المتقدمين الثقات وقد ذكره ابن الجوزي كما عند الطبري [المنتظم ١١/ ٢٣٧].

وفيها استكتب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وصرف محمد بن الفضل الجرجرائيّ.

وفيها حجّ محمد المنتصر، وحجّت معه جدّته شجاع أمّ المتوكل، فشيّعها المتوكل إلى النَّجَف[(١)].

وفيها هلك أبو سعيد محمد بن يوسف المروزيّ الكَبَح فجأة، ذكر أن فارس بن بُغا الشرابيّ وهو خليفة أبيه، عقد لأبي سعيد هذا، وهو مولى طيّىء على أذربيجان وإرمينيّة، فعسكر بالكرخ، كرخ فيروز؛ فلما كان لسبع بقين من شوّال وهو بالكرخ مات فُجأة، لبس أحد خفَّيه ومدّ الآخر ليلبسه فسقط ميتاً، فولّى المتوكل ابنَه يوسف ما كان أبوه وليَه من الحرب، وولاّه بعد ذلك خراج الناحية وضِياعها، فشخص إلى الناحية فضبَطها، وجّه عُمّاله في كل ناحية.

وحجّ بالناس في هذه السنة المنتصر محمد بن جعفر المتوكل[(٢)].

* * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر وثوب أهل إرمينية بعاملهم يوسف بن محمد]

فمن ذلك ما كان من وثوب أهل إرمينيّة بيوسف بن محمد فيها[(٣)].

*** ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به:**

قد ذكرنا فيما مضى قبلُ سبب استعمال المتوكل يوسف بن محمد هذا إيّاه على إرمينيَة؛ فأما سبب وثُوب أهل إرمينيَة به؛ فإنه كان ـ فيما ذكر أنه لما صار

---

(١) هذين الخبرين المختصرين انظر المنتظم (١١/ ٢٣٧).
(٢) وقال البسوي وحججت في هذه السنة (٢٣٦هـ) حجّ بنا المنتصر [المعرفة ١/ ٧٤].
(٣) انظر المنتظم (١١/ ٢٤٩).

إلى عمله من إرمينيَة خرج رجل من البطارقة يقال له بُقراط بن أشُوط؛ وكان يقال له بطريق البطارقة، يطلب الإمارة؛ فأخذه يوسف بن محمد، وقيّده وبعث به إلى باب الخليفة، فأسلم بُقراط وابنه؛ فذُكر أن يوسف لمّا حمل بقراط بن أشُوط اجتمع عليه ابن أخي بُقراط بن أشوط وجماعة من بطارقة إرمينيَة، وكان الثلج قد وقع في المدينة التي فيها يوسف؛ وهي ـ فيما قيل ـ طَرُون؛ فلما سكن الثلج أناخوا عليها من كلّ ناحية، وحاصروا يوسف ومَنْ معه في المدينة، فخرج يوسف إلى باب المدينة، فقاتلهم فقتلوه وكلّ مَنْ قاتل معه؛ فأما من لم يقاتل معه؛ فإنهم قالوا له: ضع ثيابك، وانجُ عرياناً، فطرح قوم منهم كثير ثيابهم، ونجوا عُراة حُفاة، فمات أكثرهم من البَرد، وسقطت أصابع قوم منهم ونجوا؛ وكانت البطارقة لمَا حمل يوسف بقراط بن أشوط تحَالفوا على قتله، ونذروا دمَه، ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة، وهو على ابنة بقراط، فنهى سوادة بن عبد الحميد الحجّافيّ يوسفَ بن أبي سعيد عن المقام بموضعه، وأعلمه بما أتاه من أخبار البطارقة، فأبى أن يفعل، فوافاه القوم في شهر رمضان، فأحدقوا بسُور المدينة والثلج ما بين عشرين ذراعاً إلى أقلّ حول المدينة إلى خِلاط إلى دُبَيل، والدنيا كلها ثلج.

وكان يوسف قبل ذلك قد فرّق أصحابه في رساتيق عمله، فتوجّه إلى كلّ ناحية منها قوم من أصحابه، فوُجّه إلى كل طائفة منهم من البطارقة، وممن معهم جماعة، فقتلوهم في يوم واحد، وكانوا قد حاصروه في المدينة أياماً، فخرج إليهم فقاتل حتى قُتِل، فوجّه المتوكل بُغا الشرابيّ إلى إرمينيَة طالباً بدم يوسف، فشخص إليها من ناحية الجزيرة، فبدأ بأرزَن بموسى بن زرارة، وهو [أبو الحرّ] وله إخوة: إسماعيل وسليمان وأحمد وعيسى ومحمد وهارون، فحمل بغا موسى بن زرارة إلى باب الخليفة، ثم سار فأناخ بجبل الخويثية؛ وهم جَمّة أهل إرمينيَة، وقتلة يوسف بن محمد، فحاربهم فظفِر بهم، فقتل زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى منهم خلقاً كثيراً، فباعهم بإرمينيَة، ثم سار إلى بلاد الباق فأسر أشُوط بن حمزة أبا العباس وهو صاحب الباق ـ والباق من كُور البُسفُرّجان وبنيَ النشَوَى، ثم سار إلى مدينة دُبيل من إرمينية، فأقام بها شهراً، ثم سار إلى تفليس.

* * *

وفي هذه السنة وُلِّي عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بغداد ومعاون السواد.

وفيها قدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خُراسان، لثمان بقين من شهر ربيع الآخر، فولِّيَ الشرطة والجزية وأعمال السَّوَاد وخلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام، ثم صار إلى بغداد.

وفيها عزل المتوكلُ محمد بن أحمد بن أبي دواد عن المظالم، وولاها محمد ابن يعقوب المعروف بأبي الربيع[1].

وفيها رضي عن ابن أكثم، وكان ببغداد فأشخص إلى سامراء، فوُلِّيَ القضاء على القضاة، ثم ولِّيَ أيضاً المظالم، وكان عزل المتوكل محمد بن أحمد بن أبي دواد عن مظالم سامراء لعشر بقين من صفَر من هذه السنة[2].

[ذكر غضب المتوكل على ابن أبي دواد]

وفيها غضب المتوكّل على ابن أبي دواد؛ وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دواد لخمسٍ بقين من صفر، وحُبِسَ يوم السبت لثلاث خَلَون من شهر ربيع الأول ابنه أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد في ديوان الخراج، وحبس إخوته عند عبيد الله بن السريّ خليفة صاحب الشرطة، فلما كان يوم الإثنين حمل أبو الوليد مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار، ثم صُولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع كلّ ضيعة لهم؛ وكان أحمد بن أبي دواد قد فُلج، فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلوْن من شعبان، أمر المتوكل بولد أحمد بن أبي دواد، فحُدِروا إلى بغداد، فقال أبو العتاهية:

لو كنتَ في الرأيِ منسوباً إلى رشَدٍ ... وكان عزمُك عزماً فيه توفيقُ
لكانَ في الفقه شغلٌ لو قَنِعْتَ به ... عن أَنْ تقولَ: كلامُ اللهِ مخلوقُ

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٤٩).

(٢) انظر المنتظم (١١/ ٢٥٠).

ماذا عليك وأَصلُ الدينِ يَجمَعهمْ ما كان في الفرعِ لولا الجهلُ والمُوقُ[(١)]

وأقيم فيها الخلنجيّ للناس في جمادى الآخرة.

* * *

وفيها ولَّى ابن أكثم قضاء الشرقية حيّان بن بشر، وولّى سَوّار بن عبد الله العنبريّ قضاء الجانب الغربيّ، وكلاهما أعور، فقال الجمّاز:

رأيتُ من الكبائرِ قاضِيَيْنِ هُما أَحدُوثةٌ في الخافقين
هما اقتَسَمَا العمَى نِصفَين قدًّا كما اقتسما قَضاءَ الجانبَيْنِ
وتَحسِبُ منهما مَن هزَّ رأْساً لِيَنظرَ في مَواريثٍ ودَيْنِ
كأَنكَ قد وضَعْتَ عليه دنّاً فَتَحْتَ بُزالَهُ من فَرْدِ عَيْنِ
هما فَأْلُ الزمانِ بهُلْكِ يحيى إِذِ افتَتَح القضاءَ بأَعْوَرَيْنِ

[خبر إنزال جثة ابن نصر ودفعه إلى أوليائه]

وفيها أمر المتوكل في يوم الفطر منها بإنزال جُثّة أحمد بن نصر بن مالك الخُزاعيّ، ودفعه إلى أوليائه[(٢)].

---

(١) وقال القاضي وكيع: وكان الواثق فيما أخبرني الحارث بن أبي أسامة قبل ذلك تغيّر لابن أبي دواد وذلك في سنة ثلاثين ومائتين ووقف أصحابه للناس في المدن فصحح عليهم الناس الخيانة والفجور بكل بلد. وأطلق الواثق بعض من كان في السجون ممن حبس ابن أبي دواد. إلخ وفي آخره: وفي سنة سبع وثلاثين أخذ المتوكل كل أمواله وردّه وابنه إلى بغداد فدخل بغداد في شعبان ثم توفي بعد ذلك [أخبار القضاة/ ٦٨١]: وخبر القاضي وكيع أقرب إلى الصحة من خبر الطبري فمسألة إحصاء أموال ابن أبي دواد بدقة وبهذه الأرقام يحتاج إلى شهود عدول يتناقلوا الخبر حتى يصل إلى سمع الطبري بينما اكتفى القاضي وكيع بالقول في خبره نقلاً عن الحارث بن أبي أسامة.
بأن المتوكل أخذ كل أمواله والله تعالى أعلم.

(٢) هذا الخبر مشكوك في صحته وقد أورده الطبري بلا إسناد ولم يؤيده في ذلك مؤرخ متقدم ثقة.
ولا نظنه صحيحاً للأسباب التالية:
أولاً: الصولي وهو أخباري متقدم ثقة ومعاصر للطبري ولم يتحدث عن صلب جثة أحمد بن نصر هذا (فلم يؤيد خبر الطبري) بل تحدث عن أن الواثق أمر بنصب الرأس فنصب أياماً =

*** ذكر الخبر عما فعل به وما كان من الأمر بسبب ذلك:**

ذُكر أنّ المتوكل لمّا أمر بدفع جُثّته إلى أوليائه لدفنه ، فُعل ذلك ، فدُفع إليهم؛ وقد كان المتوكل لما أفضت إليه الخلافة ، نهى عن الجدال في القرآن وغيره ، ونفذت كتبه بذلك إلى الآفاق ، وهمّ بإنزال أحمد بن نصر عن خَشبته ، فاجتمع الغَوْغاء والرّعاع إلى موضع تلك الخشبة ، وكثّروا وتكلمّوا ، فبلغ ذلك المتوكل ، فوجّه إليهم نصر بن الليث ، فأخذ منهم نحواً من عشرين رجلاً ، فضربهم وحبَسهم ، وترك إنزال أحمد بن نصر من خَشبته لِمَا بلغه من تكثير العامة في أمره ، وبقيَ الذين أخذوا بسببه في الحبْس حيناً ، ثم أطلقوا؛ فلما دفع بدنه إلى أوليائه في الوقت الذي ذكرت ، حمله ابن أخيه موسى إلى بغداد ، وغُسل ودُفن ، وضُمّ رأسه إلى بدنه ، وأخذ عبد الرحمن بن حمزة جسدَه في منديل مصريّ ، فمضى به إلى منزله ، فكفَّنه وصلى عليه ، وتولّى إدخاله القبر مع بعض أهله رجلٌ من التجار ، ويقال له الأبزاريّ.

فكتب صاحب البريد ببغداد ـ وكان يعرف بابن الكلبي ، من موضع بناحية واسط ، يقال له الكلبانية ـ إلى المتوكل بخبر العامة ، وما كان من اجتماعهما وتمسحها بالجنازة؛ جنازة أحمد بن نصر وبخشبة رأسه؛ فقال المتوكل ليحيى بن أكثم: كيف دخل ابن الأبزاريّ القبرَ على كُبْرة خزاعة! فقال: يا أمير المؤمنين ، كان صديقاً له. فأمر المتوكل بالكتاب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بمنع العامة

= بالجانب الشرقي ثم أياماً في الجانب الغربي وكفى وانظر تعليقنا [٩/ ١٣٩/ ٢٩١].

ثانياً: إن كانت الجثة قد علقت هذه الفترة الطويلة (من سنة ٢٣١ وحتى ٢٣٧) فلا بد لعدد غفير من الناس أن يشاهدوه ولا سيما أنه منصوب في دار الخلافة ومن بين هؤلاء عدد من الأئمة أو الرواة الثقات وكانت بغداد يومها مليئة بالأئمة والرواة الثقات ولم يروِ لنا.

أحد منهم أنه رأى هذه الجثة طيلة هذه السنين (٣٣١ ـ ٣٣٧).

ثالثاً: إن نصب جثة لهذه الفترة الطويلة وتعريضها للشمس والرياح وفي جوٍّ كجو العراق لا يبقى لهذه الجثة لحماً ولا جلداً.

رابعاً: إن الواثق قد تاب في آخر عمره عن مسألة خلق القرآن فلم لم يأمر بإنزال الجثة بعد تبيّن خطأه؟ وقد تغيرت علاقته مع المعتزلي ابن أبي دواد (رأس الفتنة) كما أخرج القاضي وكيع قال وكان الواثق فيما أخبرني الحارث بن أبي أسامة قبل ذاك تغيّر لابن أبي دواد. وذلك في سنة ثلاثين ومائتين [أخبار القضاة/ ٦٨١] وللأسباب السابقة لا يصح هذا الخبر.

من الاجتماع والحركة في مثل هذا وشبهه؛ وكان بعضهم أوصى ابنَه عند موته أن يُرهِبَ العامة؛ فكتب المتوكل ينهي عن الاجتماع.

* * *

وغزا الصائفة في هذه السنة عليّ بن يحيى الأرمني[١].

وحجّ بالناس فيها عليّ بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، وكان والي مكة[٢].

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

[ذكر ظفر بغا بإسحاق بن إسماعيل وإحراقه مدينة تفليس]

فمن ذلك ما كان من ظفر بغا بإسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية بتفليس وإحراقه مدينة تفليس[٣].

*** ذكر الخبر عما كان من بغا في ذلك:**

ذُكر أن بغا لما صار إلى دبيل بسبب قتل القاتلين من أهل إرمينيَة يوسفَ بن محمدأقام بها شهراً؛ فلما كان يوم السبت لعشْر خلوْن من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وجه بغا زيرك التركي، فجاوز الكُر ـ وهو نهر عظيم مثل الصراة ببغداد وأكبر، وهو ما بين المدينة وتفليس في الجانب الغربيّ وصُغدبيل في الجانب الشرقيّ ـ وكان معسكر بُغا في الشرقي، فجاوز زيرك الكرّ إلى ميدان تَفْليس، لتفليس خمسة أبواب: باب الميدان، وباب قريس، وباب الصغير، وباب الرَّبَض، وباب صغدبيل ـ والكُرّ نهر ينحدر مع المدينة ـ ووجّه بغا أيضاً أبا العباس الواثيّ النصرانيّ إلى أهل إرمينيَة عربها وعجمها، فأتاهم زيرك مما يلي الميدان وأبو العباس مما يلي باب الرَّبَض، فخرج إسحاق بن

---

(١) انظر المنتظم (١١/ ٢٤٩).

(٢) وكذلك قال البسوي [المعرفة ١/ ٧٤].

(٣) انظر المنتظم [١١/ ٢٥٨].

إسماعيل إلى زيرك ، فناوشه القتال ، ووقف بغا على تلّ مطلّ على المدينة مما يلي صغدبيل؛ لينظر ما يصنع زيرك وأبو العباس ، فبعث بُغا النفّاطين فضربوا المدينة بالنار؛ وهي من خشب الصَّنَوْبر ، فهاجت الرّيح في الصنوبر ، فأقبل إسحاق بن إسماعيل إلى المدينة لينظر؛ فإذا النار قد أخذت في قصره وجواريه ، وأحاطت به النار؛ ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً ، وأخذوا ابنه عمراً ، فأتوْا بهما بُغَا ، فأمر بُغا به ، فرُدّ إلى باب الحسك ، فضربت عنقه هناك صَبْراً ، وحُمِلَ رأسه إلى بُغَا ، وصُلِبتْ جيفته على الكُرّ؛ وكان شيخاً محدوداً ضخم الرأس ، يخضب بالوَسِمة ، آدم أصلع أحول؛ فنُصب رأسه على باب الحَسك.

وكان الذي تولّى قتلَه غامش خليفة بُغا ، واحترق في المدينة نحو من خمسين ألف إنسان ، وأُطفِئتِ النار في يوم وليلة؛ لأنها نار الصَّنَوْبر ، لا بقاء لها ، وصبَّحهم المغاربة ، فأسروا مَنْ كان حيّاً ، وسلبوا الموتى. وكانت امرأة إسحاق نازلةً بصغدبيل ، وهي حذاء تَفْلِيس في الجانب الشرقيّ ، وهي مدينة بناها كسرى أنوشروان؛ وكان إسحاق قد حصّنها وحفر خندقَها ، وجعل فيها مقاتلة من الخويثيّة وغيرهم. وأعطاهم بُغا الأمان على أن يضعوا أسلحتَهم ، ويذهبوا حيث شاء. وكانت امرأة إسحاق ابنه صاحب السرير.

ثم وجّه بُغا ـ فيما ذكر ـ زيرك إلى قلعة الجَرْدمان ـ وهي بين برذعة وتَفْلِيس ـ في جماعة من جنده ، ففتح زيرك الجَرْدمان ، وأخذ بطْريقها القِطْريج أسيراً ، فحمله إلى العسكر. ثم نهض بُغا إلى عيسى بن يوسف ابن أخت أصطفانوس؛ وهو في قلعة كثيش من كورة البَيْلَقان ، وبينها وبين البَيْلَقان عشرة فراسخ ، وبينها وبين برذعة خمسة عشر فرسخاً ، فحاربه ، ففتحها ، ، أخذه وحمله ابنه معه وأباه ، وحمل أبا العباس الواثيّ ـ واسمه سَنْبَاط بن أشُوط ـ وحمل معه معاوية بن سهل بن سَنْبَاط بطريق أرّان ، وحمل آذر نرسى بن إسحاق الخاشنيّ.

[ذكر مقدم الروم بمراكبهم إلى دمياط][1]

وفي هذه السنة جاءت للروم ثلاثمائة مركب مع عرفا وابن قطونا وأمرد ناقه

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٢٥٨].

ـ وهم كانوا الرؤساء في البحر ـ مع كلّ واحد منهم مائة مركب ، فأناخ ابن قطونا بدمياط ، وبينها وبين الشطّ شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدْر الرجل؛ فمن جازها إلى الأرض أمِن من مراكب البحر؛ فجازها قوم فسلِموا ، وغرق قوم كثير من نساء وصبيان؛ واحتمل من كانت له قوّة في السفن؛ فنجوا إلى ناحية الفسطاط ، وبينها وبين الفسطاط مسيرة أربعة أيام. وكان والي معونة مصر عنْبسة بن إسحاق الضّبيّ ، فلما قرب العيد ، أمر الجند الذين بدمياط أن يُحضروا الفسطاط لتحمل لهم في العيد ، وأخلى دمياط من الجند؛ فانتهى مراكب الروم من ناحية شَطَا التي يعمل فيها الشطَويّ ، فأناخ بها مائة مركب من الشلنديّة؛ تَحمل كلّ مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة؛ فخرجوا إليه وأحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها ، واحتملوا سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب أقرِيطش نحواً من ألف قناة وآلتها ، وقَتَلُوا مَنْ أمكنهم قتله من الرجال ، وأخذوا من الأمتعة والقَنْد والكَتّان ما كان عُبّىء ليُحمل إلى العراق ، وسبوا من المسلمات والقِبْطيات نحواً من ستمائة امرأة؛ ويقال إن المسلمات منهنّ مائة وخمس وعشرون امرأة والباقي من نساء القِبْط.

ويقال إنّ الروم الذين كانوا في الشلنديات التي أناخت بدمياط كانوا نحواً من خمسة آلاف رجُل ، فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء ، وأحرقوا خزانة القلوع وهي شُرُع السفن ، وأحرقوا مسجدْ الجامع بدمياط ، وأحرقوا كنائس؛ وكان مَنْ حُزِر منهم ممن غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر ممن سباه الرّوم. ثم رحل الروم عنها.

وذُكر أنّ ابن الأكشف كان محبوساً في سجن دمياط ، حبسه عنبسة ، فكسر قيده وخرج؛ فقاتلهم ، وأعانه قوم ، فقتَل من الروم جماعة ، ثم صاروا إلى أشتوم تِنّيس ، فلم يحمل الماء سفنهم إليها ، فخشوا أن توحَل؛ فلما لم يحملهم الماء صاروا إلى أشتومها ـ وهي مرسى بينه وبين تنِّيس أربعة فراسخ وأقلّ ، وله سور وباب حديد كان المعتصم أمر بعمله ـ فخرّبوا عامته ، وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرّادات ، وأخذوا بابيه الحديد؛ فحملوهما ، ثم توجّهوا إلى بلادهم ، لم يعرض لهم أحد.

* * *

وخرج المتوكل في هذه السنة يوم الإثنين لخمس خلون من جمادى الآخرة من سامراء يريد المدائن ، فصار إلى الشمّاسية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة ، فأقام هنالك إلى يوم السبت ، وعبر بالعشيّ إلى قُطْرُبُّل ، ثم رجع ودخل بغداد يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت منه فمضى في سوقها وشارعها حتى نزل الزَّعفرانية ، ثمّ صار إلى المدائن .

وغزا الصائفة فيها عليّ بن يحيى الأرمنيّ[١] .

وحجّ بالناس فيها عليّ بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر[٢] .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك أمرُ المتوكل بأخذ أهل الذمّة بلبس دُرّاعتين عسليتين على الأقبية والدّراريع في المحرّم منها ، ثم أمرُه في صفر بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحُمر دون الخيل والبراذين[٣] .

وفيها نفى المتوكل عليّ بن الجهم بن بدر إلى خراسان .

وفيها قتل الصَّنَاريّة بباب العامة في جمادى الآخر منها .

وفيها أمر المتوكل بهدم البِيَع المحدثة في الإسلام .

وفيها مات أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ببغداد في ذي الحجة .

وفيها غزا الصائفة عليّ بن يحيى الأرمنيّ[٤] .

* * *

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٢٥٨] .
(٢) انظر المعرفة والتاريخ للبسوي [١/ ٧٤] .
(٣) انظر المنتظم (١١/ ٢٦٥) .
(٤) انظر المنتظم (١١/ ٢٦٥) .

وحجّ بالناس فيها عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ ، وكان والي مكة[١] .

وفيها حجّ جعفر بن دينار؛ وكان والي طريق مكة مما يلي الكوفة فوُلِّيَ أحداث الموسم .

وفيها اتفق شعانين النصارى ويوم النيروز؛ وذلك يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة ، فذُكر أن النصارى زعمت أنهما لم يجتمعا في الإسلام قط[٢] .

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن وثوب أهل حمص بعاملهم]

فما كان فيها من ذلك وثوب أهل حمص بعاملهم على المعونة[٣] .

* **ذكر الخبر عن سبب ذلك وما آل إليه أمرهم ووثوبهم :**

ذكر أن عاملهم على المعونة قتل رجلا كان من رؤسائهم؛ وكان العامل يومئذ أبو المغيث الرافعيّ موسى بن إبراهيم ، فوثب أهل حِمْص في جُمادى الآخرة من هذه السنة ، فقتلوا جماعة من أصحابه ، ثم أخرجوه وأخرجوا صاحب الخرَاج من مدينتهم؛ فبلغ ذلك المتوكل؛ فوجّه إليهم عتّاب بن عتاب ، ووجه معه محمد بن عَبْدويه كرداس الأنباريّ ، وأمره أن يقول لهم : إنّ أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلاً مكان رجل؛ فإن سمعوا وأطاعوا ورضُوا؛ فوَلّ عليهم محمد بن عبدَويه؛ وإن أبوْا وثبتوا على الخلاف فأقمْ بمكانك ، واكتب إلى أمير المؤمنين

---

(١) انظر المعرفة والتأريخ للبسوي (١/ ٧٤).
(٢) انظر المنتظم (١١/ ٢٦٦).
(٣) انظر المنتظم (١١/ ٢٧٠).

حتى يوجّهَ إليك رجاء ، أو محمد بن رجاء الحضاريّ أو غيره من الخيل لمحاربتهم ، فخرج عتّاب بن عتّاب من سامراء يوم الإثنين لخمس بقين من شهر جمادى الآخرة ، فرضوا بمحمد بن عبدويه ، فولاّه عليهم ففعل فيهم الأعاجيب .

* * *

وفيها مات أحمد بن أبي دواد ببغداد في المحرّم بعد ابنه أبي الوليد محمد؛ وكان ابنه محمد تُوُفِّيَ قبله بعشرين يوماً في ذي الحجة ببغداد[1] .

وفيها عزل يحيى بن أكثم عن القضاء في صفَر ، وقبض منه ما كان له ببغداد ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار ، ومن أسطوانة في داره ألفا دينار وأربعة آلاف جريب بالبصرة[2] .

وفيها ولّى جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن عليّ القضاء على القضاة في صفر[3] .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود وحجّ جعفر بن دينار وهو والي الأحداث بالموسم[4] .

* * *

(١) انظر لوفاته تأريخ بغداد (٤/ ١٥٦) وسير أعلام (١١/ ١٦٩) والوافي بالوفيات (٧/ ٢٨١) والذي في تاريخ بغداد أنه توفي في المحرم سنة ٢٤٠هـ يوم السبت ومات ابنه في ذي الحجة [تأريخ بغداد ٤/ ١٥٦] .

(٢) وقال القاضي وكيع ثم غضب المتوكل علي يحيى بن أكثم ونفاه إلى مكة واستقضى جعفر بن عبد الواحد بن سليمان [أخبار القضاة/ ٦٨٣] ولم يذكر القاضي وكيع في خبره هذا أن المتوكل صادر أموال القاضي يحيى والله أعلم .

(٣) انظر الخبر السابق وتعليقنا عليه .

(٤) انظر المعرفة [١/ ٧٥] .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن وثوب أهل حمص بعاملهم مرة أخرى]

فمن ذلك ما كان من وثُوب أهل حمص بعاملهم على المعونة؛ وهو محمد بن عبدوَيْه(١).

* **ذكر الخبر عما كان من أمرهم فيها وما آل إليه الأمر بينهم.**

ذُكِر أنّ أهل حمص وثبوا في جمادى الآخرة من هذه السنة بمحمد بن عبدويْه عاملهم على المعونة، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حِمْص، فكتب بذلك إلى المتوكل، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم، وأمدّه بجند من راتبة دمشق، مع صالح العباسيّ التركيّ؛ وهو عامل دمشق وجند من جند الرّملة، فأمره أن يأخذ من رؤسائهم ثلاثة نفر فيضربهم بالسياط ضرب التَّلف؛ فإذا ماتوا صلبهم على أبوابهم، وأن يأخذ بعد ذلك من وجُوههم عشرين إنساناً فيضربهم ثلاثمائة سوط، كلّ واحد منهم، ويحملهم في الحديد إلى باب أمير المؤمنين، وأن يخرّب ما بها من الكنائس والبِيَع، وأن يُدخل البيعة التي إلى جانب مسجدها في المسجد، وألاّ يترك في المدينة نصرانيّاً إلا أخرجه منها، وينادَى فيهم قبل ذلك؛ فمن وجده فيها بعد ثلاثة أحسن أدبه. وأمر لمحمد بن عبدْوِيْه بخمسين ألف درهم، وأمر لقواده ووجوه أصحابه بصلات، وأمر لخليفته عليّ بن الحسين بخمسة عشر ألف درهم، ولقوّاده بخمسة آلاف خمسة آلاف درهم، وأمر بخلَع؛ فأخذ محمد بن عبدويه عشرة منهم؛ فكتب بأخذهم، وأنه قد حملهم إلى دار أمير المؤمنين ولم يضربهم؛ فوجّه المتوكل رجلاً من أصحاب الفتح بن خاقان يقال له محمد بن رزق الله، ليردّ من الذين وجّه بهم ابن عبدويه

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٢٨٢].

محمد بن عبد الحميد الحميديّ والقاسم بن موسى بن فوعُوس إلى حمص ، وأن يضربهما ضرب التلف ، ويصلبَهما على باب حمْص ، فردّهما وضربهما بالسياط حتى ماتا. وصلبهما على باب حمص ، وقدم بالآخرين سامراء وهم ثمانية؛ فلما صاروا بنصيبين مات واحد منهم ، فأخذ المتوكل بهم رأسه ، وقدم بسبعة منهم سامراء وبرأس الميت. ثم كتب محمد بن عبدويه أنه أخذ عشرة نفر منهم بعد ذلك ، وضرب منهم خمسة نفر بالسياط فماتوا ، ثم ضرب خمسة فلم يموتوا. ثم كتب محمد ابن عبدويه بعد ذلك أنه ظفر برجل منهم من المخالفين يقال له عبد الملك بن إسحاق ابن عمارة ـ وكان فيماذكر ـ رأساً من رؤوس الفتنة؛ فضربه بباب حِمْص بالسياط حتى مات ، وصلبه على حصن يعرف بتلّ العباس.

* * *

قال أبو حعفر؛ وفي هذه السنة مُطر الناس ـ فيما ذكر ـ بسامراء مطراً جوْداً في آب. وفيها ولى القضاء بالشرقيّة في المحرّم أبو حسان الزياديّ[1].

* * *

[ذكر الخبر عن ضرب عيسى بن جعفر وما آل إليه أمره][2]

وفيها ضُرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ببغداد ـ فيما قيل ـ ألف سوط.

*** ذكر الخبر عن سبب ضربه وما كان من أمره في ذلك:**

وكان السبب في ذلك أنه شُهد عند أبي حسان الزياديّ قاضي الشرقية عليه أنه

---

(١) ذكر القاضي وكيع أن أبا حسان الزيادي ولي قضاء الشرقية بعد محمد بن عبد الله المؤذن الذي تولى القضاء بعد وفاة حيان بن بشر سنة ٢٣٨هـ [أخبار القضاة/ ٦٧٦].

(٢) وأخرج ابن الجوزي عن ابن أبي الدنيا قال كنت في الجسر واقفاً وقد أحضر أبو حسان الزيادي القاضي وقَدْ وَجَّهَ إليه المتوكل من سامراء بسياط جدد وأمره أن يضرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم لأنه شهد عليه أهل الثقات أنه شتم أبا بكرٍ وعمر وقذف عائشة فلم ينكر ولم يتب [المنتظم ١١/ ٢٨٣].

شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة، سبعة عشر رجلاً؛ شهاداتهم ـ فيماذكر ـ مختلفة من هذا النحو؛ فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فأنهى عبيدُ الله ذلك إلى المتوكل، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط، فإذا مات رَمَى به في دجلة، ولم تدفع جيفته إلى أهله.

فكتب عبيد الله إلى الحسن بن عثمان جواب كتابه إليه في عيسى:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أبقاك الله وحفظك، وأتمّ نعمته عليك؛ وصل كتابك في الرّجل المسمّى عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات، وما شهد به الشهود عليه من شَتْم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارِهم، ورميهم بالكبائر، ونسبتهم إلى النفاق؛ وغير ذلك مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله ﷺ، وتثبُّتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به، وما صح عندك من عدالة من عدل منهم، ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به، وشرحك ذلك في رُقعة درج كتابك؛ فعرضت على أمير المؤمنين أعزّه الله ذلك؛ فأمر بالكتاب إلى أبي العباس محمد بن طاهر مولَى أمير المؤمنين أبقاه الله بما قد نفذ إليه، مما يشبه ما عنده أبقاه الله، في نُصرة دين الله، وإحياء سنّته، والانتقام ممن ألحد فيه، وأن يُضرب الرجل حدّاً في مجمع الناس حدّ الشتم، وخمسمائة سوط بعد الحدّ للأمور العظام التي اجترأ عليها، فإن مات ألقيَ في الماء من غير صلاة ليكون ذلك ناهياً لكل مُلْحِد في الدين، خارج من جماعة المسلمين؛ وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله تعالى ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وذُكر أن عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم هذا ـ وقد قال بعضهم: إن اسمه أحمد بن محمد بن عاصم ـ لما ضُرِب ترِك في الشمس حتى مات، ثم رُمِيَ به فيْ دِجلة.

* * *

وفي هذه السنة انقضّت الكواكب ببغداد وتناثرت، وذلك ليلة الخميس لليلة خلتْ من جمادى الآخرة.

وفيها وقع بها الصدام فنفقت الدّوابّ والبقر.

وفيها أغارت الروم على عين زَرْبه ، فأسَرت مَنْ كان بها من الزّط ؛ مع نسائهم وذراريّهم وجواميسهم وبقرهم[١] .

[خبر الفداء بين المسلمين والروم في هذه السنة]

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم[٢] .

* **ذكر الخبر عن السبب الذي كان ذلك من أجله :**

ذكر أن تَذُورة صاحبة الروم أمّ ميخائيل ، وجّهت رجلاً يقال له جُورْجِس بن قريافس يطلب الفداء لمن في أيدي الرّوم من المسلمين ، وكان المسلمون قدقاربوا عشرين ألفاً ، فوجّه المتوكل رجلاً من الشيعة يقال له نصر بن الأزهر بن فرج ؛ ليعرف صحة مَنْ في أيدي الروم من أسارى المسلمين ، ليأمر بمفاداتهم ؛ وذلك في شعبان من هذه السنة بعد أن أقام عندهم حيناً . فذُكر أن تَذُورة أمرتْ بعد خروج نصر بعرض من في إسارها من المسلمين على النصرانية ؛ فمن تنصّر منهم كان أسوة من تَنَصّر قبل ذلك ، ومن أبى قتلته ؛ فذُكر أنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً ؛ ويقال إن قنقلة الخصي كان يقتلهم من غير أمرها . ونفذَ كتاب المتوكل إلى عمال الثغور الشامية والجزريّة أن شُنيفاً الخادم قد جرى بينه وبين جورجس رسول عظيم الروم في أمر الفِداء قول، وقد اتفق الأمر بينهما، وسأل جورجس هذا هدنة لخمس ليال تخلو من رجب سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سبع ليال بقين من شوّال من هذه السنة ، ليجمعوا الأسرى ، ولتكون مدّة لهم إلى انصرافهم إلى مأمنهم. فنفذ الكتاب بذلك يوم الأربعاء لخمس خلوْن من رجب ؛ وكان الفداء يقع في يوم الفِطْر من هذه السنة .

وخرج جورجس رسول ملكة الروم إلى ناحية الثغور يوم السبت لثمان بقين من رجب على سبعين بغلا اكْتُرِيت له ، وخرج معه أبو قحطبة المغربيّ الطرطوسيّ لينظروا وقتَ الفطر ؛ وكان جورجس قدم معه جماعة من البطاركة وغلمانه بنحو من خمسين إنساناً ، وخرج شُنيف الخادم للفداء في النصف من

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٢٨٢] .

(٢) انظر المنتظم [١١/ ٢٨٤] .

شعبان ، معه مائة فارس : ثلاثون من الأتراك ، وثلاثون من المغاربة ، وأربعون من فرسان الشاكريّة ؛ فسأل جعفر بن عبد الواحد ـ وهو قاضي القضاة ـ أن يؤذَن له في حضور الفِداء ، وأن يستخلف رجلاً يقوم مقامه ـ فأذن له ، وأمر له بمائة وخمسين ألفاً مَعُونة وأرزاق ستين ألفاً ؛ فاستخلف ابن أبي الشوارب ـ وهو يومئذ فتىً حدَث السنْ ـ وخرج فلحق شُنيفاً ، وخرج أهل بغداد من أوساط الناس ، فذكر أن الفِداء وقع من بلاد الروم على نهر اللامس ، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين إنساناً ، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة .

* * *

وفي هذه السنة جعل المتوكل كُورة شمشاط عُشْراً ، ونقلهم من الخراج إلى العشر ، وأخرج لهم بذلك كتاباً .

[ذكر غارة البجة على مصر]

وفي هذه السنة غارت البُجَة على حرس من أرض مصر ، فوجّه المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القُمّيَ(١) .

* **ذكر الخبر عن أمرهم وما آلت إليه حالهم :**

ذُكر أن البُجَة كانت لا تغزو المسلمين ولا يغزوهم المسلمون لهدنة بينهم قديمة ، قد ذكرناها فيما مضى قبل من كتابنا هذا ، وهم جنس من أجناس الحبَش بالمغرب ، وبالمغرب من السودان ـ فيماذكر ـ البُجة وأهل غانة الغافر وبينور ورعوين والفرويّة وبِكسوم ومكاره أكرم والنوبة والحبش . وفي بلاد البجة معادن ذهب ؛ فهم يقاسمون مَنْ يعمل فيها ، ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كلّ سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تِبْر قبل أن يطبخ ويصفَّى .

فلما كان أيام المتوكل امتنعت البُجَة عن أداء ذلك الخراج سنين متوالية فذُكر أنْ المتوكل ولَّى بريد مصر رجلاً من خَدَمِه يقال له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسيّ

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٢٨٥] .

مولى الهادي ، وهو المعروف بقوصرة ، وجعل إليه بريد مصر والإسكندرية وبرقة ونواحي المغرب؛ فكتب يعقوب إلى المتوكل أن البجة قد نقضت العهد الذي كان بينهما وبين المسلمين ، وخرجت من بلادها من معادن الذهب والجوهر؛ وهي على التَّخوم فيما بين أرض مصر وبلاد البُجة؛ فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر ، وسبَوْا عدَّة من ذراريِّهم ونسائهم؛ وذكروا أن المعادن لهم في بلادهم ، وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها؛ وأن ذلك أوحش جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين؛ فانصرفوا عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحقِّ الخمس من الذَّهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن؛ فاشتدَّ إنكار المتوكل لذلك وأحفظه ، وشاور في أمر البُجة ، فأنهى إليه أنهم قوم أهل بدو وأصحاب إبل وماشية ، وأن الوصول إلى بلادهم صعب لا يمكن أن يسلك إليهم الجيوش؛ لأنها مفاوز وصحارى ، وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر؛ في أرض قفر وجبال وعر ، لا ماء فيها ولا زرع ولا معقل ، ولا حصن؛ وأن من يدخلها من أولياء السلطان يحتاج أن يتزوَّد لجميع المدَّة التي يتوهم أن يقيمها في بلادهم إلى أن يخرج إلى أرض الإسلام ، فإن امتدَّ به المقام حتى يتجاوز تلك المدة هلك وجميع من معه ، وأخذتهم البُجَّة بالأيدي دون المحاربة ، وأنَّ أرضهم أرض لا تردُّ على السلطان شيئاً من خراج ولا غيرة.

فأمسك المتوكل عن التوجيه إليهم ، وجعل أمرُهم يتزيَّد ، وجرأتهم على المسلمين تشتدَّ حتى خاف أهلُ الصعيد من أرض مصر على أنفسهم وذراريِّهم منهم؛ فولَّى المتوكل محمد بن عبد الله المعروف بالقمي محاربتهم ، وولاَّه معاون تلك الكور ـ وهي قفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأسوان ـ وتقدَّم إليه في محاربة البُجَة؛ وأن يكاتب عنبسة بن إسحاق الضبيَّ العامل على حرب مصر. وكتب إلى عنبسة بإعطائه جميع ما يحتاج إليه من الجند والشاكريَّة المقيمين بمصر.

فأزاح عنبسة عِلَّته في ذلك ، وخرج إلى أرض البُجَّة ، وانضمَّ إليه جميع ممَنْ كان في المعادن وقوم كثير من المتطوعة؛ فكانت عدَّة من معه نحواً من عشرين ألف إنسان؛ بين فارس وراجل ، ووجَّه إلى القلزم ، فحمل في البحر سبعة

مراكب موقرة بالدَّقيق والزيت والتمر والسـويق والشعير ، وأمر قوماً من أصحابه أن يلججوا بها في البحر حتى يوافُوه في ساحل البحر من أرض البُجة؛ فلم يزل محمد بن عبد الله القمي يسير في أرض البُجة حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذَّهب ، وصار إلى حصونهم وقلاعهم ، وخرج إليه ملكهم ـ واسمه علي بابا واسم ابنه لعيس ـ في جيش كثير وعدد أضعاف مَنْ كان مع القمي من الناس؛ وكانت البُجَة على إبلهم ومعهم الحراب وإبلهم فرَّهٌ تشبه بالمهاري في النجابة، فجعلوا يلتقون أياماً متوالية ، فيتناوشون ولا يصحِّحون المحاربة ، وجعل ملك البُجة يتطارد للقمي لكي تطول الأيام طمعاً في نفاذ الزاد والعلوفة التي معهم؛ فلا يكون لهم قوَّة ، ويموتون هزلاً ، فيأخذهم البُجَة بالأيدي.

فلما توهَّم عظيم البُجة أن الأزواد قد نفذت ، أقبلت السبع المراكب التي حملها القميّ حتى خرجت إلى ساحل من سواحل البحر في موضع يعرف بصنجة ، فوجَّه القميَّ إلى هنالك جماعة من أصحابه يحمون المراكب من البُجة ، وفرّق ما كان فيها على أصحابه ، فاتَّسعوا في الزاد والعلَوفة؛ فلما رأى ذلك علي بابا رئيس البُجة قصد لمحاربتهم ، وجمع لهم ، والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ وكانت الإبل التي يحاربون عليها إبلاً زعرة ، تكثر الفزَع والرُّعب من كل شيء؛ فلما رأى ذلك القميَّ جمع أجراس الإبل والخيل التي كانت في عسكره كلها ، فجعلها في أعناق الخيل ، ثم حمل على البُجة ، فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس ، واشتدَّ رعبها ، فحملتهم على الجبال والأودية ، فمزَّقتهم كلَّ ممزَّق ، واتبعهم القميَّ بأصحابه ، فأخذهم قتلاً وأسراً حتى أدركه الليل؛ وذلك في أول سنة إحدى وأربعين ، ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم؛ فلما أصبح القميّ وجدهم قد جمعوا جمعاً من الرَّجالة ، ثم صاروا إلى موضع أمنوا فيه طلب القميَّ ، فوافاهم القميَّ في الليل في خيله ، فهرب ملكهم؛ فأخذ تاجه ومتاعَه ، ثم طلب علي بابا الأمان على أن يُرَدَّ إلى مملكته وبلاده ، فأعطاه القميَّ ذلك ، فأدى إليه الخراج للمدة التي كان منعها ـ وهي أربع سنين ـ لكل سنة أربعمائة مثقال ، واستخلف علي بابا على مملكته ابنه لعيس ، وانصرف القميّ بعلي بابا إلى باب المتوكل ، فوصل إليه في آخر سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فكسا علي بابا هذا دُرَّاعة ديباج وعمامة سوداء ، وكسا جمله رحْلا

مُدبَّجاً وجلال ديباج ، ووقف بباب العامَّة مع قوم من البُجَة نحو من سبعين غلاماً على الإبل بالرِّحال ، ومعهم الحراب في رؤوس حرابهم رؤوس القوم الذين قتلوا من معسكرهم؛ قتلهم القميّ. فأمر المتوكل أن يقبضوا من القميّ ، يوم الأضحىٰ من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وولّى المتوكل البجة وطريق ما بين مصر ومكة سعداً الخادم الايتاخيّ فولى سعد محمد بن عبد الله القمي ، فخرج القميَّ بعلي بابا؛ وهو مقيم على دينه؛ فذكر بعضم أنه رأى معه صنماً من حجارة كهيئة الصبيَّ يسجد له.

* * *

ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود ، وحجَّ جعفر بن دينار فيها ، وهو والي طريق مكة وأحدَاث الموسم[(١)].

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر أحداث الزلازل بالبلاد][(٢)]

فمما كان فيها من ذلك الزلازل الهائلة التي كانت بقومِس ورساتيقها في شعبان؛ فتهدَّمت فيها الدُّور ، ومات من الناس بها مما سقط عليهم من الحيطان وغيرها بشرٌ كثير؛ ذُكر أنه بلغت عدَّتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً؛ وكان عُظم ذلك بالدامَغان.

---

(١) بينما قال البسوي حجَّ بنا سنة إحدى وأربعين ومائتين محمد بن داود بن عيسى [المعرفة ١/ ٧٥] فالله أعلم. وهنا يتوقف البسوي عن ذكر أحداث التأريخ بالترتيب الحولي.

(٢) انظر المنتظم [١١/ ٢٩٤].

وذكر أنه كان بفارس وخراسان والشأم في هذه السنة زلازل وأصوات منكرة ، وكان باليمن أيضاً مثل ذلك مع خسف بها .

* * *

[ذكر خروج الروم من ناحية شِمْشَاط](1)

وفيها خرجت الروم من ناحية شِمْشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمنيَّ من الصَّائفة حتى قاربوا آمِد ، ثم خرجوا من الثغور الجزريّة ، فانتهبوا عدَّة قرى ، وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان؛ وكان دخولهم من ناحية إبريق؛ قرية قربياس؛ ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ، فخرج قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوِّعة في أثرهم ، فلم يلحقوا منهم أحداً ، فكتب إلى عليَّ بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً .

* * *

وفيها قتل المتوكل عطارداً ـ رجلاً كان نصرانياً فأسلم ـ فمكث مسلماًسنين كثيرة ثم ارتدَّ فاستُتيب ، فأبى الرجوع إلى الإسلام ، فضُربت عنقه لليلتين خلتاً من شوال ، وأحرق بباب العامة .

وفي هذه السنة مات أبو حسان الزياديَّ قاضي الشرقية في رجب(2) .

وفيها مات الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور(3) .

وحجَّ بالناس فيها عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي؛ وهو والي مكة(4) .

وحج فيها جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم .

---

(1) انظر المنتظم [١١/ ٢٩٤] .

(2) لوفاة الزيادي (أبو حسان) القاضي رحمه الله انظر سير أعلام [١١/ ٤٩٦] وتأريخ بغداد [٧/ ٣٥٦] .

(3) لوفاة الحسن بن علي بن الجعد انظر تأريخ بغداد [٧/ ٣٦٤] .

(4) انظر البداية والنهاية [٨/ ٢١٠] .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان شخوص المتوكِّل إلى دمشق لعشر بقين من ذي القعدة[١] فضحَّى ببلَد؛ فقال يزيد بن محمد المهلبيُّ حين خرج:

أَظُنُّ الشَّامَ تشمت بالعِراقِ إِذَا عزم الإِمامُ على انْطلاقِ
فإن تدَعِ العراقَ وساكِنِيها فقد تبْلى المليحةُ بالطَّلاقِ

* * *

وفيها مات إبراهيم بن العباس، فولى ديوان الضَّياع الحسن بن مخلَد بن الجرَّاح، خليفة إبراهيم في شعبان، ومات هاشم بن بنَجور في ذي الحجة[٢].

* * *

وحجَّ بالناس فيها عبد الصمد بن موسى[٣].

وحجَّ جعفر بن دينار، وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك دخولُ المتوكل دمشق في صفر؛ وكان من لدن شخَص من سامراء إلى أن دخلها سبعة وتسعون يوماً ـ وقيل سبعة وسبعون يوماً ـ وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها فتحرَّك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم، فأمر لهم بما أرضاهم به. ثم استوبأ البلد؛ وذلك أنَّ الهواء بها

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٣٠٥].

(٢) انظر البداية والنهاية[٨/ ٢١٠] فقد ذكر الخبر نقلاً عن تأريخ الطبري كما هاهنا ثم زاد ابن كثير وهو يعرِّف بإبراهيم هذا فقال: الصولي، الشاعر الكاتب المشهور وهو عمُّ محمد بن يحيى الصولي.. ثم ذكر طرفاً من أشعاره ثم ذكر أنه توفي في منتصف شعبان من هذه السنة (٢٤٢هـ) بِسُرَّ من رأى البداية [والنهاية ٨/ ٢١٠].

(٣) أنظر البداية والنهاية [٨/ ٢١٠].

باردٌ نَديٌّ والماء ثقيلْ ، والريح تهبُّ فيها مع العصر؛ فلا تزال تشتدُّ حتى يمضي عَامَّة الليل؛ وهي كثيرة البراغيث ، وغلَت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السَّابِلة والميرة[١] .

* * *

وفيها وجَّه المتوكِّل بُغا من دمشق لغزو الرُّوم في شهر ربيع الآخر ، فغزا الصائفة ، فافتتح صُمُلة ، وأقام المتوكَّل بدمشق شهرين وأياماً ، ثم رجع إلى سامراء ، فأخذ في منصرَفه على الفرات ، ثم عدل إلى الأنبار ، ثم عدل من الأنبار على طريق الحُرْف إليها ، فدخلها يوم الإثنين لسبع بَقِين من جمادى الآخرة[٢] .

* * *

وفيها عقد المتوكِّل لأبي الساج على طريق مكة مكان جعفر بن دينار ـ فيما زعم بعضهم ـ والصواب عندي أنه عقد له على طريق مكة في سنة ثنتين وأربعين ومائتين .

وفيها أتِيَ المتوكل ـ فيما ذكر ـ بحربة كانت للنبيِّ ﷺ تسمى العنَزة؛ ذكر أنها كانت للنجاشي ملك الحبشة ، فوهبها للزُّبير بن العوَّام ، فأهداها الزبير لرسول الله ﷺ ؛ فكانت عند المؤذِّنين ، وكان يُمْشَى بها بين يدي رسول الله ﷺ في العِيدين؛ وكانت تركز بين يديه في الفناء فيصلي إليها فأمر المتوكِّل بحملها بين يديه؛ فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة ، ويحمل حربته خليفة صاحب الشرطة[٣] .

* * *

---

(١) أنظر المنتظم ١١/ ٣٢٢ .
(٢) أنظر المنتظم ١١/ ٣٢٢ .
(٣) انظر البداية والنهاية [٨/ ٢١١] .

وفيها غضب المتوكل على بَختيشُوع ، وقبض ماله ، ونفاه إلى البحرين ، فقال أعرابيَّ :

يا سَخطةٌ جاءت على مقدارِ ثار له الليث على اقتدارِ
منه وبَخْتِيشُوعُ في اغتِرارِ لمَّا سَعى بالسَّادةِ الأَقمارِ
بالأمَراءِ القادةِ الأَبرارِ وُلاةِ عهدِ السَّيِّدِ المختارِ
وبالمَوالي وبني الأَحرارِ رَمى به في مُوحِش القفارِ
بساحِلِ البحْرينِ للصَّغَارِ

وفي هذه السنة اتفق عيد المسلمين الأضحى وشعانين النصارى وعيد الفطر لليهود.

وحج بالناس فيها عبد الصمد بن موسى[1].

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر خبر بناء الماحوزة][2]

ففيها أمر المتوكل ببناء الماحُوزَة ، وسمَّاها الجعفريَّ ، وأقطع القوَّاد وأصحابه فيها، وجدَّ في بنائها، وتحوَّل إلى المحمديّة ليتمَّ أمر الماحوزة، وأمر بنقض القصر المختار والبديع ، وحمل ساجهما إلى الجعفري ، وأنفق عليها ـ فيما قيل ـ أكثر من ألفي ألف دينار ، وجمع فيها القُرَّاء فقرؤوا ، وحضر أصحاب الملاهي فوهب لهم ألفي ألف درهم ، وكان يسميها هو وأصحابه الخاصَّة المتوكليَّة ، وبنى فيها قصراً سمَّاه لؤلؤة ، لم يُرَ مثله في علوِّه ، وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كَرْمى يكون شِرْباً لما حولها من فُوهةِ النهر إليها ، وأمر بأخذ جبلتا والخَصَاصَة العليا والسفلى

(١) لهذه الأخبار المقتضبة انظر البداية والنهاية [٨/ ٢١١].
(٢) انظر المنتظم ١١/ ٣٢٨.

وكَرْمى ، وحمل أهلها على بيع منازلهم وأرضهم ، فأجبِروا على ذلك حتى يكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له ، ويخرجهم عنها ، وقدَّر للنهر من النفقة مائَتي ألف دينار ، وصيَّر النفقة عليه إلى دُليل بن يعقوب النصرانيَّ كاتب بغا في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ومائتين ، وألقى في حفر النهر اثني عشر ألف رجل يعملون فيه ؛ فلم يزل دُليل يعتمل فيه ، ويحمل المال بعد المال ويقسم عامَّته في الكتاب ، حتى قتِل المتوكل ، فبطل النهر ، وأخربت الجعفريّة ، ونقضت ولم يتمَّ أمر النهر .

* * *

وزلزلت في هذه السنة بلاد المغرب حتى تهدَّمت الحصون والمنازل والقناطر ؛ فأمر المتوكل بتفرقة ثلاثة آلاف درهم في الذين أصيبوا بمنازلهم ، وزلزل عسكر المهدي ببغداد فيها ، وزلزلت المدائن .

* * *

وبعث ملك الروم فيها بأسْرَى من المسلمين ؛ وبعث يسأل المفاداة بمن عنده ؛ وكان الذي قدم من قِبَل صاحب الروم رسولاً إلى المتوكِّل شيخاً يدعى أطروبيليس معه سبعة وسبعون رجلاً من أسرى المسلمين ، أهداهم ميخائيل بن تَوْفيل ملك الروم إلى المتوكِّل ، وكان قدومه عليه لخمس بقين من صفر من هذه السنة ، فأنزل على شُنيف الخادم. ثم وجَّه المتوكل نصر بن الأزهر الشيعيَّ مع رسول صاحب الروم ، فشخص في هذه السنة ، ولم يقع الفداء إلا في سنة ست وأربعين .

وذكر أنه كانت في هذه السنة بأنطاكيَة زلزلة ورجْفة في شوَّال ، قتلت خلقاً كثيراً ، وسقط منها ألف وخمسمائة دار ، وسقط من سورها نيِّف وتسعون برجاً ، وسمعوا أصواتاً هائلة لا يحسنون وصفَها من كُوى المنازل ، وهرب أهلها إلى الصحاري ، وتقطَّع جبلها الأقرع ، وسقط في البحر ؛ فهاج البحر في ذلك اليوم ؛ وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ لا يدرى أين ذهب .

وسمع فيها ـ فيما قيل ـ أهلُ تِنيِّس في مصر ضجَّة دائمة هائلة ، فمات منها خلق كثير .

وفيها زُلزلت بالس والرَّقة وحَرَّان ورأس عين وحمص ودمشق والرِّها وطرَسُوس والمَصِّيصة وأذنة وسواحل الشأم. ورجفت اللاذقية ، فما بقي منها منزل ، ولا أفلت من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جَبَلَة بأهلها.

وفيها غارت مُشاش ـ عين مكة ـ حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً ، فبعثت أم المتوكل فأنفقت عليها[١].

وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوَّار بن عبد الله وهلال الرازي[٢].

* * *

[ذكر الخبر عن هلاك نجاح بن سلمة]

وفيها هلك نجَّاح بن سلمة.

ذكر الخبر عن سبب هلاكه[٣]:

حدَّثني الحارث بن أبي أسامة ببعض ما أنا ذاكره من أخباره وببعض ذلك

---

(١) لهذه الأخبار (من أول الصفحة إلى هنا) انظر المنتظم [١١/٣٢٩] والبداية والنهاية [٨/٢١١].

(٢) لوفاة إسحاق بن إسرائيل انظر تأريخ بغداد [٦/٣٥٦] ، وسير أعلام ١١/٤٧٦ ولوفاة سوار ابن عبد الله انظر تأريخ بغداد [٩/ ٢١٠] وسير أعلام [١١/ ٥٤٣].

(٣) هذا الخبر الذي استغرق الصفحات (٢١٤ ـ ٢١٥ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧)ذكر الطبري بعض عن الحارث بن أبي أسامة وهو ما بين الثقة والصدوق [انظر لسان الميزان ٢/ تر ٢٢٣٤] وروى بعضه الآخر عن غير الحارث وخلط كل ذلك ببعض كما قال الطبري نفسه في بداية الصفحة (٢١٤) حدثني الحارث بن أبي أسامة ببعض ما أنا ذاكره من أخباره وببعض ذلك غيره.. الخبر، ولا ندري من غيره هذا فلم يُبيِّنه الطبري رحمه الله والحارث بن أبي أسامة توفي سنة ٢٨٢هـ وقد عاصر هذه الأحداث ولكنه لم يدَّع بأنه دخل على الخليفة في قصره حتى يطلع على ذلك الحوار الطويل الذي دار في أروقة القصر وما إلى ذلك من الكيد الذي كاده نجاح بن سلمة وغيره ـ وقد تحدثنا عن شروطنا لقبول مثل هذه الأخبار في الصحيح ولو كان بعض ما جاء في هذا الخبر صحيحاً فذلك تحوُّل خطير ويعني أن الوزراء أصبحوا بالفعل أصحاب أموالٍ طائلة وأصيبوا بالترف وإذا ما دخل الترف إلى بيوت الأمراء والوزراء فذلك =

غيره؛ أن نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع والتتبُّع على العمال ، وكان قبل ذلك كاتب إبراهيم بن رباح الجوهريَّ؛ وكان على الضياع؛ فكان جميع العمال يتَّقونه ويقضون حوائجه؛ ولا يقدرون على مَنْعِه من شيء يريدُه؛ وكان المتوكل ربما نادمه ، وكان انقطاع الحسن بن مخلد وموسى بن عبد الملك إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وهو وزير المتوكل؛ وكانا يحملان إليه كلَّ ما يأمرهما به ، وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع ، وموسى على ديوان الخراج؛ فكتب نجاح بن سَلمة رُقْعة إلى المتوكل في الحسن وموسى يذكر أنهما قد خانا وقصَّرا فيما هما بسبيله؛ وأنه يستخرج منها أربعين ألف ألف درهم؛ فأدناه المتوكِّل وشاربه تلك العشيَّة ، وقال: يا نجاح؛ خذَل الله من يخذُلك ، فبكِّرْ إليَّ غداً حتى أدفعهما إليك؛ فغدا وقد رتَّب أصحابه ، وقال: يا فلان خذ أنت الحسن ، ويا فلان خذ أنت موسى؛ فغدا نجاح إلى المتوكل ، فلقى عبيد الله ، وقد أمر عبيد الله أن يحجب نجاح عن المتوكل؛ فقال له: يا أبا الفضل ، انصرف حتى ننظر وتنظر في هذا الأمر؛ وأنا أشير عليك بأمر لك فيه صلاح؛ قال: وما هو؟ قال: أصلح بينك وبينهما؛ وتكتب رقعة تذكر فيها أنك كنت شارباً ، وأنك تكلمت بأشياء تحتاج إلى معاودة النَّظر فيها ، وأنا أصلح الأمر عند أمير المؤمنين؛ فلم يزل يخدعه حتى كتب رقعة بما أمره به ، فأدخلها على المتوكل ، وقال: يا أمير المؤمنين قد رجع نجاح عَمَّا قال البارحة؛ وهذه رقعة موسى والحسن يتقبَّلان به بما كتبا؛ فتأخذ ما ضمنا عنه ، ثم تعطف عليهما ، فتأخذ منهما قريباً مماضمن لك عنهما.

فسرَّ المتوكل ، وطمع فيما قال له عبيد الله ، فقال: ادفعه إليهما؛ فانصرفا به؛ وأمرا بأخذ قَلنسوته عن رأسه وكانت خزا ، فوجد البرد ، فقال: ويحك يا حسن! قد وجدت البرد؛ فأمر بوضع قلنسوته على رأسه ، وصار به موسى إلى ديوان الخراج ، ووجَّها إلى ابنيه أبي الفرج وأبي محمد، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، ابن بنت حسن بن شنيف ، وأخذ كاتبه إسحاق بن سعد بن مسعود

= بداية تفكك سلطة الخلافة وانهيار سلطانها وكسر شوكتها وصدق الله العظيم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] وقد أورد الحافظ بن كثير هذه القصة مختصرة في سطرين فقط وقال وقد أورد قصته ابن جرير مطولة ولم يزد على ذلك [انظر البداية والنهاية ٨/ ٢١١].

القُطْرَبُّليَّ وعبد الله بن مخلد المعروف بابن البواب ـ وكان انقطاعه إلى نجاح ـ فأقرَّ لهما نجاح وابنه بنحو من مائة وأربعين ألف دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامراء وبغداد، وسوى ضياع لهما كثيرة، فأمر بقبض ذلك كله، وضُرِب مراراً بالمقارع في غير موضع الضرب نحواً من مائتي مَقْرعة، وغُمز وخُنِق، خنقة موسى الفرانق والمعلوف.

فأما الحارث فإنه قال: عصر خصيتيه حتى مات؛ فأصبح ميتاً يوم الإثنين لثمان بقين من ذي القعدة من هذه السنة، فأمر بغسله ودفنه، فدُفن ليلاً؛ وضرِب ابنه محمد وعبد الله بن مخلد وإسحاق بن سعد نحواً من خمسين خمسين، فأقر إسحاق بخمسين ألف دينار، وأقر عبد الله بن مخلد بخمسة عشر ألف دينار ـ وقيل عشرين ألف دينار.

وكان ابنه أحمد ابن بنت حسن قد هرب فظفر به بعد موت نجاح ، فحبِس في الديوان ، وأخذ جميع ما في دار نجاح وابنه أبي الفرج من متَاع ، وقبضت دورهما وضياعهما حيث كانتْ وأخرجت عيالهما ، وأخذ وكيله بناحية السوادِ، وهو ابن عياش فأقر بعشرين ألف دينار، وبعث إلى مكة في طلب الحسن بن سهل بن نوح الأهوازيَّ وحسن بن يعقوب البغدادي ، وأخِذ بسببه قوم فحبسوا.

وقد ذكر في سبب هلاكه غير ما قد ذكرناه، ذكر أنه كان يضادُّ عبيد الله بن يحيى بن خاقان ـ وكان عبُيد الله متمكناً من المتوكل وإليه الوزارة وعامة أعماله؛ وإلى نجاح توقيع العامة، فلما عزم المتوكل على بناء الجعفريِّ قال له نجاح ـ وكان في الندماء ـ يا أمير المؤمنين؛ أسمي لك قوماً تدفعهم إليَّ حتى أستخرج لك منهم أموالاً تبني بها مدينتك هذه؛ إنه يلزمك من الأموال في بنائها ما يعظم قدره ، ويجلَّ ذكره. فقال له: سَمِّهم، فرفع رقعة يذكر فيها موسى بن عبد الملك وعيسى بن فرُّخانشاه خليفة الحسن بن مخلد، وزيدان بن إبراهيم، خليفة موسى بن عبد الملك، وعبيد الله بن يحيى وأخويه: عبد الله بن يحيى وذكرياء، وميمون بن إبراهيم، ومحمد بن موسى المنجم وأخاه أحمد بن موسة وعلي بن يحيى بن أبي منصور وجعفراً المعلوف مستخرج ديوان الخراج وغيرهم نحواً من عشرين رجلاً فوقَع ذلك من المتوكل موقِعاً أعجبه ، وقال له: اغْدُ غَدوةً ، فلما أصبح لم يشكَّ في ذلك. وناظر عبيد الله بن يحيى المتوكل ، فقال له: يا أمير

المؤمنين! أراد ألا يدع كاتباً ولا قائداً إلا أوقع بهم، فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين؟ وغدا نجاح؛ فأجلسه عبيد الله في مجلسه، ولم يؤذن له، وأحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد، فقال لهما عبيد الله: إنه إن دخل إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما، وأخذ ما تملكان، ولكن اكتبان إلى أمير المؤمنين رقعة تقبّلان به فيها بألفي ألاف دينار؛ فكتبا رقعة بخطوطهما، وأوصلها عبيد الله بن يحيى، وجعل يختلف بين أمير المؤمنين ونجاح وموسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد؛ فلم يزل يدخل ويخرج ويعين موسى والحسن؛ ثم أدخلهما على المتوكل، فضمنا ذلك؛ وخرج معهما فدفعه إليهما جميعاً؛ والناس جميعاً الخواص والعوام، وهما لا يشكّان أنهما وعبيد الله بن يحيى مدفوعون إلى نجاح؛ للكلام الذي دار بينه وبين المتوكل، فأخذاه، وتولى تعذيبه موسى بن عبد الملك، فحبسه في ديوان الخراج بسامراء، وضربه دِرَراً وأمر المتوكل بكاتبه إسحاق بن سعد ـ وكان يتولى خاصَّ أموره وأمر ضياع بعض الولد ـ أن يغرَّم واحداً وخمسين ألف دينار، وحُلِّفَ على ذلك، وقال: إنه أخذ مني في أيام الواثق، وهو يخلف عن عمر بن فرج خمسين ديناراً، حتى أطلق أرزاقي، فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادةَ ألف فضلاً كما أخذ فضلاً. فحُبس ونُجِّمَ عليه في ثلاثة أنجم؛ ولم يطلَق حتى أدَّى تعجيلَ سبعة عشر ألف دينار، وأطلق بعد أن أخذ منه كُفلاء بالباقي، وأخذ عبد الله بن مخلَد، فأغرم سبعة عشر ألف دينار، ووجَّه عبيد الله الحسين بن إسماعيل ـ وكان أحد حجاب المتوكل ـ وعتَّاب بن عتاب عن رسالة المتوكل أن يضرَب نجاح خمسين مقرعة إن هو لم يقرَّ ويؤد ما وصف عليه، فضربه ثم عاوده في اليوم الثاني بمثل ذلك، ثم عاوده في اليوم الثالث بمثل ذلك؛ فقال: أبلغ أمير المؤمنين أني ميِّت. وأمر موسى بن عبد الملك جعفراً المعلوف ومعه عوْنان من أعوان ديوان الخراج، فعصروا مذاكيره حتى برد فمات. وأصبح فركب إلى المتوكل فأخبره بما حدث من وفاة نجاح، فقال لهما المتوكل: أني أريد مالي الذي ضمنتاه، فاحتالاه، فقبضا من أمواله وأموال ولده جملة، وحبسا أبا الفرج ـ وكان على ديوان زمام الضياع من قبل أبي صالح بن يزْداد ـ وقبضا أمتعته كلها وجميع ملكه، وكتبا على ضياعه لأمير المؤمنين، وأخذا ما أخذا من أصحابه؛ فكان المتوكل كثيراً ما يقول لهما كلَّما شرب: ردُّوا عليَّ كاتبي؛ وإلا فهاتوا المال؛ وضمَّ توقيع ديوان العامة إلى عبيد الله بن يحيى،

فاستخلف عليه يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان ، ابن عمِّه ، ومكث موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد على ذلك يطالبهما المتوكل بالأموال التي ضمناها من قبل نجاح ؛ فما أتى على ذلك إلا يسيراً حتى ركب موسى بن عبد الملك يشيِّع المنتصر من الجعفريِّ ، وهو يريد سامراء إلى منزله الذي ينزله بالجوْسق ؛ فبلغه معه ساعة ، ثم انصرف راجعاً ؛ فبينا وهو يسير إذ صاح بمن معه : خذوني ، فبدروه فسقط على أيديهم مفلوجاً ، فحمل إلى منزله ، فمكث يومه وليلته ، ثم توفِّيَ ، فصيِّر على ديوان الخراج أيضاً عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، استخلف عليه أحمد بن إسرائيل كاتب المعتزّ ؛ وكان أيضاً خليفته على كتابة المعتز فقال القصَّافيَّ :

مَا كانَ يخْشى نجاحٌ صَوْلة الزَّمنِ حتَّى أُدِيلَ لموسى منه والحَسَنِ
غدا على نِعَمِ الأحرارِ يَسلبُها فراحَ وهْو سَليبُ المال والبدنِ

وفيها ضرب بَخْتيِشوع المتطبِّب مائة وخمسين مقرعة ، وأثقِل بالحديد ، وحبِس في المطبق في رجب .

* * *

[غارة الروم على سميساط]

وفيها أغارت الروم على سُمْيساط ، فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة .

وغزا عليّ بن يحيى الأرمنيّ الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً ، فبعث ملك الروم إليهم بِطْريقاً يضمن لكلِّ رجل منهم ألف دينار ، على أن يسلموا إليه لؤلؤة ، فأصعدوا إليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ، فسلَّموا لؤلؤة والبطريق إلى بَلْكاجُور في ذي الحجة ؛ وكان البطريق الذي كان صاحب الروم وجهَّه إليهم يقال له لُغُثِيط ، فلما دفعه أهل لؤلؤة إلى بَلْكاجور . وقيل : إن عليَّ بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل إلى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقالوا ، نقتلك ، فقال : أنتم أعلم ؛ وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين .

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام ، وهو يعرف بالزينيِّ؛ وهو والي مكة .

وكان نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج بتأجيره إياه عنهم فيها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، ولسبع عشرة ليلة خلت من حزَيِران ولثمان وعشرين من أرديوهشت ماه ، فقال البحتريَّ الطائي :

إنَّ يـومَ النَّيـرُوزِ عـادَ إلـى العهـ ـدِ الـذي كـان سَنَّـهُ أَرْدَشيـرُ

* * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزو عمر بن عبد الله الأقطع الصَّائفة ، فأخرج سبعة آلاف رأس . وغزوة قريباس ، فأخرج خمسة آلاف رأس ، وغزو الفضل بن قارن بحراً في عشرين مركباً؛ فافتتح أنطاكية . وغزوة بلكاجور فغنْم وسبى . وغزو عليِّ بن يحيى الأرمنيَّ الصائفة ، فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدوابُ والرَّمَك والحمير نحواً من عشرة آلاف .

وفيها تحوَّل المتوكل إلى المدينة التي بناها الماحوزة ، فنزلها يوم عاشوراء من هذه السنة[١] .

* * *

[ذكر خبر الفداء بين الروم والمسلمين في هذه السنة][٢]

وفيها كان الفداء في صفر على يدي عليِّ بن يحيى الأرمني ، ففُودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً . وقال بعضهم : لم يتم الفداء في هذه السنة إلا في جمادى الأولى .

---

(١) انظر المنتظم [١١/ ٣٤٠] .

(٢) انظر البداية والنهاية [٨/ ٢١٢] .

وذكر عن نصر بن الأزهر الشِّيعيِّ ـ وكان رسول المتوكل إلى ملك الروم في أمر الفداء ـ أنه قال: لمَّا صرتُ إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس المناظرة ـ وهو القيِّم بشأن الملك ـ وأبوْا أن يدخلوني بسيفي وسوادي، فقلت: أنصرف، فانصرفت فرُددِتُ من الطريق ومعي الهدايا نحو من ألف نافجة مسك وثيابٌ حريرٌ وزعفران كثير وطرائف؛ وقد كان أذن لوفود بُرْجان وغيرهم ممن ورد عليه، وحمُلت الهدايا التي معي، فدخلت عليه؛ فإذا هو على سرير فوق سرير، وإذا البطارقة حوله قيام، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير، وقد هُيئ لي مجلس، ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجمة: غلام فرَّاش كان لمسرور الخادم، وغلام لعباس بن سعيد الجوهريِّ، وترجمان له قديم يقال له سُرْحُون؛ فقالوا لي: ما نبلِّغه؟ قلت: لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً؛ فأقبلوا يترجمون ما أقول، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء، وقرَّبني وأكرمني، وهيأ لي منزلاً بقربه؛ فخرجت فنزلت في منزلي، وأتاه أهل لؤلؤة برغبتهم في النصرانية، وأنهم معه، ووجهَّوا برجلين ممَّن فيها رهينة من المسلمين.

قال: فتغافل عني نحواً من أربعة أشهر؛ حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤة، وأخذهم رسلَه واستيلاء العرب عليها؛ فراجعوا مخاطبتي، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفِداء؛ على أن يعطوا جميع مَنْ عندهم وأعطي جميع مَنْ عندي؛ وكانوا أكثر من ألف قليلاً؛ وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين؛ منهم عشرون امرأة؛ معهنَّ عشرة من الصبيان، فأجابوني إلى المخالفة؛ فاستحلفت خالَه، فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك؛ فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم، ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلتُ بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أوْلا، وليس يتكلَّم وخالُه المدبَّر أمَره، ثم خرجت من عنده بالأسْرى بأحسن حال؛ حتى إذا جئنا موضع الفِداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة؛ وكان عِداد ممَنْ صار في أيدينا من المسلمين أكثر من ألفين منهم عدَّة ممن كان تنصَّر وصار في أيديهم أكثر من ألف قليلاً؛ وكان قوم تنصَّروا؛ فقال لهم ملك الروم: لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء، فمن أراد أن أقبله في النصرانية فليرجع

من موضع الفداء؛ وإلا فليضمن ويمضي مع أصحابه؛ وأكثر من تنصَّر أهل المغرب، وأكثر من تنصَّر بالقسطنطينية؛ وكان هنالك صائغان قد تنصَّرا، فكانا يحسنان إلى الأسرى؛ فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك إلا سبعة نفر، خمسة أتِي بهم من سقلِيَة، أعطيتُ فداءهم على أن يوجَّه بهم إلى سقليَّة، ورجلان كانا من رهائن لؤلؤة، فتركتهما، [و] قلت: اقتلوهما، فإنهما رغبَا في النصرانية.

ومُطر أهلُ بغداد في هذه السنة واحداً وعشرين يوماً في شعبان ورمضان؛ حتى نبت العشب فوق الأجاجير.

وصلَّى المتوكلُ فيها صلاة الفطر بالجعفريَّة، وصلى عبد الصمد بن موسى في مسجد جامعها، ولم يصلِّ بسامراء أحد.

وورد فيها الخبر أنَّ سكة بناحية بلخْ تنسب إلى الدَّهاقين مُطرت دماً عبيطاً.

* * *

وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان الزينبيّ.

وحجَّ فيها محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فولى أعمال الموسم.

وضحَّى أهل سامراء فيها يوم الإثنين على الرؤية وأهل مكة يوم الثلاثاء[١].

* * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

* * *

[ذكر الخبر عن مقتل المتوكل]

فممَّا كان فيها من ذلك مقتل المتوكل[٢]

---

(١) انظر البداية والنهاية ٨/ ٢١٢.

(٢) وقال القاضي وكيع في ترجمة إبراهيم بن محمد التيمي ولم يزل التيمي على قضاء البصرة إلى=

* ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف قتل:

قال أبو جعفر: ذُكر لي أنَّ سبب ذلك كان أنَّ المتوكل كان أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان؛ فكُتِبت الكتب بذلك، وصارت إلى الخاتم على أن تنفذ يوم الخميس لخمس خلوْن من شعبان؛ فبلغ ذلك وصيفاً، واستقرَّ عنده الذي أمر به في أمره؛ وكان المتوكِّل أراد أن يُصَلِّيَ بالناس يوم الجمعة في شهر رمضان في آخر جمعة منه؛ وكان قد شاع في الناس في أوَّل رمضان أنَّ أمير المؤمنين يصلي في آخر جمعة من الشهر بالناس، فاجتمع الناس لذلك واحتشدوا، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامِه إذا هو ركب. فلما كان يوم الجمعة أراد الرُّكوب للصلاة، فقال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الناس قد اجتمعوا وكثروا؛ من أهل بيتك وغيرهم؛ وبعضٌ متظلِّم وبعض طالب حاجة؛ وأمير المؤمنين يشكو ضِيق الصدر ووعْكة؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعضَ ولاة العهود بالصَّلاة، ونكون معه جميعاً فليفعل. فقال: قد رأيتُ ما رأيتما؛ فأمر المنتصر بالصَّلاة، فلمَّا نهض المنتصر ليركب للصلاة قالا: يا أمير المؤمنين؛ قد رأينا رأياً؛ وأمير المؤمنين أعْلى عيناً، قال: وما هو؟ اعرضاه عليَّ، قالا: يا أمير المؤمنين، مُرْ أبا عبد الله المعتزَّ بالله الصلاة لتشرِّفه بذلك في هذا اليوم الشريف؛ فقد اجتمع أهل بيته؛ والناس جميعاً فقد بلغ الله به.

قال: وقد كان وُلد للمعتزِّ قبل ذلك بيوم؛ فأمر المعتزَّ، فركب وصلَّى بالناس، فأقام المنتصر في منزله ـ وكان بالجعفريّة ـ وكان ذلك مما زاد في إغرائه به؛ فلمَّا فرغ المعتزَّ من خطبته قام إليه عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان، فقبَّلا يديه ورجليه، وفرغ المعتزِّ من الصلاة، فانصرف وانصرفا معه؛ ومعهم الناس في موكب الخلافة، والعالم بين يديه؛ حتى دخل على أبيه وهما معه؛ ودخل معه داود بن محمد بن أبي العباس الطوسيَّ، فقال داود: يا أميرَ المؤمنين، ائذن لي

= أن وقال ابن قتيبة الدينوري: قتل سنة سبع وأربعين ومائتين بعد الفطر بثلاثة أيام [المعارف / ٢٠٠]. والذي اختاره الحافظ بن كثير أنه قتل في ليلة الأربعاء لأربع خلت من شوال من هذه السنة أعني سنة سبع وأربعين ومائتين بالمتوكلية وهي الماحوزة [البداية والنهاية ٨/ ٢٥٠] قتل المتوكل على الله في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين.

فأتكلَّم ، قال: قل ، فقال: والله يا أمير المؤمنين؛ لقد رأيت الأمين والمأمون ورأيت المعتصم صلواتُ الله عليهم ، ورأيت الواثق بالله؛ فوالله ما رأيتُ رجلاً على منبر أحسن قواماً ، ولا أحسن بديهاً ، ولا أجهر صوتاً ، ولا أعذب لساناً ، ولا أخطب من المعتزِّ بالله ، أعزه الله يا أمير المؤمنين ببقائك ، وأمتعك الله وإيانا بحياته! فقال له المتوكل: أسمعك الله خيراً ، وأمتعنا بك؛ فلما كان يوم الأحد؛ وذلك يوم الفِطْر وجد المتوكِّل فترة ، فقال: مُروا المنتصرَ فليصلِّ بالناس ، فقال له عبيد الله بن يحيى بن خاقان: يا أمير المؤمنين؛ قد كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا ، فلم يركب أمير المؤمنين؛ ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجُف الناس بعِلَّته ، ويتكلموا في أمره؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يَسُرَّ الأولياء ويكْبِت الأعداء بركوبه فعل. فأمرهم بالتأهب والتهيُّؤ لركوبه؛ فركب فصلى بالناس وانصرف إلى منزله ، فأقام يومه ذلك ومن الغد لم يدع بأحد من ندمائه.

وذُكر أنه ركب يوم الفِطْر؛ وقد ضربت له المصافُّ نحواً من أربعة أميال ، وترجَّل الناس بين يديْه ، فصلَّى بالناس ، ورجع إلى قصره ، فأخذ حِفْنةً من تراب ، فوضعها على رأسه ، فقيل له في ذلك ، فقال: إنِّي رأيتُ كثرة هذا الجمع ، ورأيتهم تحت يدي ، فأحببت أن أتواضع لله عزَّ وجلَّ؛ فلمَّا كان من غد يوم الفطر لم يدعُ بأحد من ندمائه؛ فلما كان اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال ـ أصبح نشيطاً فرحاً مسروراً ، فقال: كأني أجد مسَّ الدم ، فقال الطَّيْفُوريَّ وابن الأبرش ـ وهما طبيباه: يا أمير المؤمنين ، عزم الله لك على الخير؛ افعلْ ، ففعل؛ واشتهى لحم جَزور ، فأمر به فأحضِر بين يديه ، فاتَّخذه بيده.

وذكر عن ابن الحفصيَّ المغنِّي أنه كان حاضر المجلس ، قال ابن الحفصيَّ: وما كان أحدٌ ممن يأكل [بين يديه] حاضراً غيري وغير عثعث وزُنام وبُنان غلام أحمد بن يحيى بن معاذ؛ فإنه جاء مع المنتصر. قال: وكان المتوكل والفتح بن خاقان يأكلان معاً ، ونحن في ناحية بإزائهم والندماء مفترقون في حجرهم؛ لم يدع بأحد منهم بعد. قال ابن الحفصيَّ: فالتفت إليَّ أمير المؤمنين ، فقال: كلْ أنتَ وعثعث بين يديَّ. ويأكل معكما نصر بن سعيد الجِهْبذ؛ قال: فقلت:

يا سيديَّ ، نصر والله يأكلني ، فكيف ما يوضع بين أيدينا! فقال: كُلوا بحياتي؛ فأكلنا ثم علَّقنا أيدينا بحذائِه. قال: فالتفت أميرُ المؤمنين التفاتةً ، فنظر إلينا معلَّقي الأيدي ، فقال: ما لكم لا تأكلون؟ قلت: يا سيدي ، قد نفذ ما بين أيدينا؛ فأمر أن يُزاد ، فغُرِف لنا من بين يديه.

قال ابن الحفصيِّ: ولم يكن أميرُ المؤمنين في يوم من الأيام أسرَّ منه في ذلك اليوم. قال: وأخذ مجلسه ، ودعا بالندماء والمغنِّين فحضروا ، وأهدت إليه قَبيحة أمُّ المعتز مطرف خزَّ أخضر؛ لم ير الناس مثله حسناً ، فنظر إليه فأطال النظر ، فاستحسنه وكثر تعجُّبه منه ، وأمر به فقطع نصفين ، وأمر بردِه عليها ، ثم قال لرسولها: أذكَرَتْنِي به ، ثم قال: والله إنَّ نفسي لتحدِّثني أني لا ألبسه وما أحب أن يلبسه أحد بعدي وإنما أمرت بشقة لئلا يلبسه أحد بعدي ، فقلنا له: يا سيدنا ، هذا يوم سرور يا أمير المؤمنين نعيذك بالله أن تقول هذا يا سيدنا ، قال: وأخذ في الشراب واللهو ، ولهج بأن يقول: أنا والله مفارقكم عن قليل ، قال: فلم يزل في لهوه وسروره إلى الليل.

وذكر بعضهم أنَّ المتوكل عزم هو والفتح أن يصيِّرا غداءهما عند عبدالله بن عمر البازيار يوم الخميس لخمس ليال خلوْن من شوال؛ على أن يفتك بالمنتصر ، ويقتل وصيفاً وبُغا وغيرهما من قُوَّاد الأتراك ووجوههم؛ فكثر عبُثه يوم الثلاثاء قبل ذلك بيوم ـ فيما ذكر ابن الحفصيَّ ـ بابنه المنتصر، ومرة يشتمه، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمره بصفعه ومرَّةً يتهدَّده بالقتل.

فذكر عن هارون بن محمدبن سليمان الهاشمي أنه قال: حدِّثني بعض من كان في الستارة من النساء ، أنه التفت إلى الفتح ، فقال له: برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم تلطِمْه ـ يعني المنتصر ـ فقام الفتح ولطَمه مرَّتين؛ يمرَّ يده على قفاه ، ثم قال المتوكِّل لمن حضر: اشهدوا جميعاً أني قد خلعتُ المستعجل ـ المنتصر ـ ثم الْتفت إليه ، فقال: سمَّيتُك المنتصر ، فسماك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل ، فقال المنتصر: يا أميرَ المؤمنين ، لو أمرتَ بضرب عنقي كان أسهلَ عليَّ مما تفعله بي ، فقال: اسقوه ، ثم أمر بالعشاء فأحضر وذلك في جوف الليل ، فخرج المنتصر من عنده ، وأمر بُناناً غلام

أحمد بن يحيى أن يلحقه ، فلمَّا خرج وضعت المائدة بين يدي المتوكل ، وجعل يأكلها ويلقم وهو سكران.

وذُكر عن ابن الحفصيِّ أنَّ المنتصر لمَّا خرج إلى حُجْرته أخذ بيد زرافة ، فقال له: امض معي ، فقال: يا سيِّدي؛ إن أمير المؤمنين لم يقُم ، فقال: إن أمير المؤمنين قد أخذه النبيذ ، والساعة يخرج بُغا والندماء؛ وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إليَّ ، فإن أوتامش سألني أن أزوِّج ابنَه من ابنتك ، وابنَك من ابنته ، فقال له زُرافة: نحن عبيدك يا سيدي ، فمرنا بأمرك. وأخذ المنتصر بيده وانصرف به معه. قال: وكان زُرافة قد قال لي قبل ذلك: ارفق بنفسك ، فإنَّ أمير المؤمنين سكران والساعة يُفيق ، وقد دعاني تمرة ، وسألني أن أسألك أن تصير إليه فنصير جميعا إلى حجرته. قال: فقلت له: أنا أتقدَّمك إليه ، قال: ومضى زرافة مع المنتصر إلى حجرته.

فذكر بُنان غلام أحمد بن يحيى أنَّ المنتصر قال له: قد أملكتُ ابن زرافة من ابنة أو تامش وابن أوتامش من ابنة زرافة؟ قال بُنان: فقلت للمنتصر: يا سيدي ، فأين النِّثار فهو يُحسن الإملاك؟ فقال: غداً إن شاء الله؛ فإنَّ الليل قد مضى. قال: وانصرف زرافة إلى حجرة تمرة ، فلما دخل دعا بالطعام فأتي به ، فما أكل إلا أيسر ذلك حتى سمعنا الضَّجة والصراخ؛ فقمنا؛ فقال بنان: فما هو إلاَّ أن خرج زرافة من منزل تمرة؛ إذا بُغا استقبل المنتصر ، فقال المنتصر: ما هذه الضجة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين قال: ما تقول ، ويلك! قال أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين! كان عبداً لله دعاه فأجابه ، قال: فجلس المنتصر؛ وأمر بباب البيت الذي قُتل فيه المتوكل والمجلس ، فأغلق وأغلقت الأبواب كلها ، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتزِّ والمؤيد عن رسالة المتوكل.

وذكر عن عَثْعَث أنَّ المتوكل دعا بالمائدة بعد قيام المنتصر وخروجه ومعه زُرافة ، وكان بُغا الصغير المعروف بالشرابيِّ قائماً عند الستر؛ وذلك اليوم كان نوبة بُغا الكبير في الدار؛ وكان خليفته في الدار ابنه موسى ـ وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل ، وبُغا الكبير يومئذٍ بسُميساط ـ فدخل بُغا الصغير إلى المجلس ، فأمر الندماء بالانصراف إلى حُجرهم ، فقال له الفتح: ليس هذا وقت انصرافهم ، وأمير المؤمنين لم يرتفع ، فقال له بغا: إن أمير المؤمنين أمرني إذا

جاوز السبعة ألاَّ أترك في المجلس أحداً ، وقد شُرِّبَ أربعة عشر رطلاً ، فكره الفتح قيامَهم ، فقال له بغا : إن حُرَم أمير المؤمنين خلْف الستارة ، وقد سكر ، فقوموا واخرجوا ، فخرجوا جميعاً ، فلم يبق إلا الفتح وعثعث وأربعة من خدَم الخاصَّة ؛ منهم شفيع وفرج الصَّغير ومؤنس وأبو عيسى مارد المحْرِزيَّ . قال : وضع الطباخ المائدة بين يدي المتوكل ، فجعل يأكل ويلقم ، ويقول لمارد : كلْ معي حتى أكل بعض طعامه وهو سكران ، ثم شرب أيضاً بعد ذلك .

فذكر عثعث أن أبا أحمد بن المتوكل أخا المؤيد لأمه ـ كان معهم في المجلس ، فقام إلى الخلاء ، وقد كان بُغا الشرابيَّ أغلق الأبواب كلها غير باب الشطِّ ، ومنه دخل القوم الذين عُيِّنُوا لقتْله ، فبصُربهم أبو أحمد ، فصاح بهم ما هذا يا سفل! وإذا بسيوف مسلَّلة ، قال : وقد كان تقدَّم النفرَ الذين تولوا قتله بغلون التركيَّ وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابيَّ ؛ فلمَّا سمع المتوكل صوتَ أبي أحمد رفع رأسه ، فرأى القوم ، فقال : يا بغا ، ما هذا؟ قال : هؤلاء رجال النوبة التي تبيت على باب سيِّدي أمير المؤمنين ، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبُغا ؛ ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم بعد . قال عثعث : فسمعت بُغا يقول لهم : يا سفل ، أنتم مقتولون لا محالة ، فموتوا كراماً ؛ فرجع القوم إلى المجلس ، فابتدره بغلون فضربه ضَرْبَةً على كَتِفه وأذنه فقدَّه ، فقال : مهلا قطع الله يدك! ثم قام وأراد الوثوب به ، فاستقبله بيده فأبانها ، وشركه باغر ، فقال الفتح : ويلكم ، أمير المؤمنين! فقال بغا : يا حَلَقيَّ ، لا تَسْكُتُ! فرمى الفتح بنفسه على المتوكل ، فبعجه هارون بسيفه ، فصاح : الموت! واعتوره هارون وموسى بن بُغا بأسيافهما ، فقتلاه وقطعاه ، وأصابت عثعثُ ضربة في رأسه . وكان مع المتوكل خادم صغير ، فدخل تحت الستارة ، فنجا ، وتهارب الباقون . قال : وقد كانوا قالوا لوصيف في وقت ما جاءوا إليه : كن معنا فإنا نتخوَّف ألاَّ يتم ما نريد فنقتَل ، فقال : لا بأس عليكم ، فقالوا له : فأرسل معنا بعضَ ولدك ، فأرسل معه خمسة من ولده : صالحاً ، وأحمد ، وعبد الله ، ونصراً ، وعبيد الله ؛ حتى صاروا إلى ما أرادوا .

وذكر عن زُرْقان خليفة زرافة على البوابين وغيرهم أنَّ المنتصر لما أخذ بيد زرافة فأخرجه من الدَّار ودخل القوم ، نظر إليهم عثعث ، فقال للمتوكل : قد

فرغنا من الأسد والحيات والعقارب ، وصرنا إلى السيوف؛ وذلك أنه كان ربما أشلى الحيَّة والعقرب أو الأسد؛ فلما ذكر عثعث السيوف ، قال له: ويلك! أي شيء تقول؟ فما استتم كلامه حتى دخلوا عليه ، فقام الفتح في وجوههم ، فقال لهم: يا كلاب؛ وراءكم وراءكم! فبدر إليه بُغا الشرابيّ ، فبعج بطنه بالسَّيف ، وبدر الباقون إلى المتوكل ، وهرب عثعث على وجهه. وكان أبو أحمد في حُجْرته ، فلما سمع الضجة خرج فوقع على أبيه ، فبادره بغلون فضربه ضربتين؛ فلما رأى السيوف تأخذه خرج وتركهم ، وخرج القوم إلى المنتصر ، فسلَّمُوا عليه بالخلافة ، وقالوا: مات أمير المؤمنين ، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف ، فقالوا له: بايع ، فبايعه. وأرسل المنتصر إلى وصيف: إنَّ الفتح قتل أبي ، فقتُلته ، فاحضر في وجوه أصحابك. فحضر وصيف وأصحابه فبايعوا. قال: وكان عبيد الله بن يحيى في حُجرته لا يعلم بشيء من أمر القوم ينفذ الأمور.

وقد ذكر أن امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم ، فوصلت الرُّقعة إلى عبيد الله ، فشاور الفتحَ فيها؛ وكان ذلك وقع إلى أبي نوح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان ، فأنهاه إلى الفتح ، فاتفق رأيهُم على كتمان المتوكل لما رأوا من سروره؛ فكرهوا أن ينغِّصوا عليه يومه؛ وهان عليهم أمرُ القوم ، ووثقوا بأنَّ ذلك لا يخسر عليه أحد ولا يقدر.

فذُكر أنَّ أبا نوح احتال في الهرب من ليلته ، وعبيد الله جالس في عمله ينفذ الأمور ، وبين يديه جعفر بن حامد ، إذْ طلَع عليه بعض الخدم ، فقال: يا سيديَ ، ما يجلسك؟ قال: وما ذاك! قال: الدار سيف واحد ، فأمر جعفراً بالخروج؛ فخرج وعاد؛ فأخبره أنَّ أمير المؤمنين والفتح قد قتلا ، فخرج فيمن معه من خدمه وخاصّته ، فأخبر أنَّ الأبواب مغلقة ، فأخذ نحو الشطِّ ، فإذا أبوابه أيضاً مغلَقة ، فأمر بكسر ما كان مما يلي الشطُّ ، فكسرت ثلاثة أبواب حتى خرج إلى الشطِّ ، فصار إلى زورق ، فقعد فيه ومعه جعفر بن حامد ، وغلام له ، فصار إلى منزل المعتز ، فسأل عنه فلم يصادفه؛ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قتلني وقتل نفسه ، وتلهَّف عليه ، واجتمع إلى عبيد الله أصحابُه غداة يوم الأربعاء من الأبناء والعجم والأرمن والزَّواقيل والأعراب والصَّعاليك وغيرهم [وقد اختلف في عدَّتهم] ، فقال بعضهم: كانوا زهاء عشرين ألف فارس وقال آخرون: كان

معه ثلاثة عشر ألف رجل ، وقال آخرون : كان معه ثلاثة عشر ألف لجام ، وقال المقلِّلون : ما بين الخمسة آلاف إلى العشرة آلاف ؛ فقالوا له : إنما كنت تصطنعنا لهذا اليوم ، فأمُر بأمرك ، وأذن لنا نَمِلْ على القوم ميلة ؛ نقتل المنتصر ومَنْ معه من الأتراك وغيرهم ، فأبى ذلك ، وقال : ليس في هذا حِيلة ، والرجل في أيديهم - يعني المعتزَّ .

وذُكر عن عليِّ بن يحيى المنجِّم أنه قال : كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتاباً من كتب الملاحم ، فوقف على موضع من الكتاب فيه : إن الخليفة العاشر يُقتَل في مجلسه ، فتوقَّفت عن قراءته وقطعتُه ، فقال لي : مالك قد وقفت! قلت : خير ، قال : لابدَّ والله من أن تقرأه فقرأته وحدْتُ عن ذكر الخلفاء ؛ فقال المتوكل : ليت شعري مَنْ هذا الشَّقيُّ المقتول!

وذُكر عن سلمة بن سعيد النصرانيِّ أنَّ المتوكل رأى أشُوط بن حمزة الأرمنيَّ قبل قتله بأيام ، فتأفَّف برؤيته ، وأمر بإخراجه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ؛ أليس قد كنت تحبُّ خدمته؟ قال : بلى ، ولكِّني رأيت في المنام منذ ليال كأني قد ركبته ، فالتفت إليَّ وقد صار رأسه مثل رأس البغل ، فقال لي : إلى كم تؤذينا! إنمابقي من أجلك تمام خمسة عشر سنة غير أيام . قال : فكان بعدد أيام خلافته .

وذكر عن ابن أبي ربعيٍّ أنه قال : رأيتُ في منامي كأنَّ رجلاً دخل من باب الرَّسْتَن على عجلة ووجهه إلى الصحراء وقفاه إلى المدينة ، وهو ينشد :

يا عَينُ ويلكِ فاهملي ... بالدمعِ سحًّا واسبلي
دَلَّتْ على قُرْبِ القيا ... مةِ قِتلُةُ المتوكل

وذكِر أن حُبشيَّ بن أبي ربعيَّ مات قبل قَتْل المتوكل بسنتين .

وذكر عن محمد بن سعيد ، قال : قال أبو الوارث قاضي نَصِيبين :

رأيت في النوم آتياً أتاني ، وهويقول :

يا نائمَ العينِ في جُثْمانِ يقظانِ ... ما بالُ عينِكَ لا تبكي بتَهتانِ!
أَما رأَيتَ صُرُوفَ الدهرِ ما فَعَلَتْ ... بالهاشميِّ وبالفتح بن خاقان!
وسوفَ يَتبعُهُمْ قَومٌ لهم غَدَروا ... حتى يصيروا كأمسِ الذاهبِ الفاني

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما جميعاً .

قال أبو جعفر: وقتل ليلة الأربعاء بعد العتمة بساعة لأربع خلوْن من شوال ـ وقيل: بل قتل ليلة الخميس ـ فكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وقتل يوم قتل وهو ـ فيما قيل ابن أربعين سنة وكان ولد بفم الصِّلح في شوال من سنة ست ومائتين[1].

وكان أسمر حسن العينين خفيف العارضين نحيفاً.

* * *

---

(١) هذه أخبار غير صحيحة في جلِّها متناقضة أحياناً ورواة هذه الأخبار التي تحكي قصة مقتله كالآتي: ـ
١ـ ابن الحفصي المغني.
٢ـ بعض من كان في الستارة في النساء (مبهم)
٣ـ زرقان خليفة زرافة على البوابين
٤ـ بنان غلام أحمد بن يحيى.
٥ـ عثعث.
٦ـ علي بن يحيى المنجم.
٧ـ سلمة بن سعيد النصراني.
ونظرة بسيطة إلى هذه الأسماء تبيِّن لك هشاشة هذه الأخبار فكيف نعتمد على المغني والنصراني والمنجم أو امرأة من وراء الستار دون أن نعلم شيئاً من اسمها وآخرون كلهم مجاهيل ـ وكلها أخبار لا تصح ولكن تناقلتها الكتب التي توالت دون تمحيص أو تمييز بين الأخبار الصحيحة والسقيمة وعلق في أذهان الناس أن المتوكل قتل وهو في مجلس شرابه وذلك لا يصح إسناداً ـ وأما متناً فكذلك لا تصح فقد عرف عن المتوكل أنه قرب أهل الديانة والعلم ودافع عن أئمة السنة ورفع عنهم المحنة وأبعد أهل البدعة وكان وقافاً عند كتاب الله وسنة نبيِّه حريصاً على تثبيت دعائم الخلافة وحتى روَايات الطبري السقيمة هذه تناقض بعضها بعضاً فالطبري ذكر في [٩/ ٢٢٣] في نهاية الصفحة أن المتوكل بعد أن صلى بجماهير غفيرة من رعيته يوم الفطر رجع إلى قصره وأخذ حفنة من تراب فوضعها على رأسه فقيل له في ذلك فقال إني رأيت كثرة هذا الجمع ورأيتهم تحت يدي فأحببت أن أتواضع لله عز وجل
ثم ذكر في [٩/ ٢٢٥] عن ابن الحفصي المغني (هكذا لقبه فكيف تكون عدالته) أن المتوكل أخذ في اللهو والشراب) فما هذا التناقض ونكتفي بهذا التعليق لنعود إلى سيرة المتوكل في [٩/ ٢٣٠] و[٩/ ٢٣٤].

ذكر الخبر عن بعض أمور المتوكل وسيرته[١]:

ذُكر عن مروان بن أبي الجَنوب أبي السمط ، أنه قال: أنشدتُ أمير المؤمنين فيه شعراً ، وذكرتُ الرَّافضة فيه ، فعقد لي على البحرين واليمامة ، وخلَع عليَّ أربع خِلَع في دار العامَّة ، وخلع عليَّ المنتصر وأمر لي بثلاثة آلاف دينار ، فنثرت على رأسي ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخيَّ يلقطانها لي ، ولا أمسُّ منها شيئاً؛ فجمعاها ، فانصرفت بها.

قال: والشعر الذي قال فيه:

مُلْكُ الخليفةِ جعفرٍ ... للدين والدنيا سَلامَهْ
لكُمُ تراث محمدٍ ... وبِعَدْلِكُمْ تُنفَى الظلامه
يرجو التُّراثَ بنو البنا ... تِ وما لهم فيها قُلاَمَهْ
والصِّهْرُ ليس بوارثٍ ... والبنتُ لا تَرث الإمامَهْ
ما للذينَ تَنَحَّلوا ... ميراثكمْ إلا الندامَهْ
أَخَذَ الوراثةَ أهلُها ... فَعَلامَ لومُكُمُ علامَهْ!
لَوْ كَانَ حقَّكُمُ لَما ... قامتْ على الناس القيامَهْ
لَيْس التُّراثُ لغيركُمْ ... لاَ والإلهِ ولا كَرَامَهْ
أَصبَحْتُ بين محبِّكُمْ ... والمُبْغضِينَ لَكُمْ علاَمَهْ

ثم نَثَر على رأسي ـ بعد ذلك لشعر قلته في هذا المعنى ـ عشرة آلاف درهم.

وذكر عن مروان بن أبي الجَنوب ، أنه قال: لما استُخلف المتوكل بعثتُ بقصيدة ـ مدحتُ فيها ابن أبي دواد ـ إلى ابن أبي دُواد ، وكان في آخرها بيتان ذكرت فيهما أمر ابن الزيات وهما:

وقيل لِيَ الزَّيات لاقى حِمامَهُ ... فقلت أَتاني الله بالفتح والنصرِ

---

(١) وهو الذي اختاره الحافظ ابن كثير إذ قال: فقتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وأربعين ومائتين بالمتوكلية وهي الماحوزة وصلي عليه يوم الأربعاء ودفن بالجعفرية وله من العمر أربعون سنة وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام [البداية والنهاية ٨/ ٢١٤].

لقد حَفَرَ الزياتُ بالغدر حُفرَةً فأُلقِيَ فيها بالخيانةِ والغدرِ

قال: فلما صارت القصيدة إلى ابن أبي دوَاد ذكرها للمتوكل، وأنشده البيتين فأمره بإحضاره، فقال: هو باليمامة، كان الواثق نفاه لمودَّته لأمير المؤمنين. قال: يُحمَل، قال: عليه دين، قال: كَمْ هو؟ قال: ستة آلاف دينار، قال: يُعطاها، فأعطي وحمُل من اليمامة، فصار إلى سامراء، وامتدح المتوكل بقصيدة يقول فيها:

رَحَلَ الشبابُ وليتَهُ لم يَرحَلِ والشيبُ حل ولَيْتَهُ لم يَحلُلِ

فلما صار إلى هذين البيتين من القصيدة:

كانتْ خلافة جعفر كنبوَّةٍ جاءَتْ بلاَ طلَبٍ ولا بِتَنَحُّلِ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مثل ما وهَبَ النبوَّةَ للنبيِّ المُرْسَلِ

أمر له بخمسين ألف درهم.

وذكر عن أبي يحيى بن مروان بن محمد الشنِّي الكلبيِّ، قال: أخبرني أبو السمط مَرْوَان بن أبي الجَنوب، قال: لمَّا صرتُ إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله مدحت ولاة العهود، وأنشدته:

سقى الله نجداً والسلامُ على نجْدِ ويا حبَّذا نَجْدٌ على النأيِ والبُعْدِ!
نَظَرْتُ إلى نَجْدٍ وبَغدادُ دُونَهَا لعَلِّي أرى نَجْداً وهَيْهاتَ مِنْ نَجْدِ!
ونجدٌ بها قومٌ هواهم زيارتِي وَلاَ شَيءَ أَحْلَى من زيارتهم عِنْدِي

قال: فلمَّا استتممت إنشادها، أمر لي بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً وثلاثة من الظَّهر: فرس وبغلة وحمار، فما برحت حتى قلت في شكره:

تخيَّرَ ربُ الناسِ للناسِ جعفراً فملَّكَهُ أَمرَ العبادِ تَخَسُّرا

قال: فلما صرتُ إلى هذا البيت:

فأمسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عنِّي ولا تَزِدْ فقد خِفت أَنْ أَطغَى وأَنْ أَتَجبَّرَا

قال: لا والله، لا أمسك حتى أعرِّفك بجودي، ولا برحتَ حتى تسأل حاجة؛ قلت: يا أميرَ المؤمنين، الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها باليمامة؛ ذكر ابن المدبر أنها وقْف من المعتصم على ولده، ولا يجوز إقطاعها. قال: فإني أقبِّلكها بدرهم في السنة مائة سنة، قلت: لا يحسن يا أمير المؤمنين أن يؤدِّي

درهم في الديوان ، قال : فقال ابن المدبر : فألف درهم؟ فقلت : نعم ، فأنفذها لي ولعقبي ، ثمَّ قال : ليس هذه حاجة ، هذه قبالة ، قلت : فضياعي التي كانت لي كان الواثق أمر بإقطاعي إياها ، فنفاني ابن الزيات ، وحال بيني وبينها ، فتُنفذها لي . فأمر بإنفاذها بمائة درهم في السنة وهي السُّيُوح .

وذُكر عن أبي حَشيشة أنه كان يقول : كان المأمون يقول : إن الخليفة بعدي في إسمه عين ، فكان يُظَنُّ أنه العباس ابنه فكان المعتصم ، وكان يقول : وبعده هاء ، فيظنُّ أنه هارون ، كان الواثق ؛ وكان يقول : وبعده أصفر الساقين ؛ فكان يظنُ أنه أبو الحائز العباس فكان المتوكل ذلك ، فلقد رأيت إذا جلس على السرير يكشف ساقيه ؛ فكانا أصفرين ؛ كأنما صُبِغا بزعفران .

وذُكر عن يحيى بن أكثم ، أنه قال : حضرتُ المتوكل ، فجرى بيني وبينه ذكر المأمون وكتبه إلى الحسن بن سهل ، فقلت بتفضيله وتقريضه ووصف محاسِنه وعلمه ومعرفته ونباهته قولاً كثيراً لم يقع بموافقة بعض من حضر فقال المتوكل : كيف كان يقول في القرآن؟ قلت : كان يقول : ما مع القرآن حاجة إلى علم فرض ، ولا مع سنة الرسول ﷺ وَحشة إلى فعل أحد ؛ ولا مع البيان والإفهام حجَّة للتعلم ، ولا بعد الجحود للبرهان والحق إلا السيف لظهور الحجة . فقال له المتوكل : لم أَرِدْ منك ما ذهبت إليه من هذا المعنى ، قال له يحيى : القول بالمحاسن في المغيب فريضة على ذي نعمة ، قال : فما كان يقول خلال حديثه ؛ فإن المعتصم بالله يرحمه الله كان يقوله ، وقد أنسيته؟ فقال : كان : اللهم إني أحمَدك على النعم التي لا يحصيها أحدٌ غيرُك ، وأستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها إلا عفوك . قال : فما كان يقول إذا استحسن شيئاً أو بُشِّرَ بشيء ، فقد كان المعتصم بالله أمر عليَّ بن يَزْداد أن يكتبه لنا ، فكتبه فعلمناه ثم أنسيناه؟ قال : كان يقول : إنَّ ذِكْرَ آلاء الله ونشرَها وتعدادَ نِعمَهِ والحديث بها فرض من الله على أهلها ، وطاعة لأمره فيها . وشكرٌ له عليها ؛ فالحمد لله العظيم الآلاء ، السابغ النَّعماء بما هو أهلُه ، ومستوجبه من محامده القاضية حقه ، البالغة شُكرَه ، الموجبة مزيدَه على ما لا يحصيه تعدادُنا ، ولا يحيط به ذكرُنا ، من ترادُفِ مِنَنِه ، وتتابُعِ فضله ، ودوام طَوْله ، حَمْد من يعلم أن ذلك منه ، والشكر له عليه . فقال

المتوكل: صدقت ، هذا هو الكلام بعينه ، وهذا كلُّه حُكْم من ذي حُنْكة وعلم؛ وانقضى المجلس(١).

---

(١) يحيى بن أكثم راوي الخبر هو القاضي المعروف وهو من المحاربين لأهل البدع وقد عمل مستشاراً ناصحاً وأميناً للمأمون يرده إلى سنة رسول الله ﷺ إذا حاد عنها وعمل قاضياً سنين طويلة للعباسيين ولا ندري ما الواسطة بينه وبين الطبري وإذا كان هذا الخبر صحيحاً فهو نموذج لمجلس من مجالس المتوكل والله أعلم ـ
وانظر خلاصتنا التالية في سيرة المتوكل ـ أمير المؤمنين ـ رحمه الله تعالى .

خلاصة القول في سيرة المتوكل: ـ

قال الحافظ ابن كثير وقد كان المتوكل مُحبَّبًا إلى رعيته قائماً بالسنة فيهم وقد شبَّهه بعضهم بالصديق في رَدِّه على أهل الردة حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبد العزيز حين ردَّ مظالم بني أمية ، وهو أظهر السنة بعد البدعة ، وأخمد البدعة بعد انتشارها واشتهارها [البداية ٨/ ٢١٤] قلت وصاحب القول هنا هو القاضي إبراهيم بن محمد التيمي، كما أخرجه عنه الخطيب البغدادي بسنده موصولاً إليه [تأريخ بغداد/ ٧/ ١٧٠] وقد أخرج ابن عساكر عن هشام بن عمار (ثقة) قال سمعت المتوكل يقول: واحسرتا على محمد بن إدريس الشافعي كنت أحبُّ أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده وأتعلم منه ، فإني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول: (يا أيها الناس إن محمد بن إدريس المطلبي قد صار إلى رحمة الله وخلَّف فيكم علماً حسناً فاتبعوه تُهدوا) ثم قال اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة وسهل عليَّ حفظ مذهبه وانفعني بذلك وأخرج عن أحمد بن مروان المالكي قال ثنا أحمد بن علي البصري: قال وَجَّه المتوكل إلى أحمد بن المعدل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم غير أحمد بن المعدل فقال المتوكل لعبيد الله: إن هذا لا يرى بيعتنا فقال له بلى يا أمير المؤمنين ولكن في بصره سوءاً ، فقال أحمد بن المعدل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء ، ولكن نزهتك عن عذاب الله قال النبي ﷺ (من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه [تأريخ الخلفاء / ٣٩٨] [سير/ ١١/ ٥١٩]؟ وأخرج القاضي وكيع (المتوفى ٣٠٦هـ) قال أخبرني السري بن مكرم قال كتب المتوكل إلى أحمد بن حنبل يسأله عن رجلين أحدهما يحيى بن أكثم فكتب إليه: أما فلان فلا ولا كرامة ، وأما يحيى بن أكثم فقد ولي القضاء فما طعن عليه فيه [أخبار القضاة/ ٣٣٨] وهذا يعني أن المتوكل كان مُتَحرياً لاختيار القضاة الأكفاء. وأخرج الخطيب البغدادي بسنده المتصل عن محمد بن شجاع الأحمر: قال: ـ
دخلت على أمير المؤمنين المتوكل وبين يديه نصر بن علي الجهضمي فجعل نصر يحضُّ عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي ﷺ قال [من حرم الرفق حرم الخير]

وقدم في هذه السنة محمد بن عبد الله بن طاهر بغداد منصرفاً من مكة في صفر؛ فشكا ما ناله من الغمِّ بما وقع من الخلاف في يوم النَّحر؛ فأمر المتوكل بإنفاذ خريطة صفراء من الباب إلى أهل الموسم برؤية هلال ذي الحجة، وأن يساربها كما يسار بالخريطة الواردة بسلامة الموسم، وأمر أن يقام على المشعر الحرام وسائر المشاعر الشَّمع مكان الزيت والنَّفط.

وفيها ماتت أمُّ المتوكلِ بالجعفرية لستٍّ خلوْن من شهر ربيع الآخر وصلَّى عليها المنتصر، ودُفِنت عند المسجد الجامع. أ. هـ.

* * *

= ثم أنشأ (أي المتوكل) يقول: ـ

الرفق يمنٌ والأناة سعادة ... فاستأن في رفقٍ تلاق نجاحاً

لا خير في حزم بغير روية ... والشك وهن إن أردت سراحاً

[تأريخ بغداد ٧/ ١٦٦].

وقال الذهبي نقلاً عن خليفة بن خياط (المؤرخ المتقدم الثقة ٢٤٠هـ): استخلف المتوكل فأظهر السنة وعمل بها في مجلسه وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السنة وبسطها ونصر أهلها يعني محنة خلق القرآن [تأريخ الإسلام/ حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ/ ص١٩٦].

فهرس الموضوعات